



المركز الديمقراطي العربي - ألمانيا

التراث الأندلسي الموريسكي في الوطن العربي

إشراف وتنسيق:

د.مبارك شودار

وقائع أعمال المؤتمر الدولي الرابع، فتراضي أيام 18 - 19 شباط - فبراير

2023

المركز الديمقراطي العربي

التراث الأندلسي الموريسكي في الوطن العربي



المركز الديمقراطي العربي ألمانيا - برلين
&
جامعة إب - اليمن
Demokratisches Deutsches Zentrum
für MENA-Studien, Berlin, Deutschland



DEMOCRATIC ARABIC CENTER
Germany: Berlin 10315 Gensinger- Str: 112
<http://democraticac.de>
TEL: 0049-CODE
030-89005468/030-898999419/030-57348845
MOBILTELEFON: 0049174274278717



VR . 3383 - 6775 B



المركز الديمقراطي العربي
للدراستات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arab Center
for Strategic, Political & Economic Studies

كتاب وقائع المؤتمر الدولي العلمي:

التراث الأندلسي المورييسكي في الوطن العربي

Andalusian-Marisk heritage in the Arab world

إشراف وتنسيق:

د. مبارك شودار



المركز الديمقراطي العربي
للدراستات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arab Center
for Strategic, Political & Economic Studies

الناشر

المركز الديمقراطي العربي

للدراستات الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية

ألمانيا/برلين

Democratic Arabic Center

Berlin / Germany

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه

في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

جميع حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, without the prior written permission of the publisher

المركز الديمقراطي العربي

للدراستات الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية ألمانيا/برلين

Tel: 0049- Germany Code

030-54884375

030-91499898

030-86450098

البريد الإلكتروني

book@democraticac.de

المركز الديمقراطي العربي-برلين-ألمانيا



جامعة إب - اليمن



ينظمون المؤتمر الدولي العلمي الموسوم بـ:

التراث الأندلسي الموريسكي في الوطن العربي

Andalusian-Marisk heritage in the Arab world

أيام 18 و19 شباط/ فيفري 2023

إقامة المؤتمر بواسطة تقنية التّحاضر المرئي عبر تطبيق Zoom

ملاحظة: المشاركة مجاناً بدون رسوم

لا يتحمل المركز ورئيس المؤتمر واللجان العلمية والتنظيمية مسؤولية ما ورد في هذا الكتاب من آراء، وهي لا تعبر بالضرورة عن قناعاتهم ويبقى أصحاب المداخلات هم وحدهم من يتحملون كامل المسؤولية القانونية عنها

الرئاسة الشرفية:

أ. عمار شرعان، رئيس المركز العربي الديمقراطي-برلين-ألمانيا

أ.د. طارق أحمد قاسم المنصوب – رئيس جامعة إب – اليمن

أ.د. فؤاد عبد الرحمن حسان – نائب رئيس جامعة إب للدراسات العليا والبحث العلمي – اليمن

رئيس المؤتمر: د. مبارك شودار- استاذ باحث – مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة – الأغواط – الجزائر

رئاسة اللجنة العلمية- : أ.د. علي عبد الكريم بركات استاذ التاريخ المشارك- كلية الآداب- جامعة إب

د. نورالدين بن نعيجة – مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة – الأغواط – الجزائر

هيئة المؤتمر :-

رئيس الهيئة الإستشارية: د. فضل قاسم الحضرمي – جامعة إب – اليمن

مدير المؤتمر : د. فيولا مخزوم – مدير المركز الديمقراطي العربي – لبنان – بيروت

المنسق العام : د. مراد يحيى الجحافي جامعة إب- اليمن

رئيس لجنة المتابعة : د. عاجب محمد فاروق – الجزائر

التنسيق والنشر : د. حنان طرشان – المركز الديمقراطي العربي – ألمانيا – برلين

مدير ادارة النشر : د. ربيعة تمار – مدير إدارة النشر – المركز الديمقراطي العربي – ألمانيا – برلين

رئيس اللجنة التحضيرية : د. أحمد بوهكو – المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا – برلين

رئيس اللجنة التنظيمية: أ. كريم عايش – المدير الإداري – المركز الديمقراطي العربي – ألمانيا – برلين



أعضاء اللجنة العلمية:

د. عبد الله البخيتي عميد المكتبات - جامعة إب - اليمن	أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي- تاريخ حديث ومعاصر- جامعة إب - اليمن	د. نورالدين بن نعيجة - مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة - الأغواط - الجزائر
د. أنوزلا الحسان- أستاذ باحث في التاريخ- مدير مركز عبد الرحمن الركاز للأبحاث والدراسات- المغرب	د. شاهر إسماعيل الشاهر- جامعة صن يات سين الحكومية - الصين	د. سفيان غانم المقرمي - تاريخ اسلامي - جامعة إب- اليمن
أ.د. عبید مصطفی - جامعة المسيلة - الجزائر	د. فضل قاسم الحضرمي - جامعة إب - اليمن	أ.د. عبد القادر صحراوي - جامعة سيدي بلعباس - الجزائر
د. عطية محمد - جامعة الأغواط - الجزائر	د. الطاهر تومي - المركز الجامعي سي الحواس بركة - الجزائر	أ.د. حبيب حسن اللولب - مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية - تونس
أ.د. صالح لميش - جامعة المسيلة - الجزائر	. حمدي سيد محمد محمود - المركز الديمقراطي العربي - القاهرة - مصر	أ.د. علالي محمود - جامعة الأغواط - الجزائر
د. جعيرن معمر - جامعة الأغواط - الجزائر	د. عصام عيروت - السياسة والقانون - فلسطين	د. بن سعيدان محمد - جامعة الأغواط - الجزائر
د. حمزة بركات - مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية - الجزائر	د. كعبوش بومدين - جامعة الأغواط - الجزائر	د. قفاف عبد الرحمان - جامعة الأغواط - الجزائر
د. مراد بن حمودة - جامعة فرحات عباس سطيف - الجزائر	د. خليل كمال - جامعة فرحات عباس سطيف - الجزائر	د. عاجب محمد فاروق - مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط - الجزائر
د. خبيزي محمد - مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة - الأغواط - الجزائر	أ.د. عمر بوضربة - جامعة المسيلة الجزائر	د. قديم الطيب - مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط الجزائر
د. بلغيث عبد القادر - مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة - الأغواط - الجزائر	د. قوادرية النذير - جامعة المسيلة - الجزائر	د. تاحي إسماعيل - جامعة المسيلة - الجزائر
أ.د. علي عبد الكريم بركات - تاريخ اسلامي - جامعة إب- اليمن	د. عامر مريقي - مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة - الأغواط - الجزائر	د. شنيينة حسين - مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة - الأغواط الجزائر
د شوقي الفضلي - تاريخ اسلامي - جامعة إب- اليمن		د عبد السلام الصباري - تاريخ اسلامي - جامعة إب- اليمن
اللجنة التنظيمية		
ط.د عبد الفتاح العبيطري - جامعة إب- اليمن	ط.د علي العزي الشيخ - جامعة إب- اليمن	ط.د محمد عبد الوهاب الشهاري - جامعة إب- اليمن
ط.د خالد حسن الظفري-جامعة إب-اليمن		

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بمبادرة من الأستاذ القدير عمار شرعان مدير المركز الديمقراطي العربي ببرلين ألمانيا وبمشروع بحث كان مجرد فكرة تحمل الأمل والمآلات المستقبلية من جهة، ومن زاوية أخرى تحمل الألام الموجعة التي تعود بذاكرتنا الى قرطبة واشبيلية وسرقسطة وغرناطة ومختلف الحواضر الإسلامية، التي ساهمت بشكل فعال في بناء صرح الحضارة العالمية، بل كانت بمثابة الركيزة الأساسية بما قدمه علماؤها من أمثال ابن رشد والشريف الإدريسي زابن حزم وعباس بن فرناس ابن حيان والأمام القرطبي ومن أمثالهم الكثير، وفي لحظة غفوتنا تداعت هاته الحضارة اللامعة وسقطت حواضرها كتساقط اوراق الاشجار في فصل الخريف، فكانت الخسارة للعالم أجمع وللعرب والمسلمين كانت المأساة أوسع وأفجع، ولكن هذه سنن الله الكونية ولن تجد لسنة الله تبديلا وما يواسيني في ذلك وإياكم قول الشاعر أبو البقاء الرندي حينما قال

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ
فَلَا يُغَرُّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ

وبتشجيع من الأساتذة الدكاترة والزملاء الباحثين تم تنظيم هذا المحفل الدولي الأول الافتراضي بعنوان "التراث الأندلسي الموريسكي في الوطن العربي، وهو في حد ذاته بقاء على المجد العربي الضائع. وقد حضره كوكبة من الدكاترة والباحثين قدر عددهم بحوالي 34 مشاركا من مختلف الأصقاع، وذلك بهدف تناول محاور متعددة في الفترة الممتدة من 18 إلى 19 فبراير 2023 للميلاد عن طريق تقنية التحاضر عن بعد، ككل المؤتمر في الأخير بالنجاح وحقق الهدف المنشود

فالشكر لكل الشكر لكل من ساهم من قريب أو من بعيد في انجاح المؤتمر من إداريين ومنظمين وتقنيين ولأعضاء المركز الديمقراطي العربي ببرلين وأعضاء جامعة إيب باليمن وباحثي المركز الألماني الديمقراطي لدراسات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وأعضاء اللجنة العلمية والتنظيمية ورؤساء الجلسات ومقرريها، فالشكر والعرفان لكم جميعا.

كما أود أن أتقدم بالشكر الجزيل لمعالي الأستاذ عمار شرعان مدير المركز الديمقراطي العربي ببرلين ألمانيا على جهوده المبذولة لعقد هذا المحفل العلمي إنجاحه، والأستاذ كريم عايش على مجهوداته التنظيمية والدكتور نورالدين بن نعيجة مهندس المؤتمر علميا وتنظيميا.

كما لايفوتني أن أنوه بجهود الدكاترة وباحثي جامعة إيب باليمن كل بإسمه وجميل وسمه.

أشكركم من القلب جميعاً على عطائكم ومشاركاتكم البناءة والتي كنت أستمع إليها بكل اهتمام مستفيداً من خبراتكم وعلمكم، وأشكركم على ما شعرت به من رغبتكم الصادقة في الوصول إلى نتائج واستنتاجات لكي تكون ضمن توصيات المؤتمر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

رئيس المؤتمر: الدكتور مبارك شوار

ديباجة المؤتمر:

أنتج الزواج السياسي بين فرديناند ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة سنة 1469م وتوحيد شطري المملكة الإسبانية نتائج وتداعيات كان لها الأثر البالغ على مستقبل الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبالرغم من أن العلاقات السياسية بين الكيانات والإمارات الإسلامية والممالك النصرانية المسيحية اتسمت في كثير من الأحيان بالتوتر والحروب، إلا أن ذلك لم يمنع من هدوء وانخفاض مستوى العدائية بين الطرفين، ومحاولة كل طرف الاستفادة من الطرف الآخر بما يخدم مصالحه في المجال الاقتصادي والثقافي والسياسي والاجتماعي.

واللافت للنظر أنه بعد سقوط غرناطة سنة 1492م بدأت تجليات التصادم الحضاري بين المسلمين والمسيحيين تبرز بوضوح في سلسلة الإجراءات التعسفية، التي هدفت من خلالها السلطة الجديدة في إسبانيا وبمباركة الكنيسة إلى محاولة اجتثاث الأندلسيين الموريسكيين عن هويتهم الحضارية والثقافية، وإرغامهم على التخلي عن مقوماتهم الدينية واللغوية والتاريخية. وقد سنت من أجل ذلك العديد من القوانين وأصدرت الكثير من المراسيم التي تجبر الموريسكيين على ضرورة التحول القصري من دائرة الإسلام إلى المسيحية، أو ترك أرضهم ودورهم والهجرة إلى وجهة أخرى. ومن أجل تنفيذ هذا الإجراء بصرامة استحدثت دواوين للتحقيق عرفت تاريخيا بمحاكم التفتيش مهمتها تعذيب واستنطاق الموريسكيين، والتي كان لها من الوحشية واللاإنسانية ما يقارن بالأساليب الفرنسية في الجزائر خلال مرحلة الاحتلال أو يفوقها..

أمام هاته الظروف كان لزاما على الموريسكيين الهجرة إلى مواطن جديدة تشاركهم نفس الوجهة الحضارية وتتقاسم معهم أسس ومقومات الثقافة الإسلامية، وقد زاد تيار الهجرة حدة نحو البلاد العربية، خاصة بعد فتوى العالم أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي الذي جعل من أمر الهجرة ضرورة حتمية وفرض أكيد على القادرين والمستطيعين وقد شكلت الجزائر وتونس وليبيا ومصر وبلاد الشام وغيرها من البلاد العربية أرض ملاذ للموريسكيين، ووفرت لهم أسباب الاستقرار وتمكنوا من فرض وجودهم كطائفة سكانية متميزة، ساهمت في ترك بصمة واضحة على المجال الثقافي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وإيماننا منا بأهمية التراث الموريسكي في الحياة الثقافية العربية ارتأينا أن ننظم هذا الملتقى الدولي الموسوم ب: التراث الأندلسي الموريسكي في البلاد العربية*

إشكالية المؤتمر:

يعالج الملتقى إشكالية هامة في التاريخ الحديث تتعلق أساسا بموضوع الأندلسيين الموريسكيين ومحاولة البحث في التراث الموريسكي في المجال الثقافي داخل الحيز الجغرافي للوطن العربي، ومنه يمكن أن نتساءل على النحو التالي:

إلى أي مدى ساهم الموريسكيون في إثراء التراث الثقافي العربي؟ وماهي أهم البصمات الثقافية التي تركها الموريسكيون في الثقافة العربية؟

كيف أستطاع هؤلاء أن يكونوا عنصرا فاعلا في المجتمع العربي بما نقلوه من أسلوب للحياة وذوق رفيع للفن والموسيقى والعمارة وغيرها من الأساليب الجديدة على البيئة العربية في ذلك العهد؟

محاورة المؤتمر:

1. السياسة الإسبانية تجاه الموريسكيين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م
2. موقف الدولة العثمانية والعلماء والفقهاء المسلمين من المحنة الموريسكية
3. الإرث التاريخي والثقافي والحضاري للموريسكيين في الوطن العربي
4. اهتمام المؤسسات الثقافية والجامعات العربية ومراكز البحوث بالتاريخ الأندلسي الموريسكي
5. الموريسكيون في الكتابات التاريخية والمخطوطات والوثائق الأرشيفية

أهداف المؤتمر:

- ✓ تسليط الضوء على أهم المواضيع التاريخية الرائدة على المستوى العالمي
- ✓ فضح الممارسات اللاإنسانية وكشف الغطاء عن المعاناة التي تعرضت لها الطائفة الموريسكية
- ✓ إبراز جهود الدولة العثمانية في إنقاذ الموريسكيين والدفاع عن دائرة الإسلام
- ✓ دفع عجلة البحث التاريخي نحو الاهتمام أكثر بحقل الدراسات الموريسكية
- ✓ التعرف على التراث التاريخي والثقافي للموريسكيين في العالم العربي

محاكم التفتيش وإبادة المسلمين في الأندلس

بعد سقوط غرناطة (897هـ/1492م)

Inquisition Courts and the Extermination of Muslims

in Andalusia after the fall of Granada (897 AH / 1492 AD).

الأستاذ الدكتور بلعربي خالد

أستاذ التعليم العالي

جامعة الجيلاي ليايس-سيدي بلعباس-الجزائر-

Prof. BELARBI KHALED

University of sidi-bel-Abess/Algeria

ملخص الدراسة:

إن الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) لم يكن مجرد موجة عابرة طافت بها ثم انحسرت عنها سريعا، بل كانت حركة قوية فعالة استطاعت تكوين دولة امتدت عبر فترات تراوحت بين القوة والضعف نحو ثمانية قرون من الزمن، أدت إلى قيام حضارة زاخرة نهلت أوروبا في العصور الوسطى والتي بقيت إلى يومنا هذا تشهد ما كانت عليه من تقدم وازدهار، إلا أن هذه الأخيرة عرفت بما يسمى بمحنة الأندلس التي استأصلت جذورها التي دامت خيرة من الزمن، حين تعرض الأندلسيون إلى أبشع أنواع الاضطهاد والتعذيب من قتل وحرق وتخريب وفتك للأراضي من طرف القوة النصرانية التي جعلت من التاريخ الأندلسي مجرد ذكرى، فبسقوط الأندلس ارتحل قسم من سكانها إلى مملكة غرناطة وآخرون اختصروا المعاناة فتوجهوا إلى بلاد المغرب و المناطق الإسلامية الأخرى، وقسم آخر بقي هناك متى كتنت تسمح له الظروف بذلك، وتدجنوا في الأحياء التي خصصت لهم في أكثر من مائة مدينة وعاشوا من الدرجة الثالثة في بلاد لم يعرفوا وأجدادهم من قبلهم بلادا غيرها.

واعتبارا من منتصف القرن الخامس عشر، كانت التطورات المحلية تتفاعل لتحديد مستقبل مملكة غرناطة آخر قلاع المسلمين وبعاتلاء الملكة ايزابيلا عرش قشتالة حتى توفرت لها سلطة مكنتها من إثبات وجودها على الساحة الدولية، إلا أن تعصبها كان بلا حدود، وإذا كانت هي الملكة التي أنهت آخر سلطة إسلامية سياسية في شبه الجزيرة الأيبيرية فإنها أيضا كانت مسؤولة عن قيام مؤسسة اضطهاد ديني هي محاكم التفتيش بعد أربع سنوات من تسلمها مقاليد الحكم. وقد عرفت هذه المرحلة من التاريخ اضطهاد المسلمين الأندلسيين الذين ذاقوا هذه المؤسسة الإجرامية كل أنواع الإبادة والاقتلاع والتنكيل والتنصير وفي هذا السياق يندرج موضوع مداخلتنا الموسوم بـ "محاكم التفتيش و إبادة المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة (897هـ/1492م).

الكلمات المفتاحية: محاكم التفتيش-الأندلس- غرناطة- الموريسكيين- التنصير

Abstract:

The Islamic presence in the Iberian Peninsula (Andalusia) was not just a fleeting wave that floated in it and then quickly receded from it, but rather it was a strong and effective movement that was able to form a state that extended through periods that ranged between strength and weakness for about eight centuries. It led to the establishment of a rich civilization that brought Arroya in the Middle Ages, which has remained to this day witnessing its progress and prosperity, except that the latter was known as the so-called plight of Andalusia, which eradicated its roots that lasted from the experience of time, when the Andalusians were subjected to the worst types of persecution and torture from Killing, burning, vandalism, and destruction of lands by the Christian power that made Andalusian history a mere memory. With the fall of Andalusia, some of its inhabitants traveled to the Kingdom of Granada, and others shortened the suffering, so they went to Islamic Maghreb and the other Islamic regions, and another part stayed where it was in those that allow it to do so, and they became domesticated in The neighborhoods that were allocated to them in more than a hundred cities, and they lived in the third class in a country that they and their ancestors before them did not know another country.

Starting from the mid-fifteenth century, local developments were interacting to determine the future of the Kingdom of Granada, the last of the Muslim castles, and the ascension of Queen Isabella to the throne of Castile until she had authority that enabled her to prove her presence on the international scene, but her fanaticism was without limits, and if she was the queen who ended The last Islamic political authority in the Iberian Peninsula, it was also responsible for the establishment of a mighty institution of religious persecution, the Inquisition, four years after it took over the reins of power. In this context, the subject of our intervention falls under the heading "The Inquisition Courts and the Extermination of Muslims in Andalusia after the fall of Granada (897 AH / 1492 AD).

Keywords: Inquisition courts - Andalusia - Granada - Moriscos - Christianization

مقدمة:

لم تكن مصيبة المسلمين في الأندلس تنتهي بزوال سلطانهم السياسي، وسقوط آخر معقل إسلامي بيد سلطات إسبانية النصرانية المتحدة، بل بدأت مصيبة جديدة هناك، حيث تعرض الأندلسيون إلى أبشع أنواع الاضطهاد والتعذيب من قتل وتخريب وفتك للأعراض من طرف القوة النصرانية، وذلك لإفناء الأفراد، وإفناء العقيدة والغاء كل ما يتصل بذلك. وبقي المسلمون يقاومون ما يزيد على القرن دفاعاً عن عقيدتهم متمثلة في وجودهم، في وقت شددت محاكم التفتيش الخناق عليهم، وتقود كل هذا وتنجزه بروح صليبية، تأخذ من تبدو عليه أية صلة بالإسلام، أو يضبط متلبساً يؤدي الشعائر، أو يترسم عادة من العادات أو يحمل شارة من شارته، فكان من جراء ذلك أن أظهر عدد من المسلمين النصرانية، وأبطنوا الإسلام. وأطلق على هؤلاء اسم "الموريسكيون (Los Moriscos) المسلمون الصغار"، بل ارتحل قسم من السكان إلى مملكة غرناطة وآخرون اختصروا المعاناة فتوجهوا إلى بلاد المغرب و المناطق الإسلامية الأخرى، وقسم آخر بقي حيث كان في التي تسمح له بذلك.

واعتباراً من منتصف القرن الخامس عشر، كانت التطورات المحلية تتفاعل لتحديد مستقبل مملكة غرناطة آخر قلاع المسلمين، فقد أمرت الملكة إيزابيلا بإنشاء مؤسسة اضطهاد ديني بعد أربع سنوات من تسلمها مقاليد الحكم عرفت بمحاكم التفتيش التي قامت بطرد ثلاثة ملايين من المسلمين، أما الذين لم يغادروا الأندلس بعد سقوطها، أجبروا على التحول للكاثوليكية. ولقد ضاق المسلمون الأندلسيون خلال هذه المرحلة كل أنواع الإبادة والاقتلاع والتنكيل والتنصير وفي هذا السياق يندرج موضوع بحثنا الموسوم بـ "محاكم التفتيش الإسبانية ومعاناة الأندلسيين 1492 م - 1609 م".

يعتبر هذا الموضوع من المواضيع المهمة في حقل الدراسات التاريخية المتعلقة بالوجود الإسلامي في الأندلس لأنه رغم ما كتب يبقى في حاجة إلى دراسات تاريخية أخرى قد تميظ اللثام عن الكثير من الحقائق التاريخية حول معاناة المسلمين في الأندلس بعد سقوطها و ما انجر عن ذلك من أحداث مأساوية التي بدأت بتأسيس محاكم التفتيش وانتهت بالتطبيق الشامل للتنصير القسري للمسلمين الأندلسيين أو بالتهجير والطرده النهائي.

إن الفضول الذي انتابنا لمعرفة أسباب سقوط غرناطة الذي يعتبر مجرد انتهاء نموذج الحكم الإسلامي في الأندلس وكذا التعمق في معاناة المسلمين الذين فقدوا السيادة والكرامة هناك، ومعرفة الدور الذي لعبته محاكم التفتيش في تنصير المسلمين، هو الذي دفعنا لاختيار هذا الموضوع عن قناعة ومن محض إرادتنا الأمر الذي شجعنا في الخوض في غماره.

ومن هذا المنطلق إكتسى موضوعنا أهمية تاريخية فهو يسלט الضوء على فترة تاريخية مهمة من تاريخ الأندلس الذي يمتد من سقوط آخر قلاع المسلمين في 1492 م إلى إصدار مرسوم الطرد النهائي من الأندلس عام 1609 م، وما نتج عنه من ردود فعل من الدول الإسلامية.

ومن هنا بدر إلى أذهاننا طرح الإشكالية التالية:

ما الهدف من إنشاء محاكم التفتيش الإسبانية وإلى أي مدى استطاعت اقتلاع جذور الحضارة الإسلامية الأندلسية في إسبانيا.

وقد انبثقت من هذه الاشكالية مجموعة من التساؤلات في جملتها.

- ماهي العوامل التي ساهمت في سقوط غرناطة في الأندلس؟
- ماهي الأسباب والظروف التي مهدت لقيام محاكم التفتيش الإسبانية؟
- ماهي الوسائل الوحشية المتبعة في محاكم التفتيش لاضطهاد المسلمين؟
- ماهي الأساليب التي اتبعتها محاكم التفتيش من أجل فرض سياسة التنصير؟
- فيماتجلت ردود فعل المسلمين الأندلسيين اتجاه سياسة التنصير الإسباني؟

أولاً: سقوط غرناطة في الأندلس (دراسة في العوامل السياسية وردود الفعل):

حكمت الأندلس على مدى ثمانية قرون، عدة دول بدأت مع التوسع الكبير في عهد الأمويين، مروراً، إلى عهد ملوك الطوائف. ثم وصولاً إلى عهد المرابطين الذين أحرروا سقوط الأندلس أربعة قرون حتى زالت دولتهم، ثم خَلَفَهُم الموحِّدون الذين حكموا بلاد المغرب، وتُنسب إليهم أسباب التصدُّع الأندلسي، فسقطت في عهدهم قرطبة، أهم مدن الأندلس، وانفردت من بعدها عقد المدن والثغور، وصولاً إلى غرناطة التي تأسست بعد انهيار دولة الموحدين، لكنها سقطت نهائياً إلى غير رجعة في 2 يناير من سنة 1492.

كان سقوط غرناطة هو آخر حلقات صراع المسلمين بالأندلس، وبه طويت صفحاتها من التاريخ الإسلامي، وقد ساهمت عوامل عدة في سقوط غرناطة و على الرغم من تعدد العوامل التي ساهمت في وضع نقطة النهاية للوجود الإسلامي في غرناطة الأندلسية ، فإن العامل السياسي كان عاملاً مؤثراً في هذا المصير، فمع اتحاد مملكتي قشتالة واراغون سنة 884هـ/1479م ، بالزواج السياسي الذي تم بين الملكة "إزابيلا" و الملك "فرناندو الخامس"، جعلاً من بين أهدافهما القضاء على الوجود العربي الإسلامي في غرناطة، عن طريق إخراج العرب والاستيلاء على أراضيهم و ضربهم في اخر معقل من معاقلهم (محمد رزوق، 1998، ص 52)، فكان لهما ذلك، عندما هاجمت جيوش فرناندو و غرناطة و استولت على الناحية الجنوبية منها ، و أمعنوا في أهلها قتلاً و كان ذلك في محرم سنة 887هـ/1482م ، ثم بعد ذلك لجأ فرناندو إلى سياسة الحرب الإقتصادية على أهل غرناطة و إجبارهم على الإستسلام، و قتلهم جوعاً فحاصر المدينة (السلواي، 1954، ص ص 103، 104)، و بعد سبعة أشهر من الحصار خرج رؤساء من أجناد المسلمين من غرناطة وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة، ووقع الملك أبو عبد الله محمد اخر ملوك غرناطة معاهدة التسليم في 2 يناير من سنة 879هـ-1492م.

وقد اشتملت معاهدة التسليم على شروط بلغت سبعة وستين حسب المقرري (المقري، ج1، 1942، ص 66) نصت على تسريح الجيش، ومصادرة السلاح، مع الإبقاء على المساجد والأوقاف كما هي دون تدخل النصارى في شؤون المسلمين، وإقامة الناس في أماكنهم ودورهم، والحفاظ على أرواح وأموال المسلمين. وعدم إكراه المسلمين على التنصير وغيرها من الشروط، ولم ينعم المسلمون في الأندلس بعد معاهدة التسليم سوى عدة سنوات ممانعت عليه الإتفاقية، حيث ما لبث أن تغير كل شيء في أقل من عشر سنوات بضغط من البابوية ورجال الدين، ولعدم وجود قوة إسلامية تحافظ على حقوق المسلمين لم تنفذ بنود المعاهدة حيث كانت حبرا على ورق، فشكلت محاكم التفتيش وأحرق المسلمون ضمن هذه المحاكم وحولت المساجد إلى كنائس وذاق المسلمون شتى أنواع التعذيب والحرمان والعنصرية فاقت كل التصورات (شامخ زكرياء علاونة، 2019، ص37) فكانت نقض هذه المعاهدة شاهد على خيانة الملك الكاثوليكيان لها.

كما أن من بين الأسباب السياسية التي كان لها اثر كبير في سقوط غرناطة، صراع على السلطة الذي دار بين الزغل وابن أخيه أبو عبد الله الصغير، هذا ما أدى إلى انقسام المملكة، وتنافس زوجات الأمراء على حيازة العرش لأبنائهن من ذلك عائشة الحرة مع ثريا المسيحية، وانحياز السلطان محمد بن أبي الحسن علي إلى هذه الأخيرة، مما تسبب في اعلان أبو عبد الله محمد الثورة على أبيه في جنوب شرق الأندلس، وقع على إثرها أبو عبد الله محمد أسيرا في أيدي النصارى الإسبان بعد قيامه بغارات على أراضيهم سنة 888هـ-1483م، ثم أطلق سراحه فيما بعد ليواصل حرب أبيه (أحمد مختار العبادي، 1993، ص349). وفي سنة 890هـ-1485م، مات السلطان محمد بن أبي الحسن علي فخلى الجو لولده أبي عبد الله محمد، ليقوم عمه محمد بن أبي عبد الله بن سعيد الزغل للمطالبة بعرش أخيه، استغل الإسبان هذا الجو المتوتر بين العم وابن أخيه واستولوا على عدة حصون ومدن مثل رندة، ولوشة، ومالقة، وذلك بين سنتي 890هـ-892هـ-1485-1487م استعمل فيها النصارى الإسبان أسلحة فتاكة لم يستطع الغرناطيون مقاومتها. وقد كان هذا السبب كذلك من بين الأسباب التي أدت إلى سقوط مملكة غرناطة (عبد الواحد طه ذنون وآخرون، 2004، ص407).

وكان لضعف دويلات المغرب الإسلامي في هذه الفترة دوره في سقوط غرناطة، خاصة دولة بني مرين التي ظلت الأمل الوحيد والأول في نجدة بني نصر في الأندلس، فقد كان للصراع السياسي والعسكري بين هذه الدويلات نتائج الوخيمة على سقوط آخر ماتبقى من معالم الحضارة العربية في الأندلس، فعوض أن توجه هذه الدول قوتها لنجدة مملكة غرناطة والمسلمين هناك، كان العكس حيث تناحرت فيما بينها وهو ما أضعفها وأضعف غرناطة التي كانت تحتاج لمساعدتهم (مصطفى شاكر، 1990، ص45).

أمام هذا الوضع لم يبق مسلمي غرناطة مكتوفي الأيدي بل فكروا للقيام بالعمل المسلح للحفاظ على دينهم وحقوقهم، وهو ما ترجم إلى انتفاضات وثورات أبرزها إنتفاضة حي البيازين الي وقعت سنة (904هـ-1499م) كنتيجة لمحاولة فرض التنصير الإجباري على مسلمي غرناطة من طرف الكاردينال سيثينروس، ثم انتفاضة البشراة (1499-1501 م)، وانتفاضة غرناطة 1568 م، إضافة إلى الإنتفاضات المحلية التي استمرت إلى غاية الطرد النهائي سنة 1609. (جمال يحيى، 2004، ص ص157).

ونتيجة لسياسات الاضطهاد هذه التي مارستها السلطات الاسبانية ضد الموريسكيين قامت ثورة البشراث الثانية (976هـ-1568م)، واستمرت لأكثر من سنتين، وكانت بمثابة المقاومة العسكرية الأخيرة لمسلمي الأندلس في وجه السياسات الاسبانية القمعية، إلا إنها لم تكلل بالنجاح، وترتب عليها صدور مرسوم سنة (978هـ/1570م) الذي قضى بترحيل كثير من موريسكي عن مملكة غرناطة وتوزيعهم على أنحاء مملكة قشتالة، و مصادرة أملاكهم وعقاراتهم. وهكذا عاش الموريسكيون في المناطق التي فقدوها مضطرين للتظاهر بالنصرانية ولكنهم كتموا إيمانهم، وأقاموا شعائرتهم الإسلامية بصورة سرية واستخدموا اللغة الالخمياوية (Aljamiado) لغة اسبانية مكتوبة بحروف عربي بعد أن منعوا من استعمال اللغة العربية، واستخدموا تلك اللغة في كتابة كل ما أرادوا حفظه؛ من تعاليم الإسلام، و سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والمدائح النبوية وقصص الأنبياء، وبعض كتب الفقه والحديث والتفسير. (اسحاق عبيد، 1978 ص39)

ثانيا: الأسباب والظروف التي مهدت لقيام محاكم التفتيش الاسبانية:

لم يحل منتصف القرن الثالث عشر حتى كانت أقاليم الأندلس الشرقية و الوسطى في قبضة إسبانيا النصرانية و بحلول القرن الرابع عشر، كانت حدود إسبانيا المسلمة قد انحسرت في مملكة غرناطة التي لجأ إليها العرب و اليهود فرارا من سياسة التنكيل التي مارسها المسيحيون، ولهذا أصبحت المملكة الأمل الأخير لهؤلاء السكان لممارسة شعائر دينهم. (عبد الواحد طه ذنون واخرون، 2004، ص8).

و في القرن الخامس عشر الميلادي، تسرب الضعف إلى القوى المسيحية لاسيما بعد ضمور العامل الذي كان يوحدتها و هو عامل حروب الإسترداد، فقد ضعفت قشتالة و اراغون كنتيجة لقوة الملكية التي كانت مرتبطة بالإمميزات التي كان يتمتع بها النبلاء، و بعد اعتلاء الملكة ايزابيلا عرش قشتالة سنة 1474م، اتبعت سياسة مركزية شعارها "عرش واحد و دين واحد"، (بشرى محمود الزوبغي، ب، ت، ص43) ومن أجل القضاء على الإضطرابات في قشتالة اعتمدت على منظمة "الإخوة المقدسة" (Hermandad) مهمتها تنفيذ الأوامر الملكية و القبض على المجرمين و المشاغبين في المناطق الواقعة تحت سيطرة الملكة، وقد أثبتت هذه المنظمة دورها في كبح جماح النبلاء الذين كانوا سببا في قيام الحرب الأهلية في قشتالة. (VH A، 1970، P61).

وبانتهاء الحرب في قشتالة سنة 1477م، واعتلاء زوجها فرديناند عرش أراغون سنة 1479، بدأت سياسة جديدة من الملكين الطموحين، توجت باتحاد المملكتين تحت تاج واحد، كان الهدف لفرديناند و ايزابيلا تشكيل قوة عسكرية تحت السيطرة المباشرة للتاج، وتحقيق الوحدة القومية و السياسية في البلد، في ظل اختلاف سكان اسبانيا من قشتاليين و كتالونيين، وأندلسيين، بل اختلافات في العرق و الدين، وقد ظل العرب و اليهود يشكلون خطرا على المملكة الموحدة في - نظر الملكيين- إلا أن قوة مملكة غرناطة جعلتهما يترئثان بعض الوقت لاتخاذ الإجراءات اللازمة ضدتهما. (بشرى محمود الزوبغي، ب، ت، ص46)

كان للكنيسة دور كبير في تأجيج الكراهية تجاه المسلمين و اليهود، فقد تعرض اليهود لمجازر عديدة في طليطلة و بلنسية و اشبيلية، و كان لمجازر 1391م أثر في اصدار مرسوم 1412، القاضي بأن يخير فيه اليهود بين اعتناق المسيحية و بين الموت، ونتيجة أجبر اليهود على اعتناق المسيحية تخلصا من الموت، و ظلوا يمارسونها سرا، فكان اعتناقهم لها نوعا من التقية الدينية، (Roth، 1964، P40)، و ظل هؤلاء اليهود يهودا في كل شيء و مسيحيين بالإسم،

وكانوا يسمون ب"المارانوس" (Marranos) ، أي الخنازير، (بشرى محمود الزوبغي، ب، ت، ص49) ، وظل الإسبان يكرهون اليهود ، فلم يتمكنوا من كبح مشاعرهم وهم يشاهدون اليهودي يفرض نفسه في المراكز العليا في الدولة متمتعين بامتيازات لاحق لهم فيها من وجهة نظرهم، فظلوا يرونهم منافسين لهم في أرضهم و يحسدونهم على الثراء الذين يعيشون فيه ، و تحول كره الإسبان لليهود إلى واقع ملموس، لذلك اقترح رهبان قشتالة على الملكين فرديناند و ايزابيلا إنشاء محاكم التفتيش لمعاقبة هؤلاء اليهود الذين ظلوا يخفون يهوديتهم(عبد العزيز محمد البشتاوي، 1977، ص574).

غير أن السبب المباشر الذي دفع الملكين لإنشاء محاكم التفتيش يتمثل أساسا في حادثة ليلة الأربعاء أول أيام (الأسبوع المقدس) وهو العيد الذي يسبق عيد الفصح» ، ففي تلك الليلة كشف أمر قيام مجموعة كبيرة من اليهود في قشتالة باحتفال بهيج فيما بينهم، وفسر ذلك الاحتفال بأنه بينة على كفرهم بالدين المسيحي، فالكفار تجمعوا ابتهاجا بذكرى ألام السيد المسيح عليه السلام وما أن وصل الخبر إلى مسامع" الملكين " حتى أوعزوا إلى سفراء الاسبان لدى البابا للحصول على مرسوم بابوي يخول ملك اسبانيا إنشاء محكمة تفتيش في قشتالة مستقلة عن روما. (بشرى محمود الزوبغي، ب، ت، ص50).

وبالفعل تم إصدار مرسوم بابوي خول للملكين إنشاء محكمة تفتيش وذلك في الفاتح من نوفمبر 1478 م، حيث تولى "توركيمادا" منصب المفتش العام. أما الهدف من تلك المحاكم في المقام الأول ضمان العقيدة من أولئك الذين تحولوا من اليهودية والإسلام. وقد كشف تنظيم إيمان للمتنصرين حديثا بعد المراسيم الملكية الصادرة في عام 1492م و1502م طالبة من اليهود والمسلمين إما تحويل دينهم أو ترك إسبانيا ثم تشكيل دولة موحدة و إمبراطورية و اسعة و التي بدأت بغزو غرناطة و احتلالها سنة 1492م.

ثالثا: الوسائل الوحشية المتبعة في محاكم التفتيش لاضطهاد المسلمين:

انتهجت محاكم التفتيش الإسبانية أساليب وحشية إجرامية عنيفة في حق آلاف الأبرياء الذين عانوا من ويلات التعذيب، ويتحدث هذا المبحث عن نظام عمل هذه المحاكم الإجرامية ، وإن كان كل أعضاء هذا الديوان من قاعدة الهرم إلى أعلاه مجرمين بامتياز، وتفننوا في كل أساليب التعذيب التي لم يشهد لها التاريخ مثيل، فإنهم يقعون مجرمين ووصمة عار في جبين إسبانيا، وسنتطرق في هذا المبحث أيضا إلى سجونها المظلمة وأساليب التعذيب وكيف كان يعاني المسلم أو اليهودي من وحشية هذه المحكمة.

تتحول القضايا التي تطرح إلى محكمة التفتيش إلى المجلس الأعلى لمحاكم التحقيق، ويتألف المجلس من ستة أو سبعة أشخاص يعينهم الملك أو الإمبراطور كلهم باستثناء المحقق العام الذي يعينه البابا وفي معظم الحالات كان الحكم يبقى في نطاق محاكم التحقيق فلا يحق للمحكوم عليه الاستئناف، ولا تمتلك المحاكم المدنية حق الاعتراض.

كان المفتش العام يحتل قمة الهرم الإداري وأجهزة محاكم التفتيش، وهو على اتصال مباشر بالملك، يشرع القوانين والارشادات القضائية، وفي عهد الملكين الكاثوليكين تبوأ هذا المنصب ثلاثة أشهر المفتشين في تاريخ المحكمة هم "، توماس توريكمامادا، دياغوديزا، و فرانسيسكو خمينيث، ويعاونه في ذلك مجموعة من المختصين هم: نائب المفتش، والمسجل القانوني، والمستشار القانوني، والحليف والمخلفون(بشرى محمود الزوبغي، ب، ت، ص 67.68). ويتم إختياره بالتفويض من روما ومهمته « نوتاري » ويعرف المسجل الشرعي باسم استدعاء المتهمين للمثول أمام المحكمة أما الحليف

فهو رجل دين، يختاره المفتش العام ليعاونه في حيثيات التفتيش جميعا، والمحلفون فهم نفر مختار من رجال الدين والعلمانيين، للاستفادة بأرائهم ولاستكمال ما قد ينقص المحكمة من معلومات (اسحاق عبيد، 1978، ص43)، وكان نظام عمل محاكم التفتيش تقتضي الاتقان والسرعة، ولتسهيل خطوات القيام بالتحقيق، خصص قسم خاص في محاكم التحقيق لمن يريد الشكوى، حيث تتم العادة أن يتقدم شخص بشكوى ضد شخص آخر لتبدأ المرحلة الأولى للتحقيق، فإذا توفرت شهادة شخص آخر عين لهذه الشكوى محقق أو أكثر لمتابعتها (عبد العزيز محمد الشنتاوي، 1977، ص217). ويقتضي هذا يجلب المتهم للتحقيق، وفي بعض الحالات كان هذا ممكنا خلال النهار، لكن حالات أخرى إقتضت المداهمة تحت جناح الظلام وكانوا يطرقون باب المتهم أو المتهمة ويطلبون منه مرافقتهم، وربما امتنع المتهمون عن فتح الباب، وهنا طور عمال المحكمة آلة تشبه الإجاصة يمكن توسيعها أو تضيقها بواسطة مفتاح خاص، وهذا إذا حاول المتهم الصراخ أو طلب النجدة، فما أن يفتح فمه حتى يكون العمال قد دسوا الآلة في فمه (عبد العزيز محمد الشناوي، 1977، ص217).

وكانت هناك سجون تحت الأرض على عمق يشبه عمق الآبار وكانت رطبة فذرة فاسدة الهواء كالتقبور، وكانت الغرف صغيرة، حيث يحشرون فيه أكثر من أربعة أشخاص، وقد وصف أحد المؤرخين هذه السجون أنه من المستحيل أن يقدر الفكر على تصور حقيقة تلك السجون الضيقة المظلمة الرطبة التي كان يقضي فيها أولئك التعساء شهورا بل وسنين، وقد حرّموا الهواء النقي والنور والحركة. (عادل سعيد البشتاوي، 1971، ص218).

وكانت السجون تتألف من عدة غرف صغيرة يوصل إليها بممر ضيق ويصل النور إليها من كوة صغيرة في سقف كل غرفة، وقد أحكم سدة الكوة بثلاثة أدوار غليظة الحديد عليها، وقد كانت الغرف تطل بالشحم لمنع السجين من تسلق الجدران للهرب، وقد كان سرير السجين قطعة مستطيلة من الخشب، وفراشه قطعتين من الحشيش، ووسادته قطعة مربعة من الحجر، وخصص لكل زنزانة اثناء اناء من الفخار، أحدهما لطعامه وشرايه والأخر لفضلاته، (بشرى محمود الزوبغي، ب، ت، ص59). وقد كان السجين يجبر على ارتداء قطعة من القماش الخشن مرسوم عليها علامة الصليب باللون الأحمر، وزيادة في التعذيب النفسي نضاء الزنزانة بمصباح زيتي أو شمعة لتوحي السجين بأنه أصبح في عداد الموتى (بشرى محمود الزوبغي، ب، ت، ص60). ومهما يكن النهار رائعا والشمس طالعة مشرقة، فإن الزائر لا يبصر شيئا في تلك الممرات والغرف لشدة ظلمة المكان، بل يجب أن يصطحب نورا كشافا ليضيء له الطريق. ومع أن تلك السجون كانت مملوءة بالرطوبة الدائمة، فقد كان الماء يصب فيها باستمرار كي لا تشرب الأرض الدماء السائلة من أبدان المعذبين وتبقى مشبعة بها، ذلك مثال على أبنية التعذيب التي كانت تدعى دور الديوان المقدس، ويستولي الرعب والخوف على كل من يمر أمامها لمجرد تصوره أنه سيدخلها يوما ما. (العيدروس محمد حسن، 2011، ص187).

لقد إندفعت اسبانيا في محاولة لتصفية المسلمين فإرضة أقصى الإجراءات عليهم وتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين، وقد اعترف ملوك اسبانيا خلال القرن السادس عشر بجمية الإستمرار في تطبيق هذا القانون وبذلك خيرت الأقلية الإسلامية الأندلسية التي عرفت شتى ظروف التتبع والملاحقة والتعذيب عن طريق ديوان التحقيق بين التنصير أو الرق مدى الحياة (العيدروس محمد حسن، 2011، ص190). وهذا ما سناره في الفصل الثالث الذي سيتناول هذه المعاناة. ولقد كان التعذيب حقيقة مرة، لكن أكثر حقيقة مقلقة في قضية التعذيب ليست في وجود التعذيب بحد ذاته،

لكن في مسألة كون الناس أبدعوا بحس منحرف مصحوب باللذة في خلق أجهزة مصممة لتوليد الألم، ولقد تعددت أساليب التعذيب منها :

-التعذيب بالماء حيث يوثق السجين على سلم مائل، بحيث يصبح ال أرس من مستوى الرجلين، ويرغم على ترك فمه مفتوحا بوضع قطعة قماش عليه، ثم يرغم على تجرع الماء، وكانت تستعمل لهذا الغرض جرة تستوعب أكثر من لتر خلال حصة واحدة(عبد الجليل التميمي، 1989، ص 27).

و كذلك التعذيب بواسطة تمزيق الأعضاء كأن يعلق الرجل أو المرأة إلى السقف وتربط كل يد وكل رجل إلى حبل مثبت في بكرة في الزوايا الأربع للغرفة، وتوضع أثقال في أطراف تلك الحبال كل ثقل منها مائة كيلو غرام، فتجذب تلك الأثقال أطرافه ويبقى المسكين كأنه نائم وهو معلق في الفضاء وتتمزق أطرافه على هذه الكيفية إن لم يعترف لهم بكل شيء وهم يسألونه أثناء إجراء العملية، وكلما أصر على السكوت وعدم الإجابة، زادوا في وضع أثقال جديدة ويبقى كذلك حتى يموت (مظهر علي، 1947، ص 97).

-التعذيب عن طريق المدفعة: التي كانت بمثابة لغرض تجنب إسالة الدم، ويبدأ استخدام هذه الآلة بعقد بين المتهم وراء ظهره، وربطهما بحبل من السقف، وما على المحقق سوى شد الحبل فتشد اليدان المربوطتان حتى يخلع كتف المتهم، وأحيانا كان المحققون يضيفون أثقالا متنوعة إلى قدميه قبل رفعه وربما أغوي عليه من الألم.(توفيق الطويل، 1948 ص 77) ولقد تم العثور في غرق السجن على آلات رهيبة التعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، حيث كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر وال أرسواليدين تدريجيا، حتى يهرس الجسم كله ويخرج من الجانب الآخر كتلة العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء المساكين، كما عثروا على آلات كالكلابيب تغرز في لسان المعذب ثم تشد ليخرج اللسان معها ليقتص قطعة قطعة(راغب السرحاني، 2011 ص 711).

رابعا: الأساليب التي اتبعتها محاكم التفتيش من أجل فرض سياسة التنصير على المسلمين:

سقطت غرناطة آخر قلاع المسلمين في اسبانيا سنة 897 هـ / 1492 م، وكان ذلك نذير بسقوط صرح الأمة الأندلسية الديني والاجتماعي وتبدد تراثها الفكري والأدبي، وكانت مأساة المسلمين هناك من أفضع مآسي التاريخ، حيث شهدت تلك الفترة أعمالا بربرية وحشية ارتكبتها محاكم التفتيش لتطهير اسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة تراثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمن.

1- الإجماع على التنصير وإحراق الكتب العربية.

على اثر تسليم غرناطة، لم يحاول الملكان تحويل المسلمين عن دينهم بالقوة، كانوا يأملون أن ينتهي بهم المطاف إلى المسيحية، لكنهم لم يكونوا يعترمون إجبارهم على ذلك (أحمد محمد عطيات، 2012، ص 159)، غير أن سياسة التسامح التي انتهجها الملكين بدأت تضعف حيث عجزت على تنفيذ الشروط المتفق عليها في معاهدة التسليم(تشارلس لي هنري ،، 1988 ص 60) ففي سنة 1499 م، فكلف الملكان الكاردينال خمينيث بتسريع عملية التنصير، فشعر المسلمون بأن العهد الذي منح لهم، قد انقضى، ومن ثم ثاروا وهو ما أعطى للعاهلين الذريعة لإرغام جميع مسلمي مملكة قشتالة على

التنصير. ففي 18 ديسمبر عام 1499م، أرغم ثلاثة آلاف من المسلمين على اعتناق المسيحية، وحول جامع البيازين في غرناطة إلى كنيسة سميت بكنيسة سان سلفادور.

ولكن الشعور الموريسكي يرفض وبشدة مثل هذا الاحتواء المكره الذي كان في فحواه الأصلي بمثابة الابتلاع والإبادة، وهذا ما جعل الأقليات المضطهدة تعيش في مهات متاهات جعلت الأسقف "فرنشيسكا ينعتها وهم أمام هذه الإختيارات الصعبة بمقولة بها أكثر من مدلول صريح... "لقد بلغ المساكين درجة من الحيرة جعلتهم لا يعرفون أياكونون مسلمين أم مسيحيين". (عبد الله حمادي، 1989 ص 32).

ولما رأى المسلمون في ذلك أكثر ما يمكن احتموا بالجبال، وأصروا على الثورة فجهز الملك جيوشه عليهم، فما لبثوا أن سلموا وأرغموا على اعتناق المسيحية إرغاماً، كما دفعوا مبالغ طائلة فدية لأنفسهم من الرق. (محمد علي قطب، بدون تاريخ ص 56.55).

وقد وصف المقرئ حالهم حيث قال في كتابه "نوح الطيب...": "ثم أن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن حال لحملهم المسلمين على التنصير سنة أربع وتسعمائة، بعد أمور أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر، ففعلوا ذلك ونكلهم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم، إن جدك كان نصراني فأسلم ترجع نصرانيا، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلهم، وكان هذا السبب التنصير" (المقرئ، 1968 ص 97) كذلك وصف حالهم صاحب "أخبار العصر" حيث يقول...: "ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصير وأكرههم عليه، وذلك في سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينهم كرها، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذلك الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل نارا، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيألبها من فجعية ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها". (مؤلف مجهول، 2002 ص 49).

بالإضافة إلى ذلك تم منع حمل السلاح على المسلمين بترخيص أو بدون ترخيص كما تم التخلص من الملابس العربية ومنع الحجاب، ومن ترتديه تعاقب بالسجن والجلد وكذا ولها، كما حولت المساجد إلى كنائس وهدمت الحمامات، وكذلك من يضبط مرتديا ملابس نظيفة يوم الجمعة يعاقب أو من يبدي أي اهتمام بهذا اليوم يعاقب، وقد وصف الكاتب الأمريكي "وليم بريسكوت" هذا العمل بقوله: "إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجي جاهل، إنما حبر مثقف، وقد وقع لا في ظلام القرون الوسطى، ولكن في فجر القرن السادس عشر وفي قلب أمة مستنيرة تدين إلى أعظم حد بتقديمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها". (علي مظهر، بدون تاريخ، ص 218).

كما أصدرت الملكة أمرها الملكي في جوان 1511 م، تلزم فيه جميع السكان الذين تنصروا حديثا سواء في غرناطة

أو غيرها، ومن نواحي مملكة غرناطة أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم سواء في الدين والشريعة أو كتب الطب والفلسفة والعلوم والتاريخ، وذلك في خمسين يوما من تاريخ هذا اليوم، لكي يفحصها القضاة وتؤخذ منها كتب الدين والسنة لتصادر ويرخص القضاة بعدها باجارة غيرها(بسام أخطية، 2000، ص 18).، وكان الكاردينال خمينيث واعوانه يقولون أنه لكي تنجح مهمتهم في تحويل المسلمين إلى النصرانية، يجب القضاء على اللغة العربية، وقطع الصلة بين العرب وبين ماضيهم، (محمد حسن العيدروس، 2011، ص 72).

وكان يرى أن العرب ماداموا محافظين على تقاليدهم وعاداتهم، فإنه من الصعب نجاح هذه المهمة، لذلك أمر بجمع الكتب العربية جميعها في ساحة باب الرملة في غرناطة، وأضرم فيها النار، وتختلف الروايات، حول عدد الكتب التي أحرقت، فيقدر بعضهم ب 5000 كتاب، ويقدر الآخرون ب 130000 التي أحرقت، ويقدرها بعض المهتمين بالدراسات العربية، بثمانين ألف، ولقد علق أحد المؤلفين على حادث إحراق الكتب بقوله: "وهكذا نرى أن الاخلاق قد خسرت كثيرا بانتصار الجهالة". (محمد حسن العيدروس، 2011، ص 73)

ولقد نتج عن هذه الأحداث تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة كبرى، وتحويل مدرسة إلى كنيسة المخلص، وفي مدينة غرناطة وضواحيها نصر قسرا أكثر من خمسين ألف شخص، كما أجب مسلموا الأندلس على نبذ ملابسهم العربية الزاهية، ولبس السراويل والقبعات وعلى ترك لغتهم وتقاليدهم وأسمائهم العربية وحملوا على اعتناق الديانة المسيحية، واستعمال اللغة والتقاليد والأسماء الإسبانية. (حاتمة، 1989، ص 86)

ورغم كل هذا إلا أن التنصير لم يفدهم شيئا، فقد كانوا موضع الريب وموطن الشكوك دائما، وكانت إسبانيا تخشى من مسلمي غرناطة وهذا لقرتهم من إفريقية.

2- التعذيب ومصادرة الممتلكات.

كان التعذيب ممارسة يومية في قاموس محاكم التفتيش، كانت قاعة التعذيب مظلمة رطبة، جدرانها سوداء وقد ثبتت فيها مسامير ناتئة فتصدتت، يغلق عليها بباب من الحديد السميك وفي أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات في الأرض، إلى جانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقود على رصاص ودواليب وسحابات ذات مسامير صادئة حادة لتمزيق الأجساد، وعضاضات حديدية، وقد كانت على عمق يشبه عمق الآبار، وكانت قدرة فاسدة الهواء كالقبور، وقد كان من المستحيل أن يقدر الفكر على تصور حقيقة تلك السجون المظلمة التي كان يقضي فيها أولئك التعساء شهورا بل وسنين وقد حرموا الهواء النقي والنور والحركة. (علي مظهر، بدون تاريخ، ص 115).

وقد قامت بها محاكم التفتيش ليس في ظلام العصور الوسطى بل مع بداية عصر النهضة الأوروبية لا باسم التصفية العرقية بل تحت غطاء الحرب المقدسة كما تزعم، ولقد بلغت حدة همجيتها ووحشيتها، لا نظير لها، إلا في جرائم الاستعمار الأوروبي الحديث في إفريقيا وآسيا، وقد وصف ليورانتى هذا المشهد حيث قال "...لست أقف لأصف ضروب التعذيب التي كان يوقعها ديوان التحقيق فقد رواها الكثير من المؤرخين لكن أصرح أن أحدا منهم، لا يمكن أن يتمهم بالمبالغة فيما روي، ولم أرى في المحققين إلا رجالا بلغ جمودهم حد الوحشية..." (جمال يحيى، 2004، ص 72) فقد خالفت محاكم التفتيش الإسبانية كل الأعراف والقوانين الدولية القديمة منها والحديثة، فإذا كانت القاعدة القانونية العالمية تقول: "إن المتهم بريء حتى تثبت إدانته" فإن محاكم التفتيش طبقت العكس " فكل متهم مذنب حتى تثبت

براءته" (جمال يحيى، 2004، ص 74) ، هذا بالإضافة أنه صدر قانون يحرم على المورسكيين بيع الحرير والذهب والفضة ،والاحجار الكريمة، ولا يجوز بيع الأراضي والأماكن والتصرف فيها بأي شكل من الأشكال، مع دفع الضرائب المضاعفة، ومصادرة الاملاك، وقد كان المسلم يساق إلى محاكم التفتيش،، يسلسل من يديه ورجليه، ويرمى في مغارة عفنة مظلمة مع الهوام و الحشرات يقاسي الاهوال شهورا، والخوف والجوع والبرد، تصب عليه ألوان من التعذيب الجسدي والنفسي إلى أن يبين مصيره، وغالبا ما يكون الموت حرقا.(عبد الكريم أحمد المشهداني، بدون تاريخ، ص 54) أما في عهد فليبي الثاني، فقد حلت القضية الدينية لديه محل الصدارة فقاوم بشدة كل من لا يدين بالكاثوليكية وكان يهدف من وراء ذلك إلى الوحدة الدينية حسب التعاليم الكاثوليكية، وفيما يتعلق بمسلي الأندلس فقد اتبع سياسة هدفها تنصيرهم أو تهجيرهم قسرا، واتخذ بشأنهم سلسلة من الإجراءات التعسفية منها:

-أصدر فرمانا يحظر على المورسكيين إمتلاك الرقيق والخدم السود حتى لا يدينوا بالإسلام، كما يحظر عليهم إمتلاك الأسلحة النارية.

-في الرابع عشر من ماي عام 1563 م أصدر مرسوما ملكيا يفرض على المورسكيين تسليم أسلحتهم في مدة أقصاها خمسون يوما من تاريخه، ومن يخالف يحكم عليه بالأعمال الشاقة مدة ستة سنوات.وبعد هذا المرسوم سلم ثلث من المورسكيين أسلحتهم لكن الغالبية رفضت ذلك (حتاملة، 1989، ص ص 22، 23).

خامسا:ردود فعل المسلمين الأندلسيين اتجاه سياسة التنصير الاسباني:

لم تكن المواجهة ممكنة أصلا بين المجموعتين الإسبانية والإسلامية خلال القرن السادس عشر، فدواوين محاكم التفتيش كانت ترفض كل تسامح وحوار، ولم يبق للمورسكيين كإجراء وقائي، إلا إخفاء معتقداتهم والدخول في جدل متستر. وفي هذا الصدد يقول الشهاب الحجري الأندلسي..."وكانوا يعبدون دينين: دين النصرى جهرا ، ودين المسلمين في الخفاء وإذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين، يحكمون قبلهم الكفار الحكم القوي، يحرقون بعضهم كما شاهدت...من عشرين سنة قبل خروجي منها".(أحمد بن شهاب الحجري 1987 ص 21).

إن التقية هو الإحتياط أو الكتمان وهو الحذر والسرية هي بالذات الكلمات التي تشير إلى الفعل الذي بواسطته يمتنع المسلم الذي يعيش وسط بيئة اجتماعية عدائية، عن ممارسة دينه متظاهرا باعتناق الدين الذي فرض عليه فرضا، وقد ظهرت التقية في القرون الأولى لظهور الإسلام. ومن بين العوامل التي دفعت المورسكيين إلى إنتهاج هذا الأسلوب هو تعنت محاكم التفتيش و إصرارهم على تطهير إسبانيا المسيحية من هؤلاء المسلمين الذين وقفوا صامدين أمام محاولات التنصير، وأفشلوا كل المحاولات التي قامت بها الكنيسة الكاثوليكية والملوك الحاقدين على المسلمين.(جمال يحيى، 2004، ص 67).

لقد أقرت محاكم التفتيش قطع المورسكيين عن جذورهم وهويتهم الثقافية وذلك بالقضاء على نظامهم الاجتماعي، وإنطلاقا من قمة الهرم أي سحق الزعماء والمتضلعين في شؤون الإسلام، وبسبب تعنت المورسكيين وتشبثهم بالهوية الإسلامية ورفضهم كل محاولات الإدماج وعلى إثر هذه الأوضاع ظهرت الحاجة إلى علماء الدين والفقهاء لاسيما بعد نكث الملوك الكاثوليك التزاماتهم بشأن حرية المعتقد التي وقعوا عليها في معاهدة تسليم غرناطة، بالإضافة إلى ازدياد الضغط الكنسي على المسلمين بعد صدور مراسيم التعميد القسري.

ولقد اختلف الفقهاء بين متشدد من جهة فهناك من أفتى بمغادرة الأندلس، و آخرين أفتوا بضرورة البقاء مع التمسك و الحفاظ على العقيدة الإسلامية، وكان على رأس الفقهاء من دعاة الرحيل الفقيه ومفتي فاس أحمد بن يحيى بن

محمد التلمساني الونشريسي، الذي أصدر فتوى سنة 1491 م، قبل سقوط غرناطة موسومة بـ "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج"، وقد قال الونشريسي بشكل صريح وواضح وصارم... "إن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة". (الونشريسي 1981 ج 2 ص 119).

في المقابل كان من أبرز الذين سمحوا بالبقاء في اسبانيا وممارسة التقية، الفقيه أبو العباس أحمد أبو جمعة المغراوي الوهراني، الذي وردت فتواه عام 1504 م، بعد إنطلاق عملية التنصير القسري بمقتضى مرسوم الملكة إيزابيلا عام 1502 م، وعليه فإن المغراوي دعا الموريسكيين إلى استعمال الإسلام الخفي في إطار مبدأ التقية. إن عملية التنصير لم تهدأ في هذه الظروف بل استغلتها محاكم التفتيش للتأثير بشكل خاص على الأطفال و المراهقين لصنع أجيال جديدة لتحقيق بعض أهدافها. (فوزي سعد الله، 2016، ص 106).

و قام الملكين الكاثوليكين بإصدار قرار ترحيل المسلمين المنصرين في 15 سبتمبر 1609 م إلى سواحل بلاد المغرب فنزل أهل المرية بمدينة تلمسان، بعدها هاجر أهل الجزيرة الخضراء واستقروا في مدينة طنجة، أما بالنسبة إلى أهل رندة وبسطة وحصن موجز وقربة قردوش وحصن مرتيل فاستقروا في تيطوان وضواحيها، وبالنسبة إلى أهل دانية فقد هاجروا إلى الجزائر واستقروا في كل من بجاية ووهران، بهذه الطريقة حقق عالم النصرانية مبتغاه، وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس وطويت الصحف المجيدة والمؤثرة من التاريخ الإسلامي، وقضى على الحضارة الإسلامية الباهرة. أما بالنسبة إلى موريسكيو غرناطة فنقلوا إلى المنكب ومالقة وتوجه القسم الأكبر إلى تونس عن طريق مرسيليا ونقل أهل أليكنت وجيقة إلى وهران. (علي حسن الشطاط، بدون تاريخ، ص 68).

ونتيجة لذلك توجه المورسكيون إلى ملوك المسلمين في بلاد المغرب لإنقاذهم، فهناك من الأندلسيين من استنجد بالمغرب الأقصى، لكنه لم يقدر على مساعدتهم نظرا للظروف الإقتصادية و السياسية و الاجتماعية التي كان يمر بها، حيث أشار مؤلف أندلسي مجهول في هذا الموضوع، "... وكان من قضاء الله تعالى وقدره أنه لما جاز الأمير محمد بن علي وسار إلى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر". (مجهول، 2002، ص 39)، و منهم من توجه للاستنجاد بالعثمانيين، فقد أرسل أهل غرناطة في منتصف سنة 1477 م سفارة إلى اسطنبول ملفتين نظرا لسلطان العثماني محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس طالبين تدخله لإنقاذهم، (عبد الجليل التميمي، 1989، ص 30).

. من خلال دراستنا توصلنا أن محاكم التفتيش الإسبانية قد ارتبطت بالتاج لا بالبابوية فأضحت أداة رهيبة في يد الملكين الكاثوليكين فرديناند وإيزابيلا لتحقيق طموحها في حكم دولة موحدة تخضع لسيادة المذهب الكاثوليكي على جميع رعاياها انطلاقا من شعار "إن الدين للدولة هو بمثابة الدم للإنسان لذا يتحتم أن يكون الدم نقيا لضمان خلود الدولة" ثم إن هذه الأخيرة تفتنت في تطبيق أنواع التعذيب، حيث شهدت تلك الفترة أعمالا بربرية وحشية ارتكبتها محاكم التفتيش لتطهير اسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة إرثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمن. فقد أجبرتهم هذه المحاكم على التنصير ومصادرة ممتلكاتهم، مخالفة بذلك كل الأعراف والقوانين الدولية القديمة منها والحديثة، ز كان رد مسلمي الأندلس هو استعمال مبدأ التقية حفاظا على ارواحهم بل هاجر الكثير منهم إلى بلدان المغرب.

قائمة المراجع:

المصادر:

- أحمد بن الشهاب الحجري الأندلسي، ناصر الدين على القوم الكافرين، تح محمد رزوق، دار الشروق، الدار البيضاء 1987.
- أحمد الونشريسي، المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية و الأندلس و المغرب، إشراف محمد الحجي دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1981، ج 2.
- المقري أحمد بن احمد التلمساني، نفع الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تحقيق عباس أرجان، المجلد الأول و الرابع دار صادر، بيروت 1968
- مؤلف مجهول، نبذة العصر في أخبار بني نصر، تحقيق الغرب البستاني، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية (ب ب)، 2002 م.

المراجع:

- أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس مؤسسة شباب الجامعة، مصر 1993.
- أخطية بسام، قصة محاكم التفتيش في العالم، ط 1، دار هومة للنشر والتوزيع، دمشق، 2000 م.
- عطيات أحمد محمد، الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، ط 1، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، 2012 م.
- عبد الواحد طه ذنون واخرون، تاريخ المغرب العربي، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت 2004.
- شامخ زكرياء علاونة، سقوط غرناطة (897هـ-1492م)، دراسة تحليلية، مجلة الإنسان و المجال، المجلد الخامس، العدد التاسع، ديسمبر 2019، المركز الجامعي نور البشير -البيضا.
- يحيى جوي جمال، سقوط غرناطة ومأساة المسلمين 1492 م -1610 م، (ب ط)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004 م.
- عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج 1، ط 3، مكتبة الانجوا المصرية، 1977.
- البشتاوي عادل سعيد، الأمة الأندلسية الشهيدة -تاريخ 100 سنة من المواجهة والاضطهاد -، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، 1971 م.
- العيدروس محمد حسن، العصر الأندلسي خروج العرب من الأندلس، ط 1، الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011 م.
- عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية المورسكيين الأندلسيين، ط 1، مطبعة بابيريس 1989 م،
- الشطشاط علي حسين، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة (بدون تاريخ الطبع).
- مظهر علي، محاكم التفتيش الاسبانية 1489- 1516 م. (ب.ت).
- توفيق الطويل، الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي، الإسكندرية، 1948 م.
- راغب السرحاني، قصة الأندلس من الفتح للسقوط، ج 1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011 م.

- تشارلس لي هنري، العرب والمسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن سعيد الكرمي، ط1، دار لبنان للنشر والطباعة، بيروت، 1988 م.
- حمادي عبد الله، المورسكيين ومحاكم التفتيش في الأندلس (1616 - 1492)، الدار التونسية للنشر، 1989 م.
- قطب محمد علي، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، (بدون تاريخ).
- فوزي سعد الله، الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم، ج1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016 م.
- حتماله محمد عبده، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد فليبي الثاني 1567م - 1698 ط1، الجامعة الأردنية للنشر والتوزيع، 1989 م.

الملاحق:

الملحق رقم 1 : رسالة من المفتي أبو جمعة الوهراني إلى المورسكيين سنة 910هـ / 1504 م:

الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته.

وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً بعد السلام عليكم من كتابه إليكم، من عبید الله أصغر عبیده وأحوجهم إلى عفوه ومزيدة، عبید الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم بحسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمين به من بلغ من أولادكم، ان لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاکر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلود لا يضر ولا ينفع وإن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتكم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم بالتيمم.

ولو مسحاً بالأيدي للحيطان فإن لم يكن، فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتمم به، فأقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وأنووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وأن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لابنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزياً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه، وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكبين بقلوبكم ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم

وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى وإن اكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان ان نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا واشتموا محمدا فإنهم يقولون له ممد، فاشتموا ممداء ناوين انه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو ومايعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به .وأنا أسأل الله أن يدل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعا . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة.

المصدر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج7، مكتبة الخانجي للطباعة و النشر والتوزيع، القاهرة 1997
ص 342، 343،

*الملحق رقم 2 : رسالة من ممثلي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 م.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى اله و صحبه الكريم يقبل مواطن الأقدام الشريفة التي ثراها إذا مر بالعيون الرمدة أبراهما، ورحاب الأكف الكريه التي (كذا) أعطاهما (كذا)، إذا مر بالأرض المحملة أثارها أقدام شأنها في السعي و الخيرات و القربات ، واكف شأنها فعل الخيرات ارت و المكرمات، أدام الله أيامها و نصر أعلامها، واوطا الله (كذا) ركابها أعناق الملحدين و المتمردين، وأنعشه في كل وقت بنصر وفتح مبين نسال (كذا) الله تعالى إن يجعله إركابا لم يزل ممتطيا مطايا السعد محفوقا بالسعود قطبا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود وان يجعله يخرق العادة بطول بقياه وما ذلك على الله بعزيز ركب حضرة الجند ورواق العز الممدود ومعدن الرأفة والحنان ومأمن الخائف اللهفان ومضمن إن الله يأمر بالعدل والإحسان حضرة فخر ملوك البسيطة كبير سلاطين الزمان منيل أفانين الأمان والأمان الملاذ الأعظم والثمال الأعصم ذي العروة التي (كذا) لا تفصم والحجة التي (كذا) لا يخصم الذي يعترف له القاضي والداني بالفضل على الإطلاقيه رتبة الأصالة والجلالة بالاستحقاق ولم لا وهو نسيم الخلافة العلية في منصب الوراثة وحايز الفضيلة السنية من خدمة المساجد الثلاثة وله ملك مصر وانهارها والشام وديارها والحجاز وشرف مقدارها والى حضرته مجتمع الرفاق من الأفاق والمها تحجج الأجسام بالرحلة والأفئدة بالأشواق وعلى جمع تلك الحضرة العلية لمحاسن الدين والدنيا انعقد الاجتماع والاصفاق مولانا السلطان الملك الاشرف الأضخم الأرفع الأعرف الأعلم الاحلم الارحم الارف الأجود الأكرم الاسمح الاعطف قانع الملحدين وقاطع دابره الطغاة والبغاة والمردة المفسدين ممهذ طريق الحج والعمرة والزيارة الفايز بشرف الدين والدنيا من الجهاد في سبيل الله والسقاية في المسجد الحرام والعمارة مطهر البسيطة من دون فسادها ومظهر آيات الرأفة والرحمة في بلادها سلطان الإسلام والمسلمين عز الدنيا والدين وظل الله على الخليقة أجمعين السلطان بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان يزيد بن محمد خان مدالله ظلال النعمة بامتداده ظلالة وضاعف لديه مواهب إك ارمه وأفضاله وأدام نجم سعده المنير باهر الأشواق وجعل سهم ضده الحقيير لازم الإخفاق وحفظ بشهب اوباء مجده منمردة النفاق جميع القطار والأفاق فهو الإمام الهمام

والأسد الباسل الضرغام الذي مهد الله تعالى بدولته البلاد وامن ببركته اياته في مسالكها وممالكها البلاد ومزق به ثوب الفساد

وقطع بسيفه وسنانه وبإرادي قلمه الأعلى ولسانه دابر أهل العناد، فسعد الإسلام بدولته، واعتز دين الله العزيز في مدته، وحمدت نيران البغي بسعادته وامتدت الأمان وشمل الأمان بحسن سياسته نسال (كذا) الله تعالى أن يصل لسيدته ومولانا عادت (كذا) نصرته وتمكينه ويريه قرة العين في دنياه ودينه وبعد: فان عبيدك الفقراء (كذا) (المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من بلواهم باكين باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكابدة الكفار، ومقاساة (كذا) التضيق والإضرار وجور أهل الشرك إناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار قد تكالب العدو علينا ومدد السوء والضرر ألينا، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب ورمونا عن قوس واحد بسهم صايب، وطالت بنا الأيام وعاشت فينا يد النكاية والإيلام وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر واجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضمائر (كذا) وانتظم العدل والشرع والأمان في البادية والحاضر فاستغثنا به فأغاثنا وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفارة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان فلما سمع الكافر اللعين بذلك ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران علم إننا اخترنا المصيبة في الأموال والأبدان وأثرنا ديننا على ساير الأديان فلما صدقت الضمائر وبلغت القلوب الحناجر خاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفاررنا إلى بلاد الإسلام لسلامة ديننا تحير في أمره وجمع إليه أهل تديره وحزبه فدبروا وكروا وهل يحيق المكر السيئ إلا بأهله؟ واتفق أربهم المعكوس وتديبرهم المكنوس على قتال الجائر ليليا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل وجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا) فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل ولا نجا منهم من الغرق قليل قليل وألان اشتد غضبهم على أهل السلام وهم يتوسلون بالرهبان والأصنام ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذو (كذا) الجلال وهم عازمين على الجزائر والله تعالى تلطمهم وينصر دينه وهم نعم الناصر يا مولانا سلطان البريين والبحرين نصركم الله المدد المدد لنصرة الجائر لأنها سبب سبب لأهل الإسلام وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان وهي موسومة باسمكم الشريف وتحت إيالة مقامكم المنيف وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة وطراز رونقها المجاهد في سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين المتمثل لأوامر مولانا ونتاج عز الدنيا والدين فانه أحيا هذا الوطن وجميع النواحي والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرب ديار المردة والفجار، وأظهر نظام السلطنة العثمانية وأحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والأمصاير فرغب ونطلب من مولانا صلاح (كذا) في ذلك فيكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهل الإسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام لايزال بالعز موصوف (كذا) وبالهاء والنصر محفوف (كذا) بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشا (كذا) إلى

الجزائر فانه لهذا الوطن نعن ناصر وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر(كذا) والسلام التام على المقام الشريف العالي
رحمة الله بتاريخ أوائل شهر شعبان أحد شهور ستة ثمانية وأربعين و تسعمائة.
المصدر:عبد الجليل التميمي(1975) رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 المجلة
التاريخية المغربية ص ص 37، 38.

الموريسكية أبعادها التاريخية والإنسانية في كتب الرحلات من خلال رحلة أفوقاي (مختصر الشهاب إلى لقاء الأحباب).

The term Moor and its historical and human dimensions in the books of journey "Affouqay's journey "Mokhtasar al-shihab ila liqaa al-ahbab"

د. ترشاق سعاد جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 الجزائر
Dr.Terchag Souad University of Setif2 Algeria

ملخص الدراسة:

الموريسكية مصطلح يعبر عن تجربة إنسانية قاسية، عاشها المسلمون بعد أن أرغموا على ترك دينهم ووطنهم. وهو ملحمة وجدت طريقها إلى الخلود عبر ما كتبه أصحابها عنها نثرا وشعرا، وما جاء في مذكرات محاكم التفتيش، وشهادات من قاموا وشاركوا في المحنة التي تعرض لها الأندلسيون بعد سقوط غرناطة، وكذا كتابات المؤرخين المهتمين بالفترة.

والواقع أن الحديث عن تلك المحنة هو جزء من الحديث عن التواجد الإسلامي بأوروبا في أواخر عهده، وتذكير في الوقت نفسه بجهاد الموريسكيين للحفاظ على هويتهم، وصراعهم الحضاري مع النصارى، وما خلفوه من تراث أدبي وفكري قيم، بإمكانه المساهمة في بسط مزيد من المعلومات عن العصر وعندهم.

الكلمات المفتاحية:

الموريسكية- محاكم التفتيش- غرناطة- الصراع الحضاري.

Abstract:

Moor is a term that expresses a harsh human experience, experienced by Muslims after being forced to leave their religion and homeland. It is an epic that found its way to immortality through what it's involved parties wrote about it with prose and poetry, what was said in the inquisition notes, the testimonies of those who took part in the ordeal experienced by Andalusians after the fall of Granada, and the writings of historians interested by this period. In fact, talking about this ordeal is part of talking about the Muslim presence in Europe in its late times, while recalling the Moors' jihad to preserve their identity, their civilizational struggle with the Christians, and their consequent loss of valuable literary and intellectual heritage that can contribute to further information about the times and about them.

Keywords:

Moor - inquisition courts - Granada - civilization conflict

مقدمة:

الكتابة عن التراث الأندلسي، وتحديد الموريسكي، لا يخلو من مشقة ومن شجن. فأما المشقة فبسبب سكوت المؤرخين عن تلك الفترة بقصد أو بغير قصد، ما ترك فراغا علميا ملحوظا، وأما الشجن فمرده تلك الصورة التي يشكلها القارئ وهو يقرأ ملحمة هؤلاء في كتب الرحالة والمؤرخين، ومؤلفات الأدباء والأخبار على قلمها.

ولذلك فإن العودة إلى ذلك التاريخ مسؤولية تقع على عاتق المؤسسات العلمية والهيئات البحثية، قصد توضيح الصورة، وتصويب النظرة، وإعادة الاعتبار لجزء من تاريخ الإنسان، بما يسهم في تشكيل صورة عن علاقة الشرق بالغرب/ الماضي بالحاضر.

وتتطلب العودة إلى تلك الفترة استعدادا معرفيا يجعل الموضوعية معنا له، قصد استنطاق المسكوت عنه في تاريخ الأندلس بعد سقوط غرناطة، كما تتطلب الاستئناس بالمصادر التي تنتمي للفترة ذاتها، و بأقلام من شهدوا على الأحداث حضورا، ولكن من الأندلسيين أنفسهم ضمانا للمصداقية، خاصة وأن أغلب الكتب التاريخية التي كتبت في الموضوع لم تخل من إيديولوجية وتعصب ضدهم، كما ذكرت مصادر تاريخية كثيرة ومنها كتاب (الموريسكيون في الفكر التاريخي) لصاحبه ميغيل أنخيل بونيس إيبارا.

لذلك تعد العودة إلى كتب الرحالة ومنها رحلة (رحلة أفوقاي مختصر الشهاب إلى لقاء الأحباب) مفيدة في الموضوع، كونها نقلت -بلسان شاهد حي على الحدث- حقائق في غاية الأهمية، وعكست بأسلوبها -ليس فقط جزءا مهمًا من التاريخ المنسي- ولكن نمط الكتابة لدى تلك الفئة (الموريسكيون)، بالنظر إلى تعدد ألسنتها وهجرتها من موطنها، ودخولها في علاقات اجتماعية وسياسية جديدة بالبلاد التي هُجروا إليها (المغرب/ تونس/ الجزائر). وهذا ما ستعمل المداخلة على استجلانه بالتركيز على الخبر التاريخي في بعده الإنساني من جهة، وعلى الأسلوب الذي قُدّم به من جهة أخرى، كونها كتابة تجمع بين التاريخي والأدبي، عبر العناصر الآتية:

- الموريسكية في الدراسات العلمية
- رحلة أفوقاي المسار والمؤهل
- أبعاد الرحلة

- البعد التاريخي
- البعد الإنساني
- خاتمة

وذلك وعيا بالعلاقة الوثيقة بين الرحالة والمؤرخين، حيث يطرح هؤلاء التاريخ المرتبط بهم من منظورين: أحدهما وهو فن الرحلة وما يرتبط به من دلالات، والآخر من منظور المؤرخين، رغبة في إيجاد إجابات مناسبة للتساؤلات الآتية:

- ✓ كيف يمكن استخلاص صورة قريبة من الوضع التاريخي للموريسكيين عبر فن الرحلة؟
- ✓ كيف ساهمت تلك الكتابات في تشكيل رؤية مغايرة عن الحياة بإسبانيا في تلك الحقبة السياسية والدينية، بالنظر إلى أبعاد الأوضاع وأوجه الصراع؟

وغيرها من الأسئلة التي ستشغل عليها المداخلة بالاعتماد على ما تيسر من المصادر والمراجع.

1. الموريسكية في الدراسات العلمية:

يحمل لفظ (موريسكي) معاني متعددة، إذ أطلق على صاحب البشرة السمراء أو داكن البشرة، وعلى الإنسان غير المسيحي، واستعمل بمعنى تصغير تحقيري لكلمة (Moro) أي (العرب الأصاغر) أو (المسلمون الصغار) تقليلا من قدرهم. (الغريبي، 2018)

وظهر المصطلح بعد مرسوم التنصير القهري الذي أصدره ثيسنيروس cisneros عام 1502. ويضم موريسكيي أراغون وموريسكيي قشتالة وموريسكيي أندلوثيا. (إيبازا، 2005، صفحة 22)

ويعبر "عن مجموعة من الأندلسيين المسلمين وأحفادهم ممن ظلوا في الأندلس (شبه الجزيرة الإيبيرية) بعد سقوط مملكة غرناطة 1492م، وتعرضوا للتنصير القسري". (ريناو، 2015، صفحة 9) كما يعبر بمفهومه الواسع عن تجربة إنسانية قاسية جدا، عاشها المسلمون بعد أن أرغموا على ترك دينهم، ثم وطنهم.

ويرتبط هذا المصطلح بمصطلح آخر وهو الألخميادو (Aljamiado). ويقصد به الأدب الأعجمي الذي كتب به الأندلسيون الآمهم وأحزانهم وأوضاعهم وتطلعاتهم، عبر لغة أعجمية هي مزيج بين العربية والقشتالية. اعتبره الدارسون ومنهم مار غوميث ريناو mar geomez reneau وثائق مهمة من الجانبين اللغوي والتاريخي، كونها تدل على التحولات العميقة التي

مرت بها اللغة الرومانيّة، إضافة إلى أهميتها في دراسة القشتالية القروسطية (ريناو، 2015، صفحة 17، 19)، لذلك يشهد إقبالاً على الدراسة كونه يحمل صوراً عن تاريخ إسبانيا في جامعات لها اهتمام بالشأن العربي الإسباني، كجامعة بورتوريكو، فهما واحد من أهم المختبرات التي تهتم بالأدب الموريسكي، ويبرز فيه اسم الباحثة لوثي لوباث بارلت. (ريناو، 2015، صفحة 9)

ورغم أن أكثر هذا الأدب ضاع أو أحرق، فإن ما وصل منه يدل على حساسية المرحلة وخصوصيتها. وللإشارة فقد ظهرت قصائد مرتبطة بهذه الفترة من نظم الشعراء الإسبان في القرنين السادس عشر والسابع عشر، سجلت المآسي التي مر بها هؤلاء، مثل ملحمة الشاعر (غاسبار أفيلاز) Gaspar aguilar، وملحمة الشاعر (خوان منديث دي باسكونثيلوس)، Juan mendez de vasconceloz وملحمة الشاعر (بيثيني بيريث دي كويا) Vicente Pérez de culla، بالإضافة إلى ملاحم وصفت معاناة الموريسكيين بعد طردهم وسوء استقبالهم في بعض بلدان المغرب، حيث تعرضوا للسلب والنهب؛ مما جعل الباقين يرفضون الترحيل ويبدون المعارضة والمقاومة. كما ظهرت قصائد رثاء الإسلام في الأندلس والبكاء على حال المسلمين بها، على شاكلة قصيدة أحمد بن محمد الصنهاجي الشهير بـ(الدقون). (الغريبي، 2018)

ويعد البحث في هذا الأدب صعب، إذ يرتبط بمرحلة ما بعد سقوط غرناطة، وهي فترة في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ المسلمين في أوروبا، ولتاريخ إسبانيا نفسها، وكذا تاريخ الأدب العربي، ذلك أن معظم الدراسات حصرت الأدب الأندلسي بين فترتي الفتح وسقوط غرناطة، غافلة عما أنتج بعد هذه الفترة، وكانت بذلك عاملاً من عوامل انحصار المعلومات حول ما بعد السقوط في عدد قليل من المصادر، مضاف إلى ذلك تكتم المؤسسات الرسمية بإسبانيا عن التاريخ الفعلي، والخوف من معاداة الكنيسة والمجتمع. يقول ميغيل أنخيل مريس إيبارا: "تعد مشكلة الموريسكيين واحدة من أكثر القضايا المليئة بالإثارة في تاريخنا الإسباني، وهي دون شك عامل مهم لفهم حياة ومجتمع وديانة واقتصاد القرن السادس عشر في إسبانيا". (إيبارا، 2005، صفحة 22) ومع ذلك فما بقي من مصادر، وما أنتج من كتب ودراسات محايدة، قد يكون معيناً في رفع اللبس عن طبيعة ذلك الأدب.

2. رحلة أفوقاي المسار والمؤهل:

صدرت الرحلة موضوع الدراسة بعنوان (رحلة أفوقاي Bejarano الأندلسي 1611-1613 مختصر) (رحلة الشهاب للقاء الأحياب) تأليف الشيخ الفقير أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي. وهو مترجم

وسياسي (سفير) لدى المنصور الذهبي بالمغرب، ولدى من خلفه بعد وفاته، في فرنسا وهولندا. حققها وقدمها د. محمد زروق.

صاحبها من شخصيات الأندلس التي أسعفها الحظ لتغادرها سالمة باتجاه المغرب أواخر عهد المنصور. ويبدو من خلال ما ذكره أنه ضليع بالترجمة، إذ ترجم كتاب في المدفعية لإبراهيم غانم بعنوان: (العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع) (1048هـ- 1638م)، وكتاب (الرسالة الزكوية) للإسرائيلي إبراهيم السلمنقي.

من الرحلات التي قام بها إضافة إلى رحلته للمغرب، رحلته للحج (1046هـ- 1636م)، ومصر (1046هـ- 1637م)، رحلته لتونس (1047)، سفارته إلى فرنسا وهولندا أيام السلطان زيدان بين سنوات (1611-1020)، (1613-1022).

وأما عن المؤهلات التي سمحت له بذلك فهي: إتقانه اللغات المتداولة في عصره: العربية والإسبانية والبرتغالية وكلام الفرنج. (الحجري،، 2004، صفحة 113) ولذلك اشتغل بالترجمة لدى المنصور (1599-1007)، ثم لدى السلطان زيدان وولديه عبد الملك والوليد، إضافة إلى حفظه القرآن الكريم، ما خلق لديه ثقافة دينية واضحة، واطلاعه على التوراة والإنجيل وعلى مختلف التحريفات التي وقعت لهما. (الحجري،، 2004، صفحة 11)

ينتمي الكتاب لفن الرحلة، من حيث أنه كما جاء في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يعرض فيها ما يراه من سلوك وعادات وأخلاق ... أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد". (المهندس، 1984، صفحة 17) ما يجعله من النصوص التي تنفتح على مجالات عدة ومواضيع شتى، و"ملتقى الفنون وبحر المعارف والاكتشافات". (قنديل، 2002، صفحة 6)

والنص موضوع الدراسة، ثمرة من ثمار السفارة، لأن صاحبها شغل منصب سفير لدى السلطان زيدان في فرنسا وهولندا، وهذا ما وسّع لديه المعلومات الجغرافية، وليس ذلك بالجديد عن الأندلسيين، فقد "نشطت حركة السفراء بين الأندلس وبلاد أوروبا، حيث أرسل الأندلسيون عددا من السفراء إلى فرنسا والقسطنطينية وروما وأنجلترا وغيرها من الدول، وكان الحرص شديدا على اختيار السفراء على مستوى عال من الثقافة والذكاء، وعلى درجة عالية من القدرة على التعبير والحوار والخبرة لإنجاز المهام الموكلة إليهم بإتقان". (الهروط، 2008، صفحة 32)

ومن الأندلسيين الذين اشتهروا بالمهمة: يحيى بن الحكم الغزال أيام عبد الرحمان الأوسط، وكانت سفارته إلى النورمان (القسطنطينية)، وسفارة ابن الخطيب إلى المغرب. ومن هذا النوع من المهام ظهر ما أطلق عليه (الرحلات السفارية)، ومنها رحلة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي (ت347هـ). (الهروط، 2008، صفحة 32)

والرحلة جزء من تراث عريق اشتهر به الأندلسيون، وتعاقبوا على التأليف فيه بتميز، على مستوى المواضيع والمسار والقيم والأبعاد التي تعكسها، ويمكن لمن يطلع على ما وصل منها على الوفرة من جهة، وعلى تميز كل نص رحلي عن الآخر، ليس فقط في تاريخ التأليف، ولكن في الموضوع الرئيس كما تعبر عنه رحلات: ابن جبير، ورحلة عبد الله بن الصباح الأصبغي من مدينة (المرية) (منشأ الأخبار وتذكرة الأخيار)، ورحلة أبو حامد الغرناطي (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)، ورحلة بنيامين التطيلي (رحلة ابن يونة الأندلسي إلى بلاد المشرق الإسلامي)، ورحلة البلوي (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق)، ورحلة القلصادي (تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب). (الهروط، 2008، صفحة 36، 43)

ومما يربط النص بأدب الرحلة، ما ورد فيه من معلومات عن المدن التي زارها من حيث الموقع والطبيعة والسكان. وقد احتل الجانب الجغرافي فيها نصيباً مهماً، ومنه وصف مراكش (الحجري،، 2004، صفحة 47) من حيث الطول والعرض والمسافة الجغرافية، ووصف باريس، (الحجري،، 2004، صفحة 52) ووصف مسترزام (أمستردام) في مقطع مهم أجمل فيه الحديث عن طبيعة العمران فيها، وتميزها في صناعة السفن نوعية وكثرة قائلاً: "ولما أن بلغنا إلى مدينة مسترزام، رأيت العجب في حسن بنياتها، ونقائها، وكثرة مخلوقاتها، كاد أن تكون في العمارة مثل مدينة بريش بفرنجة. ولم تكن في الدنيا مدينة بكثرة السفن مثلها، قيل إن في جميع سفنها، صغاراً وكباراً، ستة آلاف سفينة. وأما الديار كل واحدة مرسومة، ومزوقة من أعلاها إلى أسفلها بالألوان العجيبة، ولن تشبه واحدة أخرى في صنع رقمها. والأزقة كلها بالأحجار المنبته. والتقيت بمن رأى بلاد المشرق، وبلاد الصقالبة، ورومة وغيرها، من بلاد الدنيا، قال لي إنه ما رأى مثلها في الزين والملاحة. واعلم أن هذا فلنضس، هي سبع عشر جزيرة، وجميعها كانت لسلطان الأندلس" (الحجري،، 2004، صفحة 109) ومثله وقع في وصف مدينة شانديُنشي (سان دو نيس) (الحجري،، 2004، صفحة 69)، ووصف مدينة الهياية – مركزاً على مناخها وموقعها من حيث الخطوط الجغرافية- في قوله: "وأما مدينة الهياية ... فعرضها اثنتان وخمسون درجة، وذلك في الإقليم السادس من الدنيا. وأصابنا الحال ونحن فيها أطول أيام العام عند حلول الشمس بالسرطان، وليس طول الشمس وغروبها كهذه البلاد، -أعني مصر والمغرب والشام وبلاد الأندلس- فالיום هنالك من أول الفجر من نحو

سبعة عشر ساعة بتقريب ولا ظلمة في الليل إلا قليلة، وغروب الشمس ثم بعد ذلك بساعة ونص بتقريب نصلي الصبح".
(الحجري،، 2004، صفحة 115)

ولا يكتفي بالأبعاد الجغرافية للأماكن المزورة، بل يحيل على ما يجده لدى أهلها من ميول علمية، من ذلك حديثه عن رجل فرنسي وجد عنده نسخة من القرآن الكريم، ونسخا من قانون ابن سينا، وكتاب إقليدس في الهندسة، وكتب النحو كالأجرومية والكافية، وكتاب مناظرات بين مسلم ونصراني. (الحجري،، 2004، صفحة 53) وكذلك وصفه لرجل من رجال مدينة ليديا في قوله: "ولما دخلنا مدينة ليديا (leyde) رأينا فيها مدارس لقراءة العلوم. ووجدت رجلا كان يقرأ فيها بالعربية ويقرئ بها غيره، ويأخذ راتباً على ذلك، وكنت عرفته بفرنجة، وحملني إلى داره، وكان يتكلم معي بالعربي، يعرب الأسماء ويصرف الأفعال...". (الحجري،، 2004، صفحة 110)

وللكتاب قيمة أخرى غير القيمة الجغرافية التي يقدمها بوصفه من نصوص الرحلة، فإضافة إلى ما تضمّنه من مشاهد وأخبار، نقل ما دار بين صاحبه وبين مسيحيين من طبقات سياسية ودينية عبر مناظرات حول الدين الإسلامي. لذلك يشكّل البعد الديني فيه حيزاً معتبراً، وقيمة مضافة إلى قيمته التاريخية، إذ يؤرّخ لمرحلة مهمة من تاريخ المسلمين بأوروبا، وهي مرحلة أفول الإسلام منها وزواله بطرد أهله، ومنه فالرحلة تصور حياة ما بعد الطرد وموقف أوروبا منه وملايساته، وكذا الصراع الإيديولوجي بين المسلمين وبين النصارى، مع التركيز على الدور المحوري لدول المغرب فيه، كونها احتضنت الأندلسيين إلى غاية اندماجهم في المجتمعات المغاربية (تونس الجزائر المغرب) من جديد، ولتركيا باعتبارها قوة عسكرية إسلامية، لعبت دوراً محورياً في البحر الأبيض المتوسط، وترتّب عن ذلك تغييرات سياسية وأحداث تاريخية جسام.

ومما يعبر عنه النصّ تغير أسلوب ولغة الكتابة في النصوص الرحلية، إذ المعهود أنها نصوص من تأليف أدباء أصحاب مذاهب وأفلام، ما يجعل الأسلوب في هذا النوع الأدبي الخاص جداً مميّزاً، بميله ناحية التنميق والتلطيف اللغوي والتهذيب، جذبا للسامع وتحقيقاً للتميز، خاصة إذا كانت كتابتها مرتبطة بأمر رسمي، وهي عادة أغلب كتب الرحلات إضافة، إلى ميل أصحاب هذه النصوص للفصاحة تحقيقاً للإفهام، كون نصوصهم تنتهي إلى تلك التي تحمل نية نقل ما تحمله من معرفة.

وأما بالنسبة للنص موضوع الدراسة، فقد ظهر عليه الأسلوب البسيط الذي يخلط بين العامي والفصيح والعجبي، ولا يابه كثيراً بالتنميق، ومن علامات ذلك توظيف العامية: عبارة "ترد بالك عليه"، (الحجري،، 2004، صفحة 43) وعبارة

"هناك تعلمت نقرا بالعربية" في حديثه عن مدينة مراكش، (الحجري،، 2004، صفحة 50، 51) ولفظة بومبة pompa، (الحجري،، 2004، صفحة 55) براوات مولة البلد (الحجري،، 2004، صفحة 65) وغيرها كثير.

وليس ذلك خاص به وحده، فأسلوبه لا يختلف عن أسلوب غالبية الكتّاب الموريسكيين، بسبب الطريقة التي تعلموا بها العربية، وهي سرية بعد حظرها ومنعها، بموجب قرارات تاريخية منافية للعقل والمنطق كما نص قانون عام 1567، ما جعلهم يخفون تعلمها ويمنعون أطفالهم منه إلى أن يبلغوا سنا معينة، خوفا من أن يكتشف أمرهم. نقل لوي كارجاك على لسان أحد الموريسكيين Géronimo de Rojas "أنه يحس بغم كبير في قلبه عندما يلاحظ أبناءه الصغار يعيشون في الخطأ وسط المسيحيين، وأنه حتى الآن لم يلقّنهم شيئا بسبب سنهم المبكر، وهذا خشية أن تعتبر دواوين التحقيق ذلك سببا في سوقهم للمحاكمة، ... ومع ذلك، فإنه لا يبقى أبناءه يعيشون في الخطأ، وعلى العكس من ذلك، سوف يلقّنهم الحقيقة". (كارجاك، 1983، صفحة 24)

وهذه إشارة إلى تمسك الموريسكيين بدينهم وبلغتهم وحرصهم على نقل ذلك إلى أبنائهم، فالكتب الدينية كانت تنتقل من يد إلى أخرى، ويحرص المتعلمون تعليمها لغيرهم، وخاصة كتب الصلاة. وقد ذكرت المصادر العدد الكبير من الكتب والمؤلفات التي اكتشفتها محاكم التفتيش في منازل هؤلاء. فقد ذكر أنه عُثِر في منزل أحدهم على غرفة سرية بها أربعة عشر كتابا بين مجلد وغير مجلد، وكلها مكتوبة بأحرف مجهولة، فلما ترجمت تبين أنها نسخ من القرآن الكريم، وكتب دينية (أحاديث الرسول وخطب ومجموعات أذكار)، وكتب في التنظيم الاجتماعي، وأخرى ثقافية علمية وطبية، وقد تم التخلص منها جميعا بالحرق. (كارجاك، 1983، صفحة 71)

3. أبعادها:

1.3 البعد التاريخي:

الرحلة موضوع الدراسة نموذج من نماذج الأدب الموريسكي الذي يطرح أسئلة صعبة، بسبب أساليبه المغايرة، وقضاياها الشائكة التي تتعالق وتتداخل مع قضايا التاريخ والهوية والانتماء، خاصة وأن دارسه يلاقي صماتا تاريخيا فيما يخصه، وكما تواجهه مسألة تنقل هؤلاء بين الدول الإسلامية وخاصة دول المغرب، ما يفتح سؤال الانتماء.

وقد احتل التاريخ حيزا معتبرا في الرحلة، ولذلك علاقة بهوية صاحبها الذي يسكنه تاريخ الأندلس المسلمة، وتميزها عن باقي الأقطار من جهة، ومن جهة أخرى ففي ذاكرته أيضا تاريخ أليم لما حل بمواطنيه من محن، بعد انهزام المسلمين،

وفناء كل محاولة لنصرتها وإعادة مجدها. ومن ملامح التاريخ ذكر التواريخ المرتبطة بالأحداث أو الأماكن والمنشآت، ومن ذلك حديثه عن كنز أثري وجد في صومعة، ويتعلق بوثيقة تاريخية دينية تعود لأزمة غابرة في تاريخ إسبانيا، عثر عليها بعد تهديم صومعة الجامع الكبير بمدينة غرناطة (669هـ- 19 ربيع الثاني- 18 مارس 1855م)، واكتشاف رق مكتوب بالعربية والعجمية الأندلسية، (الحجري،، 2004، صفحة 27، 28) بالإضافة إلى أخبار ذات طابع تاريخي كخبر قرار النفي والترحيل وملابساته، (الحجري،، 2004، صفحة 47) وتنقل الأندلسيين بين المغرب وتونس والجزائر، وفي ذلك نجد حرصا لدى الكاتب على إسناد الحدث وتأكيده، كالخبر الذي نقله عن رجل اسمه فلش، ومفاده أن ثمانية آلاف منهم غادروا ناحية تونس أيام الأمير عثمان داي (ت1019هـ). (الحجري،، 2004، صفحة 56)

ويلاحظ القارئ وهو يبحث عن الجانب التاريخي في الرحلة، أن صاحبها يتجه صوب الأحداث التي عاشتها الأندلس في سنوات الطرد والترحيل، وكان بإمكانه التوغل أكثر في تاريخ المدن أو الشعوب التي زارها، على عادة باقي الرحالة. وقد يكون سبب ذلك أن ما يوجد بين أيدينا عبارة تلخيص وليس النص كاملا، ومع ذلك فإن ما يحيل عليه حماس الرجل لبلاده ومحنة أهله، يرجح أنه استغنى عن باقي الأخبار ليركز فقط على خبر سقوط الأندلس، وخبر تهجير سكانها وتبع آثارهم في البلدان المستقبلية، إضافة إلى سيطرة الجانب الديني عليه، ما جعله يستحوذ على النسبة العظمى من التأليف.

لقد أعطى الرحالة لنصه بعدا تاريخيا ظهر من خلال حرصه على توثيق الحدث، وربطه بمكانه وشخصه الفعليين. ومن الملاحظات الهامة حول العناية بهذا الجانب، ما أورده عن مؤرخي الإسلام، وأنهم يسقطون درجة الاسم، ما يسبب ضياع المعلومة، فمثلا يذكرون حروب المسلمين مع ألفنش (ألفونسو)، ولا يبيّنون أهمّ لأهم أكثر من اثني عشر سلطانا حكم الأندلس وسمي بذلك الاسم. لذلك نجده يركز -حين يتعلق الأمر بالملوك- على ضبط التسمية كاملة، وهذا في حديثه عن أسباب إصدار فلب الثاني قرار الطرد. (الحجري،، 2004، صفحة 116) وتلك إشارة منهجية متعلقة بعلم التاريخ، إذ يتطلب ضبط الخبر ضبطا دقيقا، منعا لأي تأويل أو زيادة، كونه متعلق بما وقع فعلا.

2.3 البعد الإنساني:

النص مصدر من مصادر المعرفة بحياة الشعوب التي وقعت في خط رحلته، وهو أيضا مصدر مهم عن شيوخ وعلماء ورجال تصوف عاشوا بمراكش وعاصرتهم، أو تتلمذ عليهم أو نقل عنهم، ومنهم الشيخ سالم السنهوري المصري أبو عبد الله الجرجاني، ومحمد بن يوسف المشهور بقراءة القرآن، وعيسى بن عبد الرحمان السكتي، وأحمد بن أحمد بن باب

السوداني صاحب كتاب مختصر الخليل بعنوان (من الرب الجليل ببيان مهمات خليل في جزأين)، ومحمد بن عبد الله بو محلي. (الحجري،، 2004، صفحة 145، 146) كما ضمت عناوين استعان بها في مناظراته منها كتاب عبد الله الترجمان (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب)، وقد كتبه عام (1420) بتونس. (الحجري،، 2004، صفحة 124)

وفي النص أيضا صورة عن العصر، عبّرت عنها حواراته مع من التقاهم من الأجانب في سفارته إلى بلاد أوروبا في شكل مناظرات، ومنها ما جاء ردا على سؤال أمير مدينة الهياية (Lahay) عن سبب طرد سلطان الإسبان للمسلمين، وقد أرجعها إلى خوفه منهم بعد اشتداد ثوراتهم، وتزايد عددهم في مقابل قلة النصارى. وهذا نص الجواب كاملا: "اعلم أن أهل الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام، ويحكمون فيهم، ولما تحقق لهم منهم ذلك لم يأمن فيهم، ولا كان يحمل معه أحد منهم إلى الحروب، وهي التي تفني كثيرا من الناس، وكان أيضا يمنعهم من البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملتهم والبحر يفني كثيرا من الرجال، وأيضا في النصارى كثيرون قسيسون، ورهبان، ومترهبان، ومترهبات، وبتركهم الزواج ينقطع فيهم النسل، وفي الأندلس لم يكن فيهم قسيسون ولا رهبان ولا مترهبان، إلا جميعهم يتزوجون ويزداد عددهم بالأولاد، وبترك الحروب وركوب البحر. وهذا الذي ظهر لي حملة على إخراجهم، لأن بطول الزمن يكثر". (الحجري،، 2004، صفحة 113، 115)

كما ذكر معلومة مرتبطة بالقضية وأراها مهمة جدا، وهي أن قلب الثاني أمر بتسجيل جميع الأندلسيين، وتكرر ذلك بعد سبعة عشر سنة لمعرفة نسبة تزايدهم، فلما تأكدوا منه، أمر قلب الثالث قريبه بمدينة بلنسية (مركش ذا قرسنا Marques De Carazena) عبر كتاب بالشروع في إخراج المسلمين الأندلسيين، وذكر أنه قام بترجمة نسخة عنه للسلطان زيدان ابن السلطان أحمد بمراكش. (الحجري،، 2004، صفحة 116) وكان تاريخ الكتاب حسب (1018هـ) وبدأ في تطبيقه بتاريخ (22 شتنبر عام 1196هـ). (الحجري،، 2004) (الحجري،، 2004، صفحة 118، 119) والوثيقة كما أوردها أوقاي تحدد شروط الطرد بدقة وهي كالآتي:

✓ تتم معاقبة كل مسلم، وتحديد مسلي بلنسية وقشتالة، ممن لم يثبت تنصيرهم وكانوا سببا في أي تمرد بالطرد وبالأموال والأولاد، لأنهم أقرب لمصدر الدعم ويخص اسطنبول والمغرب العربي وقد استنجدوا بهم.

✓ يُمهّل المسلمون بتلك المقاطعات ثلاثة أيام ليجمعوا أثاثهم وأغراضهم، ويتجهوا للبحر لينتقلوا إلى المغرب عبر سفن تنتظرهم، ومن يتجاوز ذلك يُقتل في الحين، كما لا يجوز لهم التنقل بمفردهم دون أن يرافقهم أحد ويسلمهم لمكان المغادرة.

✓ بعد انقضاء ثلاثة أيام يحق للنصارى الاستيلاء على كل ما يخص هؤلاء، كما يمكنهم إتلافه أو حرقه.

✓ يمنع عليهم دفن أو إخفاء أي أمر، ومن ثبت عليه ذلك يُقتل، ويتم من طرف جيرانه.

✓ الإبقاء على من يتقنون العمل في مجال معاصر السكر والروز وسقي البلاد، ليعلموا غيرهم. على أن يكونوا شبابا، مع الإبقاء، في كل بلد، على عائلة أندلسية من ستة أفراد لم يتزوجوا، ليكون مجموع المسلمين في كل بلد مئة مسلم ممن أثبتوا إذعاناً للنصارى وقبولاً، وخاصة من قدامى الفلاحين، ويترك أمر الاختيار للأهالي.

✓ يمنع استقبالهم أو إخفاؤهم تحت أي سبب، وإلا تعرض مرتكبه للسجن.

✓ الإبقاء على اليتامى والصبيان ذوي أربع سنوات أو أقل، وعلى الأولاد من أم إسبانية.

ولكن السلطان لم يف بأي من هذه القرارات، وهي حاكمة وهمجية ولنا أن نتصور وضعية المسلمين أيامها، ودرجة المحنة والمساوية التي مرّوا بها، بل أصدر أمراً فاضحاً بعد أن خرج المسلمون من بلنسية وأندلسية وما قاربهما نصه ما يلي: "إن كل من اكترى سفينة ليمشي لبلاد المسلمين أن يأخذوا لهم كل من كان أقل من سبع سنين من الأولاد والبنات، وأخرجوا كل من كان في عشرين سفينة. وأخذوا لأهل الحجر الأحمر نحو ألف من الأولاد. وكل من جاز على طنجة وسبتة، فأخذوا لهم أولادهم مثل الآخرين. والله تعالى قادر على أخذ الحق". (الحجري،، 2004، صفحة 119)

وهي وثيقة في غاية الأهمية تشير إلى حقيقة لطالما تحجّج منها كثير من المؤرخين الإسبان، لبشاعة الحدث ولأنه يسيء لتاريخ الكنيسة وتاريخ الملوك. كما تحيل على كثير من الأسئلة ولعل أهمها ما مصير هؤلاء الأطفال واليتامى الذين تم إبعادهم عن أهاليهم، خاصة وأن القرار الأخير رفع السن إلى سبع سنوات؟ ما يعني إضافة عدد أكبر من الأطفال، ناهيك على أن صاحب الرحلة ذكر أن ألفاً من الأطفال تم الإبقاء عليهم.

وأمر آخر وهو التمييز العنصري في مسألة الفصل بين الأندلسية والأب المسلم، وطرد هذا الأخير بلا أولاده، والأصعب في ذلك هو تقليص عدد السفن والسماح بالاعتداء على رعاها.

وعليه فالمسألة إنسانية بالدرجة الأولى، وليس كما يبرر البعض سكوته بأنها قضية إقليمية أو صراع حضارات.

ومن المعلومات التي وردت في النص مرتبطة بالأندلس في جانبها الإنساني، مسألة حرص الأندلسيين على عدم الاختلاط بغيرهم من النصراري والمهود خاصة عبر الزواج، وقد أكدها علماء التاريخ، والسبب رغبة الأندلسيين في الحفاظ على نقاء وشرف جنسهم. (الحجري،، 2004، صفحة 40)

وتلك صورة حية عن مظاهر الحياة الاجتماعية التي سادت آنذاك، وقد بلغت درجة من التعقيد وُلدت اضطرابا اجتماعيا، وشعورا بعدم الارتياح. فكثرة الموريسكيين التي ذكرها المحققون في مذكراتهم، وتمركزهم في مناطق بعينها، ورفضهم كل أشكال الاندماج مع النصراري، خلق رعبا وخشية وتباعدا، وعجّل في مسألة اتخاذ قرار التهجير عنوة أو الإبادة. ففي مقاطعة أراغون Aragon كان عدد الموريسكيين في تزايد، في مقابل أسر مسيحية قليلة، وفي مقاطعات أخرى كان كل سكانها موريسكيون كما يذكر نص للقس كلود دو برونفسال Claude De Bron serval إثر زيارة قام بها إلى إسبانيا بين سنتي 1531-1533. (كارجك، 1983، صفحة 23) وزاد في الشعور بعدم التعايش الشك ونشاط الجوسسة ما تبعها من محاكمات. (كارجك، 1983، صفحة 19، 25)

ولعله الشعور الذي رسم ملامح الرحلة، فكل ما ورد فيها لا يخرج عن هذا الإطار الاجتماعي، ونلمس ذلك في حديثه عن مجموعة من المترجمين الذين اشتهروا بالأندلس وقتها، وذلك من العلامات التي تحيل على الحياة الاجتماعية بأبعادها الفكرية والثقافية، ولكن كما يبدو من الرحلة فإن ازدياد ذلك النشاط في السنوات الأخيرة سببه الحاجة للتواصل، وعودة الحديث باللغة القشتالية إضافة إلى الإسبانية والفرنجية. ومن الأعلام الذين عرفهم ووقف على عملهم: الأكيحل الأندلسي، والشيخ الصالح الجيس، ومحمد بن العاصي حفيد الشيخ الصالح الجيس، (الحجري،، 2004، صفحة 28، 29) وعملهم الترجي انحصر في المجال الديني وهو سبب حديث أوقاي عنهم، ما يعني أن اللغات الأجنبية كانت وسيلة المسلمين في التواري والاختباء، لإعادة تنظيم أنفسهم والحفاظ على ذاتهم.

وفي الرحلة أيضا تصوير للحياة في المغرب حيث تحول الأندلسي من صاحب وطن إلى لاجئ، كما يُفهم من قوله أن الولي أبو الغوث القشاش كان يعطهم في كل يوم نحو ألف وخمسمائة قرصة من الخبز صدقة. (الحجري،، 2004، صفحة 58) وهي صورة حزينة حتى ولو كان ظاهرها مدحا لصنيع المغاربة، لأنها تعبر عن مذلة بعد عز، وتشرد بعد استقرار.

ومن الصور المظلمة أيضا، حديث الرحالة عمّا تعرض له الموريسكيون وهم على متن السفن، من سرقة ونهب على طول سواحل البحر المتوسط، وقد سعى بنفسه لاسترجاع بعض أموالهم.

والرسالة لا تغادر مظاهر الكتابة الموريسكية من حيث الأسلوب واللغة ومن حيث الإصرار على الموقف تأكيداً، للذات ضد ما يهددها من شتات، بعد قرار النفي والمنع والحجر على اللغة والممتلكات، الذي صدر في حقها بقرار سياسي وإيديولوجي من إسبانيا بعد الاسترداد، كما تعد مثالا صادقا عن عدم استسلام المسلمين بالأندلس، حتى بعد نفهم وإخراجهم منها من العودة، وقد تجلّت هذه الرغبة في شكل رسائل ديوانية كتبت لسلطين وملوك المغرب وتركيا، وقصائد استعطاف واستنجد وغيرها، وتعدى الأمر إلى أن انخرط بعض الموريسكيين ممن رحلوا إلى الجزائر (سواحل شرشال)، ضمن البحارة الأتراك للإغارة على السواحل الإسبانية لمعرفتهم الدقيقة بها، حلما بالانتصار، وأملا في تحقق نبوءة عودة الأمجاد التي راجت حينها بينهم. (كارجك، 1983، صفحة 17، 62، 67، 85) (ماركيث، 2015، صفحة 62)

ولأن الجانب الديني وثيق الصلة بالإنسان وبالحيوة الاجتماعية، فلا بد من رصد مظاهره في الرحلة. والحقيقة أنها جميعا تصب في محوره، إذ دارت حوله المناظرات التي قام بها صاحبها، مستغلا مكانته وعلاقاته وتنقله بين دول أوروبا، (فرنسا وأنجلترا)، للدفاع عن الدين الإسلامي معتبرا ذلك بابا للجهاد، (الحجري، 2004، صفحة 147) وبالتالي فإن الرحلة وجه من وجوه النضال الذي لم يتوقف عند الموريسكيين، إذ لم يمنعهم الطرد من مواصلة الدفاع عن ذاتهم، سواء داخل الأندلس أم خارجها، كما هو الحال بالنسبة لصاحب المدونة.

وتعد المناظرة من نتاجات الفكر والمنطق، وشاهد العبقرية والقدرة على المحاجة، وعلى امتلاك الدليل وسبيل توظيفه. وتمثل درجة راقية من درجات الفكر، إذ يتمكن منها ذوو التوسع في العلوم وأهل الاختصاص.

وقد ساعدت الأجواء السوسيوثقافية السائدة آنذاك على نشاط هذا النوع من الحوار، تذكیه الخلافات الجوهرية بين الشخصيتين، وعدم الانسجام والتوافق الذين أصبحا يُطرحان بحدة إثر العداء الذي أبانته السياسة الإسبانية بسبب تكاثر الموريسكيين، وعدم استسلامهم لقرارات التنصير ومحاولات الدمج. يقول البطريك ريبارا: "إن الموريسكيين بعد أن تم تعميدهم، استمروا دائما يمارسون تعاليم القرآن علانية مظهرين احتقارهم لطقوس الدين المسيحي وساخرين بالقران المقدس وبالتماثيل والأشياء المقدسة". (كارجك، 1983، صفحة 48) (ماركيث، 2015، صفحة 210)

وتؤدي هذه الأقوال إلى جوهر الصراع وهو الدين، وهو السبب في التفكير في مجموعة من الحلول رغبة في تحقيق الاندماج كالتشجيع على الزواج المختلط وخاصة في بلد الوليد (Valladolid) (1545). (كارجك، 1983، صفحة 48، 49) واشترط الدفن في مقابر المسلمين وبالطقوس المسيحية.

وقد امتلك صاحب الرحلة حسًا دينيا وغيره عليه واضحة، فجعل المناظرة والدفاع عنه بالحجة جهادا في سبيل الله. (الحجري،، 2004، صفحة 55) كما تمكن من شروطها وهي حسبه البرهان والنصوص عبر الاستشهاد بالقرآن وبالتوراة والإنجيل. (الحجري،، 2004، صفحة 59) وسنقتصر على نماذج منها فقط لكثرتها، وربطها بالمواضيع الكبرى التي تتكرر في كل حوار بين الديانتين: الإسلامية والمسيحية ومنها:

✓ موضوع الصيام واختلافه بين المسلمين والنصارى، وغاياته المقدسة، وهو إضعاف النفس وتقوية إيمانها ورد الغرائز لدى المسلمين، بخلاف الصيام لدى النصارى، حيث إنه يساعد، بشكله الممارس، في تقوية الجسم فقط، بدليل ما جاء عن الأطباء والحكماء. وفي ذلك قال الرحالة: "قال بقراط وجالينوس وابن سينا وجميع الأطباء وتتفقون معهم أن لحفظ الصحة ينبغي أن يوكل الإنسان في نصف النهار أكثر مما ينبغي أن يأكل في الليل وصيامكم على مقتضى هذه القاعدة لا يزيل الجسم شيئا من قوة الجسد بل يزيد فيه قوة لأن من حفظ الصحة تزداد القوة". وذلك ردا على حجة النصراني المتعلقة بالغاية من صيامهم. (الحجري،، 2004، صفحة 66)

✓ علة تحريم الخمر هو "الحفاظ على العقل لأنه" أفضل ما تكرر به على بني آدم". (الحجري،، 2004، صفحة 66)

✓ مسألة تعدد الزواج لدى المسلمين، وردها إلى غايات اجتماعية وهي تعمير الأرض، والحرص على التكاثر والحفاظ على النسل، وأما مواجهته بأنها تتعارض مع مسألة شرب الخمر، فرد بأن الماء أفضل للصحة، وفي بعض دينهم أن ولد سيدنا زكريا لا يشرب الخمر تكريما لوالده، وفي ذلك انتقاد صريح لاعتقادهم. (الحجري،، 2004، صفحة 67)

وإذ يذكر الحجة يذكر حجج الخصم، ففي الزواج ذكر أن سليمان وإبراهيم عليهما السلام تزوجا أكثر من واحدة. وهم يعلمون ذلك، وأما كون آدم عليه السلام لم يتزوج غير حواء، فلأنها كانت مكتملة عكس ما حلّ ببعض نساء الزمان المتأخر من أمراض كالعقم وغيرها، وأما مسألة تعمير الأرض فإن السلاطين قديما كانوا بإمكانيهم جمع عدد كبير من الجيوش، عكس سلاطين هذا الوقت، وهذا يتطلب تفكيراً في كيفية زيادة العدد وتكثيره. (الحجري،، 2004، صفحة 68)

ومما يلفت في إحدى مناظراته، كلامه الذي أنهى به حديثه في شكل حوار بينه وبين الآخر المحاور جاء فيه: "نحن رأينا رجالا من أهل دينكم وتكلمنا معهم، ولم نر قط من قال لنا مثل هذا الكلام، والأجوبة التي رأيناها وسمعناها منك، قلت لهم: اعلّموا أني ترجمان سلطان مراكش من كان في تلك الدرجة يحتاج يقرأ في العلوم وكتب المسلمين وكتب النصارى، ليعرف ما يقول وما يترجم بحضرة السلطان". (الحجري،، 2004، صفحة 67) وهذا فتح أمامه مجال الرد على الخصوم

ومواجهتهم بالحجة، كما سمح له بمقارنة ما جاء في التوراة والإنجيل وتبع مختلف المذاهب التي ظهرت بعدما طالها التحريف بالزيادة أو النقصان. (الحجري،، 2004، صفحة 75)

ومما يلاحظ على الرحالة أنه يقدم الحجة الصريحة من النص الديني، فإن تعذر عليه استخراجها عن طريق قياس الأشباه بالنظائر، كما في مسألة تحريم أكل الخنزير، حيث استغل حكاية هلاك نحو ألفي خنزير لرعاة لتأكيد عدم صلاحيتها للأكل قائلا: "قلت لهم: الأنبياء، عليهم السلام كانوا يخسرون الناس في أموالهم؟ قالوا لا. قلت لهم: هذا نحو ألفي خنزير تساوي دراهم كثيرة، وإذن سيدنا عيسى في إفنائها وتلفها، وأن أربابها يخسرون قيمتها لأجل الخنازير كانت عنده حراما، ولو أن الخنازير كانت من المواشي المباحة لم يأذن سيدنا عيسى عليه السلام للجنون بالدخول فيها لإفسادها وهلاكها" (الحجري،، 2004، صفحة 68، 69) مع التدقيق في موضع الاستشهاد، وهو في الفصل الخامس عشر لمرقش من الإنجيل.

ومن استراتيجيات المناظرة لديه أنه لا يكتفي بالحجة من القرآن الكريم، بل يبطل دعوى المناظر الكافر من التوراة ومن الإنجيل إن لزم الأمر، بمعنى أنه يجادله بحجته (أي بحجة الكافر نفسه). ومن شواهد ذلك دفاعه عن تحريم القرآن للخمر لمضاره، ووجود التحريم والنهي في التوراة وفي الإنجيل. (الحجري،، 2004، صفحة 66، 67) ونسجل هنا إمامه بسير الأنبياء، وحفظه لأحاديث نبوية كثيرة. (الحجري،، 2004، صفحة 76)

ومن حججه ما استمده من نظام الحكم لديهم، وسياسة التعيين في المناصب العليا، ففي إيطاليا يعين -حسبه- الشخص في الكنيسة لعام واحد، يُحرّم عليه الخمر فيه، وهذا دليل من المجتمع على الضرر الذي يُحدثه الخمر للعقل، وتأثيره على قرارات الإنسان. (الحجري،، 2004، صفحة 67)

وفي مواضع نجده يركن للعقل بتأويل السلوك والعبادة، كما فعل في قضية الخلاص، حين ربط بين مراحل الوضوء وما يضمّه من أعضاء ويرتبط به من حواس، وبين تخليص الإنسان مما ارتكبه من آثام. (الحجري،، 2004، صفحة 82، 83)

ومن حججه العلم كما تؤيده الكتب المتخصصة، وقد رجع إلى كتاب ترجمه بأمر من السلطان مولاي زيدان لرجل فرنجي اسمه (القبطان) وأشهر ما فيه قوله: "الكلام الذي عندنا عن التوراة عن الأنهار أنها تخرج من موضع واحد، فهو باطل وكذب بالعيان، لأن هذه الأنهار الأربعة تخرج من غير واحد، فالخلاف من ذلك فهو ظاهر لمن يعرف مواضع الدنيا، انتهى". (الحجري،، 2004، صفحة 79، 80)

وتعدى فعل الجدل عنده النصرارى ليكون مع أحد أحبار اليهود، عبر مناظرة دار موضوعها حول شكل الطهارة عندهم، وادعاءهم على بيت المقدس، وعلى موسى عليه السلام، مستشهدا بكتاب عبد الحق الإسلامي، من أحبار اليهود لكنه أسلم وكتب "السيف الممدود في الرد على اليهود". (الحجري،، 2004، صفحة 89، 92)

وبهذا تتراوح حججه بين الدينية: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، وبين الحجج العلمية: الطب والفلسفة والاجتماع والعادات والتقاليد. (الحجري،، 2004، صفحة 92، 103) ومن الشعر، (الحجري،، 2004، صفحة 49، 72) وكتب المتصوفة. (الحجري،، 2004، صفحة 135، 136، 143)

ويعد الاحتجاج بالتوراة والإنجيل حجة قوية على الكفار. وقد أشارت المصادر إلى خطورة ذلك النوع من الاحتجاج، كونه يعصف بفكرة ألوهية عيسى وبفكرة التثليث. يقول كارجاك، لوي، : "إن التهجمات ضد محمد أو ضد القرآن، هي ولاشك أقل حجة وإقناعا من إلحاح المسلمين وتركيزهم على إنسانية المسيح، وهي طريقة لإنكار ألوهيته ورفض التثليث...". (كارجاك، 1983، صفحة 16)

وتأتي قيمة هذه المناظرات أنها تضمنت معلومات قيّمة عن الفرق بين الإسلام وغيره من الديانات، كما أبانت أن الصراع بين الموريسكيين وبين الإسبان صراع ديني بالمقام الأول والوحيد، ويتأكد ذلك ضمنا حين أورد أن الفرنج يطلقون اسم تركي على كل مسلم، وهذا يحيل -أيضا- على سيطرة تركيا آنذاك على المشهد الإسلامي، وتحولها لقوة سياسية وعسكرية.

يلاحظ أن الأسئلة التي طرحت بين الرحالة وبين مناظريه من النصرارى في غاية الأهمية، كونها مثار جدل قديما وحديثا، كمسألة عيسى عليه السلام وهل هو ابن الله، ومسألة تعدد الزوجات التي يحارب بها المسلمون دائما في كل حوار عقدي، ومسألة المصير والجنة والنار. وقد ساعده على الخوض فيها بكل قدرة حفظه للإنجيل والتوراة. (الحجري،، 2004، صفحة 125، 129) واطلعه على مذاهب المسيحيين واختلافاتها، وأكثر من ذلك تاريخ ظهور تلك الاختلافات، ولا يقف عند الحفظ فقط، بل تعداه للمقارنة قصد استقصاء نقاط الاشتراك، وتلك أفضل الردود إذ يربك بها مناظره بحجته، كما هو الشأن في مسألة الخمر ومسألة الجنة والنار. كما نلمس عنده استعانتة بالواقع والتاريخ في بعض حججه، كما هو الحال في الاستدلال على إباحة التعدد في الإسلام، بالحفاظ على التكاثر تحقيقا للكفاية في حال الحروب وغيرها.

ومن أهم العلامات التي يحيل عليها اهتمامه بالجانب الديني وتكريس رحلته لخدمته، ارتباط الذات الموريسكية بدينها رغم محنتها، فقد كان بإمكانهم التحول للمسيحية في مقابل الحفاظ على الحياة التي دأبوا عليها في جنهم الخضراء، ولكن هويتهم التي انطبعت بالطابع الإسلامي، رفضت ذلك معلنة انتماءها وشخصيتها. وفي هذا النوع من النصوص، حيث تسيطر الذات على الموضوع، نجد تصورا معيناً عن الآخر الذي يظهر جلياً. فغالبا ما صور الرحالة الأندلسيون النصاري بالكفر والهمجية، واستهجنوا عاداتهم وتقاليدهم، ونلمس في رحلة أفوقاي تركيزه على الاختلاف العقدي، وهو موضوع مناظراته، وفي نصه عبارات كثيرة تدل على ذلك منها: "وهذا القول هو ابتداء شركهم ... لعنهم الله وأخزاهم". (الحجري،، 2004، صفحة 121) وقوله: "فانظر هذا الاعتقاد الفاسد الذي عندهم في دينهم"، يقصد اعتقادهم بأن عيسى ابن الله. (الحجري،، 2004، صفحة 123) وهذا يعني تشكل تصور ثابت لدى الأندلسيين عن الآخر، جعلهم يميزون ذواتهم عن غير المسلم وإن كان إسبانيا. وإن لم تظهر هذه الفروقات في السنوات الأولى للتواجد الإسلامي بالأندلس، كون مسألة الدين لم تكن مطروحة، فإنها ظهرت بشدة مع حرب الاسترداد، حيث حورب الأندلسيون اعتباراً لدينهم.

وعبر مرآة الدين عكست الرحلة صورة غير المسلم نصراني ويهودي في نظر مؤلفها، ومنه نقول أنه السياق البارز الذي تبلور ضمنه الآخر. ويدعم هذا وصفه للحكام المسلمين بالعدل والجود وبنصرة الاسلام، كما نلمسه في حديثه عن سلطان تركيا وسلطان المغرب. ومنه فالرحلة بحكم موضوعها (الجهاد الديني)، وزمنها (سقوط غرناطة وانهازم العرب وقرار النفي)، ومسارها (الدول الغربية)، تختلف عن مثيلاتها أي نصوص الرحلات الأندلسية التي سبقتها، وهذا يعني دخول الرحلة الأندلسية منعطفاً تاريخياً جديداً على مستوى المواضيع والأساليب، معلنة تكييفها مع السياق التاريخي وعصر تأليفها.

فالرحلة تقدم صورة نافية للآخر، وتدلل على الإكراهات الفكرية المعقدة التي خضعت لها ذات الرحالة، ومثله الذات الأندلسية المسلمة في سنواتها الأخيرة، أي بعد انتهاء حروب المسلمين في حرب البشراة (Guerra de las Alpujaraas) واستسلامهم لواقعهم الجديد. وهي بذلك تقدم صورة أخرى عن العلاقات التي سادت الطبقات الاجتماعية بالأندلس، فبعد ما طبعها من توافق وتوأم، انقلبت الصورة لتعبر عن موقف عدائي وتنافر شديد. وهذا يدل على أن العلاقات الاجتماعية محكومة دائماً بتوفر شروط معينة تحكمها، ويتقدمها العدل في المعاملة، ووسطية الموقف والرؤية.

إن الرحلة تعكس علاقة سوء التفاهم الاجتماعي والثقافي بين المسلم الأندلسي وبين الإسباني النصراني. ما وضع الرحالة في حالة نفي له بعد أن انقلب إلى الآخر، بسبب ما عايشه وعانى منه على المستوى الشخصي والجماعي كما يذكر، إذ

عاصر قرار النفي، وشاهد مآسي ترحيل وهروب المسلمين سرا، وكان واحدا منهم. لذلك نجد صورة معادية عن الآخر متأثرة بالسياق التاريخي والاجتماعي الذي عايشه بالعيان، وفي المقابل التوحد مع الذات والنحن المسلمة، كما تحيل عليها عبارات التقدير والامتنان للحكام المسلمين، واستهجان الحكام الإسبان.

وهنا نجد أنفسنا أمام صورة أخرى مقابلة للصورة التي ترسمها كتب الأخبار والمدونات القشتالية خصوصا عن الأندلسي المسلم (عدو الله والمسيح، كافر، مغتصب، همجي، متعصب، مارق، متسلط). وتلك صورة طبعت الجدل بين الطرفين، فقد تبني كل منهما "لهجة انتقامية منكرة على الخصم الديني والسياسي أي إدراك سليم، وعندما يذكر دين الخصم يقولون: "كيف يمكن الاعتقاد في هذه الحماقات؟". (كارجك، 1983، صفحة 17) (إيبارا، 2005، صفحة 29، 32) وغيرها من الأوصاف التي تشكلت في الذاكرة الجمعية الإسبانية عبر التراكمات التاريخية، ومن الآراء التي عززت ذلك الموقف القول بأن العرب من سلالة العبيد التي لا يحق لها الحكم، كما روجت له كتب وأقوال على غرار ما جاء عن بلاس فارو Blas Verdu في تعليقه الطرد وربطه بطرد إسماعيل وأمه هاجر سابقا. (سنوسي، 2016) (كارجك، 1983، صفحة 59) وهذه الفكرة كانت سببا في ظهور قصائد وأشعار موريسكية تعتبر وجها من وجوه الجدل، كتلك التي كتبها محمد رمضان حول شهرة محمد صلى الله عليه وسلم، مسبوقة بمقدمة نثرية عن سلالة سيدنا إسماعيل عليه السلام. (كارجك، 1983، صفحة 75) ومحمد ديفارا Mohamed Devera عن تجربة عيد الأضحى. (كارجك، 1983، صفحة 58) في مقابل ظهور أشعار نصرانية مبهجة بقرار الطرد على غرار ما كتبه فاليريو دو اقرادا Valerio Fortino de Agrada وسلفارا Silvera. (كارجك، 1983، صفحة 60) (ماركيث، 2015، صفحة 122، 160)

إن ما قدمه هذا الرحالة عمل ثقافي بمفهومه الانثروبولوجي، من حيث عنايته بأنماط السلوك المادية والمعنوية السائدة في المجتمعات محور الزيارة، والتي من خلالها قدم وصفا للعادات والتقاليد شملت الأطعمة والملبس والأواني، وشكل الجسم، واللغة والمعتقد، واللباس الرسمي والعادي، والعبادات، والمدن والبنائات، والمخطوطات، والطرق، ودور التعليم وغيرها. ولعل أفضل ما يمثل ذلك الجزء، وصفه الذي جاء مرتبطا بزيارته لعائلة القاضي بفرنسا، حيث صادف احتفال ليلة المولد عنده وصوم أفراد العائلة ضمن طقس مسيحي. فكان كغيره من الرحالة دقيق الملاحظة ذا إحساس عالٍ، وهذا من علامات الذكاء والخبرة. إذ نقل صورة المكان والشخصيات نقلا دقيقا يجعل القارئ يسافر إلى زمانه وبيئته.

كما عبّر بحماس عن انتمائه لجذوره الأندلسية الإسلامية، وبالتالي أعطى هذا الرحالة المميّزة صورة عن كل موريسكي مسلم، جاهد بكل صدق للحفاظ على شخصيته، وتوريث مميزاتهما لمن بعده من أجيال، وتلك حقيقة تحدث عنها علماء التاريخ وهم يعرضون صوراً من ملحمة قام بها المسلمون للتصدي لقرارات مسخهم ونسخهم في قوالب غريبة عنهم، ومما نقل في ذلك أن Francisco Cordoba كان يحرص على الصيام رغم السرية المفروضة حوله، ورغم محاولات التجسس التي تعرض لها. (كارجاك، 1983، صفحة 25)

تصب إذن المدونة موضوع البحث في صميم الأدب الموريسكي موضوعاً وشكلاً، ولا تختلف في ذلك عمّا نظم من شعر أو نثر، يطبعه "التعبير الشرقي المفعم بالشجن وغيرها من خصائص تلك الدرر، التي أفرزها حقا القلب المدجن!". (ماركيث، 2015، صفحة 46)

والرحلة إضافة إلى كل ما قدمته من صور وتجليات، في غاية الأهمية، كونها صدرت عن مشاهدة ومشاركة ومعاينة، فهي بذلك أصدق من أي نص تاريخي مروّي، وهي كغيرها من النصوص الأدبية التي ظهرت في شكل رواية أو شعر، تخليد مستمر للموريسكي بكل كماله الإنساني وإبداعه الفكري والثقافي.

4. خاتمة:

- ✓ تتطلب دراسة الأدب الموريسكي تجاوز المجال المكاني وهو إسبانيا، إلى البحث عن مصادره في الدول التي استقر بها، وخاصة تونس والجزائر والمغرب، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن كتباً كثيرة في النقد والفلسفة والتاريخ والرحلات، وضعها علماء من أصول أندلسية في هذه البلدان، في مرحلة ما بعد السقوط، وعليه فهي تشكل الأدب الموريسكي، إذا تجاوزنا مسألة المواضيع، علماً أن الأدب الموريسكي يتعدد شكلاً ومضموناً، وتحكمت فيه ظروف التأليف وسياقاتها ومكانه.
- ✓ الرحلة تعبير واضح عن الصراع بين المعسكرين الإسلامي والنصراني، والمناظرة شكل من أشكاله خاصة وأن أسئلتها دينية.
- ✓ بدأ صاحب الرحلة اجتماعياً، وذاك طبيعي إذ أنه مجاهد في سبيل الله كما ذكر بالكلمة والحجة المنطقية، لذلك لا يمكنه أن ينفعل أو يبدي غضباً في مناقشاته، وهذا سبب اختلاطه بالنصارى واليهود، وسبب ترده على منازلهم واجتماعاتهم، مستغلاً وظيفته السياسية وهي السفارة، وتعدد لغته كونه يتقن أكثر من واحدة.
- ✓ توفرت في النص جميع مظاهر المناظرة، وخاصة الوضوح وعرض الحجة ونقيضها.

- ✓ في الرحلة مقاطع تعبر عن حالة ارتياب وخوف صاحبيها، وهو حال الأندلسيين المسلمين، بسبب ما وقع لهم من تعنيف وتقتيل. فالرجل في حالة شك دائم من الآخر، ويصفه كثيرا بالعدو، وهذا يعني اضطراب الجانب النفسي لدى الأندلسيين وتضايقتهم وشعورهم بالمرارة وبالحزن.
- ✓ الرحلة بمضمونها وبمعجمها الديني، والعامي، والعربي، والسياسي، والجغرافي والثقافي عموما، وبحيزها المكاني (البر والبحر، المغرب، وبعض بلدان أوربا)، مصدر قيم من مصادر المعرفة بالعلاقات السياسية والدينية بين أوربا والأندلس والمغرب.
- ✓ في الرحلة صورة جلية عن الآخر كما ارتسم في الأذهان المسلمة بعد حملة الإبادة التي شنها النصارى، بحماية الكنيسة.

قائمة المراجع:

- 1- أحمد بن قاسم الحجري، (2004). رحلة أفوقاي الأندلسي 1611-1613. أبو ظبي الإمارات، بيروت لبنان، الأردن: دارالسويدي للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دارالفارس للنشر والتوزيع.
- 2- بلال سالم الهروط. (2008). صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية. الأردن: جامعة مؤتة.
- 3- سعد عبدالله الغريبي. (15 ديسمبر، 2018). الأدب الموريسكي، قراءة في المتاح. تاريخ الاسترداد 15/1/2022، من <https://www.al-jazirah.com/2018/20181215/cm29.htm>
- 4- فرانثيسكو بياتوبيا ماركيث. (2015). القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى.
- 5- فؤاد قنديل. (2002). أدب الرحلة في التراث العربي. القاهرة مصر: مكتبة الدار العربية للكتاب.
- 6- لوي كارجاك. (1983). الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجادلة الجدلية 1492-1640. الجزائر: المجلة التاريخية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 7- مار غوميث ريناو. (2015). التراث الموريسكي المخطوط بحوث مترجمة عن الإسبانية. مصر: مكتبة الإسكندرية.
- 8- ميغيل أنجيل مريس إيبارا. (2005). الموريسكيون في الفكر التاريخي. القاهرة مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- 9- هشام بن سنوسي. (العدد 11 جوان، 2016). صور الموريسكي في المتخيل الإسباني. مجلة الفكر المتوسطي، صفحة 125.
- 10- وهبي كامل المهندس. (1984). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. لبنان بيروت: مكتبة لبنان.

التراث الأندلسي الموريسكي ضمن اهتمامات مخابر البحث بالجامعات الجزائرية _مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية أنموذجاً_

The Andalusian-Moorish heritage in research laboratories in Algerian universities Laboratory of Andalusian literary and linguistic studies as a model

د. هشام بن سنوسي / جامعة تلمسان / الجزائر
Dr. Hichem BENSENOUCI / University of Tlemcen / Algeria

ملخص الدراسة:

إن الانصاف يقتضي حقيقة الاعتراف بأن الموريسكيين الأندلسيين هم الأحفاد الورثة لأكثر الحضارات الإنسانية مجداً، وقد خلف هؤلاء تراثاً ظلّ شاهداً على احتضارهم النفسي والثقافي الهجين طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، حيث سجّلت المخطوطات الموريسكية الأندلسية جوانب بالغة الأهمية في صراعاتهم الحضاري وارتجاجهم النفسي، ودفاعهم المستميت عن هويتهم الثقافية وتمسكهم بمبادئ دينهم، وعليه يمكن اعتبار هذا التراث: نتاج مرحلة مهمّة ارتبطت زمانياً ومكانياً بالصراع الحاد في إسبانيا بين ديانتين ونظامين حضاريين متباينين تماماً.

من هذا المنطلق، اهتمت الجامعة الجزائرية من خلال كيانات البحث الموطنة بمؤسساتها بهذا التراث والاستفادة منه، وربط جديد البحث فيه بما هو أصيل ومبتكر، كضرورة ملحّة لبحث روح جديدة في قراءة وتدبر هذا التراث بشقيه (المادي واللامادي)، وكتأكيد مستمر أنه لا يزال في مادته المصدرية الشيء الكثير الذي يتطلب البحث والدراسة.
الكلمات المفتاحية: الموريسكيون الأندلسيون، المسلمون المنصرون، المسيحيون الجدد، أقلية، إسبانيا، التراث الأدبي.

Abstract:

It should out of partiality be acknowledged that the heirs of one of the most glorious civilizations were the Andalusian Moors, who have, in turn, bequeathed a legacy that still attests to the demise of their hybrid cultural heritage during the 17th and 18th centuries. The Moorish manuscripts illustrate their civilizational conflict, their psychological turmoil, their ardent defence of their cultural identity, and their steadfast devotion to their Islamic faith. Hence, it can be argued that their legacy is the product of a spacio-temporal conflict in Spain between two distinct religions and civilizations.

Keywords: Andalusian Moors, Christianised Muslims, The New Christians, Minority, Spain, Literary Legacy.

تصدير منهجي:

شكل التراث الأندلسي الموريسكي منبعاً فكرياً وثقافياً مهماً للكثير من الدارسين والباحثين والمحققين في العالم العربي، فانكبوا على دراسته وتحقيقه ونشره، وكان للجامعات وكيانات البحث دور كبير في تشجيع الإقبال على تحقيق هذا التراث ودراسته، وبرز في هذا المضمار في الجزائر عدد من أعلام التحقيق والبحث والنظر العلمي نذكر منهم أحمد توفيق المدني، ناصر الدين سعيدوني، إسماعيل العربي، يحيى بوعزيز، الربيعي بن سلامة، عبد الله حمّادي، برار عليّة، شكيب بن حفري، أحمد أبي عياد، حنيفي هلايلي، جمال يحيياوي.. (سعيدوني، 2003، ص. 325-343) وغيرهم ممن جعلوا البحث في التراث الأندلسي الموريسكي في المنجز الجامعي الجزائري محط أنظار المجتمع الجامعي محلياً ودولياً.
وأمام سعة هذا التراث والاعتراف من معينه، سعت الجامعة الجزائرية إلى إنشاء مخابر بحث بهذا الخصوص، باعتبار هذه الأخيرة؛ الهيئات الأساسية والقاعدية للبحث، لتنفيذ استراتيجية وأهداف البحث العلمي التي تضعها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، حيث توكل لها مهمة تحقيق أهداف البحث والتنمية، وإجراء الدراسات والبحوث، ونشر

المعرفة، وترقية العلم، وتحسين التكوين وإعداد الباحثين، وتوفير البيئة المناسبة للإنتاج والإبداع والابتكار والتطور في مختلف المجالات.

1. مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية؛ وصف مختصر:

مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية Laboratorio de Estudios Literarios y Lingüísticos Andalusíes؛ هو كيان بحث موطن بكلية الآداب واللغات في جامعة تلمسان، يوجد مقره في المبنى المخصص للمخابر العلمية على مستوى القطب الجامعي الجديد، أسسه الراحل الأستاذ الدكتور بومدين كروم (رحمه الله)، وتمّ اعتماده في عام 2012 من قبل المديرية العامة للبحث العلمي والتطوير التكنولوجي؛ وهو مشروع بحث يُعنى بالدراسة العلمية الموثقة لجانب من جوانب الحضارة الأندلسية الزاخرة، هو الأدبي بشقيه: الشعر والنثر، الشعر بفنونه وأغراضه، والنثر بأنواعه وموضوعاته، مع ما واكهما من جهود نقدية وكذا الدراسة اللغوية بمستوياتها؛ ذلك لأن التجربة الأندلسية في هذا المجال تجربة نوعية وعميقة.

يتألف المخبر في مرحلته الأولى من أربع فرق، هي:

- فرقة الدراسات الأدبية والنقدية.
- فرقة الأدب الصوفي في الأندلس.
- فرقة الدراسات اللغوية الأندلسية.
- فرقة الدراسات الاستشراقية الأندلسية.

هذا مع إمكانية إضافة فرقتين أخريين مستقبلا، تختص إحداهما بالمخطوط الأندلسي، والأخرى بالترجمة (رابط مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية [د أ ل أ ELLA]، 2023).



صورة رقم (02): مجمّع مخابر البحث



صورة رقم (01): شعار المخبر

2. أهداف البحث العلمي والتطوير التكنولوجي:

يستهدف المخبر بفرقه تحقيق الأهداف الآتية:

- الإضاءة العلمية لحلقة مهمة في سلسلة الحضارة الإسلامية، هي الحضارة الأندلسية.

- الكشف عن التجربة الأدبية الأندلسية مع الوقوف على النقاط الإبداعية فيها وتتبع تأثيراتها إقليمياً وعالمياً.
- الكشف عن نقاط القوة في الدرس اللغوي الأندلسي في مستوياته المعجمية والنحوية والصرفية.
- إنشاء معجم لأدباء الأندلس.
- إنشاء معجم للغويين الأندلسيين.
- جمع نصوص الموشحات والأزجال الأندلسية وتوثيقها في ديوان.
- إنشاء مجلة إلكترونية وأخرى ورقية تكون فضاء معرفياً تواصلياً بين المختصين في المجال.
- تحقيق مخطوطات أندلسية ذات صلة بالمجال.
- عقد ملتقيات وطنية ودولية دورية حول موضوعات تقترحها فرق البحث جديرة بالتوثيق وتعميق الفكرة.
- تأطير طلبية الماجستير والدكتوراه بتوفير الوسائل والإمكانات المنهجية الضرورية (د أ ل أ ELLA، 2023).

3. المواضيع المراد دراستها في المخبر:

- يهتم المخبر بدراسة جميع الموضوعات ذات الصلة بالتجربة الأدبية وكذا الجهود اللغوية الأندلسية، ومنها:
 - التقليد والتجديد في التجربة الأدبية الأندلسية.
 - الموشح الأندلسي، قضاياها الفنية وموضوعاته.
 - الزجل الأندلسي، قضاياها الفنية وموضوعاته.
 - فن رثاء المملكة والمدينة الأندلسية.
 - شعر الطبيعة في الأندلس.
 - المناظرات، قيمتها الأدبية والحضارية.
 - أدب الرحلات، أبعاده الفنية والحضارية.
 - الجهود النقدية الأدبية الأندلسية، النشأة والتطور.
 - المعجمية الأندلسية.
 - الدرس النحوي في الأندلس.
 - الدرس الصرفي في الأندلس.
 - العامية وموقف علماء الأندلس منها.
 - دور الدرسين الأدبي واللغوي في التفاعل الاجتماعي والحضاري في المجتمع الأندلسي.
 - قراءة في الدراسات الاستشراقية (الإسبانية والفرنسية والإنجليزية والألمانية) ذات الصلة بالموروث الحضاري الأندلسي (د أ ل أ ELLA، 2023).

4. وصف أهداف؛ مهام وأنشطة فرق البحث:

4.1- فرقة الدراسات الأدبية والنقدية

أ. الأهداف العامة

- الكشف عن التجربة الأدبية الأندلسية مع الوقوف على النقاط الإبداعية فيها وتتبع تأثيراتها إقليمياً وعالمياً.
- إنشاء معجم لأدباء الأندلس.
- جمع نصوص الموشحات والأزجال الأندلسية وتوثيقها في ديوان.
- تحقيق مخطوطات أندلسية ذات صلة بالمجال.

- الجهود النقدية الأندلسية، النشأة والتطور.
- عقد ملتقيات وطنية ودولية دورية حول موضوعات تقترحها فرقة البحث جديرة بالتوثيق وتعميق الفكرة.
- ب. الأسس العلمية
- النص الأدبي الأندلسي، أشكاله ومضامينه.
- الدرس النقدي وتأطير العملية الإبداعية في الأندلس.
- الموشحات، نشأتها وتطورها وامتداداتها المغربية والمشرقية والأوروبية.
- الزجل الأندلسي، نشأته، تطوره، وامتداداته المغربية والمشرقية والأوروبية.
- أدب الرحلات، القيمة الفنية والحضارية.
- الرسالة، قيمتها الفنية، ودورها السياسي والاجتماعي.
- المناظرة، قيمتها الأدبية والحضارية.
- الأدب الموريسكي.
- العلاقات الفكرية والثقافية بين الأندلس ودول الجوار (د أ ل أ ELLA، 2023).

4 . 2- فرقة الأدب الصوفي في الأندلس

أ. الأهداف العامة

- تقديم بحوث علمية دقيقة وموثقة حول التجربة الصوفية في الأندلس مع رصد اتجاهاتها وامتداداتها.
- الكشف عن التجربة الأدبية الصوفية من حيث مضامينها وأشكالها التعبيرية.
- تحقيق النص الصوفي الأندلسي وتوثيقه.
- الموشح الصوفي، قضاياها الفنية وامتداداته المغربية والمشرقية والأوروبية.
- الزجل الصوفي الأندلسي، فنياته وامتداداته المغربية والمشرقية.
- إنشاء معجم لأدباء التصوف في الأندلس.
- عقد ندوات وملتقيات وطنية ودولية في هذا الشأن.
- تأطير طلبة المستر والدكتوراه في هذا الاختصاص.

ب. الأسس العلمية

- التجربة الصوفية في الأندلس، نشأتها واتجاهاتها وأعلامها.
- المصطلح الصوفي، النشأة والمظان.
- الرمزية الصوفية (الرمز الغزلي، الرمز الخمري، الرمز الطبيعي، رمزية الحرف، رمزية العدد).
- معي الدين بن عربي، شخصيته وتجربته الأدبية الصوفية.
- مظان الأدب الصوفي الأندلسي.
- الموشح الصوفي، الامتداد المغربية والمشرقية.
- الزجل الصوفي وامتداداته المغربية والمشرقية.
- قيمة الأدب الصوفي الفنية والحضارية (د أ ل أ ELLA، 2023).

4 . 3- فرقة الدراسات اللغوية الأندلسية

أ. الأهداف العامة

- الكشف عن الجهود اللغوية الأندلسية في مستوياتها، المعجمية والنحوية والصرفية والصوتية.
- الكشف عن نقاط الاتفاق والاختلاف بين اللغويين الأندلسيين واللغويين في المشرق العربي.
- إنشاء معجم لعلماء اللغة الأندلسيين.
- تحقيق نصوص لغوية أندلسية.
- عقد ندوات وملتقيات وطنية ودولية حول الدراسات اللغوية الأندلسية.

ب. الأسس العلمية

- الحركة اللغوية الأندلسية، النشأة والتطور.
- الإضافة والتميز الأندلسي في:
 - الجهود المعجمية.
 - الدراسات النحوية.
 - الدراسات الصرفية.
 - القراءات القرآنية.
- ابن مضاء القرطبي ونظرية العامل.
- شخصيات لغوية: ابن مضاء، ابن سيده، ابن مالك، ابن عصفور، أبو حيان الغرناطي...
- لغويو الأندلس والعامية (د أ ل أ ELLA، 2023).

4. 4- فرقة الدراسات الاستشرافية الأندلسية

أ. الأهداف العامة

- الاطلاع على الدراسات الاستشرافية ذات الصلة بالتراث الأندلسي، أدبا ولغة.
- إعداد موسوعة المستشرقين المهتمين بالدراسات الأندلسية.
- ترجمة آراء المستشرقين ذات الصلة بالأدب واللغة في الأندلس.
- عقد ندوات وملتقيات وطنية ودولية حول الدراسات الاستشرافية الأندلسية.

ب. الأسس العلمية

- الدراسات الاستشرافية الأندلسية، مجالاتها وأعلامها.
- الاستشراق الإسباني.
- الاستشراق الفرنسي.
- الاستشراق الإنجليزي.
- الاستشراق الألماني.
- دور المستشرقين في التعريف بالتراث الأندلسي وتحقيقه ونشره.
- تأطير طلبة الماجستير والدكتوراه (د أ ل أ ELLA، 2023).

5. التراث الأندلسي الموريسكي ضمن اهتمامات مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية:

5. 1- التراث الأدبي الأندلسي الموريسكي في مشاريع البحث؛ الرسائل والأطاريح الجامعية:

من جملة الرسائل والأطرايح الجامعية التي تمّ تأطيرها في مخبر البحث؛ "دراسة موضوعاتية للتراث الأدبي الموريسكي" (بن سنوسي، 2016، ص. 03)، وقد وقعت في مدخل وخمسة فصول، تطرق المدخل إلى فصول المأساة الأندلسية الموريسكية في ذاكرة المؤرخين والكتاب المعاصرين، وخصص الفصل الأول للحديث عن الموريسكيين الأندلسيين كبقية حضارة متميّزة، وقد قسم بدوره إلى ثلاثة مباحث: تناول المبحث الأول مشكل الأقليات في خضم الأصولية التاريخية ومرجعية الخطاب الأوروبي (من خلال: مفهوم الأقلية، ظهور مشكلة الأقليات في خضم الأصولية التاريخية لنمو القوميات، ومرجعية الخطاب الأوروبي لاستبعاد الآخر).

وتطرق المبحث الثاني إلى الموريسكيين الأندلسيين كورثة حضارة متميّزة، وأما المبحث الثالث فخصص لبحت محنة الموريسكيين الأندلسيين في أعين الفقهاء وموقفهم من الهجرة الأندلسية الأخيرة (من خلال: فتوى الوندشريسي الأولى ثم الثانية وفتوى المغراوي).

أما الفصل الثاني فخصص للحديث عن الهوية الاجتماعية والثقافية الموريسكيين الأندلسيين في منظور الآخر، وقد جاء في مبحثين: خصص الأول للخلفية اللغوية والتاريخية لمصطلح (الموريسكي) في التراثين الغربي والعربي، والثاني لتشكيل الصّورة النمطية للموريسكيين الأندلسيين في المتخيل الإسباني (من خلال: المدونات التاريخية والروايات الإخبارية الدينية، وكذا الكتابات الأدبية الإسبانية من خلال التناول الرمزي لصورة الموريسكي الأندلسي في أعمال سيرفانتس).

وأما الفصل الثالث فخصص للحديث عن فجيرة التحول لدى الموريسكيين الأندلسيين، وجاء في ثلاثة مباحث: تناول المبحث الأول غربة اللّغة ومشكلة التعبير لدى الموريسكيين الأندلسيين (من خلال: احتضار اللّغة العربية والشعور بأزمة الانتماء، ظاهرة الألخميادو ورمزية الحرف العربي، الأعجمية الموريسكية كلهجة إسلامية متميّزة، لغة الموريسكيين الأندلسيين بين التداخل اللّغوي والتفاعل الثقافي).

وخصص الثاني لرسائل الاستصراخ الموريسكية الأندلسية، وخصص المبحث الأخير للحديث عن غم الموريسكيين الأندلسيين بين البقاء في إسبانيا والرحيل إلى المنفى (من خلال: التستر والمداراة كحتمية وممارسة، قرار النفي بين التأريخ والتحري، موقف الموريسكيين الأندلسيين من الطرد واعتزازهم بالنسب وشرف الأهل).

وتطرق الفصل الرابع للحديث عن جدل القطيعة لدى الموريسكيين الأندلسيين، وقد تفرع بدوره إلى مبحثين: الأول خاص بنبوءات الموريسكيين الأندلسيين ومغامراتهم اللاهوتية (من خلال: النبوءة بين الحقيقة التاريخية والمعطى البسيكولوجي، طابعها الجدلي، فكرتي المخلص والخلص، ظاهرة التنبؤ كعلامة للهوية الموريسكية).

وتناول المبحث الثاني تحوّل الحوار الديني في الأندلس الموريسكية إلى نوع من جدل القطيعة الدينية (من خلال: المناظرة الدينية بعد سقوط الأندلس وظهور المشكل الموريسكي، الجدل السري، منهج الموريسكيين الأندلسيين في المناظرة ومصادر ثقافتهم؛ الشهاب الحجري، المناظرة الدينية وفكرة الجهاد، موضوعات الجدل الديني).

أما الفصل الخامس والأخير فخصص لرحلة الموريسكيين الأندلسيين في بحثهم عن البديل، وفيه مبحثان: خصّص الأول لتطبيق الموريسكيين الأندلسيين لشعائهم الإسلامية (من خلال: بعض المظاهر الدينية في أناشيد الحاج الموريسكي بوي مونثون، النزعة التمجيدية والمنهج التعليمي في رحلة الحج، الغربة والحنين، بعض القضايا الدينية في رحلتي ابن الصبّاح والشهاب الحجري).

أما المبحث الثاني فكان خاصا بالحديث عن تعلق الموريسكيين الأندلسيين بالتاريخ المقدس (من خلال التطرق إلى كتاب المغازي الموريسكية وبطولة علي، رسالة موريسكية إلى العالم، الموريسكيون تجاه العذراء وحقيقة السيد المسيح، قصة أهل الكهف طبقاً لرواية أندلسية شعبية، حكاية دانيال مع الملك بُحْتُ نَصْرَ (بن سنوسي، 2016، ص. 03).

وكانت أهم النتائج المتوصل إليها كالتالي:

- شهدت اللغة العربية نفثاتها الأخيرة لدى الموريسكيين الأندلسيين الذين وجدوا في الألفمبادو أو القشتالية العربية متنفساً لتفكيرهم وأدبهم القديم، والظاهرة الواضحة في الأدب الموريسكي أن كتابه كانوا يفكرون ويكتبون بالروح العربية، وإن جرى تعبيرهم بغير ذلك.
- تعتبر الأعجمية الموريسكية المرآة العاكسة لحالة الضمير المعارض، وكنتيجة لذلك استعمل الخط العربي من قبل الموريسكيين الأندلسيين الذين استبطنوا طابعه المقدس ذي الدلالة الرمزية كموقف فعلي تجاه ذلك.
- لقد سعت نداءات الاستغاثة والاستصراخ التي وجهها هؤلاء المضطهدون إلى سلاطين الشرق وأمراء الثغور المغربية إلى إثارة الحمية والحماسة في نفوس المسلمين، وذلك بتدقيق وتكثيف صور الأهوال التي يلاقونها من العدو الكافر عن طريق إبراز الجزئيات التي تثير مشاعر الغيرة والشرف في نفس المسلم، وتخز الشعور الديني لديه.
- إنَّ الغوص في أعماق يوميات موريسكي الأندلس، يكشف لنا عن حياة غنيّة بالصّور التي تبين حرص هاته المجموعة على البقاء على دين الإسلام في حياة اجتماعية ودينية حبلى بمظاهر التسرُّ والكتمان؛ وهو الأسلوب الجديد والإطار المنظم ليومياتهم، الذي خلق ملجأً داخلياً آمناً يستطيع الانسحاب نحوه الموريسكيون المضطهدون للحفاظ على إخالصهم الأصل للإسلام.
- إذا قمنا بتأمل مبدئي لحصيلة هذا التراث بالتوازي مع ما يرسيه من قيم بشكل عام، وجدنا غلبة القيم الدينية التي تدعو المرء إلى التحول من الماضي إلى المستقبل، هروباً وتغلباً على آلام الحاضر الموجعة، فهذه الروح المتديّنة والمستسلمة للقضاء، أصبح فريق من الموريسكيين يرى في الطرد (فرجا) من عند الله وفعلاً يتعلق بمشيئته التي لا مفر من تحققها.
- لقد كان موقف الموريسكيين الأندلسيين من قرار الطرد، واحداً من مواقف كثيرة تحكمت فيها نزعة دينية شديدة الاحتفال بسطوة القدر في مقابل نزعة توفيقية واضحة.
- لقد كان عصر الشهاب الحجري وابن عبد الرفيح؛ عصر الجيل الأول من الموريسكيين الأندلسيين المطرودين من ديارهم خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، وكان لزاماً على هؤلاء المهجرين أن يواجهوا قدراً كبيراً من المشكلات قبل أن يتكيفوا مع البيئة الجديدة المختلفة عن بيئتهم الأصلية جغرافياً وثقافياً، وكان لا بدّ لهم أن يبذلوا جهداً مضاعفاً كي يقنعوا إخوانهم في الدين بصدق إسلامهم وأنهم ليسوا نصارى مقنعين بقناع الإسلام تحت تأثير الأوضاع الراهنة، وبينما كان البعض يعيش أزمة هوية تصدى البعض الآخر للدفاع عن أصالة المرّحلين وحسن إسلامهم.
- لقد تحيّن أفراد هذه الجالية فرص العودة إلى وطنهم المفقود، وهذا ما عزّز لديهم الشعور بالانتماء إلى بقية حضارية متميّزة تحرص على تنمية مشاعر الانتماء والاعتزاز بشرف الأصل لدى الأجيال الجديدة في مواجهة حالة النفور العام الذي تعيشه والنفرة الغريزية التي شعرت بها، من زاوية أخرى كان إشهار السّلالة والأصل بمثابة الإجابة المباشرة عن المهانة التي خضعت لها هذه البقية الحضارية في إسبانيا خلال فترة التفتيش، حيث سيطر التشبث بطهارة السّلالة والاحتفاء بنقاء الدم (بن سنوسي، 2016، ص. 302).

- لقد كانت فكرة النبوءة من الحيل المدهشة التي اهتدى إليها موريسكيو القرن السادس عشر، ليتمكنوا من تحمل حالة اليأس وارتجاجاتها النفسية التي مرّوا بها، لذلك انغمسوا فيها كونها استطاعت أن تمنحهم شيئاً من الامتاع والموانسة، والملاذ الذي بحثوا عنه طويلاً.
- إنّ إحساس الموريسكي الأندلسي بنهايته القريبة جعله يستمر في الصراع ضدّ مصيره المحتوم عن طريق تبني تصوّر متهبّج ويأس، وهذا ما يجعل ظاهرة النبوءة تمثّل إحدى المعطيات البسيكولوجية القارة لدى الموريسكيين الأندلسيين وتفكيرهم الجمعي، الذي عبروا من خلاله عن أملهم في مصير أفضل ومعارضتهم للمجتمع المسيحي.
- إنّ استفحال الظلم والعجز عن مواجهته، خلق حالة من اليأس؛ وهي الحالة نفسها التي كانت وراء ذبوع فكرة الاعتقاد بالمخلص الفرد الذي يقترب ظهوره كلما ازداد غليان الأحداث ليوقف الحيف، وهو تعويض عن النضال ضدّ القهر الحاصل في الزمان والمكان ودفعه إلى عالم آخر، إنّ جملة المتاهات الخيالية التي سبّح فيها الموريسكيون الأندلسيون واعتقدوا بصحتها كان لها منطلقات في التطلعات الأخيرة، فلم يفقد هؤلاء أمل رؤية إخوانهم المسلمين يأتون للوقوف بجانبهم ضدّ مضطهدتهم، لذلك كان الالتجاء إلى ما وراء الطبيعة لدى الكثيرين حلاً منهجياً للمشكل الراهن.
- إنّ الإفصاح عن حالة التوتر الموجودة بين المجموعتين نجد التعبير عنها واضحاً ضمن الأدب الجدلي المتّسم بالهجاء والبرهنة المدعومة، وهو ما جعل هذا الأدب يبدو كتعبير عن جدل القطيعة، ذلك أن المواجهة لم تكن ممكنة أصلاً بين المجموعتين في وجود محاكم التفتيش الرافضة لثقافة التسامح والحوار، غير أن ذلك لم يثن الموريسكيين الأندلسيين عن الدفاع عن معتقداتهم والدخول في جدل متستر كإجراء وقائي، وقد وصلوا اضطلاعهم بهذه المهمة خارج الأندلس في البلاد التي حطوا الرّحال بها كمطرودين أو مرتحلين من خلال مناظراتهم مع اليهود والنصارى.
- لقد استمرت البقية الموريسكية في الدفاع عن عاداتها وتقاليدها الإسلامية، محافظة عليها محافظّة حيّة حتى لحظة الطرد النهائي، واستمرت في ممارسة الإسلام بشكل سري وفقاً لإمكانياتها، معتبرة احترام هذه الشعائر والطقوس؛ شرطاً أساسياً لإنقاذها وعلامة على اتحادها مع الأمة الإسلامية، وهو ما شجع على انتشار نوع من الكتابات التي تعنى بتسجيل الطقوس والتعاليم الإسلامية الأخذة في الضياع والتلاشي في الوسط الموريسكي، لذا عمدت هذه الكتابات إلى التأكيد على بعض المظاهر الدينية التي كانت الغاية منها تمجيد الإسلام وتعزيزه في نفوس الموريسكيين الأندلسيين باتباع منهج تلقيني تعليمي، كما قدمت هذه الكتابات صورة واضحة عن مستوى الثقافة السائدة في ذلك العصر، الذي كانت تحتضر فيه.
- لم يعد واقع الأندلس في هذه المرحلة يستغرق الموريسكي الأندلسي، الذي بات غير مقتنع بجدوى الاندماج فيه، حيث أصبح يحلم في حنينه المردد إلى الديار المقدسة بعالم بديل يكون أكثر طمأنينة وسكينة، لقد كانت الرحلة إلى المشرق فراراً من الواقع المتردي، ورمزاً للانطلاق والتحرر نحو الجذور نحو التطهر والخلاص، الذي لم يعد هناك من سبيل إليه إلا بالرجوع إلى المنبع الروحي وطلب الغفران (كحلّ بديل)، لمحاولة الاجتثاث الحضاري لآخر بقية مسلمة سعت لمواصلة انتسابها إلى الشرق في إسبانيا الكاثوليكية (بن سنوسي، 2016، ص. 304).
- إنّ الاستجابة للحاجات العميقة للمجموعة الموريسكية المضطهدة في نداء الأجداد وابتعاث البطولات، واستثارة الأمجاد لمقاومة الواقع المرهق والمحنة الماحقة، كان وراء ذبوع أدب يستخدم إلى جانب المادة الثقافية الموثقة (من التاريخ المقدس) مادة أخرى من إنتاج الخيال الشعبي، الذي يغلفها بالأساطير والمعجزات، ويضفي عليها

مسحة من الاستغراق الخيالي، ويبدو أنها من الخصائص الأساسية للأدب الموريسكي، الذي كان يلتقط دون تحرج مظاهر الأدب الشعبي التي يلجج بها الناس، ولعلّ هذا الطابع المعتمد على الرواية الشفوية هو الذي ضمن له الامتداد عبر التاريخ من جانب، وعبور الحواجز الجغرافية بين الشعوب من جانب آخر.

- على أنّ هذه الآثار الدينية التي حاول موريسكيو الأندلس أن يدونوا فيها تعاليم الإسلام وقصصه، تحوي في أحيان كثيرة على بعض التعاليم النصرانية ممتزجة بتعاليم الإسلام، ويرجع هذا الامتزاج الغريب إلى ظروف العصر وإلى ضغط المطاردة الدينية التي لبث الموريسكيون تحت روعها. بيد أنّ هذه الآثار الدينية التي خلفوها تنمّ في معظمها عن بغضهم للنصرانية ومثلها وتقاليدها، ممّا يدل على أنّ تسرب التعاليم النصرانية إلى كتاباتهم لم يكن سوى نتيجة لظروف العصر التي باعدت قسراً بينهم وبين تعاليم دينهم الحقيقية.
- وربما كانت الأهمية الأدبية للنصوص الموريسكية الأندلسية نابعة عموماً من تصويرها الفني للحياة الداخلية والمعتقدات الحميمة للبقية الباقية من مسلمي الأندلس آنذاك، ومع أنّ هذه الكتابات لم تتجه إلى مراعاة الرونق والتنميق، لكنها رمت قبل كلّ شيء إلى تصوير التاريخ والتقاليد القومية في إطار ديني، فثروتها تكمن في قيمتها التاريخية والاجتماعية، والأثر الذي تركته في الأفكار الدينية (بن سنوسي، 2016، ص. 305).

2.5- التراث الأدبي الأندلسي الموريسكي في الإنتاج العلمي؛ النشر في المجالات المصنفة:

يهتم أعضاء مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية بالنشر في المجالات العلمية المصنفة، لتوثيق أبحاثهم وتعميم آخر ما توصلوا إليه، ليكون ذات فائدة اجتماعية ودعم لحركة النشاط العلمي، التي تعتبر العمود الفقري للتطور العلمي ولجعل نتائج الأبحاث متاحة لعامة الباحثين كمرجع للأبحاث والدراسات الأندلسية الموريسكية.

جدول رقم (01): بعض المقالات الصادرة لأعضاء المخبر في المجالات المصنفة حسب المنصة الإلكترونية للنشر

الإلكتروني للمجلات العلمية الجزائرية ASJP

الكاتب	فرقة البحث	عنوان المقال	عنوان المجلة	المجلد، العدد، الصفحة	تاريخ النشر	الرتبة
زوهري وليد (أستاذ باحث)	فرقة الأدب الصوفي في الأندلس	ألونسو دي كاستيلو من خلال كاشكول موريسكي مخطوط	المجلة التاريخية الجزائرية	المجلد 5، العدد 1، الصفحة 280-256	2021-06-21	رتبة C
زوهري وليد (أستاذ باحث)	فرقة الأدب الصوفي في الأندلس	بيان لسان الموريسكيين في بلنسية من خلال عقيدة مسيحية باللغتين العربية والقشتالية لتعليم الموريسكيين للسيد مارتن بيريز دي أبالا رئيس أساقفة بلنسية 1566م	مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية	المجلد 5، العدد 3، الصفحة 111-92	2021-10-29	رتبة C
بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	محنة الموريسكيين في نوازل الفقهاء والمفتين الونشريسي	قرطاس الدراسات الحضارية و الفكرية	المجلد 4، العدد 2، الصفحة 25-06	2017-06-30	غير مصنفة

				التلمساني والمغراوي الوهراني أنموذجا		
رتبة C	2017-01-15	المجلد 6, العدد 1, الصفحة 123-139	الفكر المتوسطي	صورة الموريسكي في المتخيل الإسباني	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)
رتبة C	2016-12-10	المجلد 7, العدد 2, الصفحة 71-89	الحوار المتوسطي	نبوءات الموريسكيين بين الحقيقة التاريخية والمغامرة اللاهوتية مختصر القاسم الحجري نموذجا	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)
رتبة C	2020-02-01	المجلد 10, العدد 3, الصفحة 58-68	الحوار المتوسطي	مأساة الموريسكيين في الأدب الأخميدو	فرقة الأدب الصوفي في الأندلس	لكحل سمية (طالبة دكتوراه)
رتبة C	2018-04-15	المجلد 14, العدد 2, الصفحة 118-130	مجلة أنثروبولوجية الأديان	ظهور المصطلح الموريسكي و محاولة اجتثاث الهوية الإسلامية في الأندلس	فرقة الأدب الصوفي في الأندلس	لكحل سمية (طالبة دكتوراه)

5.3- التراث الأدبي الأندلسي الموريسكي في الإشعاع، المقروئية والاستقطاب الجامعي:

يهتم أعضاء مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية بعقد ملتقيات وطنية ودولية دورية حول موضوعات تقترحها فرقة البحث؛ جديرة بالتوثيق وتعميق الفكرة _ كما أشير إلى ذلك آنفاً، وكذا المشاركة في الفعاليات المماثلة لها بشكل منتظم، إيماناً بأهمية هذه اللقاءات العلمية في تأسيس التواصل وبث روح التفاعل بين الباحثين المهتمين بالتراث الأندلسي_الموريسكي.

جدول رقم (02): بعض المشاركات لأعضاء المخبر في الفعاليات العلمية ذات الصلة

المشارك	فرقة البحث	عنوان المحاضرة	عنوان الفعالية	طبيعة الفعالية	تاريخ الفعالية	الجهة المنظمة
بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	صورة المخلص في التراث الأدبي الأخميدو _ موريسكي.	مستقبل الدراسات الموريسكية وتفعيل الشراكة العلمية بين الباحثين	ملتقى دولي	2013-05-29	مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات - تونس
بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	آداب الموريسكيين ولغتهم في ضوء المنهج الفيلولوجي.	مناهج البحث في اللغة والأدب	ملتقى دولي	2013-11-27	كلية الآداب واللغات- جامعة تلمسان
بن سنوسي	فرقة الدراسات	المصطلح	صناعة	ملتقى دولي	2017-02-21	كلية الآداب

التراث الأندلسي الموريسكي في الوطن العربي

واللغات-جامعة جيجل			المصطلح في العلوم الإنسانية / إشكالات: الوضع، التلقي والاستعمال	الموريسكي - الجدور، المفهوم والامتدادات.	الأدبية والنقدية	هشام (أستاذ باحث)
مخبر التنوع اللغوي والتعبير الأدبية والتفاعلات الثقافية- جامعة تلمسان	2018-11-25	ملتقى دولي	النخب في حوض المتوسط عبر الحقب الزمنية والفضاء الجغرافي	الموريسكيون والمسيحيون، صور المجاهدة بين النخب في حوض المتوسط	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)
مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية- جامعة تلمسان	2018-11-28	ملتقى وطني	جديد الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية «الواقع والآفاق»	القصيدة الموريسكية في ضوء المنهج الأسلوبى-قراءة في نموذج-	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	أمينة بن منصور (أستاذ باحث)
مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية- جامعة تلمسان	2018-11-28	ملتقى وطني	جديد الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية «الواقع والآفاق»	التراث الأدبي والمغوي الموريسكي في ضوء الدراسات الحديثة - جهود اللجنة العالمية للدراسات الموريسكية الأندلسية نموذجاً-	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)
مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية- جامعة تلمسان	2018-11-28	ملتقى وطني	جديد الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية «الواقع والآفاق»	El aljamiado, la lengua secreta de los Morisco	فرقة الدراسات الاستشراقية الأندلسية	لعمراوي محمد (أستاذ باحث)
مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية- جامعة تلمسان	2019-04-30	ملتقى وطني	الشعر والعمارة في الأندلس «ديوان الحمراء» Los poemas epigráficos de la Alhambra	ديوان الحمراء من خلال مخطوط موريسكي- استيعاب ما بحمراء غرناطة من التواريخ والأشعار للموريسكي ألونسو دي الكاستيو.	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)

				El manuscrito de Alonso del Castillo: Colección de las inscripciones históricas y poéticas que hay en la Alhambra de .Granada		
مخبر التنوع اللغوي والتعبير الأدبية والتفاعلات الثقافية- جامعة تلمسان	2019-05-02	ملتقى وطني	جزائر الرحلة والرحالة	حواضر الغرب الجزائري من خلال رحلة حجازية لمدجن أندلسي " منشاب الأخبار وتذكرة الأخيار لعبد الله بن الصباح "	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)
مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية- جامعة تلمسان	2020-02-25	ملتقى وطني	النخب الأندلسية العاملة في الجزائر عبر السياق التاريخي والمجال الجغرافي (الحضور، الدور، المصير)	من أعلام النخب الأندلسية المتأخرة في حواضر الغرب الجزائري _المدجن الحاج عبد الله بن الصباح	فرقة الدراسات الأدبية والنقدية	بن سنوسي هشام (أستاذ باحث)
مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية- جامعة تلمسان	2020-02-25	ملتقى وطني	النخب الأندلسية العاملة في الجزائر عبر السياق التاريخي والمجال الجغرافي (الحضور، الدور، المصير)	La élite morisco - andalusí en Tlemcen	فرقة الدراسات الاستشراقية الأندلسية	لعمراوي محمد (أستاذ باحث)
مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية- جامعة تلمسان	2020-02-25	ملتقى وطني	النخب الأندلسية العاملة في الجزائر عبر السياق التاريخي والمجال الجغرافي (الحضور، الدور، المصير)	la moriscologia : ciencia e historia	فرقة الدراسات الاستشراقية الأندلسية	ميساوي فاطمة (طالبة دكتوراه)

			الجغرافي (الحضور، الدور، المصير)			
مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية- جامعة تلمسان	2020-02-25	ملتقى وطني	النخب الأندلسية العالمية في الجزائر عبر السياق التاريخي والمجال الجغرافي (الحضور، الدور، المصير)	الوجود الموريسكي الأندلسي في الجزائر وأثره في تطور الحياة الأدبية والفكرية	فرقة الأدب الصوفي في الأندلس	فايزة مجاهدي، بوتشيش زينب (طالبتي دكتوراه)

خاتمة:

وبعد، هذا حصاد مهام وأنشطة مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية بجامعة تلمسان، حيث يمكن الوقوف على التراث الأندلسي الموريسكي ضمن اهتمامات المخبر؛ وهو نموذج حيّ لمدى فاعلية مخابر البحث بالجامعات الجزائرية في خدمة هذا التراث: جمعاً وتحقيقاً ودراسةً ونشرًا، ما يشكل خطوة مهمة، بيد أنها تظل غير مكتملة. فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الجانب من تراثنا لاقى من الإهمال والإغفال الشيء الكثير على الرغم أنه تراث جدير بالبحث والإبراز، فما كتب فيه ما يزال ضئيلاً أمام شموخ التراث الأندلسي وعظمته، وكثرة المآثور وغزارته، وليس هناك من عذر سوى توحيد الجهود المبذولة في هذا الميدان البكر، والتي تحتاج إلى ترابط وانسجام وتعاون لمحاولة الوصول إلى صورة مكتملة للتراث الأندلسي الموريسكي في المنجز الجامعي بالوطن العربي.

قائمة المراجع:

بن سنوسي، هشام. (2016). *التراث الأدبي الموريسكي _ دراسة موضوعاتية في أدب الأقلية* [أطروحة دكتوراه غير منشورة]. جامعة تلمسان.

سعيدوني، ناصر الدين. (2003). *دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر* (ط.1). دار الغرب الإسلامي.

(رابط مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية [د أ ل أ ELLA]، 2023)

موقف أحمد الونشريسي من المأساة الأندلسية الموريسكية Ahmad Al-Wansharisi's position on the Morisco-Andalusian tragedy

د.تومي طاهر/ المركز الجامعي سي الحواس. بركة / الجزائر

Dr .toumi tahar/center Universitaire si elhaoes- barika/Algeria

د.شودار مبارك / مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط الجزائر

Mobarek chouder /Research Center in Islamic Sciences and Civilization, Laghouat, Algeria

ملخص الدراسة:

سنتناول في هذه الورقة البحثية موقف أحد العلماء الأفاضل من المحنة الموريسكية؛ والذي كان عالما متبحرا، وفقها متمكنا، قل نظيره في عصره، خاصة وأنه عاصر الكثير من الأحداث الأليمة، التي عاشها العالم الإسلامي آنذاك، وأكبر حدث وأعظم مأساة كانت سقوط الأندلس بيد النصارى الإسبان، بقيادة الملكين الكاثوليكين؛ فرديناند وإيزابيلا، اللذان مارسا كل أنواع التعذيب والتنكيل ضد المسلمين في إسبانيا، بمساعدة تامة وتحريض مباشر من قادة الكنيسة الكاثوليكية بروما، زاد الطين بلة والأوضاع سوءاً أن الأندلسيين بعد ضياع بلادهم وتشتت أمرهم وضعف قوتهم و استقواء عدوهم، قد وجدوا الجفاء وعدم الترحيب بهم من طرف الكثير من الناس بديار الإسلام، فهم في نظر النصارى مسلمون ، وفي المقابل عند المسلمين (المغاربة خاصة) هم مسيحيون. وأمام تلك الأوضاع المزرية والمأساوية التي كان يعيشها الأندلسيون الموريسكيون ، حاول الكثير من علماء الاسلام تشجيعهم؛ إما على الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الاسلام، أو تشجيعهم على التمسك بدينهم والبقاء في إسبانيا، ومن أبرز هؤلاء الفقيه أحمد الونشريسي. الذي أصدر فتوتين؛ كانت الفتوى الأولى سنة 890هـ/1484م، أي قبل سقوط إمارة غرناطة بحوالي ثمانية سنين، فيما كانت الفتوى الثانية بعد سقوطها، وكان ذلك سنة 900هـ/1495م، الكلمات المفتاحية: الأندلسيون الموريسكيون، غرناطة، الونشريسي، الإيالة الجزائرية، فتوى.

Abstract:

In this paper, we will discuss the position of one of the distinguished scholars on the Morisco ordeal. And he who was a well-versed scholar and a skilled jurist was rare in his time, especially since he witnessed many of the painful events that the Islamic world experienced at the time. The biggest event and the greatest tragedy was the fall of Andalusia at the hands of the Spanish Christians, led by the two Catholic monarchs. Ferdinand and Isabella, who practiced all kinds of torture and abuse against the Muslims in Spain, with the full help and direct instigation of the leaders of the Catholic Church of Yuma, Things were made worse by the fact that the Andalusians, after the loss of their country, the dispersion of their affairs, the weakness of their strength, and the strength of their enemy, have found alienation and not being welcomed by many people in the lands of Islam. In the face of the miserable and tragic conditions that the Moriscan Andalusians were living through, many Islamic

scholars tried to encourage them. Either to emigrate from the countries of infidelity to the countries of Islam, or encourage them to adhere to their religion and stay in Spain. Among the most prominent of these is the jurist Ahmed Al-Wansharisi. who issued two fatwas; The first fatwa was in the year 890 AH / 1484 AD, that is, about eight years before the fall of the Emirate of Granada, while the second fatwa was after its fall, and that was in the year 900 AH / 1495 AD.

Keywords: Moriscan Andalusians, Granada, Al-Wansharisi, Algerian Regency, Fatwa.

مقدمة:

مأساة حقيقية تلك التي عاشها الأندلسيون الموريسكيون بعد سقوط غرناطة آخر معاقل العرب والمسلمين بالأندلس سنة 1492م، فقد شكلت غرناطة آخر حلقة من تاريخ الأندلس الإسلامي، فبمجرد سقوطها بدأت مأساة المسلمين من شتى أنواع التنكيل والتقتيل والتشريد والتعذيب، بقي التاريخ شاهداً على فضاءاتها إلى يومنا هذا. والأدهى والأمر أن هؤلاء الأندلسيين قد وجدوا الجفاء وعدم الترحيب بهم من طرف الكثير من الناس بديار الإسلام، فهم في نظر النصارى مسلمون يجب إبادتهم والتخلص منهم حتى لا يشكلوا خطراً على وحدتهم (النصارى)، وفي المقابل عند المسلمين (المغاربة خاصة) هم مسيحيون دخلاء عنهم يجب عدم وضع الثقة فيهم وفي الكثير من المرات هم كفار، فوقعوا بين نارين يصعب النجاة منهما.

لذلك كان العلماء والفقهاء ملاذهم الأمن الذي يجب الرجوع إليه عند اشتداد الأمر عليهم، ومن أهم العلماء الذين أدلوا بدلوهم في الشأن الأندلسي الموريسكي هو الفقيه الونشريسي، الذي أصدر فتوتين تخص هذه القضية. فإلى أي مدى ساهمت فتاوى الونشريسي في تثبيت الأندلسيين على دينهم وتشجيعهم على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام؟

1-لمحة موجزة عن دور حكام الجزائر في نصرة الأندلسيين الموريسكيين.

حاول قادة الإيالة الجزائرية منذ تأسيسها تقديم الدعم اللازم للأندلسيين الموريسكيين، سواء بتدعيم ثوراتهم الداخلية بإسبانيا أو المساهمة في إنقاذهم ونقلهم إلى الجزائر، فقد ذكرت لنا المصادر التاريخية أن خير الدين استطاع إنقاذ حوالي 70 ألف موريسكي خلال سنة 1529م وحدها، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الدور الفعال الذي قامت به الإيالة الجزائرية في مساعدة الأندلسيين، وإنقاذ الآلاف منهم ونقلهم إلى الجزائر (التميمي، 1975، ص40)، هذا ما جعل أعيانهم يبعثون برسالة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541م، فحوهاها الثناء على خير الدين وشكره على ما قدمه لهم من مساعدات، بالإضافة إلى ذكر مآثره وبطولاته (هلايلي، 2005، ص244).

تواصلت المساعدات الجزائرية للموريسكيين طوال القرن السادس عشر الميلادي وما بعده، خاصة وأنهم كانوا يساهمون في حركة الجهاد البحري، ومن ذلك مثلاً وخلال ثورة الموريسكيين ما بين 1568-1571م أعلن قلع علي تأييده لهم، من خلال تجهيزه للأسطول الجزائري، ومحاولته إنزال البحارة في الأماكن المتفق عليها مع الأندلسيين، إلا أن علم الإسبان بهذا المخطط أفشل الثورة.

من أهم الثورات التي ساهم فيها الجزائريون بشكل فعال ثورة 976هـ/1568م، التي كانت عبارة عن تراكبات من الاضطهاد والتنكيل الذي مارسه الإسبان على الأندلسيين منذ سقوط إمارة غرناطة سنة 1492م، لأنها لخصت وضعاً وصل إليه المسلمون بإسبانيا لا يمكن السكوت عنه مطلقاً من طرف أي حاكم مسلم ينتصر لإخوانه المسلمين.

حاولت السلطات الإسبانية القضاء على كل مظاهر الإسلام ببلادها شكلاً ومضموناً، وهذا ما تجسد في مضمون المرسوم الذي صدر بتاريخ 12 مارس 1524م؛ والذي يقضي بفرض التنصير الإجباري على كل الأندلسيين الذين

لم يغادر البلاد، وفي حالة رفضه يجب عليه المغادرة فوراً وكل مسلم يخالف هذا القرار يسترق مدى الحياة بعد انتهاء المهلة الممنوحة من أجل تنفيذ هذا المرسوم الذي أعطى الحرية المطلقة لدواوين التحقيق لتطبيقه وبكل الوسائل الممكنة؛ جوسسة، تعذيب، تحقيق، محكمات شكلية، متابعات قضائية، فبركة التهم وتحويل المساجد إلى كنائس (الصباغ، 1975، ص120) ، هذا ما أدى إلى قيام ثورة أندلسية سنة 1526م، في معظم المناطق الإسبانية التي يسكنها المسلمون، إلا أنه تم القضاء عليها بسرعة (عنان، 1997، ص256)، بسبب عدم التحضير الجيد لها وقلة الإمكانيات المتاحة لقادتها ومنفذيها .

تواصل الاضطهاد والتنكيل بالمسلمين في إسبانيا، هذا ما اضطرهم لطلب المساعدة من السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541م مباشرة بعد انتصار حسن آغا على خصمه شارلكان، راجين منه إعادة خير الدين لحكم الإيالة الجزائرية حتى يساعدهم في التصدي للإسبان وإنقاذهم مما يعانونه من ظلم وجور وقتل وتنكيل وتنصير (التميمي، 2011، ص43)، لعلمهم بالمكانة التي يتمتع بها خير الدين بربروس في الجزائر وإسبانيا، لأنه كان من السابقين في نصرة إخوانهم الأندلسيين الموريسكيين.

تولى حكم الإمبراطورية الإسبانية فليب الثاني (1558-1598م) خلفا لشارلكان، وقد كان من أشد أعداء المسلمين في بلاده وخارجها، لأنه كان خاضعا لتأثيرات باباوات الكنيسة الكاثوليكية، الذين كانوا يريدون إبادة جميع المسلمين ومطاردتهم أينما حلوا وارتحلوا، وتماشيا وهذه السياسة العدوانية أصدر فليب الثاني سنة 1563م مرسوماً ملكيا يحرم فيه على الأندلسيين حمل السلاح إلا بترخيص من الحاكم العام الإسباني، ليصدر سنة 1567م مرسوماً آخرًا كان أشد خطراً من كل المراسيم السابقة ، حيث منح لأساقفة غرناطة الحق في منع المسلمين من: الاستحمام، الصلاة، الصوم، استعمال اللغة العربية، ارتداء الحجاب للنساء المسلمات، الذبح على الطريقة الإسلامية، الزواج من المسلمات، منع الختان، وأمر بأن تبقى البيوت مفتوحة يوم الجمعة لمنع المسلمين من الصلاة (الصباغ، 1975، ص43).
لم تكتف السلطات الإسبانية بهذه الإجراءات العدائية ضد المسلمين والتي لم يسبق لها مثيل منذ ظهور الإسلام، بل أصدر الملك فليب الثاني مرسوماً جديداً في جانفي 1568م يحرم فيه على الأندلسيين الموريسكيين العمل بتاريخهم القديم أو كتابته أو مناقشته فيما بينهم أو العمل به، هذا ما أشعرهم بالذل والهوان والاحتقار، لذلك وبعد مشاورات عديدة بين قادتهم، اتخذوا قراراً نهائياً بإعلان ثورة ضد السلطات الإسبانية سنة 1568م (فكاير، 2012، ص157) ، تدفعهم في ذلك العديد من الأسباب نذكر منها:

- الإجراءات العقابية التي اتخذتها السلطات الإسبانية في حقهم، جعلتهم يحسون بالظلم والجور، وكان اعتقادهم أنه لا يمكنهم التخلص من هذه المظالم إلا بالثورة.
 - رغبة حكام الإيالة الجزائرية في مساعدة الأندلسيين، في حالة القيام بالثورة من الداخل، بتشجيع مباشرة من السلطان العثماني سليم الثاني.
 - الرغبة في إعادة الاعتبار للمسلمين في إسبانيا، بعد سلسلة الانتهاكات المتواصلة في حقهم.
 - الانتصارات التي حققها حكام الإيالة الجزائرية على الإسبان، شجعت الأندلسيين الموريسكيين على القيام بالثورة؛ لأن هذه الانتصار أزاحت حاجز الخوف عندهم وجعلتهم يؤمنون بإمكانية الانتصار على خصومهم، بمساعدة الجزائريين.
 - إعلان حكام الجزائر نيتهم مساعدة أي ثورة تقوم ضد الإسبان من الداخل (الشافعي، 2011، ص65).
- تم التخطيط للثورة الموريسكية جيداً، حيث اتفق قادة الثورة مع علي باشا من أجل مساعدتهم بالمال والرجال والعتاد، وفي نفس الوقت قرر علي القيام بهجوم مباغت على القوات الإسبانية في مدينة وهران لإرباك

السلطات الإسبانية وتشتيت جهودها بين الداخل والخارج، وقد اتفق الطرفان الجزائري والأندلسي على إرسال 14 ألف جندي من الجزائر لمساعدة الثوار الأندلسيين المقدر عددهم بحوالي 60 ألف نائر، وقد تقرر مبدئياً إعلان الثورة يوم 15 أفريل 1568م، عندما يكون المسحيين مشغولين باحتفالاتهم وصلواتهم بعيدهم في هذا اليوم، إلا أن هذه الخطة اكتشفها الإسبان وقاموا بإفشال مخطط الثورة، بسبب إفشاء هذا السر من طرف أحد الثوار، الذي وقع في قضية السلطات الإسبانية، وأخبرهم عن كل تفاصيل الثورة وأماكن إخفاء الأسلحة والبارود والمؤن (ألتر، 1989، ص 226).

بالرغم من فشل المحاولة الأولى في تفجير الثورة، إلا أن الأندلسيين لم ييأسوا واستجمعوا قواهم ونظموا صفوفهم وبإيعاها شابا في العشرين من عمره ينتمي إلى حي البيازين من نسل بني أمية اسمه فرناندو وكوردو وفالورو، وتوجوه كزعيم عليهم يوم 09 رجب 976هـ/29 ديسمبر 1568م في احتفال مشهود (الصباغ، 1975، ص 149، 150)، لينشر لهيب هذه الثورة في كل مكان، خاصة بعد أن سارع علي في تقديم كل الدعم لها بتوجيه مباشر من السلطان العثماني سليم الثاني (1566م-1574م)، الذي أمر بمساعدة الثوار ماديا ومعنويا (مهمة دفتر، علبه رقم 2، عدد 127، 977هـ).

لم تنقطع المساعدات الجزائرية للثوار الموريسكيين، فقد أرسل قلع علي سنة 976هـ/1569م عدة سفن محملة بالأسلحة والجنود لدعم المجاهدين الأندلسيين، وهذا ما حدث أيضا خلال عام 977هـ/1570م (Haedo.p139) بتوصية من السلطان سليم الثاني، الذي أمر علي بمواصلة دعم الثوار ريثما يتم فتح جزيرة قبرص (سي يوسف، 1997، ص 131) هذا ما شجع علي باشا على المضي قدماً في دعمه المباشر للثوار، حتى أنه قرر الذهاب بنفسه إلى غرناطة ليتولى قيادة الجهاد هناك، إلا أنه اضطر للتراجع عن هذه الخطوة تحت ضغط دون خوان دوتريس «Don Juon Dotris» الذي قرر مهاجمة مدينة عنابة (ألتر، 1989، ص 227-229)، فما كان من قلع علي باشا إلا التراجع عن الذهاب إلى إسبانيا والتوجه إلى مدينة عنابة ومنها إلى البلاد التونسية، التي هاجمها في شهر أكتوبر 1569م، في محاولة لتحريرها من قبضة عميل الإسبان حميد بن مولاي حسن (1542م-1569م)، الذي كان قد عقد معاهدة خضوع واستسلام مع الإسبان المحتلين مثلما حدث مع والده سابقاً (وولف، 2009، ص 85).

استمرت الثورة الموريسكية أكثر من سنتين متتاليتين، تكبد فيها الطرفان خسائر مادية وبشرية جسيمة، هذا ما جعل فيليب الثاني يُسخر كافة الإمكانيات العسكرية لجيشه من أجل القضاء على هذه الثورة التي زادت ضراوتها بسبب إصرار كل طرف على حسم الصراع لصالحه، وبعد معارك عنيفة ومكلفة استطاع الجيش الإسباني حسم المعركة الفاصلة لصالحه، خاصة بعد أن تولى القيادة الشاب دون خوان صاحب 24 سنة فقط، والذي ألحق هزيمة نكراء بالأندلسيين وقضى على ثورتهم نهائياً يوم 28 أكتوبر 1570م (دومينغيث أورتيث، برنارد فينيست، 2007، ص 56-65).

حاولت السلطات الجزائرية بقيادة علي باشا لعب دوراً رئيسياً في الثورة الموريسكية، ولم تتأخر في تقديم المساعدات اللازمة؛ سواء مادية أو معنوية، إلا أن كل المحاولات الرامية لإرسال أسطول يساهم في المعارك بصفة مباشرة لم تكن ممكنة، بسبب انشغال العثمانيين بفتح جزيرة قبرص، وانشغال الجزائريين بالدفاع عن مدينة عنابة وتونس. أسفرت هذه الثورة على عدة نتائج، نذكر منها:

— بالرغم من أن الثوار الموريسكيين حققوا العديد من الانتصارات على خصومهم الإسبان، حيث استمرت هذه الثورة أكثر من سنتين، إلا أنهم لم يستطيعوا حسم المعارك لصالحهم بسبب عدم تلقيهم الدعم الكافي من السلطان العثماني سليم الثاني وعلج علي باشا حاكم الإيالة الجزائرية، اللذان كانا لهما انشغالات أخرى، مع أنهما حاولا مساعدتهم بكل ما يلزم للثورة.

- أصدرت السلطات الإسبانية بقيادة فيليب الثاني قراراً يقضي بنفي المسلمين من غرناطة إلى داخل البلاد ومصادرة جميع أملاكهم العقارية، وقد صدر هذا القرار يوم 28 أكتوبر 1570م (الصباغ، 1975، ص161).
- بعد هذه الثورة تأكد الأندلسيون أن عودة الأندلس إليهم أصبح ضرباً من الخيال، إلا في حالة تدخل العثمانيون مباشرة وبأسطول قوي تتحد فيه جمع البلدان الإسلامية، وهذا كان ضرباً من الخيال، ما أفقد الأندلسيين الثقة في أنفسهم، وضباع آمالهم في استرجاع بلادهم.
- زادت معاناة الأندلسيين بعد هذه الثورة؛ لأن دواوين التحقيق زادت من أساليبها الوحشية ضدهم وسلطت عليهم أبشع أنواع الاضطهاد والقتل والحرق والتنكيل (المدني، 2007، ص ص 379، 388)، وهذا ما نعتبره أهم مأساة عرفها التاريخ الحديث، إن لم نقل عبر التاريخ الإنساني الطويل الذي قلت فيه مثل هذه الأعمال الوحشية، أو على الأقل لم يحدث للمسلمين منذ ظهور الإسلام بمكة مثل هكذا مأساة، اللهم إلا في مكة ذاتها قبل هجرة الرسول ﷺ.

2-التعريف بالونشريسي:

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد ابن علي الونشريسي، نسبة إلى جبال الونشريسي بالغرب الجزائري ولد حوالي 834هـ / 1430م (سعيدوني، 1999، ص 277)، ارتحل الونشريسي في طفولته المبكرة مع أسرته إلى تلمسان وتلقى دراسته بها (بلبشير، 2003، ص 55) فأخذ عن العديد من شيوخها كالإمام أبي سم العقباني وابنه القاضي العالم أبي سالم العقباني وحفيده الإمام العلامة محمد بن أحمد بن قاسم العقباني والإمام محمد ابن العباس والعالم أبي عبد الله الجلاب والعالم الخطيب الصالح ابن مرزوق الكفيف والغرابي وغيرهم(مؤنس، 1957، ص 132) وأحمد بن زكري، ثم انتقل إلى فاس قادما من تلمسان بسبب مجاهرته بالحق وتقلد بفاس الفتوى والتدريس(هلايلي، 2010، ص 57).

تميز خاصة باطلاعه الواسع على مسائل الفقه والقضايا التي تتصل بالنوازل والفتاوى والأحكام، التي ألزمه نفسه بتدريسها والتأليف فيها حتى قال عنه أحمد المنجور في الفهرسة "وكان مشاركا في فنون العلم إلا أنه انكب على تدريس الفقه فقط فيقول من لا يعرفه أنه لا يعرف غيره..."، فصيح اللسان والقلم حتى كان بعض من يحضر تدريسه يقول: "لو حضر سبويه لأخذ النحو عن فيه"(سعيدوني، 1999، ص 277)

ووصف كذلك بالفقيه الكبير الحافظ المحصل النوازلي وقال فيه ابن غازي أمام حلة من الفقهاء (لو أن رجلا حلف بطلاق زوجته أن أبا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك وأصوله وفروعه، كان باراً في يمينه ولا تطلق عليه زوجته لتبحر أبي العباس وكثرة اطلاعه وحفظه وإتقانه)، وهو حامل لواء المذهب المالكي على رأس المائة التاسعة (بلبشير، 2003، ص 57)

توفي آخر سنة 1508م، وكان رحمه الله فقيها عارفا بالأصول والفروع متفننا في العلوم شاعرا مجيدا لغويا لا يقاومه أحدا من أهل عصره وكان له مجلس خاص لا يحضره إلا الفحول من الفقهاء كابن الزقاق (ابن عسكر، 1977، ص 54).

وقد ترك الونشريسي عدة آثار في شتى المجالات أبرزها:

- 1- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب وهو أشهر كتبه وبه ارتبطت شهرة الونشريسي الذي جمع فيه النوازل الفقهية في شكل أبواب تتصل بتعامل الأفراد (بلبشير، 2003، ص 59).

- 2- النور المقتبس من قواعد مذهب مالك ابن أنس (ابن عسكر، 1977، ص54)،
3- المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداب الموثق وأحكام الوثائق (بلبشير، 2003، ص55)

3- الظروف العامة التي صدرت فيهما الفتوتان:

عندما وقّع أبو عبد الله الغرناطي وثيقة الاستسلام وسلم مفاتيح غرناطة، دخل الملكان الكاثوليكيان إزابيلا وفرديناند إلى المسجد وحولاه إلى كاتيدرائية وقاما فيه بصلاة الشكر للرب (إفرقنغ، 2000، ص409)، وهذا هو ديدن النصرى عندما يسيطرون على معاقل المسلمين، فأول عمل يقومون به هو تدمير أو تحويل المساجد إلى كنائس وحتى إلى إسطبلات لحيواناتهم.

قامت الكنيسة بدور هامة في تحريض الرأي العام الإسباني من أجل إبادة المسلمين وطردهم من شبه الجزيرة الإيبيرية، ولما رأى الملك فرديناند بأن الأندلسيين تركوا الهجرة وعزموا على الاستقرار بإسبانيا أخذ في تنفيذ سياسته الاحتوائية بهدف جعلهم يدينون بالدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي، ومخلصين للدولة الإسبانية والكنسية، فتزول بذلك حرمة المسلمين ويدركهم الهوان والذل، فقام بقطع الأذان ومنع الصلاة وأمرهم بالخروج من غرناطة والذهاب إلى القرى والأرياف.

كل هذه الإجراءات القمعية كانت كلها مقدمة لمشروع التنصير القصري الذي فرضه عليهم فيما بعد (الشطشاط، 2001، ص63)، ولإنجاح هذا المشروع تم تأسيس فيما يعرف تاريخيا بمحاكم التفتيش (ديوان التفتيش) التي كانت تقوم بمهمة استجواب المسلمين وكشف أسرارهم تحت طائلة التعذيب، ولهذا الغرض وزعت محاكم التفتيش قائمة مفصلة بكل المظاهر التي تدل على إتباع ملة الدين الإسلامي من طرف الأندلسيين، وفتح الباب أمام الوشاية بهم من طرف النصرى الإسبان (هلايلي، 2010، ص94)، ويمكننا ذكر بعض هذه المظاهر فيما يلي:

- إذا تم الاحتفال بيوم العيد واحترام تعاليم الدين الإسلامي.
 - إذا تزوجوا على النهج المحمدي.
 - إذا غنوا الأغاني العربية.
 - إذا غسلوا موتاهم ولفوهم بالكفن (هلايلي، 2010، ص94).
 - إذا سمعنا أن الدين الإسلامي هو الأحسن ولا يوجد غيره للوصول إلى الحق.
- كل هذه الإجراءات من أجل إرغام الأندلسيين على ترك عقيدتهم، ومما زاد في معاناتهم صدور مرسوم التنصير سنة 1502م، الذي حرم بموجبه ممارسة أي عمل يمت بصلة إلى عقيدتهم ولغتهم، هذا ما دفع بالكثير منهم إلى الالتحاق بإخوانهم في الجبال الوعرة.
- كما تخوفت الحكومة الإسبانية من رد فعل الموريسكيين على هذه الإجراءات التعسفية فأصدرت قرارا يمنع الموريسكيين من امتلاك السلاح سرا أو علنا (ذو النون طه، 2004، ص413)، وبهذه الإجراءات التعسفية أراد الإسبان تحويل الأندلسيين إلى عبيد يأترون بأوامرهم ويخضعون لسلطانهم، ويتكون دينهم وعقيدتهم.

كما أقرت محاكم التفتيش بقطع الموريسكيين عن جذورهم وهويتهم الثقافية وذلك بالقضاء على نظامهم الاجتماعي بقتل العلماء والفقهاء والعالمين بشؤون الدين الإسلامي وتسليط عليهم جميع أنواع الفقر والعدوان (هلايلي، 2010، ص 95).

تبادر إلى أذهان الأندلسيين أنهم إذا تركوا دينهم ودخلوا في المسيحية سوف ينجون من العذاب ويتجنبون الأذى، لذلك تثبت الكتابات التاريخية أن المسلمين قد عملوا بمبدأ التقية منذ سنة 1499م، لما أساء القساوسة إليهم حيث حدثت فتنة كبيرة بغرناطة، وقبض على الكثير من المسلمين، ورغم أسلوب التقية المطبق من طرفهم، إلا أن إسبانيا كانت تخشى من مسلمي غرناطة، لأنهم في نظرها أقرب إلى بلاد المغرب، حيث كانوا دائما مراقبين باستمرار (مظهر، 1974، ص 81).

أظهرت إسبانيا قدرة فائقة في إرغام الأندلسيين على التنصر، حيث عمل القساوسة على حمل الناس على التنصر بكل الوسائل، فتظاهر البعض من المسلمين باعتراف المسيحية خوفا من الاضطهاد والتنكيل أو لنيل مبتغى، أما البعض الآخر فحاول الاحتجاج على ممارسات الكنيسة قائلين بأن هذه الأعمال منافية لبنود معاهدة الاستسلام (مظهر، 1974، ص 81).

في السنوات اللاحقة شددت الكنيسة والسلطات العسكرية إجراءات التعسف بحق الأندلسيين فأرسل الملك فرديناند سنة 1508م مرسوما يمنع على الأندلسيين استعمال اللغة العربية وارتداء الملابس التقليدية العربية وممارسة أي عادات أو عبادات إسلامية أو عربية قد تسبب هذا المرسوم في محاكمة الآلاف من المتهمين الذين وقعوا في فخ الوشاية والحقد والانتقام وحكم عليهم بالسجن والجلد والاسترقاق، وكانت من ظاهر مأساة الموريسكيين إجبارهم على تغيير أسمائهم العربية بأخرى نصرانية (هلايلي، 2010، ص 94).

كل هذه الإجراءات طبقت في حق الأندلسيين طيلة فترة طويلة امتدت من سقوط غرناطة 1492م، إلى غاية صدور قرار الطرد النهائي ما بين 1609-1614م، وذلك بغرض تحويلهم عن دينهم وعقيدتهم، بالإضافة إلى محاولة التخلص منهم أو دمجهم في المجتمع الإسباني المسيحي.

أمام هذا الوضع المتأزم بدأت الاتصالات من طرف المسلمين بالأندلس بعلماء وفقهاء بلاد المغرب الإسلامي، ومن أبرز هؤلاء الفقهاء أحمد الونشريسي الذي كان له فتوتان في هذه القضية المستجدة.

4- فتوى الونشريسي الأولى سنة 890هـ / 1484م:

جاءت فتوى الونشريسي الأولى قبل سقوط غرناطة سنة 1492م، وكان ذلك سنة 1484م (هلايلي، 2010، ص 106)، وتدخل هذه الفتوى في باب النوازل الفقهية^{*}، التي لم تكن منتشرة بكثرة في بلاد المغرب الإسلامي آنذاك، ونتيجة لحروب الاسترداد التي شنها الإسبان على العرب والمسلمين بالأندلس، وما صحبها من نزوح للجاليات الأندلسية باتجاه بلاد المغرب، حيث خلوا وراءهم أموالهم وأراضيهم ونساءهم وأطفالهم، بدأ هؤلاء الأندلسيون أو من ينوب عنهم في

* - النوازل هي مسائل وقضايا دينية ودينية، تحدث للمسلم ويريد أن يعرف حكم الله فيها، وقد أخذ المسلمون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحي، يلجأون إلى الخلفاء الراشدين وعموم الصحابة يسألونهم عن أحكام هذه النوازل فكان هؤلاء يلتمسون لها نصا في كتاب الله سبحانه وتعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وحيث يمكن أن تدرج النازلة تحتهم فإن لم يجد اجتهدوا في استنباط أحكام تسائر القرآن والسنة... للاستزادة ينظر: محمد حجي: نظرات في النوازل الفقهية، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المملكة المغربية، 1999، ص 11.

محاولة منهم إيجاد الحلول الشرعية، تبيح لهم العودة إلى أرضهم وعائلاتهم، فكان الملاذ الآمن لهم، هم العلماء والفقهاء من أجل إيجاد صبغة شرعية تمكنهم من تحقيق مرادهم وإطفاء نار الشوق والحنين بداخلهم اتجاه ما خلفوه وراءهم بالأندلس.

وأهم العلماء الذين كان لهم رأي في قضية هجرة الأندلسيين هو الشيخ الفقيه العلامة الشيخ أبو العباس أحمد الونشريسي، والتي تمحورت إجابته حول سؤال من طرف أحد الفقهاء اسمه أبو عبد الله ابن قطيبة يستفي فيها الونشريسي حول مصير هؤلاء الأندلسيين الذين كانوا يريدون الرجوع إلى بلادهم (الونشريسي، 1981، ص 119). ابتداءً لابد من الرجوع إلى سنة صدور الفتوى وكذلك سؤال المستفتي قبل التطرق إلى إجابة الونشريسي، فقد أرخت هذه الفتوى في التاسع ذي القعدة في عام 890هـ/1484م (Sabaggh.1981. p46)، أي قبل سقوط غرناطة بحوالي سبع سنوات، والملاحظ هنا عدم ذكر إمارة غرناطة التي تسقط بعد بيد النصراري ولا حتى ذكر فقهاء الأندلس بصفة عامة وفقهاء غرناطة بصفة خاصة؛ الذين كان يجدر بهم الإجابة على مثل هذا السؤال لأنهم الأقرب إلى الحدث ومعرفة الواقع الأندلسي من غيرهم في بلاد المغرب.

أما نص السؤال فقد ابتدأ بالحمدلة والثناء على الونشريسي ثم طرح سؤالاً في نازلة حلت بفاس أبطالها قوم من الأندلس هاجروا وتركوا أموالهم وأولادهم وراءهم، حيث نلاحظ أن السائل بدأ مباشرة في التشكيك في نوايا هؤلاء، حيث يقول: "... وزعموا أنهم فرّوا إلى الله سبحانه وبأديانهم وأنفسهم وأهلهم..." (الونشريسي، 1981، ص 136). ثم يواصل تشكيكه في هؤلاء القوم المستضعفين، حيث يتهمهم بالسخط على الأوضاع التي أصبحوا يعيشونها، ووصفهم بضعاف العقيدة والدين وأنهم لم يهاجروا لله ورسوله وإنما كانت لندنيا يصيبونها عاجلاً وفق أهوائهم، وعندما وجدوا الحال غير الحال التي كانوا يريدونها ذموا دار الإسلام وشأنه، ومدح دار الكفر وأهله والندم على مفارقتها (الونشريسي، 1981، ص 137)، بل أكثر من ذلك من قال أن الهجرة واجبة إلى أرض الأندلس وليس العكس، وآخر يقول إن جاء صاحب قشتالة إلى هذه النواحي نسير إليه (الونشريسي، 1981، ص 137). ثم يقول: "وهل من شروط الهجرة ألا يهاجر أحداً إلا إلى دنيا مضمونة يصيبها عاجلاً، مع أنه هنا يطرح السؤال إلا أنه يؤكد وجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام إلى حلو أو مر أو وسع أو ضيق...، إلى أحوال الدنيا، وإنما القصد بها سلامة الدين والأهل والولد مثلاً والخروج عن الملة الكافرة إلى الملة المسلمة..."

إذا السؤال كان يشخص أحوال الأندلسيين في المغرب وكان يحمل الكثير من التشكيك وسوء الضن بهمؤلاء، حيث نلاحظ أن السائل لم يجد لهم أي عذر سواء في معيشتهم السابقة التي كانت ميسورة ومنتظمة قبل حلول الكارثة بهم، أو فيما يخص معيشتهم بفاس من ضيق في العيش ونقص في الأرزاق والأموال، بل وإنما نستشف من هذا السؤال أن تكون الإجابة من طرف الونشريسي وفقاً لمنطلق هذا السائل الذي كان يريد ألا يجد أي مبرر لتصرف الأندلسيين الغير مبرر بدار الإسلام، هذا إن صح منهم فعلاً هذا التصرف أو هذه التصرفات التي ذكرت؟ فقد تكون معزولة ومنفردة لا تعبر بالضرورة عن رأي الأغلبية الأندلسية التي علم عنها هذا السائل هذه الأقوال والأفعال.

¹ - عن عمر ابن الخطاب: قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما أراد"

فالونشريسي أجاب عن سؤال لأحد الفقهاء الذي وصف له تصرفات الأندلسيين التي تناقض ما تعارف عليه المسلمون من مدح دار الإسلام وأهله والهجرة من دار الكفر، فقد شخّص هذا الفقيه أحوال الأندلسيين بفاس وليس بالأندلس، ثم طرح سؤالاً عن وجوب هجرتهم من بلادهم، فكانت إجابة الونشريسي وفق هذا السؤال كالتالي:

ابتدأ الونشريسي بالحمدلة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بين حكم الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام التي هي فريضة إلى قيام الساعة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل والفتنة، حيث استشهد ببعض الأحاديث والآيات في هذا الموضوع وكذلك فتوى للإمام مالك بن أنس، ولم يجد الونشريسي أي عذر لكل قادر ومستطيع على الهجرة وقد استثنى البعض كالمريض والمأسور والمقعد أو الضعيف جداً، ويدخل في حكم المكره المتلفظ بالكفر مع استحضر النية بالإيمان، وأنه لو كان قادراً لهاجر مع إخوانه من دار الكفر إلى دار الإسلام، أما المتمكن والقادر فليس له أي عذر وهو ظالم لنفسه.

ومنه فقد فصل الونشريسي في هذه الفتوى في أحكام الهجرة ومن تسقط عنهم وأن الهجرة فرض إلى يوم القيامة، ومن أسلم بدار الحرب يجب عليه أن يهاجر ويلتحق بدار الإسلام ولا يقيم بالمشركين كي لا تجري عليه أحكامهم.

5- فتوى الونشريسي الثانية سنة 900هـ/1495م:

جاءت الفتوى الثانية للونشريسي رداً على سؤال آخر طرحه نفس السائل الأول؛ وهو أبو عبد الله بن قطيبة في حق رجل أندلسي معروف بالفضل والدين تخلف عن الهجرة مع أهل بلده، وبقي بالأندلس خدمة لإخوانه المسلمين لدى السلطات الإسبانية (هلايلي، 2010، 108) وكان يستفسر عن حكم بقائه بالأندلس لأن مصلحة المسلمين هناك تتطلب ذلك، مع العلم أنه إن فقدوه يلحق بهم ضرراً كبيراً، فهل يرخص له البقاء تحت الملة الكافرة (الونشريسي، 1981، 137).

فبعد السؤال بدأ الونشريسي بالإجابة بالحمدلة وذكر صفات الله سبحانه وتعالى وما تضمنه من الوعيد والتهديد للكفار وأتباعهم، وقال أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين الأخيار، وأنه من أن يوالي الكفار أو يكون معهم فقد حاد الله ورسوله وعرض نفسه لسخط العزيز الجبار ثم قال بأن المؤمن يفر بدينه وإيمانه عن مساكنة الأعداء، حتى ولو كان فاضلاً فإنه لا يعذر لبقائه بالأندلس، بل وجبت عليه الهجرة ومن تخلف عنها يكون جاهلاً بعيد عن الفترة أو مهادناً للكفار، ومن أعظم أهداف الهجرة أن تكون كلمة الله العليا وكلمة الكفر السفلى، ومن هادن الكفار ورضي بمعاشرتهم فإن كلمة الحق تكون هي السفلى وكلمة الباطل هي العليا وهذا مناف لشرع رب العالمين.

إذن يمكن ملاحظة أن الفتوى الأولى جاءت تتكلم عن أحوال الأندلسيين بالغرب الأقصى، أما الثانية فقد تكلمت صراحة عن المسلمين بالأندلس، حيث يقول الونشريسي أن مبررات البقاء بالأندلس كلها مفقودة ولا يمكن لأحد من الأندلسيين قادراً عاقلاً أن يبقى تحت حكم ملة الكافر، فقد توفرت كل أسباب الهجرة، لأن أركان الإسلام والإيمان كلها معطلة من طرف المسيحيين، والمسلمون يتعرضون لكل أنواع الأذى والتعذيب والتنكيل لذلك وجبت الهجرة، ومنه الفتوى الثانية متممة ومكملة للفتوى الأولى، فكلاهما تعطي حلولاً للهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام أي من إسبانيا إلى بلاد المغرب.

6-قراءة في فتوتى الونشريسي الأولى والثانية.

أول ما يجب ملاحظته أن فتوتى الونشريسي كانتا ردا على سؤال من أحد الفقهاء؛ اسمه أبو عبد الله بن قطيبة، الذي كان يسأل عن نازلة أحدثها الوافدون الأندلسيون ببلاد المغرب، نقل أقوالهم وأفعالهم واستفتى في حكمهم؛ بمعنى أنه توجد واسطة بين الونشريسي وهؤلاء الأندلسيون، ولو سلمنا جدلا إن السائل كان أحد الأندلسيين والنصيحة والفتوى كانت صادرة بدون واسطة بل عن طريق المشاهدة أو حضور الحال، فهل تتغير الفتوى؟ ونحن نعلم أن الفتوى تتغير بالزمان والمكان والحال، أما من حيث الزمان فقد صدرت فتوى الونشريسي الأولى سنة 1484م، أي قبل سقوط غرناطة، أما الفتوى الثانية فقد صدرت بعد سقوطها سنة 1495م.

جاءت فتوى الونشريسي مطولة نوعا ما، استدلت فيها بالكثير من الآيات وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الفقهاء، لتبرير حكمه على الموريسكيين، أما من حيث المضمون فقد جاءت الفتوتان صارمتان، فقد كان الونشريسي متشددا في الحكم على هؤلاء الأندلسيين الذين اضطهدوا وعذبوا في سبيل عقيدتهم ودينهم الإسلامي، والملاحظ أن الونشريسي لم يراع الظروف التي كان يعيشها هؤلاء الأندلسيون في بلادهم التي غلب عليها النصراني من اضطهاد وتنكيل ونهب للأموال، فقد أفتى بالظاهر وهو بعيد عن حالهم كرجل فقه سئل ولم يشاهد بنفسه ولم يطلع على الحقيقة هذا ما نلاحظه من خلال السؤال.

فالسؤال المطروح هنا هل الونشريسي يعلم بحال الأندلسيين في الأندلس عندما شدد عليهم بهذه الفتوى؟ أم أنه أفتى على ضوء واقع هؤلاء وتصرفاتهم بفاس؟

فقد أفتى كرجل فقه وعالم جليل جاءه السؤال من أحد الناس ولم يكن عن طريق مشاهدة الحال، فقد قيل ليس الخبر كالعيان، فما هو السبب الذي جعل الونشريسي يتشدد في هذه الفتوى؟

ربما غيرته على الإسلام كعالم وفقه وحتى يغلق باب الفتن في هذا الأمر أي بمعنى حتى ينقذ الأندلسيين من شر النصراني في الدنيا، وذلك بتشجيع هجرتهم إلى دار الإسلام خاصة فاس، والفرار بدينهم حتى تكون النجاة في الأخير. وهكذا هي نظرة أهل العلم فهم أكثر مسؤولية وأكثر بصيرة من غيرهم، أو ربما قارن بين ما عاشه النبي صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة في الفترة الأولى، ثم جاء الفرج بالهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة التي تمكنت فيها الدعوة الإسلامية واشتدت شوكة المسلمين بها، على اعتبارها دار سلام وأمن على عكس مكة التي كانت ابتداء دار كفر وشرك واضطهاد.

لكن الملاحظ أن الزمان والمكان مختلفان تماما، فلا فاس وفرت لهؤلاء الأندلسيين العيش الرغيد والأمن من كل مكروه، ولا حتى بلاد المغرب كلها على عكس المدينة المنورة في بداية الدعوة، فقد وفرت كل ما يريده رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، من دعم مادي ومعنوي وأمن واستقرار.

فلو حاولنا المقارنة بين الأندلس ومكة لكان علينا من الصعوبة بمكان المقارنة، فمكة ابتداء كانت دار كفر وشرك على عكس الأندلس فهي أرض إسلامية لا شك في ذلك منذ فتحها على يد موسى ابن نصير وقائده العسكري طارق بن زياد سنة 92هـ، فالسؤال المطروح هل مكة تمكن بها الإسلام ابتداء ثم هاجر منها الرسول صلى الله عليه وسلم، أم أنه اضطهد بها ففر بعقيدته ودينه ورفقا بالمسلمين الذين لم يحتملوا العذاب والتنكيل؟

إنه اضطهد وعذب هو وأصحابه بمكة وحوصر فيها وعذب لمدة قاربت ثلاث سنوات، على عكس الأندلس التي تمكن فيها الإسلام ودام عزه فيها لمدة قاربت الثمانية قرون قامت فيها دول وسقطت أخرى إلى غاية نهاية آخر معقل للمسلمين في إمارة غرناطة.

خاتمة:

جاءت الفتوتان الأولى والثانية اللتان أصدرهما الونشريسي متممتان ومكملتان لبعضهما البعض، حيث كان في الظاهر متشددًا مع هؤلاء الأندلسيين، نابعا ذلك من غيرته على الإسلام وحبه لهم (الأندلسيين)؛ ولذلك كان الحب للإسلام والمسلمين مصدر هاتين الفتوتين، اللتان كانتا في خدمة الأندلسيين في كل الأحوال، حتى يحافظوا على عقيدتهم ودينهم ليفوزوا في الدنيا، وينالون مرضاة الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم بن أحمد غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي: العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، ترجمة، أحمد بن حاتم الحجري الأندلسي: مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1511.
- 2- أحمد الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ج 2، إشراف: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981.
- 3- ألتز عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط 1، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1989م.
- 4- حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2010.
- 5- حسين مؤنس: أسنى المتاجر فيمن غلب على وطنه النصراري ولم يهاجر، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مج 6، جمهورية مصر العربية، 1957.
- 6- دومينغيث أورتيث، برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين - مأساة أقلية - مراجعة وتقديم، عبد العال صالح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2007م.
- 7- درويش الشافعي: علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، مذكرة شهادة ماجستير، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 1431-1432م / 2010-2011م.
- 8- التميمي عبد الجليل: تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، 2011.
- 9- فكاير عبد القادر: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1260هـ / 1505-1792م)، دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.
- 10- على مظهر: محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها، المكتبة العلمية، القاهرة، مصر، 1974.
- 11- عمر بلبشير: ورقات عن حياة صاحب المعيار، عصور مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، عدد 4، 5، ديسمبر 2003، جوان 2004-1424هـ-1425هـ.
- 12- علي حسن الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2001.
- 13- محمد حجي: نظرات في النوازل الفقهية، ط 1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المملكة المغربية، 1999.
- 14- سي يوسف محمد: أمير أمراء الجزائر علق علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 15- محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط 4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1997.
- 16- محمد بن عسكر الحسني الشفشاوي: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، ط 2، مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب الأقصى، 1977.

- 17-- المدني أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط1، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، 2007.
- 18 -محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس-العصر الرابع-نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط4، 131- مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1417هـ/1997، ص256
- 19-ليلي الصباغ: "ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ/ أواخر عام 1568م والدولة العثمانية" مجلة الأصالة، ع27، الجزائر، 1975، ص ص 117-174.
- 20-ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي "تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999..
- 21-واشنطن إفرقنغ: أخبار سقوط غرناطة، ترجمة: هلايلي يحي نصري، ط1، مؤسسة الإنشاز العربي، بيروت، لبنان، 2000.
- 22-- وولف جون: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر،
- 23 Leila Sabaggh : la religion des moriscos entre deux fatwas, les morisques et leortemps, édition du centre national de la recherche scientifique, 4-7 juillet, paris, 1981.

إسهامات المؤرخ حنيفي هلايلي في دعم الدراسات التاريخية في الجامعة الجزائرية حول تاريخ الموريسكيين ودورهم السياسي و الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الجزائر (2000-2019)

Contributions of historian HanifiHalaili in supporting historical studies at the Algerian University on the history of the Moriscos and their political, social, economic and cultural role in Algeria (2000-2019)

د.آمال معوشي/جامعة المسيلة/الجزائر

Dr. AmelMaouchi/University of M'sila/Algeria

ملخص الدراسة:

تهتم هذه الدراسة بتسليط الضوء على مختلف إسهامات المؤرخ حنيفي هلايلي حول تاريخ الموريسكيين الأندلسيين، ودورهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني، وظروف هجرتهم وطردهم من الأندلس، ويمكن اعتبار ما قدمه إضافة مميزة في الموضوع خاصة إذا علمنا أن الكتابات التاريخية العربية الجزائرية شحيحة، مقابل الكتابات الغربية المسيحية، فموضوع الموريسكيين حسب حنيفي هلايلي موضوع تفوق في الاهتمام به الغرب أكثر من العرب والمسلمين، إذ شكل الاهتمام بالتاريخ المورسكي الأندلسي نقطة جديدة في ميدان البحث العلمي في البلدان العربية والإسلامية، وهذا راجع لقلّة الوثائق والمصادر التاريخية، ونعتقد أن أول عمل بدأ به حنيفي هلايلي هو رسالة الماجستير حول الموريسكيين الأندلسيين في المغرب الأوسط خلال القرنين 16 و17 م، وبعدها توالى أعماله حول هذه الفئة المميزة تاريخيا وثقافيا، وللإحاطة بأهم هذه الأعمال من 2000 إلى 2019م مررنا بنقطتين رئيسيتين: 1لمحة عامة عن المؤرخ حنيفي هلايلي، وحاولنا في هذا العنصر التعريف به على المستوى العلمي والثقافي ودوره بصورة عامة في الجامعة الجزائرية، 2 اهتمامات المؤرخ حنيفي هلايلي بتاريخ الموريسكيين الأندلسيين وأبرز إسهاماته في الموضوع، وهذا العنصر قسم إلى عدة نقاط حسب نوع المساهمة من دراسة أكاديمية أو نشاط بيداغوجي، مقالات منشورة وطنية ودولية، ملتقيات وطنية ودولية، كتب مطبوعة وغيرها من المساهمات الجادة للمؤرخ.

Abstract:

This study is concerned on shedding light on the various contributions of historian HanifiHalaili on the history of the AndalusianMoriscos, their political, social, economic and cultural role in Algeria during the Ottoman era, and the influences of their migration and expulsion from Andalusia. As opposed to Western Christian writings, the subject of the Moriscos, according to HanifiHalaili, is a subject that the West excels is more than the Arabs and Muslims, as interest in the Morisco-Andalusian history constituted a new point in the field of scientific research in Arab and Islamic countries, and this is due to the lack of documents and historical sources, and we believe that the first work of HanifiHalaili began with it, his master's thesis on the AndalusianMoriscos in the Middle Maghreb during the 16th and 17th centuries AD, after his works continued on this historically and culturally distinguished category, and to outline the most important of these works from 2000 to 2019 AD we went through two main points: 1 An overview of the historian HanifiHalaili, and we tried in this element to give a definition to its role in general in the Algerian University in the field of science and culture , 2 The interests of the historian Hanifi Halaili fulfills the history of the Andalusian Moriscos and his most prominent contributions to the subject, and this element is divided into several points according to the type of contribution from an academic study

or pedagogical activity, national and international published articles, national and international forums, printed books and other serious contributions of the historian.

الكلمات المفتاحية: الجزائر، حنيفة هلايلي، الموريسكيون الأندلسيون، الدراسات التاريخية، الجامعة الجزائرية.

keywords: Algeria, HanifiHalaili, AndalusianMoriscos, Historical Studies, Algerian University

المقدمة:

يعد الأستاذ حنيفة هلايلي من أبرز الباحثين على مستوى الجزائر، وله اهتمامات تاريخية متنوعة، ومن بينها اهتمامه بتاريخ الموريسكيين الأندلسيين، ودورهم على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وقد تناول الموضوع بأشكال مختلفة وفي مناسبات متعددة كالملتقيات والندوات العلمية، والنشر في مختلف المجالات الوطنية والدولية، بالإضافة إلى الدراسة الأكاديمية المتمثلة في رسالة الماجستير التي ناقشها خلال العام الدراسي 1999-2000، والتي تناول فيها جزء من تاريخ الموريسكيين الأندلسيين ومحنة طردهم الجماعي على يد إسبانيا الكاثوليكية ووصولهم إلى الجزائر، كما شجع مختلف الباحثين على خوض غمار الموضوع والكتابة فيه، إما على شكل مقالات أو أطروحات جامعية ماجستير ودكتوراه، وأكد من خلال مختلف الأعمال التي قدمها في هذا الحقل أن موضوع الموريسكيين الأندلسيين مهم جدا، فالحضور الموريسكي في عالم المتوسط وتاريخ الجزائر وغيرها من البلدان كان له تأثير على مجريات الأحداث التاريخية، وارتبط بتزايد عمليات الجهاد البحري وتغير الخريطة الجغرافية لمنطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وقد استفاد حنيفة هلايلي من احتكاكه العلمي بمؤسسة التميمي للدراسات الموريسكية، التي شددت انتباه الباحثين نحو الموضوع بما كانت تنظمه من مؤتمرات، ولقاءات لبحث قضية المهاجرين الأندلسيين وتاريخهم الذي وصفه بالمأساوي، ومن خلال هذه الدراسة المتواضعة نسعى إلى تسليط الضوء على جهود حنيفة هلايلي وأهم دراساته التاريخية، والإسهامات العلمية التي قدمها حول التاريخ الموريسكي الأندلسي في الجزائر العثمانية، من 2000 إلى غاية 2019م، والتي نعدها إسهامات جلييلة على مستوى الجامعة الجزائرية، في دعم الدراسات التاريخية حول هذه الجالية المميزة تاريخيا وثقافيا، وللوقوف على هذه الجهود والإسهامات مررنا بنقطتين رئيسيتين تمثلت الأولى في التعريف بشخصية حنيفة هلايلي، ثم عرض مختلف إسهاماته لدعم الدراسات التاريخية الموريسكية على مستوى الجامعة الجزائرية، لكن ورغم ما بذله من مجهود في الموضوع استنتجنا أن التاريخ الموريسكي الأندلسي في الجزائر لازال مجالاً خصبا للدراسة، يحتاج مزيدا من جهود الباحثين لكشفه وتسليط الضوء عليه، وهذا باعتراف العديد من الباحثين وعلى رأسهم حنيفة هلايلي نفسه.

1- لمحة عامة عن المؤرخ حنيفة هلايلي:

ولد حنيفة هلايلي بتاريخ 1967/12/27 بسيدي بلعباس، وفي هذه المدينة الجزائرية الجميلة نشأ وترعرع وتلقى تعليمه الأولي إلى غاية حصوله على شهادة البكالوريا شعبة آداب دورة جوان 1987م، ثم واصل تعليمه العالي ليلتحق بجامعة وهران أين تحصل على شهادة ليسانس تاريخ دورة جوان 1991م، مما أهله ليلتحق بالتعليم الثانوي فعمل أستاذا لمادة التاريخ والجغرافيا (من سبتمبر 1991 إلى غاية ديسمبر 2000) وتحصل على شهادة الكفاءة الأستاذية للتعليم الثانوي في ديسمبر 1992م بسيدي بلعباس، ثم تحصل على دبلوم متخصص في الأرشيف المديرية العامة

للأرشيف الوطني بالجزائر 1996م، لكن شغفه وحبه للبحث والإطلاع دفعه للالتحاق بقسم الدراسات العليا بعد نجاحه في المسابقة ليتحصل على إثرها على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران للموسم الدراسي 1999-2000 بعد مناقشته رسالة الماجستير الموسومة "المورسكيون الأندلسيون خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين"، تحت إشراف الأستاذ الفاضل المتمكن أ.د. عبد الحميد حاجيات، بعدها قرر حنيفي هلايلي إعداد أطروحة دكتوراه فاختار موضوعا في التاريخ الحديث والمعاصر عنوانه: "النظام الحربي للجزائر في العهد العثماني منذ مطلع القرن السابع عشر حتى سنة 1830"، تحت إشراف أ.د. عبد الحميد حاجيات، وتحصل بذلك على شهادة الدكتوراه بتاريخ 22 ماي 2004 م، بجامعة سيدي بلعباس، وبعدها مباشرة تحصل على شهادة التأهيل الجامعي بتاريخ 7 نوفمبر 2004 بجامعة سيدي بلعباس. (هلايلي، السيرة الذاتية والعلمية لحنيفي هلايلي، 2019)

تمكن الأستاذ حنيفي هلايلي من أن يشغل ويجمع بين عدة مهام علمية وبيداغوجية، ويمارس وظيفته في الجامعة على أكمل وجه، أستاذ مشارك بقسم التاريخ، جامعة سيدي بلعباس منذ سبتمبر 1998، أستاذ مساعد بقسم التاريخ ديسمبر 2000، أستاذ مكلف بالدروس منذ ديسمبر 2003، أستاذ محاضر نوفمبر 2004، أستاذ للتعليم العالي منذ 2009، ودرّس مختلف المقاييس لطلبة التدرج وما بعد التدرج، وأطر عددا لا يستهان به من مذكرات الليسانس والماجستير والدكتوراه والماستر، وتخرج على يده مئات الطلبة وعدد كبير من الباحثين، ومما ساعده على تميزه العلمي إتقانه لعدة لغات على رأسها اللغة العربية والفرنسية وكذلك الإسبانية والانجليزية، كما كان حافظا لجزء من كتاب الله، والمستشار التاريخي للزاوية التجانية برأس الماء بسيدي بلعباس، وانضم حنيفي للعديد من فرق البحث والمخابر سواء بصفته عضوا باحثا أو رئيسا ومنها عضو باحث في فرقة البحث بعنوان "منطقة سيدي بلعباس خلال المرحلة الاستعمارية 1830-1954 جامعة سيدي بلعباس 2002-2004 م، عضو باحث في مخبر البناء الحضاري للجزائر تحت رئاسة الدكتور عبد العزيز لفرج، جامعة الجزائر، رئيس فرقة بحث بعنوان "الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجزائر العثمانية على ضوء مخطوط قانون أسواق الجزائر" جانفي 2006، رئيس فرقة بحث "أوقاف الحرمين الشريفين في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني على ضوء وثائق المحاكم الشرعية" جانفي 2009-2014، رئيس فرقة بحث "علماء الأندلس في ضوء كتب التراجم دراسة تاريخية وبيبلوغرافية ما بين القرنين 2-6 هـ/ 8-10 م"، 2012-2015.... كما كان عضوا في اللجنة العلمية، رئيس اللجنة البيداغوجية لقسم التاريخ جامعة سيدي بلعباس، نائب رئيس قسم التاريخ مكلف بما بعد التدرج والبحث العلمي 2003-2005، عضو المجلس العلمي لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة سيدي بلعباس 2013-2019، وترأس عددا من مشاريع الماجستير..... (هلايلي، 2019).

ونظم وترأس العديد من الملتقيات العلمية الجادة التي لا يتسع المجال لذكرها، كما قدم خدماته للعديد من المجالات العلمية والمخابر فكان عضوا الهيئة العلمية لمجلة الآداب والعلوم الإنسانية جامعة سيدي بلعباس، عضو لجنة قراءة في المجالات التالية: عضو لجنة قراءة في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة سيدي بلعباس، عضو لجنة قراءة في مجلة حوليات جامعة قلمة، عضو لجنة قراءة في مجلة دراسات تراثية مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، عضو لجنة قراءة في مجلة الحوار المتوسطي مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية جامعة سيدي بلعباس، مساعد محرر في مجلة المصادر مركز الدراسات التاريخية الجزائر، عضو لجنة قراءة في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الشارقة، عضو لجنة قراءة في مجلة المتوسطية للدراسات الأندلسية جامعة تلمسان، عضو لجنة قراءة

مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية جامعة تيارت، عضو لجنة القراءة مجلة المرأة جامعة وهران 1، عضو لجنة قراءة مجلة البحوث التاريخية جامعة المسيلة، مدير مجلة الحوار المتوسطي، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي منذ 2007 جامعة سيدي بلعباس، خبير محكم في الجامعات العربية في التأهيل الجامعي والدوريات العلمية، المملكة العربية السعودية، الإمارات العربية المتحدة،.... وغيرها من المهام العلمية (هلايلي، 2019)

أصدر حنفي هلايلي عدة كتب في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر تناولت مواضيع متنوعة منها السياسية والعسكرية، وبالإضافة لمساهماته في كتابة تاريخ المورسكيين له أيضا:

-العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الأيالة 1815-1830 (هلايلي، 2007، الصفحات 1-100)، وهو عبارة عن دراسة سلطت الضوء على الجانب السياسي للجزائر العثمانية وأهم العوامل التي أدت إلى سقوطها تحت الاحتلال الفرنسي، وللمؤلف كتاب آخر تناول فيه أيضا الحياة السياسية للجزائر وعلاقتها بالدول الأوروبية في فترة زمنية أطول وهو الكتاب الذي حمل عنوان: العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الأيالة 1792-1830.

-بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني (هلايلي، 2007، الصفحات 1-176)، وتناول في هذا الكتاب الحياة العسكرية للجزائر وفرقة الانكشارية التي شكلت طائفة مميزة داخل المجتمع الجزائري، وكانت لها سطوتها السياسية والعسكرية، كما تكونت بينها وبين المجتمع الجزائري علاقات خاصة.

-أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني (هلايلي، 2009، الصفحات 1-271) وتناول فيه محطات تاريخية مهمة من تاريخ الجزائر.

-صفحات في تاريخ منطقة سيدي بلعباس، 2013

-أضواء جديدة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، جزأين، 2014-2015

-دراسات جزائرية، 2016

-العلم والعلماء والنخب في المغرب، جمع وتنسيق حنفي هلايلي، 2018

-قراءات وتراكيب جديدة في تاريخ الجزائر، 2018

-دراسات إفريقية جديدة، جمع وتنسيق، 2019

2- اهتمامات المؤرخ حنفي هلايلي بتاريخ المورسكيين الأندلسيين وأبرز إسهاماته في الموضوع:

يعتبر البحث في تاريخ المورسكيين الأندلسيين على قدر كبير من الأهمية، وحسب المؤرخ حنفي هلايلي وكما أشار في مقدمة رسالة الماجستير الخاصة به (هلايلي، 1999-2000، الصفحات 1-8) أن الاهتمام بالتاريخ المورسكي الأندلسي الذي يمتد من سقوط غرناطة عام 1492م وإلى غاية الطرد النهائي للمسلمين عام 1609، يعتبر موضوعا جديدا على مستوى البلدان العربية والإسلامية، وقد اهتم الباحثون العرب بدراسة تاريخ الأندلس خلال فترة ازدهار حضارتها الإسلامية نتيجة توفر المصادر الأندلسية وتنوعها، بينما لم تحظ مأساة المورسكيين باسبانيا بنفس الاهتمام لعدم توفر المادة العلمية، إذ أن مصادر محنة المورسكيين باسبانيا بعد سقوط غرناطة، تتمثل في سجلات دواوين محاكم التفتيش

التي غطت تقريبا كل جوانب الاضطهاد المسيحي للمسلمين ونتائجه، ولا توجد في الوقت الحاضر قرية أو مدينة اسبانية إلا ولديها ملفات ضخمة عن الموريسكيين الأندلسيين، وقد عمل المؤرخون الغربيون على استنطاق تلك الملفات معتبرين موضوع الموريسكيين موضوعا أوروبا قبل أن يكون موضوعا إسلاميا، ونتج عن ذلك أن تفوق الغرب والأقلام المسيحية في الدراسات الموريسكية بحكم الوثائق الموجودة بحوزتهم ومؤسستهم الأرشيفية، أما على المستوى العربي الذي سجل نقصا في مثل هذه الدراسات، فيمكن اعتبار المركز العالمي "مركز البحوث والدراسات العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات" في تونس، الذي تأسس على يد المؤرخ القدير عبد الجليل التميمي بمدينة زغوان عام 1985 م، رائدا في هذا المجال، فهو من أنشط المخابر المعرفية على الساحة الدولية في كل ما يتعلق بموضوع الموريسكيين، وقد نظم المركز ثمانية (8) مؤتمرات عالمية (إلى غاية 2000م تاريخ مناقشة حنفي هلايلي لرسالة الماجستير) انصبت كلها في علم "الموريسكولوجيا" حسب حنفي هلايلي، كما نظم عدة لقاءات وإليه ينسب الفضل في بدأ الاهتمام العربي الإسلامي بالموريسكيين، ومن بين أهم الأسباب التي دفعت حنفي هلايلي للاهتمام والبحث في تاريخ الموريسكيين بالجزائر على وجه الخصوص، أن الدراسات التاريخية التي تناولت الحضور الأندلسي بالمغرب العربي قد اقتصر على تونس والمغرب الأقصى، في حين بقيت الأبحاث الأندلسية بالجزائر قليلة وسطحية، لم تقدم معلومات دقيقة عن أماكن استقرار الجالية الأندلسية وتنظيماتها بالجزائر خاصة خلال العهد العثماني (هلايلي، 1999-2000، الصفحات 1-7).

امتاز أسلوب حنفي هلايلي بالسهولة والوضوح، كما اعتمد دائما في كتاباته على المصادر المحلية والأجنبية بالإضافة إلى مختلف الوثائق الأرشيفية، وأكد أنه رغم تأخر العرب في تدوين تاريخ الموريسكيين الأندلسيين عموما عن الغرب، إلا أن الجارتين تونس والمغرب قد سبقتا الجزائر في الكتابة التاريخية حول الموضوع، لأسباب تتعلق بقلة المصادر والمراجع مؤكدا بقوله: "عرفت الجزائر هجرة أندلسية واسعة وهامة خلال مراحل الهجرات الثلاث الكبرى نحو المنطقة، إلا أن الوثائق المتعلقة بها وبالجمالية الأندلسية محدودة، والموجودة منها ما يزال معظمه موزعا عبر مختلف أرشيفات دول البحر الأبيض المتوسط، زيادة على وضعية الجالية الأندلسية بالجزائر وطبيعة الحكم العثماني بالأقاليم، كلها جعلت الدراسات الموريسكية الأندلسية بالجزائر تتأخر عن زميلتها بتونس والمغرب." (هلايلي، 2002، صفحة 315) الشهادة حول نقص المعلومات أكدها أيضا ناصر الدين سعيدوني الذي يعد من أبرز الأقلام الجزائرية في الدراسات العثمانية، وله هو أيضا إسهامات جادة في هذا الموضوع رفضت بعض الغبار عن التاريخ الموريسكي الأندلسي في الجزائر (سعيدوني، د.ت)، (صفحة 108)، وأشار حنفي بخصوص المصطلح إلى أنه استعمل مصطلح "الموريسكيون الأندلسيون" لكي يفهم القارئ أن الموريسكي هو امتداد طبيعي للحضارة العربية الإسلامية بالأندلس، وهذا ما جاء ذكره في توصيات جميع المؤتمرات العالمية للدراسات الموريسكية الأندلسية المنعقدة بتونس تحت رعاية مؤسسة التميمي، وعبارة الموريسكيين دونت في محاضر محاكم التفتيش، واتبع خطاهم الكتاب الغربيون في وصف مسلمي الأندلس بهذه اللفظة وتجريدتهم من كلمة أندلس، (هلايلي، 1999-2000، الصفحات 1-7) ويأمل حنفي أن تشهد الجامعة الجزائرية اهتماما أكثر بتاريخ الموريسكيين كتابة وتدرسا، ويبدو أنه لشدة اهتمامه بتاريخ هذه الجالية والمكانة الخاصة للأندلس عنده، جعل في عنوان بريده الإلكتروني الخاص مسمى الأندلس hanifi_andalous@yahoo.fr ، ويمكن أن نصنف أهم أعماله حول الموريسكيين كما يلي:

أولا: رسالة الماجستير والنشاطات البيداغوجية:

تعتبر رسالة الماجستير (هلايلي، الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16-17 م، 1999-2000) لحنيفي هلايلي الموسومة "الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16 و17 م" (262 صفحة) في اعتقادنا من أهم أعماله الأكاديمية حول الموريسكيين، وقد تكون الأولى في الموضوع بالنسبة له كباحث أكاديمي في الجامعة الجزائرية، واعتبرها هو شخصيا مساهمة لإبراز الحياة المساوية للموريسكيين وهجرتهم إلى الجزائر التي ارتبطت بالدولة العثمانية، ومساهماتهم المتنوعة والمختلفة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مساهمات خلدها الوثائق الأرشيفية التي أثرى بها الباحث دراسته، ونظرا لأهميتها نفصل في ما يأتي في العناوين التي تناولها في الدراسة:

استهل حنيفي هلايلي دراسته بالمدخل الذي تناول فيه ثلاث نقاط رئيسة 1 ظهور الوحدة الاسبانية وبداية المشكل الموريسكي، 2 أوضاع شمال إفريقيا قبيل مجيء الأتراك العثمانيين، 3 النشاط الاسباني في شمال إفريقيا ودخول العثمانيين منطقة غربي الأبييض المتوسط، وعنون الفصل الأول كما يلي: الأندلسيون في مواجهة المد المسيحي 1492-1614، وقسمه إلى: 1 الأندلسيون في عهد الملكين الكاثوليكين 1492-1516 وتضمن ثلاث عناصر أساسية: سقوط غرناطة، الانتفاضات الشعبية، المواجهة الاسبانية، 2 الموريسكيون في عهد شارل الخامس 1516-1556 وقسمه 1.2 سياسة التنصير والإدماج 2.2 المقاومة الموريسكية، أ- دور الفقهاء، ب- دور المرأة، 3.2 أسلوب التقية عند الموريسكيين، 3 الموريسكيون في عهد فليبي الثاني وفليبي الثالث، 1.3 فليبي الثاني والمشكل الموريسكي 1556-1598، 2.3 ثورة غرناطة الكبرى، 3.3 الموريسكيون في عهد فليبي الثالث 1598-1621 قسمه: أ أسباب الطرد النهائي للموريسكيين، ب موقف الموريسكيين من الطرد وتفسيرهم له، الفصل الثاني الأندلسيون خارج شبه الجزيرة الأيبيرية، قسمه إلى 1 انعكاسات طرد الموريسكيين من اسبانيا وفيه: أ- ديمغرافيا و ب- اقتصاديا، 2 الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، 3 الهجرات الموريسكية المختلفة قسمه 1.3 الهجرة إلى شمال إفريقيا وفيه - أ الهجرة إلى المغرب الأقصى و - ب الهجرة إلى تونس، 2.3 مرور الموريسكيين بفرنسا وبعض الدول الأوروبية، 3.3 انتقال الموريسكيين إلى أراضي الدولة العثمانية، 4 موقف فقهاء الإسلام من الهجرة الأندلسية قسمه إلى 1.4 فتوى الونشريسي، 2.4 فتوى المعراوي، أما الفصل الثالث فقد عنونه بالهجرات الأندلسية إلى المغرب الأوسط وقسمه إلى 1 الهجرة إلى المغرب الأوسط قبل سقوط غرناطة 1492، 2 الهجرة إلى المغرب الأوسط ما بين 1492-1609 م، 3 الهجرة الأخيرة، 4 هجرة يهود شبه الجزيرة الأيبيرية إلى المغرب الأوسط، أما بخصوص الفصل الرابع والأخير فقد أعطاه عنوان الإسهام الحضاري الأندلسي في أقاليم الجزائر وقسمه: 1 الأندلسيون والنشاط الإداري والعسكري، 2 الأندلسيون والنشاط الاقتصادي تضمن 1.2 الأندلسيون والنشاط الفلاحي، 2.2 الأندلسيون والنشاط الصناعي والحرفي، 3.2 الأندلسيون والنشاط التجاري، 3 الأندلسيون والحياة الاجتماعية، 4 الأندلسيون والحياة الثقافية وقسمه إلى 1.4 الأندلسيون والنشاط الثقافي 2.4 الأندلسيون والنشاط العمراني، وطبعا احتوت الرسالة على مقدمة وخاتمة وملاحق خدمت صلب الموضوع.

وساهم حنيفي هلايلي في فرق البحث التي تناولت تاريخ الموريسكيين مثل فرقة البحث التي اهتمت بعلماء الأندلس في ضوء كتب التراجم: دراسة تاريخية وبيبلوغرافية ما بين القرنين 2-6 هـ/ 8-10 م 2012-2015

وقد شجع حنيفي هلايلي العديد من طلبة الدراسات العليا في الجامعات الجزائرية على اقتحام الدراسات الخاصة بالموريسكيين وتتبع أعمالهم إما بالإشراف عليهم حتى المناقشة أو توجيههم، على غرار موضوع الباحث جليل بن

عتو، الحضور الأندلسي الموريسكي في مدينة الجزائر العثمانية على ضوء الوثائق العثمانية، ماجستير تم مناقشتها جوان 2008، وأيضا الباحث دلباز محمد، صورة الموريسكيين الأندلسيين في التراث العربي الإسلامي 1492-2000 دراسة تاريخية بيبليوغرافية، ماجستير، نوقشت جوان 2009، وأيضا الباحثة خديجة دوالي التي ساعدها في موضوعها حول الفكر الديني عند الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16-17 ميلاديين من خلال بعض المخطوطات الألفيادية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي ليايس سيدي بلعباس، 2013-2014.

وبالإضافة إلى تعاونه مع طلبة الدراسات العليا اختار حنفي هلايلي أن يقوم بتدريس مقاييس حول تاريخ الموريسكيين مثل: المحاضرات التي قدمها جامعة سيدي بلعباس جيلالي ليايس، محاضرات في الإسهام الحضاري الأندلسي في الجزائر العثمانية، حامل بيداغوجي موجه لطلبة السنة الثالثة ليسانس سبتمبر 2001.

دراسات في تاريخ الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، حامل بيداغوجي موجه لطلبة السنة الثانية ليسانس، سبتمبر 2002.

علماء الأندلس وكتب التراجم، حامل بيداغوجي موجه لطلبة السنة الرابعة ليسانس، سبتمبر 2007-2008 جامعة سيدي بلعباس.

كما درّس لطلبة التدرج عدد من الوحدات ساهم حنفي هلايلي من خلالها في إثراء موضوع الموريسكيين الأندلسيين، مثل مقياس تاريخ المغرب الإسلامي منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 1492 بجامعة سيدي بلعباس 2000-2003، أما ما بعد التدرج فدرّس مقياس تاريخ الموريسكيين وآثارهم، لطلبة الماجستير جامعة تلمسان 2004-2005، التاريخ الموريسكي والأندلسي ماجستير جامعة سيدي بلعباس 2005-2006-2009 م.

ثانيا: الكتب

صدر للمؤلف مجموعة من الكتب اهتم فيها بتاريخ الموريسكيين، كما ساهم رفقة الباحثين بالإشراف والتنسيق حول الموضوع رصدنا منها:

حنفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي (هلايلي، 2010، الصفحات 1-192)، وتضمن: القسم الأول: الهجرات الأندلسية إلى الجزائر قسمها إلى 1 الهجرة إلى المغرب الأوسط قبل سقوط غرناطة 1492، 2 الهجرة الأندلسية إلى الجزائر ما بين 1492-1609، 3 الهجرة الأخيرة 1609-1614، 4 يهود شبه الجزيرة الأيبيرية في الجزائر، 5 الإسهام الحضاري الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني وقسم هذا العنصر إلى - أ الأندلسيون والنشاط الإداري والفكري، - ب الأندلسيون والحياة الاجتماعية، - ج الأندلسيون والحياة الثقافية، - د الأندلسيون والنشاط العمراني، القسم الثاني: حرية الاعتقاد عند الموريسكيين الأندلسيين بين ازدواجية مراقبة محاكم التفتيش والهجرة قسمه إلى: 1 محاكم التفتيش المراقبة والتعذيب، 2 التقية أسلوب المواجهة الجديدة، 3 موقف فقهاء الإسلام من الهجرة الأندلسية قسمه إلى - أ فتوى الونشريسي الأولى، - ب الفتوى الثانية، - ج فتوى المغراوي، 4 الجزائر والملف الموريسكي الأندلسي قسمه - أ ظهور الوحدة الإسبانية وبداية المأساة الموريسكية، - ب أوضاع شمال إفريقيا قبيل مجيء الأتراك العثمانيين، - ج الجزائر والملف الموريسكي الأندلسي، القسم الثالث: الحضور الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني على ضوء وثائق

المحاكم الشرعية وقسمه: 1 الأندلسيون والنشاط الاقتصادي، 2 الأندلسيون والنشاط التجاري، 3 الأندلسيون والحياة الاجتماعية، القسم الرابع: الذاكرة الموريسكية في الكتابات العربية والتراث الألمخيادي وقسمه، 1 الأندلسيون في كتابات أحمد المقرئ التلمساني (أزهار الرياض نموذجاً)، 2 الحرف العربي تعبير مقدس في نصوص المخطوطات الألمخيادية الموريسكية، 3 التراث الديني عند الموريسكيين من خلال المخطوطات الألمخيادية، واشتملت نهاية الكتاب على الملاحق والخرائط. (هلايلي، 2010)

معجم الدراسات الموريسكية الأندلسية في الجزائر دراسة تاريخية بيبليوغرافية تحليلية تكشفية وتقييم، إشراف وتنسيق حنيفي هلايلي، منشورات مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، وقد ساهم في إعداده: متاجر صورية، محمد دلباز، عبد القادر صحراوي، حميد آيت حبوش، ط. 1، دار الأصول للطبع والنشر سيدي لحسن-سيدي بلعباس، الجزائر، 2013، (264 صفحة) واشتمل على المواضيع التالية: -القسم النظري: الفصل الأول المشكل الموريسكي الأندلسي في إسبانيا، الفصل الثاني الهجرات الأندلسية إلى الجزائر، الفصل الثالث الإسهام الحضاري الأندلسي في الجزائر، -القسم التطبيقي 1 البيبليوغرافيا التحليلية، 2 المؤتمرات العالمية للدراسات الموريسكية الأندلسية، 3 الدراسات الموريسكية الأندلسية المنشورة في المجلة الإفريقية، 4 الدراسات الموريسكية الأندلسية المنشورة في الجمعية الأثرية، 5 بيبليوغرافيا مختارة، 6 دراسات موريسكية متخصصة، 7 مؤتمرات عالمية للدراسات الموريسكية الأندلسية، 8 مدخل منهجي للمعجم التاريخي للدراسات الموريسكية الأندلسية، 9 بيبليوغرافيا حول الدراسات الموريسكية الأندلسية، 10 بيبليوغرافيا حول الدراسات البيبليوغرافيات الموريسكية الأندلسية، 11 بيبليوغرافيا خاصة بالتاريخ العام للموريسكيين، 12 بيبليوغرافيا خاصة بطرد الموريسكيين. (هلايلي، حنيفي وآخرون، 2013)

-الموريسكيون الأندلسيون في الجزائر خلال القرنين 16 و 17 م: مقاربات جديدة في الهجرة والإسهام الحضاري، منشورات مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، الجزائر، 2014، (262 صفحة) ويبدو أن الباحث نَقح رسالة الماجستير ونشرها لكي تكون في متناول أكبر عدد من الباحثين والمهتمين بالموضوع، ووجد اختلاف بسيط بين الكتاب والرسالة على غرار الفصل الثاني الذي عنوانه في الكتاب بالموريسكيون والعالم المتوسطي بدلا عن الأندلسيون خارج شبه الجزيرة الأيبيرية (هلايلي، 2014).

ثالثا: الملتقيات الوطنية والأيام الدراسية

من بين الملتقيات الوطنية التي ساهم حنيفي هلايلي في إثرائها بدراساته حول موضوع الموريسكيين الأندلسيين نذكر على سبيل المثال لا الحصر: -المناظرة الوطنية حول تراث العلامة أحمد الونشريسي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تسمسليت، يوم 12 نوفمبر 2009، بمحاضرة موسومة "حكم هجرة أهل الأندلس الموريسكيين إلى بلاد المغرب العربي على ضوء فتاوى الونشريسي".

-يوم دراسي حول الذكرى الأربعمئة لطرد الموريسكيين من إسبانيا (1609-2009)، المركز الوطني للأبحاث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، يوم 27 ماي 2010، بمحاضرة "الذاكرة الموريسكية في الكتابات العربية والتراث الألمخيادي،

رابعاً: الملتقيات الدولية

من بينها:

الملتقى الدولي حول الأديب أبي العباس أحمد المقرئ التلمساني يومي 13 و14 جوان 2001، بمحاضرة موسومة "الأندلسيون في فكر أحمد المقرئ، أزهار الرياض ونفح الطيب نموذجاً"، جامعة تلمسان

المؤتمر العالمي الحادي عشر للدراسات الموريسكية حول الحضور الموريسكي والحياة اليومية في البحر الأبيض المتوسط وأمريكا اللاتينية، أيام 8-11 ماي 2003، بمحاضرة موسومة "الحضور الأندلسي في مجتمع مدينة الجزائر العثمانية على ضوء المساهمات الوقفية"، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس ونشر العمل ضمن المجلة العربية التاريخية للدراسات العثمانية العدد 17-18 أوت 2005.

الملتقى الدولي الثالث حول الحرية الدينية في الإسلام وقوانين ومواثيق حقوق الإنسان، جامعة قسنطينة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، أيام 5-7 ماي 2008، بمحاضرة عنوانها "حرية الاعتقاد عند الموريسكيين الأندلسيين بين ازدواجية مراقبة محاكم التفتيش والهجرة".

الملتقى الدولي الثاني حول وهران الهوية الإسلامية والثقافات المتوسطة جامعة وهران، أيام 29-30 أفريل 2009، بمحاضرة عنوانها "وهران في عيون الأندلسيين".

الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور سلماً وحرباً، جامعة الجزائر 2 مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، أيام 7-9 ديسمبر 2009، بمحاضرة تحمل عنوان "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إغاثة الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17 م".

الملتقى الدولي حول حرية ممارسة الشعائر الدينية حق يكفله الدين والقانون، الجزائر يومي 10 و11 فبراير 2010، بمحاضرة موسومة "الجدل الديني في إسبانيا الموريسكية على ضوء مخطوط ناصر الدين على القوم الكافرين".

خامساً: المقالات الوطنية

نذكر منها العناوين التالية:

أسلوب التقية عند الموريسكيين في الأندلس، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 1، جامعة سيدي بلعباس، جانفي 2001، ص-ص 246-257

الحرف العربي تعبير مقدس في النصوص الألفبائية الموريسكية، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد 1، جامعة وهران، جوان 2003، ص-ص 64-75

الأندلسيون في فكر أحمد المقرئ: أزهار الرياض ونفح الطيب نموذجاً، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد خاص رقم 16 جوان 2004، ص-ص 107-124

التراث الديني عند المورسكيين من خلال المخطوطات الأخمياضية، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 22، أكتوبر 2006، ص-ص 219-229

حرية الاعتقاد عند المورسكيين الأندلسيين بين ازدواجية مراقبة محاكم التفتيش والهجرة، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الثالث حول الحرية الدينية في الإسلام ومواثيق وقوانين حقوق الإنسان، أيام 28-29-30 ربيع الثاني 1429 هـ/5-6-7 ماي 2008، العدد 17، المجلد 1، ديسمبر 2008

حكم هجرة الأندلسيين إلى المغرب العربي من خلال فتاوى الوندشريسي، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 2، مارس 2010 سيدي بلعباس، ص-ص 38-52

الجزائر والملف الموريسكي خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 3-4، مارس 2011-2012، ص-ص 95-106

l'expulsion des morisques d'Espagne en 1609 purification ethnique, in dialogue méditerranéen (sidi bel Abbes, n.3-4, mars 2011-2012,p-p24-31. طرد المورسكيين من إسبانيا عام 1609 تصفية عرقية.)

القضية المورسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء الفرمانات العثمانية 1492-1614، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 6، مارس 2014، جامعة سيدي بلعباس، ص-ص 9-38

المورسكيون الأندلسيون في إسبانيا من خلال رحلتي الشهاب الحجري والوريد الغساني، مجلة الحوار المتوسطي، عدد خاص، سبتمبر 2015، جامعة سيدي بلعباس، ص-ص 15-35.

المقال المشترك زكريا بن علي وحنيفي هلايلي، المورسكيون: آثارهم الثقافية وإنتاجهم اللغوي في إسبانيا المورسكية، الحوار المتوسطي، المجلد 10، العدد 01، سيدي بلعباس، مارس 2019، ص-ص 12-28

سادسا: المقالات الدولية

نذكر العناوين التالية:

الحضور الأندلسي بالجزائر في العهد العثماني على ضوء المحاكم الشرعية، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 25، أوت 2002، زغوان تونس، ص-ص 315-324

الأندلسيون وممارسة السياسة في بلاطات المغرب العربي يحيى بن خلدون نموذجا، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 3، جامعة سيدي بلعباس، أبريل 2004، ص-ص 163-170

الأندلسيون في كتابات أحمد المقري التلمساني (أزهار الرياض ونفح الطيب أنموذجا)، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، العدد 97، دمشق، مارس 2005، ص-ص 177-187

الحضور الأندلسي في مجتمع مدينة الجزائر العثمانية على ضوء المساهمات الوقفية، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 31 ديسمبر 2005، ص-ص 59-73

دور الوقف في الحفاظ على الملكية العقارية والثروة لدى الأندلسيين بمدينة الجزائر في العهد العثماني، المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 131، جوان 2008، ص-ص 146-159

الخاتمة:

- تنوعت إسهامات المؤرخ حنيفي هلايلي في دعم الدراسات التاريخية، حول تاريخ الموريسكيين الأندلسيين في الجزائر ودورهم الثقافي والسياسي وحياتهم الاجتماعية، ويمكن اعتبار قلمه من أهم الأعلام على مستوى الجامعة الجزائرية التي خاضت غمار البحث في الموضوع.

- انطلقت إسهامات حنيفي هلايلي في الموضوع من رسالة الماجستير التي كانت حول الموريسكيين الأندلسيين في المغرب الأوسط خلال القرنين 16-17م والتي ناقشها عام 2000م، وتوالت بعد ذلك الدراسات من مقالات وطنية ودولية، وكتب وقواميس، والمشاركة في الأيام الدراسية، والملتقيات الوطنية والدولية، وتشجيع الباحثين على تناول تاريخ الموريسكيين..... وغيرها من الإسهامات.

- يكتسي التاريخ المتعلق بالموريسكيين الأندلسيين في الجزائر أهمية بالغة لمساهمة هذه الجالية في كثير من الأحداث التاريخية، لذا يجب التنقيب بدقة عن كل ما يحيط بهم من أماكن استقرارهم وتنظيماتهم وعلاقاتهم مع بقية فئات المجتمع.

- الدراسات العربية الجزائرية شحيحة في تتبع تاريخ الموريسكيين وأثارهم في الجزائر العثمانية، لعدة أسباب من أهمها ندرة الوثائق وقلة المصادر.

- لازالت الجامعة الجزائرية بحاجة لجهود مزيد من الباحثين لتسليط الضوء على التاريخ الموريسكي الأندلسي في الجزائر، فهذه الفئة كانت جزءا من المجتمع الجزائري ومن تاريخ الجزائر، ولها إسهامات لا تعد ولا تحصى في مختلف مجالات الحياة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الكتب المطبوعة:

- هلايلي حنيفي، العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الأيالة 1815-1830، ط.1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2007

- هلايلي حنيفي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط.1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2007

- هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط.1، دار الهدى عين مليلة الجزائر، 2009

- هلايلي حنيفي، أبحاث ودراسات في تاريخ الأندلس الموريسكي، ط.1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2010

- هلايلي حنيفي، الموريسكيون الأندلسيون في الجزائر خلال القرنين 16 و17م: مقاربات جديدة في الهجرة

والإسهام الحضاري، منشورات مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، 2014

- هلايلي حنيفي وآخرون، معجم الدراسات الموريسكية الأندلسية في الجزائر: دراسة تاريخية بيبليوغرافية تحليلية

تكشيف وتقويم، ط.1، دار الأصول للطبع والنشر، سيدي لحسن سيدي بلعباس، الجزائر، 2013

2- الرسائل الجامعية:

- هلايلي حنيفي، المورسكيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16 و17م، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 1999-2000

- هلايلي حنيفي، النظام الحربي للجزائر في العهد العثماني منذ مطلع القرن السابع عشر حتى سنة 1830،

أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2004

3- الدوريات

- سعيدوني ناصر الدين ، "الأندلسيون (المورسكيون) بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس

عشر والسابع عشر"، حوليات جامعة الجزائر، ع.7، الجزائر

- هلايلي حنيفي ، "الحضور الأندلسي بالجزائر في العهد العثماني على ضوء سجلات المحاكم الشرعية، المجلة

التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع.25، زغوان تونس، أوت 2002

المواقع الإلكترونية:

- السيرة الذاتية والعلمية لحنيفي هلايلي، جامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس، الرابط:

<https://univsba.academia.edu/HanifiHalaili/CurriculumVitae> بتاريخ 2023/01/14

الدور الحضاري للموريسكيين في الجزائر العثمانية
The civilizational role of the Andalusians in Ottoman Algeria

د.محمد عطية / جامعة الاغواط/ الجزائر

Dr.Mohamed ATTIA/ University Laghouate / Algeria

أد/عبد القادر صحراوي جامعة لجيلالي اليابس سيدي بلعباس

ملخص الدراسة: يدرس هذا البحث الدور الحضاري للأندلسيين بالجزائر خلال العهد العثماني، انطلاقاً من الهجرة الأولى قبل سقوط غرناطة ثم بعدها حتى بداية القرن السابع عشر، وكيف انتقلوا إلى الجزائر واستوطنوا العديد من المناطق وتوضيح الدور الذي قاموا به في شتى المجالات. واهتمامهم على جوانب دون أخرى لعدة أسباب. حيث برزت بصمتهم جلية للعيان. ولعل من بين هذه الجوانب الجانب الاجتماعي والثقافي والمعماري. فقد حافظ هؤلاء على أنماط عيشهم التي ميزتهم عن المجتمع الجزائري من خلال العادات والتقاليد. في حين كان التزاوج بين هذا النمط وذاك موجوداً أيضاً كالتمازج اللغوي، والتعامل مع جل أطياف المجتمع الجزائري في التجارة وطلب العلم ونشره وتعدى الأمر إلى المصاهرات.

وظهرت مساهمتهم أيضاً في تأسيس مدن خاصة بهم مثل مدينة البليدة ومدينة القليعة. أو كان لهم الفضل في تطويرها على الأقل مثل تنس، شرشال والقل، وقد ظلت هذه المدن بهندستها المتميزة و لونها الخاص تعبر عن حضارة شبه الجزيرة الأيبيرية.

الكلمات المفتاحية: الجزائر، الأندلسيون، العثمانيون، المجتمع، الحضارة.

Abstract:

This research studies the cultural role of the Andalusians in Algeria during the Ottoman era, starting from the first migration before the fall of Granada and after the beginning of the seventeenth century, and how they moved to Algeria and settled many regions and clarified the role they played in various fields. Their interest only in some aspects for several reasons. Their imprint was clearly visible without exaggeration. The social, cultural and architectural aspect were some of these interesting aspects. They have preserved their lifestyles that distinguished them from Algerian society through customs and traditions. While the relationship between this style and that also existed, such as linguistic intermingling, and dealing with most of the spectrum of Algerian society in trade, seeking knowledge and spreading it, and the matter went beyond intermarriage.

Their contribution also appeared in the establishment of their own cities, such as the city of Blida and the city of Qalaia. Or at least they were credited with developing them, such as Tennis, Cherchell and Al-Qal, and these cities, with their distinguished architecture and special color, have been expressing the civilization of the Iberian Peninsula.

Keywords: Algeria, Andalusians, Ottomans, the society, Civilization.

مقدمة: ضاقت أرض الأندلس بساكنها من المسلمين؛ بفعل مضايقات السلطات الإسبانية ومحاكم التفتيش التي أسست لذات الغرض. فمنذ معركة الزلاقة الشهيرة أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي؛ انفرط عقد الأندلس وسقطت مدنه التي كانت عواصم إمارات إسلامية متناثرة تواليها، نظراً لتشتت أمر المسلمين وحدة شوكة النصارى. ومنذ ذلك الحين بدأت ما تسمى حروب الاسترداد لقرباً أربعة عقود من الزمن. ولم يكن ليستوقفنا أمر الأندلس لولا طول فترة صمود أهلها ومن بينهم أمراء المسلمين الذين حملوا على عاتقهم لواء الجهاد وبقاء شرائح واسعة من المسلمين تقارع سطوة النصارى حتى أطلق عليهم إسم الموريسكيين. ونظراً لطول هذه الفترة فإن أعداداً كبيرة من المسلمين الأندلسيين كذلك فضلت الهجرة إلى بلاد المغرب، هذه المنطقة التي استضافهم ورحب بهم أهلها. على أن

مملكة فاس نالت حظا وافرا من هجرات هؤلاء وفضل بعضهم التوجه شرقا حيث الجزائر العثمانية والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى. وانطلاقا مما سبق سنحاول الإجابة على الإشكالية التالية: إلى أي مدى ساهم الأندلسيون الموريسكيون في حضارة الجزائر خلال العهد العثماني؟ وللإحاطة بجوانب البحث لابد من إثارة بعض الأسئلة التالي:

- ما هي أوضاع المغرب الأوسط أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر؟

- كيف أصبحت المناطق التي سكنها الأندلسيون؟

- ما هي المجالات التي شهدت تأثيرا أندلسيا واضحا؟

أولا- الأندلسيون في بلاد المغرب الأوسط:

كان سقوط غرناطة إمارة بني الأحمر إيذانا ببداية تدفق أعداد كبيرة من الأندلسيين فمنهم من اتبع طريق الساحل واستقر بمنطقة أرزيو وتنس و شرشال و مدينة الجزائر وضواحيها من سهل متيجة ومدينة البليدة جنوبا حتى منطقة القل شرقا، وهناك من أتى صوب تلمسان مباشرة (صديقي، 2017، ص ص 96-98). ولم تكن القل هي آخر نقطة يصلها هؤلاء فقد مرّ بعضهم إلى تونس و طرابلس الغرب أيضا.

هذا وقد كان المغرب الأوسط في هذه الفترة في عهد الدولة الزيانية الواقعة جل أراضيها في الناحية الغربية، وكانت تلمسان هي عاصمة ملكهم. أما نواحي البلاد الأخرى فكانت هناك إمارات متفرقة. وعلى الرغم من الحالة السائدة آنذاك فلم تمنع الحالة هذه الأندلسيين من الدخول إلى الجزائر. على أنّ إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية في نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر وفر مناخا أكثر ملائمة لسكن هؤلاء.

من المدن التي قطنوها مدينة شرشال حيث كانت لهم حوالي خمسة آلاف مسكن (هلايلي، 2010، ص 23). وهناك مدن أخرى استقطبت الأندلسيين في مرحلة لاحقة منها مدينة دلس و بجاية و عنابة و المدية و مليانة هذا في القرن السادس عشر، أما في المرحلة اللاحقة لهذه الفترة فقد تضاعف عددهم وبالتالي لم تكن تلك المدن لتتحمل هذا الكم الديموغرافي بأي حال من الأحوال وعليه سيكون لمدينة أخرى حظ من تعمير الأندلسيين (سعيدوني، 2003، ص ص 27-29).

وتتمة لما سبق فإنّ مطلع القرن السابع كان بداية لموجة من الهجرة نتيجة إصدار السلطات الإسبانية في عهد فليبي الثالث⁽¹⁾، لقرار الطرد النهائي(1609-1614م)، بحق الأندلسيين، وبما أنّ هذا القرار كان مفاجئا فقد كانت الهجرة كبيرة جدا وفوق ما يحتمل هؤلاء، فكانت مدينة وهران هي الوجهة الأقرب للتخلص من بطش الإسبان و ملاحقات محاكم والتفتيش. ولم تكن الطريق الوحيد هو مضيق جبل طارق أو الإبحار مباشرة نحو وهران ومدن ساحلية جزائرية أخرى. فقد حلت بالجزائر أعداد أخرى عن طريق فرنسا و ليفورنة (صديقي، 2017، ص 94).

مسّ الإسهام الحضاري للأندلسيين بالجزائر العديد من المجالات، ويعود ذلك إلى مجموعة من العوامل المهمة التي أثرت على نمط عيشهم في وطنهم الجديد، ولعل أبرزها اختلاف المناطق التي قدم منها هؤلاء، الأمر الذي أدى إلى تعدد الحرف والأشغال التي كانوا يقومون بها. فيذكر أنّ أهم الموانئ التي شهدت حركة هجرة مباشرة هي موانئ دانية⁽²⁾ وألكانت وقرطاجنة واشبيلية و فيناروس و وألفاكي و بلنسية (هلايلي، 2010، ص 36). فضلا على تلك الأعداد الغفيرة التي قدمت من سواحل جنوب فرنسا وسواحل غربي ايطاليا فلا بد أنّهم قد اكتسبوا خبرة ولاحظوا مظاهر حياة أخرى في الأماكن التي مروا بها.

ثانيا- مظاهر المساهمة الحضارية في الجزائر العثمانية:

لم يختص الأندلسيون بمهنة أو حرفة معينة بذاتها بل تعددت أوجه نشاطهم حسب ما الفوه سابقا او اضطرتهم ظروف الحياة الجديدة لاكتساب مهنة تقيمهم كدر الزمان. ومن بين الوظائف والمهن التي عملوا بها نذكر:

1- شغل المناصب الإدارية:

ما إن حل الأندلسيون بالجزائر حتى سارعوا إلى تقديم المساعدة للإخوة برباروس في مدينة الجزائر حيث تم تعيينهم في مختلف الإدارات ومنها الوقوف والاعتناء بالسجلات الخاصة بموارد الخزينة العامة، وكذا دفاتر الضرائب والمكوس و الإتاوات. وعلى أية حال فقد قدموا خدمات جليلة للإدارة العثمانية الفتية بالجزائر(هلايلي، 2010، ص52).

وكنتيجة لتفانيهم في العمل المسند إليهم فقد تمت مكافئتهم بالارتقاء في السلم الإداري في مناصب عليا لوظائف إدارية لم يصل غليها الكثير ممن كان يطمع أن يشغلها. منها المناصب الدينية كالقضاء و الإمامة و النظارة والإفتاء، ومن بين من اشتهر منهم على سبيل المثال لا الحصر "ابن الكبابي". في حين لم يغفل هؤلاء على تأسيس نظام لتأطير هذه الجالية من خلال التجمعات و تأسيس أوقاف للإنفاق على الفقراء والمساكين ، و قد ظهر بينهم علماء مثل سيدي احمد بن يوسف دفين مليانة(هلايلي، 2010، ص82).

2- التطوع في العمل العسكري:

ظلت جرائم اسبانيا عالققة في أذهان الأندلسيين المهجرين إلى الجزائر ، لذلك نجدهم قد انخرطوا في صفوف الجندية العثمانية وركوب البحر لصد الهجمات الأوربية وخاصة منها الاسبانية. وانطلاقا من موانئ الايالة شنت هجمات متوالية على السواحل الاسبانية. كما امتدت أيدهم للمساهمة في بناء السفن الحربية خاصة، نظرا لما تزخر به غابات الجزائر من خشب كمادة أولية لهذه الصناعة. و التفتوا حيناً آخر لصناعة البارود وحدادة السيوف والرماح. وهكذا ساهموا بطريقة أو بأخرى في تنشيط حركة الجهاد البحري. ومن السفن التي ساهموا في بنائها كانت سفن صغيرة، خفيفة، سريعة، سهلة القيادة والمناورة، من هذه السفن الشراعية و منها الفرقاطات.

أما عن انضمامهم للجيش فقد كان تهافته عليه كبيرا، إذ يُذكر أنهم نقلوا صناعة الأسلحة النارية و دعموا صفوف الجيش بعناصر قتالية ذات كفاءة وخبرة عاليتين(هلايلي، 2010، ص ص 54-56). ، ولم يشارك هؤلاء في الحروب الخارجية فقط بل حتى في إخماد الثورات والانتفاضات الداخلية كانتفاضة حاكم تنس إذ كان على رأس الجيش الجزائر خمسمائة فارس أندلسي (سعيدوني، 2003، ص29).

3- الحياة الاجتماعية:

أضفى تنوع الهجرة الأندلسية سواء من حيث الجنس رجال و نساء أو من حيث النشاط، ففي موجة الهجرة الأولى وفد على البلاد فئات من الأغنياء و المدرسين، و مع الموجة الثانية في بدايات القرن السادس عشر حلت بالبلاد فئات أخرى غالبيتها من الفلاحين، الصناع، الحرفيين والتجار. أضفى ذلك صبغة خاصة على المجتمع الجزائري، ذلك أن الانتشار الواسع لهم في البلاد أدى إلى التمازج الكبير مع مختلف أطياف المجتمع الجزائري كما مثل التشابه الاجتماعي

بينهم بسبب الموقع الجغرافي -المغرب الإسلامي- ووجود الروابط الدينية ووحدة اللغة زاد من ذلك التقارب(هلايلي، 2010، ص 57).

ومن فئات المجتمع الأندلسي نذكر:

أ- فئة الحضرة: وهم المقيمون في المدن الكبرى مثل مدينة الجزائر و تلمسان و البليدة و غيرها، من المدن. وقد اشتهرت هذه الفئة بصناعة الأسلحة و فن الحدادة و البناء و الخياطة و صناعة الفخار و الزجاج و بناء السفن، كما مارست التجارة على نطاق واسع، وكان للوظائف الأخرى كالجندي و الإدارة و شغل المناصب الدينية حظا من مثل هؤلاء.

ب- سكان الريف: وهم الفلاحون المنتشرون عبر السهول و في فحوص المدن؛ حيث الأراضي الخصبة و تدفق المياه ارتكز نشاطهم على زراعة الخضروات و الفواكه.

وهناك فئة أخرى اشتهرت في هذه الفترة وهي فئة البحارة التي فضلت ركوب البحر، سواء للجهاد ضد جلاذيتهم أو للاستزاق من البحر كالصيد والحصول على الغنائم و الأسرى، وقد اقتصر سكنها على المدن الساحلية (هلايلي، 2010، ص 58).

4- الأندلسيون والحياة الاقتصادية:

برز دور الأندلسيين في هذا المجال في تطوير الجانب الفلاحي ولم يكن التأثير فقط في زيادة الإنتاج بل حتى تنوعه واستمراره ومن الأدوار الجديدة بالذكر في هذا المقام نذكر:

أ- الفلاحة:

في أكثر من مقام عثرنا على دلالات وإشارات واضحة، وفي أكثر من مؤلف كذلك، سواء باللغة العربية أو الأجنبية، تدل على براعة الأندلسيين في المجال الفلاحي، وهندسة طرق الري. والشواهد هي بدورها كثيرة ولا زالت باقية إلى اليوم ببلاد الأندلس أولا ثم ببلاد المغرب الموطن الثاني لهم.

يعود هذا الرصيد الكبير الذي حمله الأندلسيون معهم، إلى بلاد المغرب فيما يخص النشاط الفلاحي إلى ممارستهم للفلاحة في العصور الوسطى التي تعد بحق ذروة العمل في الفلاحة. والسبب الكامن وراء ذلك هو سيادة النظام الإقطاعي الذي ميز حقبة العصور الوسطى وخاصة في أوروبا. فالمسلمون بالأندلس مارسوا الفلاحة على نطاق واسع، رغم أنّ القلة منهم كانوا يملكون الأرض والسواد الأعظم منهم كان يعمل لدى الإقطاعيين المسيحيين. ففي إحدى الثورات بالأندلس لم يثر المسلمون من العمال مع المسيحيين الفقراء ضد أسيادهم الإقطاعيين، إذ تمسك ملاك الأرض بالمسلمين الذين اشتهروا بخبرتهم في الزراعة حتى ضرب بهم المثل حيث قيل (من كان عنده مسلم كان عنده الذهب) وبالأجنبية (qui en tient More tiene oro)(ذو نون، بت، ص 233).

كما أنّ السلطات الإسبانية لم تسمح لكل الأسر الفلاحية - أي التي لها باع طويل في الزراعة - بمغادرة إسبانيا وأبقت على حوالي ما نسبته 06 بالمائة من هذه الأسر - حتى وإن كانت الكتابات تشير إلى رفضهم البقاء ولحقوا بإخوانهم من المهاجرين إلى بلاد المغرب - فقد كان لهم إمكانيات ومهارات خاصة ميزتهم عن العنصر المحلي. ومن الأعمال التي

طبعت خبرتهم استصلاح الأراضي بنواحي متيجة ومرتفعات الساحل شرقا وغربا. غير أن فلاحوا بلنسية وأراغون كان لهم خبرة وكفاءة عالية في هذا المجال أكثر من إخوانهم من المناطق الأخرى. مما يدل على أن ليس كل من هاجر من الأندلس يحسن الفلاحة وإنما كانت هناك طائفة تحسن العمل فيها مثل ما ذكرنا. هذه الفئة نقلت التقنيات التي كانت تتمتع بها للجزائريين. وبفعل خبرتهم أصبحت مناطق الريف ببلاد المغرب تشبه إلى حد كبير مناطق كثيرة بالأندلس كبلنسية وقرطاجنة وطليطلة، وما زادها جمالا وروعة هو بناء البيوت الريفية بالبساتين والحقول المسقفة بالقرميد الأحمر .

شهد الكثير ممن زار الجزائر الحالة المزدهرة التي شهدتها الزراعة، فقد علق هايدو الاسباني على إثر زيارته إلى خارج مدينة الجزائر في إحدى المناسبات بقوله " هناك عدد لا يحصى من الحدائق وبساتين الكروم المملوءة بشجر البرتقال وأشجار الزيتون والأزهار من كل نوع، وبحنفيات الماء الزلال الذي يتدفق في كل الجوانب بكثرة(سبانسر، 2006، ص106) .

ساهمت سياسة خير الدين تجاه المورسكيين بالجزائر في استقطابهم عندما أكرم مثوهم وترك لهم حرية

اختيار البقاع والأماكن التي يريدونها. وعدم التدخل في مقاصدهم في القيام بأعمالهم المهنية المتعددة ، فكان منهم من اختار المكوث بمدينة الجزائر مثل الثغريين (بأعالي الجزائر). ومنهم من نزل بمدن أخرى مثل دلس (تادلس) تلمسان، وهران، مستغانم، وهران وشرشال (جيلالي، 2009، ص54)، القل(مارمول، 1984، ص54) و هنين الذي يذكر حسن الوزان أنها كانت تنتج الكرز، المشمش، الاجاص، الخوخ وما لا يحصى من التين والزيتون(الوزان، 1983، ص16) .

ظهر فضل الجالية الأندلسية في انتعاش الحياة الاقتصادية، خاصة الزراعة (جيلالي، 2009، ص59). فهناك مناطق أخرى استغلها الأندلسيون للزراعة مثل الفحوص القريبة من مدينة الجزائر . وتعد أراضي هذه المناطق من أغنى وأخصب الأراضي في الجزائر. فحوص مدينة الجزائر على سبيل المثال لا الحصر به سهل متيجة المنبسط والخصب، الذي يمر به وادي الحراش، ويسوده مناخ ملائم للفلاحة، فشتاؤه معتدل ممطر ، وصيف حار شبه رطب . هذا السهل يشتهر بزراعة الحمضيات ، التي يعود الفضل في تطوير فلاحتها للأندلسيين . كما هناك سهول وهران وتلمسان التي لها الخصائص الطبيعية مع متيجة . ويسقيها وادي التافنة .

مما كان له أثر إيجابي على البلاد من ناحية، و على الجالية الأندلسية من ناحية أخرى، فقد استطاع أفرادها بفضل نشاطهم الاقتصادي الواسع من تكوين ثروة ضخمة ساهمت في فعاليات اقتصاد إيالة الجزائر . وكان الأندلسيون يمارسون المهن المعروفة آنذاك ، حيث تخصصوا في مختلف الحرف السائدة في مجتمع الجزائر وقد شبه أحد المؤرخين نشاط الأندلسيين بإيالة الجزائر مقارنة مع نظام الطوائف الحرفية، بأنها تمثل النخبة البورجوازية التي تحتكر دواليب

الحركة الاقتصادية، وكانت هذه الجالية بمثابة المؤشر المالي للرأسمالية الحديثة في الجزائر العثمانية (هلايلي، 2010، ص131).

ومما تجدر الإشارة إليه هو ارتفاع عدد البساتين في فحص مدينة الجزائر ، فهذا.هايدو يقول: أنّ العدد كان ألف بستان. و فانتير دو برادي يقول أنّه بلغ ستة عشر ألف ضيعة (DE Paradis ,2006, p19) أما الأب دان فيقول أنّه وصل إلى ثمانية عشرة ألف بستان (Dan,1673, p87).

ب- نظام الري:

ترتبط الزراعة بالري ارتباطا وثيقا، لذا كان للأندلسيين خبرة عالية في هذا المجال. وما هو مشهور عن هؤلاء أنهم جلبوا المياه من أماكن بعيدة لتزويد المدن الأندلسية بالماء بما فيها مدينة مدريد (مجريط) ، التي يشاع أنّ أصل تسميتها في البداية بالعربية وهو ماجريق، وتعني مجرى المياه. فقد برعوا في ري الأراضي الزراعية بطرق تنم عن دهاء كبيرين سميت بالأراضي المروية، وأحيانا الأراضي السقوية ، سواء بجلب المياه إليها من مناطق بعيدة ، أو استخراجها من باطن الأرض. كما عملوا على بناء الأحواض (السدود) وحفر السواقي والمجاري المائية على شكل قنوات (بلغيث، 2003، 531).

ففي فحص مدينة الجزائر مثلا قد استصلحوا الأراضي واخرجوا المياه ونظموا الري، وبفحص باب الوادي استغلوا مياه المعامل وفي فحص باب عزون قاموا باستغلال مياه الحامة ووادي خنيس ووادي الحر . كما بنوا الأحواض والصهاريج ، وشقوا السواقي والقنوات ونظموا أقنية الري، وطوروا أساليب جر المياه واستصلحوا الحنايا. كما بنوا الناعورات وحفروا الآبار وأجروا العيون مثل عين الحامة التي حفرها أوسطى موسى ، في عهد الباشا قوصة مصطفى (1610-1613 م) . ومهما يكن من أمر فإنّ هؤلاء كانت لهم خبرة كبيرة في اختيار نوعية التربة والمياه ، لزرع محاصيل معينة ومناسبة. ولم يكن غرسهم هكذا اعتباطيا . وإنما كان يدل على علم واسع ويدل على تجربة طويلة (بلغيث، 2003، 529). يقول الرحالة الألماني مونزير في هذا الصدد ، عندما قام برحلة عبر اسبانيا، وبمروره بأرغون سجل ملاحظاته عن المورسكيين حيث قال بأنهم " مهرة في الري والنشاطات الزراعية " (دومنغير، 1988، ص233).

ج- الصناعة:

احترف الأندلسيون بالجزائر و على الأخص المحسوبين على الجانب الصناعي مختلف الحرف و الصناعات التي تتطلب اتقاناً وتفانياً كبيراً، و في مدينة الجزائر وحدها كانت قد اكتنفت بهؤلاء حتى أصبح لهم أحياء وحارات يعرفون بها، و كانت حوانيتهم في الشوارع الكبرى للمدينة. بالإضافة إلى وجود ورشات متنوعة هنا وهناك، و تفيدنا المصادر إلى أن

مدينة الجزائر وحدها كان بها ثلاثة آلاف ناسخ للمخطوطات ومائة وثمانين سكاكا، وثمانين حدادا. وكان الكثير منهم يدعى بالحرفة التي يزاولها، مثل صانع الشواشي الحاج علي بن الحسن الأندلسي، و العطار أحمد بن أحمد الأندلسي وصانع الصابون علي بن الحسن عمر الأندلسي(سعيدوني، 1993، ص ص113-115).

ومن أهم الصناعات كذلك صناعة النسيج والحياكة و صناعة الملابس، إذ بلغ عدد حرفي هذه الصناعة حوالي ثلاثة آلاف صانع، وكانت الصناعات الحريرية حاضرة هي الأخرى في شرشال و مدينة الجزائر ، أما الزرابي فهي الأخرى قد نالت حظا من اهتمام هؤلاء، ولعلها سادت في الغرب أكثر من المناطق الأخرى . ولم تستثن الدباغة من العمل فكانت صناعة الجلود رائدة إذ حولت إلى صناعة الأحذية والسروج (هلايلي، 2010، ص132). ومن المنتجات الأخرى التي لاقت رواجاً صناعة الصابون، العطور ، الحلي والمجوهرات. وقد لاقت الصناعة الفخارية والحدادة والنسيج الفاخر هي الأخرى استقطاباً للكثير منهم(سعيدوني، 2003، ص ص52-54).

د- التجارة:

مارست فئة أخرى من الأندلسيين التجارة على نطاق واسع، فشارع مدينة الجزائر الممتد من باب عزون شرقاً إلى باب الواد غرباً شاهد على ذلك، إذ كان يعج بالتجار الأندلسيين. ومما ساعدهم على تعاطي هذا النشاط امتلاكهم لرؤوس أموال ضخمة أتوا بها من بلادهم أو تحصلوا عليها في الجزائر؛ من خلال تنميتها في نشاطات تدر أرباحاً كبيرة، كما تصدروا التعاملات التجارية بين الجزائر و الدول الأوروبية لعاملين اثنين هما: إتقانهم اللغة الإسبانية وامتلاكهم للأموال بالعملة الإسبانية البسيطة التي كانت منتشرة في الجزائر، ومن مميزات ثرائهم هو شرائهم للمنازل الفاخرة و الضيعات النظرة و الأراضي الخصبة(سعيدوني، 2003، ص ص32-33).

5- الأندلسيون والحياة الاجتماعية:

تعدد وظائف وحرف الجالية الأندلسية بالجزائر حتم عليها الاختلاط بأطياف وفئات المجتمع الجزائري على الرغم من بقاء بعض الفئات محافظة على نمط عيشها، نظراً لاعتبارهم أنهم في دار هجرة مؤقتة و سيعودون إلى بلدتهم ريثما يتم تحريره أو تهدأ أحواله نسبياً. ومن الحرف و الأشغال التي أدت إلى التمازج حرفة التجارة ذلك أنه كان يتم التعامل مع كل فئات المجتمع الجزائري وحتى تلك الطوائف الأخرى على غرار طائفة اليهود و الأسرى المسيحيين و العثمانيين.

وتعد هذه الفئة الوافدة فئة غنية كانت تسكن المدن الكبرى، و يروى أنهم كانوا قائمين على افتداء الأسرى، إذ يُمثلون دور الوسيط نظراً لتمكنهم من اللغة و التفاهم مع الأجانب، كما أنّ لديهم المال و الجاه(هلايلي، 2010، ص136). و هناك من يرى أنّ الاختلاط الكبير مع أطياف المجتمع لم يكن بشكل كبير، ذلك أنّ هاته الفئة الغنية حاولت البقاء بعيداً عن أي انتماء اجتماعي، وذلك عندما أقدمت سنة 1624م، على بناء مدرسة خاصة بها و مسجد وحتى زاوية. وتعدى الأمر إلى حبس بعض الأملاك ووقفها بمدينة الجزائر لتكون مُعينا للفقراء من بني جلدتهم وشملت هذه الأوقاف العقارات و الأراضي الزراعية، وجعل على رأسها وكيل أوقاف الأندلس.(هلايلي، 2010، ص136). كما أسسوا زوايا أخرى لذات الغرض.

احتفظ الأندلسيون بعاداتهم وتقاليدهم التي أفوها في وطنهم الأصلي؛ تلك الطقوس الاحتفالية في المناسبات الدينية كالأعياد و المولد النبوي الشريف، من خلال فنون الطبخ لأشهى المأكولات و الحلوة المحشوة باللوز و الجوز والمسقية بالعسل. كما ظهرت ملابسهم من خلال الطرز الفريد من نوعه الذي تميزت به المرأة الأندلسية ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى تسيير أمور المنزل من أثاث و مأكّل ومشرب و زينة (سعيدوني، 2003، ص ص34-39).

هذا وقد اشتهر الأندلسيون بلباسهم الخاص بل وقد اقتناه الجزائريون في غالب الأحيان وانتشرت أسماء الملابس كثيرة أصبحت تُعرف لدى الجزائريين منها القفطان والمحرمة والبليغة وغيرها، ومنها ما هو مطروز بالشبكية الذهبية وأخرى بالفضية (سعيدوني، 2003، صص58-59).

احتفظ الأندلسيون بلهجتهم الأصلية التي انتشرت في المجتمع الجزائري، وهي لهجة أهل غرناطة التي اشتهرت بالرقّة كنطق القاف ألفا، هذا وقد انتشرت لغة الفرانكا التي تتألف من كلمات إسبانية الأصل انتشارا واسعا (سعيدوني، 2003، ص59).

كما انتشرت في الجزائر الفنون الأندلسية من الأدب و الموسيقى والغناء، كتنظيم الموشحات وتلحين الأغاني التي تخللتها ألفاظ جزائرية دارجة، وذاعت المذائج الدينية كالحوزي وانتشار الآلات الموسيقية كآلة القانون (سعيدوني، 2003، ص64).

6- الأندلسيون والحياة العلمية:

لم تكتف الأوقاف بما ذكرنا؛ بل تعدت إلى الإنفاق على جوانب من الحياة الدينية، فالمدرسة العليا التي تأسست واعتنت بتدريس القرآن و علومه، مارست نشاطها من خلال الهيئات المالية لمؤسسات الأوقاف الأندلسية. وقد تخرج منها العديد من الطلبة و المدرسين الأندلسيين، الأمر الذي ساهم في دفع الحركة العلمية بالجزائر إلى الأمام (سعد الله، 1998، ج1، ص282)، كما تم تدريس العلوم الأخرى كعلوم الشريعة من خلال الحديث النبوي الشريف و العلوم المساعدة كعلم التاريخ (لزغم، 2022، ص765).

أدخل الأندلسيون طرائق جديدة للتدريس بمدينة الجزائر، إذ نقلوا التعليم من الجمود والتقليد الذي ميز الوضع التعليمي كالاقتصار على الحفظ فقط إلى ديناميكية جديدة، تتجلى في تعليم الطلبة للقراءات العشر للقرآن الكريم. وكان الجامع الأعظم ومسجد الأندلسيين منبرا لذلك، كما انتقل اجتهادهم هذا إلى المدن الكبرى التي حلوا بها كمدينة تلمسان. وبدا نجم الأندلسيين مضيئا في السماء، عندما ظهر من بينهم مفتون على المذهب المالكي و نذكر منهم الشيخ عمار بن عبد الرحمن و ابنه أحمد (ابن المفتي، 2009م، ص109).

هذا وقد أشتهر منهم تلامذة نجباء تخرجوا على أيديهم مثل أبو راس الناصري المعسكري المتوفي سنة 1823م بالجزائر وغيره شيوخ آخرين. ويذكر أنّ الأندلسيين قد جلبوا معهم مؤلفاتهم و لم يفروا فيها، كما كانت لهم جولات في مجال التأليف بالجزائر، و حتى النسخ لذا نجد أن الخط الأندلسي كان منتشرا كثيرا في الجزائر حسب شهادة المغربي التيمقوتي أواخر القرن السادس عشر.

ومن أجمع العلماء الأندلسيين الذين نبغوا في العلوم الشرعية قبل القرن الخامس عشر نذكر: أبو العباس أحمد بن زاهر بن رصيص المتوفي 1137م،، إذ أُلّف تصنيف في موطأ الإمام مالك. و أبو محمد قاسم بن فيرة الرعيبي الشاطبي الأندلسي المتوفي 1194م، أُلّف- منظومة في علم القراءات. وبالنسبة للعلوم العقلية؛ كعلم الكلام والفلسفة فقد اشتهر الشيخ أبو بكر محمد بن عبد الله العربي المرسي الاشبيلي المتوفي 1148م، وله مؤلف أحكام القرآن و العواصم و القواصم.

والشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الاشبيلي المتوفي 1198م، وقد در س كتاب المقصود الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للغزالي(سعيدوني، 2003، ص ص112-115).

أما في الفترة الحديثة نذكر الشيخ محمد بأحمد بن مبارك القليعي المتوفي 1737م، والشيخ محمد بن إبراهيم النيكرو الذي نجعل تاريخ وفاته(ابن المفتي، 2009، ص112).

7- الأندلسيون وتأسيس المدن:

نتيجة لهجرة الأندلسيين غير المنظمة ونتيجة لارتفاع عددهم بالجزائر ولاسيما بمدينة الجزائر إذ يذكر أنهم أصبحوا يمثلون ربع سكانها، وعليه أصبحت مدينة الجزائر عالمية مكتظة بسكانها كما هو الحال بالنسبة لمدينة وهران المحتلة زمنئذ، بالإضافة إلى بعض المضايقات التي تعرضوا لها في بعض المدن، فلم يجد هؤلاء الترحيب اللازم بهم كما لم يجدو مكانا يتسع لهم وضافت عليهم الأرض بما رحبت. ولا بد أنّ تدفقهم العشوائي زاد الأمور تعقيدا.

وهكذا اضطر الأندلسيون لتأسيس مدن خاصة بهم. وقد ساهمت عوامل كثيرة في تأسيس هذه الحواضر سواء من حيث الموقع أو توفر متطلبات الاستقرار، وغير بعيد عن مدينة الجزائر وفحصها فقد نزحوا نحو الجنوب و الجنوب الغربي و أسسوا هناك مدينتين خاصتين بهم وهما مدينة البليدة و مدينة القليعة، وساهموا في تحضر العديد من المدن الأخرى كما سيأتي .

ويتسم العمران الأندلسي بهندسة مميزة؛ فالمنازل تتألف أغلبها من طابقين، استعملت في تصميمها الأفنية- تطل عليها نوافذ صغيرة- والأقواس المزهرة والمضلعة والنافورات والآبار . وتشتهر الأبنية بزخارف إسلامية و نقوش ومجصصات وتخاريم واكتست أرضيتها بالزليج. أما عن لونها فيغلب عليها اللون الأبيض (سعيدوني، 2003، ص65).

أ- تأسيس مدينة البليدة:

واسمها هو تصغير لاسم البلدة، ويعود تأسيسها إلى سنة 942هـ الموافق لـ 1535م، من طرف سيدي أحمد الكبير الذي نزح وقومه من مدينة الجزائر وأسس هناك هذه المدينة على سفوح الأطلس الشمالية، عندما بنى كوخه على ضفاف وادي الرمان. وقد أصبح هذا المكان مقصدا للعائلات الأندلسية المتواجدة بجبال شنوة غربي مدينة الجزائر، إذ وفر لهم هذا الولي الحماية و العناية اللازمة بوصية من البابلرباي خيرالدين، الذي ساهم في بناء مسجد وتشيد فرن للخبز وحمام ساخن. ومنذ ذلك الحين بدأ الوافدون الجدد ببناء دورهم ومنازلهم ذات الهندسة الأيبيرية الفريدة من نوعها. وتفننوا في فلاحه الأراضي المحيطة بها و جرّ المياه فيها وحولها(قبال، 2016، ص22).

ب- تأسيس مدينة القليعة:

واسمها كما هي الحال بالنسبة لمدينة البليدة، إذ كان الأندلسيون يقومون بتصغير أسماء الأشخاص و المدن، وأصل التسمية القلعة التي صُغرت إلى القليعة. وتقع البلدة غربي مدينة الجزائر بحوالي خمسة وعشرين ميلا، وكانت أرض بلا اسم، وقد حط بها الأندلسيون - فُدر عددهم يومئذ بحوالي ثلاثمائة عائلة -الرحال في سنة 1550م، على ضفاف وادي الزعفران. وينحدر أصل هذه العائلات من ثغور إقليم الأندلس ومملكة بلنسية ومن مدجني مملكة قشتالة.

لم يكتف الأندلسيون ببناء المدينة والسكن فيها بل حولوها إلى حاضرة مزدهرة، تضاهي العديد من المدن الضاربة في التاريخ أصولها. فالحياة بدأت تدب في أرجائها إذ كانت الصنائع و الحرف والزراعات حولها منتشرة نظرا لطبيعة أرضها و مناخها و توفر المياه بها، ووجود غابات الأشجار المثمرة من التين والتوت والليمون و البرتقال وغيرها أما الزروع من القمح و الشوفان فكانت تكسو المدى، تتخللها هنا وهناك قطعان الماشية (مارمول، 1984، ص362).

وهناك مدن أخرى سكنوها وطورها مثل القل⁽³⁾، شرقي مدينة الجزائر وإلى الغرب منها تنس من الناحية الغربية. و ميناء تامنفوست بمحاذاتها، حيث كانت الحملات الأوروبية تنزل بها(مارمول، 1984، ص366). وكان هذا الميناء بداية تطلعهم لركوب البحر لهول ما عاينوه وانخراطهم في غزوات الجزائريين تحت الراية العثمانية الإسلامية لنجدة إخوانهم المسلمين، كرد لجميل الجزائريين عندما منحوهم السلاح⁽⁴⁾، وكل ما بإمكانهم تقديمه لهم في سبيل نصرتهم(عبدالرحمن، 2008، ص246). وفي مراحل متقدمة ساهموا في بناء العديد من الموانئ مثل تنس ووهران وهذا قبل الهجرة في القرن السادس عشر(بوطي، 2022، 206-207).

خاتمة:

توصلنا في نهاية البحث إلى جملة من النتائج من بينها:

- مثلت الجزائر موطننا للأندلسيين عبر مراحل الهجرة التي قاربت القرن و ثلث القرن.
- حلت بالجزائر جميع فئات المجتمع الأندلسي سواء من حيث الفئات العمرية او الجنس أو من حيث النشاط.
- ساهم الأندلسيون في التنوع الأنتروبولوجي للمجتمع الجزائري.
- أدار الأندلسيون العديد من المناصب الإدارية المختلفة باقتدار.
- طور الأندلسيون الإنتاج الفلاحي سواء من حيث الإنتاج أو تنوعه و كذا إدخال نظم ري جديدة.
- اهتم الأندلسيون بالحرف جميعها على أنّ بعضها كان أكثر اهتمام من الأخرى.
- مارس الأندلسيون التجارة بشكل كبير بسبب اكتسابهم للغة الاسبانية و العامية الاسبانية و امتلاكهم للاموال.
- نشط الأندلسيون حركة التجارة ورؤوس الأموال من وإلى الجزائر .
- أثّروا الحياة العلمية في الجزائر من خلال المؤلفات و طرائق التدريس و الخط، وتخرج منهم علماء ومفتون.
- أسسوا مدن بقيت إلى اليوم مثل البليدة و المدينة و ساهموا في تطوير أخرى مثل تنس و دلس وشرشال و القل.

يبقى الوجود الأندلسي في الجزائر العثمانية الأكثر تأثيراً مقارنة بالتأثير العثماني والأوروبي وحتى اليهودي من حيث المجالات التي مسها والقيمة التي اضافها، الأمر الذي منح المجتمع الجزائري في تلك الفترة أكثر فاعلية وديناميكية وبل ورسم لمقومات حضارته فسيفساء متعددة الأشكال والألوان لازالت معالمها قائمة إلى يوم الناس هذا. تبقى بعض زوايا هذا البحث معتمة كوجود مخطوطات علمية بكر لم تنل حظها من الدراسة. وجوانب أخرى لم تطلها الأقلام المحلية.

التعليقات:

(1) فليب الثالث (الورع أو النقي): ابن فليب الثاني و الملكة آن النمساوية حكم في الفترة ما بين 1598-1621م، ملك اسبانيا و البرتغال وأجزاء من غرب أوروبا حتى صقلية، أكبر الحاقدين على الإسلام و مسلعي الأندلس. قاد اسبانيا إلى حافة الانهيار بقراراته التعسفية منها انهيار اقتصاد اسبانيا، والدخول في حروب طويلة الأمد. الأمر الذي شجع البرتغاليين على القيام بثورة للانفصال عن اسبانيا كان ذلك بعد مرور 19 عاما على نهاية حكمه.

(2) ميناء دانية (Dénia)، يقع شرقي الأندلس بالقرب من بلنسية تعتبر ميناءً رئيسياً من موانئ شرق الأندلس، وتكثر فيها حركة السفن. كما تعد دارا لبناء الأساطيل، ومنها تُجهز وتخرج أساطيل الغزو، وكانت السفن تبحر إلى أقصى الشرق وبتجاه الجنوب أيضا (المقري، 1988، ص 156)

(3) القل مدينة قديمة تقع لى ساحل البحر الأبيض المتوسط، بناها الرومان وهي مدينة حضرية بها صنائع كثيرة أرضها خصبة تنتج أجود الحبوب و الثمار تشتهر بإنتاج الشمع، التجارة بها رائجة (الوزان، 1983، ص54)، كما حصنوا مدن أخرى مثل برشك وشرشال و تنس ودلس وجيجل و القالة (ميمن، 2020، ص68) -

(4) يتحامل مؤرخو اسبانيا على الحقائق التاريخية التي تخص حقبة تاريخ الأندلس كيف لا وهم ي قولون بان الجزائريين و حتى العثمانيين لم يقدموا شيئا للقضية الموريسكية وكل ما قدموه يعد رمزيا، بل ويذهبون إلى أكثر من ذلك عندما نعتو حكام الجزائر و الدولة العثمانية بأنها لا تستعمل الدين إلا للتمويه و كل منهم كان يعمل لصالحه الخاص (عبدالرحمن، 2008، ص 245-250).

مصادر ومراجع البحث:

1- المصادر:

- ابن المفقي بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفقي، تحقيق فارس كعوان، الجزائر 2009م.
- كاربخال مارمول، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، دار المعرفة للنشر، الرباط 1984م.
- المقري احمد بن محمد، نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مج2، دار صادر بيروت، لبنان 1988م.
- الوزان محمد حسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ط2، القسم 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م.

2- المراجع:

- بلغيث محمد الأمين، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، المجلد 2، أطروحة دكتوراه مخطوطة، جامعة الجزائر 2003.

- دومنغير هورتز انطونيو، تاريخ مسلحي الأندلس الموريسكيين، تر عبد العال صالح طه وآخرون ، ط1 ، دار الأشراف ، الدوحة 1988.
- ذونون طه عبد الواحد ، دراسات أندلسية ، ط1، دار المدار الإسلامي ، بيروت، ب.ت.
- سبانسر وليام ، الجزائر في عهد رياس البحر ، تع تق عبد القادر زبادية ، دار القصبه للنشر ، الجزائر 2006.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1998م.
- سعيدوني ناصر الدين ، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 .
- سعيدوني ناصر الدين، دراسات أندلسية(مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر). ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 2003م.
- عبد الرحمن جمال، دراسات اندلسية و موريسكية، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر 2008.
- هلابلي حنيفي، التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى عين مليلة، الجزائر 2009م.
- De Paradis Venture, Alger au 18^{em} siècle, présentation par abderrahmane rebahi, Grand Alger Livrealger 2006.
- Dan Pierre, histoire de Barbarie et de ses corsaires des Royame et des villes d'alger et tunis de salé , paris 2^{em} ed, 1673.

3- المقالات:

- بوطي جمال وعطية عبد الكامل، دور المهاجرين الأندلسيين في تنشيط الحركة الاقتصادية و العسكرية على مستوى الموانئ البحرية بالجزائر خلال العهد العثماني، مج8، عدد1، مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية، جامعة الوادي، الجزائر 2022.
- سعيدوني ناصر الدين، الأندلسيون الموريسكيون بمقاطعة الجزائر أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة حوليات جامعة الجزائر، مج7، العدد1، جامعة الجزائر، الجزائر 1993م.
- صديقي بلقاسم، هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب أواخر القرن 15 إلى بدايات القرن 17م الدوافع والمراحل، المجلة المغربية لمخطوطات، مج13، العدد1، جامعة الجزائر2، الجزائر 2017.
- قبال مراد، مدينة البليدة خلال العهد العثماني 1518-1830م، مجلة الرواق، مج2، العدد1، جامعة غليزان، الجزائر 2016.
- لزغم فوزية، اثر الأندلسيين على الحياة العلمية والدينية و الأدبية بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، مج17، العدد2، مجلة المواقف، جامعة معسكر، الجزائر 2022.
- ميمن داود، الهجرات الأندلسية ودورها في بناء القوة العسكرية للجزائر ما بين 1492-1610م، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، جانفي 2020.

البحرية الجزائرية ودورها في إنقاذ مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام 1492م

The role of the Algerian Navy in saving the Muslims of Andalusia after the fall of
Granada in 1492

د.بن رحال يمينة/ جامعة المسيلة/ الجزائر

Dr.BenrahalYamina/University of Msila/Algeria

ملخص الدراسة:

تعتبر قضية مسلمي الأندلس من القضايا الجوهرية التي شغلت فكر الكثير من الباحثين والمفكرين باعتبارها قضية حساسة تمس العقيدة، فبعد القضاء على الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، كانت إسبانيا تهدف إلى تنصير المسلمين والقضاء على الموريسكيين في بلاد الأندلس بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين عام 1492م ولما كانوا متخوفون من اضطهاد وتعسف النصارى لجئوا إلى الاستغاثة بإخوانهم في المغرب الإسلامي خاصة الجزائر التي عرفت بقوتها بعد إلحاقها رسمياً بالدولة العثمانية والفضل يعود إلى أسطولها البحري الذي ذاع صيته وجعلها سيدة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال القرن 16م وبداية القرن 17م، فلي الجزائريون نداء إخوانهم الموريسكيين وحملوا على عاتقهم مهمة إنقاذهم من الوضع الأسيف الذي أصبحوا عليه في الأندلس.

الكلمات المفتاحية: مسلمي الأندلس، إسبانيا، الجزائر، الأسطول البحري، الإسلام.

Abstract:

The issue of the Muslims of Andalusia is one of the central issues that has preoccupied many scholars and intellectuals as a sensitive issue affecting faith. After the elimination of the Islamic presence on the Iberian Peninsula, and the fall of Granada as the last Muslim stronghold in 1492. Spain aimed at overcoming Muslims and eliminating Morskiens in Andalusia. Who due to the fear from the persecution and the cruelty of the Christians, they came to seek help from their Muslim brothers in the Maghreb zone, especially Algeria, which was known for its strength as it was formally attached to the Ottoman Empire. Joining the Ottoman Empire made the Algerian navy a superpower in the Mediterranean basin in the sixteenth and early seventeenth centuries. Algerians answered the call of their Morskiens brothers and took it upon themselves to save them from the swarthy situation they had become in Andalusia.

Keywords: Muslims of Andalusia - Spain - Algeria - Navy Fleet – Islam.

مقدمة:

كان لظهور الإخوة بربروس بسواحل المغرب الأوسط الدور الكبير في تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة عام 1519 حيث أصبحت للجزائر حدود واضحة المعالم ومكانة وهيبة دولية في حوض البحر الأبيض المتوسط والفضل يعود إلى جيشها البحري والأسطول الذي اهتمت به الإيالة وسعت إلى تطويره وتقويته خلال القرن 16 وبداية القرن 17م، فكان له الفضل العظيم في إنقاذ مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام 1492م وتعرض أهلها لحمات تنصير واسعة النطاق وكانت الجزائر هي الدولة القادرة على حمايتهم والدفاع عنهم في منطقة المغرب العربي بحكم توفرها على إمكانيات مادية وبشرية وقوة عسكرية بحرية لذلك لبث نداء استغاثتهم بعد أن استنجدوا بها والسؤال المطروح كيف كان وضع مسلمي

الأندلس بعد سقوط غرناطة عام 1492 وما مصيرهم؟ وما هو موقف الجزائر من معاناة إخوانهم المسلمين بالأندلس بعد اضطهادهم من طرف النصارى؟.

مظاهر تحالف الممالك الاسبانية:

قامت في شبه الجزيرة الأيبيرية¹ عدة ممالك صغيرة متناحرة، غير أن هذا الوضع تغير بعد أن تجمعت هذه الممالك في مملكتين اثنتين هما مملكة قشتالة (castilla) ومملكة الأراغون (Aragon)، وقد اتحدت هاتان المملكتان في مملكة واحدة على إثر اقتران فردناند² ملك الأراغون بإيزابيلا³ وارثة عرش قشتالة بعد وفاة أخوها أنريكي الرابع (المدني)، 1976، صفحة 48) وقد تم زواجهما في 19 أكتوبر 1469 ومن ثمة تم تنصيب فردناند وإيزابيلا ملكين على قشتالة وقد كان لزواجهما وتوحيد مملكتها الأكبر في شبه الجزيرة الأيبيرية أثره البالغ في ظهور قوة سياسية وعسكرية استطاعت أن تناهض قوة المسلمين بشقى الوسائل (حتاملة، 1977، صفحة 03)، وجاء توحيد جهودهما من أجل القضاء على الإسلام نهائيا في الأندلس وحتى شمال إفريقيا (بن تركية، 2014، صفحة 134).

لقد كانت لإسبانيا رغبة جامحة في محاولة تنصير المسلمين ويدخل ذلك ضمن الطموح المسيحي والحقد الدفين الذي ظل حيا في نفوس العديد من رجال السلطة الدينية والدنيوية منذ الحروب الصليبية في المشرق، وقد كشفت إسبانيا في رغبتها في التمسيح والتنصير ونشر المسيحية ومقاومة الإسلام، ولتحقيق ذلك شنت عدة حملات واسعة وشرسة ضد المسلمين وجاء ذلك بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام 1492م وقد اعتبرت ذلك تكملة لحروب الاسترداد⁴ المسيحية في شبه الجزيرة الأيبيرية ولتحقيق ذلك أصدر البابا أمره لكل المسيحيين بضرورة الاستمرار في دفع الضريبة للملك إسبانيا من أجل دعم حروبها الصليبية ضد الإسلام والمسلمين والتي بدأتها في الأندلس، وهي حروب أطلق عليها الإسبان اسم حروب الاسترداد هدفها هو استرداد الأندلس المفقود وتوحيد أوروبا المسيحية واقتلاع الحكم الإسلامي بكامله وكذا عدم الإبقاء على أي منتسب إلى الإسلام وذلك بتغيير عقيدتهم والقضاء على خطرهم في كل مكان .

سقوط غرناطة ومصير الموريسكيين:

في 02 يناير 1492 انطلقت من أبراج قصر الحمراء ثلاث طلقات مدفعية وهي علامة لبداية انطلاق العساكر الإسبانية من شنقى وزحفها نحو مدينة غرناطة التي لم تجد من بنيتها وذويها من يقوى على حمايتها (حتاملة، 1977، صفحة 57).

- 1- شبه الجزيرة الأيبيرية: تسمى جزيرة الأندلس تقع في أقصى الجنوب الغربي لأوروبا يحدها من الشرق والجنوب الشرقي البحر الأبيض المتوسط والجنوب والغرب المحيط الأطلسي ومن الشمال سلسلة جبال البرانس التي تفصلها عن فرنسا، أما الجنوب فتطل على شبه الجزيرة على القارة الإفريقية عبر مضيق جبل طارق الذي يفصلها عن مدينة طنجة المغربية.
- 2- فردنارد: هو ابن خوان الأول ملك الأراغون ولد عام (1452-1516) تولى الحكم عام 1474
- 3- إيزابيلا: هي ابنة خوان الثاني ملك قشتالة ولدت عام (1451-1504) تزوجت فردناند أمير الأراغون عام 1469 عندما توفي أخوها أنريكي استلمت العرش مكانه وعملت على إقامة محاكم التفتيش وشجعته لإبادة المسلمين ومطاردتهم.
- 4- حروب الإسترداد: هي سلسلة الحروب التي شنتها الممالك المسيحية لإخراج مسلمي الأندلس من شبه الجزيرة الأيبيرية مستغلين ضعفهم وإنقسامهم بدأت مع إسترجاع طليطلة عام 1085 وانتهت بسقوط غرناطة عام 1492.

قام الجنود بالدخول إلى المدينة والاستيلاء على حصونها ومعقلها وقصورها الحمراء ولم يلاقي أية مقاومة أو معارضة وتم في النهاية بحضور الملكين الكاثوليكين إنزال راية الإسلام من فوق أسوار المباني الرسمية ليحل محلها علم النصرانية فوق صرح الإسلام المغلوب، وبينما كان المسلمون يتجرعون مرارة الهزيمة حتى الشمال كان النصرانيون بانتصارهم احتفالاً عظيماً مهيباً. (حاتملة، 1977، صفحة 60)

وبهذا تكون سنة 1492 هي سنة سقوط آخر معقل من معقل الأندلس غرناطة وهي المدينة الصامدة في وجه الغزو الإسباني خلال القرون الأخيرة للتواجد الإسلامي. (يحياوي، 2009، صفحة 25)

وقبل هذا المصير المشؤوم اتجه الملكان بعد توحيد قوتهم نحو مدينة غرناطة مطلع 1491 بجيش جرار وأقاموا البناءات عوضاً عن نصب الخيام المعهودة في الحملات العسكرية وأسسوا بلدة شنتقى التي لعبت دوراً هاماً في التضييق على جيش المسلمين في مدينة غرناطة (حاتملة، 1977، صفحة 49). وكان جيوش الملك فرديناند قوامها بين 50 إلى 80 ألف من الفرسان والمشاة وتمكنوا من فرض حصاراً على المدينة وكانوا عازمين على فتحها أو إستسلامها.

وقد أظهر سكان غرناطة شجاعة فائقة في الدفاع عن مدينتهم وضربوا مثلاً رائعاً في الجهاد والتضحية في غياب المؤونة بعد توافد المسلمين من ضواحي غرناطة واشتداد الحصار (يحياوي، 2009، صفحة 37) الذي دام سبعة أشهر فكانت مدته كافية لأن يدفع سكان غرناطة وأعيانها إلى القبول بالمفاوضات مع الملكين الكاثوليكين ودارت المفاوضات في سرية تامة، وقد توصل الطرفان إلى صياغة معاهدة التسليم النهائية في نوفمبر 897هـ/1491م وقد عرفت هذه المعاهدة فيما بعد باتفاقية غرناطة التي سمحت للملكين بدخول قصر الحمراء في جو بهيج بداية من شهر جانفي 1492. فقام أبو عبد الله بتسليم مفاتيح المدينة للملك الكاثوليكي قائلًا: "إنها مفتاحي هذه الجنة وهما الأثر الأخير لدولة المسلمين في إسبانيا وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا وهكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيمًا وعادلاً" فرد عليه فرديناند "لا تشك في وعودنا ولا نعوزك الثقة خلال المحنة فسوف نعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك". وما لبث أن بدأ فصل جديد من المعاناة حيث تم نكث العهد وحرقت بنود اتفاقية غرناطة منذ السنوات الأولى للاستيلاء على المدينة التي غادرها أبو عبد الله الصغير إلى البشترات في موكب حزين لم يسبق له مثيل وصار المسلمون في غرناطة يسمون بالموريسكيين¹ وبذلك تبدأ مأساة جديدة للطائفة المسلمة الباقية في غرناطة (يحياوي، 2009، صفحة 39).

بعد سقوط مدينة غرناطة قامت إسبانيا بنقض شروط معاهدة الإتفاق فأصدرت قراراً ينص على تنصير المسلمين قسراً عام 1499 ولتجسيد ذلك استعملت الكنيسة والدولة جهازاً جهنمياً وظفته لمتابعة مسلمي الأندلس (الموريسكيين) ومحاربة كل مظاهر الإسلام في حياتهم. حيث قامت بتنصيب محاكم التفتيش² وكان هدفها تنصير

1- الموريسكيين: هي كلمة أطلقها الإسبان على المسلمين المتبقين في شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) بعد سقوط غرناطة واستيلاء الملك الكاثوليكين عليها تحت السلطة النصرانية وواجه مسلموها عبث محاكم التفتيش، أو المسلمين الذين هاجروا أو هجروا من إسبانيا بين سنوات 1492-1610م.

2- محاكم التفتيش: تسمى بالإسبانية la inquisicion أسسها ملوك الكاثوليك فرديناند الثاني وإيزابيلا عام 1478 بموافقة البابوية مهمتها الحفاظ على العقيدة الكاثوليكية في الممالك الإسبانية وقد إتخذها الملكان كوسيلة لفرض سياستهما على إسبانيا وتوحيد السلطة تحت رايتهما **فوظفوا** الكنيسة التي سعت إلى تنصير المسلمين بالإكراه ومتابعة أخبار الناس إن خالفوا أفكار وأعمال الكنيسة، كما قامت بمطاردة العلماء والمفكرين وشردت وأحرقت الكثير منهم.

المسلمين بالإكراه والعنف والقوة، وقد أيد الكاردينال خيمينيس هذه السياسة عند انتقاله إلى غرناطة حيث قام هذا الأخير بغلق المساجد وحرق الكتب والمخطوطات التي بلغ عددها حوالي 800 ألف. (فكاير، 2018، صفحة 215)

لقد قامت السلطات الإسبانية بإصدار قوانين جائرة وإجراءات صارمة على المسلمين حيث صدر عام 1502 مرسوم ملكي يخير المسلمين بين اتخاذ النصرانية كديانة أو مغادرة الأندلس، وصدرت أيضا قوانين متعسفة بين سنوات 1508-1516 وفيها منعت اللباس الإسلامي وفرضت ضرائب خاصة عرفت باسم الفارضة، وحرق ما تبقى من الكتب الإسلامية، وتلقى مسلمي الأندلس أبشع صور الاضطهاد والتضييق وتم استغلال عقارات وأملاك المسلمين لصالح النبلاء الأسبان.

كما شرّعت قوانين صارمة وعقوبات ظالمة لكل من يحاول الرجوع إلى غرناطة أو يلبس اللباس الإسلامي أو يتكلم اللغة العربية، ففي عهد فليبي الثاني صدر قانون عام 1567 يحرم استعمال اللغة العربية وارتداء الثوب العربي أو يظهر أي عادة عربية. كما تعرض المسلمون لعملية نهب قاسية لأراضيهم بسبب صدور قرار مراجعة الأراضي والوثائق العقارية (فكاير، 2018، صفحة 218)، وفي عام 1563 صدر قانون يحرم المسلمين حمل سلاح دون ترخيص من الحاكم العام كما قررت الكنيسة أخذ جميع أطفال المسلمين لتعليمهم الدين النصراني وجعلهم يعملون في محلات النصراني وكلفوا بتدريسيهم على العادات النصرانية (الكتاني، 2005، صفحة 133). كما أن عددا كبيرا منهم بيعوا للنصراني كعبيد.

وتابع ديوان التفتيش مطاردة المسلمين دون هوادة طول فترة (1570-1609) (الكتاني، 2005، صفحة 134) وأصدرت إسبانيا خلال هذه الفترة عدة قرارات لطرد الأندلسيين خاصة في عهد فليبي الثالث الذي خلف أبوه فليبي الثاني بعد وفاة والده حيث تم اتخاذ أهم قرار خلال فترة حكمه وهو النفي النهائي للموريسكيين من شبه الجزيرة الأيبيرية، فبدأ في تنفيذ مخططاته الجهنمية ضد المسلمين بعد أن تيقن لضعف إمكانيات الموريسكيين الدفاعية، وقد تعالت أصوات بعد فشل الحملة الإسبانية على الجزائر عام 1601م في عهد الملك فليبي الثالث تدعوا إلى ضرورة التخلص من الأندلسيين حيث قام ريبس أساقفة ريبترا بإصدار تقريرين أولهما كان في أواخر سنة 1601م جاء فيه "انه إذا لم يتم طردهم فسيكون ضياع إسبانيا"، أما التقرير الثاني فكان بتاريخ 02 جانفي 1602م الذي اعتبرهم هراطقة وخونة للملك لذا وجب طردهم وقد أيد عملية الطرد كبار رجال الكنيسة (فكاير، 2018، صفحة 225). مما اضطر أغلبهم إلى الهجرة نحو سواحل بلاد المغرب ومنها السواحل الجزائرية حيث نزح إليها جمع غفير من الأندلس وقصدوا المناطق الممتدة من القالة شرقا إلى رأس فالكون غربا، عنابة، بجاية، الجزائر العاصمة، مستغانم، سواحل وهران وتلمسان (فكاير، 2018، صفحة 214).

وإزاء هذه الإجراءات التعسفية كانت السلطات الإسبانية الحكومية والكنسية تخاف خوفا شديدا من قيام ثورة موريسكية شاملة نعم إسبانيا لذلك كانت تمنع تجمع المسلمين الأندلسيين خاصة الغرناطين، فكانت ترى بأن غرناطة مركز عصبيتهم لذلك رفضت تجمعهم مهما كانوا سواءا عبيدا أم أحرارا وتقوم على تشتيتهم كلما اجتمعوا، كما تمنعهم من الاتصال بمسلمي الأراغون أو مسلمي شمال إفريقيا. (الكتاني، 2005، صفحة 131)

لقد أدت عملية التنصير الإجباري إلى قيام عدة ثورات وانتفاضات جاءت معبرة عن رغبتهم الجامعة في الحفاظ على دينهم وقوميتهم وحقوقهم المسلموبة وخير دليل على ذلك ثورة البيازين عام 1499 و ثورة 1500 وغيرها لكنها أخمدت

بكل قوة وألغي الإسلام رسمياً ولم يجد الأندلسيون أمام عجزهم في الدفاع عن عقيدتهم، إضافة إلى ضياع أملهم في النجدة سوى التظاهر مكرهين بقبول دين النصارى والحفاظ على الإسلام سرا بعد إخفاءه.

بعد سقوط الحواضر الإسلامية الأندلسية في يد الإسبان ولمواجهة المحنة، فكر الأندلسيون ملياً في الحفاظ على أرواحهم ودينهم وذلك بالاستنجاد بقوى إسلامية عديدة والفرار نحو بلاد الإسلام كالجزار مثلًا، التي تجمعها علاقات وثيقة منذ أيام الخلافة الأموية، حيث استقرت بعض الجاليات الأندلسية العاملة في التجارة في عدد من المدن الساحلية، فعلى الرغم من عدم قدرة المسلمين سواء في المشرق أو المغرب من تقديم لهم العون العسكري أو المادي الكافي بسبب الأوضاع الداخلية المتدهورة إلا أنهم فتحوا لهم بلادهم. بل قطعوا البحر بقواربهم إلى ثغور الأندلس وساهموا في ترحيلهم إلى أوطانهم (فكاير، 2018، صفحة 217). والدليل على ذلك وصول جماعة منهم إلى مدينة وهران وبجاية بهدف تخليصهم من معاناتهم كما وصلت منهم جماعات إلى مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية.

ظهور الإخوة بربروس في سواحل شمال إفريقيا ودورهم في تطور البحرية الجزائرية وإنقاذ مسلمي الأندلس.

يعود وجود الإخوة بربروس في شمال إفريقيا إلى استقرار عروج في مصر ودخوله في خدمة سلطانها بداية من القرن 16م بعد هزيمة الأمير قرقدود في صراعه مع أخيه السلطان الأول سنة 1512 (بربروس، 2015، صفحة 51). وكان عروج مقرباً من الأمير قرقدود فخاف على نفسه من مضايقة السلطان العثماني، الأمر الذي دفع بعروج إلى الهروب والتوجه نحو سواحل تونس حيث اتخذ من جزيرة جربة¹ مركزاً له وهناك لحق به أخوه خير الدين وإسحاق وأصبحت لهم العديد من السفن والمستودعات (مجهول، 1994، صفحة 13) سرعان ما توجهوا إلى السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد فقالوا له: "نريد أن تفضل علينا بمكان نحني فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من الغنائم". فأجابهم سلطان تونس قائلاً: "إن ما تقولونه معقول جداً، فأهلاً وسهلاً بكم البلد بلدكم" (بربروس، 2015، صفحة 53)، وقدموا له الهدايا ومنحهم مقابل ذلك مكاناً يجعلانه مقراً لهما ومنطلقاً لنشاطهما البحري وهو ميناء حلق الوادي البعيد عن البحر المتوسط بنحو ميلين، ذو الأهمية الاستراتيجية حيث يتوفر على مناخ مناسب للقيام بالجهاد البحري مقابل دفعهما لخمس الغنائم (5/1) فرضي عروج بذلك. وهذا يكون الإخوة بربروس قد تحصلوا على مكان أمين وقريب عن طريق الملاحه، فازدادت بذلك أعمالهم وتمكنوا من إنشاء أسطول مكون من 12 إلى 14 سفينة و1000 بحار (جوليان) من المتمرسين بحرياً.

لقد لعب الإخوة بربروس دوراً كبيراً بعد استقرارهم في حلق الوادي وذلك من خلال إنقاذ ونقل العديد من المسلمين الفارين من الأندلس انطلاقاً من السواحل الشمالية لإسبانيا باتجاه شمال إفريقيا، وقد تطلع إليهم مسلمي الأندلس المضطهدين.

1- جزيرة جربة: هي جزيرة تونسية تقع جنوب شرق تونس في خليج قابس تتمتع بموقع استراتيجي مساحتها 514 كلم² تعد أكبر جزر شمال إفريقيا، يبلغ طول شريطها الساحلي بـ 125 كلم، تلقب بجزيرة الأحلام لها تراث ثقافي ثري من أبرز معالمه الجوامع التي تبنى لكل عائلة وبروج المراقبة.

ولقد كان للإخوة بربروس دورا كبيرا في نشأة البحرية الجزائرية وتطورها خلال العهد العثماني خاصة بعد إلحاق الجزائر رسميا بالدولة العثمانية عام 1519م وأصبحت تمثل إيالة عثمانية في شمال إفريقيا وقد أولى حكام الجزائر اهتماما كبيرا في بناء وتقوية وتطوير الأسطول البحري خلال القرن 16 وبداية القرن 17م (هلايلي، 2007، صفحة 55)، لأنه يعتبر محورا أساسيا في قوتها العسكرية فكان الجيش البحري يتكون في بداياته الأولى من بحارة عثمانيين ممثلين في الإخوة بربروس الذين عرفوا بحمهم للبحر وولعهم به. وكان على رأسهم خير الدين الذي يعود له الفضل في وضع أسسها حيث جعل من ميناء الجزائر قاعدة بحرية بعد أن طرد الإسبان من صخرة البنيون التي كانت تشرف على مدخل ميناء الجزائر عام 1529. لذلك نجد العثمانيين هم من ساهم في تنمية وتطوير الأسطول البحري من الجانبين المادي والبشري (العقاد، 1985، صفحة 321).

لقد ساهم وجود العثمانيين في الجزائر واستقرارهم بها في تحويل نشاط البحرية بالبحر الأبيض المتوسط إلى مؤسسة قائمة بذاتها تشرف على مجموعة من رياس البحر تحكمت في إدارة البحرية وتنظيمها وتمويلها وتوظيف طاقمها حتى القيام بعمليات حربية بشكل جيد (سبنسر، 1980، صفحة 60). وفي هذا الشأن يجمع المؤرخون الأوروبيون والأمريكان وحتى الرحالة الأجانب على أن البحرية الجزائرية كانت منظمة أحسن تنظيم زيادة على شجاعة أهلها (بلقاسم، 2007، صفحة 69)، كما وصفوها بالقوة والعظمة وأشاروا إلى تميزها بكفاءة طاقمها بقولهم: "ومرساها عامر بالسفن ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في بلادهم فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو..." (بلحميسي، 1981، صفحة 57). فلقد كانت البحرية الجزائرية تهدد مصالح الدول الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط، فقد أزموا بعقد معاهدات معهم والتزموا بدفع إتاوات لحكومة الجزائر حتى يضمنوا وجودا آمنا لسفنهم ورعاياهم وازدهار تجارتهم في حوض المتوسط الغربي (غطاس، 1988، صفحة 118). وهذا استطاعت الجزائر أن تملئ شروطها وقوانينها التي يتم بموجبها أن تحققت العبور بسلام في البحر الأبيض المتوسط أو التعرض للأسر والحجز إن خالفت قوانين الجزائر

وبالتالي فإن استقرار أوضاع الجزائر السياسية ساعد حكومتها على تقوية أسطولها البحري لا سيما عملية صناعة السفن بمختلف أنواعها، حيث كانت تمتلك العديد من السفن ذات المجاديف والسفن الثلاثية الصواري، وسفن ذات الأشعة الطويلة، وقد عرفت تطورا ملحوظا بعد أن أعيد تشكيلها عقب التحسينات التي أدخلها الأوروبيون الذين اعتنقوا الإسلام وعرفوا بالاعلاج، إضافة إلى التحاق الكثير من البحارة الأندلسيين والعثمانيين بالعمل في البحرية الجزائرية، فكان لهم فضل عظيم في ازدهارها وتقويتها ومن ثمة رسم هيبة الدولة في حوض البحر الأبيض المتوسط وجعل الدول الأوروبية تحسب لها ألف حساب وتقر بشروط الجزائر ومعاداتها.

دور البحرية في إنقاذ مسلمي الأندلس.

إن الوضع المزري الذي آل إليه الأندلسيون جعلهم لا يترددون في الاستنجاد بقوى إسلامية عديدة وفي هذا الشأن وصلت مراسلات ووفود عدة تطلب النجدة لإغاثة المسلمين وخير دليل على ذلك استنجادهم بالإخوة بربروس من أجل تخليصهم من اضطهاد النصارى، وقد وافقوا لطلبهم واستجابوا لندائهم يتضح ذلك من خلال ابجار عروج وأخيه خير الدين بأسطولهما المتكون من ثمانية سفن رفقة جنودهم الذي بلغ عددهم من 300 إلى 400 جندي، حيث وصلوا إلى

سواحل الأندلس من أجل نجدة الموريسكيين المضطهدين من طرف النصارى وتم نقل عدد كبير منهم إلى الجزائر وتونس (بربروس، 2015، صفحة 54)، وهنا نذكر بأن الجزائر كانت من أهم المراكز التي استقطبت المهاجرين من أجل الاستقرار وسعى أهلها إلى إكرام الأندلسيين الوافدين ومنحهم حرية في التنقل ومزاولة حرفهم خاصة وأنهم عرفوا ببراعة في صنائعهم فنجدهم قد ساهموا في تطوير مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية... فعلى سبيل المثال قاموا بتطوير الموانئ والصناعة البحرية خاصة عملية صناعة السفن في الجزائر وشرشال وجيجل، حيث صنعت السفن ذات الأشعة الطويلة لتكون سريعة وسهلة القيادة وذات مرونة في توجيهها وبذلك يمكنها أن تلحق بالتجار المسيحيين أو يمكنها الهروب من السفن الحربية المسيحية (وولف، 2015، صفحة 193). وبالتالي كان لهم دور لا يستهان به في مواجهة البحرية لقوى النصارى بعد تدعيم القوة البحرية للجزائر علما أن الأندلسيين كانوا أحد أهم عناصرها في جيشها البحري فتمكنوا من مساعدة إخوانهم الذين بقوا تحت الأسر والاضطهاد في إسبانيا.

لقد أبدى الجزائريون استعدادهم الكامل في نجدة الموريسكيين وتخليصهم من الطغاة المضطهدين فتحملوا على عاتقهم مسؤولية إنقاذ مسلمي الأندلس الفارين من محاكم التفتيش التي أوجدتها إسبانيا، كما فكروا جليا في ضرورة دعمهم في مقاومتهم ضد النصارى الغاصبين وكان ذلك عندما تولى علاج علي الحكم في الجزائر (1568-1571) وأصبح بيلرباي على الجزائر حيث أبدى تأييده الكامل للمقاومة الأندلسية. وقد عقد اجتماع لأهالي الجزائر في المساجد وفيه نوقشت قضية الأندلسيين واتفقوا على ضرورة مساعدة إخوانهم المسلمين، وقد رحب الأهالي بالفكرة وسارعوا إلى جمع السلاح واختيار المتطوعين وتجنيدهم لدعم الثورة الأندلسية حيث بلغ عددهم حوالي أربعة آلاف رجل تكفل بنقلهم الأسطول البحري الجزائري إلى جبال البشيرات لنصرة إخوانهم الأندلسيين (عنان، 1987، صفحة 398) ودعم ثورتهم بأربعين سفينة وصلت شواطئ المرية، غير أن السلطات الإسبانية سخرت كل إمكانياتها وقضت على الثورة (هلايلي، 2007، صفحة 114).

لقد قام علاج علي بحشد أربعة عشر ألف جندي مسلحين بالبنادق وستين ألف رجل من السكان ومعهم أربع مائة جمل محملة بالبارود وأرسلها إلى مزهران للانطلاق منها إلى وهران وكان القصد من ذلك الهجوم هو إشغال الإسبان في وهران عن تحرك سفنه المكلفة بمساعدة الثوار الأندلسيين (فكاير، 2018، صفحة 221) وقد أرسل إلى السواحل الإسبانية أربعين سفينة متوجهة نحو سواحل المرية بهدف مساعدة المسلمين الفارين وحمايتهم غير أن السلطات الإسبانية اكتشفت أمرهم وسخرت كل إمكانياتها وأعطت الأوامر للحكام العسكريين للقضاء على هذه الثورة التي بلغ عدد الثائرين بها حوالي 150 ألف شخص وقد ألقت السلطات الإسبانية القبض على بعض الثوار وعثرت على مخازن السلاح، ويذكر حنيفي هلايلي بأن علاج علي كان يريد الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد بالأندلس وكان ينوي الذهاب رفقة ستين ألف رجل والنزول بهم في ميناء بلنسيا لكن ظروف معركة ليبانت وتجهيزاتها حالت دون ذلك (هلايلي، 2007، صفحة 114).

وفي عام 1569 قام علاج علي بإرسال ستة سفن كانت محملة بالمدافع والذخيرة تم إنزالها قرب المرية وأرسل مرة ثانية أسطولا يتألف من اثنين وثلاثين سفينة معبأة بالجنود لكنهم لم يتمكنوا من النزول بسبب حدوث عاصفة بحرية هوجاء فرقت السفن، لكن رغم الحراسة الشديدة التي أقامتها السفن الإسبانية على سواحل بلادها إلا أن الجزائريين

نجحوا في نقل العديد من المساعدات إلى بلاد الأندلس والمتمثلة في الأسلحة والذخيرة ورجال ومواد غذائية كالأرز والقمح والدقيق ... وقد ساعدتهم في ذلك معرفتهم لشواطئ المنطقة (فكاير، 2018، صفحة 222)، ويذكر نصر الدين سعيدوني بأنه في سنة 1584 تم نقل أكثر من ألفي أندلسي إلى الجزائر من نواحي اليكانت (سعيدوني، 2009، صفحة 203).

لقد تمكنت الجزائر من استقبال أعدادا كبيرة من الأندلسيين وخاصة من البلنسين الذي صدر في حقهم قرار الطرد في 22 سبتمبر 1609 فبموجبه تم طرد حوالي ثمانية وعشرون ألف شخص من ميناء دانية وخمسة عشر ألف من ميناء بلنسي نقل الكثير منهم نحو مدينة وهران (سعيدوني، 2009، صفحة 230)، كما اتجهت جماعات أخرى نحو مدينة الجزائر معظمهم من إستيرامادور والمانشا والأراغون. وهناك من الأندلسيين من انتقل إلى الأراضي الجزائرية عبر البلاد الفرنسية بعد صدور قرار ملكي في أفريل 1610 يدعو فيه مدن الجنوب الفرنسي بأن يوجهوا المهاجرين إلى أقرب ميناء لترحيلهم (فكاير، 2018، صفحة 230).

لقد كلفت عملية الإنقاذ والإنزال البحرية الجزائرية ثمنا غاليا في الأرواح والعناء وتمكنوا من إنقاذ الآلاف من المسلمين الأبرياء من الإبادة المسلمة عليهم. كما قام الأسطول بالهجوم على سفن الأعداء وأسر الكثير منهم وأغار على سواحلهم مسلطا عليهم الرعب جزاء تنكلمهم بالمسلمين وقد أشاد بذلك المؤرخ الفرنسي بروديل بقوله: "إن سفن الأسطول الجزائري قد جعلت الطرق البحرية بين إسبانيا وإيطاليا عملية صعبة" (هلايلي، 2007، صفحة 116).

خاتمة:

نخلص في الأخير إلى القول بأن مساعي السلطات الإسبانية الحكومية والكنسية في محاولة تنصير مسلمي الأندلس وابعادهم عن معتقداتهم وعاداتهم العربية الإسلامية قد باءت بالفشل الذريع على الرغم من أساليب الترغيب والترهيب التي اتخذتها الدولة، وبالتالي فإن مأساة مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة آخر القلاع الإسلامية بشبه الجزيرة الإيبيرية كان له الأثر الكبير في نفوس الجزائريين دولة وشعبا بحكم انتمائهم للعالم الإسلامي لذلك لم تبخل الجزائر في تقديم يد العون لإخوانهم المضطهدين من طرف النصارى الذين كانوا يكونون حقدنا دفيينا للإسلام والمسلمين منذ زمن بعيد، فالبحرية الجزائرية لعبت دورا كبيرا في حماية وإنقاذ الآلاف من المسلمين الموريسكيين وإسكانهم في بعض المدن الجزائرية وقد اندمج هؤلاء في المجتمع الجزائري وساهموا بخبراتهم في مختلف المجالات الاقتصادية والعسكرية والفنية والعمرائية والتي مازالت بعض أثارها واضحة المعالم إلى يومنا هذا.

قائمة المراجع:

- أحمد توفيق المدني، (1976)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، قسنطينة، دار البعث، الجزائر.
- جمال يحيياوي، (2009)، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- جون ب وولف، (2015)، الجزائر وأوروبا، ترجمة أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر.
- حنيفي هلايلي، (2007)، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.

- خير الدين بربروس، (2015)، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، دار طليطلة، الجزائر.
- شارل أندري جوليان، (بلا تاريخ)، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية.
- صالح العقاد، (1985)، المغرب العربي الحديث - دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة-، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- عائشة غطاس، (1988)، نظرة حول تقييم بعض المصادر الغربية لسياسة الجزائر الخارجية خلال العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، (ع.05).
- عبد الحميد بن تركية، (2014)، التوسع البرتغالي الإسباني في العالم خلال القرنين 15-16، حوليات التاريخ والجغرافيا، (ع.08).
- عبد القادر فكائر، (2018)، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث (1518-1830)، دار هومة، الجزائر.
- علي المنتصر الكتاني، (2005)، إنبعث الإسلام في الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- مجهول، (1994)، غزوات عروج وخير الدين، المطبعة الثعالبية، الجزائر.
- محمد عبد الله عنان، (1987)، نهاية الأندلس تاريخ العرب المنتصرين، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- محمد عبده حتملة، (1977)، محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وما بعدها، ط1، مطابع دار الشعب عمان، الأردن.
- مولاي بلحميسي، (1981)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- مولود قاسم نايت بلقاسم، (2007)، شخصية الجزائر الدولية وهيبته العالمية، دار الأمة، الجزائر.
- ناصر الدين سعيدوني، (2009)، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر.
- وليام سينسر، (1980)، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زيادية، ش.و.ن.ت، الجزائر.

موقف الفقيه أبو العباس أحمد الونشريسي من سقوط الأندلس من خلال كتابه "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصراري ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج".
د. هشام بن سالم / قسم التاريخ / جامعة الجزائر (2).
أ. سالمي زويبر / قسم العلوم الإنسانية / جامعة سيدي بلعباس.

ملخص الدراسة:

تعدّ المدونات التوازلية من أهم وأجل ما اختصت به بلاد المغرب الإسلامي من تأليف، وذلك نظرا لما عكف عليه العديد من العلماء وقضاة المغرب الإسلامي من تسجيل الفتاوى والأقضية، حيث تعدّ هذه الأخيرة عبارة عن تقييدات يومية لما يطرأ على حياة الناس من مستجدات، مستندين فيها على الفقه المالكي، الذي يعدّ مرجعية أهل البلد، ومن هذا المنطلق، فقد انبرى ثلّة من العلماء والفقهاء لحلّ القضايا المستجدة والهامة في تاريخ الأمة ولتقييدها حتى لا يضيع نفعها من جهة، وحتى تكون مرجعا لمن يخلف من الفقهاء، ولذا نجدها متنوعة بين التاريخ والإجتماع والإقتصاد... باعتبار هذه النوازل مادة مصدريّة تاريخية مهمّة، لما تحويه من قضايا، أرخت لواقع الناس ويوميّاتهم، دون التّطرق إلى المسائل التفرعية لأبواب الفقه، متجاوزة قضايا الافتراض.

ولا يخفى على أحد ما كان لسقوط الأندلس من تداعيات على العالم الإسلامي عموما وبلاد المغرب الإسلامي خصوصا، حيث تمخّض عن هذا الحدث جملة من النتائج على صعيد العلاقات بين الشرق والغرب، ومن هنا فقد كان من الطبيعي أن ينال هذا الحدث حظّه من كتب النوازل، وأن تسال فيه أقلام فقهاء النوازل، ومن أبرز المؤلفات التي برزت في هذا الموضوع كتاب: "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصراري ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج" لأبي العباس أحمد الونشريسي، حيث يعد هذا الكتاب من أهم المصادر المعاصرة لسقوط غرناطة، والذي يبرز لنا موقف الونشريسي من هذا الحدث الجلل، وحكمه بخصوص من بقي من المسلمين في هذا القطر الذي سقط بيد النصراري، ولذا ارتأيت أن أتناول الموضوع من خلال هذا الكتاب.

الكلمات المفتاحية: النوازل – الأندلس – المدجّنين – دار الكفر- الفقهاء.

Abstract:

The Noaji blogs are considered one of the most important and most important writings of the countries of the Islamic Maghreb, due to what many scholars, muftis and judges of the Islamic Maghreb have devoted themselves to recording fatwas and issues, as these fatwas and judgments are considered daily restrictions of what happens to the lives of people in terms of developments. Within it the reports of the judges and the fatwas of the jurists, relying on them on the Maliki jurisprudence From this standpoint, a group of scholars and jurists have set out to solve emerging and important issues in the history of the nation, and to restrict these fatwas and issues so that their usefulness is not lost on the one hand, and so that they are a reference for the successors of the jurists, and therefore these calamities are considered for the sake of the sciences that researchers in various sciences need Such as history, sociology and economics ... considering these calamities as an important historical source material, because of the issues they contain, dating the reality of people and their diaries, without addressing the branching issues of the chapters of jurisprudence, bypassing the issues of the assumption.

It is well known that the fall of Andalusia had repercussions on the Islamic world in general and the Islamic Maghreb in particular, as this event resulted in a number of results in terms of relations between East and West, and from here it was

natural for this event to gain its share from the books of calamities, and that The pens of the jurists asked about the calamities, and one of the most prominent books that emerged on this topic is a book: "The best of the merchants in explaining the rulings of the one who conquered his Christian homeland and did not migrate and the consequences of punishments and marriage" by Abu Al-Abbas Ahmad Al-Wanchrisi, as this book is one of the most important contemporary sources for the fall Granada, which highlights Al-Wonsherissi's position on this momentous event, and his judgment regarding the remaining Muslims in this country that fell in the hands of the Christians, and therefore I decided to address the issue through this book.

Key words: the calamities - Andalusia - the domesticated ones - the house of infidelity - the jurists.

مقدمة:

إنّ الحديث عن سقوط الأندلس حديث ذو شجون، وذلك لما مثله هذا القطر من أهمية بالغة في تاريخ بلاد المغرب خصوصاً، والعالم الإسلامي عموماً، وانطلاقاً من هذا، فقد كان لهذا الحدث الجلل الأثار البالغة والانعكاسات المؤثرة على تاريخ المنطقة، كالتغيير الإثني لجزيرة الأندلس، وما صاحبها من تهجير قسري لسكانها، وإقامة محاكم التفتيش، وإطلاق الحملات الصليبية لذلك، التي طالمت ربوع العالم، بما في ذلك العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، حيث مورس عليه أسوأ صور الغزو الصليبي، الذي مثله الإستعمار الإسباني في المغرب الإسلامي، والبرتغالي في سواحل اليمن والخليج، دون إغفال دور البابوية في مرافقة ورعاية هذا العدوان على العالم الإسلامي.

ولم تكن المدونات التوازلية في منأى عن هذا الحدث، حيث تعدّ هذه التوازل عبارة عن تقييدات يومية لما يطرأ على حياة الناس من مستجدات، والتي حظيت بقسط وافر، وأهمية كبيرة في إنتاج الفقهاء، فهي تعدّ من أهم وأجلّ ما اقتصت به المدرسة المالكية وبلاد المغرب الإسلامي من مصنفات وتأليف، التي تنوعت على اختلاف المواضيع التي تعالجها، والأغراض التي ألّفت من أجلها، فانتشر هذا الفن بشكل كبير، خاصة في الفترة الأخيرة من العصر الوسيط، بفضل التراكم الكبير الذي خلفه الفقهاء المتقدمين، لكونها تمثل سجلات إدارية وقضائية، حفظت بين ثناياها تقارير ووثائق القضاة وفتاوى الفقهاء، نظراً للأوضاع السياسية والإجتماعية المختلفة التي شهدتها المنطقة في هذه الفترة، مستندين فيها على الفقه المالكي، الذي يعدّ مرجعية أهل المغرب وأسّ وحدته، فظهرت نوازل ابن رشد والبرزلي وابن الحاج والمازوني والونشريسسي..... وكلّها تعبّر عن أهميّة التدوين التوازلي.

وانطلاقاً من هذا، فقد عني فقهاء التوازل بموضوع سقوط الأندلس، كونها تعدّ مسألة لا يمكن تغافلها بأي حال من الأحوال، بل هي تمثّل زلزالاً مدوّياً ضرب العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، ولذا فقد عكف الفقهاء على الاجتهاد وإصدار جملة من المسائل والفتاوى بخصوص موضوع الإقامة بدار الكفر، وإسقاطها على مسألة سقوط الحواضر الأندلسية، في ضوء المذهب المالكي.

ولعلّ أبرز مصنف واكب سقوط الأندلس، وأبرز حكم ومصير المسلمين المقيمين بها، هو كتاب "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجروا يترتب عليه من العقوبات والزواج" لأبي العباس أحمد الونشريسي، الذي يعدّ مصنفاً مهماً اختص في هذا الموضوع الجزئي، كونه يعدّ جزءاً من مدونة الونشريسي النوازلية الكبرى "المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب"، حيث تعد هذه المدونة أهم وأشهر كتب الونشريسي، والتّوازل الفقهية في بلاد المغرب والعالم الإسلامي عموماً، ويبرز هذا من خلال عناية الفقهاء والباحثين والدارسين لهذا المصنف الضخم، الذي حوى فتاوى المتقدمين والمعاصرين لزمان الونشريسي، إذ جمع الونشريسي هذه الفتاوى من الدواوين وكتب الأفضية رغم كونه لم يتقلّد منصباً رسمياً يسهّل عليه هذه المهمة المضنية (سعد الله، 2011م، ص47-48)، ويتجلى هذا من خلال كتاب "أسنى المتاجر..." فهذا الكتاب - كما أسلفنا - يعدّ كتاباً مختصاً في حكم ووضعية المسلمين المقيمين بالأندلس بعد سقوطها، وهذا كما يظهر من خلال عنوانه، فهو كتاب مضمّن مدونة "المعيار المغرب" في المجلد الثاني ابتداءً من الصفحة 119 إلى غاية الصفحة 141 من ذات المجلد، في باب الأيمان والندور، حيث برز كتاب "أسنى المتاجر" دون فهرسة أو تبويب، وقد جمع فيه الونشريسي أقوال المتقدمين والمعاصرين له بخصوص حكم الإقامة بدار الكفر، كما لا يفوتنا أن هذا الكتاب قد عني بتحقيقه الدكتور حسين مؤنس ككتاب مستقل عن مدونة المعيار، وعمل على عنونة وتبويب أجزائه، وهذا بعد عرضه لأهم الدراسات الإستشراقية التي عنيت بالموضوع، والتي توضح أهمية هذا المصنف ومدى تعاطي الباحثين والدارسين لثناياه، نظراً لما تحويه من أهمية علمية بالغة، وقد اعتمدت في هذه الدراسة على الطبعة الصادرة عن مكتبة الثقافة الدينية سنة 1996.

فالونشريسي قد عاش في عصر عرف العديد من الأحداث والوقائع، المصاحبة للفوضى والإضطراب التي عاشتها المنطقة عموماً، فالدول التي أعقبت دولة الموحدين لم تكن بأحسن حالاً منها، حيث شهدت هذه الدول حالة من الصّراع المستشري والضعف المزمن الذي أدّى إلى سقوطها النهائي والمحتّم، ففي هذه الظروف ولد أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي في حدود سنة 834هـ (بالبشير، 2010م، ص18) في العام الذي ولي فيه أبو العباس العاقل عرش الدولة الزيانية بتلمسان، حيث اعتبرت هذه الأخيرة منشأ الونشريسي وعن علمائها نهل أصناف العلوم، حيث امتاز هذا العصر بظهور ثلة لا يستهان بها من علماء في شتى الفنون العلمية وخاصة العلوم الشرعية (خروبي، 2011م، ص95)، ولقد أظنّ المترجمون في مصنفاتهم الكثيرة عن الحديث عن حياته وسيرته، وإجمالاً فهو العالم العلامة حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة، كان مشاركاً في فنون العلم وضروبه المختلفة، عرف بفصاحة اللسان والقلم (التبكي، 1989م، ص135)، يضاف لهذا أنه كان مفتياً ومدرسا للفقهاء، حيث درّس المدونة وفرعي ابن الحاجب (ابن القاضي، 1973، ص157)، وأيضاً تخرّج على يديه عدد كبير من العلماء، ولا ننسى مؤلفاته التي اشتهر بها ورفعت مكانته العلمية عالياً أشهرها: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب (الونشريسي، 1981م، ص د-ه)، وتشير كتب التراجم إلى وقوع نكبة له ما سلطان زياني سكت الونشريسي عن تسميته (خروبي، 2011م، ص134)، وهذا يدل على دماثة أخلاقه، وعلى إثر هذا الحادث انتقل أبو العباس إلى فاس بعدما عاش بتلمسان أربعين سنة، وكان لهذا الإنتقال الأثر البارز في حياته العلمية، حيث تتلمذ على يد علمائها (بن

حمو، 2011م، ص56)، ونهل من مكتباتها واشتغل بالتدريس في مدارسها خاصة المدرسة المصباحية (سعد الله، 2011م، ص46)، وقد عرف بالورع والتواضع، بدليل حضوره مجالس الشيوخ بفاس رغم علو قدره ومكانته العلمية (ابن القاضي، 1973م، ص80).

1-تعريف النوازل:

النوازل لغة: جمع نازلة مشتقة من فعل نزل، قال ابن المنظور حول مفهوم النازلة: بأنها الشديدة والمصيبة تنزل بالناس (ابن منظور، ص724)، أما ابن فارس فهو يرى أنها من نزل أي بالتون والزاي واللام، تدلّ على هبوط الشيء ووقوعه، وعلى هذا فالنازلة هي: الشديدة من شدائد الدهر تنزل (ابن فارس، ص417)، أما المعجم الوسيط فيذكر لنا أنّ النازلة: المصيبة الشديدة وجمعها نازلات ونوازل (المعجم الوسيط، 2004م، ص915) أما في الإصطلاح: فهي تلك القضايا والمسائل التي استجدت في حياة الناس، يريدون أن يستجروا حكم الشرع فيها، فيلجؤون إلى أهل العلم والعلماء والقضاة، شريطة أن تكون هذه القضايا حدثت فعلا ووقعت أصلا، بعيدة عن فقه الافتراض (عباض، ص466)، اقترنت بالفقه المالكي في شكل أسئلة مباشرة أو مراسلات توجه إلى العلماء (عزوز، ص599)، كما أنّ مصطلح النوازل لم يظهر إلا ببلاد المغرب الإسلامي، قبل أن يعمم هذا المصطلح على الأقطار الإسلامية الأخرى (قزان، 2009م، ص175).

2-موقف الونشريسي من المدجنين:

يعدّ كتاب "أسنى المتاجر" من بين كتب النوازل التي تضمّنتها مدونة "المعيارالمغرب"، ولذا لا نجده ينفك عن التصميم التقليدي للنوازل العادية، فقد تصدّر الكتاب ورود سؤال من قبل الفقيه أبو عبد الله بن قطيبة على الونشريسي بخصوص المسلمين المتخلفين بالأندلس، وهذا بعد سقوط أغلب حواضرها بيد النصارى، حيث تميّز السؤال في معظمه بالطول، وأعطى السائل تفاصيل متشعبة بخصوص بعض الأسباب والدوافع والظروف للهجرة، التي هي في أساسها هجرة لله ورسوله من دار الكفر إلى دار الإسلام، بعد مفارقة الضيعة والدور والأموال، وسعة ورغد العيش، إلا أنّ هؤلاء اصطدموا بواقع مرير من تغير أحوالهم بالعدوة المغربية، الأمر الذي حملهم على التدم على الهجرة - التي يصفها السائل بأنها لندنيا يصيبونها- وجعلهم يزدرون دار الإسلام، مما استشكل على هذا الفقيه حكمهم وحكم تمجيد دار الكفر على حساب دار الإسلام، وما هي شروط الهجرة، ليقوم الونشريسي بالإجابة عن هذا السؤال بتصنيف كتاب، ضمّنه إجابته في وجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، مستشهدا في هذا بالطريقة التقليدية التي اعتادها علماء النوازل والفقهاء عموما في الإجابة عن المسائل، ابتداء بسوق الشواهد من القرآن والأحاديث النبوية وفتاوى العلماء المتقدمين، من آراء المذاهب الفقهية الأخرى، وهي على سبيل تعزيز الموقف، بينما أطنب في الاستشهاد بفقهاء المذهب من المتقدمين في مسائل مشابهة ومواضيع مطابقة، سواء بالأراء المنتصرة لرأيه، أو المخالفة له، ثم استطرد في الأحكام الخاصة بالمسلمين المقيمين بدار الكفر، وشروطها الفقهية، وأهم التبعات التي تنجرّ عن مخالفتها، وحكم تويّ المدجنين للمناصب الدينية والسلطانية، ومسألة عصمة الدّم وما هي شروطها عند العلماء، وما هي أهمّ الزواجر والعقوبات التي تنجرّ عن التّخلف في دار الكفر؟ وانتهاء بالقرائن والأسباب التي حملت الونشريسي على تبيّي هذا الموقف، من أسباب

موضوعية، مبنية على الدلائل الشرعية، وأخرى ذاتية وعقلية، مبنية على تجارب واحتكاك بالنصارى من اختلاف العادات واللسان وضعف جذوة الدين واكتساب عادات جديدة على الجماعة المسلمة المتخلفة بهذه الأيام.

فبين الونشريسي الحكم ابتداء في صدر الجواب أنّ الهجرة من دار الكفر إلى بلاد الإسلام فرض عيني جارٍ إلى يوم القيامة، بل يذهب الونشريسي إلى المفاضلة بين المجتمعات، بين دار كفر ودار جور ودار الإثم...، يستثني عن هذا إلا من حالت وتقطعت به السبل للجواز إلى دار الإسلام. ويسوق في هذا أدلة شرعية نذكر بعضها على سبيل الاستشهاد:

2-1- الأدلة من القرآن الكريم:

ساق لنا الونشريسي بعض الأدلة التي تجزئ المتخلف بدار الكفر، وعلى رأسها الآيات من سورة النساء: "إنّ الذين توفهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأوئهم جهنم وساءت مصيرا" (سورة النساء، الآية 97) يستثني من هذا الوعيد من حالت دونهم السبل بكل الوجوه، فيردف بتمة الآية " إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا" (سورة النساء، الآية 98) فالعذر هنا يكفل لا يستطيع الهجرة قطعاً كالمريض والأسرى والقصر من النساء والولدان، فتسقط عنه الهجرة الواجبة التي دلّت عليها الآية. ونراه يقف عند هذه الآيات كثيرا في الإنكار على المتخلف بدار الكفر، كما يعزز هذا الدليل بآيات أخرى كآية سورة الممتحنة: "يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء" حيث تختتم هذه الآية بقوله تعالى: "ومن يفعله فقد ضلّ سواء السبيل" (سورة الممتحنة، الآية 01) وآية أخرى من سورة آل عمران: "يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر" (سورة آل عمران، الآية 118) وقال تعالى من نفس السورة: "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقيه ويحذركم الله نفسه" (سورة آل عمران، الآية 28) والآية من سورة هود: "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون" (سورة هود، الآية 113) وراح مستطردا في الأدلة منها آية من سورة النساء: "بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا" إلى قوله "ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا" (سورة النساء، الآية 141) وبعدها: "يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا" (سورة النساء، الآية 144) وقوله: "يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين" إلى قوله تعالى: "إنما وليكم الله ورسوله والذين ءامنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين ءامنوا فإن حزب الله هم الغالبون" (سورة المائدة، الآية 56) وقوله تعالى: "يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين وإذ ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون" (سورة المائدة، الآية 58) ومن أهم آيات الزجر التي استشدها الونشريسي، آية سورة المائدة: "ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبيس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم

خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون" (سورة المائدة، الآية 81) وقد علقّ الونشريسي بإطناب عن مسألة موالاتة دار الكفر عن دار الإيمان، وتكرار الآيات يعزز الدليل عن العمل الشنيع الذي يرتكبه ساكن دار الكفر مع وجود دار الإيمان، وقدرته على الهجرة إليها، بما لا يدع الشك عند الونشريسي والفقهاء المؤيدين لرأيه بالنسبة لهذه المسألة.

2-2 الأدلة من السنة النبوية:

أما الأدلة من المصدر الثاني للتشريع، فهي لا تقلّ عددا ومضمونا عن الشواهد القرآنية، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تساكنا المشركين ولا تجمعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم"، وفي حديث في ذات الموضوع يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها" ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا"، فهي أدلة صريحة في زجر من يساكن دار الكفر على حساب دار الإيمان، فيرى الونشريسي أنّ من رضي بهذه الإقامة فهو مارق من الدين مفارق للجماعة - كما ورد في الحديث-(الونشريسي، ص30)، وهذا حكم خطير، يقضي بزجر ومعاقبة من يدخل ضمن هذا الصنف، بل يدخل ضمن من يستحل دمه -كما سيأتي- عند بعض الفقهاء، وإن كان الونشريسي لا يصحّ هذا صراحة.

2-3 الإحتجاج بالحكم من أقوال فقهاء المذهب:

يستهل الونشريسي استشهاده برأي الفقيه أبو الوليد ابن رشد الجد، حيث يذهب هذا الفقيه الأندلسي إلى تحريم الإقامة بدار الكفر، اعتبارا منها دار حرب، وهذا خلال مقدمته في كتاب "التجارة إلى أرض الحرب"، بل يوجب هجرة من أسلم من أهلها إلى دار الإسلام (الونشريسي، ص30)، فمن باب أولى بالمسلم الذي ولد مسلما أو تغلب النصراني على أرضه، ممّا يوجب حمله على عاداتهم وأحكامهم (الونشريسي، ص30)، فيرى تحريم العودة إلى أرض النصراني بعد الإقامة بدار الإسلام، شأنه في هذا شأن هجرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم يعلّق الونشريسي على فتوى ابن رشد في الصورة التي ساقها، بين الهجرة من دار الإسلام إلى موطن الكفر، أو تلك التي طرأ عليها الإسلام عن طريق إسلام أهلها، انطلاقا من مبدأ الموالاتة التي لم يعرفها المسلمون إلا بعد مئات من السنين - حسب وصفه- ولم تبرز كظاهرة في المجتمع الإسلامي إلا بعد تغلب النورمان على جزيرة صقلية ومدن الأندلس، الأمر الذي جعل فقهاء الإسلام لا يتطرقون لها إلا بعد هذين النكبتين (الونشريسي، ص32)، حيث اعتبروا حكم المتخلفين من المسلمين بهذه الديار حكم من أسلم ولم يهاجر، فألحقوهم بالأحكام المتفق عليها والمسكوت عنها (الونشريسي، ص33)، فهذه الأحكام لم تعدّ بداية من النوازل لورود الأحكام بشأنها، غير أنّ تغير المشاهد والوقائع والأحداث، حتم على الفقهاء تجديد هذه الفتاوى وتصنيفها.

أ-موقف أبو سليمان الخطابي:

يرى أبو سليمان الخطابي أنّ الهجرة كانت بداية مندوبة غير مفروضة، وجاء هذا النّدب رفعا للحرج والأذى الذي أصاب المسلمين في مكة على يد المشركين، بدليل قوله تعالى: "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة" (سورة النساء، الآية 100)، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة وجبت هذه الهجرة، لضرورة تعلم المسلم أمر دينه زمن نزول الوحي، ثم عاد الحكم الأول بعد فتح مكة، ولكن الونشريسي يعلّق هذا الرّأي المستند إلى حديث ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم في مسألة الهجرتين، فيرى أنّ الأولى هي هجرة الخوف على الدّين، كهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم من مكة إلى المدينة، أما الهجرة بعد الفتح فهي الهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم (الونشريسي، ص36).

ب-رأي أبو بكر بن العربي :

يرى أبو بكر بن العربي أنّ الهجرة من دار الكفر فريضة باقية إلى يوم القيامة، وأنّ من بقي من المسلمين، يعدّ من العصاة ويختلف حاله، ففتح مكة أسقط الهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبقي تحريم الإقامة بين أظهر المشركين، وأن عاصم دم المسلم النطق بالشهادتين لفظا. فهي شرط الإسلام.

ج-حكم حرمة دم المقيم بدار الكفر:

-رأي الإمام مالك: يرى مالك رحمه الله تعالى فيمن أسلم وبقي بدار الكفر، فقتل أو أسر أو سبي أهله، بأنه يحوزه بدار الإسلام، وأن الإقامة بدار الكفر غير عاصمة لدم المسلم وماله، وأنّ ذلك فيء للمسلمين (الونشريسي، ص38)، وبهذا الرّأي قال أبو حنيفة (الونشريسي، ص40)، حيث يرى فيمن أسلم ولم يهاجر فقتل، فعلى القاتل الكفارة ولا تجب عليه الدية، بدليل قوله تعالى: "فإن كان من قوم عدو لكم وهو مومن فتحريروا رقبة مومنة" (سورة النساء، الآية 96) وقد خالف هذا الرّأي الشافعي الذي يرى أنّ عصمة دم ومال المسلم هو الإسلام، فالعاصم للدم هو الإسلام والدار على حدّ سواء (الونشريسي، ص38)، ويذهب إلى هذا الرّأي ابن الحاج وابن رشد وجماعة من الشيوخ، أما من تخلّف عمدا واشترك مع النصارى في الإغارة على المسلمين، فإنّه يبقى في الحكم على الإسلام، ويراه بمنزلة المحارب الذي يمارس اللّصوصية وقطع الطريق على المسلمين، وحكمه بحكمهم، وأمره يرفع إلى الإمام يقضي فيه بأحكامهم، وإلى هذا أفتى ابن رشد الجدد، بينما يتوسط أبو بكر بن العربي هذا الرّأي، فيرى عصمة الدّم للإسلام، بينما عصمة المال في الدار (الونشريسي، ص38).

3-شكوى المهاجرين من ضيق عيش دار الإسلام:

ذكر عن العديد من هؤلاء المدجنين ما كان ينقل عنهم من النّدم على الجواز إلى دار الإسلام، نظرا لتغيّر الأحوال وضيق العيش الذي تعرّضوا له، الأمر الذي حمل المتخلّفين في البقاء بدار الكفر، حيث يعلّق الونشريسي على هذا الرّأي، بأنه زعم فاسد وتوهم كاسد، مستشهدا في هذا بالصحابة الذين هجروا الأوطان والأموال والأولاد والآباء، بل قاتلوهم في عديد الأحيان تمسكا بدينهم، وهو الأمر الذي لا يساوي عرضا من أعراضها، ولا بالتكسب والإستزاق، لقوله

تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون" (سورة المنافقون، الآية 09)، وقوله أيضا: "فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة" (سورة المائدة، الآية 52) ولذا وجب هجرة الديار التي يمنع فيها إظهار شعائر الإسلام، ولو شق عليه ذلك.

ويرى الونشريسي أنهم لا بد أن ينزلوا بالعقوبة والرّدع سجنًا وضربًا، لما يصدر منهم من قبيح الكلام وسبّ دار الإسلام والحنين إلى دار الكفر، وغير ذلك من الفواحش المنكرة، وفي هذا يقول الونشريسي: "... ومن هلك دينه فإلى لعنة الله وعظيم سخطه، فإن محبة الموالاتة الشركية والمساكنة النّصرانية والعزم على رفض الهجرة، والركون إلى الكفار، والرضى بدفع الجزية إليهم ونبذ العزة الإسلامية والطّاعة الإمامية والبيعة السّلطانية، وظهور السّطان النّصراني علمها، وإذلاله إيّاها، فواحش عظيمة مهلكة قاصمة للظهور، يكاد أن تكون كفرًا والعياذ بالله" (الونشريسي، 1981م، ص132).

4- حكم المقيم والراجع بعد الهجرة لا يحق لهم الشهادة ولا تولي الإمامة أو القضاء:

يرى الونشريسي أنّ الرّاجع والمقيم بدار الكفر، مجروح في عدالته التي تؤهله لتولي المناصب الدينية كالإمامة أو القضاء ولا تقبل شهادتهم (الونشريسي، ص47)، استنادًا إلى رأي ابن عرفة، وهو الرّأي الذي يخالفه المازري حيث يرى أن الأصل في أهل الدّجن والمسلمين عموماً هو حسن الظنّ، خاصّة إذا كان هؤلاء مضطرين للإقامة، أمّا من اختار الإقامة بحكم الجاهلية والإعراض عن بلاد الإسلام اختياراً، فهذا يقدر في عدالته إجماعاً، كما يذهب المازري أنّ أحكام القاضي المسلم الذي ولي من قبل سلطان كافر نافذة وواجبة عقلاً، باطلة - في أصلها - شرعاً (الونشريسي، 1981م، ص134)، لأنّ منع الظلم واجب، وتولية الأمتاء أولى من غيرهم، كما يرى ابن عرفة ومطرف وابن الماجشون أنّ أحكام القاضي العادل الذي ولاه سلطان متغلب أو ظالم نافذة (الونشريسي، ص51)، يخالفهم في هذا رأي مالك وابن فروخ وجل شيوخ الأندلس رحمهم الله تعالى (الونشريسي، ص52).

5- المصير الأخروي لأهل السخرية والدجن:

يرى الونشريسي أنّ أهل الإقامة من مسلمي الأندلس، الذين انتقلوا إلى دار الإسلام، وتمكّموا وازدروا دار الإيمان أنّهم عصاة مقدوحون في عدالتهم الدّينية والعقلية، وأنّ العقاب موجب عليهم دنيا وآخرة، بل يرى الباقلاني أنّ العزم على المعصية مؤاخذ به في الآخرة، وهو نفس رأي القاضي عياض وبعض المالكية، استناداً إلى العديد من الأدلة من القرآن والسنة، عارضهم في هذا الإمام المازري الذي يرى أنّه لا يؤاخذ، غير أنّ هذا الصّنف لا يساوى في النقصان والمدمّة مع أهل الدجن الذين ارتضوا الإقامة بين أظهر النّصارى، والتي توجب عليهم عذاب النّار في الآخرة، إلا أنّهم غير مخلّدين في النّار لاعتبار الإسلام.

6- حكم من أراد التّخلف بغرض خدمة إخوانه:

يرى الونشريسي أنّه لا يجوز الإقامة بين الكفار حتّى في هذه الحالة، ففي الانضواء تحت لوائهم خلع لشرف وعزة المسلم التي شرفه الله بها، وتعرض للمسلم في تدنيس حسي ومعنوي، ذلك أنّ مساكنتهم توجب المداهنة والتودّد،

وتعرّض صاحبها للازدراء والاحتقار، وتوجب الهجرة بسبب الظروف غير ملائمة لعزّة النّفس، بل يرى أنّ الإقامة بين أظهر تحول دون كمال أركان الإسلام.

فالإقامة بين أظهر النّصارى وتحت سلطانهم تحول دون صحة الصلاة، بسبب تعرض هذه الشعيرة للازدراء والإستهزاء، يقول تعالى: "وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون" (سورة المائدة، ص58)، كما أنّ ركن الزكاة في هذه الحالة يعطل، لأنها تدفع للإمام المسلم، وتردّ على مستحقها المسلم، وهذا منتف في دار الكفر، أما إخراجها لمن يستعين بها على حرب المسلمين فهو مناف للتعبد الشرعي أصلاً، كما أنّ فريضة الصيام ببلاد الكفر مشكوكة البداية والنهاية، ذلك أنّ إثبات شهر رمضان مشروط برؤية الهلال ابتداء وانتهاء من قبل أعيان المسلمين، من الشهود العدول الذين يقرهم أئمة المسلمين، وهذا منتف جملة في بلاد الكفر، وإذا كانت أركان الإسلام قد نقصت على أقل تقدير ببلاد الكفر، فمن باب أولى أنّ ينتفي الحج الذي يعدّ من الأركان المشروطة بالإستطاعة حتى في دار الإسلام، فما بالك بدار الكفر، كما أنّ الجهاد متروك بهذه البلاد إما عزيمة، وإما اصطفاً لجهة أوليائهم على المسلمين، سواء بالمال أو النّفس، وهذا يوجب الشّناعة والضلال المبين، وبهذا انتفت عرى الإسلام عن رضي الإقامة بين الكفار مختاراً، وتعرّض الشعائر للازدراء والسخرية، والمهانة والاحتقار، كما أنّ هذه الإقامة تجعل صاحبها مستغرقاً في مشاهدة المنكرات والرضا باقتراف المحرمات، والفتنة في الدّين، كما يخشى من هذه الإقامة الحذرة لما دأب عليه النصارى من نقض للعهود، وانتهاك الأعراض، وسلب الأموال، ووجوب الضّرائب المجحفة التي توجب الغدر بالمسلمين وحملهم بالوضائف الثّقيلة المؤدية إلى إفقارهم، ومصادرة أملاكهم، كما أنّ الإقامة توجب تغيير العادات والطّباع الفطرية والنّجاسات، وتبدّل اللّباس واللّغة التي توجب المتعبدات -كشأن أهل آبلّة- ... مما يخشى عليه في هذه البلاد.

الاستنتاجات والتوصيات:

- والنتيجة التي يخرج بها الونشريسي من هذه المسألة هي تحريم الإقامة ببلاد الأندلس بعد سقوطها وتغلب النصارى عليها، وهذا يتضح من خلال عنوان الكتاب ابتداءً، واستناداً إلى الأدلة التي ساقها في إثبات المفسد المترتبة عن هذه الإقامة.
- جاء هذا المؤلّف بناء على سؤال ورد من أحد الفقهاء وهو أبو عبد الله بن قطينة، وهو كتاب ضمنه مدونته "المعيار المعرب" كما ذيلّه بفصل سمّاه "بضميمة" أجاب فيه عن سؤال آخر لنفس الفقيه، وقد جاء الكتاب مرسلًا غير مبوب ولا معنون.
- يعدّ هذا الكتاب مواكبا لسقوط الأندلس، ولذا حمل كثير من الشواهد المعاصرة لهذا الحدث، والتي تعدّ مادّة مصدرية مهمّة للباحث في حقل التاريخ.
- ساق لنا الونشريسي أقوال المتقدمين من فقهاء المذهب وغيرهم، علاوة على الشواهد من القرآن والسنة، بل ضمّنه أقوال المخالفين، وهذا الأمر فيه دلالة على إنصافه وعلميته.

- يقف الونشريسي على الآثار المترتبة عن الإقامة بدار الكفر، وانعكاسها على دين المسلم، ويفرق بين المقيم والمشتاق لهذه الديار من لدن المهاجرين الأندلسيين، ممن ازدري ديار المسلمين، والذين يراهم أفضل حالا ممن فضل الإقامة إجمالاً.
- يستعرض الونشريسي العقوبات الناجمة عن هذه الإقامة، حيث يوصي بحرمانهم من المناصب الشرعية، استناداً إلى جملة من النصوص والشواهد والآراء الفقهية.

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

1- القرآن الكريم

1. ابن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي، جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام في مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م.
2. التنبكتي بابا أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، إشراف عبد الحميد عبد الله هرامة، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 1989م.
3. القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود، ج1، بيروت، دار نكتبة الحياة.
4. الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، الجزء 01-02، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1981م.
5. الونشريسي، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصراري ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج، تح: حسين مؤنس، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 1996.

المراجع:

1. عفيفة خروبي، أصول أبي العباس الونشريسي من خلال المعيار المعرب، الجزائر، القافلة للنشر والتوزيع، 2011.
2. محمد بن حمو، العمران والعمارة من خلال نوازل الونشريسي، تلمسان، كنوز للطباعة والنشر، 2011.

الملتقيات والمجلات:

1. أبو القاسم سعد الله، من فتاوى الونشريسي، مجلة الوعي، عدد خاص بتظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011.
2. زهير عبد الرحمن قزان، إسهامات علماء توات في مجال النوازل الفقهية، أعمال الملتقى الخامس حول المذهب المالكي بعنوان المدرسة المالكية الجزائرية، عين الدفلى 14-16 أفريل 2009.
3. عبد القادر عزوز، النوازل الفقهية في الغرب الإسلامي، أعمال الملتقى الخامس حول المذهب المالكي بعنوان المدرسة المالكية الجزائرية، عين الدفلى 14-16 أفريل 2009.

الرسائل والأطروحات:

1. بلبشير عمر، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب الأوسط والأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع / 12-15م من خلال كتاب المعيار للونشريسي، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، 2010.

القواميس والمعاجم:

1. ابن المنظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، ج6، بيروت، دار الكتب العلمية.
2. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، مج5، بيروت، دار الجيل.
3. المعجم الوسيط، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004.

السلوك الحضاري للموريسكيين في تونس خلال ق 17م و 18م؛ الأصول والانتماء.

The civilized behavior of the Moriscos in Tunisia during the 17th and 18th centuries

.AD; Origins and affiliation

د. كمال مايدي/المركز الجامعي الشريف بوشوشة افلو الاغواط/ الجزائر.

Dr.kamel maidi/Cunter University of aflou lahgout/Algeria

د.معمر جعيرن/ جامعة عمار الثلجي الاغواط/ الجزائر

Dr.maamar djairane/University of aflou lahgout/Algeria

ملخص الدراسة:

إن هجرات الموريسكيين إلى البلاد المغاربية؛ خاصة بعد تعرضهم لتبعات قرار محاكم التفتيش سنة 1609م، لم تكن هجرة علماء كما كانت الهجرات السابقة، فقد غلب على الموريسكيين المهجرين الطابع الفلاحي والتجاري والصناعي، وهذا لا يعني أن هؤلاء لم يهتموا بالحياة الفكرية، فنجد منهم من أولى اهتماما بالعلوم الدينية، فكانوا يكتبون بالاسبانية وخاصة القشتالية. ومن هذا المنطلق مثلت هجرتهم إلى تونس بحكم سياسة الاستقبال والتوطين رافدا حضاريا هاما ساهم في تقدم البلاد في شتى المجالات، إلا أن الاندماج التدريجي في المجتمع أصبح يهدد الطابع الأندلسي بالتلاشي، وقد حظي الموريسكيون باستقبال جيد من طرف "عثمان داي" الذي انفرد بالسلطة في البلاد التونسية وسمح لهم بالاستقرار وفرق ضعفاءهم على الناس، فاستوطنوا عدة أماكن بالإيالة التونسية.

لقد ضمن هذا الاستقبال للموريسكيين في تونس، الحفاظ على خصوصيتهم التي تميزوا بها، وقد برز سلوكهم في شتى المجالات؛ إلا أن حضورهم السياسي كان ضعيفا بحكم طبيعة نشاطهم، وعليه يطرح الاشكال التالي: كيف كان السلوك والحضور الموريسكي في تونس في مختلف المجالات؟ وماهي الإضافات التي قدمها الموريسكيون في إيالة تونس؟ وهل انغلاقهم ومحاولة تفردهم بالتميز جعل دورهم يتراجع خلال القرن الثامن عشر مقارنة بالقرن السابع عشر الميلادي؟

الكلمات المفتاحية: الأندلسيون- الموريسكيون- تونس- عثمان داي - المراديون - الحسينيون- الاسبان - البحر الابيض المتوسط

Abstract:

The migrations of the Moriscos to the Maghreb countries; Especially after they were exposed to the consequences of the decision of the Inquisition in 1609 AD, the migration of scholars was not as it was the previous migrations. Especially Castilian. From this point of view, their migration to Tunisia, by virtue of the policy of reception and settlement, represented an important civilized tributary that contributed to the country's progress in various fields. And they were allowed to settle down, and their weak people dispersed among the people, so they settled in several places in the Tunisian province. This reception of the Moriscos in Tunisia ensured the preservation of their privacy that distinguished them, and their behavior has emerged in various fields. However, their political presence was weak due to the nature of their activities, and therefore the following questions arise: How was the Morisco's behavior and presence in Tunisia in various fields? What are the additions made by the Moriscos in the Eyalet of Tunisia? Did their isolation and attempt to be unique made their role decline during the eighteenth century compared to the seventeenth century AD?

Keywords:

Andalusians - Moriscos - Tunisia - Othman Dey - Moradians - Husseinis - Spaniards - Mediterranean.

مقدمة:

بعد إحقاق البلاد التونسية بالدولة العثمانية سنة 1574م، وإنهاء التواجد الإسباني والحفصي بشكل نهائي، تم تعيين باشا لتسيير شؤون البلاد تحت رقابة السلطة العثمانية بإيالة الجزائر، إلا أن سلطة الباشا تراجعت مقابل نمو سلطة كبار ضباط الجيش الانكشاري؛ مما سمح لهم ارتكاب تجاوزات ضد الأهالي وحتى ضد صغار الضباط والذين يطلق عليهم الدايات مما أدى إلى حدوث انقلاب 1591م. فكيف حدث هذا الانقلاب؟ و إلى أي مدى استفادت الجالية الموريسكية من هذا الوضع؟

أولاً: انقلاب 1591م؛ وأثره على التواجد الأندلسي الموريسكي:

يشير الفونصو روسو إلى تاريخ الانقلاب أنه كان في سنة 999هـ/ 1590م، أن السلطة المطلقة التي منحت للضباط جعلتهم يرتقون بشكل سريع إلى مراكز النفوذ مما جعلهم يحددون عن طريق الحق والعدالة وخضعوا لسلطان شهواتهم، وهذا ما عجل بزوال سلطتهم، حيث وقعت فتنة داخلية، أحدثت تحويلاً في النظام القائم بالإيالة، إذ قرر العسكر بضرورة التخلص من فئة "البولكباشية" التي انفردت بالسلطة، وخسرت ولاء الأهالي والجيش بسبب تصرفاتهم. فهجم العسكر -الدايات- على القصبه فكسروا أبوابها ونهبوا مخازن السلاح، وقد ساعدتهم في ذلك غياب "طبال رجب" وكيل الحرج (وزير البحرية و المسؤول عن عتاد الجيش)، وقد تعمد الغياب عن الديوان لأنه كان من الذين دبروا الانقلاب، وبهذا وأصبحت القصبه بدون دفاع، ثم انتشر الجيش في تونس وأصبحوا يطاردون البولكباشية ويقتلونهم في الأزقة، وتم القضاء عليهم باستثناء ثلاثة منهم (لم يذكر السبب)، وقد أقيمت جثثهم في بساحة القصبه حتى يكونوا عبرة للناس، وبهذا الانقلاب تغيرت التنظيمات التي وضعها "سنان باشا"، حيث تم تقديم أحد الدايات الأربعون لتولي مهمة الرئاسة وذلك بالنظر في شؤون المدينة وعساكرها، وأصبح الباشا يشغل منصب ثاني بعد الدايات، و الديوان لا يتحكم في الجيش إلا بمشورة الدايات الحاكم (الفونصو روسو، 1992، ص106).

ويعتبر "إبراهيم رودسلي" أول من تولى منصب الدايات، واصله من جزيرة رودس، تميز حكمه بالحنكة والحذر، وحكم إلى غاية سنة 1592م/ 1001هـ وهي لسنة التي توجه فيها إلى الحج، وكان ذلك آخر عهده بتونس، وتولى بعده "موسى دايات" حاول الانفراد بالحكم ولم يتم له ذلك ففضل التوجه لأداء فريضة الحج حتى يأمن على نفسه، فخلفه "عثمان دايات" بعد نزاع مع "مصطفى قاره" انتهى بانتزاع "عثمان دايات" للسلطة سنة 1593م/ 1002هـ، (يشير كل من بن أبي الدينار وحسين خوجة انه تولى الحكم سنة 1599)، وكان ذا حزم وشجاعة إذ قام بنفي العديد من منافسيه، وهذا ماسمح له بالسيطرة على الديوان والانكشارية، واستحدث منصبين هامين هما منصب البايات الذي يختص بالنظر في شؤون القبائل وجباية الضرائب منهم، ومنصب القبطان أي رئيس البحرية بالإيالة، وتم تعيين في منصب البايات "رمضان" أما رئاسة البحر فكانت من نصيب "محمد بن حسين باشا" (الفونصو روسو، 1992، ص106)، وفي عهده وصلت الهجرات الموريسكية إلى إيالة تونس، فكيف سيستقبلها، وهل سيحضر الموريسكيون بمكانة فاعلة في البلاد؟.

ثانيا- الحضور الأندلسي الموريسكي في تونس :

بعد إصدار ملك اسبانيا "فليب الثالث" سنة 1609م ، أصدر الملك الإسباني فيليب الثالث سنة 1609م ، قرار الطرد المتضمن إجماع جميع المسلمين القدامى- الموريسكيون- وهكذا أخذ مئات الآلاف من هؤلاء يخرجون إلى شواطئ شمال إفريقيا، وخاصة المغرب الأقصى والجزائر وتونس، (سليمان مصطفى زيبس 1983، ص12)، قانون محاكم التفتيش، والتي كانت محاولة أخيرة للقضاء على تواجد الموريسكيين الأندلسيين بشكل نهائي في شبه الجزيرة الأيبيرية، بدأت الموجة الثانية من الهجرات نحو شمال إفريقيا؛ وبشكل خاص الايالات العثمانية بحكم قوتها في الحوض الغربي للمتوسط، فبعد ايالة الجزائر كانت ايالة تونس مركز جذب لهم في ظل الظرفية والخصوصية التي استقبلوا بها مقارنة مع ايالة الجزائر (الفونصوروسو، 1992، ص109).

تختلف الدراسات حول عدد الموريسكيين الوافدين على ايالة تونس؛ فمنهم من يرى أن عددهم قرابة ثمانين ألف فيما يرى البعض أن عددهم وصل إلى أربعين ألف، لأن البلاد ليست لديها القدرة على استيعاب عدد أكثر ، وأن أغلب المهجرين من قشتالة ، و ارغون ، و بلنسية بدليل أنها أكثر المناطق تضررا بعد صدور قرار الطرد(أحمد الحمروني، 1998، ص34) ، كما يرى أن أكثرهم من النساء ، وقليل منهم من يحسن التكلم باللغة العربية ، ويلبسون الزي الأوربي، ومعهم عدد كبير من اليهود(سليمان مصطفى زيبس 1983، ص12)، وكان هذا في عهد "عثمان داي" الذي استقبلهم، وحث أهل البلاد على إكرامهم(أحمد بن أبي الضياف، 2004، ص30).

إن السلطة العثمانية الممثلة في شخص الداوي، قدمت امتيازات كبيرة للموريسكيين، على حساب الأهالي. فما هي خلفيات الداوي في إحداث هذا التقارب؟ وهنا يجد الباحث عدّة تخمينات، لعل من أبرزها أن الداوي "عثمان" انفرد بالسلطة في الأيالة بعدما كانت البلاد خاضعة للحكم الجماعي للدايات(تداول الدايات لمدة ربع قرن وهم "عثمان داي" من (1598- 1610)، و"يوسف داي" من (1610- 1637)، و"اسطا مراد" من (1637- 1640)، و"أحمد خوجة" من (1640- 1647)م،(محمد الهادي شريف، 1993، ص 64، 65). مما جعله يبحث عن سند محلي أو شرعية تدّعم سلطته في البلاد. أما الفكرة الثانية، فهي تقوم على أساس شعور طائفة الأتراك العثمانيون، والموريسكيون بعدم الانتماء.

نظرا لبعدهم عن وطنهم الأصلي، مما جعل الداوي يعمل على إحداث هذا التقارب، أما الطرح الثالث فيتمثل في الإمكانيات المادية والتقنية التي جاء بها الموريسكيون عندها حاولت السلطة العثمانية احتوائهم للاستفادة من أموالهم على اعتبار أن أغلبهم أثرياء، بالإضافة الى الاستفادة من التقنيات البحرية التي يكتسبونها، لتعزيز نشاط الجهاد البحري ونشاط القرصنة بالبلاد التونسية، والذي أصبح يمثل الدخل الرئيسي للخزينة على الأقل النصف في الأول من القرن السابع عشر ميلادي .

ثالثا- الحضور السياسي للموريسكيين:

في بداية القرن السابع عشر وفد إلى تونس عشرات الآلاف من الأندلسيين المطرودين من اسبانيا ، مما أدى إلى ازدياد عدد سكان تونس ، وقد لعبوا دورا هاما في الحياة التونسية نظرا لمزاياهم والمكانة التي استطاعوا أن يحتلوها ، فقد تميزوا

بلغتهم وزيمهم وعادتهم فتم تنظيمهم في طائفة خاصة ، ، إضافة إلى الاستقلالية التي بدا يتمتع بها الأندلسيين داخل البلاد مما جعل بعض المراديين وخاصة "حمودة باشا المرادي يحاولون التخلص من تزايد نفوذهم كما سنعرضه لاحقا(أحمد عبد السلام ، تونس 1993، ص 32) .

استطاع الأندلسيون الحفاظ على شبه استقلال داخلي في القرى التي شيّدوها في البلاد التونسية، وخاصة مدينة تستور وسليمان¹ ، حيث تم تنظيم السلطة وفق الطابع الإسباني فنجد "القوبرنادور" "Gobernador" بمعنى الحاكم بالاسبانية، و"القوازيل" "Alguacil/ Agozzino" أي الوزير ، بالإضافة إلى ذلك كان لهم شيخ الأندلسيين، المعروف باسم "Maggior". وفي أغلب القرى الأندلسية، نجد أن شيخ الأندلسيين هو نفسه شيخ البلد(مدينة تقع شرق مدينة تونس على الشاطئ وتعتبر من أهم المراكز التي أنشأها الموريسكيون سنة 1609م في الوطن القبلي، وكان بالمنطقة برج أبي سليمان، فحذفوا الموريسكيين الكنية من الاسم ، وقد تم اختيار هذا الموقع لحراسة الشواطئ، وقد عرفت البلدة استقرارا خلال القرن السابع عشر حتى قارب عدد سكانها العشرة آلاف نسمة ف أوائل القرن الثامن عشر)،(أحمد الحمروني، المرجع السابق، ص 42)، أو الخليفة أو القاضي واستمر هذا الوضع إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر، أما بالنسبة الأندلسيين الذين وفدوا على مدينة تونس فقد تم اختيار أفراد منهم لتمثيلهم لدى السلطة فيما يخص تسير شؤونهم وعملية استقرارهم(سعيد التايب، 1990، ص 79).

اختار منهم "عثمان داي" شيخا لهم لتحديد مناطق توطينهم، مثل "علي كاطالينة" و"محمد قرمطو" و"القسطلي" الذين اختاروا موقع زغوان لتوطين الجالية الموريسكية سنة 1610م، و"لويس ثاباطه دي قرضناس" "Luis zapata de cardenas" وخلفه أحد أقربائه "مصطفى قرضناس" ، في عهد "يوسف داي" من سنة 1622م إلى سنة 1653م ، الذي حقق نفوذا قويا بفضل علاقته مع "يوسف داي" ، مستفيدا من منصبه كشيخ للموريسكيين، إضافة لتعاطيه للتجارة، وما ساعده في ذلك ثراء لوالده " انييقو دي قرضناس" المعروف باسم "عبد العزيز" الذي كان مكلفا بالمالية في عهد "فليب الثاني" ، وعندما صدر قرار الطرد حول أمواله إلى فرنسا، وهذا ما ساعد ابنه "مصطفى" في ممارسة التجارة، فإلتف حوله الموريسكيون داخل مدينة تونس وأصبح لهم مكانة كبيرة)،(أحمد الحمروني، 1990، ص ص 79، 80) واستمرت خطة شيخ الموريسكيين في أيلة تونس ، ولم يبلغ أحدهم المكانة التي وصل إليها "مصطفى دي قرضناس"(وهو بن "انييقو" "Inigo" المعروف باسم "عبد العزيز" وقد كان مكلفا بالشؤون المالية لدى الملك "فليب الثاني" ثم سفيرا له بالبندقية، وكان "عبد العزيز" صاحب مال وثروة، ولما علم وقائع الطرد حول أمواله إلى فرنسا)(سعيد التايب، 1990، ص 80) بتونس، باستثناء البعض منهم، ولكن بدرجة أقل "سيدي أحمد الشريف" في أواخر القرن السابع عشر من عائلة الحداد الثرية بصناعة الشاشية، وخلال القرن الثامن عشر نجد ابنه "سيدي بن أحمد بن محمد" ، و"الحاج حسونة" من نفس العائلة، يتولون هذه الخطة(أحمد الحمروني، 1990، ص ص 80، 81) ، وباستثناء بعض الشخصيات التي تولت مشيخة الموريسكيين، فإن غياب البقية كان واضحا في المؤسسات السياسية خاصة خلال القرن الثامن عشر، وهنا نتساءل: هل كان غيابها كان بسبب البحث عن شرعية تواجهها أكثر من سعيها للتحالف مع السلطة؟

رابعاً- موقف الأهالي من التواجد الموريسكي:

تعرض الموريسكيون في بداية حضورهم للاحتقار والتشكيك من قبل التونسيين، وقد يعود سبب هذا الحقد إلى الامتيازات التي حصلوا عليها من طرف السلطة، فكان رد الموريسكيين بالتفاخر بالنسب الشريف، وكانوا يتفاخرون بذلك كونهم تركوا أموالهم وأملاكهم من أجل دينهم، فأول ما بادروا إليه تغيير أسمائهم الأعجمية التي فرضت عليهم إلى أسماء عربية ارتبطت بالأنبياء والصحابة، وأضيف لها كنيات نسبة للبلد الذي جاؤوا منه، وهنا يتبن موقف الاهالي التونسيين من هذا التفاخر الذي طبع على الموريسكيين فكيف كان ذلك؟

ارجع سبب هذا الحقد إلى الامتيازات التي حصلوا عليها من طرف "الداي عثمان"، فكان رد الموريسكيين بالتفاخر بالنسب الشريف، وكان هذا في ظل وصايا "عثمان داي" و"ابو الغيث القشاش" للتونسيين بالتسامح مع المهجرين الذين ضربوا في معتقداتهم الدينية وادخل عليها تعليمات وعادات مأخوذة عن المسيحيين، فوجدوا أنفسهم أمام صعوبة إقناع إخوانهم في الدين بأنهم مسلمون صادقون وليسوا مسيحيين بمظهر اسلامي، وهذا لا يعني أنهم كانوا جميعا قادرين على ممارسة الشعائر الإسلامية، في بادئ الأمر، لكنهم سرعان ما تعلموا الصلاة وحفظوا القرآن وخرجوا لأداء فريضة الحج. ومن مظاهر تأكيد الموريسكيين لإسلامهم عادة الاحتفال ب"الدردك" ليلة 27 رمضان وهي تمثيل مسرحي يتضمن الهجوم على الجامع الكبير، وبقيت هذه العادة خاصة في تستور إلى غاية منتصف القرن 18م (أحمد الحمروني، 1990، ص ص 80، 81).

خامساً- العلاقة بين السلطة والموريسكيين ؛ الحضور والتراجع:

حدث تطور في العلاقة بين الموريسكيين والسلطة، فبعدما ساهم "عثمان داي" في استقرارهم بالأيالة بعد قرار الطرد 1609م، حيث خصص لهم السفن لنقلهم إلى تونس، ومكّتهم من السلاح للاحتماء من البدو، ومنحهم الحبوب للزراعة، واسقط عليهم الضرائب لمدة ثلاث سنوات، ورفع عنهم سلطة القيادة، حتى يستعين بهم، نجد أن "يوسف داي" قلص من امتيازاتهم وطالبهم بالعشر في الناتج من نشاطهم (سعيد التايب، 1990، ص 81)، لكن تعرض هؤلاء الموريسكيين إلى الظلم من طرف القيادة الذين كانوا يكونون لهم الحسد؛ باعتبارهم محظوظين لثرائهم ولا يخضعون لسلطتهم، و كلما تضاعفت مداخيل الموريسكيين تضاعفت عليهم الضرائب، مما أدى إلى هجرة أندلسيو بلدة خروفة (سبب الهجرة قلة عددهم والصراع القائم بين السلطة وأهالي خروفة وهي مدينة قريبة من تستور، (أحمد الحمروني، 1990، ص 35)، إلى بلدة بلدة تستور (تقع على اطلال تيشيلا "Tichilla" التي لم يبق منها سوى آثار السور والطاحونة، أسس الأندلسيون تستور سنة 1609م، وكانوا يتكلمون الاسبانية لقرابة القرن والنصف) (سعيد التايب، 1990، ص 81)، دون أن يمر وقت طويلا على استقرارهم بها، ورغم ذلك بقيت هذه الطائفة تتعرض لمضايقات القيادة وجباة الضرائب (سعيد التايب، 1990، ص 81).

تقلص نفوذهم طيلة العهد الحسيبي، بسبب توافد الوستالين على مناطق الموريسكيين بعد عملية إخلاء جبل وولات من السكان سنة 1762م، من طرف "علي باي" (سعيد التايب، 1990، ص 81)، وبقي السلوك السياسي للموريسكيين منحصرًا في بعض الشخصيات التي اعتمد عليها بعض البايات خلال القرن الثامن عشر، و منهم "محمود

السريري" (وتميز بالغنى يملك العديد من العبيد بنى مدرسة وزاوية بجانب داره، وأنفق عليها عدة احباس، ولعب دورا في انجاز مستشفى توفي في 26 اوت 1726م)، (الصغير بن يوسف، 1998، ص ص71،73)، إذ كان من أهم الشخصيات ذات الأصل الأندلسي التي حصلت على منصب هام في عهد "حسين بن علي"، و له حنكة كبيرة في إدارة سياسة البلاد، وكان الباي يستشيريه في أمور البلاد، وأدى دور الوساطة بين المسيحيين الأسبان من جهة الباي، وبرزت شخصية أندلسية أخرى لعبت دورا كبير تمثلت في: الشريف القسطلبي" حيث قام بوساطة فعالة بين الباي والفرنسيين الذين أرسلوا بواخريهم إلى موانئ تونس، وحلق الوادي سنة 1728م، وكانت له وساطات في عدة مسائل داخلية(نور الدين الحلاوي، 1980، ص ص 138، 139) .

تعرض هؤلاء الأشخاص بصفة خاصة وعموم الموريسكيين الأثرياء إلى مصادرة أملاكهم من طرف البايات، سواء نتيجة ظروف الفتنة، والاستفادة من أموالهم لتغذية الصراع القائم على السلطة، كما حدث في الفتنة الباشية، أو للتقليل من النزعة الاستقلالية في المجتمع الموريسكي وعليه، فإن الحضور السياسي للموريسكيين كان ضعيف، إن لم نقل كان شبه منعدم، نظرا لتطلعهم الدائم للعودة إلى بلدهم، إضافة إلى الخصوصية التي تميز بها الموريسكيون، والتي حاولوا فرضها على الأهالي بمعنى أنهم لم يندمجوا في المجتمع، إذا استثنينا اهتمامهم بالجانب الاقتصادي، وما انجر عنه من معاملات تجارية مع الأهالي خاصة في مدينة تونس. فكيف كان حضورهم الاقتصادي؟

سادسا- الدور الاقتصادي للموريسكيين بايالة تونس:

1- النشاط الحرفي:

تمثل نسبة الحرفيون الموريسكيون في البلاد التونسية ب 18%، ويحتلون المرتبة الثانية بعد الحرفيون الحضر ، وقد احتلوا مكانة داخل مجتمع مدينة تونس بفضل الحرف التي ينشطون بها ، كما مثلوا رافدا هاما للحضارة المحلة، وخاصة الأندلسيون، الذين امتهنوا حرفة الشواشية، والحرايرية، والسراجين، والعطارين، ثم حرف ذات أهمية مثل البرانسية والبلاغجية ، أما اقل الحرف مكانة مثل الفحم والخباز(كريم بن يدر 2007، ص 76) ، وقد تواجد الحرفيون ذوي الأصول الأندلسية، والتركية في القطاعات التي توفر منتوجات موجهة للطبقة الغنية بالحاضرة مثل السروج، والعطور والمنتوجات الحريرية، والأسلحة النارية التي برع فيها الأتراك، كما برع الأندلسيون في صناعة الحرير مثل عائلة "شكلابو" وعائلة "كارتال" في حرفة التسفير الفني للكتب، (حسام الدين شاشية 2009، ص 4).

والجدير بالذكر بأن الموريسكيين ساهموا في إدخال تقنيات في المجال الاقتصادي وخاصة في صناعة الشاشية، وكان انداجهم في المجتمع بصورة تدريجية وهذا بفضل الكفاءة، نظرا لتطلعهم على تقاليد البلاط الأندلسي ولاسيما مؤسساته كمؤسسة الكتابة والحجابه والوزارة . بالإضافة إلى هذا نجد أن عدد كبير من الموريسكيين كانوا من الأثرياء حيث ساهموا في تنشيط الاقتصاد التونسي مستغلين النقص الديمغرافي، الذي عانت منه الأيالة في القرن السابع عشر ميلادي(المهدي جراد 2011، ص 64). وقد تمركز أغلبهم حول مدينة تونس ضمن مدار لا يتجاوز 60 كلم(عبد الحميد هنية، 2012، ص 21).

2-صناعة الشاشية:

انتشرت هذه الصناعة خارج سوق الشواشية مثل سوق البركة ، والسوق الحفصي المطل على نهج القصبه -يقع شمال الجامع المرادي-، وهذا الانتشار يؤكد ازدهار هذه الصناعة(احمد قاسم1994، ص 279) ، وقد ساهم الموريسكيون في النهوض بصناعة الشاشية خاصة في تونس و طبرية و زغوان ، وانتفعوا بها ودعموا اقتصاد البلاد بتصديرها باتجاه اسطنبول ومصر والمغرب، وإلى إفريقيا رغم المنافسة التي فرضت عليهم من طرف فرنسا وإيطاليا إضافة إلى هذا فقد فتحت هذه الصناعة أبواب الشغل أمامهم، وكانت تجارة الشاشية مربحة بالنسبة للأندلسيين ؛ إضافة إلى المتاجرة بالزيتون ولعل أبرزهم "مصطفى قرضناس" الذي زرع بضيعته ثلاثين ألف زيتونة ومعها أشجار اللوز لاستخراج زيتها ، و"الشريف القسطلي" ، الذي ساهم أيضا في بعث نشاط قطاع الشاشية إذ توجد عدة معامل لصنع الشاشية بالباطان تحت تصرفه أو ملكه، وبالتالي ارتباطه بأصحاب المال والتجارة ساهم في ارتباطه برجال السلطة (E, Rouard de card1906, p p 169, 171).

3-صناعة الحرير:

انتشرت هذه الصناعة مثل فندق الدولاتي، الذي خصص لصناعة الحرير، وأصبح يعرف باسم فندق الحرير وهناك فندق قرب سيدي محرز اشتهر بالصناعة ذاتها، وعرف بزققة نساجة الحرير وبسوق الفلقة أيضا، وورد سوق النواورية المقصود بالنوارة ما يعرف بالكبيطة، وهي مجموع خيوط حريرية تلصق بالشاشية من أعلى(احمد قاسم1994، ص 279، 280) ، وتم لهذا الغرض بترية دودة القز في أشجار التوت لاستخراج الحرير وتصنيعه في ملابس، وأغطية وذلك بالحرارية و زغوان و منوبة و تستور .

4-صناعة العطر: كانوا يقطرون الأزهار خاصة النارج وزهرة العطر شاه وذلك في كل القرى الأندلسية (أحمد الحمروني،1990ص ص 105-109).

5- صناعة الحلي: تختص صناعة الحلي بالمجوهرات الذهبية والفضية، فالذهبية عرف بها حرفيو المدن حيث يتوفر تبر الذهب المجلوب من السودان، أو البلاد الأوربية، وقد اشتهرت بها العائلات الحضرية الأندلسية، أما في الأرياف نجد صناعة الحلي الفضية، ومن أهم مصنوعاتها الأحزمة المرصعة والأساور المنقوشة والخلاخل والأقراط ذات الشكل الهلالي(نصر الدين سعيدوني 2010، ص 37)

سابعاً- النشاط التجاري:

لقد تعاطى الموريسكيين النشاط التجاري وحققوا أرباحا كبيرة منه، جعلهم يلعبون دورا في تنشيط مبادلات الأيالة كما كانت اهتماماتهم تصب نحو تثبيت وجودهم بالايالة، ولم يكن مشروع التحالف مع السلطة هدفا لهم فشكّلوا بذلك برجوازية تجارية بمعزل عن السياسة(المهدي جراد، 2011، ص ص 64، 65) ، وسعوا للحفاظ على استقلالهم الداخلي مفضلين الحرية على الثروة، كما مارس أغلب الأندلسيون التجارة وتوارث عدد منهم أمانة صناعة الشاشية، وهذا ما

أدى إلى تولي البعض منهم العضوية بمجلس التجار بل ورئاسته ، وأبرزهم عائلة "الوزير" وعائلة "العروسي" ، ومن العائلة الأولى "محمود الوزير" و"محمد الوزير" الذي ارتقى إلى عضوية المجلس الكبير ، ومن العائلة الثانية "محمد العروسي" خليفة أبيه وجده في أمانة صناعة الشاشية ثم أصبح عضوا بمجلس التجارة (أحمد الحمروني، ص 36-109).

وساهم أعيان الموريسكيين في تجارة البلاد الخارجية خلال النصف الأول من القرن 17م ، وخاصة لويس ثباتا، ومصطفى داي كردناس، اللذين كانا يتاجران في العديد من السلع كالتوابل والصابون و تجارة العبيد(حسام الدين شاشية، 2016، ص142)، ومن أبرز أسواق الموريسكيين نجد سوق الشواشي، حيث يعتبر من أهم أسواق مدينة تونس، نظرا للرواج الذي عرفته هذه الصناعة، حيث يجلب إليه التجار المحليين والأجانب، كما برز فيه دور الأندلسيين بشكل كبير نظرا لنشاطهم وتميزهم بحس مدني وتقاليد حضارية عريقة فنشطوا هذه التجارة(مصطفى التواتي 2002، ص 11) ، كما ساهمت السلطة في تنظيم هذا السوق عن طريق تعيين مراقبين له، ليشهد السوق اتساعا في عهد "حمودة باشا"، حيث قام بإنشاء سوقين السوق الصغير، و الكبير، و كان الشواشين أهم الجماعات التي تمارس نشاطا تجاريا مربحا، وكانت حكرا على مدينة تونس(حفيظة بوتوقوماس، 2011، ص 107) ، إن هذا التميز الذي حظيت به مدينة تونس ساهم في ارتفاع متعاطي صناعة وتجارة الشاشية، واحتلالهم مرتبة مهمة ضمن تراتبية المجتمع الحضري.

1- تعاطي الموريسكيون لتجارة الأسرى:

تمثل نشاط مهم بالنسبة لأعيان الموريسكيين، ويعتبر كل من محمود السرايري والشريف القسطلبي، كمجهزين للسفن التي تخرج للقرصنة، وهذا ما يبرر تجارتها للأسرى(حسام الدين شاشية، 2016، ص142) ، وقد ساهم الموريسكيون في المدن الساحلية في صناعة المراكب والتدريب على استعمال المدفعية، وتعاطى بعضهم نشاط القرصنة إلى جانب الداي "عثمان"، ومن هم صاحب تأليف كتاب "العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" وهو "إبراهيم احمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي" الشهير "بالمرباش" ، كما عرض "مصطفى قرظناس" على "يوسف داي" بتزويده بعدد كبير من الأندلسيين منهم المسلحين لحماية حلق الوادي من الأسطول الجزائري سنة 1628م، ثم سعى ضمن لجنة الصلح لرسم الحدود بين الايالتين ، كما كان "مصطفى قرظناس" من الذين يتاجرون في الأسرى وكان بقصره بقرنالية أكثر من ثلاثمائة من الأسرى المسحيين والسودانيين، وتم تحريرهم بواسطة من الراهب "خيماناث" (أحمد الحمروني، 1990، ص ص 108-109) .

لذا تعتبر تجارة العبيد الأسرى ابرز نشاط قام به الموريسكيون خلال القرن 17م ، لما حققه لهم من أرباح وأهداف تمثلت في التبادل بين الأسرى المسيحيين بالأسرى الموريسكيين ، وساهم اليهود بجانب كبير في هذا النشاط ، وبالإضافة إلى شخصية "مصطفى قرظناس" نجد شخصيات أخرى ساهمت في تجارة العبيد مثل "أحمد قايا" سنة (1621م)، و"حسن فارا" (1652م)، و"اسطى محمد بن عبد الله" (1657م)، و"محمد مانشو" (1653م)، ومن الأمثلة على هذه التجارة نجد أن "الحاج محمد التابعي" دفع مالا لتحرير ثلاثة موريسكيين، وامرأة وابنتها وقعوا في أسر المالطيين سنة 1628م، وفي سنة 1648م اشترى "سيدي محمد الأندلسي" الأسير الاسباني "خوان طرابلة" ليحرر به "محمد كندون" من مالكة "خوان

طرابلة" الابن في صقلية ، باع "سليمان لوبر" أحد عبيده لتحرير "محمد منوبة الأندلسي" بفرنسا سنة 1660م، وقد برزت شخصية "علي الصوردو كالأفاتينو" من أكبر التجار في الأسرى ، وحرر العديد منهم وهذا ما أعطاه مكانة الولي الصالح بتونس إضافة إلى انه كان ممثل لحكومة جنوة بطبرقة في جميع عمليات تجارة الأسرى ، وهذا بعد وقوعه في الأسر رفقة "رجب الأندلسي" و"لويس ثباطة" (أحمد الحمروني، 1990، ص ص109-111).

ثامنا- ممارسة الموريسكيون للفلاحة:

امتلكت عائلات البايات، وعائلات وزرائهم المتتاليين خلال القرن الثامن عشر، عدة هناشر ببلاد ماطر، وباجة، وكانوا يقومون بكرائهم لعائلات محلية تمارس الفلاحة، أو بعض العائلات الأندلسية مثل عائلة "بالمة"، و عائلة "ختاش"، و عائلة "القسطلي"، الذين يمارسون الفلاحة (محمد الحبيب العزيزي، 2007، ص 406) ، وقامت السلطة بتوجيه الأندلسيين في المناطق الزراعية بالوطن القبلي وفي واد مجردة لكسب المناطق على حساب القبائل (حسام الدين شاشية، 2016، ص 141) ، كما احدث الأندلسيون منذ قدومهم في بداية القرن السابع عشر تغيرا طفيفا في الارياف وخاصة القريبة من مدينة تونس أما البعيدة عن المدينة لم يكن حضورهم وتفاعلهم كبير باستثناء المهديّة، ويتمثل هذا التغير في نمو عدد المزارعين ، وانتشار طرق الري إلى أراضي جديدة ، وجلب صناعات ووسائل نقل جديدة مثل الكريطة ، فكان حضورهم عامل تطور وإثراء للبلاد (احمد عبد السلام ، 1993، ص ص 49، 50).

مارس أندلسيو طبرية الفلاحة، فجددوا غابات الزيتون بأنواع جديدة جلبوها معهم، وهي بيض الحمام، البسباسي الرجو، الشتوي ، المرسلينية، بالإضافة إلى غرس أشجار التين والتوت لتربية دودة الحرير، إضافة إلى الخضر والبقول كالبطاطا(ألفونصو روسو، 1992، ص 110) ، ويشير هنا صاحب الإتحاف أن أغلب الفلاحين في تونس هم من المهاجرين الأندلسيين، الذين جلبوا محاصيل جديدة للبلاد، وطرق ووسائل الزراعة(أحمد بن أبي الضياف، ج2004، ص 3، ص 102) إضافة إلى ذلك قاموا بغراسة الورد وخاصة أشجار النارج والياسمين والفل وسط منازلهم ، و لعبت المرأة الأندلسية دورا كبيرا في الحفاظ على الطابع الأندلسي بما تعده من مفروشات، وملابس وأطعمة وحلويات وإعداد العولة من الكسكسي ، والمحمصة و مصبرات الموالج والتوابل والفلفل الأحمر وشرائح الطماطم ومعجون السفرجل والرمان والمشمش ، وخدمة الصوف والنسيج والتطريز، ومن أبرز الإضافات التي قدمها الموريسكيون في تستور الفلاحة السقوية التي تعتمد على تقنية الري بما فيها الناعورة ، مما انعكس بالإيجاب بتوفير المحاصيل كالأشجار المثمرة، (أحمد الحمروني، 1990، ص 85)

تاسعا- المدن الموريسكية في البلاد التونسية :

اختار الموريسكيون في تونس الأراضي فبنوا بالعاصمة حومة الأندلس وجامعها، وخصصت لهم أوقافا كثيرة ، ساهموا في بناء المدرسة الأندلسية قرب ضريح "سيدي يونس" سنة (1023هـ /1624م)، وكان أول مدرس بها هو الشيخ "شعبان الأندلسي" أحد أعيان علمائها(أحمد بن أبي الضياف، ج2004، ص 3، ص 30) ، وقد استوطنوا عدة أماكن بالبلاد ، ومنها بلدة سليمان، وبلي، وقرنبالية، وتركي والجديدة ، وزغوان وطبرية ومجاز الباب والسلوقية و تستور أريانة وسكرة و

قرطاج و منوبة وباردو و رادس والمحمدية و حمام الأنف، ورفراف و ماتلين، و غار الملح هذه الأخيرة ساهموا في أعمار ميناها خاصة في عهد "اسطى مراد" (1640/1637)، و حاولت بعض العائلات الاستقرار بخروفة قرب تستور؛ لكن لم تستقر بسبب قلة عددهم والصراع القائم بين السلطة وأهالي خروفة، ولعل أبرز المدن التي عمروها واثروا فيها نجد:

1- **تستور:** تقع على اطلال تيشيلا "Tichilla" التي لم يبق منها سوى اثار السور والطاحونة، أسس الأندلسيون تستور سنة 1609م، وكانوا يتكلمون الاسبانية لقراة القرن والنصف، وشهدت تستور تطورا عمرانيا يعكس حضارة الأندلسيين فيها، من خلال إحيائها كحي الرحبية، وحي التغيرين والحارة، ونظموا الشوارع و سطحو المنازل بالقرميد المحلي، وانشاء كران للدواب.

2- **السلوقية:** تقع غرب مدينة تونس في سهل مجردة على أطلال كيديبيا الرومانية، استقر بها الموريسكيون القادمون من كاتالونيا الاسبانية سنة 1609م، وقد اشتهرت بانتشار الطرق الصوفية والزوايا مثل زاوية "سيدي عبد القادر الجيلاني" مقر الطريقة القادرية، وزاوية "سيدي بن عثمان المغربي"، وزاوية "سيدي خويلي الجريدي"، وتميزت المدينة بالطابع الأندلسي في الفلاحة السقوية والصناعات التقليدية كالزبي الاسباني واللهاجة البلنسية، وهذا من اجل الحفاظ على خصوصيتهم، كما قام الموريسكيون بها بإنشاء صندوق الضعفاء لإعانة العوانس اللاتي رفض أولياؤهن تزويجهن لغير الأندلسيين.

3- **قريش الواد:** قرية تقع شمالي مجاز الباب على وادي مجردة أسسها الموريسكيون الكاتالونيين، وتضم خمسين منزلا على الطراز الاسباني والمعلومات حولها قليلة.

4- **طبرية:** تقع على وادي مجردة أسسها الأندلسيون سنة 1609م، تتميز بشوارعها المستقيمة تتوسطها ساحة السوق والجامع الكبير و يليه مسجد اليعكوري.

5- **أريانة:** في الناحية الغربية لمدينة تونس قطنتها بعض العائلات الأندلسية، فكانت سببا في شهرة البلدة بالورود الاندلسية التي يستخرج منها ماء الورد إضافة إلى ممارسة الفلاحة وإنشاء الناعورات.

6- **سليمان:** تقع شرق مدينة تونس على الشاطئ وتعتبر من أهم المراكز التي أنشأها الموريسكيون سنة 1609م في الوطن القبلي، وكان بالمنطقة برج أبي سليمان، فحفنوا الموريسكيون الكنية من الاسم.

7 - **زغوان:** (زيكا الرومانية): تقع جنوب مدينة تونس على ربوة متصلة بالجبل تنبع منه عدة عيون، تم اختيارها لاستقرار الأندلسيون سنة 1609م، وهذا ما أدى إلى إنشاء طواحين لغسل الشاشية في طريق العيون وأخرى هوائية لاستخراج مياه الآبار وري الزراعات الجديدة كالبرقوق المعروف بالشاشي وحب الملوك والياسمين والزيتون(أحمد الحمروني، 1990، ص 36، 40).

عاشرا- الواقع الثقافي للموريسكيين:

رغم الاضطهاد الذي تعرض له الأندلسيون في اسبانيا إلا أن بعضهم تلقى تعليما إسلاميا قويا ، ومنهم من قدم إلى تونس وهو في سن الشباب فحصل على التعليم الإسلامي وشارك به في النشاط الثقافي و خاصة في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ومن أمثال هؤلاء نجد "الهرميلى الأندلسي" و " أحمد الشريف الأندلسي" وإبراهيم الأندلسي السرقسطي" (حسين خوجة ، د.ت.، ص ص29-94).

لم تكن الهجرة الأندلسية الأخيرة هجرة علماء كما كانت الهجرات السابقة، فقد غلب على الأندلسيين المهجرين الطابع الفلاحي والتجاري والصناعي ، وهذا لا يعني أن هؤلاء لم يهتموا بالحياة الفكرية ، فنجد منهم من أولى اهتماما بالعلوم الدينية ، فكانوا يكتبون بالاسبانية، وخاصة القشتالية وهذا ما أوجد مترجمين منهم ، وبعد مرور قرن من تواجدهم بالايالة تمكن أحفادهم من إتقان اللغة العربية والكتابة بها(أحمد الحمروني،1990، ص 112).

وقد تمثل إنتاجهم الفكري في بداياته بشروح شعائر الإسلام، حسب المذهبين المالكي والحنفي، و تقديم موقفهم المعارض للنصارى واليهود في إطار مجادلات ، كما اهتموا بسير الأنبياء والصلحاء والأئمة ، إضافة إلى أشعارهم حول هجراتهم في منى الحكايات(كقصيدة "خوان الفونصو الارقوني" "Juan Alfonso Aragones" اضافة الى التاليف في العقائد مثل الكاتب والشاعر " ابراهيم التيبلي" (المولود في طليطلة والمعروف بخوان بيريث) الذي نظم ببلدة تستور في الثلث الاول من القرن 17م قصيدة من 4608 بيت.) (أحمد عبد السلام، 1993، ص 112) ، إضافة إلى الكاتب "احمد بن قاسم الحجري" (اتخذه ملك المغرب مولاي زيدان مترجما) وألف بتونس ما بين سنتي 1635 /1639م كتاب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم الموسوم بـ "Cronica da la esclarecid descendencia xarifa" كما ترجم كتاب "الشفاء" للقاضي عياض، وينسب إليه تأليف كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين" ، وساهم في الترجمة من الاسبانية والمها لتعليم الموريسكيين دينهم(أحمد الحمروني، 1990، ص 116) .

كما برز الفقيه " احمد بن محمد بن عبد العزيز الشريف القرشي" الحنفي- هاجر صغيرا إلى البصرة درس بها الفقه وعاد إلى تونس سنة 1620- ليدرس الفقه الحنفي بالمدرسة السليمانية ، وتولى الإفتاء والخطابة بجامع "يوسف داي" ما بين (1635 /1638م) ، لكنه اضطر إلى الاستقالة والتوجه نحو حياة الزهد إلى غاية وفاته سنة 1650م ، وقد اشترك مع "إبراهيم التيبلي" في تأليف مخطوط يهدف إلى تنبيه الموريسكيين من العقائد المسيحية المخالفة للإسلام لاجتنابها ، وله عدة مؤلفات بالاسبانية والعربية أشهرها " هدية المهديين في تكفير جاهل صفة الإيمان" ، كما برز الشاعر "الحاج محمد الروبيو الارقوني" وهو من أثرياء مدينة تونس، كان ينفق على ترجمة الكتب الدينية من العربية إلى الاسبانية له وللموريسكيين وشارك " احمد الحجري" في تأليف كتابه السابق الذكر، ومن ذلك أيضا نجد "محمد بن عبد الكريم بن علي بيريث" بتونس ما بين (1610 /1624م) الذي بنى المدرسة الأندلسية ، و"إبراهيم احمد بن غانم الرياش) الذي ألف بالاسبانية كتاب "العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" وعربه "احمد بن قاسم الحجري" سنة 1639م ، و"محمد بن عبد الرفيع" مؤلف الأنوار النبوية في أباء خير البرية" حوالي سنة 1611م.(أحمد الحمروني، 1990، ص 116).

ومن أبرز علمائهم، في عهد المراديين نجد "أبو الربيع سليمان الأندلسي"، الذي خلف الشيخ "شعبان الأندلسي" في التدريس بنفس المدرسة، و"علي بن علي الكوندي الأندلسي التستوري" (ت 1119هـ / 1708م)، و"الوزير السراج" (ت 1149هـ / 1736م)، بالإضافة إلى مجموعة من الأدباء، والعلماء، والصوفية الأندلسيين منهم "محمد الحجيج" صاحب مؤلفات في العلوم النقلية والعقلية، و"محمد القلشاني" و"منصور النشار" وغيرهم (أحمد الحمروني، 1990، ص 116).

1- هجرة العلماء الأندلسيون من الجزائر والمغرب الى تونس:

بنى الأندلسيون بحومتهم جامعا لهم ومدرسة عرفت بالأندلسية، وأطلق عليها أيضا مدرسة سيدي شعبان (نسبت إليه لأنه أول من درس بها)، وكان من أعيان علماء الأندلسيين (كتاب أحمد الطويلي، 2002، ص ص 265، 266)، وقد انتقلت إلى تونس أسر أندلسية أخرى بعد أن أقامت في بلدان شمال إفريقيا وخاصة من المغرب الأقصى مثل عائلة "بن عاشور" التي نجد بها عدد من الفقهاء (انتقل جدهم محمد بن عاشور من مدينة سلا بالمغرب إلى تونس في أواسط القرن السابع عشر، وكان رجلا تقيا ورعا)، إضافة إلى "أبا عبد الله بن محمد السوسي" و"محمد بن عبد الله المغربي الفاسي"، ومن الجزائر انتقل إلى تونس الفقيه "الشيخ عثمان الاراسي" والشيخ "محمد براو" من زاوة، ومن الجهة الأخرى انتقل علماء تونس خلال هذه الفترة الى الجزائر مثل الشيخ "محمد قدورة"، إضافة إلى الطلبة الذين توجهوا إلى أماكن مختلفة لطلب العلم من علماء الأزهر أو علماء المدينة بمناسبة الحج، ومنهم من استوطن مصر والحجاز، غير أن أغلبهم رجعوا إلى تونس محملين بإجازات (أحمد عبد السلام، 1993، ص ص 39، 40).

خاتمة:

وفي آخر هذه الورقة البحثية، يمكن القول:

- ان التواجد الموريسكي في البلاد التونسية خدمته الظرفية التي تمر بها الايالة، والمتمثلة في حالة التنافس التي كانت بين الدايات للانفراد بالحكم في تونس بعد تراجع مكانة الباشا والبلكباشية، وقد استثمر عثمان داي في هذا الحضور الموريسكي لأنه يمنحه السند المحلي، إضافة إلى أنه حاول أن يستثمر في الأموال والقدرات التي يمتلكها الموريسكيين.

- استقبل الموريسكيون استقبالا جيدا مقارنة ببايالة الجزائر، وهذا راجع لحاجة السلطة في تونس لطرف جديد تشترك فيه بنفس الخصوصية وهو الشعور بالغرابة.

- حافظ الموريسكيين على خصوصيتهم في البلاد التونسية نظرا للمكانة التي تمتعوا بها في البلاد التونسية.

- أن صفة الاعتلاء التي ميزت الموريسكيون جعل الأهالي يشككون في دينهم، ورغم ذلك لم يحدث انصهار في المجتمع التونسي.

- بقي الموريسكيون محافظون على خصوصيتهم، في مناطق اقامتهم، ولم يسجل لهم سلوك سياسي؛ باستثناء بعض الشخصيات التي ادرجتها، والتي كانت لها أهداف المتمثلة في الحصول على امتيازات من السلطة لتعاطي نشاط التجارة والقرصنة.

- تم توزيع هؤلاء اللاجئين وبحسب اختصاصاتهم فالفلاحون منهم أعطوا جميع الأراضي التي كانت مهملة فأنشأوا فيها القرى الفلاحية على الطريقة الاسبانية. وفي ضاحية تونس أسسوا مزارع وقرى ومنها أريانة وسكرة ومنوبة وبالقرب منها الحرايرية وفي هذه الأخيرة تعاطى الموريسكيون تربية دودة الحرير وذلك بزراعهم لغروس أشجار التوت على مدى كبير.

لقد مثلت الحرف والتجارة قوة الموريسكيين، حيث أحدثوا انقلابا كليا فعلي يدهم انتشرت صناعة الشاشية، وبها دخلت تونس في عهد رخاء عظيم فأسواق الشاشية أخذت تتعدد وتنتشر و كانوا يشغلون أيضا عناصر أخرى خارج الأسواق ومنها النساء والبنات وذلك للتسدية والصبغ وعملية القالب وخطاطة الكلبوس وغير ذلك من الأشغال التي لها أهلها ينتعشون منها انتعاشا طيبا كما كانت تجارتها نافعة داخل البلاد وفي الخارج إلى الجزائر من ناحية وإلى مصر من ناحية أخرى فلا غرابة بعد هذا أن يكون أمين الشواشية في هذه الديار يعتبر أكبر شخصية في البلاد وأبرزها ضمن مجلس العشرة الكبار الذين كانوا منوبين من لدن أهل القطاعات الاقتصادية المختلفة.

-وزيادة على هذه الميزات فإن الأندلسيين من أصحاب معامل الشاشية وغيرهم قد كانت لهم خصيات تتمثل في أناقة لباسهم وزخرفة ثيابهم بالزخارف الفخمة مع لطف المخاطبة والثروة البالغة وذلك مما كان يزيدهم إقبالا عند الناس.

وفي ناحية الأسواق كان هناك سوق للقوافي الأندلسية التي كانت تستعملها أنيقات النساء، كل ذلك إلى جانب الأسواق التي كان رجال الجالية الأندلسية يتعاطون فيها حياكة الحرير الذي ازدادت كمياته وتضخمت منذ أنشأ أهل الأندلس منطقة الحرايرية بين باردو ومنوبة.

- وقد أصبحت تونس مكتظة بالسكان واختلطت لغة أهلها بلهجات أخرى وأصبح يزاحم العربية لغة الإسبان بما أدخله الصناع- وصناع الشاشية على الوجه الأخص- من كلام وتعابير اسبانية .

- وفي الأخير يمكن القول ان الهجرة الأندلسية الموريسكية بعد قرار الطرد الاسباني كانت هجرات لارياب العمل ولم تكن هجرة علماء لذا كان الحضور الثقافي والفكري قليل مقارنة بالهجرات السابقة.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر باللغة العربية:

1. بن أبي الضياف أحمد ، 2004 ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، 4مج، الدار العربية للكتاب، ج 2، تونس 2004
2. بن يوسف الصغير ، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تح أحمد الطويلي، ط1، 4مج، المطبعة العربية مج2، 1، 4، 3، تونس 1998 ، مج 2
3. خوجة حسين ، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تح الطاهر المعموي، د.ط، الدار العربية للكتاب، د.ت.

المصادر باللغة الأجنبية:

1. E, Rouard de card, 1906, **Traité de la France avec les pays de l'Afrique du nord**, A .Pedone-éditeur, Paris, p p 169.

المراجع العربية:

1. بن يدر كريم، 2007، الحرف والحرفيون بمدينة تونس خلال القرنين 18 و19، مركز النشر الجامعي، تونس
2. التواتي مصطفى، 2002، تونس الناهضة من التجديد إلى التحديث في القرنين 18 و19م، ط1، دار المعرفة تونس .
3. جراد المهدي، 2011، عائلات المخزن بالايالة التونسية خلال العهد الحسيني(1705-1881م)، ب. ط، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس.
4. الحمروني أحمد، 1998، الموريسكيون الأندلسيون في تونس دراسة وبيليوغرافيا، ط1، دار ميديكوم، تونس
5. روسو الفونصو، 1992، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تعريب محمد عبد الكريم الوافي، ط 1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي
6. الطويلي أحمد، 2002، تاريخ مدينة تونس الثقافي والحضاري من الفتح إلى أواخر القرن التاسع عشر، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس .
7. عبد السلام أحمد، 1993، المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19م، تر أحمد عبد السلام و عبد الرزاق الحليوي، ط1، دار بيت الحكمة، تونس
8. مصطفى زيبس سليمان، 1983، مآثر الأندلس في مدينة تونس، بحوث عن الأندلسيين في تونس، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس .
9. الهاي شريف محمد، 1993، ما يجب أن يعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تع محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط3، دار سراس، تونس .
10. هنية عبد الحميد، 2012، تونس العثمانية بناء الدولة والمجال، د.ط، منشورات تهر الزمان، تونس .

المقالات:

1. الحلاوي نور الدين، 1980، وثائق عن الاندلسيين بتونس، في المجلة التاريخية المغربية، ع 17، 18 جانفي .
2. قاسم أحمد، 1994، مدينة تونس في العهد العثماني من خلال الوثائق، في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع 9-10.
3. شاشية حسام الدين، 2009، العائلات الموريسكية في تونس بين الماضي والحاضر، المساهمة والمحافظة، في الندوة الدولية حول الوجود الإسلامي في الأندلس، شفشاون المغرب 28-29-30 أكتوبر .

الدراسات الأكاديمية:

1. بوتوقوماس حفيظة، 2011، الحياة الاجتماعية في تونس خلال العهد الحسيني 1117هـ/1705م-1251هـ/1835م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية - (غ.م).
2. التايب سعيد، 1990، بلاط باردو في عهد حسين بن علي 1705-1735، رسالة ماجستير جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ، سبتمبر. (غ.م).
3. الدين شاشية حسام، د.ت، تونس والجزائر في عيون الاسبان خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر، أعمال ملتقى هجرة الاثار في المتوسط، تنسيق محمد سعد
4. سعيدوني نصر الدين، 2010، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر- تونس طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ميلادي، في ح. أ. ع. إ.، ع 318، قسم التاريخ كلية الأدب، جامعة الكويت .
5. العزيزي محمد الحبيب، 2007، ظاهرة الحكم المتجول في بلاد المغرب العربي الحديث المحلة التونسية أنموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر-، (غ.م).

الموروث الحضاري الأندلسي في الجزائر- اللباس والطعام أنموذجا-

The Andalusian cultural heritage in Algeria - clothing and food as a model-

د.شدري معمر رشيدة/جامعة البويرة-الجزائر

Dr.Chedri Maamar Rachida/University of bouira/Algeria

الملخص: إن الأحداث التي شهدتها الأندلس خاصة بعد سقوط مدينة غرناطة سنة 1492م، وما صاحبها من هجرات أندلسية إلى شمال إفريقيا، هذه الهجرات أثرت بشكل كبير في الوجه العام للمدن التي استقر بها الأندلسيون اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا.

وفي خضم هذه الأحداث وما نتج عنها نالت الجزائر نصيبها من هذا التأثير الأندلسي، خاصة في مجال التقاليد التي حفظوا عليها سواء في الأفراح ونوع اللباس والأكل، حيث نجدهم حافظوا على أذواقهم وفرضوها على غالبية سكان المدن الجزائرية: مثل البليدة، القليعة، شرشال، ومن هذه الألبسة نجد ما هو أندلسي محض وما هو مشرقى لكن نقله الأندلسيون للجزائر مثل؛ البدعية، الصدرية، الغليلة الجابادولي والبنيقة المستعملة في الحمام والصرمة، والمضمة والقبقاب...

الكلمات المفتاحية: الهجرة الأندلسية، الموروث، اللباس، الأندلس،.....

Abstract: The events that Andalusia witnessed, especially after the fall of the city of Granada in the year 1492 AD, and the accompanying Andalusian migrations to North Africa, These migrations greatly affected the public face of the cities in which the Andalusians settled, socially, culturally and economically.

In the midst of these events and what resulted from them, Algeria gained a share of Andalusian influence, Especially in the traditions that they preserved, whether in weddings, type of clothing and food. Where we find that they preserved their tastes and imposed them on the majority of the population of Algerian cities, such as Blida, Klea, Cherrhell, of these clothes.

Keywords: Andalusian immigration, inheritance, dress, Andalusia.

مقدمة:

نتيجة للاضطهاد الذي تعرض له الأندلسيون، خاصة بعد إصدار قرارات الطرد التي خيبرتهم بين اعتناق المسيحية أو الهجرة اشتدت الهجرات الأندلسية إلى بلدان المغرب الإسلامي، منها الجزائر التي شكلت مركزا هاما للهجرة الأندلسية، أين عرفت المدن التي استقروا بها تطورا حضاريا شمل جميع المجالات، خاصة فيما يتعلق بالتقاليد والعادات في الأكل والملبس، التي تم إدخالها إلى الجزائر سواء كانت ذات أصل أندلسي أو مشرق. أين فرضوا أذواقهم على أغلب السكان المحليين.

وانطلاقا من هذا سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية ابراز مظاهر التأثير الأندلسي في الموروث الحضاري الجزائري، وهذا بطرح مجموعة من التساؤلات التي تمحوت حول كرونولوجيا الهجرة الأندلسية إلى الجزائر وأهم المدن التي استقروا بها. و كيف كان وضع الأندلسيين في المجتمع الجزائري؟

- وماهي أبرز مظاهر التأثير الأندلسي في مجال العادات والتقاليد خاصة المطبخ الجزائري والألبسة؟.

مصطلحات:

العناء: هو إيجار الحبس ويقصد به دفع أجرة سنوية مقطوعة عن أرض الوقف بعد خرابها، للجهة المتصرفة في ذلك الوقت، مقابل السماح للذي يدفع عناءها بالبناء عليها، وهو ما يعرف في المشرق بالحكور. (بن حموش، 2000، صفحة 273)

1- كرونولوجيا الهجرة الأندلسية إلى الجزائر:

لقد شهدت الجزائر هجرة أندلسية مبكرة ، وهذا منذ عهد الدولة الرستمية وخاصة في عهد عبد الرحمان بن رستم، أين نجد أحد أبواب تهرت في الجهة الشمالية سمي باسم باب الأندلس (ابن الصغير، 1986، صفحة 33)، كما كان للأندلسيين شأن عظيم بها، حيث اعتبروا من أهل الشورى؛ أمثال عمران بن مروان الأندلسي ومسعود الأندلسي، ولولا زهد وعزوف هذا الأخير عن الإمامة، لكان هو الإمام الثاني بعد عبد الرحمان بن رستم بدل الإمام عبد الوهاب (البكري، 1857م،، صفحة 67)

لنتوثق أواخرها هذه العلاقة منذ محاولة الخلافة الأموية بقرطبة استمالة العشائر الزيانية بالمغرب الأوسط للوقوف في وجه المخططات الفاطمية، ثم توطدت أكثر بعد ضم المرابطون والموحدون قسم من أقاليم الأندلس إلى ممتلكاتهم، وقد زاد في تمتين هذه العلاقة استقرار الكثير من الأندلسيين بالسواحل الجزائرية منذ القرن 9/هـ (سعيدوني، 1985، صفحة 127)، حيث نجد أن الأندلسيين هم من أعاد بناء مدينة تنس عام 262/هـ 875م، أين اتخذها أهالي البيرة وتدمر موطنًا لهم، بعدما اتفقوا مع أهلها؛ وهو ما أشار إليه البكري أن «تنس الحديثة أسسها وبنائها

البحريون من أهل الأندلس منهم الكركري وأبو عائشة والصقر وصهيب وغيرهم وذلك سنة 262هـ ويسكنها الفريقان من أهل الأندلس وأهل البيرة وأهل تدمير... وإن هؤلاء البحريون من أهل الأندلسيون يشتون هناك إذ سافروا من الأندلس في مرسى على ساحل البحر فتجمع إليهم بربر ذلك القطر ورغبوا في الانتقال إلى قلعة تنس وألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلوها سكن ووعدهم بالعون والرفق وسن المجاورة والعشرة فأجابوهم إلى ذلك وانتقلوا إلى القلعة وخيموا بها...» (البكري، 1857م،،، صفحة 61).

كما أن التجار الأندلسيين هم من أسس مدينة وهران في القرن 10م، وهو ما أشار إليه أبو عبد الله البكري الذي يقول عنها: «و بنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة وبني مسفن، وهم من أزاججة وكانوا أصحاب القرشي سنة 290هـ فاستوطنوها سبعة أعوام» (البكري، 1857م،،، صفحة 70).

وفيما بعد ازدادت عملية اضطهاد وتهجير الأندلسيين؛ خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، والتي تلتها عدة قرارات مجحفة في حق الأندلسيين؛ منها قرارات الطرد الجماعية التي أصدرها فليبي الثالث ما بين عام 1609م/1614م، والتي أدت إلى هجرة الآلاف منهم إلى سواحل البلاد المغربية، وخاصة الجزائر، حيث أجبر 14 ألفا أندلسي من قشتالة على الهجرة، وكذلك مرسوم طرد المسلمين من نواحي بلنسية في 22 سبتمبر من نفس السنة، الذي بموجبه تم نفي 28 ألفا عبر ميناء دانية و15 ألف عبر ميناء بلنسية، توجه منهم 22 ألف نحو وهران وعدة مدن جزائرية محملين على السفن (سعيدوني، 2013، صفحة 16، 17)، وقد أشار المقري إلى تلك الهجرة بقوله: «إلى أن كان إخراج النصراري إياهم بهذا العصر القريب أعوام تسعة عشرة وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخرى بتلمسان وهران» (المقري التلمساني، 1968م، صفحة 528، ج4)

وبما أن وهران تعد أقرب المناطق الساحلية إلى الأندلس فقد نالت نصيبا كبيرا من المورسكيين الفارين من إسبانيا، حيث نزل بها في 17 أكتوبر 1609م حوالي 22 ألف مهاجر، الذين اضطرت بعضهم التوجه إلى المدن المجاورة، بعدما ضاقت بهم شوارع المدينة، فهاجر 05 إلى 06 آلاف إلى تلمسان 04 آلاف إلى مستغانم (سعيدوني، 1985، صفحة 17). وكان ممن هاجر إلى تلمسان العلماء والمثقفين الذين حملوا معهم علومهم وآدابهم وفنونهم فنظموا حلقات التعليم بالمدارس والمساجد، وأبي الحسن القلصادي الأندلسي وكذلك أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل وحاشية من الأعيان والكبراء الذين اختاروا تلمسان مقصدا لهم، حيث بلغ عددهم سنة 1529م نحو 13 ألف بيت. (سعيدوني، 1985، صفحة 129)

في حين قدر عدد المهاجرين الأندلسيين إلى مدينة الجزائر في القرن 16م بألف منزل، قادمين من غرناطة، أراغون، فالنسيا وكاتالونيا، وينقسمون إلى فئتين؛ فئة Mudéjares أو المدجنون القادمين من غرناطة وأندلوسيا، أما من قدم من ممالك أراغون، فالنسيا وكاتالونيا فقد عرفوا بمهاجري الثغور (Tagarins) (Haedo, 1870, p. 46)، كما تجدر الإشارة أن البليدة تعد من المدن التي شهدت استقرار عدد كبير من الأندلسيين، خاصة وأن تأسيسها وتعميرها كان على

يد الأندلسيين، ويعتبر الولي سيدي أحمد الكبير الأندلسي أول من وضع النواة الأولى للمدينة؛ بحيث لما وصلت شهرته إلى مسامع خير الدين بربروس؛ قام هذا الأخير بزيارة له في بيته سنة 1535م أين طلب منه الدعاء، وإكراما وتدعيما له قام خير الدين ببناء مسجد وفرن وحمام في مكان اختاره المرابط، الذي أسس حولها مدينة البلدة. (Trumelet, 1887, pp. 580-585) (Trumelet, 1881, pp. pp236- 241)

أما مدينة بجاية وحسب البكري فإنها كانت عامرة بأهل الأندلس (البكري، 1857م،،، صفحة 82)؛ لكونها هي الأخرى استقبلت أعدادا كبيرة من المهاجرين الأندلسيين، خاصة بعد سقوط الحواضر الكبرى بالأندلس كقرطبة 1236م وبلنسية 1238م، وقد كان معظمهم من رجال العلم والثقافة الذين ساهموا بشكل فعال في الحياة الثقافية والعلمية (سعيدوني، 2013،،، صفحة 16، 17)، كما تم تعمير مدينة شرشال من طرف المدجنين وأهل تاكارت ومسلمي الأندلس، بعدما كانت مدمرة لثلاث قرون (مارمول، 1989م،،، صفحة 356)، وهو ما أشار إليه "الوزان" بأنه «وبعد سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين قصدها الغرناطيون وأعادوا بناء عدد دورها ووزعوا الأراضي بينهم ووضعوا السفن للملاحة واشتغلوا بصناعة الحرير لأنهم وجدوا كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود... وتحسنت أحوال هؤلاء يوما بعد يوم حتى أصبحوا يسكنون ألف ومائتين من البيوت» (الوزان، 1983،،، صفحة 34).

2- الهجرة الأندلسية و أثرها في الموروث الحضاري:

2-1- الواقع الاجتماعي للأندلسيين بالجزائر:

إن استقرار الجالية الأندلسية بالجزائر كان لها أثرها الحضاري في الجانب الاجتماعي والثقافي، حيث أصبح الأندلسيون يشكلون عنصرا بشريا مهما في البلاد تمكن من التأثير على مختلف مجالات الحياة، على الرغم من اعتبار أنفسهم أكثر رقيا وتحضرا من غيرهم من السكان، وأنهم يجب أن ينالوا أفضل المناصب وهو ما حال دون انصهارهم في المجتمع، خاصة في البداية لاعتقادهم أن وضعهم مؤقت لحين عودتهم إلى ديارهم يوما ما (سعيدوني / البوعبدلي، 1984م،،، صفحة 98) وهو ما جعلهم يعترضون عن الزواج خارج جماعاتهم، فالمرأة الأندلسية نادرا ما كانت تتزوج من رجل غير أندلسي إلا إذا اضطرتها الحاجة (سعيدوني، 2013،،، صفحة 24).

ونتيجة شعورهم بالغربة جعلهم يجتمعون سواء بالجزائر أو تونس أو المغرب، في تجمعات وأحياء أو حومات تعرف بحارة أو حومة أو زقاق الأندلسيين. لكن لما أيقنوا أن العودة لديارهم مستحيلة اندمجوا مع السكان مع مرور الوقت وتغيرت ألقابهم من الغرناطي والاشبيلي والقرطبي إلى الجزائري خاصة لدى رجال العلم منهم، رغم أنهم ظلوا محافظين على خصوصياتهم الموروثة والمكتسبة (قدور، 2003،،، صفحة 173، 174).

ومن أجل لم شملهم والتضامن بينهم أسسوا جمعية خيرية سنة 1033هـ/1623م، حيث قاموا بشراء دار كبيرة وهدمها وتأسس مكانها مسجد وزاوية ومدرسة خاصة بهم (سعد الله أ.،،، 2008،،، صفحة 240) وحبسوا لها أوقافا كثيرة

نتيجة امتلاكهم ثروات ضخمة، بسبب ممارستهم التجارة والصناعة والجهاد البحري، وقد قدرت هذه الأوقاف بـ40 ملكية و61 عناء بمردود سنوي قدر بـ400 فرنك (Devoulx, 1870, pp. 175,174).

والملاحظ كذلك أنهم كانوا يحضون بمكانة خاصة في المجتمع الجزائري، خاصة لدى السلطة العثمانية، التي عينت بعضهم في وظائف هامة مثل ادارة الاوقاف الحنفية العثمانية؛ منها سبل الخيرات التي كان من ضمن أعضاء ادارتها حميدة الأندلسي، وسليمان الكبابطي الذي عين على أوقاف جامع خضر باشا و محمد بن جعدون الذي عينه محمد عثمان باشا وكيلا على أوقاف جامع سوق اللوح (سعد الله أ، 2008، صفحة 240).

2-2- مظاهر التأثير الأندلسي في الجزائر:

المعروف عن الأندلس أنه ذو حضارة عريقة ومتنوعة، حيث امتزجت فيه عدة حضارات مشرقية ومغربية واسبانية، كما امتاز المجتمع به بالترف والرفاهية ورغد العيش والتحضر، لذلك لما انتقلوا إلى شمال إفريقيا تركوا بصمات واضحة على عادات وتقاليد المجتمعات المغربية عامة، وهو ما ذكره ابن خلدون بقوله: «أما المغرب فقد انتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس، وانتقل الكثير من أهلها طوعا وكرها... ثم انتقل أهل شرق الأندلس... إلى افريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا...» (ابن خلدون، 2004، صفحة 45).

لقد نقل أهل الأندلس رموز حضارتهم إلى كل المناطق التي استقروا بها، مع حفاظهم على مميزاتهم وخصوصياتهم الأندلسية، ومن هذه المناطق نجد الجزائر، التي حافظوا بها على تقاليدهم سواء في الطهي أو اللباس والأكل وفي طريقة الاحتفال بالأفراح و الأعياد والمناسبات الدينية مثل عيد الفطر والأضحى والمولد النبوي وليلة القدر وعاشوراء؛ أين كانت تردد الأناشيد والقصائد الدينية والمدائح وتعزف الموسيقى في الأفراح كالخطبة والزفاف والختان.. (سعيدوني، 2013، صفحة 52، 53). وقد تبنها المجتمع الجزائري وأصبحت جزءا من موروثه الغني والمتميز بمختلف الحضارات التي تعاقبت عليه.

2-2-1- اللباس:

عرف أهل الأندلس بميلهم إلى التأنيق في اللباس والحرص الشديد على النظافة، وهو ما أشار إليه المقري بقوله: « وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك ما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا يقوته يومه فيطويه صائما وبيتاع صابونا يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين منها» (المقري التلمساني، 1968م، صفحة 223، ج1)، وهو عكس ما كان عليه الحال لدى المغاربة، الذين غلبت عليهم البداوة بساطة الحياة، لكن اختلاطهم بالأندلسيين جعلهم يغيرون الكثير من عاداتهم.

لقد شهد اللباس في الجزائر عدة تأثيرات، نتيجة الهجرات البشرية الوافدة نحو الجزائر، والتي حملت معها ثقافات متنوعة خاصة العثمانية والأندلسية، هذه الأخيرة التي أدخلت عدة ألبيسة لا تزال إلى يومنا هذا، أين نجح الأندلسيون في فرض أذواقهم على أغلب سكان الجزائر، فغيروا حياتهم من البساطة إلى الترف، من خلال لبس الحرير بكل أنواعه وخياطة الألبسة الفاخرة (طيان، 1991، صفحة 23)، وممن تأثر بعاداتهم سكان مدينة الجزائر والبلدية وشرشال خاصة في ما يخص جهاز العروس الذي كان لا يخلو من القمجة، الطوق، الفستان، المحرمة، المشبير، الفريملة، الجابادولي، الصارمة، القفطان، الصدرية، المحيرمة (منديل اليد) mouchoir، البنيقة، الملايا، البليغة، الريحية وغيرها... (سعيدوني، 2013، صفحة 52، 53) ومن أجل جمع حاجياتها عمد الأندلسيون لصنع صندوق خاص بالعروس يسمى "صندوق العروس" مصنوع من عود العرعار الصلب، (رزوق، 2014، صفحة 319) ومن أبرز مظاهر التأثير الحضاري للأندلسيين في مجال اللباس بالجزائر نجد:

أ- لباس البدن:



- الفوطة: حسب دوزي فان أصلها من الهند؛ حيث كان يلبسها الرجال و تشد بحزام حول الخصر (Dozy, 1845, pp. 340,341)، أدخلت إلى تونس، الجزائر والمغرب عن طريق الأندلسيين، تلبس بنفس الطريقة ولها نفس الشكل، وتكون عبارة عن قطعة واحدة من القماش مخططة عموديا بألوان عدة (سعد الله ف.، 2016، صفحة ج 1 327، 328)، كانت تلبسها المرأة في البيت بدل السروال، حيث تحيط بالخصر وتتدلى حتى القدمين، (Venture, 2006, p. 62) بعرض منديلين كبيرين، وتكون مفتوحة من الأمام وتكشف عن جزء من الفخذين وجميع الأرجل تصنع من الحرير أو القطن (Renaudot.M, 1830, pp. 61,62)، وهو لباس لازال متواجدا لدى سكان بومرداس، بجاية، جيجل، وجبال جرجرة (سعد الله ف.، 2016، صفحة ج 1، 227، 228).

- البدعية/ الصدرية: سميت في الأندلس الصدرية، أين أدخلت عليها تعديلات ويحتمل أن تكون مشتقة من الفعل أبداع؛ لكونه لباسا جديدا لم يكن معروفا من قبل وما يثبت أنها أندلسية ما جاء في وثائق محاكم التفتيش، عند محاكمة موريسكي سنة 1566م، وبعد مصادرة أملاكه طلبت زوجته استرجاع أملاكها منها "صدرية من حرير" (رزوق، 2014، صفحة 351).

وحسب مرسي فإن البدعية عرفت في شمال إفريقيا باسم الصدرية؛ وتكون بدون ياقة ولا أكمام، مزينة بأزرار من أعلى إلى أسفل (Marcais, 1930, p. 45)، ولا يكون بها شق عند الصدر لها ثلاث فتحات واحدة في الأعلى لإدخال الرأس، وفتحين لتمير الذراعين (Marcais, 1930, p. 35)، لكن أحمد الكامون يشير إلى أن هناك فرق بين البدعية والصدرية؛ حيث تكون البدعية مفتوحة على الصدر في حين الصدرية مفتوحة على الجنب (الكامون، السقلي، 2010،

صفحة 151). كما يشير هايدو إلى سترة تشبه الصدرية تسمى الجليكو jaleco أو chaleco، وهي كلمة إسبانية وتعني سترة، لها أكمام تصل إلى الكوعين، مصنوعة من القماش الملون، تلبس عندما يكون الطقس بارداً (Haedo, 1870, p. 94).



- الغليلة: أصلها من مصر أدخلها الأندلسيون إلى الجزائر تلبس فوق القميص (Dozy, 1845, p. 323)، يلبسها النساء والرجال، يصل إلى حد الركبة (Haedo, 1870, p. 42)، تصنع من قماش خفيف يجلب من بلنسية، كما تصنع من الصاتان أو القطيفة أو الديباج الدمشقي (Marcais, 1930, p. 96)، تكون بدون أكمام مفتوحة من الأمام، (Venture, 2006, p. 62) وقد تصل الأكمام حتى المرفقين حتى تساعد المرأة عند الوضوء، وهناك من يضيف لها أكمام لتغطية الذراعين وتسمى (غليلة جبادولي)، تكون مطرزة عند الرقبة والأكمام، وتثبت على الخصر بأحزمة من الأقمشة الناعمة أو الحريرية (Haedo, 1870, p. 128)، تكون الرقبة مفتوحة تبرز الصدر، وتنتهي بأزرار ذهبية أو فضية، لتبقيه مشدودا على مستوى البطن (Marcais, 1930, p. 97).

غليلة جبادولي



غليلة

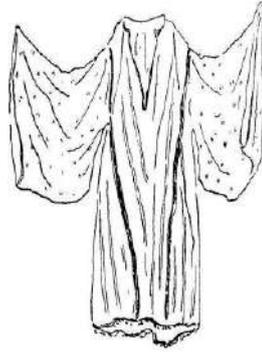


غليلة



- القندورة/الدررة/الدرعة: أدخلها الأندلسيون في القرن 17م وتلبسها المرأة والرجل على حد سواء، مصنوعة من قماش شفاف (طيان، 1991، صفحة 103)، وتكون طويلة وواسعة وشديدة البياض (Haedo, 1870, p. 127)، وأحيانا تكون لها عدة ألوان وتختلف جبة المسلمة عن جبة اليهودية كون هذه الأخيرة، بدون أكمام وتكون القندورة مقسمة بشريطين ملونين تنزل من الكتفين من الأمام والخلف (Marcais, 1930, pp. 95,96).

كانت القندورة تلبس تحت الغليظة لها أكمام واسعة مطرزة بالشبيكة الذهبية أو الفضية على شكل صفيين متوازيين تلتصق بها الأقفال (الأزرار) الذهبية (سعيدوني، 2013، صفحة 53)، وهو ما يجعلها باهضة الثمن يصل سعرها ما بين 5 إلى 600 فرنك (Renaudot.M، 1830، صفحة 62)، وغالبا ما تشد على الجسم بأحزمة حريرية مطرزة بقطع من الذهب ما زاد من جمال المرأة، وقد انتشرت في جميع البلاد الجزائرية (سعيدوني، 2013، صفحة 53). لكن في القرن 18م تقلص عرضها في حين بقي الطول على حاله (طيان، 1991، صفحة 101)، ومع الزمن أصبحت قصيرة تلبس في فصل الصيف، وتصنع من الحرير الشفاف تنتهي بونتال ويصبح اسمها قنيدرة تصغير لقندورة (Marcais, 1930, p. 93).



- الملحفة: يبدو أنها عرفت قبل مجيء الأندلسيين لدى المرأة الأوراسية ونقلها المرابطون إلى الأندلس، أين أعادوا جليها للجزائر عند هجرتهم ليعاد لبسها من جديد (طيان، 1991، صفحة 115)؛ وهي عبارة عن قماش عريض بمقدار 03 أذرع تقريبا وطويلة حوالي 8 أو 9 أذرع، تلبسها المرأة فوق القميص لتغطي شفافيته عند الخروج من البيت (Haedo, 1870, p. 127)، وعادة تلبس مع الحايك وتكون غالبا بيضاء اللون (Marcais, 1930, pp. 93-96).



- المضممة: تستعمل لشد اللباس إلى الجسم (رزوق، 2014، صفحة 352) و هي عبارة عن حزام عريض مطرز يربط على الجهة اليسرى (Renaudot.M, 1830, p. 62)، يحتوي على صفيحتين من الذهب أو الفضة، ويفلق بواسطة عقفة وقد يزين بالجواهر، تزخرف أطرافه بشرابات طويلة من الحرير أو الصوف (طيان، 1991، صفحة 119)، وتكون المضممة من الحرير أو من الذهب (Venture, 2006, p. 65) أو تكون من الجلد مزينة بحلقة (Dozy, 1845, p. 250).



ب- ألبسة الرأس والقدم:

- البنيقة: يحتمل دخولها لشمال إفريقيا بعد سقوط غرناطة من طرف العائلات الغنية (رزوق، 2014، صفحة 352): وهي منديل تضعه جميع النساء على رؤوسهن لجمع شعورهن (Haedo, 1870, p. 128)، والحفاظ على زينتها أو عند القيام بالأشغال المنزلية، أو يستعملنه عند الخروج من الحمام لتجفيف الشعر وتسمى التنشيفة، وبعد نزعها توضع مكانها البنيقة (طيان، 1991، الصفحات 121-123).

تصنع البنيقة من القماش وتطرز وتزين من الأمام بالحريز المتعدد الألوان (Haedo, 1870, p. 128)، وتصنع كذلك من الكتان أو القطن وتكون دائرية أو مربعة الشكل غالبا تثنى على شكل مثلث، بطول يتراوح ما بين 1.80م إلى 2.5م وعرض ما بين 0.15م و0.23م. وفي نهاية الديول يستعمل التطريز المخرم أو المشبك بواسطة خيوط الحرير أو الذهب وتعرف في تونس بالكوفية مطرزة بخيوط الذهب (طيان، 1991، صفحة 121).



- القلنسوة: وتسمى القردون والملوي، في تونس وهي تشبه الشاشية، اشتهرت بتلمسان ومدينة الجزائر، وقد انتقلت إلى الجزائر من الأندلس والمشرق، (طيان، 1991، صفحة 121)، تصنع من الديباج أو تطرز بخيوط الذهب على الساتان أو الديباج الدمشقي، لذلك تلبسها نساء الأغنياء خاصة في الحفلات والأعراس وتكون مستديرة (Haedo, 1870, p. 129) أو مخروطية الشكل توضع على الرأس وتثبت في العنق برباط من الجلد أو نسيج رفيع، تكون خالية من الزخارف، منها ما يطرز بخيوط الذهب أو الفضة، كما ترصع بالجواهر واللآلئ، لذلك كانت تلبس في الحفلات والأعراس (طيان، 1991، صفحة 121، 122).

- الصرمة: كانت معروفة بالشام على عكس الجزائر، ويبدو أن الأندلسيين هم من جلبها إلى الجزائر (طيان، 1991، صفحة 23). تتكون من صفيحتين من الذهب أو الفضة مخرمة مثل الدونتال (Marcais, 1930, p. 116)؛ فيما جزأين واحد يغطي الرأس والآخر يغطي الجبهة وتثبت على عصابة من قماش ذات ألوان متعددة أو عصابة ذهبية اللون مرصعة باللؤلؤ والماس والزمرد (Venture, 2006, p. 62)، وتكون مخروطية الشكل تشبه البوق أو المخروط يبلغ علوها 03 أقدام، تغطي كامل الشعر وتزين بأقمشة غالية وأشرطة من القטיפه (طيان، 1991، صفحة 129)، تثبت بخيوط خلف الرأس، ويربط بها منديل مطرز يتدلى حتى الساقين (Renaudot.M, 1830, p. 59)، بلغ سعر الصرمة من الذهب من 800 إلى 1000 ريال ما يعادل 100 سكة جزائرية (Venture, 2006, p. 62).



- البلغة: تعرف في بعض المناطق بالبليعة، والبابوش، نقلها الأندلسيون إلى شمال إفريقيا أخذت من الألفاظ الآتية: Ambalga-alborga-alpargata. (رزوق، 2014، صفحة 352) وتكون مدببة من الأمام يلبسها الرجال والنساء غير أن الخاصة بالنساء تكون مطرزة أكثر (Marcais, 1930, p. 110) وتكون بدون جوانب وبدون كعب (Dozy, 1845, p. 52). (Renaudot.M, 1830, p. 62)، وهناك نوع آخر أنيق يسمى الرحيحة، تكون مصنوعة من الجلد (Haedo, 1870, p. 129) كانت تلبسها النساء عند الخروج من المنزل، (Venture, 2006, p. 39) وتعرف بالشبرلة أو الشربيل في قسنطينة، وتكون مربعة من الأمام مطرز باللون الذهبي مع شرابات حريرية، لكنها أهملت ولم تعد تلبس إلا في بعض المدن مثل شرشال وتكون ذات لون أسود بكعب (Marcais, 1930, p. 111) كما أنها تطورت مع بداية القرن 19م لتصبح مدببة من الأمام، بعدما كانت نريعة ثم دائرية (طيان، 1991، صفحة 137).



- القبقاب: جلبه الأندلسيون، وهو معروف في العالم الإسلامي خاصة في طرابلس الشام ومصر، يلبسه الرجال والنساء في الحمامات (Dozy, 1845, p. 347) ونادرا ما تلبسه المرأة في البيت؛ وهو مصنوع من شجر الزيتون أو البرتقال أو التوت وغيره وهو نوعان؛ منخفض الكعب أو المسطح تماما (طيان، 1991، صفحة 141)، يرصع بالأصداغ عند نساء الأغنياء أما ذو الكعب العالي فيكون له ركائز أو دعائم مزينة بالفضة واللؤلؤ وتلبسه النساء حتى لا تتسحب فساتينهم في



الأرض، ويعطي للمرأة منظرا جميلا (Dozy, 1845, p. 348).

إضافة إلى هذا فإن الأندلسيين هم من أعاد إحياء صناعة الطرز والشاشية التي كانت في طريق الاندثار، خاصة بعد تخصص بعض العائلات الأندلسية بها والتي توارثت صنعها مثل عائلة بونايطيرو، التي كانت تملك مصانع بباب الواد وتصدر كميات كبيرة منها (سعيدوني / البوعبدلي، 1984م، صفحة 70).

كما نجد كذلك أن الأندلسيات توارثن عن أمهاتهن المهاجرات صناعة القטיפفة أو المخمل والشبيكة la dentelle التي انتشرت بالجزائر بكثرة، سواء من حيث الآلات المستعملة أو طريقة النسيج والطرز (سعيدوني، 2013، صفحة 48)، الذي كان يتم فيه استعمال خيوط الذهب والفضة، لتطريز القياطين والطفارة وغيرها وملابس القטיפفة "المخمل" والحريير والمعلقات لتزيين الجدران، والبنيقة، أو الصارمة، الكوفية والقردون، التي أتقنت صناعتها الأندلسيات في تلمسان وشرشال (سعيدوني / البوعبدلي، 1984م، صفحة 70). فالطرز من أشهر الحرف التي أتقنها الأندلسيون واشتهروا بها، وقد شاركهم فيه اليهود وبعض الحضرة الذين احتكوا بهم، وقد توارثت عدة عائلات أندلسية هذه الحرفة؛ وهو ما ساعد على بقاء فن الشبيكة والتطريز لأجيال بمدينة الجزائر، التي كانت تتبع في صناعتها بلنسية وغرناطة، وألمرية (سعيدوني، 2013، صفحة 48).

والجدير بالذكر أيضا أنه لازلت بعض المفردات الأندلسية في اللهجات المغاربية والتي حملوها معهم إلى يومنا هذا مثل بلوزة (لباس) Blusa، كبوط (معطف) Capote، ضبلون أو دبلون (عملة ذهبية إسبانية وهو نوع من الحلي تستعمله النساء) Dablon، صباط (حذاء) Zapato (رزوق، 2014، الصفحات 344-346).

2-2-2- الطبخ:

لقد استفاد الأندلسيون من بيئتهم التي شكلت مزيجا لعدة حضارات، كما أنهم دونوا فنون الطبخ في كتب خاصة على عكس المغاربة الذين لا نجد ذكر أطباقهم إلا ما جاء في الرحلات وكتب التصوف وغيرها من الكتب الغير متخصصة، مثل كتاب ابن رزين التجيبي في كتابه فضالة الخوان في طببات الطعام، كما يرجع الفضل لزرياب الذي علمهم طرائق الطبخ المعقدة في المطبخ البغدادي وكيفية إعداد أطباق راقية وبطريقة منظمة (الكامون، السقلي، 2010، صفحة 127، 128)، وقد نقلوا هذا التراث معهم، حتى أنهم كانوا يخفون مجوهراتهم من حلي وأحجار كريمة داخل الكعك خوفا من مصادرتها من طرف الإسبان أثناء عملية تهجيرهم (سعد الله ف.، 2016، صفحة ج2، 405).

وفي الجزائر تنوع المطبخ الجزائري من حيث أنواع الأكل وطرق الطهي، حيث امتزجت فيها التقاليد الأندلسية بالأذواق التركية والعربية، فاكتسبت بذلك العائلات الجزائرية طرق طبخ من الأندلسيين لاسيما ما يتصل بالأطباق (الطواجين) والحلويات التي نقلها المهاجرون الأندلسيون معهم (سعيدوني، 2013، صفحة 52 و132). مثل:

أ- الحلويات:

لقد احدث الأندلسيون ثورة في مجال الحلويات في المغرب الإسلامي، حيث نجد أن أشهر صانع حلويات في تلمسان هو الولي والصوفي أبا عبد الله الشوذي المعروف بسيدي الحلوي نسبة إلى حرفة صناعة الحلويات، التي اهتمها لما استقر بتلمسان بعدما كان قاضيا في اشبيليا (سعد الله ف..، 2016، صفحة 403، ج2). ومن الحلويات التي نقلها الأندلسيون نجد:

- الجوزية: التي تنتشر بقسنطينة والتي يقال أنها ظهرت أول مرة في قصر أحمد باي، وقد ذكرها ابن رزين التجيبي الأندلسي في مؤلفه الذي يعود تقريبًا إلى فترة سقوط مدينة قرطبة في 1236م، يذكر وصفًا لحلوى تُصنع باللوز أو بالجوز، حسب الرغبة وتسمى حلوى بيضاء رطبة شديدة الشبه بـ "الجوزية" شكلا ومضمونا وإعدادا (التجيبي، 1388هـ، صفحة 244).



- الزلابية أو الشباكية: هو تحريف للزريابة، لان زرياب هو من أدخلها للأندلس (الكامون ، السقلي، 2010، صفحة 135). ونجد كذلك القطايف والمسمن والطمينة والمحنشة والقنيدلات والمقروط (المقروض) والزلابية والسفنج والنوغة والفانيد (التجيبي، 1388هـ، صفحة 72 وما بعدها). وهي حلويات لازلت إلى يومنا هذا تزين موائد الجزائريين خاصة شهر رمضان، ونجد حلوى تعرف بالأندلس بالسنبوسك تحشى بالمكسرات مخلوط بقرفة وماء الورد وزنجبيل (الكامون ، السقلي، 2010، صفحة 135). وتعرف بالجزائر بالصامصا، كما يمكن حشوها باللحم المفروم والتوابل (مجهول، 1012هـ/1604م، صفحة 117)، وتعرف عندنا بالبريك أو البوراك.

كما أن كل الحلويات ذات الشكل الدائري المحشوة باللوز أو الجوز والملبسة بالسكر المعروفة بالجزائر بالكعيكعات وبتونس بالكعك والكعك الأسفنجي المعروف باسبانيا إلى يمنا هذا rosquillas esponjosas، وكعب الغزال (التشاراك) كلها من ذخائر الأندلس التي جلبوها معهم (سعد الله ف..، 2016، صفحة 403، ج2).

ب- الطواجن والأطعمة:

مثلما برع أهل الأندلس في صنع الحلويات نجدهم برعوا كذلك في إعداد أطعمة وهو ما يبرزه كتاب ابن رزين التجيبي وكتاب الطبخ في الأندلس، حيث ذكرا عدة أصناف من الأطباق ومنها ما يحضر بطرق مختلفة، وقد نقلوا معهم هذه الأطباق إلى الجزائر وغيرها من المناطق التي استقروا بها، ومن أشهر الأكلات التي نقلها الأندلسيون نجد:

- الدشيش: وهي أكلة شعبية في الأندلس خاصة بالأرياف، كونه طعام الفقراء وميسوري الحال، معروفة في جيجل وتونس وتطوان وجباله بالمغرب (سعد الله ف.، 2016، صفحة 400، ج2)، يسمى في الأندلس جشيش ويصنع من القمح أو الشعير، الذي يصنع من القمح يطبخ في لبن أو حليب أما ما يصنع من الشعير فيطبخ في الماء (التجيبى، 1388هـ، صفحة 61، 62)، كما نجد التليلتلي أو الطليلطي نسبة لمدينة طليلطة (سعد الله ف.، 2016، صفحة 294، ج2).



- البسطيلة **Pastilla**: تعد هذه الأكلة قاسم مشترك بين الجزائر، تونس، والمغرب وحتى اسبانيا وإيطاليا، في الجزائر شاعت في الجهات الغربية خاصة وهران وفي الأوساط الحضرية بمدينة الجزائر وهيتشبه البريك أو البوراك، وتكون عبارة عن عجينة محشوة حسب الأذواق والأقاليم بالدجاج أو الطيور أو اللحم المفروم أو السمك أو فواكه البحر، أو البيض والخضار والتوابل (سعد الله ف.، 2016، صفحة 399). وهي نفس الأكلة التي يسميها ابن رزين بالمحشو (التجيبى، 1388هـ، صفحة 78).

كما تعرف في تونس بطاجين المصوقة، و لاتزال موجودة إلى يومنا هذا باسبانيا تحت اسم *pastela moruna garanda* (سعد الله ف.، 2016، صفحة 400، ج2).



- البايلة **Paila**: تصنع من بقايا الطعام من دجاج وسمك ولحم (الكامون ، السقلي، 2010، صفحة 130)، ونجدها في الجزائر في المناطق الغربية. هذا بالإضافة طبق اللحم الحلو أو المروزية كما وردت لدى ابن رزين التجيبى وفي كتاب الطبخ ، الذي يختلف في طريقة التحضير، وأكلة البرانية والمثوم أو الكفتة القسنطينية، وهو نفسه أو شبيهه الذي يعرف في اسبانيا بـ *albondigas*، وهو طبق توارثته العائلات الحضرية العتيقة بمدينة الجزائر، تحت اسم كازا موتشاتشو *Casa moutchatchou* (سعد الله ف.، 2016، صفحة 57).

إضافة إلى المرقاز أو المرقاس المعروف في شبه الجزيرة الأيبيرية منذ العهود القديمة، والمجينة المعروفة بالاسبانية باسم (الموخابنة *almojabana*) وهي نوع من المعجنات محشوة بالجبن مغلقة بالسكر والقرفة والعسل وشراب الورد (الجبوسي الخضرا، 1998، صفحة 1033). التي تشتهر بها مدينة شريش الأندلسية، وحسب أهلها فإن من دخلها ولم يأكل المجينات فهو محروم (المقري التلمساني، 1968م، صفحة 184، ج1).

والجدير بالذكر أن الأندلسيين هم من نقل صناعة المخللات كتخليل الزيتون، الذرة، الجزر، الخيار، الخردل، البصل... (سعد الله ف.، 2016، صفحة 294، ج2)، كما اشتهرت العائلات الأندلسية العريقة والعائلات الحضرية التي تسكن قسنطينة، تلمسان، القليعة، البليدة، مليانة، الجزائر بتجفيف الفواكه، وتحضير المربي، وتقطير ماء الورد (سعيدوني / البوعبدلي، 1984م، صفحة 68).

والملاحظ كذلك أن بعض المصطلحات الإسبانية التي نقلها الأندلسيون إلى المناطق التي استقروا بها ماتزال إلى يومنا هذا في بعض المناطق مثل؛ الكومير (خبز) comer el -pan، الكوزينة cocina (المطبخ)، قاميلا (قدر) gamela، لوزة (نبات مثل الشاي ذو رائحة طيبة) luisa، سوبة (حساء) sopa، وغيرها (رزوق، 2014، الصفحات 344-346).

خاتمة:

من خلال ما سبق نستنتج أنه ورغم النكبة التي تعرضت لها الأندلس، مما تسبب في هجرة أهله إلى مختلف بقاع العالم الإسلامي خاصة إلى شمال إفريقيا بحكم قربها منه، فهذه الهجرة تعد من أهم الهجرات التي شهدتها الجزائر، حيث كانت نعمة عليها؛ وهذا من خلال الدور الذي لعبه الأندلسيون في ازدهار الحضاري بها في جميع المجالات خاصة الاجتماعية، فالوجود الأندلسي ترك بصمات في المجتمع الجزائري، لازالت معالمه إلى يومنا هذا، حيث لا تخلو المناسبات الجزائرية، خاصة الأعراس من مظاهر التأثير الأندلسي ويظهر ذلك جليا على اللباس والأكل، كما نجدهم ساهموا بشكل كبير في التعليم الذي أدخلوا طريقة جديدة في التدريس غير التي كانت موجودة، و نقلوا كذلك فن الموشحات والأزجال الأندلسية وأدخلوا عدة آلات موسيقية أندلسية التي حسنوا البعض منها، كما طوروا العمران.

كما تجدر الإشارة كذلك أن هذه الهجرة ساهمت في التنوع الديموغرافي في الجزائر، بحكم أن هجراتهم ضمت العنصر الأندلسي وحتى اليهود، هذا دون أن ننسى دورهم في الجانب الاقتصادي، حيث يرجع لهم الفضل في ادخال العديد من المزروعات وتقنيات الفلاحة إلى الجزائر.

المصادر والمراجع:

- البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز. (1857م)، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب. بغداد: مكتبة المثنى.
- الجيوسي الخضرا سلمى. (1998). الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس (الإصدار 1). بيروت، لبنان: مركز الوحدة العربية.
- بن حموش أحمد مصطفى. (2000). فقه العمران من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 1549م-1830م (الإصدار 1). دبي، الإمارات العربية المتحدة: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث.
- ابن خلدون عبد الرحمان. (2004). المقدمة (الإصدار 1، المجلد ج2). دمشق، سوريا: دار البلخي.
- رزوق محمد. (2014). الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17م (الإصدار 4). الرباط: إفريقيا الشرق.
- ابن رزين التجيبي. (1388هـ). فضالة الخوان في طبقات الطعام والألوان. بزشي، إيران: مؤسسة مطالعات.
- سعد الله أبو القاسم. (2008). تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830 (المجلد ج1). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- سعد الله فوزي. (2016). الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم (المجلد ج1، ج2). الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع.
- سعيدوني، ناصر الدين. (1985). دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

- سعيدوني ناصر الدين. (2013). دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر. (الإصدار 2). الجزائر: دار البصائر.
- سعيدوني ناصر الدين / البوعبدلي المهدي. (1984م). الجزائر في التاريخ، العهد العثماني. المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الصغير المالكي. (1986). أخبار الأئمة الرستميين. (تحقيق وتعليق محمدناصر و ابراهيم بحاز، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الغرب الاسلامي.
- طيان شريفة. (1991). ملابس المرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني. الجزائر: رسالة ماجستير، آثار إسلامية، معهد الآثار .
- قدور عبد المجيد. (ديسمبر، 2003). "الهجرات الأندلسية إلى المغرب الأوسط ونتائجها الاجتماعية والحضارية. مجلة العلوم الإنسانية، العدد 20 (20).
- الكامون أحمد ، السقلي هاشم . (2010). التأثير الموريسكي في المغرب (الإصدار 1). وجدة، المغرب: مركز الدراسات الإنسانية والاجتماعية.
- كربخال مارمول. (1989م). إفريقيا (المجلد 2). (ترجمة محمد حجي وآخرون) الرباط، المغرب الأقصى: دار المعرفة.
- مجهول. (1012هـ/1604م). الطبخ في المغرب والأندلس في العصر الموحدى. (د.ن).
- المقري التلمساني أحمد بن محمد. (1968م). نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب (المجلد ج1، ج4). بيروت، لبنان: دار صادر.
- الوزان الحسن بن محمد. (1983). وصف أفريقيا (الإصدار 2). (ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر) بيروت، لبنان: دار المغرب الإسلامي.
- Devoulx. A. (1870). Les edifices religieux de l'ancien Alger .alger: Bastide.
- Dozy.R.P.A. (1845). dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes .Amsterdam :J. Müller.
- Haedo.F.D. (1870). Topographie et l'histoire général d'Alger). Trad. de l'espagnol par MM. le Dr.Monnereau et A.Berbrugge ، imprimé À Valladolid EN 1612.
- Marcais.G. (1930). le costume musulman d'Alger .Paris: ,librairie plon.
- Paradis Venture.D. (2006). Alger au XVII siècle 1788-1790 .Alger: grand Alger livre.
- Renaudot.M. (1830). tableau du royaume de la ville d'Alger et de et de ses environs 4^{em} Ed .(Paris : librairie universelle.
- Trumelet .C. (1887)Blida Légende, La Tradition & L'histoire T01 .(Alger: Adolphe Jordan.
- Trumelet .C. (1881)Les saints de l'Islam; legendes hagiologiques et croyances Algeriennes .Paris: Didier.

تأثير فتوى الونشريسي في هجرة الموريسكين

The influence of Al-Wansharisi's fatwa on the migration of the Moriscos

د. خير الدين شرقي، أستاذ محاضر. ب، تخصص عقيدة، جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر k.chergui@lagh-univ.dz

Dr. Kheireddine Chergui, Lecturer. B., Doctrine major, Ammar Thaliji University, Laghouat, Algeria.

د. أسماء صوكو، تخصص فقه وأصوله، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة الجزائر soukkousoukkou@hotmail.com

Dr. Asma Soukou, Specializing in Jurisprudence and its fundamentals, Emir Abdelkader University, Constantine, Algeria.

ملخص:

تتناول هذه المداخلة جزئية مهمة من تاريخ الأندلس، والتي تعنى بالفترة الأخيرة من انهيار حضارة عمّرت لفترة طويلة وصلت لأكثر من ثمانية قرون، قدمت للإنسانية نموذجا راقيا من التطور والازدهار من خلال الشواهد التاريخية والحضارية، وبعد سقوط غرناطة آخر معاقل السلطة السياسية الإسلامية بالأندلس لحق المسلمون فيها صنوفا من الظلم؛ من تهجير وتقتيل ونقض للعهود ومآسي ووضع مزري أصبحوا يعيشونه تحت حكم النصارى، وهو ما نحاول أن نبرزه- فضلا عن تحديد المصطلحات الأساسية للبحث- من خلال تبين ظروف وأسباب الهجرة الأولى والثانية من الأندلس إلى المغرب، وفتاوى الونشريسي فيها ومبرراتها، والتأسيس لمشروعية هذه الهجرة لإعلاء كلمة الله والخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان ونصرة المسلمين المغلوب على أمرهم.

الكلمات المفتاحية: الهجرة، الموريسكيون، الأندلس، الونشريسي، الفتوى.

Abstract:

This intervention deals with an important part of the history of Andalusia, which deals with the last period of the collapse of a civilization that lived for a long time and reached more than eight centuries, it provided humanity with a sophisticated model of development and prosperity through historical and cultural evidence, and after the fall of Granada; the last stronghold of Islamic political power in Andalusia, the Muslims suffered all kinds of injustice, such as displacement, killing, breaking of covenants, tragedies, and a dire situation in which they live under the rule of Christians, which is what we try to highlight- in addition to defining the basic terms for the research-by explaining the circumstances and reasons for the first and second migration from Andalusia to the islamic Maghreb, and the fatwa's of Al-Wansharisi regarding them and their justifications, and the establishment of this migration and the upholding of the word of God exiting from the abode of unbelief to the abode of faith and supporting the defeated Muslims.

Keywords: Immigration, Moriscos, Al-Andalus, Al-Wansharisi, Al-Fatwa.

مقدمة:

عاش النصارى في الأندلس مئات السنين دون أن يتعرضوا لمكروه، ولما انتهى حكم المسلمين لم يحضى المسلمون الأندلسيون بهذه المعاملة، فارتكبت في حقهم أبشع الجرائم و أجبروا على التخلي عن دينهم ولغتهم وممتلكاتهم وأرضهم، إنها أخطر المراحل التي ميزت تاريخ المسلمين في الأندلس، والتي فتحت أبواب المأساة الحقيقية للمهاجرين الأندلسيين، إنها مرحلة المصير المحتوم.

تردد الأندلسيون في مسألة الهجرة أو البقاء في الأندلس، فعرضوا أمرهم على علماء المغرب الإسلامي قصد إيجاد حلول لمحتهم، ومما لا شك فيه أن مسألة الهجرة كانت عسيرة على مجتهدى فقهاء الزمان.

ولهذا ارتأينا أن نبحث في هذا الموضوع الموسوم ب: تأثير فتوى الونشريسي في هجرة الموريسكيين، انطلاقا من الإشكالية التالية: ماهي مبررات وأسباب فتاوى الونشريسي فيما نزل بالموريسكيين؟

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث فيما يلي:

- تاريخ المغرب و الأندلس له أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي، ودراسة تاريخ الأندلس وثيقة الصلة بتاريخ المغرب؛ لأن كل ما يجري في المغرب الإسلامي له صدهاء في الأندلس، وما يحدث في الأندلس له رد فعل في المغرب الإسلامي.
- محاولة التعرف على مقدار التأثير والتأثر بين الموريسكيين الأندلسيين والعالم العربي والهجرة نموذج لذلك.

أهداف البحث:

- التعرف على الجالية الأندلسية التي عمرت ضفتي المتوسط.
- تبين وتوضيح المفارقة بين حكم المسلمين وحكم غيرهم.
- إبراز جهود علماء المسلمين والفقهاء في إنقاذ اخوانهم الأندلسيين والتعاطف والتكاتف معهم في محتهم.
- توطيد العلاقات ما بين المغرب الإسلامي والأندلس.

أجزاء البحث :

عالجنا الإشكالية فيما يلي:

أولاً: في المصطلح والترجمة

1. تعريف الهجرة

2. الموريسكيون

3. الهجرة الأندلسية وظروفها

4. ترجمة الونشريسي.

ثانيا: فتاوى الونشريسي ومبرراتها

1. الفتوى الأولى

2. الفتوى الثانية

3. مبررات الفتوى.

خاتمة

المنهج: للإجابة على الإشكالية تم الاعتماد على المنهج التحليلي لإبراز أسباب الهجرة ومبررات صدور الفتوى من طرف الونشريسي، ودوره- رحمه الله- في محاولة إيجاد الحلول للقضايا المستجدة والنازلة، والوقوف مع المستضعفين من مسلمي الأندلس وإغااثهم ومساعدتهم

أولاً: في المصطلح والترجمة

1. الهجرة:

في اللغة: مشتق من هَجَرَ، وتعني الخروج من أرض الى أخرى سعياً وراء الرزق والاستقرار، أو التخلي عن الشيء وتركه، أو الفراق. (www.almaany.com)

اصطلاحاً: الانتقال من البلد الأم للاستقرار في بلد آخر، وهي نوعان:

- اختيارية: تتم طوعاً وبالمبادرة الفردية والرغبة في الانتقال دون ضغط أو إكراه إلى وطن جديد من أجل الأفضل،
- وإجبارية (أي التهجير): تتم بواسطة قوة خارجية تفرض على غير إرادة الأفراد والجماعات عن طريق الإخراج القسري أو الإكراه والطرده من الوطن أو النقل غالباً بالقوة حملاً إلى أماكن بعيدة؛ كما وقع للموريسكيين بعد سقوط غرناطة، لذلك يمكن اعتبار قرار تهجير الموريسكيين قراراً تعسفياً فرضته اعتبارات سياسية تابعة لظروف اجتماعية وتاريخية قاهرة في حق أقلية مسلمة رفضت الاستسلام والخروج. (طواهرية، 2015، صفحة 172)

2. الموريسكيون :

الموريسكيون أو الموريسكوس باللسان القشتالي: هم المسلمون الذين بقوا في إسبانيا تحت الحكم المسيحي بعد سقوط غرناطة ورفضوا الهجرة من وطنهم فأجبروا على اعتناق المسيحية وحرّموا من أدنى حقوقهم؛ ففي 6 شعبان 907هـ فبراير 1502م أصدرت السلطات مرسوماً يخير المسلمين بين اعتناق المسيحية أو النفي ومغادرة إسبانيا، فشكّلوا وضعية خاصة في غرناطة وباقي مملكة إسبانيا. (الحسناوي، 2001، صفحة 125)

3. الهجرة الأندلسية وظروفها:

بعد قيام دولة إسبانيا الموحدة سنة 1492م تظاهر حكامها باتباع أسلوب اللين في معاملة المسلمين، فترك رعاياهم الجدد يتمتعون بمزايا تسليم مدينتهم، ومع أن بنود المعاهدة قد اخترقت من أول يوم بتحويل مسجد غرناطة الجامع إلى كاتدرائية، فإن المسلمين قد تحلّوا بالصبر، وتحملوا ذلك على مضض في أكثر من قرن من الزمن، وظلت الحالة تزداد كل يوم سوءا على سوء حتى امتلأت القلوب حقدًا وكراهية (قدور، 2003، صفحة 172).

أمام هذا الوضع تضافرت ظروف وأسباب الهجرة من الأندلس إلى بلد آمن، منها:

- عدم الاستقرار السياسي في الأندلس، وظهور أصوات انهازمية تنادي بالرحيل والهجرة من غير عودة، وبداية حركة الاسترداد التي تزعمها الكنيسة.
- - استمرار الضغط المسيحي بقيادة ألفونس الحادي عشر ملك قشتالة وليون وبدعم من ملك إنجلترا واستهداف ما تبقى من مدن الإسلام.
- فرض حصار شامل على غرناطة لمدة سبعة أشهر سنة 896هـ / 1490م وتضييق الخناق على أهلها.
- إصدار مراسيم ملكية لنقض العهود والنصوص التي تضمنتها معاهدة غرناطة والعمل على إنشاء محاكم خاصة عرفت بمحاكم التفتيش لمعاقبة ما تبقى من الموريسكيين وإرغامهم على الهجرة أو التنصير (مظهر، 1947، صفحة 47).
- صدور عدد من الفتاوى الفقهية من ديار المسلمين تدعوهم لترك دار الكفر والهجرة إلى دار الإسلام، منها: فتاوى أبي العباس الونشريسي التلمساني والتي عنوانها: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصرارى ولم يهاجر وما قد يترتب عليه من العقوبات والزواج (الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والمغرب، 1981، صفحة 119).

4. ترجمة الونشريسي:

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني، من فقهاء المالكية البارزين في المغرب الإسلامي، ولد في جبل ونشريس في حوالي 834هـ / 1431م، ونشأ بمدينة تلمسان في ظل سلاطين دولة بني زيان، حيث أخذ عن شيوخها العلم واللغة والفقه وعلوم القرآن، وكان الونشريسي- رحمه الله- لا يخشى في الحق لومة لائم، لذا غضب عليه السلطان محمد الخامس أبو ثابت الزياني 874هـ / 1469م الذي اتهمه بالتآمر عليه، فأمر بنهب داره وإحراق كتاباته، فاضطر الونشريسي للهجرة إلى مدينة فاس واستوطنها فنال الحظوة والتكريم فطاب له المقام بها. تميز الونشريسي باطلاعه الواسع على مسائل الفقه والقضايا التي تتصل بالأغذية و النوازل والفتاوى والأحكام التي ألزم نفسه بتدريسها والتأليف فيها فكان أعجوبة عصره، تقلد رئاسة الخطط الثلاث في فاس: القضاء والفتوى والتدريس، وكان من العلماء المجتهدين، وعرف بالرزانة وحسن التدبير، فكان محل الاحترام والتقدير من الخاصة والعامة لتجنبه الخوض في السياسة، شهدت المصادر بمكانة علمه وتكوينه، قال عنه أحمد المنجور في الفهرسة كان مشاركا في فنون العلم إلا أنه انكب على تدريس

الفقه.. فصيح اللسان والقلم حتى كان البعض ممن يحضر تدريسه يقول: لو حضر سيبويه لأخذ النحو من فيه، وقال عنه الكتاني في سلوة الأنفاس: كان شديد الشكيمة في دين الله لا تأخذه في الله لومة لائم (سعيدوني ، 1999 ، صفحة 277)، ألف العديد من الكتب جلها في الفقه ومسائل الشريعة، عرف منها: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وضعه النصرارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج (الونشريسي، أسنى المتاجر فيما غلب على وطنه النصرارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العواقب والزواج، 1996)، الفائق في الوثائق، غنية المعاصر، مختصر أحكام البرزلي، المعيار المعرب، عدة البروق في تلخيص ما في المذهب من الجموع والفروق، وافته المنية في 20 من صفر 914هـ/ 1508م عن عمر ناهز 80 سنة، قضى منها 40 سنة بتلمسان وأربعون بفاس، ورتبت شهرته بكتاب المعيار الذي جمع فيه النوازل الفقهية (سعد الله، 1998، صفحة 123)

ثانيا: فتاوى الونشريسي ومبرراتها

1. فتوى الونشريسي الأولى:

جاءت فتوى الونشريسي الأولى قبل سقوط غرناطة، كان ذلك سنة 1484م، وتدخل في باب النوازل الفقهية، وقد أُرخت هذه الفتوى في التاسع من ذي القعدة 890 هجرية الموافق لـ 1484 ميلادية، بسؤال من طرف عبد الله بن قطيبة في شأن أندلسيين هاجروا الى المغرب ولم ترق لهم ظروف العيش هناك ،فرارا بدينهم وأنفسهم لأن سقوط غرناطة لم يكن يعني انتهاء الوجود السياسي بالحرب فحسب بل إنهاء الوجود العقدي والوجود البشري، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الونشريسي يفتي بوجوب الهجرة إلى دار المسلمين في رسالته المعنونة: أسنى المتاجر فيما غلب على وطنه النصرارى ولم يهاجر وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواج (تومي، 2018، صفحة 553)

2. فتوى الونشريسي الثانية:

صدرت هذه الفتوى بعد سقوط غرناطة، وكانت سنة 901 هجري الموافق لـ 1495 ميلادي، حيث جاءت الفتوى الثانية للونشريسي ردا على سؤال آخر طرحه نفس السائل الأول في حق رجل أندلسي معروف بالفضل والدين تخلف في الهجرة مع أهل بلده لمؤازرة إخوانه المسلمين والدفاع عنهم لدى السلطات الاسبانية، حيث ورد فيها: "يتكلم عنهم مع حكام النصرارى فيما يتعرض لهم من نوائب الدهر ويخاصم عنهم ويخلص كثيرا منهم من ورطات عظيمة .."، وكان رد الونشريسي في هذه المسألة واضحا؛ لأن مساكنة الكفار من أهل الذمه لا تجوز لما تنتجه من المفاسد الدينية والدينيوية (هلايلي ، 2010، صفحة 174)

3. مبررات فتوى الونشريسي:

لقد تعددت الرؤى في فتاوى الونشريسي في هجرة الأندلسيين:

- منهم من يرى بأن فتوى الونشريسي كانت لصالح أهداف ومصالح إسبانية في الذين ظلوا في الأندلس ليسوا مستضعفين بل ربما العكس صحيح، فالأندلسيون في بلادهم أقرباء مطمئنين داخل الجماعات تحت زعامات

فقهائهم الذين كانوا يؤطروهم ودخلوا في اتصالات عديدة في شمال إفريقيا وتركيا ودول أوروبية متعاطفة معهم وكانوا عازمين بالفعل على استرجاع مجدهم بالأندلس.

• وذهب البعض الآخر إلى أبعد من ذلك في نقده لفتوى الونشريسي وهو حسين مؤنس عندما قال: "فهذا الشيخ الذي تصدى لإبداء الرأي في مصير المسلمين المتخلفين في الأندلس ولم يكلف نفسه عندما جلس يكتب هذه الفتوى عناء البحث عن أحوال من يفتي لهم ويتقص أخبارهم ويعزو الأسباب التي تضطربهم إلى البقاء في الأندلس وتحول بينهم وبين الهجرة إلى المغرب، ولم يذكر أنهم وقبل كل شيء بشر ضعفاء عسر عليهم مغادرة الأوطان ومعاهدة الحياة الطويلة التي تقلب فيها الآباء والأجداد قرونا طويلة".

• وهناك من يرى أن فتوى الإمام الونشريسي هي الأصلح للمسلمين؛ حفاظا على عقيدتهم وعلى دينهم من الذوبان حتى ولو اعتمدوا أسلوب المهادنة والمهادنة الأمر الذي انتبه بكثير منهم إلى الذوبان والانصهار في ذلك المجتمع بعد أجيال، ابتداء من العقيدة ثم اللغة إلى أحوالهم الأخرى كافة (خسال، 2013، صفحة 148)

فالإمام كان أعلم من غيره بظروف الأندلسيين ولذلك طلب منهم الهجرة على سبيل الوجوه واستثنى منهم المستضعفين والعجزة، ومما قاله: "ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء إلا تصور العجز عنها بكل وجه ... قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَّا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا (99) ﴿[النساء: الآيات: 98، 99].

أما المستطيع بأي وجه كان أو بأي حيلة تمكنه فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام (الونشريسي، المعيار المغربي والجامع المغربي عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، 1981، صفحة 121)

وما يمكن ملاحظته أن الفتوى الأولى جاءت تتكلم عن أحوال الأندلسيين بالمغرب الأقصى، وأما الفتوى الثانية فقد تكلمت صراحة عن المسلمين بالأندلس، حيث يقول: "إن مبررات البقاء بالأندلس كلها مفقودة ولا يمكن لأحد من الأندلسيين قادرا عاقلا أن يبقى تحت حكم ملة الكفر، فقد توفرت كل أسباب الهجرة؛ لأن أركان الإسلام والإيمان كلها معطلة من طرف المسيحيين، والمسلمون يتعرضون لكل أنواع الأذى والتعذيب والتنكيل ولذلك وجبت الهجرة".

ومنه فإن الفتوى الثانية متممة ومكملة للفتوى الأولى؛ فكلاهما تعطي حلول للهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أي من إسبانيا إلى المغرب (تومي، 2018، صفحة 553)

فسبب لجوء الموريسكيون لطلب الفتوى من فقهاء المغرب في تلك الفترة هو عدم وجود فقهاء في الأندلس؛ بسبب كون العلماء والأغنياء والأعيان كانوا من الأوائل الذين هاجروا من الأندلس، مخلفين وراءهم الضعفاء والزراع والعمال وسكان المدن، ورغم تلك الأوضاع والمحن التي كانوا يعيشونها لم تنهم عن طلب تبيان الحكم الشرعي الخاص بأوضاعهم، وذلك دليل واضح على إرادة فولاذية وعزيمة قوية للحفاظ على دينهم وهويتهم، واتجاههم نحو فقهاء المغرب بالسؤال يدل على احترامهم لعلماء ذلك القطر واعتباره المرجعية (جيلالي ووهراي، 2022، صفحة 253)

خاتمة:

- المتأمل في ظروف الهجرة إلى المغرب ودوافعها وأسبابها وفتوى الونشريسي فيها يدرك ويستخلص ما يلي:
- تدهور الأوضاع السياسية بالأندلس أثر مباشرة على توالي الهجرة الأندلسية تجاه المغرب.
 - غياب العلماء في الأندلس دفع الموريسكيين إلى طلب الفتوى من علماء المغرب .
 - وحدة المذهب الفقهي المالكي الذي كان يوحد الغرب الإسلامي.
 - تشخيص السائل ابن قطية لأوضاع وأحوال الأندلسيين في فاس جعلت الونشريسي يصدر فتواه.
 - ربما تحكمت في إجابة الونشريسي عدة عوامل جعلتها توصف بالشدة عند البعض.
 - غيرته على الإسلام ومحاولة إنقاذ المسلمين من شرور النصارى والاستبراء لدينهم أهم مبرر.
 - حب الإسلام والمسلمين كان مصدر هاتين الفتوتين اللتين كانتا في خدمة الأندلسيين في كل الأحوال؛ حتى يحافظوا على عقيدتهم ليفوزوا في الدنيا وينالوا مرضاة الله في الآخرة، ولكل مجتهد نصيب، واجتهاد الونشريسي يتماشى مع حساسية الوضع الذي عاشه الموريسكيون.

المراجع:

- أبو القاسم سعد الله، (1998)، *تاريخ الجزائر الثقافي*، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 4. الطاهر تومي، (جوان 2018)، موقف علماء المغاربة من المحنة الأندلسية، *مجلة الدراسات الإسلامية*، جامعة الأغواط .
- 5. الونشريسي، (1996)، *أسنى المتاجر فيما غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العواقب والزواج*، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- 6. الونشريسي، (1981)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب (الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والمغرب، 1981)
- 7. حنفي هلايلي، (2010)، حرية الاعتقاد عند الموريسكيين الأندلسيين بين ازدواجية محاكم التفتيش والهجرة، *المدار المتوسطي*، جامعة سيدي بلعباس.
- 8. سعدي جيلالي وقدور وهراني، (جوان 2022)، فقهاء المغرب والهجرة الأندلسية بين وجوب الهجرة ورخصة البقاء، *مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا*.
- 9. عبد المجيد قدور، (ديسمبر 2003)، الهجرة الأندلسية إلى المغرب الإسلامي ونتائجها الاجتماعية والحضارية، *مجلة العلوم الإنسانية*.
- 10. علي مظهر، (1947)، *محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال*، ط1، مصر: المكتبة العلمية.
- 11. فؤاد طواهرية، (سبتمبر 2015)، الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط بين السياق التاريخي والمجال الجغرافي، *مجلة حوليات للتراث*.

12. ميلود الحسنوي، (2001)، الموريسكيون في الفكر التاريخي قراءة في الأبحاث والدراسات الإسبانية، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
13. ناصر الدين سعيدوني، (1999)، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
14. ولد خسال، (2013)، إسهامات الإمام الونشريسي في علم السياسة الشرعية، دراسات إسلامية.

نكبة مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة من خلال كتابي "تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة" و"رحلة أفوقاي الأندلسي": دراسة مقارنة.

The suffering of the Muslims of Andalusia after the fall of Granada through the books "Tarikhe taourat wa aikabe Andalousiai mamlakat Gharnata" and "Rihlat Afukai El-Andalousie": A Comparative Study.

ط.د.رغدة بوجيت / جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة/ الجزائر

ED . Raghda Boudjit/20 Aout 1955 - Skikda /Algeria

د.مريامة لعناني / جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة / الجزائر

Dr .Meriama Laanani /University of El-Amir Abdelkader of Islamic Sciences - Constantine/Algeria

محور المداخلة: السياسة الإسبانية تجاه المورسكيين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م.

ملخص الدراسة:

لا يزال البحث في تاريخ الأندلسي عموماً وتاريخ سقوط غرناطة بنو الأحمر خصوصاً من بين أهم المواضيع البحثية المستقطبة للباحثين في التاريخ الوسيط والحديث، وقد حاولنا في ورقتنا البحثية هذه التأريخ للمعاناة التي عاشها مسلمو الأندلس انطلاقاً من مصدرين مختلفين، إذ أنّ أحدهما مؤرخ ذو أصل إسباني، والثاني مؤرخ مورسكي، لكن كلاهما يعدّان شاهداً عياناً على مجريات أحداث الفترة المعنية بالدراسة. وعليه نطرح الإشكال التالي: إلى أي مدى يعتبر الكتابين محل الدراسة مصدرين يعول عليهما في التأريخ لنكبة مسلمي الأندلس؟ وللإجابة عن إشكالينا اعتمدنا على كل من المنهج الاستقرائي، المنهج الوصفي، المنهج التاريخي والمنهج المقارن.

قد توصلنا إلى مجموعة نتائج في آخر بحثنا وهي كالتالي:

التأريخ للعلاقات السياسية التي ربطت بين الملوك النصارى وملوك بنو الأحمر والمتأرجحة بين الهدنة والحرب، وكيف استغلّوا علاقتهم بالملك "أبو عبد الله محمد الثاني عشر" والمعروف بـ "أبي عبد الله الصغير" في إسقاط الحكم الإسلامي.

على الرغم من كون الكتابين محل الدراسة مختلفين من حيث الانتماء الديني والسياسي؛ إلا أنّ كلاهما أمدنا بمعلومات جدّ مهمة حول السياسة التعسفية التي انتهجها حكام إسبانيا بعد سقوط غرناطة اتجاه المورسكيين، والتمثّلة عموماً في القمع، طمس الهوية، التنصير، التعذيب الوحشي، القتل والتجهير القسري. لكن أثار هذا الاختلاف في الانتماء في المصطلحات المعتمدة من طرف كل واحد منهما، بالإضافة إلى تضاد رؤيتهما حول أحقية الحكم النصراني بالنسبة للإسباني الذي أرخ لسقوط غرناطة على أنّه فتح عظيم أدّى إلى استرداد إسبانيا، في حين المورسكي "أفوقاي" رأى أنها عبارة عن حروب صليبية ورحلة اضطهاد وتجهير ومحاربة لكل ما يمت بصلة للعروبة والإسلام.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، غرناطة، النكبة، الملوك النصارى، ملوك بني الأحمر، المورسكيين.

Abstract:

Research in Andalusian history is one of the polarized research topics of researchers in medium- and modern history. Our research is designed to chronicle the suffering experienced by moriscos, from two different sources, the first by a Spanish historian, and the second by moriscos historian, but both are contemporary events.

The problem with our research is: **Are the two thoughtful books reliable in chronicling the tragedy of the Muslims of Andalusia?**

For the approaches adopted in our paper, they are both the inductive, descriptive, historical and comparative.

The results of our research are as follows:

Chronicling political relations between the kings of Bani Alahmar and the kings of the Christians, and for the periods of armistice and war and exploiting the gap between the members of the ruling family in the overthrow of the Islamic rule through the signing of the "Abu Abdullah Mohammed XII" known as "Abu Abdullah Al- Saghir" extradition agreement.

The two books contain important information - despite religious and political differences - about the policy pursued by the Christians rulers towards the Muslims of Andalusia, namely repression, christianization, murder and forced displacement.

There is a clear difference between terminology, in addition to each of them seeing the entitlement to Catholic rule of Spain's territory and the policy adopted by the Andak Authority against all things Arab-Islamic.

Keywords: Andalus, Garnada, The Suffering, The kings of the christians, The kings of Bani Alahmar, Moriscos.

مقدمة:

تعايشت في المجتمع الأندلسي إثنيات متعددة فيما بينها، فقد اندمجوا أهل الذمة من يهود ونصارى مع المسلمين ومارسوا طقوسهم بحرية تامة، انطلاقاً من مبدأ حرية الاعتقاد الإسلامي، وقد ساهم هذا التمازج بصورة كبيرة في تأسيس الحضارة الأندلسية تجلت مظاهرها على كافة الأصعدة خلال العهد الأموي.

ليستمر الأمر خلال عصر ملوك دويلات الطوائف فعلى الرغم من الاضطراب الذي عاشوه حكام الدويلات على الصعيد السياسي خارجياً من طرف النصارى، وداخلياً من خلال تناحر الحكام فيما بينها، إلا أن هذا لم يمنع من حرية ممارسة الشعائر الدينية لكل طائفة، أو إقرار سنن وقوانين تمنع تعايش أهل الذمة مع المسلمين، أو تجبرهم على الإسلام قسراً. وكذلك هو الأمر خلال العصر المرابطي، ولكن بدخول واستقرار الموحدون بالأندلس الإسلامية اختلف الوضع، إذ خيّر السلطان الموحد "..." حينها اليهود ما بين الإسلام أو الهجرة، فاختراروا الهجرة إلى الممالك النصرانية، خصوصاً لما رءوا ما أنعم به عليهم مقابل الاشتغال في الترجمة في بلاط ممالك النصارى .

لكن بعد حوالي قرنين من الزمن تقلبت الموازين، فاستردت النصارى كلّ الأندلس، ولم يبق لهذه الأخيرة وجود سياسي، بل صارت البلاد يصطلح عليها بإسبانيا، وقد عملت السلطات السياسية والدينية لهذه الدولة الفتية على التوسّع باسم الدين، فكانت تحارب كلّ من هو غير نصراني-مسيحي، فعاقبت اليهود والمسلمين بأبشع الأساليب والآليات، مرغمة إياهم على التنصّر قسراً، ولكن لم يتوقّف الأمر هنا، إذ عملت مع مطلع القرن 17م على إلزام الهجرة من خلال إقرار قانون عرف تاريخياً بقانون الطرد النهائي، وبه أسّست إسبانيا لما يعرف الشتات الأندلسي.

وقد حاولنا في بحثنا هذا الجمع بين سياسة السلطة الإسبانية في تجرئها على خرق بنود وثائق التسليم، وضرب قوانينها عرض الحائط، ليكتمل المشهد مع التعدي التّام على بنود قرار الطرد والتهجير، من خلال استعارتنا لمصطلح النكبة الفلسطيني، خاصّة وأنّ في تعريفه نجد أنّ له دلالة كبيرة على البحث في المأساة الإنسانية المتعلقة بتشريد عدد كبير من الشعب خارج الدّيار، وتهجيرهم بعد هدم معالم مجتمعاتهم السياسية والاقتصادية والحضارية، فهناك تشابه واضح لما حدث للأندلسيين مع بدايات سنة 1492م والفلسطينيين منذ عام 1948م.

وجاء بحثنا هذا لدراسة نكبة مسلمي الأندلس، من خلال مصدرين مختلفين من حيث مضان النص، ومن حيث انتماء السياسي والديني لكاتب النص، فأحدهما مصدر تاريخي، لمؤرخ مسيحي إسباني يؤرخ فيه للسياسة المتبعة من طرف السلطة الإسبانية في ترويض المسلمين وإسقاط حكمهم بغرناطة، واستراتيجية قمع الثورات والحركات المقاومة لها. أمّا المصدر الآخر فهم نص جغرافي لعالم أندلسي مسلم؛ إذ أنّه عبارة عن رحلة تتناول مواضيع مناظراته مع الآخر المسيحي. لكن هذا لا ينف إدراجه لمعلومات تتعلق بالسياسة المنتهجة من طرف حكّام إسبانيا مع الساكنة المسلمة.

وعليه نطرح التساؤل التّالي: إلى أي مدى يعتبروا الكتابيين محل الدراسة مصدرين يعوّل عليهما في التّاريخ لنكبة مسلمي الأندلس؟

وقد انضوت تحت إشكاليتنا هذه مجموعة من الأسئلة الفرعية، من بينها:

ماهي المواضيع التي عالجاها الكتابيين مصدرا الدّراسة؟ وما علاقتها بالتّاريخ لنكبة مسلمي الاندلس؟

هل يمكننا من التعرّف على حيثيات أسباب وإجراءات وثيقة تسليم غرناطة؟ وبنودها على مستوى الأبعاد المختلفة؟

هل نستطيع انطلاقاً ممّا جاء في المصدرين اكتشاف إلى أي مدى تمّ خرق وثيقة التسليم؟

إلى أيّ مدى مكنانا الكتابيين من القدرة على رسم صورة واضحة حول أسباب وإجراءات قانون الطرد الإجماعي؟

ماهي أوجه التشابه والاختلاف بين الكتابيين مصدرا الدّراسة؟

وللإجابة على هذه التساؤلات كان لابدّ علينا من الاعتماد على مجموعة من المنهج التي يلجأ إليها الباحث فب التاريخ

لأجل المقاربة بين أنواع النصوص، وهي المنهج الاستقرائي، المنهج الوصفي، المنهج التاريخي والمنهج المقارن.

وتكمن أهمية بحثنا في التعريف بكتابين يعدّان من أهم المصادر المعترقة للمأساة التي عانتها السّاكنة الأندلسية المسلمة قبل سقوط غرناطة وبعدها، بل حتى العقد الثّاني من القرن 17م زمن إقرار قرار الطرد النهائي وإجراءات تنفيذه.

الهدف من بحثنا هو محاولتنا التّأريخ لحدث يعدّ الحدث الفاصل بين الانهيار الحضارة الأندلسية الإسلامية وعودة الحضارة النسيحية للحيّز الجغرافي المعروف اليوم ببلد إسبانيا. ومحاولة الكشف عن المادة الموجودة بالمصدرين والتي تمّنا من التّأريخ للنكبة.

أولاً: التعريف بالمرمول كربيخال وكتابه.

1/ التعريف بالمرمول كربيخال:

لويس دي المرمول كربيخال إسباني من غرناطة ولد بها في حدود 927 هـ / 1500 م. زاول دراسته الأولى في كنائس غرناطة أين مسقط رأسه، ليلتحق بالجيش فيبتعد حينها عن الدراسة النظامية لكن لم ينقطع عن شغفه بالتاريخ. (كربيخال. 2013. ص - ص 8-9، لعناني. 2017. ص 327)

خرج من مسقط رأسه للمشاركة في حملة شارلكان على تونس عام 942 هـ / 1535 م، ليظل بعدها عميلاً في افريقيا لمدة 20 سنة، وهذا ما جعله يضع كتابه افريقيا خلال فترة سجنه بها. (كربيخال. 1984. ص 1. ص 9. لعناني. 2017. ص 327)

لم تنتهي أعماله العسكرية هنا بل عاد إلى إسبانيا عام 1557 م، فعين ناظراً على تموين الجيش الملكي خلال حرب البشيرات خلال الفترة الممتدة ما بين سنتين 976-978 هـ / 1568-1570 م، ليتمكن خلال هذه الحرب مرة أخرى من وضع كتاب آخر وهو كتاب موضوع دراستنا والمعنون ب"تاريخ ثوره عقاب أندلسي مملكة غرناطة". (كربيخال. 2013. ص 11. لعناني. 2017. ص 327)

أما بالنسبة لوفاته فحددت بتاريخ انتهائه من تأليف الكتاب، لتحدد ما بين 1599 و1600 م، فهناك من قال إنه مات في العام الذي تمّ فيه تسليم القسم الثاني من كتابيه "وصف عام لإفريقيا" و"تاريخ ثورة ومقاومة أندلسي مملكة غرناطة، وهناك من يقول انه توفي أثناء الطبع للجزء الثاني لكتاب "وصف افريقيا"، إذ لم يوجد له فهرس كما سبق مع جزئي من القسم الأول، وبما أن الفهرس عمل المؤلف وليس عمل الناشر أجمع على القول إن وفاته كانت سنة 1009 هـ / 1600 م (كربيخال. 2013. ص 24. لعناني. 2017. ص 328)

2/ التعريف بالكتاب:

أ/ عنوانه:

عنون كربيخال كتابه ب"تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة"، وعليه نستشف أن نوع الكتاب هو نص تاريخي، وهذا ما يؤكده هو في كتابه إذ كلما استطرده في الوصف الجغرافي والطرائق المتبعة من طرف المطارنة في اخضاع وتنصير اهالي الاندلس قال عبارة " فلنرجع إلى تاريخنا". ومن خلال اطلعنا واستقراءنا للمادة الواردة بالكتاب يمكننا القول أن

الكتاب لم يعالج تاريخ الأندلس الإسلامية، وإنما عالج تاريخ مملكة غرناطة فقط قبيل سقوطها وبعده، فتعرض إلى ذكر الآليات والوسائل المعتمدة من طرف السلطة الإسبانية في ترويض الأندلسيين لأجل تسليم غرناطة وبعد ما سلموها، وعليه يمكن اعطاء الكتاب عنوان آخر من زاوية إسلامية عربية وهو "احتلال النصارى لغرناطة ونكبة الأندلسيين المقاومين لمجريات الاحتلال وما بعده" (كريخال. 2013. ص، ص 66، 122، 165، 182)

ب/ مصادره:

أحال كريخال إلى مصادره، وهي على ثلاثة أنواع؛ المكتوبة، المروية والوثائق بصنفها الورقية المخطوطة والنصب التذكارية.

ب-1/ المصادر المكتوبة: وهي النصوص ونجد هنا نوعين:

المصدر الذي يذكر منه اسم مؤلفه فقط، والمصدر الذي يذكر فيه اسم المؤلف وعنوان الكتاب، وتنقسم عرقيا إلى الإسبانية والعربية، فبالنسبة لصنف الأول نجد:

ب-1-1/ الإسبانية: نجده يذكر كل من، هيرنندو دي ريبره. ألسو دي بلنثية، هرنندو دي البكار، لويس كريخال، أوسوريو، بمبو نيوميلا وثيوليبو. (كريخال. 2013. ص، ص 54، 58، 68، 71. ابن الحاج السليبي. 2015. ص - ص 18-19)

ب-1-2/ العربية: يذكر لجؤه إلى النقل منها ولكن من دون تحديد إذ يقول: "بعض الكتب العربية التي استطعنا موازنتها مستيقنين"، وهو هنا عندما يتحدث عن موازنتها وإنما يقصد بذلك موازنتها مع الكتب المحلية الإسبانية كما يعبر عنهم بمصطلح الأفارقة. (كريخال. 2013. ص، ص 54، 58، 64، 71)

أما بالنسبة للصنف الذي يذكره بالمؤلف والعنوان فمهما هي الأخرى الإسبانية والعربية، بحيث:

ب-1-3/ الإسبانية: البابا بيو ومؤلفه هو "التكملة التي وضعها في تاريخ بلنوددي فرلي"، وتيتوليبو ومؤلفه هو "الكتاب الخامس من العشرية الرابعة". (كريخال. 2013. ص، ص 70، 71)

ب-1-4/ العربية: نجد في هذا لنوع كتاب "اللغة" للجوهري، "جغرافية" محمد بن جهور، "أراضي إسبانية" لابن رشيد. (كريخال. 2013. ص، ص 58، 59، 61. ابن الحاج السليبي. 2015. ص - ص 14-15)

ب-2/ الرواية الأندلسية: إذ استند في تاريخه إلى النقل على ما رواه له الأندلسيون المسنون وفق ما قالوها وشهدوا له به. (كريخال. 2013. ص، ص 71، 74، 88، 94، 116، 139، 163. ابن الحاج السليبي. 2015. ص - ص 20-22)

ب-3/ الوثائق: تطرق كريخال في كتابه إلى اعتماده على الوثائق بنوعها الورقية المخطوطة والنصب التذكارية.

فبالنسبة للورقية نجد القيادة التي أطلعه عليها احد الأندلسيين كانت لأجداده، ويصفها لنا كريخال، فيقول: "في كاغد خشين كالخرقة، مصقول جداً، وملون جداً، وكانت بعض الحروف مكبرة بالذهب..." (2013. ص 70)

أما بالنسبة للنصب التذكارية، فنجدده يصرح بها هي الأخرى من خلال قوله: "... النقائش المنقوشة في الحجارة القديمة"، "الكتابات القديمة على الأملاك الموجودة داخل محيطه..."، "... الحروف العربية المكتوبة على طابية جدار قديم". (كريخال. 2013. ص، ص 71، 73، 74)

ج/ منهجه:

ج-1/ منهجه في الإحالة وذكر مصادره: انطلاقاً مما جاء في الحديث عن مصادره نجد كريخال يستعمل الفاظ وعبارات مكنتنا على تحديد نوع المصدر، وهي:

مصطلحات تدل على اطلاعه على الكتاب الذي ينقل عليه او منه كقوله: " ناقلا في هذا الخصوص عن...."، "وهذا ما يقوله..."، "ويذكر الكتاب..."، "كما يقول الجوهري في لغته ومحمد بن جهور في جغرافيته..." وكما يقول ابن رشيد في كتاب وضعه في قرطبة بأمر خليفه دمشق"، بالإضافة إلى مصطلحات أخرى مثل قوله: "يذكرها"، "يتحدث عنها"، "يعطينا"، "يقول"، "يذكرها في الكتاب" و"اطلعنا" (كريخال. 2013. ص، ص 54، 58، 59، 70، 64، 68، 61، 73، 71)

مصطلحات تدل على اعتماده للرواية الشفوية، فاستعمل ألفاظ تدل على أن المعلومة انتقلت عن طريق الحديث والكلام، فيقول: "قال"، "يقول" و"حكى". (كريخال. 2013. ص، ص 74، 88، 94، 139، 116، 163)

ج-2/ منهجه في التأليف:

-الإشارة إلى أن الفقرة منقولة حرفياً، مثل قوله: "وانتهى هنا ما قاله ابن رشيد" (كريخال. 2013. ص 64، 67)

-لجوؤه إلى الوصف الجغرافي الدقيق جداً؛ إذ تشعر وأنت تقر له في أنه يصور لك المكان، فيعرفك على كامل تفاصيل المدينة، والمسافة التي بينها وبين المدن المحيطة بها، وفي هذه الأثناء يمدنا بمعلومات طوبوغرافية كثيرة، فغالبا ما يشرح أصل تسمية المدن ومدلولاتها. (كريخال. 2013. ص، ص 64، 65، 70، 73، 75، 76)

-الاستطراد في ذكر المعلومات الجغرافية ومحاولة العودة إلى التاريخ في حاله حدوث ذلك. (كريخال. 2013. ص 66)

لجؤه إلى الاستقراء، المقارنة، التحليل والاستنتاج وغالبا ما يصرح بذلك. (كريخال. 2013. ص، ص 67، 68، 71، 75)

-اعتماده على الجزم في بعض المرات؛ إذ يقول في إحدى الفقرات: "ونقول هذا على يقين كبير لأننا اجتهدنا في معرفته وكذلك بناء على رواية الأندلسيين المسنين وبناء على الكتابات العربية والنقائش المنقوشة في الحجارة القديمة". (كريخال. 2013. ص 71)

- أمّا في مرة أخرى فنجدده يأخذ مبدأ الانحياز في قولع "وهو ما لا أكده ولا أنفيه" (كريخال. 2013. ص 77)

-الوصف الدقيق لحيثيات المكان العمراني، وذلك عند حديثه عن تشابك الزليج وطراره في ساحه قصور قومارش الغرناطي. (كريخال. 2013. ص 82)

-التحدث عن الحكام المسلمين والإشارة إليهم بالكنية بدل الاسم لأجل عدم الوقوع في الالتباس والخلط، بسبب عدم كعرفته واطلاعه على أخبارهم من المصادر العربية. (كريخال. 2013. ص 119)

-معرفته بقواعد الأمانة العلمية، ونلمس هذا من قوله: "لبيقى القارئ راضيا نورد هنا الاتفاقيات بنصها كما عقدها الملك والملكة..." (كريخال. 2013. ص 143).

-استعمال بعض المصطلحات والعبارات الدالة على تعصبه الديني، وعلى بروز نوع من الذاتية ونظرته العنصرية والتحقرية لعنصر المسلمين، مثل قوله: "المسلمون وهم أعداء إيماننا المقدس في إسبانيا..."، "الملوك الكفار..."، "تنصر الكفار"، "كثير من الأمم الأخرى الهمجية"، "الهمجين الأدلاء". (كريخال. 2013. ص، ص 61، 83، 113، 163، 172، 178)

د/ أهمية الكتاب:

على الرغم من كون نوع الكتاب نص تاريخي سياسي، وأن غاية مؤلفه هي التأريخ للثورات التي قام بها المسلمون كرد فعل على التوسع المسيحي نحو غرناطة وحوزتهم لها، والعقوبات التي طبقتها السياسة الإسبانية على المسلمين القائمين ضدها أو غير الموافقين للدخول طواعية في دين الدولة. والمتثلة أساسا في "نكبة المسلمين ومعاناتهم قبيل وبعد تسليم الملك المسلم لمدينة غرناطة للملكين الإسبانيين في نهاية عام 1491".

إلا أن المعلومات التي جاءت بالكتاب مهمه جدا في الجانب الاقتصادي يمدنا بمعلومات حول الثورة الغابية والمنتجات الزراعية والفلاحية خلال الفترة المدروسة، كما يشير إلى موضوع وقضية التجمعات السكانية بالنسبة للجانب الاجتماعي. لكن أهميته القصوى تبرز في الجانب الجغرافي-الطوبونيبي. (كريخال. 2013. ص، ص 61-69، 70-73، 76-81، 84-86، 89، 91، 127، 130، 137، 161، 141، 185، 173)

ه/ نقده:

عند قراءة الكتاب حرفيا نجد وقوع كريخال في بعض الأخطاء، وقد انتبه لها مترجم الكتاب، وهي:

-وجود خلط في أسماء الحكام المسلمين بنو الأحمر وهذا دليل على عدم احاطته بكامل المعلومات حولهم مثل الخطأ في ذكر اسم الحاكم الذي أنشأ وأسس مملكة غرناطة، وهو ابو الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف (968-890هـ/ 1464-1485م). (كريخال. 2013. ص 80. فرحات. 1993. ص 58)

-وجود خلط في التواريخ الهجرية؛ إذ لم يرد تاريخ هجري واحد صحيح عند مقابلته بالتاريخ الميلادي. (كريخال. 2013. ص، ص 81، 113، 116، 120، 129)

-وجود بعض الاخطاء والهفوات، مثل لفظ "الأمريق" وربما يقصد به "الأمازيغ"، وكذلك نجده يخلط بين "طارق بن زياد" فاتح الأندلس وطارق شخص اخر فيسميه "طارق بن ساره". (كريخال. 2013. ص، ص 69، 73)

ثانيا: التعريف بأفوقاي (أحمد بن قاسم الحجري) وكتابه:

1/التعريف بأفوقاي:

أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي ولد في قرية الحجر الأحمر بغرناطة عام 977 هـ/ 1579 م، ولا يوجد له ترجمة في كتب التراجم، إلا ما تبقى من مختصر رحلته وكتابه "العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" (الحجري. 2004. ص 11. الخطيب. 2018. ص-ص 13-14)

يلقبه المغاربة بالشهاب، أمّا الإسبانين فيلقبونه بالبخيرانو(Bejerano) ؛ إذا اضطر بإسبانيا إلى حمل اسم يعرف به عند العامة ولا يوحى إلى كونه عربي مسلم. كما عرف أيضا بأفوقاي وهو تحريف لكنيته أبو القاسم أو هو اسم أسرة أندلسية ما زالت بقاياها موجودة بتطوان ويعرف أبنائها اليوم بأولاد "الفقاي" (الخطيب. 2018. ص 14)

في حين هناك رأي آخر حول مفهوم لقبه أفوقاي وهو أن اللقب الذي عرف به بين الأندلسيين المطرودين وهو تحريف لكلمة "أبوكادو" والتي تعني باللغة الإسبانية "المحامي"، وهذا بسبب مهمته التي كلف بها عندما بعث سفيرا إلى بلاد الفرنجة للدفاع عن الأندلسيين المهوبين من قبل ربابنة السفن الفرنسية. (الخطيب. 2018. ص-ص 14-16)

نشأ أفوقاي وترعرع بغرناطة وعانى مما كانت تعانيه كامل الساكن الأندلسية منذ بدء خرق بنود وثيقه التسليم، فتعلم العربية و مارس الإسلام في الخفاء إلى أن اكتشف أمره بعد عمله كمترجم لدى الإسبان، لكنه فضل الخروج والهروب بدل البقاء فرحل إلى المغرب سنة 1007 هجري 15891599 ميلادي، قبل اصدار قانون الطرد بحوالي 11 سنة. (الشمالي. 2015. ص-ص 969-970)

فاشغل أفوقاي مترجما للبلاط المغربي منذ أواخر عهد المنصور الذهبي وكذلك زمن السلطان زيدان وابنه عبد الملك والوليد، رحل إلى بلاد الفرنجة كما اصطلح عليها في كتابه المدرس، وهي كل من فرنسا وهولندا في الفترة الممتدة من 1611-1613م، ثم ذهب في رحلته إلى الحج، وعن عودته توقف في مصر، فالتقى بالشيخ الجوهري فأمره بتدوين مناظرات ضد النصارى فلبّ الطلب، ثم ذهب إلى تونس في نفس العام. (الحجري. 2004. ص-ص 11-12)

2/ التعريف بالكتاب:

1-2/ عنوانه:

قد يتساءل البحث عن وجود مؤلفين لنفس الرحالة والعالم والترجمة، ألا وهو أحمد بن قاسم الحجري المعروف بأفوقاي؛ إذ نجد النسخة المنشورة من طرف المجلس الأعلى للأبحاث العلمية والوكالة الإسبانية للتعاون الدولي من تحقيق وتقديم وترجمة كل من شوردي فان كوننكز فلد وقاسم السامرائي وخيرارد فيخرز، ضمن سلسلة المصادر الإسبانية في العدد 21، تأخذ عنوان "كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين" وقد جاءت بعدد 206 صفحة. في حين نجد النسخة التي حررها وقدم لها محمد رزوق سنة 2004 والتي تكفلت بنشرها دار السويدية للنشر والتوزيع بالإمارات والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت وقد عنونت ب"رحلة أفوقاي الأندلسي"، وهي مختصر لكتاب آخر جاء

بعنوان "رحلة الشهاب الى لقاء الأحياب" كتبها ما بين سنتي 1611 و 1613. وقد جاءت بالتعداد 188 صفحة وهذه هي النسخة المعتمدة في بحثنا .

ويقول الباحث محمد رزوق في تقديمه للكتاب ان السبب الذي جعل أحمد بن قاسم الحجري يضع كتابه هذا هو طلب من الشيخ علي الجهوري سنة 1047هـ/ 1637م. (2004. ص 12)

يرد لنا على لسان أفوقاي في تقديمه للكتاب أنه عبارة عن مختصر للمناظرات التي وقعت له مع النصارى في الكلام في الدين يشير إلى أن النص عبارة عن رحلة ثم بعد ذلك يشير إلى أنه عنون كتابه هذا ناصر الدين على القوم الكافرين. (الحجري. 2004. ص 22)

ولذا حاولنا اللجوء الى وضع عنوان رحلة أفوقاي الأندلسي من مبدأ الحياد، وهو عبارة عن مختصر لكتاب لم يصلنا عرف بعنوان، ألا وهما "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحياب" و "ناصر الدين على القوم الكافرين"، وعليه انطلقا من العنوان نقول إن نوع النص عبارة عن رحلة، ونوع هذه الاخيرة هو الرحلة السفارية؛ وذلك لاعتبار أن مؤلفها كان غرضه الأول من قيامه بالارتحال هو الخروج والسفر إلى بلاد الفرنج للمطالبة بالأندلسيين الذين تمت سرقتهم من طرف البحار الفرنسيين (الشمالي. 2015. ص 59)

2-2/ مصادره :

الملاحظ من خلال استقراء الكتاب أن أفوقاي لا يصرح بمصادره غالبا ما عدا أنه أحيانا أشار إلى بعضها الشفوية منها والمكتوبة، فبالنسبة للأولى نجده يستسقيها من عند الأندلسيين والمصريين، وهذا لاعتبار أن تدوينه لرحلته هذه كان بمصر بالإضافة إلى تطرقه لموضوع "نكبه الاندلسيين" بعد خروجه بإحدى عشرة سنة من إسبانيا. (الحجري. 2004. ص، ص 99، 105)

أما بالنسبة للمصادر المكتوبة، فيمكن القول انها الكتب التي تعلققت بمناظراته ومناقشاته مع النصارى في موضوع التوحيد على وجه الخصوص ولم يصرح بها ما عدا التوراة والقران، كما أشار إلى بعضها عموما دون تحديد، مثل قوله: "في بعض كتب عبد الوهاب الشعراوي"، "وطالعت بعض الكتب التواريخ المسلمين فيما وقع لهم من الحروب..." الحجري. 2004. ص، ص 79، 116)

2-3/ منهجه:

فيما يخص المنهج المتبع من طرف أفوقاي في تحريره لكتابه يمكننا الإشارة إلى اتصافه نوعا ما بالأمانة العلمية؛ إذ حاول الإشارة الى النصوص المتطرفة للمواضيع المعالجة في المناظرات في كتابات الآخر، وعلى وجه الخصوص التوراة. (الحجري. 2004. ص، ص 22، 79، 88، 102)

كما يمكن هنا التطرق إلى تخلل معلومات جغرافية للنص، والمتمثلة في وصف موقع البلد وابعاده والمسافة بينه وبين دول الجوار. (الحجري. 2004. ص، ص 43، 47، 79، 97، 115)

أما بالنسبة للمفردات فنجدته يلجئ إلى ادراج بعض المفردات من العامية المغربية مثل "عياط المولود"، "الحوايج"، "أدحاني"، "قاسحون"، "اللطين"، "الصباط". (الحجري. 2004. ص، ص، 64، 65، 73، 104، 110، 122)

بالإضافة إلى استعماله للمفردات الإسبانية بحروف عربية كقوله: "الضيمنت" عن الألباس و"المبآت" عن الخرائط الجغرافية، وهي جمع لكلمة "mapa" بالعربية، وذلك نجلد لفظ "البابس" عند جمعه لكلمه "بابا" التي جاءت عنده ب"باب". (الحجري. 2004. ص، ص، 59، 69، 99)

يمكننا تفسير استعماله لهذا النوعين من المفردات إلى كونه عاش قرابة الثلاثين سنة ببلد إسبانيا أين تمت محاربته ومحاربه اللسان العربي بشتى الطرق، فهو لم يتمكن من استعمال اللغة إلا في الخفاء، وهذا ما جعله يسقط في بعض الهفوات علاوة على انتشار لغة الألبان وأندلس وبالتالي تأثره بها وتطبيقها بحالة عكسية. (الشمالي. 2015. ص، 969)

كما نلمح تأثره بألفاظ الفقهاء في المصطلح الذي أطلقه على الأندلس عند تحولها إلى إسبانيا؛ إذ يقول الكفار وبلاد الشرك. (الحجري. 2004. ص، ص، 45، 49)

كم نلاحظ حرصه التام على إطلاق مصطلح "الأندلس" على الساكنة والبلاد، فلا نجده يستعمل مصطلحا آخر غير الأندلس (الحجري. 2004. ص، ص، 19_30، 34، 35، 38، 40، 41، 43، 44، 48، 49، 52، 53، 58، 59، 65، 70، 77، 78، 83، 88، 96-100، 703، 105، 109، 110، 112، 113، 115، 116، 118، 119، 133)

4-2/ أهميته:

بالرغم من أن جل مواضيع الرحلة جاءت في قضايا المناظرات التي قام بها أفوقاي مع النصرار، وأن هذا هو سبب تأليفه لها؛ إلا أن فيها معلومات في غاية الأهمية لما تحتويه من مادة خبرية تمكننا من التأريخ للأندلس بعد تسليم غرناطة وإقرار قرار الطرد النهائي سنة 1609م بأمر من الحاكم فليب الثالث. (زروق. 1998. ص، 10)

لذا يمكن اعتبار هذا النص أهم مصدر تاريخي أندلسي كتب بعد صدور قرار الطرد الأندلسيين، علاوة عن كون مؤلف الرحلة يمثل دور المثقف الباحث عن هوية حجبت منه لفترة من الزمن بسبب ممارسة سياسة الاقصاء، فيأخذ دور الشاهد على مجريات عديدة أخفقت الذاكرة العربية في إبرازها. (الشمالي. 2015. ص، 971)

كما تكمن لنا أهمية النص في تغيير موازين التأثير والتأثير؛ إذ نلمس تأثير الغالب بالمغلوب على عكس العام وعلى عكس ما جاء في كتاب كربخال، ويعود السبب في ذلك إلى أزمة الهوية التي أحدثها الآخر في ذهنية الأندلسي صاحب الرحلة. (الشمالي. 2015. ص، 973)

ثالثاً: الأندلس قبيل سقوط غرناطة؛ تأزم العلاقات بين سلاطين بني الأحمر واستغلال الملوك النصراري لذلك:

يعدّ التصادم والشقاق الحاصل في صفوف الأسرة النصرية من أهم النقاط التي عجلت بسقوط غرناطة، إذ شهدت العلاقة بين الأب والابن والعمّ حروب ضارية خلال العشر سنوات الأخيرة من الحكم الإسلامي في غرناطة، "فبينما كان

يسعى الملكيين الكاثوليكين في الفتح ... كان المسلمون كان المسلمون يتحاربون فيما بينهم بضرارة" (كريخال. 2013. ص. 115. 117)

وكمثال عن التفرق القوى وضياع التلاحم هو تعيين النصارى للملك أبو عبد الله الصغير بن علي بن سعيد، المعروف بالزغبي (892-897هـ/1487-1491م) على كل المناطق الممتنعة عن طاعته لطاعة عمّه وأبيه، فوفروا له العتاد وطلبوا منه محاربتهم، ففعل ما أمر منه وبهذه الطريقة تمكّنت السلطات الإسبانية من تقسيم قوّات عدوها والمحافظة على ما أخذته من مناطق من المسلمين. (كريخال. 2013. ص 122، فرحات. 1993. ص58)

ولم يتوقف الأمر هنا فقط؛ بل عملا الملكان الكاثوليكيان على جعله مواليا لهما، يشن الحرب باسمهما على كامل المسلمين المعارضين لحكمهما، ويؤدي الإتاوة كحق لهما كل عام، وبهذا كان الزغبي يحارب أبوه وعمّه وكل البلدان الثائرة لصالح النصارى. (كريخال. 2013. ص118)

كما نجد مثالا آخر فيما يخص الإنقسام، وهو تحالف أبو عبد الله محمد بن سعيد الزغل (890-892هـ/1485-1487م) مع الملك النصراني، داعيا أهاليه ورعيته لطاعة النصارى وخدمة الجيش النصراني ضدّ ابن أخيه الزغبي في مقابل حصوله على بعض الامتيازات. (كريخال. 2013. 134، فرحات. 1993. ص58)

ونلمس جليا استغلال النصارى لشقاق الحاصل بين صفوف أسرة بنو الأحمر، من خلال علاقة الملكين الكاثوليكين بالملك الزغبي، بعد تعيينه ملكا على غرناطة والاتفاق معه على تسليمها في حال تمكّن من كسب مدن عمّه في أجل مدّته 30 يوما لينعما عليه ببعض البلدان أين يعيش هو ورعيته. فكتبت للزغل بأن يسلم بلدانه لحم ابن أخيه في أجل أقصاه 6 أشهر، وإلا فأنهم سيحاربونه ويأخذونها منه عنوة، وقد حدث ذلك بالفعل. (كريخال. 2013. ص129)

وبعد كلّ هذا لم يتبقّ للزغبي إلا أن يفي بعهده ويسلم غرناطة، فتردّد في بادي الأمر بسبب التّمّو الديمغرافي الذي شهدته في أعوامها الأخيرة، خصوصا وأنّ كل مسلمي المناطق التي طالها الإسترداد لجأوا إليها لاعتبار أنّها تحت الحكم الإسلامي. لكن السلطة السياسية الإسبانية عرفت كيف تروضه، من خلال منحه لبعض الامتيازات في منطقة البُشُرَات، هذه الأخيرة التي عرفت ثورة مهولة سمّيت نسبة لها سنة 1501-1502، أخمدها الإسبان بطرائق وحشية ولا تمتّ للإنسانية بأي صلة. (كريخال. 2013. ص-ص 136-137، زروق. 1998. ص60)

رابعا: تسليم الزغبي مدينة غرناطة للنصارى وما جاء في وثيقة التسليم.

يشكل حدث سقوط غرناطة بحكم النصارى، الحدّا الفاصل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية، وبين سقوط الأولى وقيام الثانية في البلاد الإسبانية حدث ما يعرف بنكبة مسلمي الأندلس، فجيلوا على اتباع القوم الغالبيين لاعتبارهم قوم مغلوبين. (الفزاوي. 2020. ص 106)

1/ هدنة ما قبل تسليم غرناطة:

طلب الزغبي قبل الشروع في تسليم مدينته للنصارى هدنة، ليتمكن خلالها من وضع وثيقة التسليم، موضحة في طياتها بنودا اعتبرت أهم الحقوق والشروط والامتيازات التي استسلم بها المسلمون في الخضوع لحكم النصارى.

وخلال فترة الهدنة حاول النصارى إرضاء الزغبي بكل ما يملكون من حيل -لأجل ألا يتردد عن قرار التسليم-، فأنعموا عليه بمجموعة امتيازات والمتمثلة مجملها في: (كريخال. 2013. ص-ص 144-147)

- أن له الحرية التامة في العيش في أي موضع يقوم باختياره، مع ضمان الحفاظ على كلّ صلاحياته عند التسليم.
- أن تسلّم له كامل البلدات وأمكنة الطاعات الموجودة في البشّرات ليعيش فيها مع رعيته المسلمة، ويحق له التحكّم فيها كيفما أراد مع كلّ الجبايات والنحلات والحقوق والمستفادات المتنوعة لتصير تحت ملكه.
- الحفاظ على كامل الأملاك الخاصة بنساء الأسرة الملكية الموجودة في البشّرات، وعدم التعرض لها لا بالنصب ولا بالجور.
- الحرص على إبقاء أصول المسلمين في أيديهم ورد ما أخذ منهم، أو محاولة تعويضهم بقدره من المال.
- بمجرد أن يسلم لهم كامل القلاع التي كانت تحت حكم بي الأحمر بغرناطة؛ فإنّه سيأخذ في المقابل مبلغا ماليا قدره 30 ألف دينار قشتالي، والمساوي لأربعة عشرة مليون وخمسة مائة وخمسين ألف دينار مرابطي.
- سوف يتم تسهيل عملية المرور إلى بلاد المغرب لكل من الأسرة الملكية، أهل بيتها، وقوادها، وخدامها ووصفائها متى شاءوا، كما ستعمل السلطات على توفير وسائل لأجل العبور، مع السّماح لهم لأخذ كلّ ممتلكاتهم الثمينة وكل هذا مجاني، مع الحرص الشديد على سلامتهم في النفس والبدن والمال.

لكن ثمّ قرن هذه الامتيازات بشرطين، وهما تسليم المدينة في مدّة زمنية أقصاها أربعون يوما، تبدأ منذ اليوم الذي يتم فيه وضع الوثيقة، بالإضافة إلى تقديم رهائن للسلطة الإسبانية كدليل على قبول تسليم القلاع، والاتفاق على أنّه متى سلّمت تمّ إطلاق سراحهم. (كريخال. 2013. ص 148)

2/ أبعاد بنود وثيقة تسليم غرناطة:

تعرف وثيقة تسليم غرناطة بأنّها الوثيقة التي أسست لبداية تاريخ جديد للأندلسيين ومدينتهم، وقد تمّ عقدها يوم 21 محرم 897 هـ الموافق ل 28 نوفمبر 1491م، كان الغرض الأساس من عقدها هو حفظ الحقوق الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للمسلمين بعد تغيّر الحكم الإسلامي بالنصراني، وقعت من طرف الحاكم المسلم والحاكمين الكاثوليكين ونالت موافقة البابا وبتّم التسليم الحقيق لمدينة يوم 02 جانفي 1492. (كرخال. 2013. ص، ص 140، 144، 158. عناد. 2018. ص 49.)

فاتفق بعد توضيح هذه الامتيازات والشرطين الملك الغرناطي على توثيق معاهدة الاستسلام، موضّحاً فيها بنودا اعتبرت شروط قبوله التخلي عن الحكم وتسليم المدينة للملك الإسباني. وسنحاول بعد تحليلنا لخطاب الوثيقة تقسيم هذه البنود حسب الابعاد التي تناولتها، وهي كالتالي:

1-2/ بنود ذات بعد سياسي: وتتمثل في:

- قبول السلطة الإسبانية الحاكمة لكامل الاندلسيين المسلمين عامّة وخاصّة، متى سلّمت القلاع؛ كرعايا شرعيين وموالي لها أمنين على ذمتها وفي جوارها الملكي. مع الحفاظ على أحقيتهم في التصرف في ممتلكاتهم العقارية مدى الدهر، وفي حال حدوث إختراق لهذا البند يجب رفع الأمر إلى الحاكم بدعوة قضائية للفصل في القضية. (كريخال. 2013. ص149)
- من يرغب بالخروج من إسبانيا والمرور إلى بلاد المغرب أو إلى أي بلد، بإمكانه ذلك، مع قدرته التامة على بيع أملاكه لمن أراد ومتى أراد، ولن يستطيع حيازتها منه أي شخص؛ إلاّ بواسطة عقد بيع وشراء. (كريخال. 2013. ص150)
- تحديد مدة 3 سنوات، كمدة يستطيع أي شخص مسلم خرج فيها من إسبانيا إلى أي بلد مهاجرا- لكنّه لم يستطع الاستقرار بالبلد الجديد- العودة إلى إسبانيا من دون أي عراقيل، وبقبول تام من طرف السلطة الحاكمة. (كريخال. 2013. ص-ص150-151)
- الإستفادة التامة والدائمة لكلّ من المسلمين واليهود من جميع بنود الوثيقة، مع حرية اختيآرهم لخيار المرور إلى البلاد المغربية في حال لم يقبلوا التنصّر في أجل أقصاه 3 سنوات. (كريخال. 2013. ص151)

2-2/ بنود ذات بعد اجتماعي: وتتمثل في:

- عدم تمييز المسلمين عن النصارى كفئة اجتماعية، من خلال وضع علامات خاصّة. (كريخال. 2013. ص147)
- تسريح كامل الأعيان والوصفاء الذين تمّ أسرهم، مع تسليم جميع الأسرى المسلمين من غير عملية الافتداء، في أجل أقصاه ما بين 5 أشهر و8 أشهر بحسب المناطق والبلدات، وفي حال لم يتم تحرير البعض وتمكّنوا من الهروب بعد ذلك، فهم أحرار في أي زمان ومكان هربوا إليه. (كريخال. 2013. ص-ص152-153)
- احترام حرية الجوار، ومن انتهكها من النصارى عوقب على الفور. (كريخال. 2013. ص148)
- الحفاظ التام على العادات والتقاليد والأعراف المتفق عليها من طرف المسلمين والمعمول بها، وعدم محاولة تغييرها أو طمسها مع مرور الزمن. (كريخال. 2013. ص157)

3-2/ بنود ذات بعد اقتصادي-مالي:

- عدم فرض مغارم لا على العامة ولا الخاصة، ما عدا الأعشار المعمول بها والمتعارف عليها وفق برنامجها الزممي. (كريخال. 2013. ص، ص151، 152، 153)

- الحفاظ التّام على ملكية المسلمين لأموالهم من عقارات وأموال، وعدم حيازتها مع مرور الوقت، وعدم مطالبهم بعد مرور مدّة 3 سنوات بإخراج ما يزيد عمّا يحدد قانونيا على كامل أملاكهم. (كريخال. 2013. ص، ص 146، 155)
 - حرية تنقل المسلمين في كامل البلاد الإسبانية مع إمكانية خروجهم إلى بلاد المغرب لغرض الاتّجار متى أرادوا. (كريخال. 2013. ص 154)
 - أملاك المسلمون من عقار ومال تبقى لهم وإن عبروا إلى الضفّة الشرقية للبحر المتوسط، ففي حال لم يتكّنوا من أخذها لأي سبب كان، يقومون بتعيين وكلاء يكلفونهم ببيعها أو ارسالها لهم إلى حيث يشاؤون دون فرض من طرف السلطة الإسبانية. (كريخال. 2013. ص 145)
- 4-2/ بنود ذات بعد القانوني-القضائي:

- العفو التّام على كامل السّجناء المسلمين، الذين تمّ سجنهم بتهمة قتلهم للتّصاري زمن الحروب، مع عدم مطالبهم بتعويض ما أخذوه. (كريخال. 2013. ص 153)
 - الإبقاء على احتكام المسلمين فيما بينهم بشريعتهم، والفصل في دعاويهم بقانون السنّة، أمّا بالنّسبة للدّعوي المختلطة بن مسلم ونصراني، فإنّه يجب أن يفصل فيما بوجود قاض مسلم وقاض آخر نصراني. (كريخال. 2013. ص، ص 150، 153)
- 5-2/ بنود ذات بعد ديني:

- الإلتزام والحرص على العمل بمبدأ حرية الاعتقاد وتطبيقه في كامل البلاد، مع عدم محاسبة كل من دخل في دين الإسلام قبل عقد وثيقة التسليم. (كريخال. 2013. ص، ص 150، 154)
 - عدم ارغام وقهر أي مسلم أو مسلمة على التنصر من غير رضاهما، مع احترام الشّعائر الإسلامية والإبقاء عليها. (كريخال. 2013. ص، ص 150، 152)
 - الحفاظ على هياكل ممارسة العبادات مع كامل ملاحقها، وخصوصا دور الأوقاف. (كريخال. 2013. ص-ص 149-150)
 - تفعيل عمل المحتسب من خلال حفظ الأكل، خصوصا اللّحوم مع العزل التّام لمجازر المسلمين على مجازر النصراني لتفادي وقوع أي اختلاط، وكذلك حفظ الماء، ويكون من خلال الحرص على نظافته وعدم نجاسته بالقاذورات أو المسكرات، والإبقاء على تراتيب مياه العيون والسواقي كما عرفت خلال الحكم الإسلامي. (كريخال. 2013. ص، ص 148، 157)
- 6-2/ بنود ذات بعد عسكري:

- إبقاء السّلاح الذي هو ملكية خاصة للمسلمين في أيديهم عدم محاولة انتزاعه منهم مدى الدهر. (كريخال. 2013. ص150)
- عدم إرغام أي مسلم على الخدمة العسكرية في جيش النصارى، وفي حال تمّ استخدام البعض -برضاهم- على الخيل، فإنّه تدفع لهم أجرتهم على كلّ يوم. (كريخال. 2013. ص 157)

3/ أجواء يوم التسليم وما بعده:

يمدّنا كريخال بوصف لظاهر وباطن الملك المسلم عند تسليم وثيقة الاستسلام والتخلي عن حكم غرناطة للملكين النصرانيين هرنندو وإليزابيت، فيقول أنّ ملامح الحزن والتّدم كانت بادية على وجه الزغيبي بوضوح تامّ، ولكن باطنيا فيصوّر لنا كريخال عدم رضا الملك المسلم بالتسليم وفق الشروط المتفق عليها، ويحاول تفسير رأيه هذا في الارتجاج الحادث في المكانة الاجتماعية للزغيبي؛ إذ انتقلت من صفة السيّد المالك إلى صفة المولى المملوك، وعليه فقلبه متقلّب لا يرض بالاستبدال الحادث، وكذلك هو أمر الرعية التي لم تبدِ رضاها على بنود التسليم، والسبب يرجع إلى أمور نفسية؛ إذ صاروا قوم مغلوبون. (2013. ص- ص 158-159)

ويمكننا هنا التعليق على رأي كريخال، فنقول أنّه أجاد وأخطأ، فمن المؤكّد أنّ تسليم غرناطة لم يكن بالأمر الهين لا على الملك ولا على رعيته، فالسبب الرئيس في عدم إبداء القبول بالسلطة النصرانية - الإسبانية. يعود إلى معرفة الساكنة المسلمة للأندلس أنّ الصبغة الحقيقية والجوهرية التي شُنّت بها الحروب الصليبية بالبلاد منذ عهد ملوك دويلات الطوائف (ق5هـ/11م)، هي كونها عبارة عن حملات عسكرية-دينية، تحاول القضاء على الآخر (المسلم)، واقتلاع جذوره كلياً، وهذا ما ترجمت له النكبة.

يقدم كريخال وصف دقيق لأجواء التسليم من خلال تحدّثه عن خضوع الزغيبي للحاكم الجديد لغرناطة "هرندو"، وقيامه بتقبيل يده، في حين تحفّظت الرعية مبدئياً؛ إذ قبعت يوم التسليم في الديار، لتقدّم طاعتها بعد مدّة قصيرة. بعد رؤيتها لسرور أعيان البلد وذاهبهم للقصر الملكي لإبداء الموافقة على الحكم النصراني للبلاد من الانحناء للملكين الكاثوليكين وتقبيل يديهما. (2013. ص، ص 162، 164)

4/ معاملة الملكين الكاثوليكين للمسلمين في بداية الأمر:

تفطنّ الملكين الجديدين لغرناطة بأنه لأجل استتباب الأم والسلم مبدئياً بالمدينة لابدّ عليهما من تغيير السياسة الأولى التي اتبعاها مع الرعية المسلمة قبل التمكن من الاستلاء على غرناطة؛ فحاولا كسب الأهالي من خلال منحهم لامتيازات وإنعامات كثيرة، وتطبيق ما تمّ الاتفاق عليه لأجل القبول بالتسليم. (كريخال. 2013. ص165)

ويعود سبب هذه المعاملة إلى كون البلاد لم تؤمن بعد بصفة نهائية، فالفترة الزمنية وقتئذ لا تبعد كثيراً عن الحروب الضارية التي خاضها المسلمون ضدّ النصارى، وعليه فمعظمهم يمتلك أسلحة، ناهيك عن كونهم أهل البلد فهم يعلمون كل نواحيه وما ينفذ من لطرائق الحربية في كل ناحية. (كريخال. 2013. ص172)

خامسا: مظاهر نكبة مسلمو الأندلس بعد سقوط غرناطة.

بمجرد أن ائتمنت النصارى عدم قيام المسلمين بحروب ضد السلطة السياسية، تمّ خرق بنود معاهدة الاستسلام - وثيقة تسليم غرناطة-، فتمّ حينها التعدي على النفس والمال والدين، ومن بين الأساليب التي حورب بها الوجود الإسلامي. بإسبانيا الملكين "هرنندو" وإليزابيت" وما بعدهما. انطلاقا ممّا جاء في الكتابين موضوع الدراسة، نذكر:

1/ التنصير القسري:

يعود المرمول كريخال بالزمن قليلا إلى الوراء قبل تسليم غرناطة وبالضبط إلى سنة 1485، فيصوّر لنا أنّ المسلمين كانوا موافقين على الانضواء تحت إمرة النصارى، والدخول في دينهم من دون أحداث أي مشاكل؛ بل بالعكس كانوا فرحين جدا بكونهم صاروا مدجنين وموالي لديهم. ويزيد عن هذا في الإقرار بأنّ الملكين كانا يحترمان حرية الاعتقاد، ومنح المسلمين حرية العيش وفق شريعتهم، فلم يجبرا أحدا من على التنصّر، وإنّما المسلمون هم من رغبوا في الدخول في الدين الجديد من دون أي ضغوط ممارسة عليهم. (2013، ص 121)

لكن بعد سنة 1492، استثقل رجال الدين وجود مسلمين يعيشون ببلدهم فطلبوا من السلطة السياسية إقرار عملية التنصير، فتمّ ذلك سنة 1495؛ وعليه صار التنصير حينها إجباريا. ففوضا الملكين لأجل ذلك مطارنة مؤهلين، مع توصيتهم بالحرص على اتباع سياسة حسنة أثناء عملية التنصير لأجل تفادي حدوث أي مقاومة أو ثورة، فلجأ المطارنة إلى البدء بالفقهاء والمرابطين وأهل الرأي، من خلال مجادلّتهم بالتي هي أحسن في أمور دينهم، وإغرائهم من خلال الإنعام عليهم بامتيازات لأجل التأكيد من كسبهم، والاعتماد عليهم في تنصير العامة. (كريخال، 2013، ص، ص 171، 174، 177)

ويصوّر لنا كريخال أنّ عملية التنصير جرت وفق ما خطّط له، فقد كان يذهب المسلمون إلى دار العقيدة، وهي المكان المخصص لمن يرغب في التنصّر، ويتحدّث عن حسن تعامل المطارنة مع المسلمين واجتهادهم في استدراجهم لتنصّر في قوله: "كسبت بالتدبير الحسن والعمل الحذق واليقظة والصلوات، وأنموذج الحياة الصّالحة ... إذ الله بركة فيها، شغلت خواطر المسلمين ... حتى لم يكن أي شيء أكثر تقديرا ولا أكثر تبجيلا ولا أحب إليهم من أن يصل إلى أسماعهم من اسم رئيس الأساقفة الذي كانوا هم يسمونه فقيه النصارى الأكبر". (1013، ص، ص 167، 168)

لكن هذا لم يمنع من قيام بعض الثورات ضدّ حركة التنصير، إذ قاد أحد أعيان المعروف ب"الثغري الساطور" الذي كان من الرافضين وبشدة تنصّر المسلمين، وفي لفته يمرّ كريخال على الحديث عن عملية قبضه وترويضه من طرف السلطة الدينية، فيتساءل عن السبب الذي جعله يغرّ رأيه تجاه حركة التنصير، هل لاقتناعه التام بالدين الجديد وانفتاح بصيرته أم القوة التي طبقت عليه في حبسه الضيق، وعلى الرغم من كونه يرجّح السبب الأول، إلّا أنّنا نرجح السبب الثّاني. (2013، ص 176، زروق، 1998، ص، ص 59، 60)

كما نجد إشارة إلى ثورة مسلمي البيازين الرافضين هم كذلك لحركة التنصير، لكن السلطة السياسية والعسكرية الإسبانية عرفت كيف تعالج أمرها وإن استصعب عليها ذلك في البداية، إذ دامت لمدة عشرة أيام لم تتمكن فيها الشرطة من إخمادها من خلال ترويض الهاتفين بالحرية والقيام ضدّ السلطة السياسية الخارقة لبنود وثيقة التسليم، ليتمكن

أخيرا الأساقفة من إخمادها بأقل الأضرار الممكنة بالنسبة لهم، أما بالنسبة للمسلمين فقد تمّ اللجوء إلى تطبيق أساليب وحشية لا تمت إلى الإنسانية بأي صلة، وهي ما اصطلح عليه بـ"محتكم التفتيش"، وأهم وسائلها الحرق. (كريخال. 2013. ص - ص 178 - 179)

لكن على الرغم من كلّ هذا بقي هناك من المسلمين من لم يتنصّر إلّا ظاهريا، فلجأوا إلى اعتماد "مبدأ التقية"، وهو ما دفع السلطات الإسبانية تتخذ خطوة أبشع من التنصير ومن التعذيب وهي التشتيت من خلال الطرد النهائي للمسلمين، وبالنسبة لموضوع التقية يقول كريخال: "ولو شاء الأندلسيون أن ينسوا الشعائر والكسي والعوائد التي كانت تجمعهم بالنحلة الإسلامية وقدرّوا قدر كونهم نصارى، وقدر ظهورهم بمظهره النصارى في كلّ شيء، وهو شيء لم يكف قط يدركوه" (2013. ص 184)

وهذا يمكّننا من القول أنّ المسلمين لم يتنصّروا طواعية، بل كانوا مرغمون على ذلك، بسبب التعذيب الذي كانوا يعانونه في حال أبدوا الرفض أو المقاومة، فلجأوا إلى التعايش بثنائية دنية، الظاهرية منها هي التنصّر وإتباع المسيحية، أما الباطنية فهي محافظتهم على إسلامهم وشعائهم.

2/ طمس الهوية العربية الإسلامية:

نرصد هذا من خلال حديث أفيقي في رحلته عن خوف العامة من كلّ من يحمل كتابا بالعربية، جزاء ما كانت تفعله النصارى بحامله وأي شخص أخفى عنهم خبر حامله، وتطرّ أمر الخوف هذا حتى أصبح الأندلسيون لا يثقون في بعضهم البعض، ولا يتكلمون في أمور دينهم وإن سئلوا فيها؛ إلّا مع من كانت تربطهم به علاقة وطيدة. (الحجري. 2004. ص 34)

وقد لجأ المسلمون الأندلسيون إخفاء الهوية العربية عن النصارى عن قصد وتعمّد، حتى وإن اكتشفوا تمكّنهم من القراءة بالعربية، وذلك بسبب العقوبات الصّرفة التي كانوا يتعرضون لها من طرف الحرّاقين، ويفسّر سبب عدم إظهارهم لتمكّنهم من فهمهم وقراءة العربية لما كانت النصارى تحكّم به ضدّهم. (الحجري. 2004. ص - ص 29-30)

أما بالنسبة للهوية الإسلامية فقد طمست من خلال التنصير، وعمل النصارى على منع المسلمين من المجاهرة بالشهادة، بالإضافة إلى عمل السلطتين السياسية والدينية على تحويل المساجد إلى كنائس، والقيام بحرق عدد كبير من مجلّدات الكتب التي تتعلّق بالدين الإسلامي. (الحجري. 2004. ص 45، كريخال. 2013. ص، ص 174، 176)

3/ التعذيب والقتل:

لجأت السلطات الدينية والسياسية الإسبانية إلى تأسيس ما يعرف بمحاكم التفتيش، فخصّصت لهذه المهمة جواسيس تنتشر في كل مكان وقد كان عددهم يتخطى الألف، فاخترت منهم الكهنة والأطباء والمعلّمون وجنّدتهم لخدمة الكنيسة من خلال تكليفهم بتقصي الأندلسيين الذين لا يظهر عليهم التنصّر، فطارد ديوان التفتيش حينها كل من اليهود والمسلمين الذين لا وجود للتنصّر في مآكلهم وملبسهم وعروضهم للتعذيب الوحشي والتقتيل الجماعي لإبادتهم. (مظهر. دت. ص، ص 63، 70)

و نستشف الأساليب المعتمدة في عملية التعذيب من خلال إشارة أوقاي عد حديثه عن تخوف الأندلسيين من كل من يحمل كتابا عربيا إلى مصطلح "الحرقاقين"، فيقول: "... الحرقاقين من النصارى الذين كانوا يحكمون ويحرقون كل من عليه شيء من الإسلام أو يقرأ كتب المسلمين..."، ونجد إشارة بكتاب "تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة"، إلى أن آلية الحرق كأسلوب تعذيب اعتمد في بدايات محاكم التفتيش مع رئيس الأساقفة "مخياي لاسارطي" عام 1577، فنُعت بالمفتش والحرقاق على غرار من سبقه من الأساقفة، إذ لم يحمل ولا أحد منهم هذا اللقب. (الحجري. 2004. ص 34، كبرخال. 2013. ص 169)

أما بالنسبة للقتل فنستشف من خلال ما جاء في رحلة أوقاي نوعين منه القتل الفردي والجماعي، فبالنسبة للفردي نجده عندما تحدّث عن خوفه من الذهاب عند القسيس الكبير الذي أمره بالمجيء عنده، لأجل قراءة الرق الذي وجده والمكتوب بالعربية، كما يتحدث عن القتل الجماعي عند ما تعرّض له مسلمو مدينة إشبيلية عندما قاموا ضدّ السلطة، فيمدنا بعدد كبير تعرّض للقتل دفعة واحدة ألا وهو 140 رجلا من الأعيان، ويُرجع أن السبب الرئيس وراء القتل لم يكن لأجل تنقية الدّم بالأساس بقدر ما كان نهب الأموال. (الحجري. 2004. ص، ص 30، 40)

4/ الطرد النهائي:

مارست السلطات السياسية والدينية خلال القرن 15 و16 الميلاديين على مسلي الأندلس سياسة الطرد، ولكن كانت تلجأ إليها كخيار في الحالات التي لم يتنصّر أصحابها مع الإصرار على عدم التنصّر، فعاقبتهم إمّا بالموت، أو خسارة الأملاك، أو الخروج من البلد، وعليه تمّ تخيير المسلمون الأندلسيون بين التنصّر والبقاء بإسبانيا، أو رفض التنصّر والخروج منها. (كبرخال. 2013. ص، ص 175، 182، 184، 187)

لكن الأمر تفاقم مع بداية القرن 17م، إذ مارست عملت السلطة السياسية على سن قانون الطرد الجبري والنهائي لكل من هو غير نصراني، أو من شكّ في حال تنصّره. وتمدّنا رحلة أوقاي فيما يخصّ هذه النقطة بمعلومات جد مهمة، والتي سنحاول توضيحها كالتالي:

1-4/ أسباب الطرد:

- تأكد السلطات الإسبانية السياسية والدينية من اعتماد المسلمين لمبدأ التقية، إذ غالبا ما تمّ الكشف عن ظهور الإسلام عليهم، وعند التحقق في أمرهم يجدونهم مسلمون، الأمر الذي جعلهم لا يؤتمنوا، وبالتالي لابدّ من إخراجهم في أقرب وقت، وهنا يتّضح لنا جليا قانون "تصفية (تنقية) الدّم الإسباني النصراني من الدّم الأندلسي المسلم"، فعلى الرغم من مرور قرنين من الزمن من تسليم غرناطة للنصارى، وتعايش المسلمين والنصارى في إسبانيا وتمازجها بعد التنصّر -ولو الظاهري منه-، إلا أنّ السلطة السياسية والسلطة الدينية ظلت ترى الأندلسي ابنا غير بار لسلالة غير مسيحية، وبالتالي فهو غير نقي الدّم، ووضعه أقل شئنا من المسيحيين القدامى. (الحجري. 2004. ص 113، الجباري. 2012. ص 448)

- تخوَّف السلطات الإسبانية من قيام المسلمين بحركات مناوئة وتمكَّنتهم من استرداد أمجاد أجدادهم، خصوصا بعد التزايد المرتفع لأعدادهم، وهذا راجع إلى كونهم لا يخضعوا إلى الحروب، ويتكاثروا بالتزوج على غرار النصراري الذين معظمهم كان مهتم بالرهينة أُنذاك. (الحجري. 2004. ص113)
- استغاثة الأندلسيون المسنون المصطلح عليهم ب"الجدود" بسلاطين وملوك الإمارات المحيطة؛ إذ استغاثوا بسلطان مصر وسلطان المغرب والسلطان العثماني والملك الفرنسي عبر سنوات مختلفة، يطلبون نجاتهم فيما يتعرضون له من تنصير إجباري وتعذيب وحشي وقتل جماعي وخرق تام لبنود قرار التسليم، فتخوَّفت حينها السلطة الإسبانية من الاتفاق عى رأي واحد وهو نصرة الأندلسيون ومحاربة ملوك إسبانيا. (الحجري. 2004. ص، 52. كريخال. 2013. ص 183. الشمري والمعموري. دت. ص-ص 187-189)

2-4/ إجراءات ما قبل الطرد:

- القيام بإحصاء مسلمي الأندلس زمن حكم فيليب الثاني (1556-1598م) حيث أمر بتسجيل جميع المسلمين رجالا ونساء، صغارا وكبارا، وحتى الذين في رحم أمهاتهم متى اتضح علمهن الحمل، وذلك بعد القرار الذي تمَّ إبرامه في مؤتمر مدريد للجمعية الوطنية (الخلنتا) سنة 1567م. (الحجري. 2004. ص 116. المري والمعموري. دت. ص 184)
- القيام بإحصاء مسلمي الأندلس مرّة ثانية زمن فيليب الثالث (1598-1621)، والذي جاء بعد الإحصاء الأول بحوالي 17 سنة، ويفسّر سببه بمحاولة معرفة حكام إسبانيا هل المسلمون في زيّادة؟ وأنّه بمجرد معرفتهم للإجابة تمَّ إخراجهم. (الحجري. 2004. ص 116. الشمري والمعموري. دت. ص 187)
- عملت الإسبانية بعد الانتهاء من الإحصاء والتسجيل على إخراج مسلمو مدينة بلنسية أوّلا، وذلك خلال سنة 1010هـ/1602م، ويعود السبب في الابتداء بهم لاعتبار أنّهم هم من أرسلوا يستغيثون بملك فرنسا. ليتّم بعدها العمل لما جاء في القرار والإخراج الاجباري لبقايا الأندلسيين ودامت فترة التصفية هذه ما يقارب 8 سنوات من 1010هـ-1020هـ/1604-1612م)، لكنّ الأصح أنّ عملية الطرد بدأت يوم 22 سبتمبر 1609، لتستمر حتى 1614، وقد تمَّ طرد حوالي 350.000 رجل وامرأة وطفل من وطنهم قسرا خلال هذه الخمس سنوات (الحجري. 2004. ص، 47، 116-117. عبد المؤمن. 2016. ص157. الجابري. 2012. ص 453. p140. Chalkha.2015)

3-4/ بنود قرار الطرد:

يعتبر صدور مرسوم الطرد القسري للمسلمين الأندلسيين، نقطة تحوّل جوهريّة في قضية الشتات الاندلسي؛ إذ أنّ هدف الملك الإسباني من في تنقية إسبانيا من الدّم غير النصراني، ومحاولة إصدار لحل طالما أقلق السلطة الدينية، وقد بدأ العمل به رسميا بتاريخ 09 /12 /1609م. (عبد المؤمن. 2016. ص157)، وسنحاول هنا إدراج بنود القرار إنطلاقا ممّا جاء في رحلة أفوقاي، ومجملها أربعة بنود:

- المناداة في الأماكن المحدد منها الخروج، وهي أماكن تواجد المسلمين عموماً، وعند المناداة بالقرار يتوجب التوجه نحو السفن المعدة لغرض الإخراج وهي مصفوفة في أماكن معينة، مع التركيز على تبيان أنه لا يسمح لأي أحد أخذ ماله كاملاً، إلا ما استطاع حمله ويجب ترك الباقي سالماً؛ إذ أنّ كل من يدفن شيئاً من الأمتعة التي لا يمكنه الجواز بها إلى البلاد المغربية، أو يتلف شيئاً من الزرع أو الأشجار يقتل مباشرة من طرف جيرانه النصراني، وأنه عند سماع النداء لا يجب الخروج إلا مع القادة، لأجل التأكد من عدم الهروب، وليعلموا أنّ إخراج فليب الثالث لهم لا يعني إلحاقه للضرر بهم، فهو يلزم قواد السفن بعدم مضرتهم لا في النفس ولا في المال، وسيعمل على معاقبة كل من يخالف ذلك، ولأجل سلامتهم سيخصص لهم مالا للإنفاق عليهم وكراء سفنهم، وأنه يجب على 10 منهم العودة إليه حال وصولهم إلى المغرب آمين. (الحجري. 2004. ص-ص 118-119)
- الأيتام والأولاد الذين لم تبلغ أعمارهم 4 سنوات بعد، يعود إليهم الخيار في الخروج من إسبانيا أو عدمه مع رضا وكلائهم وأوصيائهم على ذلك. مع الاستثناء التام -من عملية الخروج- لأولاد الأم النصرانية والأب النصراني (الحجري. 2004. ص 119)
- الإبقاء على ستة أشخاص من مسلمي الأندلس مع أولادهم الذين لم يتزوجوا بعد، من كل مقاطعة تحتوي على 100 دار، وذلك لأجل الاهتمام بأمر الفلاحة، ورئيس المقاطعة هو من يقوم باختيارهم، على أساس شرط أ يكونوا ممن ظهر عليهم الميل إلى الدين النصراني. (الحجري. 2004. ص 118)
- كلّ نصراني يساعد مسلم في الهروب أو الاختباء عند المناداة، أو يأخذ ذخائره، يخضع للعقاب وهو التهجير لمدة 6 سنوات أو أكثر. (الحجري. 2004. ص 118)

4-4/ إجراءات تنفيذ قرار الطرد النهائي:

مثلما فُندت بنود وثيقة التسليم؛ إذ عانى المسلمون جرّاءها من الخضوع للتنصير الإجباري، وهمجية التعذيب والتقتيل في محاكم التفتيش، تمّ تنفيذ بنود قرار الطرد النهائي؛ إذ نقض تماماً ما جاء في الوثيقة من حفظ المال والنفس، بالإضافة إلى أنّ المسلمون هم من قاموا بكرية السفن بأموالهم الخاصة وأنّ الحاكم الإسباني لم يتكفل بهم أبداً، علاوة عن أنّ كلّ من وافق على الهجرة أخذت منه أولاده (اناثا وذكورا) الأقل من عمر السبع سنوات. (الحجري. 2004. ص 119)

سادساً: مقارنة بين الكتاين محل الدراسة من حيث الأهمية والقضايا المتطرق إليهما.

سنحاول في هذا العنصر الحديث عن أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بالنسبة للكتاين موضوع الدراسة وعلاقتها بالتأريخ لنكبة مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م.

1/ أوجه التشابه: لا يمكننا تحديد وجه تشابه بين المصدرين ما عدا أهمية كلاهما في التأريخ لنكبة مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة بيد النصراني، وإشارتهما إلى نقد بنود وثيقة التسليم من خلال إجراء تنصير قسري للأهالي المسلمة، ومحاولة طمس الهوية العربية الإسلامية، بالإضافة إلى اللجوء إلى آليات لا تمت للإنسانية بصله لردع الحركات المقاومة،

لتنتهي هذا الاضطهاد بإقرار قانون الطرد النهائي لكافة مسلمي غرناطة وهو ما يعرف بالشتات الأندلسي (كريخال. 2013. ص، ص 121، 169، 171، 174-179، 182-184، 187. الحجري، 2004، ص، ص 29، 30، 34، 40، 45، 47، 52، 113، 116-119)

2/ أوجه الاختلاف: أما بالنسبة لأوجه الاختلاف فهي كثيرة ومتنوعة، وسنحاول توضيحها من خلال:

1-2/ نوع الكتاب: الكتابان مصدران الدراسة يختلفان من حيث النوع، فكتاب "تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة" للويس دي المرمول كريخال نص تاريخي، وإن وجدت به الكثير من المعلومات الجغرافية، أما كتاب "مختصر رحلة أفوقاي الأندلسي" هو عبارة عن نص جغرافي ينتمي إلى أدب الرحلة. وعليه فمن المؤكد أن منهجي المؤلفين مختلفين طباقا لاختلاف النص.

2-2/ المواضيع المنطوق إليها:

يمكننا كتاب "تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة من المعرفة الصّراع القائم بين سلاطين مملكة بنو الأحمر والسبب الذي جعل الزغبيي آخر ملوكهم يسلم الحكم للنصارى من خلال توثيقه لوثيقة التسليم يوم 28 نوفمبر 1491م، كما يشير الكتاب إلى مواضيع عديدة، مثل الاستراتيجية المتبعة من طرف الجيش النصراني والسلطات السياسية والدينية الإسبانية في ترويض الثورات والمقاومات التي قامت بها الساكنة الأندلسية قبل وبعد سقوط غرناطة، كما يمدنا بمعلومات جد مهمة في موضوع بحثنا "نكبة مسلمو الأندلس بعد سقوط غرناطة"، إذ يتطرق إلى الحديث عن عملية التنصير الإجباري التي عاشها المسلمون، بالإضافة إلى طمس الهوية واللجوء إلى اعتماد وسائل وحشية في ترويض المقاومين، ناهيك عن أهميته البالغة في التأريخ لحدث تسليم مدينة غرناطة وتحل حكمها من الحكم الإسلامي إلى الحكم النصراني، فيمدنا بأسباب التسليم وإجراءاته، شروطه وبنود الوثيقة. (كريخال. 2013. ص، ص 115، 118، 121، 122، 124، 136-137، 144-157، 162-169، 171-179، 184-187)

أما بالنسبة لكتاب "مختصر رحلة أفوقاي الأندلسي"، على الرغم من كون معظم المادة هي عبارة عما جاء في مناظراته مع النصارى حول قضايا التوحيد والإيمان والطهارة، إلا أن هذا لا يفند وجود مادة خبرية به حول موضوع الدراسة، ألا وهو "النكبة"؛ فقد أمدتنا بمعلومات حول عملية التنصير التي تعرّض لها الأندلسيون على مدى ما ينيف عن قرن من الزمن، بالإضافة للإشارة إلى محاولات طمس الهوية العربية الإسلامية، لكن تبرز الأهمية الحقيقية للكتاب في ترجمة أفوقاي لنص الطرد النهائي للأندلسيين من أراضي إسبانيا المسيحية. ففيما يخص موضوع الطرد يزودنا نص أفوقاي بأسباب الطرد، وإجراءاته، وبنود القرار. (الحجري. 2004. ص، ص 29، 30، 34، 40، 116-119)

2-3/ المصطلحات:

كما هو معلوم فإن الكتابين يعودان بالتأليف إلى شخصين مختلفين في الانتماء الديني والسياسي والتاريخي، بحيث أن المرمول كريخال صاحب "تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة" مؤرخ إسباني توفي في حدود 1600م، معاش لأحداث نقد بنود التسليم من طرف الملكان هرندو وإليزابيت، علاوة عن كونه ناظر على التموين في الجيش الملكي،

إضافة إلى كونه ألف كتابه هذا لأجل أخذ حظوة لدى السلطات السياسية الحاكمة، فكان يرى من الضروري الإشادة بإنجازات النصارى في قمع للثورات الأندلسية، من خلال التركيز على الغالب والانقاص من حجم المغلوب، وقد استعمل في حق هذا الأخير مصطلحات عنصرية. في حين كتاب "مختصر رحلة أفوقاي الأندلسي" لابن أحمد الحجري التي كتبت من طرف شاهد أندلسي عايش أحداث النكبة قبل فراره من إسبانيا وبعدها، وقد كتب كتابه هذا بأمر من العالم المصري الشيخ الجوهري.

والواضح هو اختلاف المصطلحات المعتمدة في كل مصدر، فنجد مثلا المرمول كـريخال عندما يتحدث عن البلاد يطلق مصطلح إسبانيا، أما أفوقاي فلم يرض إلا أن يقول الأندلس، ما عدا أتع أدرج أربع مرّات مصطلح إسبانية وحاء بعد مرتين قوله "وأعني بها بلاد الأندلس" (2013). ص، ص 52، 59. الحجري. 2004. ص، ص 19، 20، 28، 29، 30، 34، 35، 38، 40، 41، 43، 44، 47، 48، 49، 52، 53، 58، 59، 65، 70، 77، 78، 83، 88، 96-100، 103، 105، 109، 110، 112، 113، 115، 116، 119، 133)

كما نلاحظ إتفاق المصدرين على إطلاق مصطلح كافر على الطرف الآخر، وورود مصطلح الحرّاقون عند كلاهما، وهم الأشخاص الذين نعتوا به بسبب قيامهم بعمليات الحرق أثناء محاكم التفتيش التي كان يعذب بها المسلمون الرافضين للتنصّر أو اللّاجئين للتقية، إضافة إلى مصطلح "المدجنون" الذي ورد عند أفوقاي مرة واحدة بمعنى اللفظ الذي أطلقه "الأتراك على المسعى الأندلس" الفّارين من إسبانيا، أما عند المرمول كـريخال خمس مرّات وجاء بمعنى مسلحي الأندلس الذين لم يرضوا بالانضواء في دين النصارى. (الحجري. 2004. ص، ص 34، 43، 45، 52. 2004. ص، ص 169، 79، 121، 132، 132، 139، 187)

ولكن الغريب هو أنّنا نجد المؤلفان يتفقان على إطلاق مصطلح "الأندلسيون"، على الساكنة المسلمة، ومن هنا نتأكد أنّ مصطلح "المورسكيون" المعتمد في الدراسات الحديثة لم يطلق عند المؤرخين الإسبان لا بعد فرار مسلمو غرناطة عند عدم الالتزام بنود وثيقة التسليم، ولا عند العلماء المسلمين أثناء إقرار الطرد النهائي، وأنّ المصطلح المعتمد حتى العقد الثّاني من القرن 17م على هذه الفئة هو مصطلح "الأندلسيون" (كـريخال. 2013. ص، ص 53-55، 59، 74، 75، 135، 148، 169. الحجري. 2004. ص، ص 19، 20، 28-30، 34-36، 38، 40، 47، 48، 52، 53، 58، 59، 65، 70، 77، 78، 88، 99، 105، 112، 113، 115، 116، 118، 133)

وهذا ما أكّده بعض الباحث عبد لعزیز بن عبد الله فب بحثه الذي جاء بعنوان "الأندلسيون لا المورسكيون"، ويذهب الباحث أحمد بن رمضان إلى القول أنّ مصطلح موريسكيين (Moriscos) مشتق من مصطلح مورو (moro)، ولكن لاحقته إسكو (iscos) تحمل وصف مهين لمسلمي إسبانيا، والذي يجعلهم في مصاف غير المصاف الذين يوضع فيه غيرهم من المسلمين فهم عبارة عن مسيحيين في المجتمع الإسباني ومسلمين مشفرين في المجتمع المغربي عند لجوئهم إليه بعد قرار الطرد النهائي. (بنعبد الله. 1982. ص53. 151-153.p-p. 2015)

خاتمة:

وفي ختام بحثنا نصل إلى مجموعة من الإستنتاجات وهي:

يمكّننا إعتبار كلّ من كتاب "تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة" لرمول كريخال، و"رحلة أفوقاي الأندلسي" لابن القاسم الحجري، مصدرين يعولّ عليهما في التأريخ للنكبة التي حلّت بمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة، وذلك لما احتوى كل مصدر من مادة خبرية تمكّننا من معالجة المأساة التي حلّت بالأندلس والأندلسيين خلال الممتدة من نهاية القرن 15 م إلى بداية القرن 17 م، أي لما ينيف عن قرنين من الزمن.

فقد مكّننا كتاب كريخال من معرفة العلاقة بين السلاطين الأواخر من دولة بني الأحمر، وإستغلال الملوك النصراري للشرخ الحادث بينهم في الوصول إلى مصالحها. بالإضافة إلى المعلومات الدقيقة جدّا حول وثيقة تسليم مدينة غرناطة، والإجراءات المتبعة قبيل وبعد التسليم، وأهم البنود المتفق عليها من طرف المسلمين مقابل التسليم. كما يكشف لنا على الأسباب التي أدت إلى الخرق التّام لبنود المعاهدة والمبدأ الذي خرقت لأجله وهو ديني - عنصري بالدرجة الأولى، فيستطرد في الحديث عن التنصير، وعن إجبارته، وعن تجنيد السلطات لأجله، وعن محاربة كلّ من كشف أنّه تنصّر ظاهريا فقط، كما يشير إلى الآليات التي عدّبت بها من أبدى مقاومة أو قام بثورات بعد خرق السلطات الدينية والسياسة لبنود الوثيقة.

أمّا كتاب رحلة أفوقاي فيعطينا هو الآخر لمحة على ما عانته الساكنة المسلمة بإسبانيا خلال نهايات القرن ال16م وحتى مطلع القرن ال17م، فيبرز قضية طمس الهوية العربية الإسلامية بجلاء عند حديثه عن تخوف الأندلسيين من كشفهم من طرف السلطات، وعدم مساعدتهم للأخريين على الإستفتاء حتى في أمور دينهم، إلّا مع من هو ثقة عندهم. كما يشير إلى محاكم التفتيش وسيلة الحرق المعتمدة بها. لكن تبرز أهميته بالنسبة لما تناوله في موضوع الطرد النهائي لمسلمي الأندلس، فيتحدث عن أسباب وإجراءات ما قبل الطرد وما بعده، وكيف تشتت الأندلسيون في العديد من البقاع.

أمّا بالنسبة لأوجه التشابه والاختلاف بين المصدرين، فنجد أنّهما يتشابهان من حيث أهميتهما في التأريخ لحدث النكبة؛ لما يحويه من مادة خبرية مفيدة جدّا. أمّا أوجه الاختلاف فهي متعددة، نبدأها من حين نوع النص، ومن حيث الإنتماءات السياسية والدينية للمؤلفين، ومن حيث القرن الذي عاشا فيه؛ إذ أنّ كريخال كان شاهد عيان على سقوط غرناطة عام 1492م، أمّا أفوقاي فعاش قانون الطرد الإجباري عام 1609م. الأمر الذي جعلهما يتباينان من حيث المواضيع المعالجة في كلّ كتاب، ناهيك عن كون أنّ الغاية من تأليف الرحلة هي حفظ للمناظرات الدينية الواقعة بين أفوقاي كعالم مسلم وبين النصرار كالأخر الكافر.

قائمة المصادر والمراجع:

العربية:

- 1/ ابن الحاج السلي جعفر. 2015. مرمول كريخال مؤرخا للأندلس والأندلسيين. أعمال الندوة الدولية: الأندلسيون الموريسكيون في المغرب: الحالة الراهنة للبحث. تنسيق مصطفى عديلة. الطبعة 1. منشورات الجمعية المغربية للدراسات الاندلسية. المغرب.
- 2/ بن عبد الله عبد العزيز. 1982. الأندلسيون الموريسكيون. مجلة اكااديمية المملكة العربية. عدد خاص بالملكين. العدد 15. ص- ص: 53-77).
- 3/ الجابري نجيب محمد. مارس 2012. مسلمو غرناطة بعد عام 1492 لخليو كاروباروخا وشتات أهل الأندلس، المهاجرون الاندلسيون لمريديس غاريتيا أرينال. مجلة الإسلام والعالم. العدد 35. ص- ص: 445-464)
- 4/ الحجري أحمد بن قاسم. د. ت. كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين. تحقيق وتقديم وترجمة شورد فان كوننكز فلند وقاسم السمرائي وخيرارد فيخرز. المجلس الأعلى للأبحاث العلمية والوكالة الاسبانية للتعاون الدولي. دون ذكر مكان النشر.
- 5/ الحجري بن قاسم أحمد. 2004. رحلة أفوقاي الأندلسي. تحرير وتقديم محمد زروق. الطبعة 1. دار السويدي للنشر والتوزيع والمؤسسة العربية للدراسات والنشر. أبوظبي وبيروت.
- 6/ زروق محمد. 1998. الأندلسيون وهاجراتهم إلى المغرب. الطبعة 3. افريقيا الشارقة. الدار البيضاء.
- 7/ الشمالي نضال محمد فتحي. 2015. ايدولوجية الاقصاء واثبات الهوية في مختصر رحلة أفوقاي الأندلسي "الشهاب إلى لقاء الأحباب 1611-1613". مجلة العلوم العربية الانسانية. المجلد 8. العدد 2. ص- ص: 963-1019).
- 8/ الشمري يوسف كاظم جغيل والمعموري محمد عبد الله. دون تاريخ. الموريسكيون في بلنسية دراسة في أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية 1525-1609. مجله مركز بابل للدراسات الانسانية. المجلد 5. العدد 1. ص - ص : 172-196)
- 9/ عبد المؤمن محمد. ديسمبر 2016. مرسوم طرد الموريسكيين بمملكة بلنسية ومرسوم طرد الموريسكيين من سائر الممالك الإسبانية. (ترجمة). دورية كان التاريخية. العدد 34 ص-ص: 157-164)
- 10/ فرحات يوسف شكري. غرناطة في ظل بني الأحمر دراسة حضارية. الطبعة 1. دار الجيل. بيروت. 1993.
- 11/ الفزاوي محمد. ديسمبر 2020. الموريسكيين وإعادة الانتشار (الظروف والمآلات) المجال المغربي نموذجا. دورية كان التاريخية. السنة 13. العدد 50. ص- ص: 105-113)

- 12/ كربيخال دي المرمول لويس. 1984. إفريقيا. الجزء 1. دون طبعة. ترجمة محمد حجي وآخرون. الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. مكتبة المعارف. الرباط.
- 13/ كربيخال دي المرمول لويس. 2013. تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة. ترجمة وتقديم جعفر بن الحاج السلي مراجعة: مصطفى عديلة. الطبعة 1. الجمعية المغربية الأندلسية – جمعية تطوان أسمير. تطوان.
- 14/ لعناني مريامة. جوان 2017. كتاب تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة للويس دي المرمول كربيخال مصدر من مصادر تاريخ غرناطة بني الأحمر. مجلة الآداب والعلوم الإنسانية. المجلد 11. العدد 21. ص-ص: (342-325)
- 15/ مظهر علي. دون تاريخ. محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال وغيرها. دون طبعة. المكتبة العلمية. د م ن.
- 16/ نصري هاني يحيى. أخبار سقوط غرناطة. الطبعة 1. مؤسسة الانتشار العربي. لندن. 2000.

الأجنبية:

- 17/Benremdane Ahmed. Cara y cruz de los musulmaes de la ESpana de los sigos XVI y XVII. Acttas del Coloquio Internacional "Los Moriscos-Andalusies en Marruecos Estado de la cuestion. Coordinador: Mustapha Adila. Primera edicion. Al-Khaliji Al-Arabi.Tetuan.p-p(160 -151) :
- 18/Chalkha Achouak. 2015. Les familias moriscas en Faz entre el pasado y el presente. Acttas del Coloquio Internacional "Los Moriscos-Andalusies en Marruecos Estado de la cuestion. Coordinador: Mustapha Adila. Primera edicion. Al-Khaliji Al-Arabi.Tetuan.p-p: (139- 150)

البصمة الأندلسية في حدائق وبساتين مدينة الجزائر
من القرن (8- 12هـ/14-18م) من خلال المخطوط الأندلسي المغربي
"حديث بياض ورياض"

The Andalusian footprint in the gardens and orchards of the city Algiers
from the century (8-12 AH / 14-18 AD) through the Andalusian Maghreban
manuscript "Hadith Bayad wa Riyad"

د. وهيبة خليل /جامعة المدية/ الجزائر

Dr.Ouahiba Khelil/University of Medea/Algeria

ملخص الدراسة:

قامت نهضة زراعية وعمرانية وفنية واقتصادية بقدم الجالية الأندلسية إلى الجزائر، بدأت ترسم ملامحها ابتداء من مطلع القرن 15م، وقد وصلت فنون الزراعة والبستنة إلى أوج ازدهارها في الأندلس خلال القرن 4هـ/10م، وحدث ما يسمى " بالثورة الزراعية الأندلسية، فكانت عنايتهم كبيرة ولمموسة وساعدهم على ذلك مناخهم وموقعهم الجغرافي على ازدهار هذا الفن، إلى جانب اليد الماهرة والخبرات التي عرفت كيف تتعامل مع الطبيعة الجميلة فتنسقها في حدائق وبساتين ونوافير وناحورات وغيرها، وقد قام الموريسكيون بنقل هذه الخبرات والمهارات من بلادهم الأصلية إلى مدينة الجزائر، فتغيرت المدينة وفحوصها باستقرارهم بها، وأصبحت أشبه بنواحي غرناطة وبلنسية، وهذا الطراز والجمال لاحظناه في المخطوط الأندلسي المغربي المزوق "حديث رياض وعباض" في القرن 8هـ/14م، لمؤلف مجهول، اخترنا منها أربعة عينات تصور الحدائق والبساتين في أواخر العصر الوسيط في الأندلس والمغرب، سنحاول من خلال هذا البحث واستنادا على هذه المنمنمات التي جعلنا نقف على جملة من الملامح التي تشير إلى بعض التأثيرات الأندلسية التي عرفها المغرب الإسلامي بما فيه الجزائر، كما سنتعرف على حدائق وبساتين مدينة الجزائر وأهم خصائصها الفنية والمعمارية، والتأثير الفني الأندلسي عليها في أي مدى ساهم الموريسكيون في انتعاش مجال الزراعة في مدينة الجزائر؟ وماهي أهم التأثيرات التي تركوها في فن الزراعة، وكيف تجلى ذوقهم في هذه البساتين والحدائق ونقل الفكرة إلى بيوت وقصور المدينة؟ وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي وربطه بالجانب التطبيقي الذي يتمثل في المنمنمات، فخرجت بعدة نتائج أهمها: مساهمة العنصر الأندلسي في تطوير الزراعة والبستنة في مدينة الجزائر، كما تعتبر الحدائق والبساتين بما تحتويه من أزهار متفتحة وأشجار متناسقة بعمل أيادي أندلسية إسلامية جزائرية نوع من أنواع الفنون التي تعبر عن ذوق الإنسان ورقية عبر الزمن.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، الحدائق، الزراعة، مدينة الجزائر، المنمنمات

Abstract:

With the arrival of the Andalusian community to Algeria, an agricultural, urban, artistic and took place, it features began to emerge from the beginning of the 15 economic renaissance century, Agriculture and gardening arts reached their peak in Andalusia and that was during the 4th century AH an 10 AD the so-called by the Andalusian agricultural revolution happened, their care was great and tangible, in addition to the climate and their geographical location that helped them to flourish this art, besides to the skilled hand and experiences that knew how to deal with the beautiful nature and coordinated it in gardens, orchards fountains, waterwheels and others..., the Moriscos transferred these experiences and skills from their country of origin to the city of Algeria, after the city and its palaces

(Fahs) , had changed they settled there, and it became similar to Granada and Valencia , we noticed this style and beauty in the Andalusian Maghreban manuscript, (Hadith Bayad th century AD , 14th century AH and the 8waRiyad) , the story of Bayad and Riyadin the written by an unknown author, we chose four samples to photograph gardens and orchards in the late Middle Ages in Andalusia and Maghreb , we will try through this research and based on these miniatures that make us stand on a number of features that indicate some of the Andalusian influences known by the Islamic Maghreb , including Algeria, we also will know the Algeria's gardens and orchards and its most important artistic and architectural characteristics and the Andalusian artistic influence on it, to what extent did the Moriscos contribute to the recovery of agriculture in Algeria city ? And what are the most important influences left by the in the agriculture's art? And how did their taste manifest in these orchards and gardens and transfer the idea to the city's houses and palaces? This study adopted the historical descriptive analytical approach, and linking it to the applied side, which is represented in the miniatures, also this study came out with several important results which are: the contribution of the Andalusian element to the evolution of agriculture and horticulture in Algeria city, gardens and orchards including the flowers and trees in harmony and with the Andalusian Islamic and Algerian's work and hands considered and one of the Arts kind that reveal human taste and its sophistication over time.

Keywords: Andalusian, gardens, agriculture, the city of Algiers, miniature

مقدمة:

ساهم الأندلسيون في البناء والتعمير في مدن استقرارهم بالجزائر، وكان لهم فضل كبير وإيجابي في جميع الميادين، فعرفت بعض المدن الجزائرية نموا وتطورا كبيرا، لم تعرفه منذ عهد الحماديين، وقد اختلفت وتيرة الهجرات الأندلسية في الجزائر بأعداد قليلة أو كثيرة، لأسباب طبيعية اختيارية، أو وليدة اضطراب الأوضاع السياسية، فتضاعف عدد الهجرات ابتداء من القرن 7هـ/13م، في المغرب الأوسط خاصة على مدينة بجاية وتلمسان، بسبب موقعهما السياسي، كما استقر عدد من المهاجرين الأندلسيين ببعض مدن المغرب الأوسط خاصة الساحلية منها، (سعداني، 2016) فقد أورد صاحب كتاب "زهرة الأندلس" في دولة بني زيان أن السلطان الزياني أبي حمو الأول قد امتلك مدينة الجزائر صلحا، (مجهول، 2012، صفحة 142) في بداية القرن 8هـ/14م، حينها اختار عدد من الأسر الوجيمة وأعلام أندلسية مدينة الجزائر موطننا لهم، وكان لهم اثر كبير في جميع الميادين العلمية والاقتصادية والزراعية منها، عند استقرارهم ببساتين "تامنتفوست"¹ لقرب سهول المنطقة من المرافئ البحرية للجزائر الشرقية، كما استقروا في أعالي مدينة الجزائر بجي أو "حومة الثغريين" (Taghra)² وهذه الهضبة مازلت تحمل اسمهم إلى اليوم، كما قاموا بإحياء واستصلاح غابات منطقة بوزريعة والقضاء على أحرشها وتحويلها إلى فحوص بحداثق وبساتين غاية في الجمال (بلغيث، الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيجة، 2017)

استمرت الهجرة الأندلسية بأعداد كبيرة إلى مدينة الجزائر، بعد سقوط مدينة غرناطة وضياع الأندلس سنة 897هـ/1492م، حيث شكلت فيها الطائفة الأندلسية عددا مهما مدعوما من الطرف السلطنة العثمانية، وكان التأثير الكبير للحضارة الأندلسية وفنونها بالمغرب الأوسط قد برز بشكل جلي بعد سقوط بلاد الأندلس، وكانت مساهمتهم الكبيرة في مدينة الجزائر كونها عاصمة الدولة خلال الفترة العثمانية، وضمت أكبر عدد من المهاجرين الأندلسيين، وأصبحت مركز استقرار رئيسي لهم، فعرفوا عند عامة الناس "بأهل الأندلس"، حيث بلغ عدد الأندلسيين بها حوالي خمسة وعشرون ألف نسمة في نهاية القرن 16م (سعيدوني و بوعبدلي، 1982، صفحة 98) خاصة بعد مد يد العون وتشجيع المهاجرين من طرف السلطنة العثمانية في الجزائر، وبفعل هذا التواجد الأندلسي الموريسكي بمدن الجزائر عامة ومدينة الجزائر خاصة، أصبحت مختلف أوجه الحياة تكتسي طابعا أندلسيا، وهذا ما لاحظناه في عديد الميادين كالعمارة والزراعة والصناعة والتجارة، ففي ميدان الزراعة يعود لهم الفضل في استصلاح الأراضي وزراعتها، فتغيرت مدينة الجزائر وفحوصها وأصبحت أشبه بنواحي غرناطة وبلنسية، وحولت الأراضي المحيطة بالمدينة إلى حدائق وبساتين وجنان على أيدي الأندلسيين الموريسكيين، تتوسطها عادة قصور مبنية على الطراز المعماري المغربي الأندلسي، ولم يسبق أن شوهدت بهذا الجمال من قبل، حيث غطتها مختلف أنواع الخضار وأشجار التفاح والبرتقال والنارج والليمون والزيتون والعنب واللوز وغيرها، بالإضافة إلى الورود المزهرة، كما لم تخلوا بيوت وقصور الأندلسيين المستقرين وبعض السكان المحليين من تزيينها بالحدائق البديعة المزخرفة بالرسوم والنباتات التي تتوسط أفنيئها نافورات (فوارات) المياه الدائمة التدفق، وهذه الشهرة الزراعية كان باعثها الأندلسيون، بعد أن كانت مجسدة في موطنهم الأصلي حيث عرفت الزراعة في الأندلس تطورا كبيرا خلال القرن 4هـ/10م، بفضل خصوبة الأراضي ووفرة المياه العذبة بها، إلى جانب اليد

¹ تقع تامنتفوست أو روسقونيا القديمة، على بعد 24 كلم شرق جزائر

² حي الثغريين "التاغارين": يقع في أعالي الأبيار، وقد حرف الاستعمار الفرنسي تسميته إلى "طاغارة - les Tagarins"

الماهرة والخبرات التي عرفت كيف تتعامل مع هذا المجال، فجعلته مركزاً ثقافياً وعلمياً وفنياً في مضمار التأليف الزراعي، فظهرت الحدائق التجريبية، التي جرى العمل فيها على أقلمة نباتات جديدة أو تحسين أنواع أخرى لنباتات شبه الجزيرة الأيبيرية، بواسطة البذور والجذور والفسائل التي جلبت من داخل الأندلس وخارجها، كما كانت عنايتهم كبيرة ولمموسة في تطور هندسة الحدائق والبساتين الخاصة والعامة، مما يدل على ذوقهم الفني السليم في تنسيق الحدائق والجنان، ففتننوا في رسم وبناء الحدائق التي جمعت بين الرقة والبساطة، حيث كان علماء الفلاحة بالأندلس يسعون دائماً إلى تطوير العلوم الفلاحية والبيطرة، فقد جابوا أقطاراً مختلفة من العالم للبحث عن أنواع النباتات الطبية والأزهار الجيدة، وبفضل هذه الخبرات والمهارات أحدثوا ثورة زراعية نقلوها من بلادهم الأصلية إلى مدينة الجزائر، إذ قامت نهضة اقتصادية وزراعية بالمدينة في بداية الفترة العثمانية، وهذا الطراز والجمال لاحتضانه في المخطوط الأندلسي المغربي المزوق "حديث رياض وعياض" وهي قصة شعبية، تحكي قصة حب ابتدأت فصولها بين شاب يدعى بياض وفتاة اسمها رياض، كانت متداولة في الأندلس والمغرب في القرن 8هـ/14م، لمؤلف مجهول، تحتوي هذه المخطوطة على 30 صورة، لم يبق منها إلا 14 منمنمة، بعضها فقدت أجزاء منها، محفوظة بالفاتيكان، اخترنا منها أربعة عينات تصور الحدائق والبساتين في أواخر العصر الوسيط في الأندلس والمغرب، والتي استمرت بنفس الطراز خلال الفترة العثمانية، وقد صور الفنان في هذه المنمنمات العمارة الأندلسية، وتوفر الصحن السماوي داخل القصور والمباني، والحدائق والبساتين المزدانة بأشجار البرتقال وغيرها، واستغلال المياه لأن الأندلسيين كانوا يربعون في حرفة تشييد قنوات المياه والعيون والناعورات، وهذه المنمنمات تجعلنا نقف على جملة من الملامح التي تشير إلى بعض التأثيرات الأندلسية التي عرفها المغرب الإسلامي بما فيه الجزائر، بعد سقوط الأندلس وهجرتهم إلى المغرب، فاجتمع في هذه المنمنمات الشجر والنبات مع الماء الذي يعمل على ديمومة الحياة، وعليه كان هدفنا من هذه الورقة البحثية، التعرف على التأثير والبصمة الأندلسية التي خلفها الموريسكيون في مجال الزراعة بما فيه من الحدائق والبساتين، عندما دخلوا إلى مدينة الجزائر في أواخر الفترة الوسيطة حتى نهاية الفترة العثمانية، رغم أن تأثيرهم الكبير كان خلال الفترة العثمانية، لاستقبال المدينة عدد هائل من المهاجرين، وكيفية نقل هذه الخبرات والمهارات التي طورت هذا الفن، والوقوف على أهمية العنصر الأندلسي واندماجه في مدن استقراره الجديدة، بجهود من الدولة العثمانية، فإلى أي مدى ساهم العنصر الموريسكي في انتعاش فن الزراعة في مدينة الجزائر؟ وماهي أهم البصمات التي تركوها في هذا المجال؟ وكيف صممت حدائق وبساتين مدينة الجزائر؟ وماهي أهم خصائصها الفنية والمعمارية، والتأثير الأندلسي عليها من خلال المخطوطات المنمنمة؟

أولاً: الزراعة في الأندلس

تعتبر الزراعة من الدعائم الهامة التي ارتكز عليها الاقتصاد الإسلامي عامة والأندلسي خاصة، فأصبحت الزراعة والغراسة قوام الحياة وقوت النفوس بالنسبة للقائمين على الأمر وسائر أفراد المجتمع، نظراً لما تمتاز به أرض الأندلس من مقومات طبيعية، ووفرة للمياه، لتنوع مظاهر سطحها ومناخها جعل أرضها تمتاز بالخصب حتى قال عنها الزهري "هي أبرك بقاع الأرض وأكثرها نسلأ.. ومن بركتها أنه لا يمشي الإنسان فيها فرسخين دون ماء ولا يمشي ثلاثة فراسخ إلا وجد فيها الخبز والزيت (الزهراوي، 1968، صفحة 80) إلى جانب خبرات ومهارات الفلاح وقدرته على استغلال وتحسين هذه العوامل التي أدت إلى ازدهار مجال الزراعة في الأندلس، وبعد مرحلة التأسيس والازدهار لعلم الفلاحة. وصل فن الزراعة إلى أوج ازدهاره في القرن 7هـ/13م. (المقري، 1968، صفحة 15)

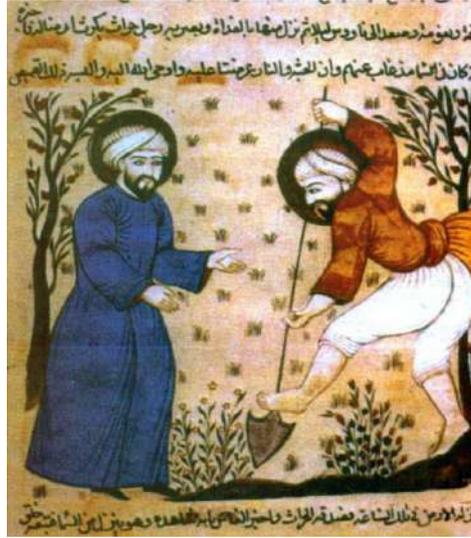
ويرى ابن خلدون في بعض أوجه الكسب والمعاش " أن الأندلسيين هم أكثر أهل المعمورة فلحا وأقومهم عليه، وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلاح، إلا قليل من أهل الصناعات والمهن أو الوافدين على البلاد برسم الجهاد". (ابن خلدون، 1988، صفحة 297) وتؤكد النصوص المتعلقة بالأندلس صحة ما خلص إليه ابن خلدون، إذ تفيد بأن الأمراء والخلفاء خاصة وعمامة المجتمع، كانوا دوما حريصين على حيازة الأراضي لتشكيل جزءا من ثروتهم العقارية وممارسة الزراعة للانتفاع من العائدات الناتجة عنها. (النعسان، 2017، صفحة 122) وظلت الفكرة متواصلة فيما بعد عند سكان الأندلس.

تطورت الزراعة بشكل كبير في الأندلس، فتنوعت أشجار الفواكه والمزروعات، وأوجدت مزارع خاصة لتربية دودة القز والنحل، كما ظهرت الحدائق النباتية أو الحدائق التجريبية، التي جرى العمل فيها على أقلمة نباتات جديدة أو تحسين أنواع أخرى لنباتات في شبه الجزيرة الإيبيرية، بواسطة البذور والجذور والفسائل التي جلبت من داخل الأندلس وخارجها. (إكسبيراثيون، 1998، الصفحات 1368-1369) حيث أدخل المسلمون العديد من الخبرات الزراعية إلى الأندلس مثل: الأرز وقصب السكر والقطن والقنب والرمان السفري وغيرها، ونظمت أقنية الري وأساليب جر المياه. (ريسليير، 1993، صفحة 118)

حدثت نهضة غير مسبوقه في الأندلس في جميع المجالات خاصة في مجال الزراعة والفلاحة واحتلت دواوين الفلاحة حيزا كبيرا، فسمي هذا العصر بعصر نهضة "المدرسة الزراعية الأندلسية" بتضافر جهود الحكام ورغبتهم في تطوير هذا العلم، يجلب نباتات جديدة لغرض أقلمتها في جنائهم الخاصة، وتشجيع علماء الزراعة الذين كانوا أناسا ذوي معرفة موسوعية انكبوا في بحوثهم على التوفيق بين النظرية والممارسة التطبيقية الحية، وخلصت أبحاثهم إلى تأليف عدة رسائل زراعية وشكلت نواة المدرسة الزراعية الأندلسية. (إكسبيراثيون، 1998، صفحة 1371) حيث جعل تقويما خاصا للزراعة "وهو التقويم القرطبي (Calendario de Codoba) لعريب بن سعيد، وتشير المواد الزراعية المدرجة عموماً في ختام كل شهر من شهور السنة، إلى زراعة الأشجار والجنانة والبستنة، وانتقل إلى أوربا فيما بعد، كما نجد في هذا الميدان، رسالة ثانية وهي "مختصر كتاب الفلاحة أبي القاسم الزهراوي شخصية معاصرة لعريب بن سعيد ، (إكسبيراثيون، 1998، صفحة 1367) وفي هذه المجال ظهرت عبقرية الطغفري الغرناطي، في كتاب "زهر البستان ونزهة الأذهان" ومحمد بن إبراهيم بن بصال في "كتاب الفلاحة"، (ابن بصال، 1955) ومن قبلهم ابن وافد الطليطلي الطيب والصيدلي الكبير كما تنعته الدراسات الأسبانية (467هـ/ 1075م)، الذي خدم الأمير المأمون سنة (1037- 1075م) ، وزرع له جنة السلطان، وهي مضرب المثل في الحدائق الأندلسية التجريبية ما بين التاج والقنطرة. (ابن وافد، 2000، صفحة 09)

لقد تمكن الخبراء من الارتقاء بالزراعة الأندلسية إلى مستوى عال، ولقد أمر الحكام الإسبان في القرن 18م بترجمة رسالة ابن العوام الإشبيلي (ت 580 هـ/ 1184م)، في رسالته "كتاب الفلاحة الأندلسية" (الأشبيلي، 2000، صفحة 22) إلى اللغة الإسبانية إدراكا منهم لذلك التطور الذي يعتبر موسوعة علمية ضخمة في مجال علم الفلاحة، كما ترجمت الرسالة ذاتها إلى الفرنسية في وقت لاحق لوضعها في تصرف المزارعين الجزائريين. (فيرنيه، 2017، صفحة 1304)

شكل رقم (1): مشهد من العمل الفلاحي بالاندلس من منمنمة عربية أندلسية



عن:

Abu Safieh, Jaser, Gleanings from the
Islamic Contribution in Agricultu

ثانيا: المنتوجات الزراعية في الأندلس

أما عن المحاصيل والمنتوجات الزراعية فقد بلغت درجة عالية من التنوع، فشغلت الحبوب مساحات كبيرة خاصة القمح، الذي اعتنى به الأندلسيون لأنه يشكل الغذاء الرئيسي لهم، وتخزينه أيضا (Provençal, 1953, p. 27) وقد أحب أهل الأندلس أشجار الكروم، فاهتموا بغرسها، حتى في أفنية منازلهم، وحول جنبات البيوت، واحتلت الكروم مساحات واسعة من أراضي الأندلس، حتى إن بعض المزارعين كانوا يجدون صعوبات في الوصول إلى ضيعاتهم لإحاطة كروم الناس بها (ابن الحجاج، 1981، صفحة 128) كما انتشرت في الأندلس أنواع أخرى كثيرة من غلات الأشجار كالجوز واللوز والرمان (موسى، 1983، صفحة 197) والخوخ والسفرجل والتفاح والإجاص، كما اهتم الأندلسيون بزراعة الحمضيات خاصة الليمون والبرتقال، وزرع أشجار الزيتون (سامعي، 2007، الصفحات 38-41) في جبل العروس شمال قرطبة وجبل الشرف إشبيلية، (المقري، 1968، صفحة 159) وقد أبدى ابن بطوطة إعجابه بكثرة فواكه بعض أقاليم الأندلس فذكر واصفا خيرات مدينة مالقة: " رأيت العنب يباع في أسواقها لحساب ثمانية أرتال بدرهم صغير، ورماتها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا، وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازاها إلى بلاد المشرق والمغرب" (ابن بطوطة، 1951، صفحة 405) كما استفاد الوزير لسان الدين الخطيب بوصف وتنوع خيراتها وطبيعتها بقوله " خص الله تعالى بلاد الأندلس من الربيع، وعذق السقيا، ولذاذة الاقول وفراصة الحيوان ودرور الفواكه، وكثرة المياه..." (ابن الخطيب، 1955، صفحة 126)

لقد كان أهل الأندلس يتناولون الخضر والبقول الطرية على مدار فصول السنة، فالغلات الصيفية كالقرع والباذنجان والفاصولياء الخضراء والبطيخ بنوعيه الأصفر والأحمر والخيار والثوم تتناوب مع غلات الشتاء كاللفت والكرنب والجزر والكزّات والسلق والسبانخ والخرشوف. (إكسبيراثيون، 1998، صفحة 1377) الأمر الذي أغنى نظام التغذية للسكان بدرجة كبيرة وتعددت أصناف البقوليات كالفول والحمّص واللوبياء والجلبان والعدس والتمرس. (ابن البيطار، 1990، صفحة 88)

كما اهتم الأندلسيون بالمنتوجات الصناعية، كالقطن والكتان¹ الذي جاء من بلاد فارس، واحتفظ باسمه القديم "البذور الملكية" أو "شاه دنج"، (بولتز، 1998، صفحة 1400) كما أدخل العرب إلى الأندلس زراعة قصب السكر، الذي كان يزرع في الواجهة البحرية الشرقية ما بين مالقة والمرية، كما اشتهرت به منطقة المنكب (الونشريسي، 1954، صفحة 298) والوادي الكبير وجنوب شرق إشبيلية، وجلب أفضل قصب السكر من مدينة زنجبار، وهو أصفر اللون كالليمون تصنع منه أجود الحلويات الأندلسية المعسلة. (بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، 2003، صفحة 532) وإنتاج القنب² والحرير، خاصة في إقليم جيان شرقي قرطبة فكثرت فيها زراعة أشجار التوت لتربية دودة الحرير (لومبار، 1979، صفحة 272) ذكرت نازلة سنة 511هـ/1216م تفوق جيان في هذا المحصول وجودته، فتذكر أن "رجلا استدان مثقالين من الذهب المرابطية وثمانية دراهم ثلثية واشترى رطلين اثنين من غزل الحرير الجياني الطيب في غاية الطيب"، (التجيب، صفحة ج88، ورقة36) ونظرا لتفوق المنطقة بإنتاج الحرير وصفها ابن رشد بـ "جيان الحرير"، كما اشتهرت مدينة غرناطة بزراعة أشجار التوت. (القرطبي م.، 1987، صفحة 331) وقد أدخلت تربية دودة القز وصناعة نسيج الحرير إلى الأندلس عن طريق الجند الشامي. (بن مصباح، 2018، صفحة 181) واهتموا بإنتاج أنواع كثيرة من العقاقير التي عمت المغرب كله، كالقرنفل والقرفة والعود وزهرة الزعفران لصبغ منسوجاتهم وإضفاءها نكهة ورائحة زكية في الأطعمة. (لومبار، 1979، صفحة 273)

إلى جانب المحاصيل الزراعية والصناعية، شاعت في الجنائن والحداثق الأندلسية أشجارا للزينة كالصفصاف والدردار والسرور والسنديانوالدلب والأس والياسمين، (إكسبيراثيون، 1998، صفحة 1378) واشتملت كذلك على نباتات مزهرة مثل: الورود والقرنفل والبنفسج والمنثور والأقحوان والزنبق (النيلوفر). (بن مصباح، 2018، صفحة 181)

ثالثا: تعريف الحداثق والبساتين في الفترة الإسلامية

الحديقة في المفهوم الإسلامي، هي مكان مخطط على اتصال بالخارج تم تنظيمه لغايات العرض والزراعة والاستمتاع بالنباتات والتشكيلات الطبيعية الأخرى، ويمكن أن تجمع بين المواد الطبيعية والمواد المصنعة بيد الإنسان، وتقتصر على النواحي الجمالية أو تتعداها لغايات إنتاج الغذاء، (بعارة، 2010، صفحة 14) خدمة للإنسان وحتى الحيوان، كالطيور وغيرها من المخلوقات، والحديقة في اللغة كما جاء في لسان ابن منظور فهي من الرياض، أي كل أرض استدارت وأحرق بها حاجز، أو أرض مرتفعة، وهي أرض ذات شجر مثمر ونخل، وقيل: هي البستان والحائط، وقيل: القطعة من الزرع، وكل بستان كان عليه حائط فهو حديقة، وما لم يكن عليه حائط لم يقل له حديقة، فالحداثق تختلف عن البساتين والمراعي الخضراء. ويرادف ابن منظور لفظ الحديقة بمدلول الجنة. (ابن منظور، 1988، صفحة 90) وكلمة بستان معربة من الفارسية: بوستان، بو: الرائحة، أي رائحة الأزهار، ستان: المكان الذي توجد فيه هذه الروائح (الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، 2015، صفحة 289)، أما الجنة كما ورد في معجم لسان العرب فأصلها ومعناها، جن الشيء يجنة جبا، ستره،

والجنة السترة ، والجنة تصغير جنة، (ابن منظور، 1988، صفحة 777) وقد عرف الراغب الأصفهاني الجنة: كل بستان ذي شجر ستر بأشجار الأرض، ويقول ابن العوام " تختار للبساتين والجنات من أنواع الأرض أطيبها بقعة وأعذبها ماء" (الأشبيلي، 2000، صفحة 211) أما الروضة فقد عرفها ابن منظور " أنها الارض ذات الخضرة والروضة، البستان الحسن في موضع يجتمع اليه الماء، يكثر نبتة، ولا تكون الروضة الا بماء معها أو بجنبها." (ابن منظور، 1988، صفحة 1618)

ذكرت الحدائق في القران الكريم في ثلاث مواضع، أما الجنة والجنات مفردة ومجموعة فقد وردت 138 مرة، بما تحويه من أشجار وثمار وهذا التوجيه يفسر حرص المسلمين على إحاطة المباني، وكذلك زراعة الفراغات الداخلية للمنشآت بمجموعات من الأشجار دائمة الخضرة والشجيرات ليحقق لهم الظل والغلة (لمعي، الصفحات 40-42) لقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57)﴾ (سورة يس). فالنباتات والمسطحات الخضراء داخل الفراغ الداخلي للمنشآت تعمل على توفير المسطحات المظللة، والتي تعمل بدورها على تحريك الهواء داخل الفراغ والكتلة العمرانية؛ نظرا لفروق الضغط واختلاف درجات الحرارة ما بين المناطق المظللة والمناطق المشمسة، وبالتالي تساعد على زيادة الاتزان الحراري وتقلل من الظروف المناخية المجهددة للراحة الإنسانية. (رماح، 1984، الصفحات 82-83) ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية.

رابعاً: حدائق وبساتين الأندلس

الحدائق من الفنون الجميلة التي تبرز جمال الطبيعة وتبين عظمة الخالق، وتبث المباحج في النفوس؛ ولذلك اهتم المسلمون أيما اهتمام بهذا الفن وألوه عناية كبيرة، وهذا الاهتمام لم يكن وليد فترة معينة، بل منذ البدايات الأولى لظهور الإسلام، لان الدين الحنيف حثَّ على ضرورة الاهتمام بالغطاء النباتي، بحرث الأرض وغرسها بالزرع المثمر والنباتات والأشجار، وذلك لإظهار الحكمة الجمالية من وراء خلق الحدائق والبساتين، الأمر الذي يدل على الانسجام الكامل بين دين الإسلام وفطرة الإنسان التي تسكن بطبيعتها إلى اللون الأخضر وتناسق الأشجار والأزهار والثمار، (بوقاعدة، 2017، صفحة 177) لترسم صورة شوق الفرد المسلم لجنة الفردوس، مما اقتضى تقدم وازدهار فن الزراعة والبستنة والحدائق، وقد كان من أهم آثار العرب المسلمين في الأندلس هندسة الحدائق والرياض الخاصة والعامة، مما يدل على ذوق فني سليم في تنسيق الحدائق، جمعت بين الرقة والبساطة، حيث كان علماء الفلاحة بالأندلس في قمة تطويرهم للعلوم الفلاحية والبيطرة، فقد جابوا أقطار الدنيا للبحث عن أنواع النباتات الطبية والأزهار الجيدة ، وقد تفننوا في رسم وبناء الحدائق التي اشتهر بها أهل الأندلس الذين أقاموا القرى الفلاحية والمنيات والجنات والبساتين، ونعمة يبتهم الساحرة، التي أفاض المؤرخون والجغرافيون والشعراء العرب في وصف بيئة وجمال وطبيعة بلاد الأندلس الفاتنة، وجناتها البهيجة، حتى وصفوها بجنة الخلد لقول الشاعر ابن خفاجة :

يا أهل الأندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار

ماجنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار (النعسان، 2017، صفحة 132)

وقد اهتم حكام الأندلس وبعض سكانها بإنشاء القصور والدور الأنيقة وأغرموا في تزيينها وزخرفتها، وألحقوا بها الحدائق الغناء والبرك ذات الرخام والفسيفساء، وأحيطت بالنوافير الرائعة الأشكال إلى جانب الحدائق العامة الممتدة والبساتين. يشم الإنسان وهو يسير فيها روائح البرتقال والريحان. حيث زرعت جوانب الممرات في حدائق القصور بالأشجار والشجيرات منفردة بصفوف منتظمة، وبأوضاع متقابلة وعلى مسافات متساوية، حتى انعكست فيها حضارة حدائقية مميزة ذات أسس وتقاليد عريقة ظلت حتى وقتنا هذا ماثراً إعجاب مصممي الحدائق، مثل حديقة اشبيلية، وقرطبة، وطليلة وغرناطة وغيرها، ولم يقتصر وجود الحدائق في بلاد الأندلس على القصور والبيوت فقط، بل امتد إلى أفنية العديد من المساجد الأندلسية.

فقد اتخذ عبد الرحمن بن معاوية (172هـ/769م) منية الرصافة للزهره منذ أول أيامه وجعل فيها حدائق واسعة، حيث نقل إليها غرائب الغروس والشجر من كل ناحية، (ابن الحجاج، 1981، صفحة 05) ومن بينها شجر الرمان، (المقري، 1968، صفحة 467) وقد كلف البستانيون يجمع نباتات غريبة في أسفارهم كي يجروا عليها اختباراتهم وتجاربهم في وقت لاحق، وهو أول ما عرف في هذا المضمار (إكسبيراثيون، 1998، صفحة 1369). وأنشأ الخليفة عبد الرحمن الناصر (350هـ/961م) في مدينة قرطبة حديقة نباتية إذ خصصها للنباتات الطبية وبعث عدد من المتخصصين في علوم النبات إلى العديد من البلد للبحث عن بذور النباتات وجلب أنواع من المغروسات الطبية والاقتصادية لغرض ضمها إلى حدائقه الضخمة وعهد إلى أكابر علماء النبات للإشراف عليها ومتابعتها (حسين ع.، 1977، صفحة 88) وقد استمر الأمراء حتى بعد سقوط الخلافة وقيام ملوك الطوائف في إنشاء حدائق تجريبية في كل قصر من قصور الحكام الجدد، كحديقة الصُمادحية في مدينة ألمرية، التي بناها المعتصم بالله وجلب إليها مختلف سائر أنواع الثمار، والبعض منها كان غريباً في تلك الفترة، مثل أنواع الموز المختلفة وقصب السكر، وقد استمر هذا التقليد بعد ذلك على مدى تاريخ الأندلس ليعطينا حديقة البحيرة في إشبيلية في عهد الموحدون أو جنة العريف في غرناطة في الفترة النصرية (إكسبيراثيون، 1998، صفحة 1370) كما وجدت بقصور اشبيلية وقرطبة وقصر البرطل الحدائق الرائعة التي تتميز بوجود الظلة أو السقيفة المعرشة بأوراق الشجر الخضراء والمتسلقات الزهرية ويكسو أرضها البلاط الملون. (مصطفى، 1995، الصفحات 30-35) وقد حظيت بلاد الأندلس بما تثير الدهشة والعجب من أنواع الورود والأزهار وكثرتها، فكل بلد من البلدان الأندلسية كان ينبت نوعاً من الزهور. (النعسان، 2017، صفحة 56) فعلى سبيل المثال كانت منطقة جبل شقورة تنبت الورد الذكر العطر، وجبل شتية ينبت أصناف الأزهار، فيقطع فيه النرجس غصبا في زمن الورد. (الحميري، 2019، صفحة 349) وفي قرطبة جبال الورد الذي بلغ الربيع منه مرات إلى ربع درهم، وصار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه. (ابن حزم، 1968، صفحة 50)

اهتم الأندلسيون بالزهور اهتماماً شعبياً فضلاً عن اهتمام الملوك والوزراء والأمراء والقادة بها، حتى أنهم بلغوا أن يشاهدوا الورود والزهور في منامهم، وعندما يطل زمن تفتح الورد لا يجدون أغلى وأجمل هدية لمن يحبون منه، ولا يجدون أكثر متعة في مجلس أنس في حديقة منورة أو روضة مزهرة، أو قصر يزدان بأنواع مختلفة من الأزهار والورود التي تبهج الناظر، فأصبح لكثير منهم حدائق خاصة في دورهم وقصورهم، التي كانت تتم فيها مجالس الأدب والطرب والمتعة. وهناك من استعار أسماء بعض الأزهار كعناوين لهذه المؤلفات وفصولها، مثل كتاب ابن سعيد المغربي الأندلسي (ت685هـ) المغرب في حلي المغرب " والذي قسمه إلى عدة أقسام من بينها "عف النسرين في حلي مدينة شنترين"،

" زهرة الخميطة في حلي مدينة تطيلة" و " الحلة السندسية في حلي الرصفة البلنسية". (النعسان، 2017، صفحة 82) وهناك دواوين للشعراء الأندلسيين التي حفلت بذكر العنصر النباتي التزييني في الحديقة الأندلسية، وقد ساهم العرب في تطوير الزهور والوقوف على جمعها وزراعتها والاعتناء بها، ومن بين الزهور المعروفة في الأندلس نذكر على سبيل المثال" الاس، الأقحوان، البنفسج. (ابن البيطار، 1990، صفحة 231)

فلا عجب أن تأخذ الحديقة العربية في الأندلس أوج تقدمها، وتعكس بالتالي الفكر العربي الإسلامي في نموذج مميز وجميل، ظهرت فيه براعة المهندس العربي الأندلسي، الذي كان يتنافس في تزيين حدائق وقصور الخلفاء والأمراء.(صورة 01)

صورة 01: إحدى حدائق الكازار بقرطبة



عن : spain.info/tour-spain

خامسا: إسهامات الأندلسيين في مجال الزراعة وفن البساتين والحدائق بمدينة الجزائر
1.5- الزراعة:

إن التأثير الكبير للحضارة الأندلسية على العديد من المجالات منها العمرانية والزراعية والفنية وغيرها، برز بشكل جلي بعد سقوط بلاد الأندلس في يد النصارى المسيحيين، وتفرق المسلمين الأندلسيين، وهذا ما لاحظناه في عمارة وفنون مدينة الجزائر من قصور ومساجد وحدائق، وفي مجالات أخرى كالصناعة والزراعة وغيرها، والتي ما تزال آثارها شاهدة على ذلك حتى زمننا هذا، فقد استطاعت الجالية الأندلسية بالجزائر تنمية ثرواتها بفضل ممارسة التجارة، واحتمال كبير أن العديد من المهاجرين الأندلسيين الذين استقروا في الجزائر، اشتغلوا في ميدان الزراعة وخاصة أولئك الذين لا يمتلكون شروط العمل في الميادين الأخرى كالتعليم والإدارة والقضاء، وبفضلهم حدثت ثورة زراعية للمحصولات، وقد ساعد هذا سيادة مناخ البحر الأبيض المتوسط في كلا البلدين.

فاستقروا في الفترة الوسيطة ببساتين "تامنتفوست" (De Tassy, 1992, p. 62) لقرب سهول المنطقة من المرافئ البحرية للجزائر الشرقية، (بلغيث، الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيجة، 2017) كما قاموا بإحياء واستصلاح غابات

منطقة بوزريعة والقضاء على أحرشها وتحويلها إلى فحوص بحدائق وبساتين غاية في الجمال (بلغيث، الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيجة، 2017) كما استقروا في أعالي مدينة الجزائر بحي أو "حومة الثغرين" وهذه الهضبة مازلت تحمل اسمهم إلى يومنا هذا، الأمر الذي مكثهم من امتلاك المنازل وشراء الضيعات والأراضي الزراعية. (De Tassy, 1992, p. 62) فقد كانوا يقتنون ويمتلكون بساتين في فحوص مدينة الجزائر، وهذا ما يوضحه لنا أحد عقود بيع جنان ببيطرطيلية؛ خلال الفترة العثمانيةⁱⁱⁱ بتملك الأندلسيين للأراضي، وجنان ببيطرطيلية يقع بالقرب من حومة الثغرين و جاء في هذا العقد مايلي: "...وباعا صفقة واحدة وعقدا واحدا من الولية عائشة بنت سعد الأندلسي جميع الجنة المذكورة بجميع حدودها وحقوقها وحرمتها ومنافعها ومرافقها داخلا فيها وخارجا عنها بيعا صحيحا مستوفي الشروط الشرعية... وولت لهما في باقي العدد الذي قدره ثمانمائة دينار من الوصف جميع الجنة الكائنة بفحص ترونت المبيعة بيدها بيع ثنيا تولية تامة فتسلماها منها وملكاها دونها..." (Ben cheneb, 1945, p. 288)

تمكن الأندلسيون من استصلاح مساحات شاسعة من الأراضي بنواحي متيجة وأصبحت سهول متيجة ومرتفعات الساحل القريبة من مدينة الجزائر بفضل مهارة فلاحي بلنسية والأراغون ذوي التقاليد العريقة في ممارسة الفلاحة، تشتهر بزراعة الأشجار المثمرة. (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) في مقاطعة الجزائر " دار السلطان" أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، صفحة 139) وليس صدفة أن تصبح هذه الغاباتوالأحراش المحيطة بصور مدينة الجزائر أجمل الضيعات والبساتين، في المنطقة، تتوسطها عادة قصور مبنية على الطراز المعماري العربي الأندلسي، بل تحولت وبدون مبالغات إلى أجمل الساتين وجنان العالم المتوسطي بضفتيه الشمالية والجنوبية على الإطلاق. (سعد الله، 2016، صفحة 109) وغدت فحوص مدن الجزائر أشبه بنواحي غرناطة وبلنسية وهذا ما جعل أغلب الرحالة والجغرافيون ... يشيدون بطريقة استغلالها وجوده منتجاتها ويعجبون بمناظرها التي تثير الخيال وتبعث الراحة في النفس. (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) في مقاطعة الجزائر " دار السلطان" أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، صفحة 111) (شكل 02)

شكل 02: مدينة الجزائر في القرن السابع عشر



عن: CEZAYİR DE OSMANLI KİTABELERİ (1516.1830):

لقد نجح الأندلسيون إلى حد بعيد في توسيع زراعة الليمون والبرتقال واللارنج والتين بحدائق وبساتين وقصور ومنازل ومساجد مدينة الجزائر (Saidouni, 2001، صفحة 78) ويعود الفضل للأندلسيين في إدخال زراعة محاصيل لم تكن تجد العناية والاهتمام لدى الأهالي مثل زراعة التوت الأبيض والأسود حيث كانت تتغذي عليه دودة الحرير، كما اعتنوا بزراعة العنب بنواحي الجزائر بعد أن انحطت نوعيته وكادت تختفي زراعته. (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) في مقاطعة الجزائر " دار السلطان" أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، صفحة 112) وزاد إنتاج زراعة الزيتون الكثيفة بعدة مناطق. وأنواع متعددة من الفواكه، (بن مصباح، 2018، صفحة 182) كما اشتهروا بزراعة الخضار على اختلاف أنواعها والفواكه بتعدد أصنافها، ولعل أهم أنواع الأشجار المثمرة التي نجح الأندلسيون في تطوير إنتاجها وتحسين أنواعها عن طريق التقليل والتطعيم بعد أن كانت تعاني الإهمال، كالبرتقال و المشمش و التفاح و الرمان و الأجاص و الكرز أو حب الملوك و اللوز و الجوز و الزيتون و التين و الكروم. ، والبطيخ، حيث ذكر دافتي في القرن 11هـ/17م، أنه كان بفحوص مدينة الجزائر ومنتجاتها أنواع مختلفة من البطيخ والدلاع، حيث سجل أنه كان لدى سكان مدينة الجزائر بطيخ يشبه الذي في بلاده، ولكنه أطيب المذاق وألذ" (D' Avity, 1637, p. 172) وبفضل الأندلسيون الموريسكيون وثورتهم الزراعية أدخلت العديد من الفواكه والخضار لأول مرة إلى مدينة الجزائر وكل الجزائر من بينها حب الملوك الارنج والقرنوبل والزعفران والسبانخ والباذنجان الذي استمد تسميته من مقاطعة أندلسية هي بتانجال (Bitanjel) والجلبان والفلفل والبطاطس والطماطم، التي استقدمها الإسبان من العالم الجديد بعد إكتشاف القارة الأمريكية سنة 897هـ/1492م وجلبها الأندلسيون معهم إلى الجزائر. (بن مصباح، 2018، صفحة 182) فضلا عن أنواع مختلفة من الأزهار والورود، كانت تزرع بغرض تقطيرها مثل الورود. (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) في مقاطعة الجزائر " دار السلطان" أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، صفحة 112) وعلى رأسها النرجس والريحان والياسمين، وأشجار اللارنج و التوت و الليمون (سعد الله، 2016، صفحة 109)

وقد ساعد هذا الانتاج خصوبة الأراضي، بما فيها أراضي الفحوص، التي كانت غلاتها طيبة جدا ومحفوظة بما كانت تتمتع به من ميزات، اذ انه وسط اكثر درجات الحرارة ارتفاعا كانت النباتات تبقى على خضرتها، وأن رطوبة الارض المسقية جيدا وبشكل دائم كانت تحمي الاوراق من اثار الحرارة، في حين كانت رقة الشتاء (اعتداله) تحافظ عليها على الاشجار ونضارتها، وكان الفضل ذلك الى نظام الري، والسقي الفعال الذي كان متواجدا بالفحوص، وكانت غنية بالقمح والخضر والفواكه، فسهولها وتلالها المزروعة جيدا كانت تتمتع الناظر اليها وتسليه. (مباركي، 2011، صفحة 204)

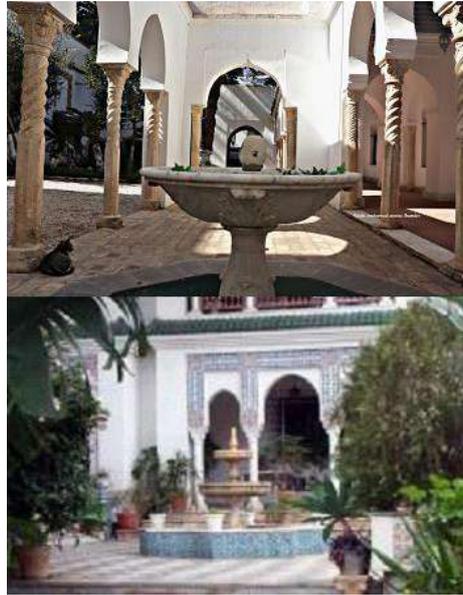
كما أدخلوا إلى مدن الجزائر و البلدية و القليعة والمدية تقنيات زراعية متطورة من حيث آلات العمل الفلاحي وطرق التشذيب والتلقيح والغراسه واختيار التربة ونوعية المياه. (بلغيث، الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومنتجة، 2017)

2.5- الحدائق والبساتين:

طبع عملية تخطيط وتزيين الحدائق والبساتين في الجزائر تطور في ربيع، في أواخر الفترة الوسيطة وبداية الفترة العثمانية، بأشكال وأنماط مختلفة، والتي جسدت التأثير الأندلسي عليها، فبرع فنانون ومعماريون أندلسيون في هذا المجال، والتي لا تزال إلى اليوم شاهدا حيا على براعة ذلك الفن، كتلك التي ظهرت في فحوص^{iv} ومنازل وقصور مدينة الجزائر وحدائقها العامة، فأعطت صبغة جمالية ورونقا بجمال أشجارها وأزهارها، ونوافير المياه الدائمة التدفق، فتميزت فحوص مدينة الجزائر التي يشكل الأندلسيون نسبة كبيرة من سكانها بسعة مساحاتها التي تقدر بحوالي 150

كلم مربع، وهو بهذه المساحة يمتد إلى ما يزيد على إثني عشر كيلومترا على أسوار مدينة الجزائر. (سعيدوني، فحص مدينة الجزائر (نوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية عشية الاحتلال)، 1986، صفحة 91) وكان لنشاط المهاجرين الأندلسيين دخل كبير في ازدهار فحص الجزائر في هذه الفترة، إذ يعود لهم الفضل في استصلاح الأراضي بسهل الحامة، وغرس الأشجار المثمرة بنواحي بئر الخادم وبئر طوليلية والثغرين حيث أصبحت أغلب الأراضي الزراعية بهذه الجهات ملكا لأفراد الجالية الأندلسية. (سعيدوني، فحص مدينة الجزائر (نوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية عشية الاحتلال)، 1986، صفحة 92) (شكل 03) (صورة 02-03-04)

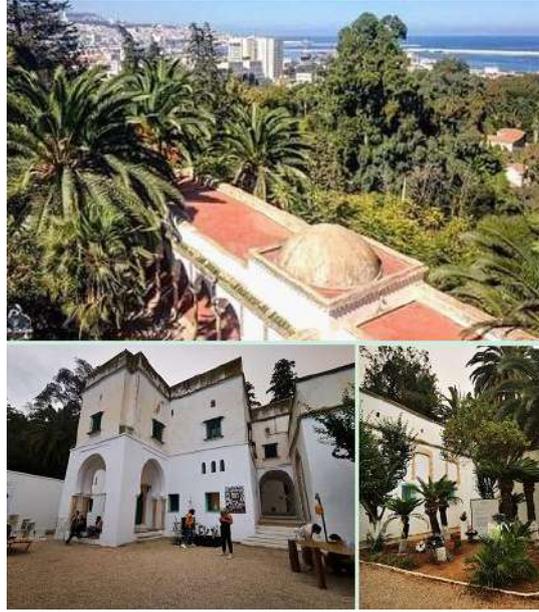
صورة 02: نافورة فحص عبد اللطيف بمدينة الجزائر



صورة 03: بعض الأجزاء من فحص عبد اللطيف بمدينة الجزائر



صورة04: منظر خارجي لفحص عبد اللطيف بمدينة الجزائر



شكل 03: أراضي الفحص بمدينة الجزائر



عن: المكتبة الوطنية

كما انتشر عند أهل الحضرة وأثرياء المدن وبعض رجال العلم عادة بناء الاحواش في بساتينهم التي يحوزونها خارج المدينة ويزينونها ببعض الآلات الموسيقية والزرايب الرفيعة وجلود الحيوانات وغيرها من التحف الثمينة. وهو ما يدل على تطور الحس الفني والذوق الرفيع لدى هؤلاء السكان فأضفى صبغة جمالية على محيط هذه المساكن وحدائقها وبساتينها. (سعد الله أ.، 1998، صفحة 448) وقد أقيمت المنازل في المناطق التي تربط بين المدينة والريف لغرض الراحة والاستجمام أو لقضاء فصل الصيف، وأطلق عليها اسم "الجنان" لأنها تقع وسط الحديقة. (راجعي، 2007، صفحة

(185

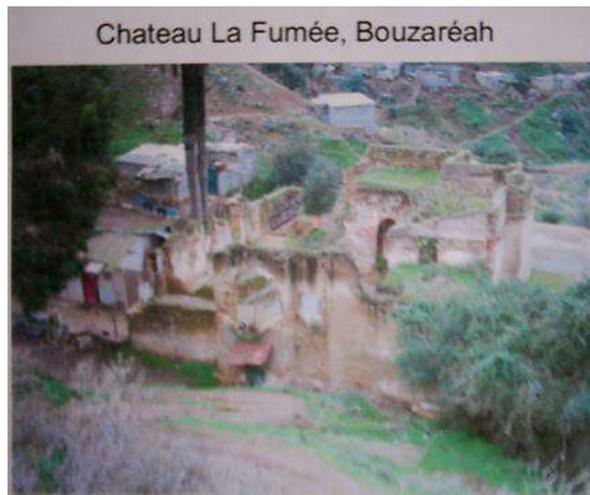
لقد كانت حدائق وبساتين مدينة الجزائر من فحوص وقصور ومنازل من المعالم البارزة لها، وقد زادت مدينة الجزائر رونقا وجمالا، حيث أشاد جميع من كتبوا عن مدينة الجزائر سواء كانوا أسرى أو رحالة أو رجال دين...، بهذه البساتين، حيث كانت تشكل مصدرا هاما للغذاء بالنسبة لسكان المدينة، وقد أعجب بها الأب دان (Dan, 1649, pp. 87- 88) الذي زار الجزائر سنة 1634م وأبدى إعجابه بهذه الحدائق الذي بلغ عددها على حسبه 18000 حديقة، وبأشجار الكروم التي غرسها الأندلسيين،^٧ وأصبحت مدينة المحروسة حينذاك تقارن ببغداد ودمشق، وتوصف بأرق الأشعار على غرار هذا البيت لمصطفى بن رمضان بن العنابي الجزائري في القرن 17-18م الذي قال:

وما الحسن ماضم العراق وإنما هو الحسن ماضمته عليه الجزائر

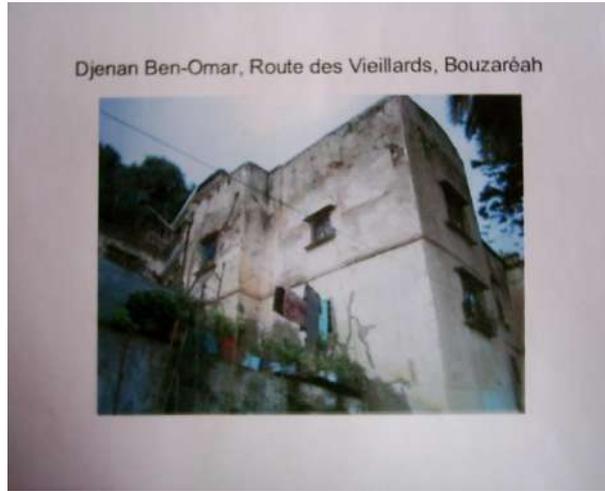
بلاد بها الخيرات حلت وخيمت وأول قصد الحر فيها واخر. (سعد الله، 2016، صفحة 112)

كما كتب الطيب " شاو Shaw"، الذي أقام في مدينة الجزائر ما بين سنة 1720-1732م، منبرا بهذه الطبيعة" رواي ووديان ضواحي مدينة الجزائر تكسوها الديار الريفية والبساتين حيث يقضي السكان الاكثر ثراء فصل الصيف، كل الديار مدهونة بالجير ومداخلة مع أشجار الفواكه وغيرها من الاشجار التي تترك في النفوس عند النظر اليها من البحر الاثر الاكثر متعة..." (سعد الله، 2016، صفحة 110) وعند معاينتنا لمنطقة بوزريعة وجدنا مجموعة من هذه المنازل معظمها تهدم وبعضها في حالة سيئة. (صورة: 05-06-07)، بسبب العوامل الطبيعية، وتخريب قوات الاحتلال الفرنسي جزءا هاما منها، وتذكر الوثائق الارشيفية الجزائرية خلال الفترة العثمانية من بينها، جنان سيدي محمد الحرار في الحامة، جنة معمر الدباغ في بئر خادم، جنة سيدي محمد العطار في بئر خادم، جنان بنت الجيار ببني مسوس، ضيعة حمدان بن الحاج عبد الرحمن بالزغارة، وضيعة أحمد بوضربة في فحص الحامة (Saidouni N. , 2001, p. 126) ...وغيرها من المنازل والفحوص.

صورة 05: قصر الدخان ببوزريعة الفترة العثمانية



صورة 06: جنان بن عمار ببوزريعة الفترة العثمانية



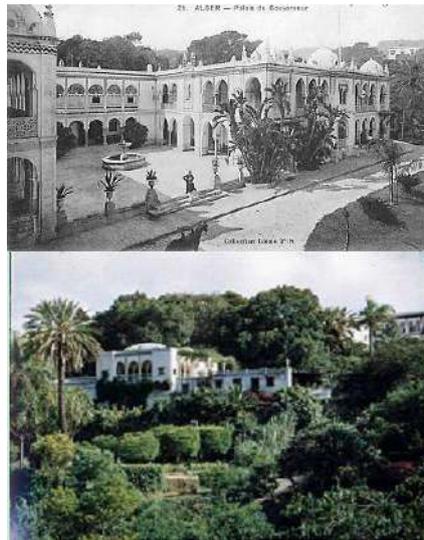
صورة 07: حوش مرزوق ببوزريعة الفترة العثمانية



كانت فحوص مدينة الجزائر خلال القرن 16/10م، حافلة بالحدائق والبساتين البديعة، وغنية بالقمح وأنواع الخضر والفاكهة والأزهار، التي كانت مصدر للغذاء، وقد ساعد على ذلك أراضيها الخصبة التي تتمتع بخضرة دائمة، لأن الأرض كانت مسقية جيدا وبشكل دائم، ولم يتم اختيار هذه المناطق بمحظ الصدفة، بل لاحتوائها على مصادر المياه كالعيون والآبار والأودية، وقد ذكر دافتي في الرق 11هـ/17م، أن سهل متيجة كان لديه نهر صغير يسقيه، وأن هذا السهل خصب لدرجة أنه يعطي في أكثر الأحيان مائة لواحد وينتج مرتان أو ثلاثة ملات في السنة القمح والشعير، وقد وقف على هذه المناظر الخلابة ووصفها مجموعة من الأوربيين الذين زاروا المدينة كما ذكرنا سالفًا، فيذكر هايدو " أنه بمجرد أن نخرج إلى الريف تقابلنا مناظر رائعة وممتعة تدخل السرور إلى النفوس، ويتبادر إلى الأعين جمال منظر أشجار الكروم العديدة، والحدائق التي تحيط بالمدينة ففي كل جانب لا نرى إلا أشجار البرتقال والليمون والأترج (Cédratier) وأشجار

أخرى من كل نوع بالإضافة إلى الأزهار، خاصة الورود المفتحة طوال السنة وسط الخضر والبقول. (Haedo, 1871, p. 462) إلى جانب الياسمين و الزعتر والإكليل. كما لا تخلو أي حديقة من شجرة السرو. (Feydeau, 1884, p. 231) أما بايسونال (Peyssonnel) فقد تحدث عن عدم وجود أسوار مشيدة بين هذه الجنان، فتحات بسور طبيعي عبارة عن نبات شوكي كالصبار أو التين الهندي، يكون كثيفا ويتراوح طوله ما بين 15 إلى 20 قدم حتى لا يتعرض أصحاب البيت إلى الأنظار. (Peyssonnel, 1830, p. 256) وهذا التقليد وجد بالأندلس، إذ لم تكن الجنان محاطة بأسوار، وإنما كانت النباتات الشوكية كالصبار يزرع عند أطرافها وحدودها. (إكسبراثيون، 1998، صفحة 1378) (صورة 08)

صورة 08: منظر عام لقصر الشعب (الفحص الصيفي) الفترة العثمانية بمدينة الجزائر



كما ربط الأندلسيون مهاراتهم في زراعة الخضر والفواكه والأشجار بمعرفتهم بطرق الري الملائمة، والتي كانت تقوم على تنظيم محكم ودقيق للمصادر المائية المتوفرة، فأقاموا لهذا الغرض في المناطق التي استقروا بها الأحواض والصحاريج ومدوا السواقي والقنوات وبنوا الحنايا والقناطر وأنشئوا الناعورات " النوريات " ^{vii} وكانت تقام هذه الأخيرة إما داخل الحديقة أو خارجها وهي تعوض عمل المضخة. (بن مصباح، 2018، صفحة 182) إذ تزود طوابق المنزل العلوية بالمياه ويقوم بتشغيلها حصان مغمض العينين. (Feydeau, 1884, p. 231)

وفي الجهات القريبة من مدينة الجزائر، وبفضل الأندلسيين أصبحت سهول الحامة ومنخفضات وادي كنيس وبئر خادم وبئر مراد رايس وبني مسوس ووادي المغاسل تنتشر فيها النوريات والأحواض والصحاريج والسواقي. (بلغيث، الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيجة، 2017) ولعبت هذه الأحواض والصحاريج دورا كبيرا في الاستعمالات المنزلية وري البساتين (سعيدوني، من المظاهر الأثرية المندثرة بفحص مدينة الجزائر الشبكة المائية في العهد العثماني، 1995، صفحة 64) لذا أولى الحكام الأتراك عناية خاصة لمسألة توفير المياه بمدينة الجزائر، وساهم الأندلسيون مساهمة كبيرة بمساعدة السكان بإنشاء نظام القنوات الموصلة للمياه داخل المدينة. (بن مصباح، 2018، صفحة 183) (شكل 04)

لقد وفرت حدائق وبساتين مدينة جانبا اخر ، والمتمثل في الترفيه والتسلية، فقد الحدائق والبساتين مقصد كل مساء لعدد من الاشخاص رجالا ونساء وأطفالا، للاستمتاع بجمال المكان في ظل الخضرة، وخير المياه وزقزقة العاصفيريعد يوم من العمل، فقد كان سكان المدينة متمسكين باملاكهم المتواجد بالفحوصلاتها كانت تمثل لهم مكانا للراحة ومصدر

لجني الغلات، كما خصصت بعض الاماكن من الفحوص للالعاب التي تقام خلال الاحتفالات بالاعياد الدينية. (Haedo, 1871, p. 204)

شكل 04: ممر ناعورة جنان مريم بمدينة الجزائر



عن: (Marion, 2000)

سادسا: التعريف بالمخطوط المنمنم "بياض ورياض"

امتد التصوير الإسلامي العربي من المشرق إلى بلاد المغرب العربي و الأندلس، فظهرت مخطوطات مزوقة في هذه البلاد وعرفت بمخطوطين متميزين وحيدتين، ظهرت فيهما الأساليب الأولى للمدرسة المغربية و هما الكواكب الثابتة لعبد الرحمن الطوسي المنسوخ عام 626هـ / 1228م الذي يعطينا صورة واضحة عن ملامح الإنسان المغربي، وكتاب رياض و عياض وهي قصة شعبية، تحكي قصة حب ابتدأت فصولها بين شاب يدعى بياض وفتاة اسمها رياض، كما توجد في القصة عدة شخصيات كالعجوز وشمول والسيدة والنسوة وغيرها، وهذه القصة كانت متداولة في المغرب و الأندلس في القرن 8هـ / 14م، لمؤلف مجهول، والمخطوط منسوخ بخط مغربي جميل، تحتوي هذه المخطوطة على 30 صورة، لم يبق منها إلا 15 منمنمة، بعضها فقدت أجزاء منها، محفوظة بالفاتيكان، (الحسني، 2014، صفحة 73، 64) وبسبب ضياع أغلب أجزاء هذا المخطوط لم يكن من الممكن تحديد لا بداية و لا نهاية لتلك القصة أو باقي أحداثها، كما أن هناك اختلاف حول تاريخ المخطوط، فمنهم من يرجعه إلى أواخر عصر الدولة الموحدية في القرن 7هـ / 13م، ومنهم من يرجعه إلى القرن 8هـ / 14م، ولكن حسب القرائن التي ذكرها الباحث الحسني محمد عبد الحفيظ فان المخطوط يعود إلى القرن 8هـ / 14م، (الحسني، الرسم والنمنمة في المغرب ابان العصرين المريني والسعدي (دراسة تاريخية فنية)، 2014، الصفحات 87-88) إضافة إلى أن هناك خلاف حول الجهة التي ينسب إليها هذا المخطوط أو صاحبه، فمنهم من يرى أن تلك المنمنمات من عمل مصور مغربي (Nyk, 1941, pp. 50-53) وهناك من اعتبر أن قصة الحب بين رياض و بياض هي قصة اسبانية، (محرز، 1962، الصفحات 43-44) بينما يرى آخرون أن قصة الحب وقعت فصولها في الأندلس، (Contadini, 2007, p. 216) والبعض الآخر قال أنها وقعت في شمال إفريقيا، أما عفيف بهنسي فقد أورد احتمالين في هذا الشأن أولهما أن المخطوط أنجزت صورته في المغرب أو الأندلس و الثاني أن الأحداث جرت في شمال العراق، مستندا إلى أن نهر الترتار يقع في العراق. (بهنسي، 1979، صفحة 82) ولاشك أن القصة وقعت تفاصيلها في الأندلس بحكم مظاهر التلف التي أخذت تخالط حياة الأندلسيين، كمجالس اللهو والاختلاط والخمر والمعازف والموسيقى، في عهد ملوك الطوائف، الأمر الذي ساعد على سقوط الأندلس في أيدي النصارى، وهذا ما صورته بعض منمنمات المخطوط في

المنمنمة الثالثة التي اخترناها (صورة 15)، وهي توضح هذا المجلس، وفي العبارة التالية من أحد صفحات المخطوط "والعود يخفق والكأس تدور" (صورة 09)

صورة 09: عبارة "والعود يخفق والكأس تدور" من مخطوط بياض ورياض



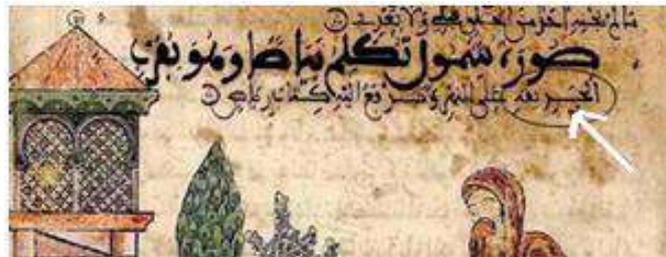
سابعاً: التأثيرات الأندلسية على حدائق وبساتين مدينة الجزائر من خلال المخطوط

يمكننا من خلال هذا المخطوط أن نتعرف على بعض التفاصيل التي تتعلق بالحياة اليومية و الاجتماعية والثقافية في بلاد المغرب والأندلس، من حوادث حاصلة في المدينة والريف وفي أماكن متعددة كالقصور والمنازل والحدائق والبساتين، اخترنا منها أربعة منمنمات، سنحاول الوقوف من خلالها على جملة من الملامح التي تشير إلى بعض التأثيرات الأندلسية التي عرفها المغرب بصفة عامة ومدينة الجزائر بصفة خاصة، بعد سقوط الأندلس وهجرتهم إلى المغرب الأوسط في مجال فن الحدائق والبساتين، ومعرفة مدى اندماج عادات وتقاليد المجتمعين، وانصهار هذه العادات في المدن الجزائرية التي تعد الحضارة الأندلسية إحدى أهم روافدها، كما توجد خصائص مشتركة بين البلدين، من خصوصية تاريخية وجغرافية، نظرا لان بلاد المغرب الأوسط والأندلس منطقة تجمع بين جناس مختلفة من العنصر البشري، من عرب وبربر وأفارقة ...، أما من الناحية الجغرافية فليسيادة مناخ البحر الأبيض المتوسط في كلا البلدين، كما سنحاول من خلال هذا المخطوط دراسة هذه المنمنمات من حيث هندسة عمارة الحدائق والبساتين، ومقارنتها بالأوصاف التي ذكرت في المصادر التاريخية، حيث تعتبر هذه المنمنمات بمثابة وثائق تاريخية تعطينا صورة واضحة عن حدائق وبساتين الأندلس والمغرب، رغم انعدام نماذج أخرى لهذا النوع من المخطوطات المزوقة الخاصة ببلاد المغرب الأوسط، زيادة على تلف جزء كبير من أوراق المنمنمات و عدم وضوح جميع الصور، بحيث يتعذر علينا الإلمام بكل الجوانب الفنية لهندسة الحدائق والبساتين، من تزويق وزخارف وألوان و كتابات.

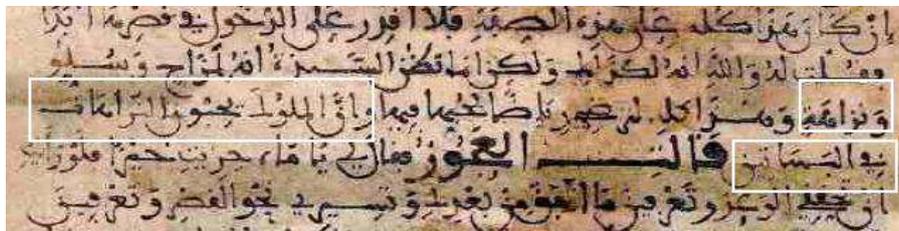
من خلال هذه المنمنمات لاحظنا أن موهبة الفنان تفتحت في تصوير وتوضيح العناصر التكوينية والفنية للحديقة والبساتين، في المغرب والأندلس، واهتمام العرب بإنشاء الحدائق في الأندلس، وبما أن الأندلس بلاد ذات طبيعة جميلة توفرت لها عناصر الخصب من مياه كثيرة ومناخ معتدل وأرض معطاء، إلى جانب اليد الماهرة التي عرفت كيف تتعامل مع الطبيعة الجميلة فتدسقمها في حدائق وجنان وبرك ماء ونوافير وأزهار وأشجار مختلفة، فأتى الفنان المصور الأندلسي ففتن بتلك الطبيعة الخلابة ونقل إلينا مظاهر تلك المناظر الجميلة وحفظها في المخطوطات المنمنمة التي يمكن أن نستخلص منها بعض الاستنتاجات لمخططات الحدائق في الأندلس وعناصرها الكونية، وأهم التأثيرات التي نقلت إلى بلاد الجزائر، وهذه العناصر التكوينية تعتبر من مكونات الصورة الكلية لمنظر الحدائق في الأندلس فالطبيعة مشرقة زاهية والفنان يسعد بقدم الربيع لأنه يرضي حاسته البصرية المفتوحة باستجلاء الألوان، ويرضي أذنه التي تنتعش لسماع

أصوات الطبيعة والحنان الطيور، كما ترضي أنفه الذي يمتلئ بعطر الزهور، وقد ذكرت كلمة البساتين، والحديقة، والفحوص، والمنتزهات، والصحريج، في هذا المخطوط، وكل هذه العبارات عناصر كونية لهذا الفن. (صورة 10، 11)، كما أن المخطوط يبين لنا أن الحدائق والبساتين كانت لهما نفس الوظائف سواء في الفترة الوسيطة أو الفترة العثمانية أو حالياً، من خلال هذه العبارة التي ذكرت في المخطوط " أنه لمزاح وسلو ونزاهة، وهذا كله لترضي رياضة بحبها فيها وأن الملوك يحبون النزاهات في البساتين"، كما تبين لنا العبارة أن الحكام والملوك كانوا يحبون ويمتدون بإنشاء الحدائق والتزهة فيها. (صورة 11)

صورة 10: كلمة حديقة في مخطوط بياض ورياض



صورة 11: كلمة بستان وعبارة " ان الملوك يحبون النزاهات في البساتين" من مخطوط بياض ورياض



في المنمنمة الأولى المختارة (صورة 12)، نلاحظ صورة السيدة جالسة تكلم العجوز ورياض واقفة على الصحريج ودمعها يسيل على وجهها، والصحريج زين في الجانبين بشكل حصان يخرج من فمه الماء، ورسمت أرضية المنمنمة على شكل شريط عريض من الحشائش المدمجة باللون الأخضر، والأشجار تزين الحديقة، ونعتقد أن مكان وقوع هذا المشهد في رياض فحوص أندلسي، حيث ذكرت كلمة فحوص في أحد صفحات المخطوط عندما عرضت شخصية شمول على بياض مكان الالتقاء في العبارة "أمش معنا حتى نرى دارها وتعرفه والدار أقرب من الفحص"، وقد لاحظنا تطابق رياض فحوص مدينة الجزائر مع هذه المنمنمة على حسب وصف المؤرخ "جورج مارسي" (Marçais) حيث يتميز رياض الفحص بمدينة الجزائر بشكل عام بكونه حديقة داخلية متمثلة في صحن يكون مخفياً لإضفاء عامل الإثارة عليه، (شكل 05)، ويكون محددًا من جهاته الأربع أو من جهة واحدة ببناء، لكن التخطيط الأثر شيوعاً يكون التحديد من الجهتين، برواق مرتكز على عقود حدوية منكسرة متجاوزة محمولة على أعمدة مزينة بتيجان، (Marçais، 1954،

صفحة 404) تكون معابر الرياض مبلطة بالأجر أو الزليج، كما تزين نقاط تقاطعها في بعض الحالات بفسقية أو حوض مائي، (بن قويدر، 2017، صفحة 55) أو صهريج، وهذا ما لاحظناه على المنمنمة والتي حدد فيها الرياض من جهتين، (صورة 12)، وقد كان هذا النمط المعماري يُستغل للجلوس والاستمتاع بالطبيعة، وإقامة الحفلات وجلسات الطرب، وغيرها وما يزيده رونقا وجمالا هو إشرافه على حوض مائي يكون عمقه على حسب دوره، فإن كان عميقا تكون وظيفته إضفاء جمالية على الرياض، وري مزروعات الحديقة كاملة، حيث يقرب دوره من دور العرصة، التي تتميز بقنوات الري المعتمدة على انحدارية الأرض، وكذلك بمعابرها المرتفعة عن مستوى الأرض، والصهريج المبني بملاط كلسي غير منفذ للماء، يتم تزويده بالماء عن طريق الناعورة، أو بطرق أخرى وقد استعمل الصهريج في حدائق ورياض مدن الجزائر والأندلس، وقد اهتم علماء الفلاحة والمهندسون الأندلسيون بتصميم الصهاريج وإعطائها رونقا وجمالا خاصا، والصهريج، هو الحوض الذي يجتمع فيه الماء، (ابن منظور، 1988، صفحة 430) ضمن منشآت تخزين المياه في الأندلس، وكانت تتوسط الحدائق، تبنى من الحجارة أو من صخور معينة، إضافة إلى بعض المواد الأخرى، وعادة ما يبني الصهريج بسقف عبارة عن قبة نصف أسطوانية في شكل عادي أو مدببة بعض الشيء ويشير ابن بصال والطيطلي الذي عاش خلال القرن (10-11هـ/16-17م)، أن مياه المطر المتجمعة في الصهريج أفضل من مياه الأنهار والينابيع والآبار.

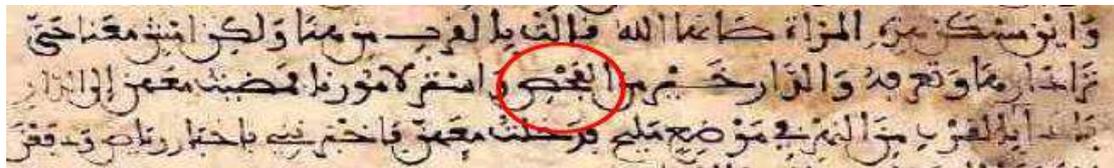
كما ذكر المقري أنه بغرناطة أنشأ " ...فيها صهاريج ماء قد أحرق به شجر ونارنج وليمون وغير ذلك من الأشجار" (المقري، 1968، صفحة 475) وقد غرست الأشجار في وسط الصهريج بغرض تبريد المياه، ومن جهة أخرى لإعطاء لمسة جمالية، وحبذوا شجرة السرو ونارنج والصنوبر إضافة إلى الليمون كما ذكر المقري، وقد وضع ابن العوام طريقة وضع هذا التزاوج المتداخل بين العنصر المائي والنباتي فقال " إذا أردت أن يكون الشجر في وسط صهريج ما أو بحيرة ما ليستمتع بجمالها فيه وظلها عليه، فتقصد إلى صهريج أو بحيرة فتحفر في أسفل الصهريج حفرة وتغرس فيها نقلة حسنة من هذه الأنواع المذكورة وشبهها مما هو قائم على ساق واحدة وبتعدها بالسقي بالماء حتى تلتح أو يقصد إليها وهي في منبتها، فيقام عليها صهريج أو بحيرة إذا كان الموضوع يصلح لذلك" (الأشبلي، 2000، صفحة 477) وهذه الصهاريج صنعت من مادة لا تتأثر بالماء ولا بالنار، كما احتوى رياض قصر الزهراء على صهريج.

صورة 12: المنمنمة الاولى " رياض واقفة على الصهريج "

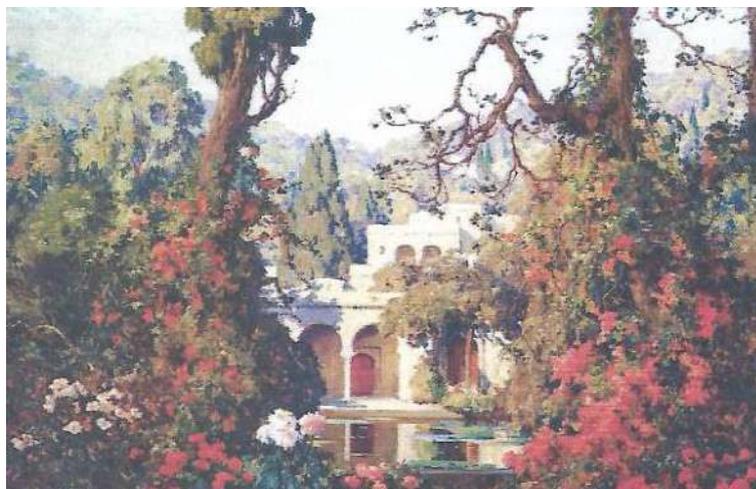


عن: (الحسني، 2014 ، صفحة 73 ، 64) بتصرف

صورة 13: كلمة فحص في مخطوط رياض وبياض



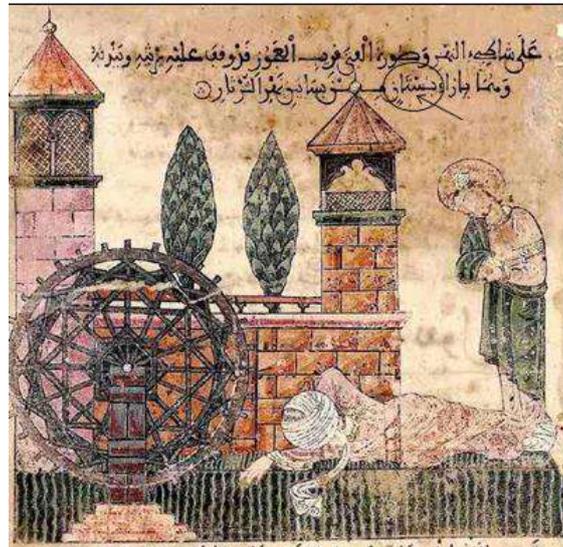
شكل 05: رياض فحص مدينة الجزائر



عن: (Marion, 2000)

استخدمت الناعورات كما هو مبين في المنمنمة الثانية (صورة14) ، ونلاحظ فيها بياض مستلقيا بلا وعي عند شاطئ النهر من فرط هيامه برياض، والناعورة البديعة الصنع بجانبه، وكانت تستخدم لرفع المياه من مستوى منخفض إلى مستوى أعلى، عبر عجلة مثبتة على حامل، وذات أوعية تغطس داخل صهريج، تحمل الماء معها وترفعه عاليا عند دورانها. (Marçais، 1954، صفحة 445) وقد استعمل هذا النمط من الناعورات في مدينة الجزائر وبعض المدن الجزائرية كما ذكرنا سلفا، سواء في الفترة الوسيطة أو الفترة العثمانية، وزينت رياض وحدائق الفحوص بأنواع متعددة من الأشجار النارج والبرتقال، والسرو والصنوبر، والأزهار المتنوعة والمتفتحة، سواء في الأندلس أو مدينة الجزائر. ففي المنمنمة الثانية زينت أرضية الصورة مثلما ذكرنا من قبل بشريط عريض من الحشائش المدمجة والخضراء، وتنطلق شجرتان مورقتان، نعتقد أنهما (شجر السرو)، وهذا الأسلوب الذي ترسم به الأشجار هو نفس أسلوب المدرسة العربية.

صورة14: المنمنمة الثانية " رياض مستلق على النهر وبجانبه ناعورة "

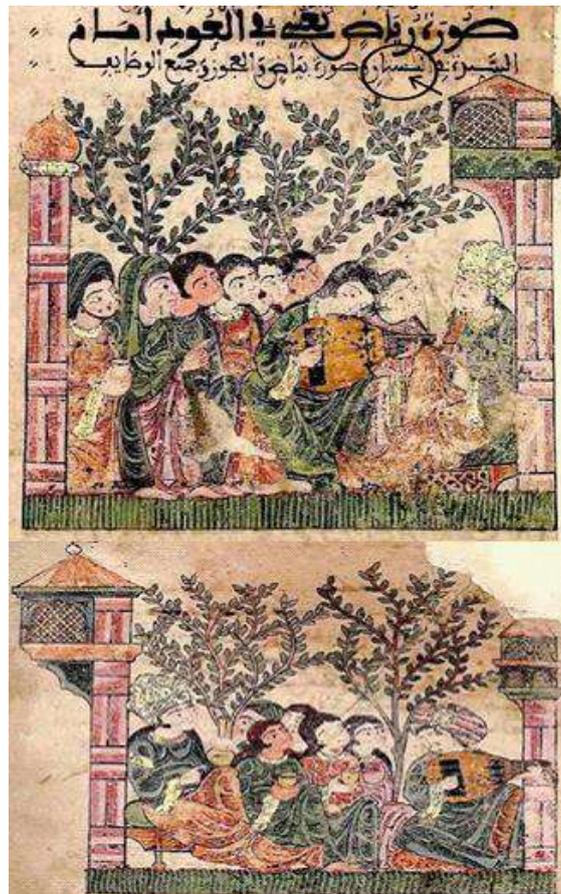


عن: (الحسني، 2014 ، صفحة 73، 64) بتصريف

أما المنمنمة الثالثة (صورة 16)، فنرى فيها بياض وهو يعزف على آلة العود لرياض ويعبر لها عن حبه برفقة صويحاتها، في أسلوب عاطفي، ورياض تعزف على آلة العود أيضا، في مجلس اللهو والاختلاط والخمر والمعازف والموسيقى، فالمنمنمة توضح لنا جانبا من جوانب الطقوس ومباهج الحياة (الفرح)، وجلسات الغناء والطرب والتي أظهرت (الملابس والزينة والأواني والآلات الموسيقية والحدائق والجواري...) في أواخر العصر الوسيط، فقد أبرز الفنان في صور تلك القصة كل الحركات التعبيرية من البهجة والسرور، وهم يندمجون مع الموسيقى، وحلاها بالزخارف الهندسية والنباتية، التي تعكس فن العمارة الأندلسية، التي صممت في الحدائق والبساتين، وملامح الشخصيات التي رسمها الفنان هي ملامح عربية مما يؤكد انتشار تقاليد المدرسة العربية في المغرب الأوسط. حيث تنوعت نواحي العمران التي عني بها المسلمون بالأندلس، وازدهرت العمارة وفنونها المختلفة بشكل كبير، بالإضافة إلى فنون الزراعة والبستنة حيث كانت عنايتهم كبيرة ولملوسة

وساعد مناخهم وموقعهم الجغرافي على ازدهار هذا الفن، وقد تميز الطراز الأندلسي بالأبراج ذات القطاع المربع وبالعقود المحدبة والنوافذ ذات الحلقات المعمارية الجميلة ونلاحظ هنا توفر الصحن السماوي داخل القصور والمباني، و الحدائق المزدانة بأشجار البرتقال والنانج وهي ما تظهره الصورة، وعليه فقد فتن الفنان المصور الأندلسي بالطبيعة ممثلة في الروض والزهر والأشجار المثمرة منها أو الجراحية التي تملأ العين سحرا والنفس بهجة، ولعل أكثر الأشجار المثمرة سحرا لناضري الفنان المصور هي ثمرة النانج خاصة وهي عالية في أغصانها، ولعلها هي وفصيلتها كلها من أمتع ما يقع عليه نظر مرتادي الحدائق، فصورها وهي محمولة على غصنها بالحديقة في لوحة تسر العين وتبهج خاطر، وهذا ما رأيناه في حدائق مدينة الجزائر من فحوص ومنازل. أما المنمنمة الرابعة والأخيرة (صورة 16)، فنلاحظ صورة شمول وهي تكلم بياض وتعطي له كتاب بالقرب من الحديقة، وهنا يبرز لنا الفنان المصور هندسة الحديقة وأشجارها والنهر الذي يسيل بقرها، كما كانت حدائق الفحوص تحتوي على أروقة للراحة. (شكل 06)

صورة 15: المنمنمة الثالثة "رياض وبياض يعزفان على العود



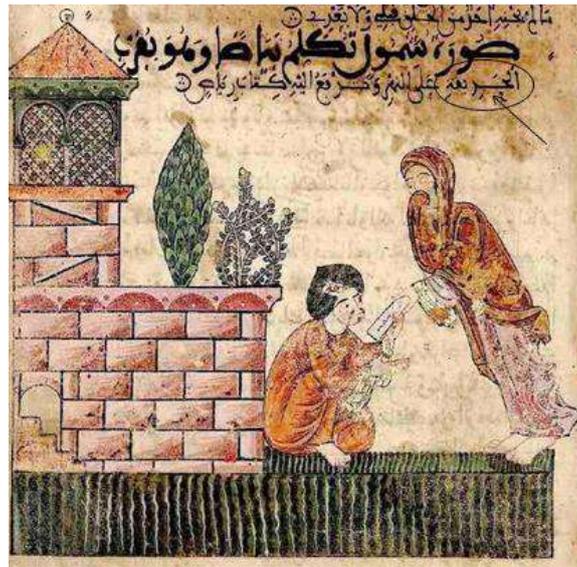
عن: (الحسني، 2014 ، صفحة 73 ، 64) بتصريف

شكل 06: الرواق الخارجي لحديقة فحص مدينة الجزائر



عن: (Marion, 2000)

صورة 16: المنمنمة الرابعة" شمول تحدث بياض عند النهر بقرب الحديقة



عن: (الحسني، 2014 ، صفحة 73، 64) بتصريف

تبرز لنا المنمنمات السابقة لنا أيضا أمرا في غاية الأهمية، وهو براعة الأندلسيين في استغلال المياه وحرفة تشييد قنوات المياه والعيون والناعورات، فاجتمع في هذه المنمنمات الشجر والنبات مع الماء الذي يعمل على ديمومة الحياة في الحياة الاجتماعية، وهذه العينة تبين التأثيرات الأندلسية في هذا المجال عند استقراهم ببعض مدن الجزائر ، حيث أشار صاحب الاستبصار إلى وجود البساتين الكثيرة التي تحيط بها العيون والأنهار في مدينة بجاية، والأراضي المزروعة التي تسقى بنواعير مصنوعة على الأنهار" (مجهول، لاستبصار في عجائب الأمصار، 1986، صفحة 130) وهذا دليل على توفر الناعورات في الفترة الوسيطة ، وبمدينة الجزائر حيث جلبت شركة البناء الأندلسية أمهر المختصين من مهندسين

وبنائين وحرفيين، يهتمون بالإنشاء الهندسي كبناء المنازل والحمامات والحدائق، وإنشاء قنوات المياه وتقنيات الري والضخ وغيرها، ويعد الأسطى موسى الأندلسي¹ وأولاد أحد هؤلاء المهندسين البارعين في البناء، وهو أندلسي الأصل وكان معلما كبيرا ومشهورا هو فقام بعدة انجازات خاصة في مدينة الجزائر، واستقر بها في القرن (11 هـ/17م)، كان للماء الأثر الحيوي في تصميم المدن الأندلسية وتنظيمها ووظيفتها، وهناك صلة متينة بين الماء وثقافة الازدهار لدى الأندلسيين، لان مكونات العمارة المائية الحضرية في الأندلس (من نافورات وسقايات وأحواض وحمامات، وعيون ونافورات)، قد جمعت بين المتعة والمنفعة، فافرح فيها المعماري الأندلسي أنماط سلوكه وتفكيره وأحاسيسه، وربطها بالنبات لتزيين الحدائق والبساتين، وهذا ما التمسناه في منشآت موسى الأندلسي بالجزائر خلال الفترة العثمانية، وبعد استقراره في مدينة الجزائر شرع في بناء القنوات المائية الأرضية وأشهرها قناة الحامة، لتزويد مدينة الجزائر بالمياه الصالحة للشرب، كما اهتم بتشييد العيون، ففتح 29 عينا أمام أهالي المدينة حتى أصبح يلقب بمعلم العيون، كما أنشأ مجموعة من الثكنات العسكرية هو وأولاد، حيث قام أنه علي سنة (1047هـ/1637م) ببناء ثكنة قديمة مازالت موجودة حتى وقتنا الحالي، وموقعها بالقرب من المسرح الوطني معي الدين بشطارزي، زينت كما هو موضح في الصورة بصحن سماوي، أو ما يعرف بوسط الدار تحيط بها مجموعة من الأشجار ونافورة تتوسط الصحن. كما بنيت أغلب منازل مدينة الجزائر بهذه الخاصية المعمارية. (صورة 17، 18)

صورة رقم 17: صحن الثكنة القديمة التي شيّدت من طرف الأسطى علي الأندلسي



عن: CEZAYİR DE OSMANLI KİTABELERİ (1516.1830)

¹الأسطى: كلمة تركية عثمانية وتكتب أسطى وتعني باللغة العربية المعلم.

صورة رقم 18: صحن منزل موريسكي (الفترة العثمانية) بمدينة الجزائر



عن: Collection Idéale p.s:

خاتمة:

نستنتج في ختام بعثنا هذا أن:

- لقد عاد استقرار الجالية الأندلسية في الجزائر بالفائدة الثقافية والفنية الجمّة عليها، حين أسهمت بشكل ملحوظ في نقل معالم الحضارة العمرانية بمختلف فنونها إلى البلاد التي سكنتها. وقد أخذ فن تصميم الحدائق والبساتين حظه الوافر من ذلك التأثير الأندلسي على مدينة الجزائر ، فقد شكّل نمط تصميم الحدائق والبساتين في مدينة الجزائر خلال الفترة الوسيطة والفترة العثمانية جزءاً لا يتجزأ من مما يجسده هذا الفن ببلاد المغرب والأندلس على حد سواء، على الرغم من تلك الصبغة المحلية التي تميزها في بعض مظاهرها عن غيرها، والتي اقترنت تنوعها بالسلطة السياسية الحاكمة والطبيعة الجغرافية ومصدر الخبرة والإبداع الفني

- الحدائق التي عرفتها مدن الجزائر في الفترة الوسيطة حتى أواخر الفترة العثمانية، كانت على نوعين، حدائق عامة خارج جدران الأبنية والمنازل تكون في غالبيتها موجهة للاستجمام والاستمتاع بجمال الطبيعة وتزيين محيطها وحدائق خاصة بالمنازل تخص مالكيها أو بالقصور والمنازل والفحوص لتزيينها وبعث الراحة لأهلها، ومنتزها لهم وللحكام.

- نستنتج ان الحدائق والبساتين في فحوص مدينة الجزائر لم تكن مجرد مرافق طبيعية بل كانت مصدرا لجلب الغلات والخيرات.

- لقد أحدث الأندلسيون بفضل مهاراتهم ثورة زراعية حقيقية بمدينة الجزائر غيرت اقتصاد المدينة الناشئة تغييرا عميقا وأضفت لمسة جمالية رفيعة الذوق على روابي ومروج الأرياف المحيطة بها.

- أن أهم آثار الأندلسيين في مدينة الجزائر في مجال الزراعة في تلك التقنيات الزراعية المتطورة التي أدخلوها من حيث آلات العمل الفلاحي وطرق التشذيب والتلقيح والغراسة واختيار التربة ونوعية المياه، مما أدّى إلى تحسين أنواع عديدة من الأشجار والخضر والفواكه.

-شكل الأندلسيون أساس اقتصاد مدينة الجزائر بفضل الخبرات والمهارات العالية التي استثمروها في مجال الزراعة والتي جلبوها معهم من موطنهم الأصلي الأندلس بمختلف أقاليمه. وكان الأندلسيون المهجرون نحو الجزائر نواة تطور مدينة الجزائر فقاموا باستصلاح فحص المتيجة وأقاموا البساتين الغناء وأحواض الماء لسقي البساتين والحقول، فعرف سكان المنطقة سعة الرزق ورخاء المعيشة أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر.

- نستنتج أن الأندلس كانت كثيرة العطاء في مجال الحدائق وتصميمها وربها ووصفها، وذلك في مجال التأليف والشعر والترجمات، فلا عجب أن تأخذ الحديقة العربية في الأندلس أوج تقدمها، وتعكس بالتالي الفكر العربي الإسلامي في نموذج تميز بالخصائص الأصيلة في كل نواحيه وتصميماته، وكان المناخ المتوسطي لكلا البلدين المعتدل أثر في تعدد أنواع النبات والأشجار. فأصبحت الزراعة والغراسة قوام الحياة وقوت النفوس بالنسبة للقائمين على الأمر وسائر أفراد المجتمع.

- تعتبر الحدائق بما تحتويه من أزهار متفتحة وأشجار متناسقة بعمل أيادي أندلسية عربية نوع من أنواع الفنون التي تعبر عن ذوق الإنسان ورقية خلال هذه الفترة، الإسلامية، كما أن الحدائق نوع من أنواع العلوم والمعرفة التي تجرى عليها التجارب، والتي تعكس مدى وعي المجتمع بثقافة الحدائق لتجديد النشاط والحيوية وإضفاء راحة النفس والتخلص من بعض أعباء الحياة وصخبها، لأن التأمل في جمال الحدائق يعطي إحساسا بالاسترخاء " فان كان هناك جنة على الأرض فهي الحدائق"

التعليقات

¹ الكتان: نبات عشبي، موطنه الأصلي حوض البحر المتوسط.

² القنب مثل الكتان تخرج أليافه من الجذوع.

³ اكتشف هذا العقد سعد الدين بن شنب في المغرب الأقصى ضمن مجموعة من العقود العقارية.

⁴ يطلق عادة على المناطق الواسعة التي تقع خارج أسوار المدينة اسم "الفحص" وهي تصل بين الريف والمدينة، يظهر فخص مدينة الجزائر كالهلال، وهو يمتد من الشمال إلى الجنوب من البحر الأبيض المتوسط إلى حدود سهول متيجة، ومن الشرق إلى الغرب من مصب نهر الحراش إلى حدود هضبة بيبوزريعة.

⁵ ذكر الأب دان أنه يطلق على هذه الحدائق في لغة الفرنكا اسم "مصرية". ولغة الفرنكا ما هي إلا هجين لغات أروبية منها الإسبانية، ولذلك يُعتقد أن هذه اللفظة وفدت مع المهاجرين الأندلسيين وكانت شائعة في بلادهم، أنظر: راجعي (زكية)، المرجع السابق، ص 86.

⁶ يقال له كذلك الكباد وهو نوع من الشجر كبير الثمر لا يؤكل بل يصنع منه رُب.

⁷ غالبا ما تقام النورية على شكل برج تجهز بدولاب وتوزع على دائرتها الخارجية دلاء (ما يشبه الكؤوس للشرب) تغرف في المياه أثناء الدوران لتصب عندما ترتفع في قنوات تسقى منها الحديقة.

قائمة المراجع:

المصادر:

1. ابن بصال، كتاب الفلاحة، نشره وترجمه وعلق عليه: خوسي مارية مياس بيكروسا، ومحمد عزيما معهد مولاي الحسن، تطوان 1955.
2. ابن بطوطة محمد، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، 1951، ج1
3. ابن خلدون، عبد الرحمن (808هـ) المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، ومراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج2، 1988
4. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، الزهراوي (ت 556 هـ)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مجلة الدراسات الشرقية، مج 21، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، دمشق، 1968
5. أحمد الونشريسي (ت911هـ)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تح. محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1954، ج4
- شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، المقري، (ت1041 هـ)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968
6. محمد ابن الحاج الشهيد التجيبي (ت529)، نوازل ابن الحاج الشهيد، رصد الخزانة العامة بالرباط، رقم ج88، ورقة36.
7. محمد ابن رشد القرطبي، فتاوى ابن رشد، تحقيق. المختار بن الطاهر التليلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج01، 1987
8. محمد هشام النعسان، قصور وحدائق الأندلس العربية الإسلامية (دراسة تراثية، أثرية، عمرانية، جمالية) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2017
9. مؤلف مجهول (ق6هـ)، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1986
10. مؤلف مجهول، زهرة البستان في دولة بني زيان، عناية وتقديم: محمد بن أحمد باغلي، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط02، 2012
11. يحيى ابن العوام الأشبيلي، كتاب الفلاحة، تقديم محمد الفايز، باريس مطبوعات الجنوب، ديسمبر 2000

المراجع باللغة العربية:

1. ابن وافد عبد الرحمن بن محمد، كتاب الأدوية المفردة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العربية، 2000
2. أحمد بن محمد ابن الحجاج (466هـ)، المنع في الفلاحة، تح. محمد مهاوش الدليمي، رسالة دبلوم عالي في تحقيق النصوص مقدمة إلى مركز أحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد 1981
3. أحمد مصطفى، الحديقة الإسلامية بين المفهوم والتطبيق

4. إكسبيراثيون غارثيا سانثيز، الزراعة في إسبانيا، ترجمة أكرم ذا النون (بحث في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس) ج2، ص 1369
5. بلغيث (محمد الأمين، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، 2002 / 2003، المجلد الثاني، ص. 532
6. جاك ريسلير، الحضارة العربية، دار عويدات-بيروت-باريس، 1993 تعريب خليل أحمد خليل
7. جمال الدين ابن منظور، لسان العرب المحيط، مج02، قدمه يوسف خياط، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، 1988
8. جمال محمد محرز، التصوير الإسلامي ومدارسه، دار القلم، القاهرة، 1962، ص43-44.
9. الحسني محمد عبد الحفيظ. (2014). الرسم والنمنمة في المغرب ابان العصرين المريني والسعدي (دراسة تاريخية فنية). فاس المغرب: مطبعة اينت الأنصاري فاس
10. حسين محمد علي، علم النبات في الأندلس، مجلة المورد، مج17، العدد02، 1977
11. خوان فيرنيه، العلوم الفيزيائية والطبيعية والتقنية في الأندلس، ترجمة أكرم ذا النون، (ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس)، الجزء الثاني، 2017
12. راجعي (زكية)، مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني دراسة أثرية معمارية وفنية، دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 2006 / 2007
13. رماح إبراهيم، تصميم الفراغات العمرانية في المناطق الحارة
14. سامعي عادل، تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي، مركز الكتاب الاكاديمي ، قسنطينة، الجزائر، 2007
15. سانثيز (إكسبيراثيون غارثيا) الزراعة في إسبانيا المسلمة، في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الثاني، بيروت ، 1998
16. سانثيز إكسبيراثيون غارثيا، الزراعة في إسبانيا المسلمة، في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الثاني، بيروت ،
17. سعيدوني اصبر الدين، " من المظاهر الأثرية المندثرة بفحص مدينة الجزائر الشبكة المائية في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، العدد9، 1995، معهد التاريخ، جامعة الجزائر
18. سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الخامس، الطبعة الحادية عشر، دار الشروق، القاهرة.
19. شفيق امين بعارة، الحديقة في العمارة الإسلامية دراسة تحليلية لمذلولها الرمزي ووظيفتها المعمارية، رسالة ماجستير في الهندسة المعمارية، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2010
20. صالح لمعي، التراث المعماري الإسلامي في مصر
21. عفيف بهنسي، جمالية الفن العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب، عالم المعرفة، عدد14 أبريل، 1979
22. لومبار موريس، الإسلام في مجده الأول القرن 2 هـ - 5 هـ / 8 م - 11 م، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط. 1، 1979
23. محمد الأمين بلغيث الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيجة رئيس قسم اللغة والحضارة/كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر، دراسة مُهداة إلى الأستاذ الدكتور موسى لقبال

24. محمد سعداني، الأندلسيون وتأثيراتهم الحضارية في المغرب الأوسط، من القرن 7-9هـ/13-15م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران
25. موسى عزّ الدين أحمد، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشرق، ط 1، 1403هـ / 1983م، بيروت
26. ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، ج4، م.و.ك، الجزائر، 1982
27. ناصر الدين سعيدوني، "فحص مدينة الجزائر (نوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية عشية الاحتلال)"، مجلة الدراسات التاريخية العدد الأول، 1406هـ / 1986م، جامعة الجزائر
28. هيفاء سليمان الإمام، نماذج حضارية في علم الزراعة والري في الأندلس، مجلة وميض الفكر للبحوث، عدد ديسمبر، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان. 2018

المراجع باللغة الأجنبية:

1. Anna Contadini, Arab painting, text and image in illustrated arabic manuscripts, brill, 2007
2. Ben cheneb S., « Un acte de vente dressé à Alger en 1648 » In R. A , n ° 89, 1945
3. Haedo F. D., « Topographie et histoire générale d'Alger » In R A , n ° 15, 1871
4. Lévi – Provençal E., Histoire de l'Espagne musulmane, t 3, éd G , - P Maisonneuve, Paris, 1953
5. Marçais (G.) ; L'architecture musulmane d'occident. Tunis. Algérie. Maroc. Espagne. Sicilie, Arts et métiers graphique, Paris, 1954.
6. Nykh, A, R, Historia de los amores de bayan y riyad , una chantefable oriental en estilo (vat, Ar, 368), New york, Hispanic society of America, 1941, pp.50-53
7. Saidouni N., L'Algérois rural à la fin de L'époque Ottomane (1791- 1330), dar al- Gharb al- islami, Beyrouth, 2001

الأثر الثقافي للجالية الأندلسية بالجزائر خلال العهد العثماني

The cultural impact of the Andalusian community in Algeria during the Ottoman

ط-د. زروقي مصطفى /المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة/ الجزائر

Mr .Zerrouki Mustapha/Higher School of Teachers Bouzareah/ Algeria

ملخص الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على إحدى العناصر الفاعلة في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني؛ حيث تتطرق إلى الجالية الأندلسية التي تزايدت هجراتها إلى الجزائر خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وذلك نظرا للقرب الجغرافي وكذا المناخ الديني الملائم في الجزائر هروبا من محاكم التفتيش الاسبانية التي كانت مسيطرة عليهم، فأصبحوا بعد استقرارهم في الجزائر العثمانية من بين أهم الطبقات تأثيرا في مجتمعا في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ونظرا لإسهاماتهم في الميدان الثقافي، ارتأينا إبراز دورهم الكبير في تطوير الجانب التعليمي والفني والعمراني، محاولين بذلك الإجابة عن الإشكالية التالية: -ما مدى تأثير الأندلسيين في الحياة الثقافية بالجزائر خلال العهد العثماني؟، وبالتالي سنتناول في هذه الدراسة في البداية لمحة عامة عن هجرة الموريسكيين إلى الجزائر بالتطرق إلى دوافع الهجرة ومراحلها ومراكز استقرارهم في الجزائر العثمانية، ثم تأثيرهم الثقافي بالجزائر في المجال العلمي من حيث أثرهم في التعليم والمؤسسات التعليمية وأشهر علمائهم، وكذا مساهمتهم في المجال الفني من خلال العمارة والموسيقى الأندلسية.

الكلمات المفتاحية: الموريسكيون، الجزائر العثمانية، المجال الثقافي، التعليم، الفنون، العمران، الموسيقى الأندلسية.

Abstract:

This study seeks to shed light on one of the active elements in Algerian society during the Ottoman era. Where he deals with the Andalusian community, whose migrations to Algeria increased, especially after the fall of Granada in 1492 AD, due to geographical proximity as well as the appropriate religious climate in Algeria, escaping from the Spanish Inquisition that had authority over them. . After settling in Algeria, they became one of the most influential classes in its society in various fields of economic, social and cultural life. Given their contributions in the cultural field, we decided to highlight their great role in developing the educational, artistic and urban field, trying to answer the following problem: - **What is the extent of the influence of Andalusians on cultural life in Algeria during the Ottoman era?** Therefore, in this study, we will first deal with an overview of the migration of the Moriscos to Algeria by addressing the motives of migration, its stages and centers of settlement in Ottoman Algeria, and then its cultural influence in Algeria in the scientific field. In terms of their influence on educational institutions, their most famous scholars and their contribution to the artistic field through Andalusian architecture and music.

Keywords: The Moriscos, Ottoman Algeria, the cultural field, education, arts, architecture, Andalusian music.

مقدمة:

بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة 1492م، تزايدت الهجرات الأندلسية نحو دول المغرب العربي، وخاصة نحو المغرب الأوسط؛ حيث أصبحت الجزائر وجهة أساسية لاستقبال الآلاف من المهاجرين الأندلسيين الفارين من محاكم التفتيش الإسبانية، بعد أن طبق عليهم الإسيان كل أنواع الاضطهاد والتنكيل لاقتلاع جذور الإسلام

بالأندلس، والأكثر من ذلك أن مأساة الأندلسيين انتهت بقرار الطرد النهائي لهم سنة 1609م، فانتقلت على إثر ذلك أعداد كبيرة من الأندلسيين نحو الجزائر التي كانت منضوية تحت الحكم العثماني، واستطاع الوافدون الأندلسيون الاندماج في المجتمع الجزائري، والتأثير فيه فأصبحوا طبقة فاعلة، لعبت دورا محوريا في شتى المجالات؛ بما فيها الميدان الثقافي، حيث ساهموا في تطوير الحياة الثقافية في الجزائر العثمانية، من حيث التعليم والفنون، وفي المجال العمراني.
مشكلة الدراسة:

إن دراستنا لموضوع "الأثر الثقافي للجالية الموريسكية بالجزائر خلال العهد العثماني"، تُفسح لنا المجال للإجابة عن الإشكالية التالية:

-مامدى تأثير الأندلسيين في الحياة الثقافية بالجزائر خلال العهد العثماني؟

ويلى الإشكالية الأسئلة الفرعية التالية:

-ما هي الأسباب الحقيقية للهجرة الأندلسية إلى الجزائر؟ وما مراحلها؟ وماهي مراكز استقرارهم بها؟ وكيف ساهم الأندلسيون في إثراء المجال التعليمي والفني والعمراني بالجزائر العثمانية؟
أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على واقع الهجرة الأندلسية بعد سقوط غرناطة، وكذا إسهامات المهاجرين الأندلسيين في المجال الثقافي بالجزائر العثمانية، في الوقت الذي لم تظهر السلطة الحاكمة فيه اهتماما واسعا بهذا المجال.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تتطرق إلى فئة إجتماعية متميزة في العهد العثماني، أثرت بشكل كبير في كافة المجالات بمختلف الحواضر والمدن الجزائرية بالعهد العثماني، وخاصة في الجانب الحضاري في شقه الثقافي؛ حيث حاول الموريسكيون نقل ثقافتهم الأندلسية إلى المجتمع الجزائري، فكان لهم الأثر البالغ في تطور الحركة الثقافية بالجزائر العثمانية، وذلك في مجال التعليم ومؤسساته وفي تطور العلوم والعمران والموسيقى.

أولا: الهجرة الأندلسية إلى الجزائر

1-دوافع هجرة الموريسكيين:

بعد أن توحدت مملكتي قشتالة وأراغون؛ إثر الزواج السياسي بين "إيزابيلا Isabelle" ملكة قشتالة مع "فرناندوالخامس Ferdinand" ملك أراغون، تجمعت بذلك القوة النصرانية في وقت كانت قد تفرقت فيه قوة المسلمين الغرناطيين، فكان أهم ماتوعدا به الملكان الكاثوليكيان هو الحرب على غرناطة (يحياوي، 2004، ص ص 33-34)، وكان لهما ذلك بعد أن استطاعا بسط نفوذهما بالمنطقة، خاصة بعد توقيعهما لمعاهدة الاستسلام مع أبي عبد الله - آخر ملوك بني الأحمر-، والتي تعهدا فيها بحماية ممتلكات الأندلسيين في جميع الأماكن، والإبقاء على حرية الدين والتجارة والتعامل والاحترام وحفظ الأماكن المقدسة(صديقي، 2017، ص 87).

تمكن رجال الدين والكنيسة من إقناع الملوك الإسبان بإستحالة التعايش مع المسلمين في أرض واحدة دون نزاعات مذهبية مطالبين بذلك المسلمين بالإختيار بين أمرين إما التنصير أو بيع أملكهم والهجرة إلى دول المغرب العربي، فعمد

على ضوء ذلك الملوك على خرق بنود معاهدة الاستسلام؛ بعد أن أصدر البابوات قانونًا لتحويل المساجد إلى كنائس، وكما تم حرق عدد هائل من الكتب الدينية والمخطوطات التي تخص المسلمين (زيطاري، 2021، ص 229)، وإلى جانب تسليط محاكم التفتيش لمتابعة المورسكيين بصرامة خاصة بعد صدور قرار التعميد الاجباري ضد الأندلسيين سنة 1502م (رزوق، 1998م، ص 62).

وكما تم إصدار مرسوم في 12 مارس 1524م يجبر المسلمين على اعتناق النصرانية أو الخروج من إسبانيا، وأمام الأمر الواقع وجد مسلموا الأندلس أنفسهم بين ثلاث خيارات إما إعتناق المسيحية، أو قبول التنصير ظاهريًا والمحافظة على دينهم باطنياً -التقية-، أو رفض التنصير وتحمل عواقب هذا القرار، فحاولوا بذلك إيجاد عذر شرعي لهذه المعضلة، فصدرت فتوى للونشيري تحت عنوان "أسى المتاجر فيمن غلب على دينه من النصراري ولم يجاهر" أجاز من خلالها هجرة الأندلسيين من الأندلس لأنها تعتبر دار كفر، في حين ذهب مفتي وهران أحمد بوجمعة المغراوي في فتوى له سنة 1504م؛ دعا فيها الأندلسيين إلى إتباع أسلوب التقية وذلك بممارسة طقوس النصراري دون الاعتقاد بها لإبعاد الشكوك عنهم (زيطاري، 2021، ص ص 229-230).

وقد إعتد كل ملوك إسبانيا الذين تداولوا على العرش سياسة واحدة دعت إلى تطهير إسبانيا من أي عقيدة تكون مخالفة للعقيدة الكاثوليكية، وخاصة الملك "فليب الثاني Philippe II" الذي كانت له مساع كثيرة في هذا المجال، ولتنفيذ مشروعه التنصيري قام سنة 1599م بزيارة منطقة بلنسية، لتدارس ملف الجماعة المسلمة في إسبانيا مع حاشيته، واتفق الجميع على ضرورة الاستمرار في تنصيرها قسراً، وعلى ضوء ذلك أصدر الملك مراسيم مغرية من بينها قرار العفو الذي مس كل الذين يعترفون بجرائمهم ويطلبون الصفح، مقابل تلقيهم للنصرانية (دوبالي، 2013-2014، ص 187).

أما الملك "فيليب الثالث Philippe III" فلم يتردد مثل سابقه حول عملية طرد المورسكيين، حيث حسم الأمر سنة 1609م بعد إصداره قرار التهجير الإجباري للمورسكيين من مختلف المقاطعات الإسبانية مهما كان عددهم فكان موعد صدور القرار في 9 ديسمبر 1609م، وأعطى تعليماته لحكام المقاطعات لنشره وتبليغه ابتداءً من 12 جانفي 1610م، ومن هنا بدأت عمليات التهجير القسري من اشبيلية (حمادي، 1989م، ص ص 90-91) فما كان على الأندلسيين إلى التسليم للأمر الواقع، فهاجروا إلى العديد من الأقطار العربية.

كما أن رضوخ مسلمي إسبانيا لقرار الطرد لا يجب أن يفهم على أنه كان موقفاً استسلامياً، بل اعتبروه ظرفياً فقط؛ الغرض منه اللجوء إلى العثمانيين لاسترجاع ما ضاع منهم، وهذا ما سجله بعض الرهبان الذين قادوا عملية الطرد من بينهم الراهب "أزمار كاغونديو Azmar Cardono" الذي كتب يقول "خرج المورسكيون من عمليات الطرد وهم يهددون الإسبان بأنهم سيرجعون بمساعدة الأتراك لإعادة الإسلام إلى إسبانيا"، وأضاف في تقريره بأنه ظل العديد منهم يحتفظ بمفاتيح بيوته على أمل الرجوع (دوبالي، 2013-2014، ص 190).

أصبحت في ظل هذه الظروف الجزائر ملاذاً آمناً للمورسكيين، مما جعلهم يتوافدون إليها من كل المدن الإسبانية، لكن تواجدهم على سواحلها كان ذريعة للغزو الإسباني عليها خاصة في العقدين الأولين من القرن 16م، الأمر الذي جعل أعيانها يستنجدون بالخليفة العثماني سنة 1519م لتصبح بذلك إيالة عثمانية.

2-مراحل الهجرة الأندلسية:

أ-مرحلة ما قبل سقوط غرناطة 1492م:

شهدت الجزائر خلال هذه المرحلة هجرات أندلسية للأسر والأعلام البارزين وذلك لمزاولة نشاطهم الاقتصادي والعلمي، وذلك نظرا للتقارب الجغرافي وكذا السياسي بين الأندلس والمغرب الأوسط، فساهم الأندلسيون حينها في إنشاء العديد من المدن والثغور على طول ساحل المغرب الأوسط وخاصة في القرنين 9-10م مثل: وهران، تنس، المسيلة، وأرزيو (سعيدوني، 1984، ص 128).

كما تواصلت الهجرات الأندلسية إلى الجزائر في العهد الزياني وبلغت أوجها في عهد السلطان عبد الواحد بن أبي عبد الله (ت 1229) حتى نهاية الحكم الإسلامي، وقد زاد نزوح الأندلسيين مع سقوط الحواضر الكبرى بيد النصارى الإسبان مثل طليطلة سنة 1085م، وسرقسطة سنة 1118م، وعلى اثر انهزام دولة الموحدين في معركة حصن العقاب سنة 1212م، بدأت المدن والحصون الأندلسية الكبرى تتساقط تدريجيا كقرطبة سنة 1296م وبلنسية سنة 1238م ومرسية وجيان واشبيلية سنة 1248م، الأمر الذي تمخض عنه هجرات كبيرة نحو دول المغرب الإسلامي، واستقروا خاصة في المراكز الساحلية وخاصة وهران وأرزيو ومستغانم وتنس والجزائر، كما استقر العديد منهم ببجاية وتلمسان نظرا لمكانتهما العلمية كمراكز للاشعاع الحضاري (هلايلي، 2010، ص ص 11-12).

ب-مرحلة ما بعد سقوط غرناطة 1492-1609م:

ارتبطت هذه المرحلة بسقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس سنة 1492م، واتبع فيها الإسبان سياسة مد حركة الاسترداد ببلدان المغرب العربي بدعوى مطاردة المورسكيين المهاجرين بها، فاستولوا بذلك على العديد من المدن الساحلية للجزائر، كالمرسى الكبير سنة 1505م، ووهران سنة 1509م، ومستغانم 1511م وتلمسان 1512م، كما عمدوا على تصفية الوجود الإسلامي بإسبانيا منتهجين سياسة التنصير الإجباري للمسلمين التي أشرفت عليها الكنيسة الكاثوليكية وتبناها كل من فرناندو وايزابيلا، ما أدى إلى انتفاضة المورسكيين وقيامهم بثورة جبال البشرات سنة 1570م والتي باءت بالفشل، فأرغموهم على الهجرة إلى سواحل المغرب العربي، كما اتخذت في حقهم إجراءات قمعية رادعة مهدت لقرار الطرد الجماعي. (بن عزوز، 2017-2018، ص ص 88-89).

ج-مرحلة الطرد النهائي 1609-1614م:

اتخذت الهجرة الأندلسية في هذه المرحلة طابع نزوح جماعي مع قرارات التنصير القصري والطردي الإجباري إثر مرسوم 1609م الذي أصدره الملك فيليب الثالث الإسباني بهدف القضاء نهائيا على العنصر الإسلامي بإسبانيا، فغادرت أعداد ضخمة من المزارعين والصناع والتجار من بقايا المسلمين مواطنها الأصلية بإسبانيا، وتوزعت على سواحل المغرب العربي (سعيدوني، 1993، ص ص 107-108).

3-مراكز استقرار الأندلسيين بالجزائر:

كانت مدينة الجزائر من أكثر المناطق استقبالا للمورسكيين وخاصة بعد صدور قرارا طردهم، والذين بلغ عددهم في العاصمة وحدها 25000 موريسكي وكان استقبالهم على العموم في البداية حسن بفعل وجود جالية مورسكية مستقرة بها قبل الطرد (رزوق، 1998، ص 154).

أما بأطراف مدينة الجزائر على ساحل البحر فهناك مركزان رئيسيان للأندلسيين هما؛ القل -دلس حاليا- شرقا وشرشال غربا، فمدينة القل عرفت توسعا ملحوظا منذ أن اتخذها خير الدين بربروس قاعدة لإقليم الشرق سنة 1517م، وقد قصدها الأندلسيون وأصبحت تضم حوالي ألفي أسرة تنتشر حول القصر، أما شرشال فشهدت هجرة مكثفة من الأندلسيين المهاجرين حيث قصدها ما لا يقل عن اثني عشر ألف أندلسي مدجن من غرناطة ومعهم جماعات من بلنسية والأراغون.(سعيدوني، 2013، ص42)، ويذكر الحسن الوزان أنه بعد استقرار الأندلسيين في المجتمع الجزائري "أعادوا بناء عدد مهم من دورها، وجددوا القلعة وزرعوا الأراضي بينهم، فعاشوا في رجاء دائم حتى أصبحوا يسكنون في مائتي وألف بيت" (الوزان، 1983، ص34).

كما تعد مدينة تنس من أهم المناطق التي قصدها المورسكيون اثر سقوط غرناطة، فكان لهم الأثر الكبير في ازدهار الحياة الاقتصادية بها خاصة خلال القرنين 16-17م، إلى جانب مدينة برشيك وهي مدينة صغيرة تقع بين مدينتي تنس وشرشال، وقد أهّلها موقعها بأن تستقطب عددا كبيرا من المهاجرين المورسكيين (أولاد سيدي الشيخ، 2019، ص148-149).

إضافة إلى وهران التي استقبلت حوالي 22000 موريسكي، لكنها لم تستطع أن تأوي هذا العدد الضخم، فاضطر فريق مكون من 500 إلى 600 موريسكي التوجه إلى تلمسان (زروق، 1998، ص154)، لكنهم مع ذلك لقيوا مأساة ثانية بتلمسان وفاس، وهذا ما أشاد به المقري بقوله: "فخرجت ألوف بفاس وألوف بتلمسان من وهران...فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات وذهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المعرة" (المقري، 1968، ص436).

كما أصبحت بجاية هي الأخرى محطة لتوافد الأندلسيين؛ حيث أصبحوا يشكلون جزءا كبيرا من سكانها، ونظرا لمكانتها العلمية فقد نزح بها العديد من العلماء والفقهاء (سعيدوني، 2013، ص48)، كما استوطن المورسكيون مدنا كثيرة من بينها المدينة ومليانة وجيجل وعنابة وقسنطينة وأرزيو، كما انتشر عدد كبير في سهول متيجة بالبلدية (سعيدوني، 1984، ص44).

ثانيا: الدور الثقافي للأندلسيين بالجزائر العثمانية

1-المجال العلمي:

1-1-التعليم:

عرفت الجزائر نهضة علمية في العصر الحديث، وإن لم تملك مراكز علمية كبيرة كالأزهر والزيتونة، فإنها لا تقل عنهم رقيا علميا ولا أدبيا، وقد ساهم الأندلسيون فيها مساهمة فعالة في الميدان التعليمي، ويربط بعض المؤرخين الازدهار العلمي بالمنطقة بوصول العلم الأندلسي إليها (زروق، 1986، ص134).

فقد إحتكر الأندلسيون ميدان التعليم بالجزائر وخاصة في الحواضر الكبرى، حيث نقلوا طريقتهم الخاصة إليها، فمثلا لم يقتصروا في تعليم الأطفال على حفظ القرآن كما هو الحال قبل هجرتهم؛ بل أضافوا إليه تعليم الحديث والقواعد العامة لمختلف العلوم، كما درّسوا روايات القرآن وأنواع قراءاته، وأثروا في ميدان النحو والأدب والعلوم (سعد الله، 1998، ج1، ص47)؛ ويرجع ذلك إلى الأسلوب التعليمي الأندلسي المتميز في الإلقاء والتلقين، والرفق بالمتعلمين، كل

ذلك جعل الأسلوب التعليمي الأندلسي هو السائد في هذه البلاد خلال العهد العثماني وقبله، ولم يطرأ عليه أي تغيير إلا من حيث درجة الإنتشار ووفرة العلماء والمتعلمين، وانتقال مركز الريادة من بجاية إلى تلمسان ثم إلى دار السلطان (رزوق، 1986، ص 135).

أسهم العلماء الأندلسيون الذين هاجروا إلى بجاية في تطوير الثقافة العربية الإسلامية مما ساعد في تأصيل التراث الأندلسي، وكذا تطوير الأساليب العلمية الأندلسية بالمغرب الأوسط، كما احتوت المكتبة العربية الأندلسية على تصانيف في مختلف العلوم العقلية والنقلية، وما يتصل بأمور الفقه والأدب والفنون؛ ولعل أهم إسهام في هذا المجال هو إسهام المدرسة الأندلسية في تطوير الثقافة العربية بالمغرب الأوسط، كما استطاع الأندلسيون عقب هجرتهم للمنطقة أن يغيروا طريقة التعليم التقليدية والتي تعتمد أساسا على نقل المعلومة وحلت محلها الطريقة الأندلسية القائمة على إطلاق المجال للعقل في التحليل والتفكير والتعليل وتحليل الأفكار ودراستها ومناقشتها (سعيدوني، 2013، ص 103)، كما اكتسبت البرامج الدراسية القائمة على المتون والشروح والتعليقات طابعا أندلسيا سواء في طريقة التأليف أو في أسلوب التدريس بها، لذلك أصبح التأليف الأندلسي محل اهتمام كبير سواء ما ألفه الأندلسيون أو ما أُلّف بالمغرب الأوسط؛ حيث أصبح يعتمد عليها الأساتذة وطلبة العلم (سعيدوني، 2013، ص 105).

وقد ظلت أساليب إسناد الحديث محافظة على منهجها القديم، وذلك بتتبع عرض الرواية، وتصحيح السند، وتخريج الحديث، ومناقشة الآراء المتعلقة بالأحاديث المتصلة بالمسائل الفقهية. فقد جرت العادة أن يقوم أحد الطلبة بقراءة متن أحد الكتب، ويتولى الأستاذ المفتي شرحه فقرة فقرة حسب غزارة علمه، والطلبة يعيدون ما يستدعي اهتمامهم في شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلتهم ومن الأمثلة الحية على دراسة الحديث من قبل علماء الأندلس ببجاية هو منهج تدريس الحديث الذي كان يتبعه أبو بكر محمد بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي (ت 1334م) في جامع بجاية مع طلبته، فقد ورد أن هذا المحدث الأندلسي كان إذا قرأ الحديث يسنده إلى أن ينتهي إلى النبي ﷺ، ثم إذا انتهى من الإسناد رجع إلى ذكر رجاله فيبدأ من الصحابي فيذكر اسمه ونسبه وصفته وتاريخ ولادته ووفاته وحكايته إن عرفت له، ثم يتلوه بالتابعين كذلك ولا يزال يتبعه واحدا واحدا إلى أن ينتهي إلى شيوخه فيقول: أما فلان شيخنا ويذكر ما ذكر مما تقدم ويزيد على ذلك بأنه قرأ عليه كذا وسمع منه كذا وبعد الفراغ من ذلك يذكر لغة الحديث وعربيته ويتعرض لما فيه من الفقه والخلاف العالي ولدقائقه ورقائقه والمستفادات منه كل ذلك بفصاحة لسان ووجوه بيان.

ولم يقتصر تأثير علماء الأندلس على طرق وأساليب التدريس، بل تعداها إلى أساليب الكتابة ورسم الخط وتأليف الكتب، وغدا الخط الأندلسي مثلا يحتذى به بحيث أهمل الرسم المغربي القديم الذي عرف "بخط القيروان" وكان له فيما مضى انتشار بقلعة بني حماد وبجاية، وقد أقبل الطلبة على الخط الأندلسي وإعتمده النساخون لوضوحه وسهولة الكتابة به (سعيدوني، 2013، ص 104-105).

1-2- المؤسسات التعليمية:

قام الأندلسيون بتأسيس مراكز لتحصيل العلم وإنشاء الزوايا بالجزائر العثمانية، التي ظلت مركز إشعاع ثقافي وديني طيلة العهد العثماني، إلا أن إهمال الحكام العثمانيين لمجالات التنمية في مختلف الميادين بما فيها ميدان التعليم جعل مبادرة الأندلسيين تضحل مع مرور الوقت، حيث خمد حماس هؤلاء الأندلسيين، وانكمش نشاطهم وتأثيرهم في

المجال الاجتماعي والعلمي بما فيه التعليم (سعيدوني، 1984، ص ص 146-147)، لكن ذلك لم يمنهم من تأسيس الزوايا وإنشاء معاهد العلم ذات المستوى العالي والتي كانت مقصد الطلاب من مختلف الجهات لتلقي العلوم اللغوية والدينية التقليدية وبعض المعارف العصرية كالحساب والفلك والمنطق والطبيعة والتاريخ وغيرها، ويظهر ذلك جليا في العديد من إجازات إنهاء الدروس بهذه المعاهد (سعيدوني، 1993، ص 120)، ومن بين المؤسسات التعليمية بالجزائر خلال العهد العثماني، التي أثر فيها الأندلسيون نجد:

أ-المساجد: ومن المساجد التي اعتنى بها الأندلسيون الجامع الكبير بتلمسان والذي برزت فيه التأثيرات الأندلسية بصفة واضحة، فضلا عن كونه يشبه إلى حد كبير جامع قرطبة، لا سيما المحراب الذي يشبه محراب قرطبة في الشكل والأقواس، والسواري والكتابات والزخارف (بوحسون، 2007-2008، ص 127)، وقد ظل يؤدي دوره التعليمي والديني فكانت تقام به حلقات التعليم، وانصب فيه العلماء لإلقاء ما اكتزوه من العلوم الدينية واللسانية، ومنهم سعيد العقباني (ت 1408) وأحمد بن زاغوت (ت 1441) وغيرهم من العلماء (بن عزوز، 2017-2018، ص 169).

كما برز مسجد ابن نيقرو والذي يعرف أيضا بمسجد ستي مريم، وعائلة ابن نيقرو من العائلات الأندلسية التي هاجرت إلى الجزائر، وكان منها القضاة والمفتون، وكانت هذه العائلة الأندلسية هي التي تدير المسجد الذي بني سنة 1660م (سعد الله، ج 5، ص-ص 17-18)، وإلى جانب مسجد الشاطبي لأحد النازحين من شاطبة ويقع في شارع القصبة، ومسجد زنقة بوعكاشة وغيرها من المساجد التي أثر فيها المهاجرون الأندلسيون (سعد الله، 1998، ج 5، ص 173).

ب-الزوايا: ومن أشهر الزوايا الأندلسية بالجزائر زاوية أهل الأندلس الملحقة بالمسجد الذي أقامه بعض صلحاء الأندلس بحي مسيد العدالة بمدينة الجزائر، وقد ظلت منذ إنشائها سنة 1639م، مقصد العديد من الطلبة ولم تتوقف عن مهمتها التعليمية إلى غاية السنوات الأولى للإحتلال الفرنسي للجزائر (سعيدوني، 1993، ص 120)، وقد كانت وظيفة هذه الزاوية إعطاء الدروس العلمية وتعليم الصغار وتحفيظهم القرآن الكريم، وأضيف إليها مسجد للصلاة، وزودت بكل ما يلزم لأداء واجبها نحو فقراء الأندلس، بالإضافة إلى رعاية الأوقاف وتسيير الأموال التي تنفق لصالح الأندلسيين بصفة عامة (قدور، 2003، ص 173)، إضافة إلى زاوية سيدي أحمد الكبير الأندلسي بالبليدة والتي تخرجت منها أفواج عديدة من الطلبة العلم أغلبهم من نواحي متيجة وجهات الأطلس البليدي وخاصة من بني صالح وبني خليل.

بالإضافة إلى الزوايا الأخرى التي عمل بها الأندلسيون والتي كانت تعلم القرآن ومبادئ اللغة والفقه بأوطان بني جعاد وبني خليل وسماته وقرومة، كما ساهم الأندلسيون أيضا في نشاط الزوايا الكبرى ببلاد القبائل مثل زاوية الشيخ محمد التواتي ببجاية وزاوية سيدي عبد الرحمن بن سعيد اللولي (ت 1694م)، حيث كانت مقصد الفقهاء الأندلسيين وملجأ الصالحين (سعيدوني، 1993، ص 120).

ج-المدراس:

وجدت بالجزائر مدرسة ذات مستوى عال من التعليم هي مدرسة الأندلسيين؛ وهي مدرسة لتعليم علوم القرآن ودراسة مختلف العلوم الأخرى وكان الوقف يغطي حاجات المدرسة وهو الوقف الذي كان تحت إشراف لجنة من أعيان

الأندلسيين بالجزائر، ومن المتوقع أن التعليم في هذه المدرسة كان على مستوى عال وراق؛ لأن الأندلسيين قد عرفوا بإجادة فن التدريس وحسن التربية ومراعاة التطور العقلي للتلاميذ (سعد الله، 1998، ج1، ص 282).

وقد بنى أحد المهاجرين الأندلسيين مدرسة مازونة المشهورة التي تخرج منها عدد من الفقهاء خلال العهد العثماني؛ وهو محمد بن الشارف البولداوي، وقد اشتهرت بعدد من العلماء أمثال الرماصي القلعي وعبد القادر المشرفي وأبوراس الناصري (سعد الله ج1، ص183)، ظلت تؤدي دورها الثقافي المتمثل في تعليم الفقه المالكي واللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم، ولم تكتفي بالجانب العلمي بل بعدته حيث أسهمت في الحث على الجهاد لمقاومة الاسبان في المرسى الكبير ووهران (بن عزوز، 2017-2018، ص 51).

1-3 أشهر علماءهم:

برز في الجزائر خلال العهد العثماني العديد من العلماء الأندلسيين الذين تركوا بصمتهم حاضرة في شتى أصناف العلوم والمعارف، وفي مختلف الحواضر العلمية، ومن بين هؤلاء العلماء نجد:

-محمد بن احمد الصخري: من العلماء الذين برزوا في علم الفلك والميقات، جزائري المولد ومن أصول أندلسية كما يقول عن نفسه، ومن علماء المالكية، حيث ألف كتابا بعنوان "القلادة الجوهريّة في العمل بالصحيفة الأعجمية"، ويبدو أن الشيخ الصخري كان ولوعا بالأشكال الهندسية ودوران الكواكب ومعرفة الظل ونحو ذلك من الربط بين التغيرات الطبيعية وحاجات الإنسان (سعد الله، 1998، ج2، ص413).

-محمد بن إبراهيم بن أحمد بن موسى النيقرو (ت1739م): العالم الفقيه النحوي الأصولي المحدث، الأندلسي الأصل الجزائر المنشأ (ابن المفتي، 2009، ص110)، من أسرة ابن النيقرو الأندلسية، والتي كان لها حضور مهم في مدينة الجزائر، وتكرر ذكرها في عقود ووثائق المحاكم الشرعية، وكان ابن النيقرو ينوب في الخطبة في بعض الأحيان في جامع القشاش والجامع الأعظم، ثم تولى الإفتاء المالكي، وجمع بذلك بين الفتوى والخطابة والتدريس ورواية الحديث بزواية الأندلس (لزغم فوزية، 2013-2014، ص98).

-أحمد بن عمار (ت1731م): وهو من أسرة أندلسية الأصل، ومن نوابغ الأدب في عصره، وقد شغل عدة وظائف أهمها وظيفة الفتوى المالكية والتي تولاها سنة 1767م (لزغم، 2013-2014، ص 101)، وقد ألف عدد من الكتب النوعية على خلاف ما كان يُؤلف في عصره؛ ومن بين كتبه نجد: كتاب لواء النصر في فضلاء العصر، وكتاب نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب وقد أشاد أبوراس الناصري بهذه الرحلة في قوله: "صاحب الرحلة الجمّة الفوائد، حلوة الموائد، عذبة الموارد، الجليلة القدر، المستودع لما يفوت الحصر"، كما كانت له مؤلفات دينية من بينها: كتاب حاشية على الخفاجي في شرح الشفا للقاضي عياض، ورسالة في الطريقة الخلواتية، ورسالة في مسألة الوقف وشرح على البخاري وغيرها (سعد الله، 1998، ج2، ص ص 230-231).

2-المجال الفني:

2-1-العمارة الأندلسية:

ميز حياة الأندلسيين المورسكيين نمط وأسلوب العمارة الأندلسية الذي أدخلوه إلى الجزائر، فقد أصبحت المناطق المستقرين بها تتميز بطابعها العمراني الخاص كالجزائر والبليدة وشرشال والقليلة ودلس، الأمر الذي أكسبها منظرا لطيفا وهندسة مميزة. فالمنازل في أغلبها تتألف من طابق أرضي يعتمد على أعمدة خشبية ومقام بالأجر والطين المعالج، وقد تستعمل فيه الحجارة كما هو الحال في منازل دلس وشرشال، وتفتح بيوتهم المستطيلة التي تنعدم فيها التهوية الخارجية على فناء صغير مزين بأقواس لا يخلو وسطه من عين ماء أو بئر خاص، ويضاف في بعض المباني للطابق الأرضي طابق آخر علوي كما هو الشأن بمدينة الجزائر، وقد توجد في بعض المنازل نوافذ تطل على الأزقة، وتكون محمية بالشبابيك التي تخفي الزخارف والمجصصات والنقوش التي تغطي الجدران، ويغطي أرضية الغرف الزليج ذو الأشكال الهندسية في بعض المنازل.

أما المنظر الخارجي للمنازل فهو يتميز خاصة بطلائه الأبيض الناصع بمادة الجير التي اشتهرت بها مدينة الجزائر، كما يستخدم القرميد الأجوف الأحمر أو المائل إلى الزرقة في تغطية المنازل؛ كما هو الحال في مدن البليدة وشرسال والقليلة ودلس، كما لم تستعمل السطوح التي كانت تميز الطابع العمراني التقليدي المحلي بشكل واسع من طرف الأندلسيين المورسكيين إلا في بعض منازل الجزائر لملاءمتها للوضع الجغرافي المنحدر الذي يسمح لها أن تطل على البحر مباشرة. (سعيدوني، 1993، ص122)

وقد اشتهرت في ميدان هندسة البناء والنقش والخطوط بعض أفراد الجالية الأندلسية في الجزائر، ففي تلمسان اشتهرت أسرة ابن صارمشق، نذكر منها المهندس الهاشمي بن صارمشق الذي رمم جامع سيدي أبو مدين بمدينة تلمسان سنة 1494م، كما عرف أيضا محمد بن صارمشق الذي وجدت نقوشه على عدة آثار عمرانية سنة 1742م، ومن النقاشين أيضا براهيم الجركلي الذي نقش الآيات المحفورة في جامع كتشاوة، والمعلم البلاشي الذي نقش باب جامع علي بتشين (سعد الله، ج2، ص499)، وقد وصف الحسن الوزان عمران تلمسان بقوله " توجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، وبها كذلك عدة حمامات متفاوتة القيمة وفيها فنادق على النمط الأندلسي، الأسوار في غاية الارتفاع تضم قصورا ببساتينها وسقاياتها وكلها مبنية بكامل العناية وبأسلوب فني رائع" (الوزان، 1983، ص ص19-20).

لم يقتصر التأثير الأندلسي في المجال العمراني على البيوت والمنازل فقط بل تعدى ذلك ليشمل المساجد والجسور والقصور، فقد استمدت طريقة بنائهم من حضارة الأندلس التي تشترك في الكثير من الخصائص مع حضارتهم العريقة، وقد أثر المهاجرون الأندلسيون في هذا المجال لا سيما في تشييدهم للقصور والمساجد (سعد الله، ج1، ص146).

2-2- الموسيقى الأندلسية:

من أهم التأثيرات التي وفد بها الأندلسيون إلى المغرب الأوسط في الميدان الثقافي الموسيقى الأندلسية؛ حيث شاع نظم الموشحات وتلحين الأغاني التي حافظت على بنائها اللغوي وطريقة إنشائها حسب التقاليد المتوارثة، والتي تعود إلى

النصف الأول من القرن 10م على يد ابن عبد ربه في عهد عبد الرحمان الناصري، واكتملت نماذجها على يد أقطاب الموشحات مثل ابن زهر ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم. (سعيدوني، 1993، ص ص120-121).

كما تأثر سكان مدينة تلمسان أيضا بالموسيقى الأندلسية، فقد برزت شخصية في تلمسان عرفت بحبها لهذا النوع من الفن وهو أبو عبد الله محمد بن مسايب (ت 1768م)، وقد عرف بتنظيمه للموشحات وتلحينها؛ حيث نسب إليه حوالي أكثر من ثلاثة آلاف قطعة شعرية أغلبها في المدائح النبوية وهي التي تعرف بالمألوف، كما برزت شخصيات أخرى في هذا النوع من الفن منها أحمد التركي بن إسماعيل، وابن سهلة مبارك وسعيد بن عبد الله المنداسي. (الطمار، 2004، ص ص260-261)

وغلب على الموشحات قصائد المدح -المولوديات- والتي مالت إلى السجع والمحسنات البديعية وأختصت بذكر صفات ومآثر الرسول ﷺ، وقد اشتهر في ذلك أحمد بن عمار، والذي عرف بقصائده في الاخوانيات والمولوديات، والتي نورد منها على سبيل المثال مطلع قصيدة نظمها في مولد النبي ﷺ سنة 1753م يقول في مطلعها:

يا نسيمًا بات من زهر الربا تقفتي الركبان

احملن مني سلامًا طيبًا لأهيل البان

وهذه الموشحات كانت تنشد على الآلات الموسيقية في المواسم الدينية وفي الحفلات والسهرات المنزلية حيث كانت تجتمع الأسر الأندلسية على ضوء الشموع للتسلي والترجيع عن النفس بالإنصات إلى المدائح وترديد القصائد الدينية والأغاني التقليدية المتوارثة، كما احترف سكان دلس وشرشال وبعض الأسر في الجزائر والبليدة والقليلة العزف على مختلف الآلات الموسيقية الوترية منها كالعود (الكويترا)، والراب والكامنجا، أو الصوتية كالقصة والزرنة والغايطة، أو الإيقاعية كالطبل والصنوج والدف والطبيلة والدريكة وغيرها؛ وقد حسن بعض أنواعها الصناع الأندلسيون مثل القصة والبندير، وجلبوا بعضها من مواطنهم الأصلية بالأندلس مثل الكامنجا والكويترا. (سعيدوني، 2013، ص ص58-59).

خاتمة:

بعد دراستنا لموضوع "الأثر الثقافي للجالية الأندلسية بالجزائر خلال العهد العثماني" توصلنا للنتائج التالية:

-أن الهجرة الأندلسية إلى الجزائر العثمانية كانت في البداية اختيارية كنتيجة للمعاونة وسياسة التنكيل والتعذيب التي اتبعتها محاكم التفتيش الإسبانية في حق الأندلسيين لتنصيرهم فما كان عليهم سوى الهروب بدينهم، ثم أصبحت قسرية بعد صدور قرار الطرد الجماعي سنة 1609م، وقد استقر المورسكيون في العديد من المدن الجزائرية وخاصة الساحلية منها.

-كان تأثير المورسكيين كبيرا على الجزائر في مختلف ملامح الحياة الثقافية، حيث أسهموا في الناحية التعليمية في نقل طرق تدريسهم وتطوير العلوم والمعرفة، ونقل العلوم الأندلسية العقلية والنقلية للجزائر، إلى جانب اهتمامهم

بالمؤسسات التعليمية كالمساجد والزوايا والمدارس والتي كانت تشترك في نشر العلم والمعارف، كما برز عدد من العلماء الأندلسيين كان لهم الفضل في الإثراء العلمي في شتى أنواع العلوم والفنون بالجزائر العثمانية.

-أما في المجال العمراني فقد أثرت الجالية الأندلسية في طريقة البناء والزخرفة للمنازل والمساجد، كما تأثر السكان المحليين بالنمط العمراني الأندلسي حتى قيل بأن الجزائريين قد إستمدوا نمط وطريقة بنائهم للمنازل والقصور من النمط العمراني الأندلسي، فكانت زخرفة العمران خير دليل على التفوق الأندلسي في هذا المجال.

-كما نشر الأندلسيون فہم الموسيقى في بعض المدن الجزائرية، بموشحاته وأزجاله، وقد تقبلها أهل الجزائر وأولعوا بها حتى أصبحت أساس الموسيقى الجزائرية، وما زالت منتشرة إلى يومنا هذا.

قائمة المصادر والمراجع:

- (1) ابن المفتي حسين بن رجب شاوش. (2009). تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، تح كعوان فارس، ط1، العلمة-الجزائر: بيت الحكمة للنشر والتوزيع.
- (2) أولاد سيدي الشيخ عبد الرحمان. (ديسمبر 2019). دور المورسكيين في إثراء الجوانب الحضارية بالجزائر في العهد العثماني 1519-1830 م – الملامح والأبعاد-، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع1: جامعة الجزائر 2.
- (3) بن عزوز نبيلة. (2017-2018). أندلسيو الجزائر وأثارهم وتاريخهم – حاضرة تلمسان أنموذجا-، أطروحة دكتوراه في الدراسات الأدبية والحضارة الإسلامية: جامعة تلمسان.
- (4) بوحسون عبد القادر. (2007-2008). العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني 1235-1554 م، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي: جامعة تلمسان.
- (5) حمادي عبد الله. (1989). المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492-1616 م، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- (6) دوالي خديجة. (2013-2014). الفكر الديني عند المورسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16-17 م من خلال بعض المخطوطات الألمبيادية، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر: جامعة سيدي بلعباس.
- (7) رزوق محمد. (1998). الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17 م، ط3، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
- (8) رزوق محمد. (ديسمبر، 1986). الجالية الأندلسية بالمغرب العربي – تونس والجزائر-، المجلة التاريخية المغربية، ع 43-44: تونس.
- (9) زيطاري أحلام. (جانفي 2021). توافد المورسكيين للجزائر ومراكز استقرارهم، مجلة مدارات للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع3: المركز الجامعي غليزان.
- (10) سعد الله أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي، ج1-ج2-ج5، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- (11) سعيدوني ناصر الدين. (1984). دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

- (12) سعيدوني ناصر الدين. (2013). دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط2، الجزائر: البصائر الجديدة للنشر والتوزيع.
- (13) سعيدوني ناصر الدين. (1993). الأندلسيون المورسكيون بمقاطعة الجزائر "دار السلطان" أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة حوليات جامعة الجزائر، ع7: جامعة الجزائر1.
- (14) صديقي بلقاسم. (جوان 2017). هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب 15-17م-الدوافع والمراحل-، المجلة المغربية للمخطوطات، ع5: جامعة الجزائر2.
- (15) الطمار محمد. (2004). تلمسان عبر العصور ودورها في السياسة والحضارة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- (16) قدور عبد المجيد. (ديسمبر 2003). الهجرة الأندلسية إلى المغرب الإسلامي ونتائجها الاجتماعية والحضارية – الجزائر كنموذج-، مجلة العلوم الإنسانية، ع14: جامعة قسنطينة1.
- (17) لزغم فوزية. (2013-2014). البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي 1520-1830م، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية: جامعة وهران.
- (18) المقري أحمد بن محمد (1968). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 4، تح إحسان عباس، بيروت: دار صادر.
- (19) هلايلي حنيفة. (2010). أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي والمورسكي، الجزائر: دار الهدى.
- (20) الوزان الحسن بن محمد. (1983). وصف إفريقية، تر حجي محمد والأخضر محمد، ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- (21) يحيواوي جمال. (2004). سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610م، الجزائر: دار هومة.

موقف فقهاء الجزائر من المحنة الموريسكية - فتوى أبو جمعة المغراوي أنموذجا -

The position of Algerian jurists faced with the Morisco ordeal - The fatwa of Abu

Jumaa Al-Maghrawi as a model -

د. سحابات زهيرة/ جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس / الجزائر

Dr .sehabat zahira/University of Djillali liabes sisi bel abbes/Algeria

ملخص الدراسة:

إن الدارس لتاريخ الأندلس لابد عليه أن يلمس ذلك الجانب الحضاري الإسلامي المنير عندما يسمع بالأندلس، فكيف من صنعوا وعاشوا تلك الحضارة الإسلامية، ولهذا قررا الملكين الكاثوليكين إيزابيلا وفرديناند بعد زواجهما السياسي عام 1469م على إنهاء الوجود الإسلامي بالأندلس، ولقد بدأ هذا الإنهاء بسقوط الحواضر الإسلامية بالأندلس، إلا مملكة غرناطة التي بقيت تحت أيدي المسلمين والتي تم سقوطها عام 1492م والتي كانت آخر المعاقل الإسلامية، إلا أن حال المسلمين بدأ يسوء وخاصة بعد طلب الحكومة الإسبانية منهم الرحيل أو التنصير، ولهذا سارعوا بطلب الإفتاء في حالهم، وكان من بين الفقهاء المغاربة الذين أفتى في إحدى الحالات أبو جمعة المغراوي الوهراني حيث طلب منهم استعمال مبدأ التقية أي التظاهر بالمسيحية وبالإسلام باطنيا، ظنا منه أن الفرج قريب، ولهذا فضلنا دراسة هذا الموضوع، لما له من أهمية تاريخية تبين فيها حال الموريسكيين وما عاشوه في تلك الفترة، وكيف طلب منهم المفتي أبي جمعة المغراوي الحفاظ على وطنهم ودينهم بالرغم من الإضطهادات التي كانوا يتعرضون لها من طرف محاكم التفتيش الإسبانية.

الكلمات المفتاحية: الأندلس؛ الموريسكيين؛ الإسبان؛ أبو جمعة المغراوي؛ محاكم التفتيش.

Abstract:The student of the history of Andalusia must touch this enlightening Islamic civilizational aspect when he hears about Andalusia, so how are those who made and lived this Islamic civilization, and for this reason the Catholic kings Isabella and Ferdinand decided after their political marriage in 1469 AD to end the Islamic presence in Andalusia, and this end began with the fall of the Islamic cities in Andalusia Except for the Kingdom of Granada, which remained in Muslim hands, and which fell in 1492 AD, which was the last Islamic stronghold, but the condition of Muslims began to deteriorate, especially after the Spanish government asked them to leave or convert to Christianity. This is why they rushed to ask for a fatwa in their case, and among the Moroccan jurists who issued a fatwa in one of the cases was Abu Jumaa Al-Maghrawi, where he asked them to using the principle of taqiyya, i It shows the condition of the Moriscos and what they experienced during this period, and how the Mufti Al-Maghrawi asked them to preserve their homeland and their religion despite the persecutions they were subjected to victims by the courts of the Spanish Inquisition.

Keywords: Andalusia; Moriscos; Spanish; Abu Jumaa Al-Maghrawi; fatwa.

مقدمة: عهد الملكين الكاثوليكين إيزابيلا وفرديناند بعد زواجهما السياسي عام 1469م على إنهاء الوجود الإسلامي بالأندلس، ولقد بدأ هذا الإنهاء بسقوط الحواضر الإسلامية بالأندلس الواحدة بعد الأخرى، إلا مملكة غرناطة التي بقيت تحت أيدي المسلمين لغاية سنة 1492م وبالتالي تكون آخر معاقل المسلمين سقوطا، إلا أن حال المسلمين الباقين بالأندلس بدأ يسوء وخاصة بعد طلب الحكومة الإسبانية منهم التنصير، ولهذا سارعوا بطلب الإفتاء في حالهم، ولهذا عرضوا أمرهم وحالهم على المفتي أبو جمعة المغراوي الوهراني، والذي نحن بصدد دراسة فتواه ومعرفة موقفه من المحنة

الموريسكية، وعليه سطرنا الإشكال الآتي: ما حال الأندلسيين وكيف كانت أوضاعهم العامة آنذاك؟ من هو المفاتيح المغراوي، وماهي فحوى فتواه؟ وماهي ظروف إفتاءها؟

أولاً: حال الموريسكيين بعد سقوط غرناطة:

إشتهر الوجود الإسلامي في شبه جزيرة إيبيريا على طول أكثر من تسعة قرون متتالية وقد كان هذا الوجود مصحوباً بقوة سياسية وعسكرية طول القرون الثمانية الأولى (منذ فتح الأندلس سنة 711هـ/711م حتى سقوط غرناطة في سنة 897هـ/1492م ثم أصبح هذا الوجود متمثلاً في بقاء مجموعات كبيرة من المسلمين منتشرة في شتى أنحاء إسبانيا حاملة تسميات مختلفة المدجنين أولاً ثم الموريسكيين بعد ذلك (هلايلي، 2008، صفحة 163).

تعتبر النهاية المأساوية للأمة الإسلامية في الأندلس المفقودة مع سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام هناك فريدة من نوعها هما نجد لها نظير في التاريخ رغم أن أمما عديدة عرفت نهاية تراجيدية، فالدارس يجد نفسه وهو يتصفح يوميات المسلمين المتبقين في الأندلس بعد سقوط أمام مشهد مروع يصور المعاناة اليومية للمسلمين الداخلين تحت سلطان الإسبان عنوة، فثنائية التحدي كانت قائمة بين طرفين الإسباني والمسلم، فالإسبان ممثلين في السلطة السياسية والكنيسة الكاثوليكية سعت جاهدة لتنصير ما تبقى من المسلمين بشتى الوسائل ضارين عرض الحائط كل القيم والمبادئ الإنسانية والمسلمين الذين أصطلح عليهم في الدراسات الأكاديمية بـ الموريسكيين من جهتهم أخذوا يدافعون بإستماتة لا نظير لها من أجل المحافظة على دينهم وأرواحهم وسط بيئة معادية (دوبالي، 2022، الصفحات 533-534).

ولم يكن لهؤلاء محطة سياسية ترعى شؤونهم وإنما ظلوا مجرد رعايا يخضعون للسلطة المسيحية ويتعرضون لشتى ضروب الإضطهاد حتى صدرت ضدهم في النهاية قوانين الطرد الجماعي فيما بين سنتي 1609-1614م وحتى بعد هذا التاريخ بقيت مجموعات كبيرة من هؤلاء الموريسكيين متظاهرة بالتنصر وإن احتفظت بعقيدتها الإسلامية في الباطن (حنيفي، 2010، صفحة 92).

يبدو أن نشوة النصر إثر سقوط غرناطة دفعت بالإسبان إلى نقض شروط معاهدة الإستسلام شرطاً شرطاً وإصدار قرار التنصير المسلمين قصراً سنة 1499، وتنصيب محاكم التفتيش في غرناطة عام 1499م وهو ما أدى إلى نتائج وخيمة على الموريسكيين فزال حرماتهم وأدركهم الذل والهوان وأكراههم الإسبان على إعتناق المسيحية، وكانت تهدف السياسة الإسبانية المتعصبة إتجاه الموريسكيين بنقضها لشروط المعاهدة إلى دفع المسلمين للثورة والتمرد ومن ثمة تتيح لها الفرصة للقضاء عليهم وتستولي على ممتلكاتهم وتتخلص من آثارهم نهائياً، وهذا ما تجلّى في صرف الآلاف من المخطوطات العربية والإسلامية، وتحويل المساجد إلى كنائس، وبالتالي ضاع جزء كبيراً من تراث الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس (فتيسي، 2018، صفحة 53).

وأمام هذه المستجدات كانت قد ظهرت محاكم التفتيش في الأندلس حوالي سنة 1478، وغايتها في تمكين الملك فرديناند والملكة إيزابيلا من فرض سيطرتهم على إسبانيا، وتوحيد السلطة السياسية تحت رايتهما فإستخدما الكنيسة ولقد عمل الباباوات والقساوسة وملوك إسبانيا على الإبادة ومحو الأثر الإسلامي ولهذا راحوا يصدرن الأوامر وأقاموا المحاكم الفظيعة وصادروا ونهبوا وإستضعفوا وعذبوا بكل الطرق التي قد يعجز الإنسان عن وصفها وهذا جزءاً منهم للذين لا يريدون أن يصبحوا كاثوليكياً، ومن الأساليب التي إعتدوها:

- مراقبة المنتصرين وتلفيق التهم وترتيب المؤامرات لإختبار كثلكتهم والتأكد من صدقهم أو تظاهرهم فمثلا الكاردينال كمانيس أراد أن ينصر كل المسلمين واليهود، ولقد قيل أنه تمكن من إرغام خمسين ألف مسلم على إعتناق مذهبه بعد العنف والتعذيب الذي مارسه عليهم.
- متابعة المنتصرين حتى خارج الحدود من أولئك الذين هاجروا إلى إفريقيا وغيرها لتبين عدم إرتدادهم عن كثلكتهم.
- إضطهاد المسلمين وإذلالهم، حيث قامت حرب أهلية بمقاطعة بلانسيا بين جماعة الأشراف والعامية من الناس، فعمد هؤلاء إلى إضطهاد المسلمين الذين كانوا في كنف النبلاء الأشراف وتحت رعايتهم نكايه فيهم، كما إضطهد العامة منهم أينما كانوا وطاردهم وأجبروهم على إعتناق المسيحية، وقد تنصر بضعة آلاف منهم.
- تحويل المساجد إلى كنائس حرو أن يتلى فيها إسم الله وأن تقام فيها صلاة إسلامية فلجأ المسلمون إلى الجبال هروبا بدينهم، يتوارون فيها عن أعين المسيحيين الطغاة، ولقد أصدر الملك فرديناند بعد ذلك أمر بالعفو عنهم وحثهم على إعتناق المسيحية ووعدهم بالحماية ولكن سلسلة الإضطهادات ظلت مستمرة.
- تأسيس لجنة لتقصي الحقائق، وهذا الفرض الأوامر الملكية على المنتصرين حتى يسمح لهم هم وأبنائهم بممارسة وظائف مدنية والتمتع بامتيازات كنيسة.
- الإسترقاق والتدجين حيث أخضع بعض الشباب والكهول المنتصرين إلى الإسترقاق ومصادرة أموالهم لأنهم ظلوا يخفون إسلامهم (مزرق، 2022، صفحة 274).
- النفي والتهجير والطرده، وهو مشروع تضمن إهمال المنتصرين شهرا واحدا لبيع ممتلكاتهم ومغادرة إسبانيا، ومن يتأخر عن الرحيل فسوف يجازي بالموت ومصادرة أمواله هذا إلى جانب النفي والتشتيت، والتي جاءت في قرارات نفذتها مقاطعات الأراغون وبلنسيا وقد كان عدد المتغيبين حتى أواخر 1609م ما يقارب 150 ألف نسمة.
- إتاحة سجون التفتيش في إسبانيا والبرتغال ذات الجدران الضخمة والنوافذ الحديدية والغرف الصغيرة والممرات الضيقة والسقوف الغليظة، يحتوي كل واحد منهما على كوة صغيرة يتسلل من خلالها النور الضئيل، وقد انتشرت في زواياها آلات التعذيب كالأسواط وقطع الحديد الشائك ومستودع للفحم للحرق، ومن أبنية التعذيب ما يدعى "دور الديوان المقدس" بإسبانيا، منظره يثير الهلع والخوف والرعب، كانت السجون تسير وفق نظام أقل ما يقال عنه أنه لا يليق بالبشر، وفي كل مرة كانت تصدر قوانين أخرى تزيد هذا النظام وحشية مثل ما فعله الملك خوان الثالث في البرتغال، ذلك الديوان الخاص المعروف بقسوته وعتوه في محاربة من خالفه، فكان يأتي إلى ساحة المدينة التي كان يحرق بها المسجونون، ويصطحب الملكة والوزراء ورجال الدين ليمتعوا أنفسهم بمناظر التعذيب وحرق إخوانهم في البشرية وهو أحياء، إن هذا الملك لا يقل وحشية عن ملك فرديناند المتعصب لمذهبه الكاثوليكي والذي عرف بمقولته "إسبانيا إما كاثوليكية أو إسلامية" (مزرق، 2022، صفحة 275)
- ولقد وزعت محاكم التفتيش قائمة مفصلة لكل المظاهر التي تبني عن اتباع ملة الإسلام من طرف الموريسكيين، وفتح باب الوشاية بهم من طرف العناصر الإسبانية، والجدير بالملاحظة أن أملاك الكنيسة ومحاكم التفتيش تأسست أساسا من الأحياس والإستيلاء غير الشرعي على أملاك الموريسكيين، ولهذا الغرض وزعت محاكم التفتيش بيانا كاشفا عن مظاهر اتباع الدين الإسلامي للوشاية بأصحابها، وفيه:

"" إذا تم الاحتفال بيوم الجمعة، وإذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة، وإذا تزوجوا على النهج المحمدي، وإذا غنوا الأغاني العربية، وإذا غسلوا موتاهم ولفوهم في الطفن، وإذا سمعنا أن الذين الإسلاميون هو الأحسن وأنه لا يوجد فيه للوصول إلى الجنة".

وقد تسبب هذا البيان في محاكمة الآلاف من المتهمين الذي وقعوا في فخ الوشاية والحقد والانتقام، وحكم عليهم بالسجن والجلد والإسترقاق والتهجير، وكان من مظاهر مأساة الموريسكيين إجبارهم على تغيير أسمائهم العربية بأخرى مسيحية، وقد وجد هذا المظهر في سجلات محاكم التفتيش، بحيث اكتشف أمر موريسكية واسمها لويزا الأزرق التي اختلط عليها أسماء زوجها وأبنائها السبعة على أن تناديهم بأسماء لاتينية أمام اعضاء محاكم التفتيش فأحرقته وهي حية، كما أصدرت محكمة التفتيش بغرناطة في سنة 1526 البيان التالي: "نطالب من الآن فصاعداً طل الجراحين والأطباء والأشخاص المرخص إلا لهم بألا يقوموا بقطع مقدم عضو أي شخص دون إذن من الأسقف أو الحاكم، وكل من يخالف ذلك يعرض إلى النفي من المملكة.

لقد أقرت محاكم التفتيش قطع الموريسكيين عن جذورهم وهويتهم الثقافية وذلك بالقضاء على نظامهم الاجتماعي انطلاقاً من قمة الهرم، أي سحق الزعماء والمتضلعين في شؤون الإسلام. وبسبب تعنت الموريسكيين وتشبثهم بالهوية الإسلامية ورفضهم لكل محاولات الإدماج، هو الأمر الذي جعل المؤرخ الفرنسي برودال يصر على "أن المشكل الموريسكي هو صراع ديني، وبمعنى آخر صراع حضاري يصعب حله، فهو مدعوا لأن يستمر" (حنيفي، 2010، الصفحات 94-95).

ثانياً: ترجمة أبو جمعة المغراوي:

هو الفقيه أبو العباس أحمد بن جمعة المغراوي الوهراني المقرئ الأديب الملقب بشقرون صاحب الفتوى الشهيرة إلى الموريسكيين من أهل الأندلس، وكتاب "جامع جوامع الإختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وأبناء الصبيان" والذي كتبه حوالي العام 898هـ/1493م، وقد وقع إلتباس في إسمه وإسم ابنه محمد، ولكن رغم كل هذا الغموض المحيط بحياة الشيخ شقرون فإن هناك مصنفات على قلمها وقع من أصحابها التمييز بين أحمد المغراوي ومحمد المغراوي، وبين ما لكل واحد منهما من المصنفات والآثار بيانا شافيا (الوهراني، 2022، صفحة 249).

ولقد صدرت هذه الفتوى المراد معرفة محتواها من طرف المفتي أبو جمعة المغراوي في غرة رجب 910هـ/نوفمبر 1564م بمعنى أنها صدرت بعد سقوط غرناطة بحوالي إثني عشر سنة حيث زادت الحملات الشعواء ضد الأندلسيين في فترة حكم الملكين الكاثوليكين إيزابيلا وفرديناند، وقد فرض على الأندلسيين التنصير الإجباري ومنعوا من تأدية شعائر الدين الإسلامي (طاهر، 2018، صفحة 553).

والمغراوي أحد فقهاء مدينة وهران بالمغرب الأوسط، عاش في القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر، درس في تلمسان على يد نخبة من شيوخها منهم محمد بن يوسف السنوسي، كما كانت له رحلة علمية إلى تونس درس خلالها عند مجموعة من العلماء، وكانت وفاته حسب التنبكي سنة 917هـ/1533م. (حميش، 2020، صفحة 215)

ثالثاً: رصد الفتوى ومحتواها:

إشتهر الشيخ المغراوي في أغلب الدراسات التاريخية بالفتوى التي أرسلها إلى الموريسكيين ردا على رسالتهم، وكانت الفتوى طويلة من عدة صفحات (حميش، 2020، صفحة 215)، والتالي نص الفتوى:

"الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء أن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارتوي سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجا، ومن كل ضيق مخرجا بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبید الله أصغر عبیده وأحوجهم إلى عفوهم ومزيدة، عبید الله تعالی أحمد ابن جمعة المغراوي ثم الوهراني، كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلا من إخلاصكم وغريبتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ومؤكدا عليكم في ملازمة دين الإسلام، أمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطوبيتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس.

وعليه فإن المغراوي دعا الموريسكيين إلى استعمال الإسلام الخفي في إطار مبدأ التقية، لأن الله عز وجل سمح للمؤمنين بذلك، وقدم المغراوي حولا مناسبة تساعد الموريسكيين على ممارسة أركان الإسلام خفية من النصارى: "وإن ذكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلود لا يضر ولا ينفع، وإن الملك ملك الله، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوما في البحور، وإن منعوكم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي على الحيطان، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء، والصعيد، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتمم به، فاقصدوه بالإيماء." (نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم فأتوا منه ما استطعتم) وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وأنوا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط في حركم كصلاة الخوف عند الإلتحام وأن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوكم أكل خنزير فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغير تموه، وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكبين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتصدقوا بالباقي إن تبتم لله تعالى وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وأن قالوا اشتموا محمدا فإنهم يقولون له ممد، فاشتموا ممد، ناوين أنه الشيطان، أو ممد اليهود، فكثير بهم اسمه وإن قالو عيسى توى بالصلب فانوو من الوفية والكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه، وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو وما يعسر عليكم فابعثوا فيه غلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به.

وأنا أسأل الله أن يدلل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهر بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي انكم صدقتم الله ورضيتم به، ولا بد من جوا بكم، والسلام عليكم جميعا، بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة، عرف الله خيره يصل على الغرباء غن شاء الله تعالى" (حنيفي، 2010، الصفحات 211-212).

رابعا: موقف المغراوي من الهجرة الأندلسية:

إبتدأت هذه الفتوى بالحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الثناء على أهل الأندلس القابضين على دينهم كالقابض على الجمر (طاهر، 2018، صفحة 553)، حيث قال "... إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر..." ولقد أثارت المؤرخة السورية ليلى الصباغ في بحثها عن فحوى فتوى المغراوي إلى وجود ثلاث نقاط هامة: 1- لاحظت وجود عدة ثغرات في الفتوى التي حللت وحققت أربع مرات عند ترجمتها إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية فجاء التعابير المستعملة لم توضح مدى عمق تمسك الموريسكيين بدينهم. 2- لم يقارن الباحثون بدقة بين النسخ الثلاث للفتوى، وأن هناك إختلافات بين النسخة العربية ونسخي الألمخيادو.

3- وجود هفوات في الترجمة التي تعرضت لها الفتوى (هلايلي، 2008، صفحة 177).

لقد تضمنت الفتوى على العموم بطلب المغراوي منهم بالبقاء والتستر على دينهم وإستعمال ما يعرف بمبدأ التقيه، بالرغم من صعوبة القيام بالشعائر الإسلامية ولكن طلب منهم القيام بها ليلا وهذا ليس صعبا المهم الإختباء من المسيحيين أثناء القيام بهم، كما نصح مسلمي الأندلس بضرورة البقاء في وطنهم والمحافظة على دينهم، وأغلب الظن أن المغراوي كان يظن أن المحنة ستزول والفرج قريب، ولهذا نراه يحثهم بالصبر على الأذى، ولهذا كان الموريسكوس يتعبدون خفية داخل بيوتهم أو في مغارات داخل الجبال كما كانوا يعلمون أبناءهم سرا شؤون الدين الإسلامي (قشتيلو، د.س، الصفحات 5-8).

وعليه فإن فتوى المغراوي مدعمة لبقاء الأندلسيين الضعاف بأرضهم والتمسك بدينهم على الطريقة الموريسكية، والمتمثلة في إعتناق المسيحية ظاهر وبإسلام باطنا، والحقيقة أن المغراوي تساهل مع مسلمي الأندلس إنتظارا للفرج وقد أوضح في فتواه أن المسلمين يعيشون الآمال كانت معلقة آنذاك على الدولة العثمانية في تخليص الأندلس وإعادة فتحها، وفي الوقت نفسه كان مسلموا الأندلس ينتظرون الخلاص من العثمانيين الذين كانت محاولاتهم عديدة بفضل جهود البحرية الجزائرية منذ عهد خير الدين بربروس إلى البيلرباي فيج علي باشا (حنيفي، 2010، صفحة 113).

كانت فتوى المغراوي أكثر رفقا وتفهما لأوضاع هؤلاء الأندلسيين ومواساة لهم ودعوتهم للتمسك بدينهم في هذه الظروف المزرية حتى يأتي الله الفرج من عنده، وربما المغراوي كان أكثر اطلاعا على أوضاع الأندلسيين ومعاناتهم في ظل عدم قدرتهم على الهجرة بالإضافة إلى تخطيطهم لإسترجاع الأندلس وإعلان الجهاد بمباركة العثمانيين حيث إندلعت عدة ثورات فيما بعد لتحقيق هذا الهدف ففي مثل هذه الظروف يجب تشجيع الأندلسيين على التمسك بدينهم، لأن كل الظروف هناك كانت ضدهم فهم غرباء في وطنهم الأندلس يتعرضون للإضطهاد والتنكيل والقتل بسبب تمسكهم بدينهم

وعقيدتهم، فجاءت فتوى المغراوي لتزيح عنهم ولو القليل من هذا الهم الذي كانوا يعيشونه بداخلهم (طاهر، 2018، صفحة 559).

خاتمة: نستنتج في الأخير أن حال المسلمين بالأندلس بعد سقوط غرناطة عام 1492م، أضحى بائسا جدا ومع مرور الوقت ظهرت ما يعرف بالمحاكم التفتيش مما زاد الطين بلة وأصبح من الصعب الحفاظ على الدين مما فرض عليهم أخذ فتوى في حالهم ولهذا كانت فتوى المغراوي من بين الفتاوى التي رأت في حال الأندلسيين، ولكنه أفتى عليهم بطريقة محيرة، حيث طلب التستر على الدين أي اتخاذ مبدأ التقية وهذا ما يصعب القيام، فليس من السهل العيش مع الكفار و التستر على الدين، وفي نفس الوقت ليس من السهل ترك الديار والهجرة نهائيا إلى أرض يجهلونها، لكن سرعان ما جاء قانون الطرد النهائي عام 1609م، وهذا ما زاد حال المسلمين سوءا، وعليه يصعب الأخذ بما جاء فيها لفترة طويلة وعليه فإن هذه الفتوى كانت ظرفية.

قائمة المراجع:

- 1) تومي، طاهر. (2018). موقف العلماء المغاربة من المحنة الأندلسية- مقارنة بين فتوتى الونشريسي و أبو جمعة المغراوي (مجلة الدراسات الإسلامية)، 11، 545-563.
- 2) حميش، فاطمة الزهراء. (2020) مأساة الموريسكيين بين اجتهاد الفتوى وغياب القوة العسكرية 906هـ- 950هـ/1543-1500م (مجلة عصور الجديدة)، 02، (10)، 211-228.
- 3) دوبالي، خديجة. (2022) التراث الموريسكي المخطوط بين الواقع والمأمول (مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا)، 03، (05)، 530-563.
- 4) سعدي جيلالي، قدور الوهراني. (2022) فقهاء المغرب والهجرة الأندلسية وجوب الهجرة وخصبة البقاء (مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا)، 03، (05)، 241-260.
- 5) فيتسي، نادية. (2018) جهود عروج وخير الدين بربروسا في إنقاذ الموريسكيين 910-953هـ/ 1504-1546م، (مجلة هيروودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية)، 05، 49-63.
- 6) قشتيلو، محمد. (د.س) حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها منتديات أهل الحديث في تطوان. تطوان: مطابع الشويخ. ط1.
- 7) مزرق، إبتسام. (2022) جدلية التعايش واللاتعايش الإسلامي النصراني في الأندلس، (مجلة الدراسات)، 01، (11)، 267-281.
- 8) هلايلي، حنيفة. (2010) أبحاث ودراسات في التاريخي الأندلسي الموريسكي. الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- 9) هلايلي، حنيفة. (2008) حرية الإعتقاد عند الموريسكيين الأندلسيين بين ازدواجية مراقبة محاكم التفتيش والهجرة، (مجلة المعيار)، جامعة قسنطينة، 09، (17)، 163-179.

إسهامات الأندلسيين في تطور الإرث الثقافي في الجزائر

أواخر القرن 15 وبداية ق16 م (التعليم نموذجاً)

Andalusians' contributions to the development of the cultural heritage of Algeria in the late 15th century and the beginning of 16m (Model education)

د . سميحة دري / جامعة المسيلة / الجزائر

Dr. Samiha derri/ University msila / Algeria

د. رحيمة قليل / جامعة الجلفة/ الجزائر

Dr.rahima gueliel/ University djelfa / Algeria

ملخص الدراسة:

لقد شكل اختلاط العناصر الاجتماعية في المجتمع الجزائري بعد سقوط الأندلس بداية تمازج بين الموروث الثقافي مع الثقافات الوافدة من خارج البلاد نتج عن ذلك ظهور عدد من المدارس الدينية والفقهية التي انتشرت في أنحاء الجزائر لتكون مراكز للثقافة العربية فحمل المجتمع الجزائري على عاتقه نشر التعليم متأثراً بعوامل خارجية في مقدمتها هجرة الأندلسيين في تلك الفترة حيث كان لها أثر كبير على المجتمع الجزائري، لكونهم احتكروا ميدان التعليم في الجزائر ولا سيما في الحواضر ونقلوا طريقتهم الخاصة بهم إليها وهذا بشهادة الكثير من المصادر على ما حمله الأندلسيون أثناء هجرتهم إلى الجزائر من كتب كثيرة وفي شتى العلوم.

كما أضافوا أيضاً إلى تحفيظ القرآن الكريم تعليم الحديث والقواعد العامة لمختلف العلوم وتدارس بعضها إضافة إلى ذلك علموا روايات القرآن وأنواع قراءاته ونشر الأندلسيون خطهم، كما شمل التأثير الأندلسي أيضاً ميادين النحو والأدب والعلوم والموسيقى، وهكذا كانت مدينة الجزائر مثلاً كانت تعج بالكتب في القرن السادس عشر ميلادي خاصة كتب الأندلس، إضافة إلى المدن الأخرى أمثال بجاية، تلمسان، قسنطينة، ووهران... كل ذلك ساهم في بروز حركة التأليف.

لقد كان احتكاك الجزائر بالأندلس وهجرة بعض الأندلسيين إلى الحواضر الجزائرية وإعانتهم للحركة الثقافية بما حملوه من علوم وآداب من العناصر التي كونت الملامح الأساسية للشخصية الثقافية وساعدت على إبرازها في صورة خاصة كما ساعدت على رقيها وازدهارها فانتعشت حركة التأليف في الجزائر العثمانية.

الكلمات المفتاحية: الأندلسيين، الإرث، الثقافة، الجزائر، التعليم

Abstract:

The combination of social elements in Algerian society after the fall of the Andalusia marked the beginning of a combination of cultural heritage with cultures from outside the country. This resulted in the emergence of a number of religious and intellectual schools that spread throughout Algeria to serve as

centres of Arab culture. Algerian society was obliged to disseminate education, influenced primarily by the migration of Andalusians in that period. education in Algeria ", because they had monopolized the field of education in Algeria, especially in the urban areas, and moved their own way to it, as many sources attested to the many books and various sciences carried by Andalusians during their migration to Algeria.

They also added to the memorization of the Holy Qur 'an and the teaching of modern and general rules of various sciences. In addition, they taught the Qur' an narratives, the kinds of readings and the publication of Andalusians their line. The Andalusian influence also included fields of language, literature, science and music.

Thus, for example, Algiers was teeming with books in the 16th century AD, especially those of Andalusia, as well as other cities such as Bejaya, Tlemsan, Constantine, and Oran... All of which contributed to the emergence of the authorship movement

Algeria's friction of Andalusia and the migration of some Andalusians to Algerian urbanization and their aid to the cultural movement in their science and ethics were elements that formed the basic features of the cultural personality and helped to highlight it in a special way and helped to promote and prosper it.

Keywords: Andalusians, heritage , Culture, Algeria, Education

مقدمة:

لقد شكل اختلاط العناصر الاجتماعية في المجتمع الجزائري بعد سقوط الاندلس بداية تمازج بين الموروث الثقافي مع الثقافات الوافدة من خارج البلاد نتج عن ذلك ظهور عدد من المدارس الدينية والفقهية التي انتشرت في أنحاء الجزائر لتكون مراكز للثقافة العربية فحمل المجتمع الجزائري على عاتقه نشر التعليم متأثرا بعوامل خارجية في مقدمتها هجرة الأندلسيين في تلك الفترة حيث كان لها أثر كبير على المجتمع الجزائري، لكونهم احتكروا ميدان التعليم في الجزائر ولا سيما في الحواضر ونقلوا طريقتهم الخاصة بهم إليها وهذا بشهادة الكثير من المصادر على ما حمله الأندلسيون أثناء هجرتهم إلى الجزائر من كتب كثيرة وفي شتى العلوم.

كما أضافوا أيضا إلى تحفيظ القرآن الكريم تعليم الحديث والقواعد العامة لمختلف العلوم وتدارس بعضها إضافة إلى ذلك علموا روايات القرآن وأنواع قراءاته ونشر الأندلسيون خطهم، كما شمل التأثير الأندلسي أيضا ميادين النحو والأدب والعلوم والموسيقى .

وهكذا كانت مدينة الجزائر مثلا كانت تعج بالكتب في القرن السادس عشر ميلادي خاصة كتب الأندلس، إضافة إلى المدن الأخرى أمثال بجاية، تلمسان، قسنطينة، ووهران... كل ذلك ساهم في بروز حركة التأليف

لقد كان احتكاك الجزائر بالأندلس وهجرة بعض الأندلسيين إلى الحواضر الجزائرية وإعانتهم للحركة الثقافية بما حملوه من علوم وآداب من العناصر التي كونت الملامح الأساسية للشخصية الثقافية وساعدت على إبرازها في صورة خاصة كما ساعدت على رقيها وازدهارها فانتعشت حركة التأليف في الجزائر العثمانية.

كل هذا دفعنا إلى طرح الإشكالية التالية :

إسهامات الأندلسيين في تطور الإرث الثقافي في الجزائر أواخر القرن 15 وبداية ق 16 م (التعليم نموذجاً)؟

إن ظهور التعليم ومؤسساته الثقافية بالجزائر ترجع جذورها إلى إنطلاق الفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب العربي حيث برزت المؤسسات التربوية الدينية مستمدة روحها من المدرسة النبوية قولاً وفعلاً وتقريراً وشكلت منارات للعلم والمعرفة وكان أساسها المسجد الذي كان مهيمناً على جميع مناحي الحياة يعلم ويربي ويرعى شؤون المسلمين ويعمل على نشر مبادئ الدين وتحفيظ القرآن الكريم وتوعية الناس وتثقيفهم ومعالجة مشاكلهم في مختلف مجالات الحياة الدينية والعلمية والقضائية ، وبالتالي فهو يؤدي وظيفة دينية وعلمية في آن واحد ثم بدأت تظهر مؤسسات ثقافية ودينية أخرى تدريجياً لكي تشارك المسجد في تبليغ رسالته الدينية والعلمية التي كان يؤديها داخل المجتمع وبالتالي تقسيم المهام التي كان يؤديها المسجد كتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الشرعية في مختلف المراحل فظهرت الكتاتيب القرآنية والمدارس التعليمية إلى جانب ظهور الرباطات و الزوايا عبر مختلف ربوع الوطن . غير أن هذه المؤسسات الثقافية والدينية أصبحت أواخر القرن 15 وبداية القرن 16م بالجزائر أكثر تطوراً واهتمت بنشر التعليم بجميع مستوياته ومما يلاحظ عليه أنه كان تعليماً دينياً خاصاً .

وضعية الإرث الثقافي في الجزائر خلال هذه الفترة:

لقد عرفت بلاد المغرب العربي أواخر القرن 15 وبداية القرن 16 م أي قبيل الوجود العثماني تدهوراً سياسياً تمثل في سيطرة الإسبان على معظم موانئ بلاد المغرب العربي من جهة وصراع بين الدويلات الثلاث " المرينية - الزيانية - الحفصية) من جهة أخرى ، لكن رغم هذا التدهور السياسي إلا أنه لم يمنع من وجود حركة فكرية مزدهرة خلال القرن (9هـ/15م) خاصة في إمارة بني زيان حيث عرفت نشاطاً فكرياً كبيراً فقد كان التعليم بجميع مستوياته منتشراً في المساجد والمدارس والزوايا وهكذا تنوعت العلوم وكثر العلماء الذين ذاع صيتهم في العالم العربي الإسلامي نظراً لمؤلفاتهم الضخمة في مختلف العلوم النقلية والعقلية .

لقد كانت حركة الثقافة والتعليم في الجزائر أواخر القرن 15 وبداية القرن 16 م تتركز في ثلاث حواضر رئيسية؛ تلمسان وبجاية وقسنطينة بالإضافة إلى بعض الحواضر الصغرى بينما لم يأخذ الريف حظاً من التعليم.

أ- مدينة تلمسان:

في الغرب الجزائر حيث كانت من أهم المراكز العلمية في الجزائر ومن أزهى المدن بعد القيروان وتونس وفاس ومراكش (ابن الأحمر، 2001، ص 47) إن لم تكن أهمها على الإطلاق خلال عدة قرون باعتبارها مقصد الكثيرين من الطلبة المغاربة والعلماء وغيرهم واستمرت أحد مراكز التبادل الهامة بين العلماء الجزائريين والمغاربة في الفترة العثمانية (بن خروف، 2008، ص 158) حيث قال عنها الأستاذ *مارسيل إيمريث* في الحياة الثقافية بها "أن تلمسان كانت مركزاً ثقافياً وكانت تحتوي على خمسين مدرسة يتعلم بها ألف تلميذ، أما التعليم الثانوي والعالي تحتوي على مدرستين هما الجامع الأعظم وجامع ابني الإمام والزواوية الشهيرة في عين الحوت (سعيدوني و البوعبد، 1984، ص 114)

ومن بين أبرز مظاهر النشاط الحضاري في تلمسان الزبانية أيضا انتشار بيوتات العلماء وهي الأسر التي اشتهرت بالعلم وتوارثته أبا عن جد فتميزت فيه وتركت بصمتها على الساحة الفكرية، وقامت بأدوار سياسية واجتماعية وثقافية حيث رصدت لنا المصادر التاريخية خاصة كتب التراجم منها سير العلماء ونذكر منها* بيت المقرئ* و*بيت العقباني* (حساين، 2017-2018، ص 88)

تقع شرقي الجزائر على شاطئ البحر المتوسط فهي مدينة مشهورة بالمغرب الأوسط وكانت معقلا من أهم معاقل الحركة العقلية في المغرب الأوسط ينتقل إليها عشاق الأدب وطلاب العلم والمعرفة من مختلف المدن والقرى، وقبله تهوي إليها أفئدة المسلمين من بلاد الأندلس غربا إلى أصفهان في بلاد العجم شرقا، فاستهويت الباب عدد غير قليل من مشاهير العلماء ومدرسي العلوم (الغبريني، 1979، ص 7)

وبخصوص مدينة بجاية فقد فقدت زعامتها السياسية ورصيدها الثقافي خلال الفترة العثمانية وتغير وضعها جذريا منذ تعرضها للإحتلال الإسباني 1510 م وبقاءه بها حوالي 45 سنة ورغم الطرد النهائي للإسبان فإن المدينة لم تسترجع مكانتها السياسية والحضارية والثقافية طيلة العهد العثماني ولما فر سكانها إلى المناطق المجاورة وإستقروا بها أنشأو بها العديد من الزوايا التي أشرفت عليها البيوتات والأسر العلمية ومن أشهرها (لزغم، 2013-2014، ص 147)

عائلة المنجلاتي والمشدالي في بجاية التي استفادت من هجرة الأندلسيين وازدهرت بالعلوم من كثرة الواردين عليها من الفقهاء والمحدثين والأدباء والفنانين والفلاسفة، وهكذا تكونت في بجاية بفضل هؤلاء المهاجرين نهضة علمية امتزجت فيها العلوم والآداب الأندلسية بالعلوم والآداب الإفريقية (البوعبدلي، 2012، ص 20)

ج-مدينة قسنطينة :

تعتبر مدينة قسنطينة من المدن الجزائرية الأكثر عراقة وقدا تقع في الشرق الجزائري وقد كان مجتمع مدينة قسنطينة مجتمعا حضريا متماسكا وكانت تلعب فيه العائلات الكبيرة ولا سيما الدينية منها دورا فعلا وناظرا في التي تنظم العلاقات العامة فمعظم العائلات في قسنطينة كانت تعيش على العلم والتجارة لأن قيمة العائلة كانت تراثها العلمي وتنشئة أبنائها عليه من حفظ القرآن الكريم إلى تولية القضاء والفتوى والتدريس (سعد الله، 1986، ص ص 22-23)

وهي التي تعين أو تبارك مشيخة المدينة وتسهر على الأمن داخل المدينة وتنشط الحياة الاقتصادية وتتحرك في الأزمات بطريقة جماعية منسقة (ابن العطار، ص 43)

وكانت معظم العائلات في قسنطينة تعيش على التجارة والزراعة والتعليم لأن قيمة العائلة كانت في تراثها العلمي وتنشئة أبنائها عليه من حفظ القرآن الكريم إلى تولية القضاء والفتوى والتدريس ومن إعتناق المذاهب الصوفية إلى بناء الزوايا وهكذا كان التراث العلمي لكل عائلة مما تعتر به وتفاخر بأنه طريقها إلى المجد والشهرة والنفوذ وكانت التجارة هي عصب الحياة وامتازت بوفرة عدد كبير من رجال العلم كالفقهاء والأدباء الذين إعتد عليهم الحفصيون في الجهاز الإداري للدولة العثمانية ككتاب ووزراء وقضاة وخطباء (لزغم، 2013-2014، ص 146)

إضافة إلى ذلك فقد أخذت الصدارة بتواجد مدارسها العلمية بالإضافة إلى المساجد في الشرق الجزائري، كانت ثاني مدينة بعد الجزائر العاصمة تضاهي فاس وتلمسان والقاهرة من حيث العلماء والتعليم (عميراوي، 2004، ص 139) وكانت مراكز للتعليم والثقافة والإشعاع الفكري، مما ساهم في انتشار حركة التأليف وظهور المؤلفين

ويتضح من خلال ما سبق ذكره أن الجزائر كانت تزخر برصيد ثقافي هام قبل أن تلحق بالدولة العثمانية وتجلى ذلك في عدد علماءها الذين تركوا بصماتهم في شتى فروع المعرفة (شويتام، 2005-2006، ص 322) رغم الاحتلال الإسباني للجزائر (بن سحنون، 2013، ص 13) وتعرض سواحلها للهجمات الإسبانية المتكررة في القرن (9هـ/15م) وتردي الأوضاع السياسية، وقدوم العثمانيين خلال القرن 10هـ/16م (المزاري، 1990، ص 250) إلا أنه لم يكن عائقا في تطور المدن خلال الوجود العثماني بالجزائر ولم تخمد الحركة العلمية في هذا العصر ولم يقف دولا العلم والتعليم في أي ناحية من نواحي البلاد، بل كان الكثير من الأتراك وأعيانهم ينشطون العلم والمتعلمين بما حبسوه على تلك المشاريع من الأوقاف لغنية ذات الريع الكبير فتطورت المؤسسات الثقافية وأصبح يتغذى منها المجتمع روحيا وعقليا (المدني، 1931، ص 89).

كما عرف المجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية كغيره من المجتمعات الإنسانية ظاهرة البيوتات الدينية والعلمية وأنجبت العديد من العلماء والفقهاء والأدباء الذين تصدوا للتدريس والتأليف والإفتاء والقضاء .

إذن فالتعليم كان منتشرا تقريبا في كامل أنحاء البلاد لكنه بقى تقليديا وغلب عليه التصوف الذي راج في هذا العهد (الزبيري، 1984، ص 28) ولم يعد التعليم منحصرًا في الحواضر الكبرى المذكورة وإنما إنتقل إلى الريف محدثا شبه توازن بينه وبين المدينة في هذا المجال

هـ- مدينة الجزائر:

احتلت مدينة الجزائر مركز الريادة في مدن المغرب الأوسط في العهد العثماني وانتزعت الأهمية التي كانت لتلمسان هذه الأخيرة التي فقدت سمعتها وقيمتها بسبب الاحتلال الإسباني لمدينة وهران الذي أثر سلبا على المدينة وكذلك الأمر نفسه بالنسبة لبيجاية في القرن (10 هـ / 16 م).

فقد كانت مدينة الجزائر أكبر الحواضر السياسية والثقافية في تاريخ الجزائر العثمانية وهذا بشهادة الرحالة المغاربة وفي هذا الصدد يقول *ابن زاكور الفاسي* : "مدينة الجزائر ذات الجمال الباهر وحلول مغانيها النواظر التي غص ببهجتها كل عدو كافر غرر أعلام ينجلي بها الإظلال وشموس أئمة تنفج بهم كل أمة تفتخر بهم أخبار هذه الأمة (الفاسي، 2001، ص 40) من رجال كالجبال أحبار كالأقمار طلوعوا في بروج سعودها بدورا ألبسوها رواء ونورا فاهتديت بأنوارها السينة إلى قطف مارق من أنوارهم الجنية وإرتقت في رياض أداهم فتمتعت ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت وكرعت في أنهار بلاغتهم حتى رويت ...* (الفاسي، 2001، ص 41)

وقال عنها *علي التيمقوتي* التي دخلها سنة (997 هـ / 1589 م) (الشاذلي، 2002، ص 5) أنها كانت تسمى إسطنبول الصغرى و بأن الكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد إفريقية في حين شبهها *عبد الرحمان الجامعي* بفاس بقوله : "أما مدينة الجزائر فأول بلد لقيت بها مثل من فارقت من أدباء بلدي وبها تذكرت بعض ما كان بينه خلدي وبأنها لا تخلوا من قراء نجباء وعلماء وأدباء وأعلام خطباء حيث كانت مساجدها بالتدريس معمورة، ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة مشهورة (عبد القادر، 2006، ص204)، وهذا يدل على أنها عرفت تطورا كبيرا من الناحية الفكرية خلال العهد العثماني ، فلم تعد عاصمة سياسية للدولة الناشئة فحسب بل أصبحت عاصمة ثقافية مما جعلها من المدن الدولية المعروفة آنذاك بثقلها الثقافي ، بحيث حملت في طياتها مختلف الفنون الثقافية التي إنعكست على الحياة اليومية للفرد الجزائري، وازدهرت حلقات الدروس العليا بها (لزعيم ، 2011، ص 61) وكانت تعج بالكتب في أواخر القرن السادس عشر ميلادي ومن بين أشهر البيوتات العلمية عائلة الشيخ قدورة حيث

تعد من أكثر البيوتات العلمية شهرة بالجزائر العثمانية وقد حاز من النفوذ ما مكّنها من تولي خطة الإفتاء المالكي بمدينة الجزائر أكثر من قرن بدون إنقطاع رغم المنافسة الحادة التي كانت بين رجال العلم حول المناقب العلمية والدينية الرفيعة ومنها الإفتاء (شارف، 2016-2017، ص 59) بزعامة الشيخ *السعيد قدورة* الذي كانت كتبه عبارة عن دفاتر صغيرة و شروح وحواشي وعائلة الشيخ *علي الأنصاري* الذي كان تأليفه عبارة عن منظومات وشروح وهكذا اشتهر علماء الجزائر بمؤلفاتهم التي أرخت للأحداث التي عرفتها إيالة الجزائر العثمانية خصوصا بعد الفتح النهائي لوهان 1792 م بفضل تشجيع بعض الحكام العثمانيين مثل الباي *محمد الكبير* (عبو، 2016-2017م، ص 102)

وكانت مقصد للطلبة سواء من داخل أو خارج الجزائر، وشاع فيها أيضا النسخ للانتشار الكتب (سعد الله، 1998، ص 276) حيث كانت مساجدها بالتدريس معمورة ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة مشهورة (عبد القادر، 2006، ص 204) وبهذا تعد مدينة الجزائر أكبر الحواضر السياسية والثقافية في تاريخ الجزائر العثمانية فقد عرفت تطورا كبيرا من الناحية الفكرية خلال العهد العثماني (لزغم، 2011، ص 78).

و- مدينة عنابة:

أما مدينة عنابة فكانت أسرة *البوني* من مشاهير البيوتات العلمية بالجزائر حيث إنتقل أسلاف هذه الأسرة إلى الجزائر من إستانبول والظاهر أنها إستقرت أولا بعنابة ثم إنتقلت إلى مدينة الجزائر مركز السلطة وتوفر الوظائف الدينية ، تولى عدد من أفراد هذه البيوت الفتوى والقضاء الحنفية بمدينة الجزائر وكانت قريبة من مقاليد السلطة وذوي النفوذ في البلاد .
قد جمعت بين العلم والصلاح وسيطرت روحيا على عنابة ونواحيها مدة طويلة بلغت القرنين تقريبا (سعد الله، 1998، ص 64) ومن أشهر أعضائها *أحمد البوني* (أنظر التعليق 1) إضافة إلى عائلة *العقباني* بتلمسان .

ي- مدينة بسكرة:

كما اشتهرت مدينة بسكرة بعلمائها *أبي زيان ناصر بن مزني* و*عيسى بن سلامة* و*أبي محمد عبد الله* المعروف بقصيدته في المديح النبوي، كما عرفت مدينة وهران مجموعة من الأسر العلمية التي اشتهرت بمختلف العلوم الدينية والأدبية مثل *أسرة المشاركة* حيث تعد من أشهر الأسر بالغرب الجزائري بنسبها وحسبها وأدوارها التاريخية والإجتماعية والسياسية وهم رجال أعلام ذوو فضائل وأحلام وعلوم ضاهت بها في المغرب ناحية الراشدية على وجه الخصوص والعموم (بليغث، 2013-2014، ص 153) إضافة الى ذلك فقد لعبت مدينة *مازونة* دورا هاما وخاصة في القرن الثاني هجري (18 م) وهذا راجع إلى موقعها الجغرافي فكانت مركزا إقتصاديا مارس أهلها التجارة والصناعات التقليدية ، وكانت عاصمة بايلك الغرب ومنها إنطلقت بعثات لتحرير وهران من الإسبان منذ سنة 1543 م (المزاري، 1990، ص 250) وهكذا رغم تردي الأوضاع السياسية فإن ذلك لم يمنع من بروز علماء في الدين استطاعوا بعصاميتهم وانقطاعهم للعلم أن يحتلوا مكانة مرموقة و يساهموا في إزدهار حركة التعليم.

إسهامات الأندلسيين في تطور الإرث الثقافي في الجزائر أواخر القرن 15 وبداية ق 16 م (التعليم نموذجا)؟

لقد شكل اختلاط العناصر الاجتماعية في المجتمع الجزائري بداية تمازج بين الموروث الثقافي مع الثقافات الوافدة من خارج البلاد نتج عن ذلك ظهور عدد من المدارس الدينية والفقهية التي انتشرت في أنحاء الجزائر لهم مراكز للثقافة العربية فحمل المجتمع الجزائري على عاتقه نشر التعليم .

متأثرا بعوامل خارجية التي ساهمت في إزدهار حركة التأليف في الجزائر العثمانية ومن بينها مايلي :

-هجرة الأندلسيين :

لقد كان اختيار الأندلس للمغرب الأوسط والإقبال عليه ليس على مبدأ الصدفة وإنما للعلاقة المتينة للغاية بين البلدين لدرجة أن حكام الجزائر وسكانها منذ قدوم الأتراك يعتبرون قضية الأندلس هي قضيتهم وأن مأساة الأندلس إنما هي كارثة حلت بالأمة الإسلامية .

حيث كان لهجرة في تلك الفترة أثر كبير على المجتمع الجزائري لكونهم احتكروا ميدان التعليم في الجزائر ولا سيما في الحواضر ونقلوا طريقتهم الخاصة بهم إليها (الثعالبي، 2011، ص 25) وهذا بشهادة الكثير من المصادر على ما حمله الأندلسيون أثناء هجرتهم إلى الجزائر من كتب كثيرة وفي شتى العلوم كما أضافوا أيضا إلى تحفيظ القرآن الكريم تعليم الحديث والقواعد العامة لمختلف العلوم وتدارس بعضها، كما علموا روايات القرآن وأنواع قراءاته ونشر الأندلسيون خطهم الخاص بهم كما شمل التأثير الأندلسي أيضا ميادين النحو والأدب والعلوم والموسيقى (سعد الله، 1998، ص 47)

فمدينة الجزائر مثلا كانت تعج بالكتب في أواخر القرن السادس عشر ميلادي خاصة كتب الأندلس، إضافة إلى المدن الأخرى أمثال بجاية، تلمسان، قسنطينة، ووهران... كل ذلك ساهم في بروز حركة التعليم (شارف، 2016-2017، ص 59).

أوضاع التعليم في الجزائر بداية القرن 16 م:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول:

«من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ بحظوافر» رواه مسلم (أبي زكريا، 2012، ص 45).

كان التعليم، وما يزال الأساس الحقيقي، لكل ثقافة، ولأي تقدم في المجتمع الإنساني (سعد الله، 1998، ص 313) وقد ساعد على ازدهار الثقافة وانتشارها في المجتمع.

لهذا أدرك الجزائريون أهمية التعليم ودوره في المجتمع، فحرصوا على تعليم أبنائهم، ومما يؤكد ذلك العدد الكبير من المؤسسات التعليمية، التي كانت منتشرة في البلاد (شويتام، 2005-2006، ص 332) ومن بين مؤسساته :

مؤسسة الوقف :

يعتبر الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، فهو أساسا يعبر عن إرادة الخير في الإنسان المسلم، وعن إحساسه العميق بالتضامن مع المجتمع الإسلامي (سعد الله، 1998، ص 227) وكونه صدقة محرمة، لا تباع، ولا تشتري، ولا توهب ولا تورث، ويصرف ريعها إلى جهة من جهات البر (محمد، 2014، ص 1)

ويستعمل الوقف في أغراض كثيرة:

منها العناية بالعلم والعلماء، والطلبة والفقراء، والعجزة واليتامى وأبناء السبيل، ومن أهم أغراضه العناية بالمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة والقيام عليها (شهي، 2007، ص 56) أما المساجد : فالمسجد اصطلاحا اسم لمكان السجود،

أما شرعا فهو الموضع الذي يسجد فيه والسجود أسرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه لذا اشتق اسم المكان منه، فقبل "مسجد" ولم يقل "مرجع" على المكان الذي تؤدي فيه الصلوات، وهي الوظيفة التي ميزته دون غيره من المؤسسات التعليمية الأخرى (رزوي، 2015-2016، ص 88)، وهي أماكن للعبادة (سعد الله، 1998، ص 245)

أما الزوايا: ولفظ الزاوية في الأصل مأخوذ من الانزواء، بقصد العكوف على العبادة، أو على تلقي العلم، بعيدا عن دنيا الناس، ومشاغلم اليومية (شهي، 2007، ص 13) وتعرف الزاوية، بأنها عبارة عن مجموعة من الأبنية، ذات الطابع المعماري الإسلامي وقد بنيت لأداء وظيفة دينية بحتة، وكثيرا ما شيدت قبائها على أضرحة الأولياء الصالحين أو بنيت تخليدا لذكراهم (مريوش، ص 149)

أما الرباطات: إن الرباط لم يكن يختلف عن الزاوية، في هدفها التعليمي والتربوي، إلا أنها كانت مراكز دينية، متقدمة جهادية لمقاومة العدو الأجنبي (درقاوي، 2015-201، ص 132)، منذ مطلع القرن السادس عشر، أي منذ الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر (شارف، 2016-2017، ص 31)

وتعد الكتابات القرآنية من أقدم معاهد التربية، وهي مأخوذة من الكتاب، وجمعها كتاب (مريوش، ص 18) وكان يطلق عليه، ولاسيما في العاصمة اسم "مسيد"، وهو بدون شك محرف من تصغير كلمة مسجد (سعد الله، 1998، ص 276)

وأخيرا المدارس: شكل اختلاط العناصر الاجتماعية في المجتمع الجزائري، بداية تمازج بين الموروث الثقافي، مع الثقافات الوافدة من خارج البلاد، نتج عن ذلك ظهور عدد من المدارس (المشهداني، رمضان، 2014، ص 434) وهي أمكنة خصصت لإلقاء الدروس بها (بن ميمون، ص 59) تتمثل وظيفتها بصورة أساسية في تعليم مختلف العلوم الدينية وغير الدينية (مريوش، ص 15) وهي التي تبني لدراسة العلم، أي لتعليمه وتعلمه (البوعبدلي، 2003، ص 25) كانت منتشرة خاصة في المدن، وقد لعبت نفس الدور الذي لعبته الزوايا في الريف (شارف، 2016-2017، ص 4) وكانت تضم أيضا غرفا لإيواء الطلبة الوافدين عليها (شارف، 2007، ص 46)

ومجهزة بشكل جيد، وزاخرة بالمخطوطات، ففي الجزائر هناك مدرسة بكل مسجد يجري التعليم فيها مجانا، ويتقاضى أساتذتها أجورهم من واردات المسجد (زوزو، 1985، ص 214) ولا توجد إلا ببعض المدن الرئيسية، مثل قسنطينة والجزائر وبجاية ووهران تلمسان (بن ميمون، 1981، ص 59)

خاتمة:

وهكذا نصل إلى القول: بأن احتكاك الجزائر بالأندلس وهجرة بعض الأندلسيين إلى الحواضر الجزائرية وإعانتهم للحركة الثقافية بما حملوه من علوم وآداب تعتبر من العناصر التي كونت الملامح الأساسية للشخصية الثقافية وساعدت على إبرازها في صورة خاصة كما ساعدت على رقيها وازدهارها فانتعش التعليم في الجزائر.

فعرفت إيالة الجزائر خلال الفترة المذكورة كغيرها من الإيالات المغاربية إنتشارا واسعا لمراكز الثقافية والدينية والتي تمثلت أساسا في الزوايا والرباطات والمساجد والكتاتيب والمدارس إضافة الى القضاء والإفتاء والتصوف وقد لعبت دورا محوريا في نشر التعليم بجميع مستوياته سواء في القرى أو المدن في ظل غياب معاهد كبرى وجامعات على غرار مكان موجودا في البلاد الإسلامية الأخرى كتونس (الزيتونة) والمغرب (القرويين) وبلاد المشرق العربي (الأزهر).

التعليق:

التعليق رقم 1: - أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد ساسي التميمي البوني ولد ببونة المعروفة الآن بعنابة في شرقي الجزائر سنة (1063 هـ / 1653 م) وتوفي فيها (1139 هـ / 1726 م) للمزيد ينظر : (البوني، 2007، ص12).

المراجع:

- 1) ابن الأحمر، (2001) تاريخ الدولة الزيانية تلمسان، تح هاني سلامة، ط 1، مصر: مكتبة الثقافة الدينية، 47
- 2) أبي شرف النووي أبي زكريا يحي، (2012) الأربعون النووية في الأحاديث النبوية، ط2، الجزائر: دار الإمام مالك للكتاب، 45.
- 3) أرزقي شويتام، (2006-2005) المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1519-1830م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر2، 322.
- 4) بلغيث عبد القادر، (2013-2014)، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، مذكرة ماجستير تاريخ وحضارة إسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 153.
- 5) بن العطار أحمد بن المبارك، (2011)، تاريخ بلد قسنطينة، تح وتو عبد الله حمادي، الجزائر: دار الفائز، 43.
- 6) بن خروف عمار، (2008)، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب، ج2، الجزائر: دار الأمل، 158.
- 7) بن ميمون الجزائري محمد، (1981)، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تق محمد بن عبد الكريم، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 59.
- 8) البوعبدلي المهدي، (2003)، الحياة الثقافية بالجزائر، إع: عبد الرحمان رويب، ط1، مج 3، الجزائر: عالم المعرفة، ص25.
- 9) البوعبدلي المهدي، (2012)، الحياة الثقافية بالجزائر، اعداد: عبد الرحمان دويب، مج 3، الجزائر: عالم المعرفة، 20.
- 10) البوني أحمد بن قاسم، (2007) الدرّة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تقديم وتحقيق سعيد بوفلاقة، الجزائر: منشورات بونة، 12.
- 11) الثعالبي عبد الرحمان، حياته وأعماله، تح: محمد فؤاد بن الخليل القاسمي الحسني، الجزائر: عالم المعرفة، 25.
- 12) درقاوي منصور، (2014-2015)، الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين (10هـ-13 هـ/16-19م) بين التأثير والتأثر، رسالة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 132.
- 13) الراشدي أحمد بن محمد بن علي بن سحنون، (2013)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، الجزائر: دار المعرفة، 13.
- 14) رزيوي زينب، (2015-2016)، العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (7هـ-9هـ/13-15 م)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، 88.

- (15) الزبيري محمد العربي ، (1984)، التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال، ط2، الجزائر، 28.
- (16) سعد الله أبو القاسم ، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 276، 47، 227، 245.
- (17) سعد الله أبو القاسم ، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 64.
- (18) سعد الله ابو القاسم ،(1986)، عبد الكريم الفكون _داعية السلفية _ ، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 22-23.
- (19) سعيدوني ناصر الدين والشيخ بوعبدلي المهدي ،(1984)، الجزائر في التاريخ -العهد العثماني-، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 114.
- (20) الشاذلي عبد اللطيف ، (2002)، النفحة المسكية في السفارة التركية ، تق و تح عبد اللطيف الشاذلي ، الرباط: المطبعة الملكية ، 5.
- (21) شارف رقية ، (2016-2017)، التاريخ والمؤرخون الجزائريون خلال العهد العثماني وإلى غاية 1267/ 1850 م، -دراسة وصفية تحليلية نقدية -مقارنة في المنهج التاريخي، أطروحة دكتوراه، تاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 59، 31، 40.
- (22) شارف رقية، (2007)، الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18 وبداية القرن 19، دراسة تحليلية نقدية، ط1، الجزائر: دار الملكية، 46.
- (23) شبي عبد العزيز ، (2007)، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، الجزائر: دار الغرب ، 56، 13.
- (24) عبد الحميد زوز، (1985)، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر، الجزائر: موفم للنشر ، 214.
- (25) عبد القادر نور الدين ، (2006)، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر: دار الحضارة، الجزائر، 204.
- (26) عبد الكريم حساين ، (2017-2018)، حركة التأليف التاريخي بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم العلوم الإنسانية ، جامعة سيدي بلعباس ، 88.
- (27) عبو إبراهيم، (2017-2018)، العلوم النقلية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، 102.
- (28) عميرايو احميدة ، (2004)، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث ، ط2 ، الجزائر: دار الهدى ، الجزائر ، 139.
- (29) الغبريني أبو العباس ،(1979)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط 2، بيروت: دار الأفاق الجديدة ، 7.
- (30) الفاسي ابن زاكور ، (2001)، نشر أزهار البستان فيما أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء وأكابر الأعيان ، تح مصطفى ضيف وآخرون ، الجزائر : المعرفة الدولية ، 40، 41.
- (31) لزغم فوزية ، (2013-2014)، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ ، جامعة وهران ، 147، 146.
- (32) لزغم فوزية، (2011)، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية (1518-1830م)، الجزائر: مكتبة الجزائرية، 61، 78.
- (33) محمد محمد أمين ، (2014)، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، القاهرة: دار الكتب ، 01.
- (34) المدني أحمد توفيق ، (1931)، كتاب الجزائر ، الجزائر: المطبعة العربية، 89.

- (35) مريوش أحمد، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 149، 18، 15.
- (36) المزابي ابن عودة، (1990)، طلع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تح: يحي بوعزيز، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 250.
- (37) المشهداني مؤيد محمود حمد، رمضان سلوان رشيد، (2014) اوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مجلد 5، العدد 16، جامعة تكرت، 434...

موقف الفقهاء من مصير الموريسكيين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م.

The Position Of The Jurists On The Fate Of The Moriscos After The Fall Of Granada In 1492 AD.

د. بلعباس محفوظي / جامعة الأغواط / الجزائر .

Dr. Belabas Mahfoudi/ University of Laghouat / Algeria - (abassalgeria@gmail.com).

د. عواطف دودي / جامعة واد سوف / الجزائر .

Dr. Awatef Doudi / Oued Souf University / Algeria - (doudi-aawatef@univ-eloued.dz)-

ملخص الدراسة:

يعد موضوع الموريسكيون كما هو معلوم من المواضيع الهامة التي لا تزال محل اهتمام الكثير من الباحثين حيث ظل هؤلاء لفترة طويلة اهتمامهم موجها بشكل مكثف الى دراسة الموريسكيون خلال قيام دولة الاسلام بالاندلس وذلك نتيجة توفرهم على عدد من المصادر الاندلسية المتعلقة بتلك الفترة في حين ذهب عدد من الباحثين الاوروبيين الى دراسة تاريخ هؤلاء باسبانيا بعد سقوط غرناطة ، هذه الاخيرة التي كانت تمثل اخر معقل للمسلمين من خلال محاكم التفتيش ومن خلال المصادر المعاصر ايضا، واعتبروا هذا الموضوع الخاص بالموريسكيين مسيحيا قبل ان يكون اسلاميا لذا فقد تنوعت الدراسات الاوروبية حول هذا الموضوع. وفي مقابل ذلك نجد ان الباحثين العرب قد بزت اغلب كتاباتهم حول المأساة التي تعرض لها هؤلاء بعد سقوط غرناطة في بلادهم والدور الحضاري التي لعبته هذه الفئة في البلدان المغاربية بعد طردهم من طرف الاسبان ففي ظل هذه الاوضاع تنوعت الكتابات وحتى الاراء حول مصير هؤلاء الموريسكيين من بينهم العلماء والفقهاء وغيرهم .

الكلمات المفتاحية: الموريسكيون، الفقهاء، الاسبان ، البلدان المغاربية، الونشريسي.

Abstract:

The issue of the Moriscos, as is well known, is one of the important topics that are still of interest to many researchers, as they have been for a long time intensely focused on studying the Moriscos during the establishment of the Islamic state in Andalusia, as a result of their availability on a number of Andalusian sources related to that period, while a number of European researchers to study the history of these in Spain after the fall of Granada - the latter, which represented the last stronghold of Muslims - through the Inquisition courts and through contemporary sources as well. They considered this subject of the Moriscos to be Christian before it was Islamic, so European studies on this subject have varied. On the other hand, we find that Arab researchers have seeded most of their writings about the tragedy that these people were subjected to after the fall of Granada in their country and the civilizing role that this group played in the Maghreb countries after their expulsion by the Spaniards. Scholars, jurists and others.

Keywords: The Moriscos, the jurists, the Spaniards, the Maghreb countries, the winchrisi.

مقدمة:

يعد موضوع الموريسكيون من ابرز واهم المواضيع التي حظيت باهتمام كبير من طرف الباحثين ، حيث حرك الموريسكيون الاقلام والابحاث واستطاعت هذه الاعمال ان تعطي صورة حول الاحداث التي عاشتها هذه الفئة في شبه الجزيرة الايبيرية سواء تعلق الامر بالماساة التي تعرضت لها هذه الفئة من طرق الاسبان وعملية الاقصاء او حتى من طرف الاسبانيين انفسهم الذين بدورهم كتبوا حول طبيعة الحالة السياسية التي تعيشها هذه الفئة مطلع القرن 16م ،والى جانب ذلك ايضا فقد اختلفت الاراء وتعددت موافقهم حول مصير هؤلاء الموريسكون خاصة بعد هجرتهم واستقرار الكثير منهم في البلدان المغاربية خاصة من طرف العلماء الفقهاء حول استقرارهم في بلادهم امام ضربات النصارى والمحافظة على معتقداتهم الدينية ومن هنا نطرح الاشكالية الاتية : كيف كان موقف الفقهاء حول مصير الموريسكيين عقب المنحة التي تعرض لها هؤلاء نهاية القرن 15م ؟.

أولاً: التعريف بمصطلح المورسكيين :

قبل ان نتطرق الى موضوع موقف الفقهاء من مصير المورسكيين بعد طردهم من طرف الاسبان عقب سقوط اخر معقل للمسلمين في الاندلس اواخر القرن 15م نود ان نشير باختصار حول مصطلح الموريسكيين .

1.الموريسكيون : (Los moriscos)

وهم المسلمون الاندلسيون الذين تحولوا بسقوط غرناطة عام 1492م الى المدجنون بعدما صدرت قرارات منعهم من ممارسة شعائرهم الدينية واجبروا على الاختيار بين اعتناق المسيحية او الطرد من وطنهم خلال بداية القرن السادس عشر الميلادي وقد اطلق عليهم الاسبان المسحيون هذه التسمية تحفيذا واستصغارا لهم . وتشكل هذه التسمية الجديدة المرحلة الثالثة من تطور وضع الاندلسيين في بلادهم ونظرة الاخر اليهم ويقابل مصطلح المورسكيون عبارة المرانيون بالنسبة للطائفة اليهودية الاندلسية بعد سقوط الحكم الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية اذن المرانيون او المرانوس باللغة الاسبانية هم اليهود الاندلسيون الذين بقوا في اسبانيا بعد سقوط غرناطة اخر معاقل المسلمين واجبروا على التنصر وتعني كلمة المرانوس في اللغة الاسبانية : الخنازير (فوزي سعد، 2016، صفحة 9).

ولم يكن الاندلسيون المهاجرون او الباقون في بلادهم أي شبه الجزيرة العربية يلقبون انفسهم بهذا الاسم او يستعملونه وانما يسمون انفسهم اندلس - دون يا النسب - او اهل الاندلس، او الغرناطيين او اهل غرناطة ، كما نجد ذلك في كتب الرحالة الجغرافيين العرب منهم الحسن الوزان المعروف باليون الافريقي، واحمد بن قاسم الحجري افوقاي ومحمد بن عبد الرفيح المرسي ، وابراهيم غانم الرباش وغيرهم وكلهم اندلسيون مهاجرون وغيرهم وكذلك في بعض الوثائق التي تم العثور عليها في القرون التالية باللغة العربية مثل ذلك مثل القرصنة والقرصنة التي كانت تطلق على المجتهدين في البحر (حجي، 2002، الصفحات 59-60) .

ثانيا: اوضاع الموريسكيون عشية سقوط غرناطة اخر معاقل الاسلام الاندلسية :

بعد كل الجهود والتضحيات التي بذلها المسلمون منذ البدايات الاولى للفتوحات الاسلامية بقيادة حاكم طنجة طارق بن زياد والقائد موسى بن نصير ومن تلاهم للحفاظ على ارض الاندلس الاسلامية بدأ العد العكسي وظهرت بوادر الانهيار التدريجي بتداعي حكم بني امية في قرطبة .

ولو تدخل المرابطين ثم الموحيدين لانعاش الجسد الاندلسي المحتضر لفترة زمنية طويلة و لعدة قرون اخرى لكان قد انتهى قبل فترة بعيدة ولما صمد الى غاية 1492م وهي السنة التي سقطت فيها الاندلس بصفة رسمية (فوزي سعد، 2016، صفحة 27) ولقد اشارت المصادر بان توحيد اسبانيا المسيحية سنة 1474م كانت بمثابة مرحلة جديدة للتوسع الاسباني، فالمصاهرة التي تمت بين ايزابيل

¹ (يحيىوي، 2001، صفحة 33)، ملكة عرش قشتالة وفرديناند² (العسلي، 1980، صفحة 44) ملك عرش الاراغون سنة 1469م وهو ما سمح للاسبان بتركيز جهودهم بمحاربة المسلمين في الاندلس والقضاء عليهم (الميلي، 1964، صفحة 53).

وفي يوم 02 جانفي 1492م انتهى وجود المسلمين في الاندلس سياسيا لتصبح ملكا نصرانيا تحت حكم الملكة ايزابيل وزوجها فرديناند" وارتفع الصليب الفضي فوق برج الطلائع في قصبة حمراء . ودقت اجراس الكنائس في سائر اوربا احتفالا بهذه المناسبة الجليلة" بعدما دخلت القوات النصرانية تجول وتصل حول قصر بني الاحمر تحضيرا لقدم الملكة ايزابيل وزوجها . في حين كان ابو عبد الله الصغير يستعد مرفوقا بحوالي 50 فارسا لمغادرة غرناطة وعبور نهر شنيل الشهير متوجها نحو اقامته الجديدة في اندراش متحسرا على الملك الذي عجز عن الحفاظ عليه كالرجال على حد قول والدته عائشة حسب القصة تتداولها الروايات منذ اكثر من خمسة قرون تقريبا وكما ذكر المؤرخ مولاي بلحميسي الجزائري فان "بسقوط غرناطة في العام 1492 م بدأت بالنسبة لمسلمي اسبانيا .ضحايا الخيانة واللاتسامح .احدى اسوا الماسي التي شهدتها البشرية عبر التاريخ" (فوزي سعد، 2016، الصفحات 31-32) .

ثالثا: موقف الفقهاء من مصير الموريسكيين عقب المنحة التي تعرضوا لها :

من قبيل انهيار مملكة غرناطة وحتى سقوطها نهائيا .احتر الموريسكيون في ما سيفعلونه في حال سقوط دولة بني النصر التي كانت تحكم مملكتهم الاسلامية الاخيرة في شبه الجزيرة الايبيرية حتى لا يجدون انفسهم في وضع يتعارض مع معتقداتهم الدينية مثلما كان يحدث مع المدجنين .

واذا كان سقوط الدويلات الاسلامية في الفترة الزمنية السابقة يليه عادة نزوح نالي ما تبقى من الممالك الاسلامية المجاورة لكونها اخر هذه الممالك طرح اشكاليات فقهية اكثر تعقيدا على الموريسكيين .

هنا ظهرت الحاجة الى راي العلماء والفقهاء خاصة عقب نكث الكاثوليك التزامهم بشأن حرية المعتقد التي وقعوا في معاهدة تسليم غرناطة . والتحول في السياسة تجاه المسلمين طرح اذن تحديات فقهية ملحة وعاجلة باضافة الى ذلك

فقد حرك الاجتهادات على ضفتي المتوسط في اوساط علماء الدين الاسلامي امام اصرار مسلمي الاندلس عليهم بالاستئله حول ما يجب فعله : البقاء ام الرحيل الى (دار الاسلام) .

واختلف الفقهاء مرة اخرى بين متشدد من جهة يمنح الاولوية المطلقة للحفاظ على المعتقدات الدينية التي اصبحت في خطر في ظل نظام سياسي ليس غير الاسلام فحسب بل مناهضا للاسلام والمسلمين .مما يقضي براهم حزم الحقائق ومغادرة الاندلس .ومتسامح من جهة اخرى متفهم للجوانب الانسانية ولعدم سهولة الرحيل على جميع الشرائح والطبقات من الناحية التقنية المادية حيث افتي هذا الفريق بإمكانية البقاء مع التمسك بالعقيدة الاسلامية والتشبث بها ولو بالنظائر بالنصرانية وبالخداع وممارسة التقية عندما تقضي الامور .وقد كان على راس الفقهاء من دعاة الرحيل الى (دار الاسلام) بما لا يقبل النقاش الفقيه والمفتي ومفتي فاس احمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريسي (1430م - 1508م) الذي اصدر فتوى سنة 1491م قبل عام من سقوط غرناطة قبل ان يتبعها بفتوى اخرى بعد سقوط غرناطة بعامين او ثلاثة (فوزي سعد، 2016، صفحة 35).

1. فتوة الونشريسي الاولى :

لقد وضع الونشريسي موقفه من خلال مسالة هجرة او بقاء الموريسكيين ببلاد الاندلس في فتاوى كتبها حيث اصدر الاولى عندما استفتاه احد السائلين الذين هاجروا الى بلاد المغرب لكن ظروف العيش التي واجهتهم لم ترقهم .اذ لم يجدوا ما كانوا ياملون من يسر المعيشة مما ادى هؤلاء الى التحصر والندم الى هجرتهم (يوسف م.، 2011، صفحة 60) حيث جاء في نص السؤال بانهم (ندموا على الهجرة بعد حصولهم بدار الاسلام وسخطوا وزعموا الحال عليهم ضيقة وانهم لم يجدوا بدار الاسلام التي هي دار المغرب هذه صانها الله وحرس اوطانها ونصر سلطانها بالنسبة الى التسبب في طلب المعاش على الجملة رفقا ولا يسرا ولا مرتفقا...) (الونشريسي، 1981، صفحة 199).

وبل وصل بهم الحد الى انهم (... صرحوا بدم دار الاسلام وشانه .وشتم الذي كان لهم السبب في هذه الهجرة وسبه .وبمدح دار الكفر واهله والندم على مفارقتة...) (الونشريسي، 1981، صفحة 199) .

والى جانب ايضا فقد اشار الونشريسي بان بعض هؤلاء قد صرحوا بانه (اذا جاء صاحب قشتاله الى هذه النواحي نسير اليه فنطلب منه ان يردنا الى هناك يعني الى دار الكفر) (الونشريسي، 1981، صفحة 120) . وفي هذا الشأن جاء رد المفتي الونشريسي واضحا قائلا : (ان الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام فريضة الى يوم القيامة .وكذلك الهجرة من ارض الحرام الباطل بظلم او فقرة ... ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية لعنه الله على معاقلم وبلادهم الا تصور العجز عنها بكل وجه وحال لا الوطن والمال كله فان ذلك كله ملغى في نظر الشرع...) (الونشريسي، 1981، صفحة 121) .

2. الفتوى الثانية :

ولقد اصدرها الونشريسي في شان احد مسلمي الاندلس .الذي كان يريد البقاء باسبانيا بهدف مساعدة المسلمين هناك على قضاء حوائجهم وحل مشاكلهم لدى السلطات الاسبانية حيث انه (يوسف م.، 2011، صفحة

61) يقول (يتكلم عنهم مع حكام النصارى فيما يعرض لهم معهم من نواب الدهر ويخاصم عنهم ويخلص كثيرا منهم من ورطات عظيمة بحيث انه يعجز عن تعاطي ذلك عنهم اكثرهم . بل قل ما يجدون مثله في ذلك الفن ان هاجر وبحث انهم يلحقهم في فقدوه ضرر كبير ان فقدوه فهل يرحص له في الاقامة معهم تخت حكم الملة الكافرة لما في اقامته هناك من مصلحة لاولئك المساكين الذين مع انه قادر على الهجرة متى شاء ؟) (الونشريسي، 1981، صفحة 137).

وردا عما طرح كان رد الونشريسي اتجاه ذلك ماكداه هجرتهم وعدم بقاء أي مسلم هناك (لان مساكنة الكفار من غير اهل الذمة و الصغار لا يجوز ولا تباح ساعه من النهار. ولما تنتجه من الادناس والاوزار والمفاسد الدينية والدينية طوال الاعمار) (الونشريسي، 1981، صفحة 138).

وفي المقابل كان من ابرز الذين سمحوا بالبقاء في اسبانيا مع ممارسة التقية اتقاء لشر محاكم التفتيش والبلاط الاسباني الفقيه ابو العباس احمد ابو جمعة المغراوي الوهراني المولود في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي في مدينة وهران غرب الجزائر والمتوفى في فاس سنة 1514 م. والذي وردت فتواه عام 1504 م بعيد انطلاق التنصير القسري بمقتضى مرسوم الملكة ايزابيلا لعام 1502 م مما يعني انها كانت موجهة للموريسكيين وبواقعية كبيرة حيث اظهرت تفهما وتعاطفا واضحا معهم في محنتهم. هذه الفتوى عثر على نسخ منها في اسبانيا بلغة الالخاميدادوا (الاعجمية) الموريسكية كتبت في 1563 م. وايضا في سنة 1609 م. قبيل الطرد الجماعي (فوزي سعد، 2016، صفحة 37).

استهل المغراوي فتواه بمقدمة يشجع فيها الاندلسيين على التشبث بدينهم قائلا: (اخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر. من اجذل الله ثوابهم . فيما لقوا في ذاته. وصبر النفوس الاولاد مرضاته الغرباء القرباء ... ان شاء الله. وارثوا السلف الصالح. في تحمل المشاق . وان بلغت النفوس الى التراق ...).

وكما يبدو من نص الفتوى ان المغراوي يدعوا اهل الاتزان مبتدا التقية للقيام بعبادتهم الاسلامية. لان الله سبحانه رخص لهم ذلك . ودعائهم الى الاصطبار على ادائها لان نجاحاتهم تكمن في القيام بها ولو بالتروية والتستر حيث يقول (... ومؤكدا عليكم في ملازمة حين الاسلام امرين به من بلغ من اولادكم ان لم تخافوا شر عليكم ... فطوبى للغرباء الذين يصلحون اذا فسد الناس ...).

وفي اخر الفتوى يدعوا المغراوي لاهل الاندلس الذين اصبحوا غرباء في بلادهم بالنصر ورفع البلاء الذي يعيشونه حتى يتمكنوا من عبادة الله وحده فيقول: (وانا اسال الله ان يديل الكره للاسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غير محنة ولا وجله بل بصدمة الترك والكرم . ونحن نشهد لكم بين يدي الله انكم صدقتم الله ورضيتهم به ...).

ومن هنا يتضح لنا ان فتاوى المغراوي لا تطرح فكرة الهجرة بل بالعكس من ذلك تدعوهم الى البقاء في بلاد الاندلس . والتمسك بدينهم على (الطريقة الموريسكية) أي اعتناق الديانة النصرانية جهرا . والتمسك بالدين الاسلامي سرا (يوسف م.، 2011، صفحة 64).

لقد سار الكثير من الموريسكيين منذ بداية على النهج الذي دعا اليه ابو جمعة المغراوي الوهراني لواقعته . وذلك الى اخر يوم لهم في اسبانيا لاسميا ان الهجرة الى دار الاسلام لم تكن في متناول جزء كبير ان لم نقل الغالبية من الموريسكيين لكلفة السفر الباهضة وللرسوم العالية المفروضة من طرف السلطات الاسبانية على كل شخص يرغب في الرحيل عندما كان الرحيل مازال مسموحا به. ولمنع المهاجر اخذ امواله الذهبية والفضضية بشكل عام. بما فيها تلك التي

يحصل عليها من بيع ممتلكاتهم . ولا يمكنه اخذ ابنائه الذين لم يتجاوزوا سن الرابعة عشرعاما من عمرهم والبنات اللواتي لم يبلغن سن الثانية عشر عاما معه الى مهجره . الى غير ذلك من القيود والصعوبات . فضلا عن المخاطر الامنية خلال الاسفار كالاحتياطيات والاعتداءات وغرق السفن .

وفي بعض الاحيان كان الارتباط الوجداني بالوطن السبب الاول والاخير لرفض الرحيل عن الديار الاندلسية (فوزي سعد، 2016، صفحة 37) والى جانب موقف العلماء والفقهاء من منحة الموريسكيين والمتمثلة اساسا في هجرة او بقاء هذه الفئة في الاندلس فقد كان للدولة العثمانية ايضا موقفا اتجاه هذه المسألة كونها تشكل الممثل الرسمي للمسلمين في العالم كله حيث كانت هذه الاخيرة على اطلاع دائم بقضية الاندلسيين منذ القرن الخامس عشر الميلادي عن طرق عدد من المراسلات التي كانت ترد اليها سرا بفضل عدد من الوسطاء من جهة . وباعتبارها تمثل الخلافة الاسلامية بما تستلزمه من واجبات لا يمكننا الا تقديم مساعدتها لدولة اقلية اسلامية تطالبها بذلك .

كما كان الموريسكيون هم الآخرون على علم بكل ما يجري بالدولة العثمانية . وكلما تحرك تحرك الاسطول العثماني بعرض البحر المتوسط . الا وقوي املهم في النجدة والمساعدة . وبرز ذلك في تجرهم السري . ولا شك ان تدخل الاتراك لصالح مسلمي الاندلس منذ البداية كان يمثل احدى زوايا الصراع الاسباني – العثماني في البحر الابيض المتوسط خاصة عقب الانتصارات التي حققها انطلاقا من الاستلاء على القسطنطينية والانتصارات العسكرية في اوربا الشرقية .

ويبدو ان اول تحرك للدولة العثمانية في اطار مساعدة الاندلسيين في اسبانيا قام به السلطان العثماني بزيد الثاني (1481-1512م) بعدما وصله نداء الاستغاثة الذي وجهه الاندلسيون لشخصه حوالي حوالي سنة 1501م ، (يوسف م.، 2011، الصفحات 65-66) كما يجب ان نغفل الدور الفعال الذي لعبه الاندلسيين في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر وهذا من خلال المساعدات التي قدموها للاتراك قصد التصدي للحملات الاسبانية من جهة . والقضاء على الامارات المحلية من جهة اخرى .

وعموما يمكن القول ان العلاقة التي تجمع بين الامبراطورية العثمانية . والموريسكيين هي علاقة استراتيجية مبنية على مصالح مشتركة تلتقي في هدف واحد هو التصدي لعدوا مشترك واحد هو اسبانيا. (يوسف م.، 2011، صفحة 70)

خاتمة :

وفي الاخير وبعد دراستي لهذا الموضوع والموسوم ب : موقف الفقهاء من مصير الموريسكيين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م توصلنا الى النتائج الاتية وهي :

- من خلال استعراض فتاوي الفقيه ابو العباس احمد بن يحيى الونشريسي والفقيه ابو العباس احمد ابو جمعة المغراوي الوهراني يبداوا الاختلاف واضحا من خلال موقفهما من هجرة او بقاء الموريسكيين حيث جاءت الفتوى الاولى والثانية للفقيه الونشريسي معارضة يشكل كلي حول بقاء الموريسكيين في اسبانيا بلاد النصرى مؤكدا على ضرورة هجرتهم في حين راي الثاني بانه من المؤكد بقاء الموريسكيين في وطنهم ما داموا يزاولون عبادتهم ولو كان ذلك باسلوب سري .ورغم هذا الاختلاف الا ان هناك بعض الباحثين لا يرون هذا الاختلاف كون ان راي المغراوي ما هي الا تكملة لفتوى الونشريسي بحيث جاءت لتعطي حلويا لهذا البقاء . وعموما يمكن القول انه مهما اختلفت الاراء ومواقف العلماء والفقهاء حول هذه المسألة الفقهية فان لهؤلاء دور بارز في محاولة اقناع المسلمين بالهجرة الى دار الاسلام هروبا بدينهم والمحافظة عليه وعلى حياتهم والدليل الواضح حول ما اشرنا اليه هو هجرة هؤلاء الموريسكيين حول البلدان المغاربية .

هوامش:

¹ ايزابيل: ولدت سنة 1451م . وهي ابنة خوان الثاني ملك قشتالة . وحفيدة انريكي الثالث . تزوجت الملك فرديناند سنة 1469م . وبعدما توفي اخوها انريكي الرابع سنة 1974م . استلمت العرش مكانه . وبعد الوحة مع ملك الاراغون اصبحت هي وزجها يعرفان بملكي قشتالة واراغون ينظر : جمال يحيواي : سقوط غرناطة وماساة الادلسيين 1492م -1610م. منشورات وزارة الشؤون الدينية والاوقاف . تلمسان . 2001.ص33.

² هو فرديناند الخامس الكاثوليكي . ولد سنة 1452م وتولى الحكم سنة 1474م . بعد زواجه من ايزابيل وحده تقريبا كل شبه الجزيرة الايبيرية . مما ساعده على القضاء على معقل للمسلمين بالاندلس سنة 1492م . ينظر . بسام العسلي : خير الدين بريروس والجهاد في البحر من 1470م - 1547م . ط1 . دار النفائس . بيروت . 1980م . ص 44.

قائمة المراجع:

- ابي العباس احمد بن يحيى الونشريسي. (1981). المعيار المغرب والجامع المغر عن فتاوى اهل افريقية والاندلس والمغرب . بيروت: دار الغرب الاسلامي .
- الله فوزي سعد. (2016). الشتات الاندلسي في الجزائر والعالم. الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع.
- بسام العسلي. (1980). خير الدين بريروس والجهاد في البحر من 1470م - 1547م. بيروت: دار النفائس.
- جمال يحيواي. (2001). سقوط غرناطة وماساة الادلسيين 1492م - 1610م. تلمسان: منشورات وزارة الشؤون الدينية والاوقاف.
- محمد بن مبارك الميلي. (1964). تاريخ الجزائر القديم والحديث. الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية.

- محمد حجي. (2002). الموريسكيون والجهاز البحري في المغرب الكبير الندوة الثانية حول الموريسكيون في المغرب. شفشاون: مطبوعات اكاڤمية المملكة المغربية سلسلة ندوات.
- مفيدة بن يوسف. (2011). الجالية الاندلسية وتأثيراتها الحضارية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني القرنين السادس عشر والسابع عشر (16-17 م). الجزائر: جامعة الجزائر-2.

الدور السياسي للموريسكيين في المغرب العربي (الجزائر-تونس-المغرب) خلال الفترة الحديثة.
Intervention title : The political role of the Moriscos in the Arab Maghreb (Algeria-
Tunisia-Morocco) during the modern period.

د.جمال عطايي/المركز الجامعي سي الحواس –بريكة/ الجزائر

Dr.Djamel attabi/ University SI ELHAOUSSE- barika/alger

د. رزيق علي/ جامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية –قسنطينة/ الجزائر

Dr . ALI REZZIG/University ELEMIR EBDEL KADER- CONSTANTINE/Algeria

ملخص الدراسة:

لقد كانت حادثة سقوط الاندلس متعرجا حاسما في تاريخ بلاد المغرب العربي، أين شهدت المنطقة استقطاب آلاف الموريسكيين الفارين من قمع الصليبيين ومحاكم التفتيش، وقد أحدث قدومهم تطورات هامة خاصة في المجال السياسي ونسب الضوء على عدة مناصب حساسة أولها في الحجابة أين تولى فيها قادة اكفاء أمثال أبي الحسين أبي سيد الناس و عبد الرحمان يعقوب أبي عمر السلمي و أبو محمد عبدون الحباك أين ساسوها سياسة رشيدة وكذلك في الدواوين نذكر منهم أبي بكر بن الحسن ابن خلدون، الى جانب القضاء أين برز العديد من القضاة الموريسكيين منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن الغماز و أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف اللخمي و سعيد بن محمد بن محمد بن محمد العقباني الذين اظهروا قدرة كبيرة في تولي وادارة وسياسة المنطقة سياسة تتم عن قدرتهم وكفاءتهم

الكلمات المفتاحية: الاندلس- الهجرات- الحجابة – غرناطة – البلاط – القضاء – الدواوين.

Abstract:

The incident of the fall of Andalusia was a decisive turning point in the history of the countries of the Maghreb, where the region witnessed the polarization of thousands of Moriscos fleeing from the oppression of the Crusaders and the Inquisition courts. Abi Al-Hussein Abi Sayed Al-Nas, Abd Al-Rahman Yaqoub Abi Omar Al-Salami and Abu Muhammad Abdoun Al-Habbak, where they influenced it with rational politics. Also in the collections, we mention Abi Bakr bin Al-Hassan Ibn Khaldun, in addition to the judiciary, where many Morskian judges emerged, including Abu Al-Abbas Ahmed bin Muhammad bin Al-Hassan Al-Ghammaz and Abu Bakr Muhammad bin Al-Hassan bin Youssef Al-Lakhmi and Saeed bin Muhammad bin Muhammad bin Muhammad Al-Aqbani, who showed great ability in taking over, managing and politics of the region, a policy that reflects their ability and competence.

KeyWords: Andalusia - Migrations - Hijab - Granada - Court - Judiciary - Diwans.

مقدمة:

شهدت بلاد المغرب عدة هجرات أندلسية منذ ظهور الحركات الصليبية في شمال إسبانيا خاصة بعد معركة حصن العقاب سنة 1212م وانهازم الموحدين ، التي كانت منعرجا حاسما في تاريخ المغرب الإسلامي، وزادت هذه الهجرات إلى بلاد المغرب بعد سقوط آخر معاقل الاسلام في غرناطة 1492م، وقد ساهمت هذه في تطوير الحياة الثقافية والسياسية وحتى الاجتماعية لبلاد المغرب ، ، وفيها نسلط الضوء على موضوع "الأندلسيون ودورهم السياسي في بلاد المغرب، حيث شهدت هذه المرحلة تدهور أوضاع المغرب في ظل انهيار دولة الموحدين.

وتكمن أهمية الموضوع في تسليط الضوء على محطات هامة في الحياة السياسية لبلاد المغرب الاسلامي من خلال تعرضنا للقضاء الذي كان محورا مهما في الفصل بين الناس في الخصومات والمنازعات وهنا برز العديد من القضايا الأندلسيين ونبغو في هذا المجال، الى جانب الدواوين والحجابه التي كانت من المراكز الهامة والحساسة في الدولة وقد كان للمورسكيين دور كبير فيها من خلال تولي هذه المناصب واحداث تغييرات فيها .

ان الهدف من دراستنا هذه هي الكشف عن محطات هامة وحساسة في تاريخ المغرب العربي باظهار دور المورسكيين الذين استوطنو في هذه البلاد وكان لهم دور فعال في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية بالمنطقة وعليه نظر الاشكالية التالية:

- كيف ساهم المورسكيون في الحياة السياسية لبلاد المغرب العربي؟

وللاجابة على الاشكال نطرح التساؤلات التالية:

-كيف كان دورهم في تولي الحجابة ؟

- كيف ساهموا في الدواوين؟

- كيف ساهموا في تسيير و القضاء؟

أولا. في المغرب الأدنى

اتسعت الدولة الحفصية منذ نشأتها سياسيا، تعين الأندلسيين بالمناصب العليا في دولتها مستفيدة من مهارتهم وخبرتهم (سعداني ، 2015، ص 112) من أجل تدعيم أركان دولتهم ويجاد نوع من التوازن يخفف عنها ضغط شيوخ الموحدين، فاستدعتهم وأكثرتهم منهم في بلاطها وادارتها وجيشها وأسندت إليهم اسى الوظائف (رزوق، 1991، ص 42) كالحجابه والديوان والقضاء.

1- الحجابه:

وجدت خطة الحجابه منذ عهد معاوية ابن أبي سفيان الذي أفرد لها مكانة واسعة، بمجرد توليه الحكم اتخذ الحاجب كرها مضطرا بعد حادثة الخوارج مع علي وعمر بن العاص خوفا من ازدحام الناس على بابه الذي قد يذهب بحياته ، حيث عرفت هذه الخطة تطورا هاما في المغرب الإسلامي وخاصة في العهد الحفصي، اذ أصبح صاحبها يختص بشؤون السيف والقلم (بالعربي، 2011، ص 187)، والتي تولاهها عدد من الأندلسيين نذكر منهم:

.أبي الحسين أبي سيد الناس: الذي التحق بالأمير أبي زكرياء الحفصي، وأعانه على اغتصاب بجاية سنة 486هـ، واقامة مملكة مستقلة بها، مما جعله يرقيه إلى أعلى المناصب بإمارة وهي منصب الحجابه (حساني، 2012، ص 171)، وهذا ما ذكره ابن خلدون في قوله " قد قدمنا سلف الرجل وأوليته، وأنه لحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان، وأبلى في خدمته،

فلما استولى الأمير أبو زكرياء على الثغر الغربي واقتطعه عن أعمال الحضرة، ونزل بجاية وظاهر بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته، وفوضى إليه فيما وراء بابه وأجزاء في رياسته على سنن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذي كانوا يتلقنون طرقه وينزعون إلى مراميه، بل كانت رياسته ما في حجابته أبلغ من رياسته ابن أبي الحسين لجلاء جد الدولة ببجاية من مشيخة الموحددين الذين يزاحمون، كما كان أبي الحسين مزاحما بهم، فاستولى أبو الحسين سيد الناس على الدولة ببجاية، وقام بأمر مخدمه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وتمكن في يده الزمام إلى أن هلك سنة 690هـ (بن خلدون، 2000، ص 456).

أبو القاسم بن أبي يحيى: وفد مع جالية من الأندلس إلى المغرب، ودخل في خدمة الدولة الحفصية حيث تولى منصب الحجابة بعد وفاة أبي الحسين بن سيد الناس سنة 690هـ الذي عينه كاتباً له وبقي في منصبه (بن خلدون، 2000، ص 457)، إلى سنة 715هـ بعد عزله من طرف عبد الرحمان السلي (الميلي، 2004، ص 543).

عبد الرحمان يعقوب بأبي عمر السلي: الذي يتمتع بنفوذ قوي داخل البلاط الحفصي (الساحلي، 1988، ص 146)، حيث نفي ابن عمر بسبب كثرة الحجاب أبو القاسم بن أبي يحيى، وبد الرجوع من منفاه في عهد أبي البقاء أمر بجاية، عمل على الانتقام من خصمه وابعاده من منصبه وحلول مكانه في منصب حاجب سنة 915هـ (سعيدوني، 2003، ص 106).

2-الدواوين:

نشأت الدواوين في الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (عبدلي، 2011، ص 303)، نتيجة لاتساع الدولة، بهدف تنظيم أمور شؤون الدولة ومن هذه الدواوين نذكر (بو عامر، 2010/200، ص 116).. ديوان الانشاء والعلامة الذي يهتم بكتابة الرسائل والمراسيم السلطانية إلى الولاة والعمال وغيرهم (حركات، 1978، ص 269) ديوان المالية: الذي يضم أربعة دواوين: ديوان الجباية، ديوان الدخل والخراج. ديوان النفقات والغنائم. ديوان الضرائب(علي حسن، 1980، ص 147).

ديوان الجيش: يتفرع إلى ديوانين، ولكل منهما اختصاصه وهما ديوان العسكر والذي يختص بالجند النظامي والحرب ووظيفته إحصاء الجند، ومعرفة حاجياته المتجددة. أما الديوان الثاني فهو ديوان التمييز، وهو نظام يشبه نظام الامتحان وكانت عادة التمييز يستخدم خاصة قبل الصيام بمعركة من المعارك كما يهتم بتنظيم المشاركين في المعارك المقبلة (علي حسن، 1980، ص 147)، ذكر هذا الإسم ابن صاحب الصلاة في كتابه المنى بقوله: حدثني الكاتب أبو عبد الله بن محسن كاتب ديوان التمييز، ولقد اشتغل في هذه الدواوين في بلاد المغرب بصفة عامة والمغرب الأدنى بصفة خاصة، عدد من المهاجرين الأندلسيين نظراً لبراعتهم في الكتابة وإيجاد الشعر من هؤلاء نذكر:

أبي عبد الرحمان يعقوب ابن أبي بكر بن عمر السلي: من أهل الشاطبة كان أبوه قد ولي ديوان القل (الوزان، 1983، ص 54)، وقد تولى بن عمر منصب الأشغال المالية في عهد أبي زكريا ابن أبي اسحاق ولم تقتصر على منصب صاحب الأشغال (عبدلي، 2011، ص 149)، بل تولى منصب حاجب.

أبي بكر بن الحسن ابن خلدون: وهو جد المؤرخ عبد الرحمان بن خلدون (الساحلي، 1988، ص 146) الذي وفد مع أبيه الحسن على الأمير الحفصي أبي زكريا من اشبيلية، ورحل أبوه إلى المشرق، وبقي أبو بكر بالحضرة، فاستعمله

الأمير أبو اسحاق الأول وخوله في خطة الانشاء، وهو ما أكده ابن خلدون في قوله: "وعقد حجابته لأبي القاسم بن الشيخ كاتب أبي الحسن وعلى خطة الأشغال أبي بكر ابن خلدون
عبد الرحمان بن خلدون (رضوان الراي، 1976، ص 297)، كما تولى هو الآخر منصب كتابة العلامة للسلطان الحفصي أبي اسحاق (عبد الحميد حاجيات، 2011، ص 367) سنة 753هـ.
3-القضاء:

لم يكن عمل الأندلسيين مقتصر على الحجابة والكتابة، بل امتد إلى ميدان القضاء (بوعامر، 2010/2009، ص 119) الذين أظهروا مهارة وعدالة وقدرة كبيرة على تطبيق القانون، وعرفوا بقوة الشخصية مما أتاح لهم مواجهة الظلمة وردعهم (سعداني، 2016/2015، ص 180) ومنهم:

- أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن الغماز (نويهض، 1983، ص 334)، من أهل بلنسية، انتقل إلى بجاية بعد تغلب النصارى على بلنسية (عنان، 1974، ص 223)، وولي القضاء بها، وكلف بأمانة الصلوات الخمس، تولى أمر بلده وحفظ الأمن بها، في غياب جيش الأمير الحفصي، عرف عنه بهيمته وحسن تصرفه استقدمه المستنصر الحفصي إلى تونس وقربه إليه، وأوفده في السفارة إلى المغرب، كما تولى قاضي جماعة بها سنة 622هـ ثم أبعده، ثم أعيد إلى منصبه سنة 680هـ، ولم يقتصر على القضاء بل ناط به في أشغال سلطانية وهذا ما أكده ابن القنفذ في قوله: "وكان ابن الغماز من سعداء الفقهاء على أنه لم يقتصر به المستنصر على القضاء بل ناط به أشغال سلطانية وكان يندره في كثير من الأمور (نويهض، 1983، ص 151)، توفي سنة 693هـ

- أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف اللخمي: من أهل مرسية ولد سنة 417هـ، ولي القضاء بمرسية، انتقل بين الكثير من مدن الأندلس والمغرب، هاجر أولا إلى بجاية ومنها انتقل إلى تونس وولي القضاء بها سنة 685هـ
- أبو مطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن عميرة المخزومي (سعيدوني، 2003، ص 190)، من جزيرة شقره، استوطن بلنسية، ذكره ابن القنفذ بقوله: رئيس الأدباء، وكبير العلماء وعلامة عصره المتفنن"، كتب بالأندلس عن أبي الحملات بن مردنيش، ولي القضاء في أريولة وشاطبة، ثم انتقل إلى العدو فولي بالمغرب الأقصى خطة القضاء ببعض البلاد في مدة السعيد، ثم انتقل إلى بجاية سنة 645هـ، فأقام بها إلى أن أقدمه السلطان أبو زكريا الحفصي وولاه قضاء قسنطينة والأريس وقابس، ثم اتصل بالمستنصر الحفصي وأصبح من خواص جلسائه إلى وفاته سنة 658هـ
ثانيا: في المغرب الأوسط:

عرف المغرب الأوسط توافد العديد من الأسر الأندلسية (فيلالي، 2007، ص 173) خلال العهد الزياني فاحتضنه البلاط الزياني بحفاوة، واستعان بهم أمراء بني زيان (إسماعيل ابن الأحمر، 2001، ص 4) في تسيير دواليب الدولة ومؤسساتها وأجهزتها، وقد بعضهم من ذوي الخبرة خطط الحجابة والكتابة والقضاء (حميش، 2011، ص 2011).
1. الحجابة:

تعتبر وظيفة الحجابة من أعلى الوظائف في الدولة الزيانية. ويبدو أن مهام الحاجب في الدولة شبيهة بمهام مدير التشريعات في عصرنا الحاضر، فهو يحجب السلطان عن الناس ويغلق بابه دونهم أو يفتحه له في أوقات معينة ويخدم السلطان داخل القصر وينظم من فيه ومن يقصده من الزوار الذين يستقبلهم السلطان (العبدلي، 2011، ص 148)، حيث كانت هذه الخطة تسند للشخصيات ذات الخبرة والكفاءة ولذلك كان أكثرهم من الأواسط الأندلسية المنحدرة من

البيوتات وعائلات كانت في خدمة الموحدين سابقا، أو من حصلت لهم تجربة في تسيير شؤون إدارة أخرى من الدول الإسلامية (العبدلي، 2011، ص 146-147)، ومن أشهر حجاب الدولة الزيانية نذكر:

أبو محمد عبدون الحباك: ينتمي إلى أسرة أندلسية عريقة، تولى عدة مناصب كالخطابة

والسفارة و الحجابة (بالعربي، 2012، ص 187)، وكان حاجب يغمراسن بن زيان الذي خاطبه خلفاء الموحدين بذلك، وكان ذو رأي سديد وسياسي ماهر (بن خلدون، 1903، ص 125)، كما اعتقد الأمير الزياني أبو حمو الأول على أسرة ابن الملاح (حميش، 2011، ص 131)، فأعطى مقاليد الوزارة والحجابة والحجابة لمحمد بن ميمون بن الملاح ثم إلى ولده محمد الأشقر، ثم إلى إبراهيم وعمه علي بن عبد الله

يعي بن خلدون: تولى منصب الحجابة للسلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني، نائب عن أخيه عبد الرحمان بن خلدون الذي كتب إليه السلطان الزياني لتولي الحجابة (العبدلي، 2011، ص 332) سنة 769هـ فأرسل إليه الخليفة يعي نائبا عنه لأنه كان قد ترك الجناح السياسي وجعل همه الوحيد المطالعة والتدريس (العبدلي، 2011، ص 332)، وهذا ما أكده في قوله: "وكان أخي يعي قد خلص من اعتقاله ببونة، وقدم وقدم عليه بسكرة فبعثته إلى السلطان أبي حمو نائب عني في الوظيفة، متفاديا عني تجشم أهوالها بما كنت نزعى عن كفاية الرتب وطال علي إغفال العلم فأعرضت عن الخواص في أحوال الملوك، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس

2- الدواوين:

عرفت الدولة الزيانية شبه اكتمال إدارتها منذ نشأتها على يد يغمراسن، فقد وزعت وظائفها على المستوى المركزي ضمن هيئات إدارية مختصة تسمى بالدواوين التي كانت تضم بين زواياها عدد من الموظفين الأندلسيين المختصين كل حسب المهمة التي يكلف بها ومنهم نذكر (العبدلي، 2011، ص 161).

- أبو بكر محمد بن داوود بن خطاب الغافقي: هو من أهل مرسية ذكره ابن مريم بقوله: "نزىل تلمسان من أهل مرسية (ابن مريم، 1908، ص 223)، كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه (ابن مريم، 1908، ص 227)، ورد على غرناطة استعمل في الكتابة السلطانية (حميش، 2011، ص 115)، ثم رجع إلى مرسية، وقد ساءت أحوالها فترحل عنها إلى تلمسان في عهد يغمراسن بن زيان فقربه إليه وجعله صاحب القلم الأعلى في بلاطه (بوعليا، 2011، ص 127)، ثم تولى خدمة الكتابة لولده أبي سعيد عثمان (الطاهر، 2011، ص 12)، والذي يقال عنه أن المستنصر أبي زكريا الحفصي طلبه للكتابة وبعث له أموالا كثيرة لأجل هذا الغرض، لكنه اعتذر ورد له أمواله، فظهر علو شأنه بعد همته عند الخليفة الحفصي. "وهذا ما أكده ابن الخطيب بقوله: "زعموا أن المنتصر أبي عبد الله بن الأمير أبي زكريا (فيلالي، 2007، ص 321) استقدمه على عاتقه في ّورد في استدعاء الكتاب والمشاهير والعلماء، بعث إليه ألف دينار من الذهب العين، فإعتذر عليه المال، وكان أشقى ما مر به المستنصر وظهر له علو شأنه وبعد همته (ابن الخطيب، 1988، ص 421)، وبقي في البلاط الزياني كاتباً (عبدلي، 2011، ص 162) إلى وفاته سنة 636 هـ (حساني، 2007، ص 227)، وقال عنه التنسي نقلا عن ابن الرشيد: "بوفاته انقرض علم الكتابة"

-عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي: هو إشبيلي الأصل (ابن مريم، 1908، ص 252) وفقهه أصولي، مكى بأبي عبد الله أو بأبي العيش، روى ببلده عن أبي بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة وأبي عبد الله بن عبد الحق،

وأبي محمد بن حوط الله، وكان رحمه الله أديب بارع الكتابة، حيث وصفه صاحب نيل الابتهاج بأنه كاتب أصولي في تلمسان.

-أبو محمد بن الغالي: كان كاتب الانشاء في عهد السلطان يغمراسن بن زيان، وقتل في ثورة جند النصر إلى العثور على ترجمة واقبه على الحياة وهذا الرجل انعدمت الوثائق والنصوص التي كتب عن تزويدها بذلك .
عبد الرحمان محمد الملاح: الذي ينتمي إلى عائلة الملاح (بالعربي، 1977، ص 158) الشهيرة الأندلسية حيث تولى هذا الأخير منصب الأشغال عند يغمراسن.

يعي بن خلدون: هو الذي تولى منصب كاتب لديوان الانشاء في عهد أبو حمو موسى- الثاني (عمور، 2002، ص 85)، حيث بقي في منصبه إلى أن استولى السلطان عبد العزيز الميرني على تلمسان سنة 772 هـ، فانظم إليه ورافقه مع أخيه عبد الرحمان ابن خلدون إلى فاس (لحميري، 1975، ص 434)، وفي سنة 776 هـ (عبدلي، 2011، ص 239)، عاد إلى تلمسان وعينه أبو حمو موسى الثاني مرة أخرى في منصب الكتابة (الميلي، 2004، ص 453)، وألف له كتاب بغية الواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، وأيام أبي حمو الشامخة الأوطاد، وبقي في منصبه إلى أن قتل سنة 780 هـ.

3. القضاء:

وكذلك كان للأندلسيين المهاجرين إلى حاضرة تلمسان مهمة في جهاز القضاء ومنهم:

- سعيد بن محمد بن محمد بن محمد العقباني (زهر، 2014/2013، ص 71)، هو الفقيه أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني، ولد بتلمسان سنة 720 هـ. 1360 م (سعيدوني، 2003، ص 363)، وهو إمام وعالم (سعيدوني، 2003، ص 363)، أول نجباء بيته، ذو نبل ونباهة تفنن في العلوم ومعرفة الحساب والهندسة (التنبيكي، 1989، ص 189)، وكان رئيس العلماء والعقلاء، وفقه العلامة خاتم قضاة العدل، ولي قضاء الجماعة بتلمسان ووهران (الحميري، 1975، ص 612) وغيرهم من المناطق، وكانت فترة توليه منصب القضاء ما يزيد عن أربعين سنة (لخضر عبدلي، 2011، ص 175)، حمد الناس عدله وسيرته حتى صار خطيب الجامع الأعظم بتلمسان، وتوفي بها سنة 811 هـ. 1408 م (مخلوف، 1998، ص 361).

-قاسم بن سعيد بن محمد العقباني: يعتبر قاسم بن سعيد العقباني التلمساني من كبار العلماء في عصره، كنيته أبو القاسم وأبو الفضل وكانت والدته بمدينة تلمسان سنة 768 هـ. 1360 م، وتولى منصب القضاء بتلمسان في صغره، روى عنه بابا التنبيكي أنه حصل على العلوم حتى بلغ درجة الإجتهد، وعندما ولي القضاء في صغره رأى أهله في ذريته في كبره، توفي سنة 854 هـ. 1450 م (ابن مريم، 1908، ص 148).

عبد الواحد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني: هو عبد الواحد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني وهو فقيه وقاضي في تلمسان وقد وصف بقاضي الجماعة إلى أن توفي سنة 896 هـ. 1436 م (التنبيكي، 1989، ص 118).

ثالثا: في المغرب الأقصى

1. القضاء:

لم يكن عمل ومنصب القضاء في الدولة المرينية قاص ار على المغاربة فحسب وانما تولى هذا المنصب عدد من قضاة الأندلس نذكر منهم:

.الحسن علي بن عبد الله بن محمد الأنصاري: هو من أصل قرطبي المكثي بابن قرطال، نزيل فاس وكان من رجال الكمال والعلم والعمل ، شارك في عدة علوم، وولي قضاء شاطبة ثم ولي قضاء قرطبة ثم ولي قضاء فاس إلى أن توفي في مراكش ربيع الأول عام 651 هـ الذهبي، 2000، ص 335).

.إبراهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي الإشبيلي: وهو من أهل اشبيلية الذي خرج عن بلدة اشبيلية بعد زحف النصارى إليها، تولى قضاء سبته إلى أن استقل بالمنصب حتى وفاته سنة 716 هـ. 1916م (الحريري، 1985، ص 271)
-أبو عبد الله محمد ابن أحمد القشتالي: وهو نزيل فاس وولي قضاء الجماعة بفاس إلى أن توفي سنة 777 هـ (المالقي النباهي، 1983، ص 128).

.حسن بن عثمان بن عطية التجاني: وهو من أصل أندلسي، نزيل مكناسة وتولى قضاءها وعدد من علامها إلى أن توفي بفاس سنة 788 هـ (التنيكتي، 1989، ص 171).

الخاتمة:

كانت الهجرات الأندلسية تظم في طياتها عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء الذين تولوا أسمى الوظائف في السلطات المغربية، ومن أهم هذه المناصب الحجابة والدواوين والقضاء، وهذا راجع لخبرتهم وبراعتهم في تسيير الشؤون السياسية، ومن أشهر تلك الشخصيات ابن الآبار، وابن سيد الناس والغافقي والغمازي، وعائلة الملاح والعقباني وغيرهم. رغم مساهمة الأندلسيون في ازدهار الحياة السياسية إلا أنهم كانت لهم بعض السلبيات، حيث حاولوا فرض نوع من الوصاية الحضارية على المغرب الإسلامي، كما كثرت الدسائس بين المغاربة والأندلسيين، وبين الأندلسيين أنفسهم مثل ابن الآبار وابن الحسين وابن الحبير وغيرهم.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- عبد الرحمان بن خلدون. () العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مر: خليل شحادة وسهيل وكار. ج.1. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر.
- 2- محمد رزوق: (1991).دراسات في تاريخ المغرب إفريقيا الشمالية شرق، ط 1.
- 3- خالد بالعربي. الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، دراسة تاريخية وحضارية ، ط1. تلمسان-الجزائر. دار الأملعة.
- 4- مختار حساني. موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مدن الشرق، ط 1.ج.1. الجزائر دار الحكمة، ،
- 5- مبارك الميلي. تاريخ الجزائر القديم والحديث. ج.1. الجزائر. مكتبة النهضة الجزائرية.
- 6- نصر الدين سعيدوني. (2003). دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط1. الكويت. دار الغرب الإسلامي.
- 7- إبراهيم حركات. (1918). المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين. ط1 . دار البيضاء. دار الرشاد الحديثة.
- 8- محمد عيسى الحريري. (1987) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني(411هـ 1112م) (849هـ. 1647م)، ، الكويت. دار القلم للنشر والتوزيع.
- 9- حسن علي حسن. (1981). الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين. ط1. مصر. مكتبة الخانجي.

- 10- ابن الخطيب لسان الدين(1974). الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1. تح: محمد عبد الله عنان. القاهرة- مصر. مكتبة الخانجي .
- 11- ابن مريم أبو عبد الله أحمد المميتي التميمساني.(1908).الباستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. تح: محمد بن أبي شنب،الجزائر. المطبعة الثعالبية..
- 12- التنبكي أحمد بابا.(1989). نيل الابتياح بتطريز الديباج. تق: عبد الحميد عبد الله اليرامة. ج1. طرابلس- ليبيا.مكتبة الدعوة الإسلامية.
- 13- الحميري محمد عبد المنعم الصنياعي.(1975). روض المعطار. تح: إحسان عباس. بيروت-لبنان. مكتبة لبنان
- 14- الذبي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان. (2008) تح: بشار غوار معروف. تونس. دار الغرب الإسلامي.
- 15- بالعربي خالد: الدولة الزيانية في عيد يغمراسن دراسة تاريخية وحضارية. 2011. (د.ب.ن). دار الأطعة.
- 16- والد الطاهر(2011). شخصيات تلمسانية أندلسية ومظاهر من الثقافة الاسلامية،(د.ط). (د.ب.ن). دار اليدى.
- 17- حركات إبراهيم. (1978) المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين إلى نياية السعديين، ج1. ط1. دار البيضاء. دار الرشاد الحديثة.
- 18- الحريري محمد عيسى(د.ت). تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني(210هـ. 1213م)210هـ . 1465م). ط1. الكويت. دار القمم.
- 19- حسن عي حسن. (1980). الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ط1. القاهرة. مكتبة خانجي
- 20- حميش عبد الحق (. 2011). سير أعلام تميمسان. ط1. دار التوفيق.
- 22- روبر برنشفيك.(1988). تاريخ إفريقية في العيد الحفصي من القرن 13 إلى نياية القرن 15م، ج1. ط1. تر: حمادي الساحمي. بيروت . دار الغرب الاسلامي.
- 23- سعيدوني ناصر الدين.(2003) د ارسات أندلسية ومظاسر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر. ط1. الكويت. دار الغرب الإسلامي.
- 24- عبدلي لخضر.(2011). التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد. ط1. ايران. ابن النديم.
- 26- عمورة عمار.(2002). موجز في تاريخ الجزائر. ط1. الجزائر. دار الريحانة.
- 27- عنان عبد الله.(1997). دولة الإسلام في الأندلس العصر الرابع نياية الأندلس وتاريخ العرب المستنصرين. ط4. القاهرة –مصر. مكتبة الخانجي.
- 28- فيلالى عبد العزيز. (2007). تلمسان في العيد الزياني دراسة سياسية ،عمرانية، اجتماعية، ثقافية. ج1. (د.ط). الجزائر. موفم لمنشر.
- 29- بوعامر مريم. (2010-2009). الليجرة الأندلسية إلى المغرب الأدنى ودورها في الازدهار الحضاري ما بين القرن 9و13هـ. 15م. أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الاسلامي. جامعة تلمسان. قسم التاريخ وعلم الآثار.

- 30- دمني زيرة. (2013-2014). دور الأندلسيين في المغرب الأوسط عموميا وسياسيا (بجاية تممسان). مذكرة لنيل شياذة الماستر في التاريخ. جامعة ابن خلدون. قسم العموم الانسانية..
- 31- مخلوف محمد. (1949). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج1. (د.ط.). بيروت- لبنان. دار الكتاب العربي.

إهتمامات المؤرخين العرب بالقضية الموريسكية الأندلسية "عبد الجليل التميمي" أنموذجا

The interests of Arab historians in The Moorish-Andalusian cause Abd eljalil Al-tamimi a model

ط.د:بوخالفة محمد شهاب الدين/المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة-/الجزائر

p.s:Boukhalfa Mohamed Chihab Eddine/Higher School of Tetchers-Bouzareah-/Algeria

ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة قضية الموريسكين الأندلسيين كونها قضية تاريخية هامة مست العالم المسيحي والإسلامي معا، كما شكلت ملف دقيق سيطر على مجريات الأحداث التاريخية ومن هنا يلاحظ إهتمام المؤرخين العرب والمستشرقين الأروبيين على حد سواء الموريسكية، ويعد عبد الجليل التميمي من بين أهم الباحثين العرب اللذين إهتموا بدراسة وإحياء الذاكرة الموريسكية، فكان له بالمسألة إنتاج علمي على المستوى الفردي والجماعي في سبيل ذلك، وعلى خلاف الكثير من المؤرخين فهذا الأخير استطاع الخروج بقضية الموريسكين الأندلسيين من حادثة تاريخية جافة الى أحداث تاريخية ذات أهمية بالغة الأثر في الإرث التاريخي والحضاري لهؤلاء الأندلسيين في الوطن العربي

الكلمات المفتاحية: عبد الجليل التميمي. الأندلسيون. الموريسكيون. الوطن العربي

Abstract:

We deal with this study the Moriskine case Andalusian that was Historical case in the Christiane and Islamic world , As formed exact file takes over historical events and promise Abdeljalil El Tamim among the most important examiners he had scientific ghosts in an individual and groups store he managed to get out the rest of moriski

Keywords: Abd eljalil tamimi.Andalusians.Morisco.The arab World.

مقدمة:

شكل موضوع الأندلسيين الموريسكين قضية تاريخية مست العالم المسيحي والإسلامي معا، كما يعد ملف دقيق سيطر على مجريات الأحداث التاريخية خلال القرن السادس عشر والسابع عشر ميلادي. وبالتالي شغل دول الغرب وعلى رأسهم إسبانيا كما شغل المسلمين وخاصة الدولة العثمانية حينها، ومن هنا يلاحظ إهتمام المؤرخين العرب والمستشرقين الأروبيين على حد سواء في زماننا هذا بالمسألة الموريسكية، ويعد عبد الجليل التميمي من بين أهم الباحثين العرب اللذين إهتموا بدراسة وإحياء الذاكرة الموريسكية، فكان له إنتاج علمي على المستوى الفردي والجماعي في سبيل ذلك، وعلى خلاف الكثير من المؤرخين فهذا الأخير استطاع الخروج بقضية الموريسكين الأندلسيين من حادثة تاريخية جافة الى أحداث تاريخية ذات أهمية بالغة الأثر في الإرث التاريخي والحضاري لهؤلاء الأندلسيين في الوطن العربي، وهذا ما سنتناوله في هذا الموضوع الموسوم ب: " القضية الموريسكية الأندلسية في إهتمامات المؤرخون العرب عبدالجليل التميمي أنموذجا"

ومنه طرح الإشكالية التالية: إلى أي مدى ساهمت كتابات المؤرخ عبد الجليل التميمي في إحياء وبعث الذاكرة الموريسكية في الضمير العربي الاسلامي؟

-أولاً: عبد الجليل التميمي وإهتماماته التاريخية:

تعدد وتختلف الرؤى التاريخية ومناحي البحث لدى المؤرخين باختلاف المرجعيات الدينية والجذور الاجتماعية والانتماءات الثقافية والجغرافية، إضافة إلى نوعية التكوين العلمي والمنطلقات الفكرية والسياسية لدى كل باحث، وهنا تجدر الإشارة إلى المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي، الذي يعتبر رائداً من رواد المدرسة التاريخية التونسية وأحد كبار المؤرخين العرب والدوليين، والذي يختلف عن الكثير من المؤرخين في الرؤى التاريخية ومجالات البحث لديه، هذا ما دفعنا إلى محاولة التعرف أكثر على سيرة ومسار التميمي كمؤرخ ومفكر من خلال الإجابة على بعض التساؤلات: من هو عبد الجليل التميمي؟ كيف ماهي إهتماماته التاريخية؟ وإلى أي مدى ساهم في كتابة تاريخ الأندلسيين الموريسكين؟

1: حياته:

1-1: مولده:

ولد عبد الجليل التميمي يوم 21 جويلية 1938م بمدينة القيروان، كان والده رجلاً متديناً محدود الثقافة عاش في مسقط رأسه وسط عائلة وطنية (السعداوي، 2013، ص10) نشأ التميمي بمدينة القيروان هذه المدينة التاريخية التي علمته الكثير من الدروس من خلال تراثها الفكري وتقاليدها أهلها (التميمي، 2004، صص 160-161) عايش دولة الإستقلال ليكون شاهداً على تحولات النظام سياسياً، اجتماعياً وثقافياً (الميزوري، 2013، ص25).

2-1: مساره التعليمي:

تابع عبد الجليل التميمي دراسته الإبتدائية بالمدرسة العربية الفرنسية " école franco arabe"، وأنهى هذه المرحلة بحصوله على الشهادة الإبتدائية (السعداوي، 2013، ص10) وبحصوله على هذه الشهادة التحق بالشعبة العصرية الزيتونية بالقيروان مع مواصلته بالثانوي، وترشح بعدها إلى البروفي وأكمل الجزء الثاني من التحصيل العصري في بغداد والتي استقر بها أربع سنوات ليتحصل بذلك على الإجازة العراقية. (التميمي، 2004، ص161) بعد حصول التميمي على الإجازة العراقية واصل تكوينه للحصول على رسالة الدكتوراه وذلك تحت إشراف روبرت منتران Mantran Robert وهذا مقابل تعلم اللغة التركية من أجل الإستفادة من الأرشيفات العثمانية (التميمي، 2004، ص162) كان عبد الجليل التميمي يأمل بإعداد رسالته حول: "عثمنة إيالات الجزائر، تونس، طرابلس على ضوء المهمة دفترية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر"، إلا أن نزعتة إلى اكتشاف المزيد من الوثائق العثمانية حولت إهتمامه إلى موضوع آخر، وذلك بعثوره على وثائق أخرى شكلت مادة استثنائية من المعلومات عن أواخر العهد العثماني في الجزائر وشخصية الحاج أحمد باي التي تم إهمالها من قبل الباحثين، وبذلك قرر التميمي إنجاز رسالته الموسومة بـ: "باييك الشرق والحاج أحمد باي (1830م-1837م)" والتي أعدها باللغة الفرنسية (التميمي، 2006، صص 24-23).

يمكن القول أن هذا الأخير مولده القيرواني وتعليمه الزيتوني والعصري بدءا بتونس فالعراق ثم تركيا وفرنسا وكذا الولايات المتحدة الأمريكية استقر به الأمر إلى حدق لغته الأم (اللغة العربية)، وإمامه بعدة لغات أخرى كالتركية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية وتخصصه في التاريخ الحديث، كل هذا حفز الرجل بتصعيد سقف طموحاته وأن تكون له نجاحات على المستوى الفردي والجماعي.

3-1: مسؤولياته ووظائفه الرسمية:

شغل التميمي العديد من الوظائف الرسمية بداية بأستاذ كرسي التاريخ الحديث والمعاصر بالجامعة التونسية بينما أشرف على العشرات من الرسائل الجامعية لمؤرخين تونسيين وعرب نال بها أصحابها شهادة الماجستير والدكتوراه. أشرف على إدارة الأرشيف التونسي في الفترة الممتدة ما بين 1970م إلى 1972م، كما تولى مسؤولية المعهد الأعلى للتوثيق من سنة 1982م إلى 1988م (بقادي، 2017، ص150).

يعود له الفضل في إنشاء اللجنة العربية للدراسات العثمانية التي ترأسها منذ 1982م، بالإضافة إلى أنه كان من المؤسسين الأوائل للجنة العالمية للدراسات الموريسكية الأندلسية التي ترأسها منذ سنة 1983م (بقادي، 2017، ص151)، وعرفانا بمجهوداته ومساهمته في إثراء المعرفة التاريخية تحصل التميمي على العديد من الأوسمة منها: درجة الدكتوراه الفخرية سنة 1997م (السعداوي، 2013، ص13).

2: عبد الجليل التميمي والكتابات التاريخية

1-2: اهتماماته التاريخية:

كانت للتميمي توجهات أساسية في إثراء الدراسات التاريخية ليس فقط في تونس بل والبلاد العربية وخاصة البلاد المغربية، فقد اهتم بدراسة تاريخ المغرب العربي وسعى إلى تدوينه بطريقة علمية ومنهجية كما كان دائما يدعو المؤرخين والباحثين إلى الاهتمام بالفترة العثمانية، وذلك من خلال دراسة الوثائق الأرشيفية، والتي تعد مادة أساسية حول الولايات العربية في العهد العثماني، وقد أكد التميمي على ضرورة الانفتاح على مختلف اللغات والتشبع بقواعد البحث العلمي التي تعد سلاحا مهما في يد المؤرخ العربي (التميمي، 1979، ص ص 7-10).

أولى التميمي اهتمامه بالوثائق والأرشيفات العثمانية وإستغل هذه الوثائق الموجودة بإستانبول محللا مضامينها التي أبرزت الحقبة الزمنية التي كانت فيها الولايات العربية جزءا من الدولة العثمانية، وبالتالي فقد كانت حولت اهتمامه منذ سنة 1966م إلى التخصص في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، وذلك أثناء إعداد رسالته الدكتوراه (التميمي، 2010، ص9).

وبالتالي فإن الأهمية التاريخية للوثائق العثمانية ولدت لدى عبد الجليل التميمي الاهتمام بتاريخ المغرب العربية وأكسبته حتمية إحداث منهجية جديدة لكتابة تاريخ المغرب العربي خلال العهد العثماني، هذا الأمر دفعه إلى تأسيس العديد من المجلات (التميمي، 2007، ص72).

توجه إهتمام عبد الجليل التميمي من التاريخ العثماني إلى التاريخ الموريسكي عند إكتشافه لوثيقة في إستانبول هذه الوثيقة هي رسالة وجهها أهالي غرناطة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541م يطلبون نجاته، لكونهم أفتكت منهم أملاكهم وأجبروا على تبني النصرانية، وبالتالي فإن شغف التميمي إلى إكتشاف المزيد من الوثائق جعلته يصل إلى جل الوثائق التي وجهها السلاطين العثمانيون إلى دوق البندقية وإلى بايلرباي الجزائر وإلى باي تونس، وكانت هذه الرسائل في منتهى الأهمية، إضافة إلى إهتمام التميمي بالدراسات العثمانية والموريسكية فقد أولى إهتمامه بقضايا تاريخ الزمن الراهن وساهم في تدوين الذاكرة الوطنية.

2-2:-إنتاجه الفكري:

تعددت مناحي البحث والتأليف لدى عبد الجليل التميمي بتعدد إهتماماته العلمية، فقد بلغ إنتاجه حوالي خمسة وثلاثين كتاب تنوع بين التاريخ الحديث والمعاصر، وسوف نقتصر في بحثنا هذا على نماذج من مؤلفاته التي تبرز مدى اعتماده على الوثائق الأرشيفية ولعل أبرزها في التاريخ الموريسكي نذكر:

أ-الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين:

صدر هذا الكتاب سنة 1989م، نشر عن مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات بزغوان، يضم 125 صفحة، قسم إلى خمسة دراسات تناول فيها التميمي موضوعا جديدا يتعلق بسياسة الدولة العثمانية تجاه المسألة الموريسكية، كان الهدف من هذا التأليف خدمة تاريخ الأمة بتقديم الجديد حول تاريخ الموريسكيين (يحياوي، 2004، ص41)، وهذا ما يؤكد التميمي في قوله: "ونحن نأمل بتقديم هذه الدراسات التاريخية أن نكون قد خدمنا تاريخ أمتنا وقربنا كثيرا من قضايا وإشكاليات هذا الموضوع إلى العرب والمسلمين الذين لا يعلمون إلا الجزء اليسير عن تاريخ الموريسكيين الأندلسيين...". (التميمي، 1989، ص6)

ب-دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي الأندلسي:

صدر هذا الكتاب سنة 2000م، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، يحتوي على 236 صفحة، قسم إلى قسمين القسم العربي وله سبعة دراسات أما القسم الفرنسي يضم خمس دراسات تناول فيها صاحبها مأساة الموريسكيين بالأندلس وموقف الدولة العثمانية تجاه طرد الموريسكيين، كان الهدف من تأليف هذا الكتاب تعزيز علم الموريسكولوجيا وفي هذا الصدد يقول التميمي: "هاته الدراسات السبع التي جمعناها اليوم في كتابنا الجديد حول ملف الموريسكيين لأندلسيين تهدف إلى تعزيز حقل الموريسكولوجيا ومدى مساهمة المؤرخين المغاربة في جدلية التأطير التاريخي عندما تمكنوا ووظفوا أرصدة جديدة من الوثائق العربية التركية (التميمي، 2000، ص8).

ج-تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها:

صدر هذا الكتاب سنة 2011م، عن مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، يتألف من 266 صفحة قسم هذا الكتاب إلى ثلاثة دراسات باللغتين العربية والفرنسية تناول فيها التأثير الحضاري للموريسكيين بإيالة تونس وإبراز

الحصيلة والتوجهات المستقبلية للدراسات الموريسكية وتجاهل السلطات الإسبانية والعربية للملف الموريسكي، حيث يؤكد التميمي على ضرورة رد الاعتبار لهؤلاء الموريسكيين (التميمي، 2011، ص ص 11-14).

لوي كاردياك (LouisCardailiac)، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية (1492م) مع دراسة عن الموريسكيين بأمريكا، تع: عبد الجليل التميمي، ط1، 1983 م،

3: مؤسسة التميمي مركز زائد للدراسات التاريخية:

1-1: المؤسسة وإنتاحها الفكري حول القضية الأندلسية:

ساهم عبد الجليل التميمي في بعث مؤسسات ذات طابع بحثي، حيث أنشأ مؤسسة بحث دولية بمبادرة شخصية سنة 1986م أطلق عليها اسم: "مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات". ليصبح هذا المركز يحمل إسم: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات" منذ أفريل 1995 وقد أنشئت هذه المؤسسة بمدينة زغوان ثم إنتقل مقرها إلى تونس قبل 2004م (الأرناؤوط، 1996، ص2).

كما تشرف هذه المؤسسة على ثلاث دوريات متخصصة كما تنشر العديد من الكتب والدراسات الأكاديمية في عدة تخصصات بلغ إنتاجها في التاريخ الموريسكي الاندلسي حوالي 36 كتابا.

2-1: الدوريات:

1-2-1: المجلة التاريخية المغربية:

أنشئت هذه المجلة في أواخر سنة 1973م يديرها الأستاذ عبد الجليل التميمي (التميمي، 1979، ص72) وقد صدر أول عدد منها في شهر جانفي سنة 1974 و كان صدورها في ظروف صعبة نوعا ما، تميزت بانتظام صدورها وبأسلوبها العلمي الموضوعي في معالجة القضايا التاريخية والحرص الشديد على تأطير المعرفة التاريخية (التميمي، 1984، ص ص 5-8).

2-2-1: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية:

أنشئت هذه المجلة في أواخر سنة 1990م، خصصت للدراسات العثمانية فتحت صفحاتها لكل المؤرخين المهتمين بهذه الدراسات وكان الهدف منها أن تكون تنويعا للحركية التاريخية والبحثية (التميمي، 2002، ص7). شكل صدور هذه الدورية منطلقا جديدا ليس فقط للدراسات العثمانية وإنما لفتح رؤية وتصور إيجابيين لجيل عربي جديد (التميمي، 2002، ص7).

3-1: المؤتمرات:

أشرف التميمي على تنظيم العديد من المؤتمرات، تنوعت وإختلفت مضامينها، ركزت أساسا على التاريخ العثماني في الإيالات العربية أثناء العهد العثماني (التميمي، 2002، ص7)، وكذا الدراسات الموريسكية الأندلسية، إنطلاقا من تأسيس

اللجنتين العربية للدراسات العثمانية واللجنة العالمية للدراسات الموريسكية الأندلسية سنة 1982م (الموزوري، د، ت، ص 24) وهنا سوف نقتصر على عرض بعض النماذج من هذه المؤتمرات الخاصة بالقضية الأندلسية الموريسكية:

1-3-1- تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية (1492م-1609م):

هو حصيلة أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات الموريسكية - الأندلسية المنعقد في زغوان التونسية بتاريخ 10 مارس 1987م، جمعه وقدمه عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، 1991م، يتكون من 199 صفحة، حضره باحثين من مختلف الجنسيات تضمن العشرات من البحوث التي وظفت مصادر أرشيفية جديدة ومخطوطات أخمياضية بمختلف اللغات، نشرت كل الدراسات باللغة العربية بعد نشرها باللغتين الفرنسية والإسبانية تمحورت مجمل الدراسات في هذا المؤتمر حول تعلق الموريسكيين بالدين وتطبيقهم للشعائر الإسلامية في ظل التنكيل الكاثوليكي، ويقول التميمي فيما: " إن مجمل البحوث المنشورة اليوم تترجم عن مشاغل المؤرخين المهتمين بالفترة الموريسكية في عدد من الجامعات ومراكز البحوث الدولية التيوظفت مصادر أرشيفية جديدة ومخطوطات أخمياضية وقد تميزت بموقف ونظرة موضوعية هامة تجاه هذه المسألة التاريخية الإسبانية - العربية بالتحليل والدرس ..."(التميمي ، 1991، ص6)

1-3-2: العائلة الموريسكية النساء والأطفال :

هو حصيلة المؤتمر العالمي السابع للدراسات الموريسكية المنعقد بزغوان بتاريخ 16 إلى 20 ماي 1995م، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات 1997م، جمعه وقدمه عبد الجليل التميمي ، يتكون من 437 صفحة شارك، في هذا المؤتمر العالمي عدد هام من الباحثين المهتمين بالدراسات الموريسكية من مختلف البلدان وضم عشرات البحوث باللغة العربية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية ، مجمل هذه البحوث تناولت الحياة اليومية للمرأة الموريسكية ودورها في الحفاظ على الموروث الموريسكي ، كما درست الظواهر المتعلقة بالزواج والطلاق والسحر وغيرها أما بالنسبة للأطفال فقد ركز على مسائل متصلة بهم تناولت الديمغرافيا والاسترقاق والتعميد القسري في المجتمع الكاثوليكي الإسباني ، اعتمدت هذه البحوث في مجملها على مصادر مهمة كأرشيف محاكم التفتيش والمخطوطات والوثائق والمراسلات (غانم، 1998، ص 87-88)

وما يمكن قوله أن أغلب أعمال هذه المؤتمرات أصبحت اليوم بمثابة مرجع أساسي لكل باحث في التاريخ الحديث والمعاصر وحتى قضايا الزمن الراهن، وكانت بذلك الأداة التي نقلت البحث التاريخي العربي الإسلامي من محيطه العربي - العربي الضيق إلى أبعاده الدولية، لتساهم بشكل كبير في تأطير المعرفة التاريخية على الصعيد العربي والدولي .

من خلال ما سبق ذكره نستشف أن سيرة وشخصية المؤرخ والمفكر عبد الجليل التميمي قد ساعد على بروزها أكثر من عامل وأزيد من توجه، لتعدد بذلك توجهاته واهتماماته بالرغم من ميوله البارز صوب الكتابة التاريخية ، كما كان له العديد من التأليف الفردية والجماعية، وشخصيته تعدت الحدود الإقليمية بحيث لم يحصر إنتاجه العلمي محليا وإنما وسع دائرة الكتابة والبحث لديه خاصة في تاريخ الولايات العربية أثناء العهد العثماني والتاريخ الموريسكي، فكان بذلك

مؤرخا ومفكرا حاملا لهموم الأمة العربية الإسلامية، كل هذا من خلال مؤسسته الخاصة والتي أصبحت أداة مرجعية أكاديمية للباحثين من مختلف فروع المعرفة .

ثانيا: المقاومة الموريسكية للتنكيل الكاثوليكي في كتابات عبد الجليل التميمي:

إن التاريخ الموريسكي الأندلسي كان ولا يزال محل اهتمام المؤرخين والباحثين على إختلاف إيديولوجياتهم فيعد عبد الجليل التميمي من بين هؤلاء المؤرخين الذين خصصوا جزء كبير من كتاباتهم حول هذا الموضوع، وهو الذي اعتمد في كتاباته حول تاريخ الموريسكيين على الأرشيف خاصة منه العثماني.

1- الموريسكيون واقع ومحنة:

1-1:-سقوط غرناطة وبداية المحنة الموريسكية:

يرى عبد الجليل التميمي أن موضوع الموريسكيين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م آخر معقل المسلمين بالأندلس، يعد أحد المواضيع التاريخية الشائكة والمعقدة بالنسبة للتاريخ الإسلامي والإسباني على حد سواء(التميمي، 1988، ص 91)

في البداية يحصر التاريخ الموريسكي ما بين سقوط غرناطة سنة 1492م حتى صدور قرار الطرد النهائي، ويقول عن الموريسكيين هم: "الذين بقوا بعد سقوط غرناطة وجابهوا السلطة النصرانية بشكل رهيب جدا وأفتكت أراضيهم وأجبروا على التعميد أي على تبني الديانة المسيحية" ويطلق على هذه الفترة تسمية "المظلمة" التي لحقت بالمسلمين

باعتبار الدين "هو الضمير الوطني للشعب الإسباني خلال القرن 16 م" على حد قول التميمي، فإن سقوط غرناطة قد ألهب انتصار الإسبان وحفزهم على محاربة الإسلام أينما كان وخاصة في أرضهم، ألم تكن السياسة الخارجية لفرديناند تدعو إلى إقامة السلم بين المسيحيين وإعلان الحرب على الكافرين(التميمي، 1978، ص ص 6-8).

2-1: جهود العثمانيين في إنقاذ مسلمي الأندلس :

يعد المشكل الموريسكي كما ذكر عبد الجليل التميمي أحد المعطيات الثابتة التي سيطرت على القرن السادس عشر ميلادي في البحر المتوسط، في حين أن تأثيرها على البلاد الإسلامية كان أشد من غيرها على رأسها الدولة العثمانية ما جعله يطرح السؤال التالي: ما موقف العثمانيين تجاه المسألة الموريسكية؟

ويجب ويؤكد أن الباب العالي كان على علم تام بحيثيات المأساة الأندلسية الموريسكية من خلال عديد الوسائط الموجهة من الموريسكيين أنفسهم إلى رجال الدولة العثمانية(التميمي ، 2006، ص70)، وذلك عبر العديد من السفارات فكام رد السلطان ببايزيد الثاني بإرسال أسطول عثماني إلى السواحل الإسبانية(التميمي ، 1989، ص 11) ويؤكد التميمي على أن معرفة حقيقة الجهود العسكرية للدولة العثمانية لصالح هؤلاء الموريسكيين مربوط بشكل كبير بتبعية الجزائر للباب العالي(التميمي ، 1989، ص15) كما يرى التميمي أن للأخوين عروج وخير الدين دور بارز في تعجيل الأحداث

السياسية خلال القرن 16م، من خلال حملتهما من أجل إنقاذ مسلمي الأندلس ونجدة الجزائر من جهة أخرى (التمييزي، 1976، ص 117) وعلى حد قول التمييزي فإن المحطات الجغرافية الخاصة بغرب البحر الأبيض المتوسط ساعدت العثمانيين على القيام بدور المدافع والمنقذ للعديد من الموريسكين (التمييزي، 2011، ص 73).

إلا أن هناك من يقول أن مسلمي الأندلس لم يتلقوا أي مساعدة من الدولة العثمانية (سامح إتر، 1989، ص 225) في حين يعارض التمييزي هذه الفكرة و يؤكد أن علج علي باشا واصل مهمة الدفاع عن الموريسكين والذي حسبته يعتبر من أكبر المحاميين والمدافعين عن هؤلاء كما كان يقدم المعلومات حول هذا الملف للسلطات العثمانية (التمييزي، 2007، ص 109).

وفي هذا المنطلق يقول عبد الجليل التمييزي "....على المهتمين بهذا الملف أن يأخذوا بعين الاعتبار الوضع الجغرافي السياسي للمتوسط الغربي ورهاناته وعلى الأخص من ذلك عدم استطاعة الدولة العثمانية أن تفعل أكثر من ذلك عسكريا لتقديم الدعم العسكري الفاعل في فضائهم الترابي الأندلسي...." (التمييزي، 2006، ص 72).

3-1: دور المرأة والطفل في الحفاظ على الموروث الموريسكي:

لقد نجحت محاكم التفتيش في تضيق الخناق على الموريسكين ولاحقتهم في قراهم ومدنهم ومنازلهم وعملت على ضرب العائلات الموريسكية نفسها، وشتت وحدتها الداخلية وقضت تدريجيا على هويتهم ولغتهم وأضعفت إسلامهم نتيجة الملاحقات التي مورست عليهم (التمييزي، 2000، ص 77). وبالرغم من التنكيل الكاثوليكي كان للمجموعات الموريسكية مساهمة فاعلة ودور بارز في توسيع جهات المقاومة وما يبرز ذلك مقاوماتهم بطولاتهم من خلال تسجيلهم للمئات من الإنتفاضات (رزوق، 1998، ص ص 92 95)، كما لعب الفقهاء دورا طلائعيا في شد أزرا الموريسكين و تلقينهم وتذكيرهم بقواعد دينهم وتعاليمه وكذلك دور المرأة هي الأخرى كان عنصر فاعل ومحرك لتلك المقاومة باعتبارها أحد الرموز الصاعدة للحفاظ على سلامة العقيدة بل يجب القول حسب التمييزي أن هذه المرأة بطلة لأنها أكثر إصرار ومقاومة في وجه محاكم التفتيش فعوضت بهذا النقص الحاصل للزعماء الروحانيين لتتحمل بكل مسؤولية دورها كزعيم دون جدال (التمييزي، 2000، ص 78) فقد كانت هذه المرأة زعيمة فشكلت بهذا جزء لا يتجزأ من الرهانات والمعارك كما لعبو دور كبير في سبيل الرشاد والوعظ كما دافعت هي الأخرى عن التقاليد الإسلامية بحكم شدة وعيها الحضاري وإدراكها برهانات محيطها الحضاري (التمييزي، 2000، ص 57).

في حين نشأ الطفل الموريسكي منذ صغره على الولاء الكنسي فسخرت كل الإمكانيات لإنجاح عملية التبني الإندماجية، فكان هؤلاء الأطفال يختون خفية في حين أن عربته كانت ضعيفة بسبب عدم السماح له بتعلم اللغة العربية و ذلك بحرق المئات من المخطوطات وغلق المدارس المكاتب والمعاهد و منع تخاطبهم بلغة الضاد (التمييزي، 2010، ص ص 21-24).

4-1: اللغة والأدب الألخميادور رمز للهوية الإسلامية:

لقد كان الموريسكيون هدفاً لكراهية شاملة من طرف رجال الدين ومحاكم التفتيش حيث ضيقوا عليهم الخناق وقطعوا عنهم الطريق، وافتكوا منهم مقومات حياتهم، فأصبحوا بذلك في أواخر القرن السادس عشر يجهلون اللغة العربية ويتكلمون اللغة القشتالية، وهذا ما يفسر وجود عدد من المخطوطات في العالم حررت بالأحرف العربية ولكن باللغة القشتالية (التميمي ع، 1989، ص 61)، وهو ما اصطلاح عليه الأدب الألخميادو (هلايلي، 2010، ص ص 165 - 166)، وهو أدب أعجمي لا يفهمه إلا من كان عارفاً للغة القشتالية وهو مكتوب بحروف عربية، وهذا ما تؤكد لوتي لوبات بارلت قائلة: "... إن أول ما يجلب الانتباه في هذا الأدب الذي لا يزال مشتت في مختلف المكتبات سواء كانت الإسبانية أو الشرقية أو الأوروبية هو طابعه الهجين والسري في نفس الحين، فقد كتب هذا الأدب باللغة القشتالية أو البرتغالية أو البلنسية ولكن مستعملة في ذلك الحرف العربي وهي ظاهرة أدبية لا يستهان بها..." (لوتي، 1990، ص ص 8-9).

تركزت في هذا الأدب الألفاظ والمفاهيم الدينية والعربية بشكل عام، وهو ذو طابع تعليمي يغلب موضوعاته الطابع الديني والتشريعي، يستهدف نشر أسس الشريعة والعقيدة الإسلامية والمحافظة عليها بين الموريسكيين، لذلك اعتبر لأدب الألخميادو بمثابة انقلاب إجباري وقع للموريسكيين في نهاية القرن السادس عشر حيث وجدت به حقائق للصراع الدائر بين الموريسكيين والمسيحيين (هلايلي، 2010، ص 156)

لقد ارتكزت محاور هذا الأدب بصفة عامة على المواضيع التالية: الكتابات الدينية، الأساطير والقصص، الأحاديث والفقه، فالكتابات الدينية شكلت قسماً هاماً لهذا الأدب حيث كان الهدف الأساسي منه هو المحافظة على التعليم الديني للمجموعة الموريسكية، والذي ينص على التعاليم الإسلامية الخمسة وشرح التفسير وحفظ الآيات القرآنية وأن انتشار الأساطير والقصص ضمن المجموعة الموريسكية كان القصد منه البحث عن الإيمان بالإسلام وبنشأته (بولحليب، 2020، ص 36).

أما اللغة فقد استطاعت محاكم التفتيش محاربة الموريسكيين وذلك بحرمانهم من استعمال اللغة العربية (التميمي، 2007، ص ص 114-117) من خلال تشديد الحصار على هؤلاء الموريسكيين ومنعهم من استعمال اللغة العربية، وفي ذلك الوقت أصبحت اللغة العربية أداة مهمة للمجابهة بين الأقلية المهتدة بضياح ذاتيتها والمجتمع المهيمن الذي يسعى إلى دمجها مستعملاً في ذلك كل الوسائل المتاحة، وقد اكتسبت هذه اللغة صفة الرمز والمرجع اللغوي للعالم العربي الإسلامي الثقافي والروحي وشكلت بذلك مصدراً وثائقياً أصلياً وثمانياً (التميمي، 2011، ص 137).

2- الموريسكيون بين الطرد النهائي والبقاء:

1-2:- الطرد النهائي سنة 1609م:

لقد كان وراء قرار الطرد النهائي لمسلمي الأندلس أسباب عديدة إلا أن السبب الديني قدم عليها جميعاً.

أما عبد الجليل التميمي يصف قرار الطرد الذي أصدره فليبي الثالث سنة 1609م بأنه الحلقة المكتملة لمسلسل الإقصاء الديني، الاجتماعي، الثقافي، الحضاري، والاقتصادي الذي مارسه السلطنة الإسبانية يومئذ بكل همجية وقسوة تجاه الموريسكيين (التميمي، 2010، ص24) كما يؤكد على أن التهجير تم في ظروف يستحيل على الباحثين اليوم التعبير عنها بأمانة ودقة لما حفت به من فظاعة وظلم متعمد، ومنع الموريسكي حتى من حمل ثروته وماله أو بيع أملاكه ولو بأبخس الأثمان، بل أن فليبي الثالث قد حرم شراء دورهم وأملاكهم من قبل الإسبان وعوقب من يخالف ذلك (التميمي، 2011، ص50)

وعلى حد قول التميمي فإن مأساة الطرد النهائي لا تقل فظاعة عن مأساة مصيرهم منذ سقوط غرناطة، بل أن الملابس الرهيبة لهذا القرار تتجاوز حدود الإدراك المنطقي فقد ترك البعض أثناء عملية التهجير عبر السفن الإسبانية في قرى مهجورة دون تكويل وذخيرة وتم الإستيلاء على مدخراتهم ومات أكثرهم في هذه الملابس (التميمي، 2010، ص25).

يمكن القول أن عملية الطرد النهائي كانت ولاشك نكسة خطيرة بالنسبة للموريسكيين والعالم الإسلامي، إلا أننا لانستطيع أن نؤكد أنها كانت انتصار لإسبانيا الكاثوليكية والتي بقرار الطرد أكدت عجزها عن إجتثاث الإسلام من دارها.

2-2: وضع الإسلام والمسلمين بعد 1609م:

استمر الوجود الإسلامي في إسبانيا أكثر من تسعة قرون متتالية وكان هذا الوجود مصحوب بقوة سياسية وعسكرية خلال ثمانية قرون الأولى، من فتح الأندلس 711م إلى سقوط غرناطة سنة 1492م، ليصبح هذا الوجود فيما بعد متمثلاً في مجموعات كبيرة من المسلمين حملت عدة تسميات منها المدجنين أولاً ثم الموريسكيين فيما بعد هؤلاء الذين خضعوا لاضطهاد المسيحية حتى صدور قرار الطرد النهائي سنة 1609م.

السؤال الذي يفرض نفسه عند عبد الجليل التميمي: هل استمر الوجود الموريسكي الأندلسي بإسبانيا بعد الطرد النهائي سنة 1609م؟ نعم استمر الوجود العربي الإسلامي في جزء أساسي من المجتمع الإسباني حياً متفاعلاً في السلوك والعقلية والسمات الفيزيولوجية وطريقة الهندسة البيئية نفسها (التميمي، 2010، ص25)

طرد الموريسكيين سنة 1609م وبقي كثير منهم يعيشون في إسبانيا بطريقة أو بأخرى لأسباب عائلية ومهنية عديدة وقد اكتشف المؤرخ الإسباني رافائيل قرسيا أن خمسة من أكبر قساوسة غرناطة في أهم كنائسها كانوا يمارسون الدين الإسلامي سرا كان ذلك سنة 1728م، وقد علمت محاكم التفتيش وتم حرقهم أحياء داخل كنائسهم (التميمي، 2011، ص15)

يذهب التميمي إلى أبعد من هذا و يؤكد أن السفارة الفرنسية بإستانبول شهدت على وصول عدة عائلات موريسكية في الربع الثاني من القرن 18م إلى الباب العالي، كما أن عدد آخر من الإداريين والعسكريين الإسبانين أنفسهم كانوا موريسكيين أصلاً في أواخر القرن 18م (التميمي، 2000، ص80)

يرى التميمي أن تهجير الموريسكيين بشكل تام أمر يكاد يكون مستحيلا فالأطفال الصغار لم يهجروا وآلاف أخرى تعمدت البقاء في إسبانيا (التميمي، 2000، ص80) وبقاء الدم الموريسكي الموجود حاليا في إسبانيا وبلنسية يؤكد بقاء الكثير من العرب، ومن الصعب اعتقاد أن إسبانيا برغم ما ارتكبتته من وسائل مفرقة في الإجماع قد قضت نهائيا على آثار الأمة الإسلامية، فإنه من المستحيل القضاء على آثار السلالات البشرية

انطلاقا مما سبق ذكره يمكن القول أن عبد الجليل التميمي قد غطى الحقبة الموريسكية من سقوط غرناطة إلى غاية الطرد النهائي، وما بعده بالرغم من تركيزه على الجانب السياسي والديني فيها، وهو راجع إلى نمط السياسة الذي اتبعته إسبانيا تجاه الموريسكيين خلال القرن 16م و17م، حيث كان الدين العامل والمحرك الأول لمحاربة هؤلاء الموريسكيين في دينهم وهويتهم كما أن التميمي على خلاف الكثير من المؤرخين حاول أن ينصف الدولة العثمانية في مواقفها تجاه سقوط غرناطة وقرار الطرد النهائي واستحالة المواجهة العسكرية خلال القرنين 16 و17م، انطلاقا من الظروف السائدة في غرب المتوسط من جهة وانشغال الدولة العثمانية في جهات أخرى

كانت البداية لهذه المظلمة أو المحنة الموريسكية بسقوط غرناطة حيث انتهجت إسبانيا المسيحية سياسة مفادها القضاء تدريجيا وبصورة جذرية على كل مظاهر الإسلام حيث طغت العواطف الدينية على منطق العقل وأثرت بشكل كبير في كل القرارات السياسية. (التميمي، 1989، ص27)

بذلك أختزلت إسبانيا بنود معاهدة تسليم غرناطة بين أبي عبد الله الصغير وفرديناند وإيزابيلا 2 بتاريخ 25 نوفمبر 1491م، والتي نصت أساسا على حرية ممارسة الشعائر الإسلامية والحفاظ على ممتلكات وعادات أبي عبد الله ورعيته، ويقال أن أبو عبد الله خرج يبكي وينوح من غرناطة وأمه عائشة الحرة تقول له: "... أبك مثل النساء ملكا ضائعا لم تحافظ عنه كالرجال." (المدني، دت، ص44)

قد يتناقض ويتقاطع رأي عبد الجليل التميمي مع مؤرخين آخرين خاصة منهم الغربيين في هذا الصدد إلا أن ماثيو كار يوافق التميمي ويقول: " كان الملك الكاثوليكيان ملتزمين ظاهريا بوجود إسلامي دائم في مملكة غرناطة المفتوحة حديثا ... لكن ثمة شكوك كثيرة فيما إذا كانت هذه التدابير قد أريد لها حقا لن تدوم..." (كارم، 2013، ص ص 141 - 142)

جزم عبد الجليل التميمي أن هذه السياسة تهدف إلى التطهير العرقي واقتلاع عرق عمر أكثر من تسعة قرون بالرغم من أن أبا عبد الله آخر ملك على غرناطة وافق على أن يسلم لهم المدينة شرط أن يحترموا للعرب دينهم ولغتهم وتراثهم ولكن بعد سنتين تنكروا لكل هذه الوعود وفرضوا على الموريسكيين إما التعميد قسرا وإما المغادرة (التميمي، 2011، ص62)

ثالثاً: عبد الجليل التميمي من التأريخ إلى تبني القضية الموريسكية:

1: الذاكرة الموريسكية في الكتابات العربية

1-1- العرب والتاريخ الموريسكي:

لا شك أن قضية الموريسكيين التي استقطبت اهتمام المؤرخين منذ العصور الحديثة، مازالت تشد العديد منهم اليوم إلى دراسة جوانب كثيرة لهذا المشكل المعقد، وعلى الرغم من تنوع وثراء عدد من الدراسات التاريخية المنهجية التي ظهرت مؤخراً، إلا أننا ما نزال نشعر حيال هذا الموضوع بالحاجة إلى تعميقه بالعمل على الوثائق العربية والعثمانية وكذلك الإسبانية وغيرها (التميمي، 1977، ص7)

يتميز عبد الجليل التميمي نظرة خاصة بالنسبة للتاريخ الموريسكي عند العرب، فعلى الرغم من دقة الموضوع وخطورته مازلنا نهمل الكثير عنه ويربط التميمي هذا بعدة أسباب تذكر منها:

أولاً : إن الفترة الحضارية الأندلسية قد ملأت نفوس الناس اعتزازاً، باعتبارها إحدى الحلقات الأساسية الفاعلة والمؤثرة في فلسفة الحضارة العربية الإسلامية فقد منحتنا الأندلس عن طريق مخلفاتها أفضل القيم وأخلدها، وهذا ما جعل المؤرخين والباحثين يتعدون عن دراسة مأساة الأندلس ونهايتها (التميمي، 1989، ص49)

ثانياً: كذلك العاملين في حقل الدراسات الأندلسية للفترة السعيدة عديدون وقد غطوا بذلك مختلف الأوجه السياسية والأدبية منها، وهذا خلافاً لفترة ما بعد السقوط، حيث لا نجد سوى القلة النادرة من الباحثين تعد على الأصابع وكتابتهم نادرة ولا يعرف عنهم الكثير وهذا ما زاد الموضوع إشكالا وغموضاً (التميمي، 1988، ص91)

ثالثاً: إن إهتمامات مراكز البحوث وأقسام التاريخ بجامعة العالم العربي بهذا الموضوع ضعيفة إن لم تكن مفقودة تماماً، وشبكة المعلومات السائدة قديمة نسبياً، وهذا بحكم عدم المواكبة والاطلاع الدقيق على الدراسات التاريخية الدولية الخاصة بهذا الموضوع (التميمي، 1989، ص51)

رابعاً : إذا كان الباحثون والمؤرخون الغربيون والأمريكيون وبعض المغاربة محظوظين بالاحتكاك المباشر بالمصادر الأرشيفية التابعة لمحاكم التفتيش أو العدول الإسبانية، فهناك باحثين أقل حظاً يسعون للعثور على بعض الوثائق النادرة تركية كانت أو عربية، بينما في الطرف المقابل عشرات الباحثين المتخصصين في الفترة الموريسكية حيث تعددت مراكز البحوث في أوروبا وأمريكا، وأنتجت مئات الدراسات استناداً إلى أرصدة أرشيفية في إسبانيا والبرتغال (التميمي، 1988، ص91)

يذهب التميمي إلى أبعد من هذا ويرى بأن التاريخ الموريسكي قد غيب في عديد من المستويات بدأ بكتب المناهج المدرسية على مستوى العالم العربي الإسلامي بل، وحتى في التعليم العالي الذي أبرز ضالة المعلومات الصحيحة بل وجب القول عدم توفرها تماماً لدى الرأي العام العربي الإسلامي، الذي يجهل حيثيات هذه الفترة إلا بالقدر القليل الذي يذكر بتفاصيل المأساة الموريسكية الأندلسية (بولحليب، 2020، ص46)

بالرغم من هذا فإن التميمي يرى بأن هناك جيلا جديدا من المؤرخين العرب انكب هو الآخر على تأطير أكاديمي لعلم الموريسكولوجي، وهذا بفضل استنطاقه لرصيد الوثائق الأوروبية والعربية وخصوصا المخطوطات الألفمبادية الموجودة في عدد المكتبات العربية والأجنبية(التميمي، 1998، ص 53)

2-1: عبد الجليل التميمي والأنتاج العلمي العربي حول التاريخ الموريسكي:

لدى عبد الجليل التميمي نظرة خاصة في تقييم الإنتاج العلمي العربي الذي تناول التاريخ الموريسكي ومن ملاحظاته نذكر:

- أن الدراسات العربية في هذا المجال إعمدت بالدرجة الأولى على مراجع إسبانية معروفة والتي نشرت منذ فترة طويلة وبذلك فإن الإعتماد عليها بشكل كلي وعدم إثرائها بمعلومات جديدة تؤدب بالسلب على تطور المعرفة التاريخية حيال الملف الموريسكي ورغم ذلك فقد أدت دور إيجابيا في التعريف بالموضوع لدى الرأي العام الإسلامي(التميمي، 2000، ص12)
- إن المؤرخين العرب المشهورين لم يهتموا بالفترة الموريسكية(1492م-1609م) إذ ما قيس ذلك بالفترة الأندلسية خلال العصور الوسطى و كذلك عدم مساندة التطور الحاصل لعلم الموريسكولوجيا غير العالم وبالتحديد من الربع الأخير من القرن العشرين وكذا الإستعمال المفرط لبعض المصطلحات والتي أساءت اليوم إلى رصيدة الحضارة العربية الإسلامية(التميمي، 2000، ص13)، في حين هذا التعقيد يتعلق بإصطدام نوعين من الثقافة إلا أن حدوث ذلك كان يتم وفق صيغ مختلفة حسب الأمكنة والفترات وهذا ما زاد التاريخ الموريسكي غموضا(التميمي، 1981، ص414).
- وفيما يخص تعريب الكتابات الأجنبية من طرف المؤرخين العرب كان للتميمي رأي تمثل في حسبه أنهم لم يتحلوا بالأمانة العلمية فقاموا بتغير العنوان الأصلي و ترجمة اجزاء دون شرح و هذا حسبه لا يصح إلا بأخذ رأي المؤلف الأصلي وكذلك حذف الهوامش والبليوغرافيا والكشافات التي وضعها المؤلف الأصلي(التميمي، 2000، ص15).

2-2- جهود وأهداف التميمي في تبني القضية الموريسكية:

'باعتبار عبد الجليل التميمي من أبرز اللذين إهتموا بالقضية الموريسكية و ذلك بتأسيس مراكز علمية اهتمت هي الأخرى وسخرت جزء كبير من نشاطها لكتابة وإحياء الذاكرة الموريسكية، فقد كان لشخص التميمي أبحاث ودراسات على المستوى الفردي كما كان له جهود وأهداف من خلال مؤسساته، بتبني استراتيجية بحثية متكاملة والتي شرعت في تنظيم مؤتمرات عالمية انطلاقا من 1983م فقد نشرت المؤسسة مئات الدراسات الأكاديمية وعشرات الكتب المختصة في علم الموريسكولوجيا وبعده لغات (التميمي، 2011، ص56)

كل هذا النشاط والإنتاج يهدف إلى بعث أفاق جديدة للبحث في التاريخ الموريسكي وإنصاف هذه الحقبة من خلال تقريب رؤى المؤرخين والباحثين، ويؤكد التميمي أن المؤسسة سارت وفق خطوات لتصل لأهداف سطرت يمكن عرضها كالآتي:

أولاً: الحرص كل سنتين على تنظيم مؤتمر دولي يخصص ملف معين وبشكل منتظم منذ 1983م، وهذا ما جعل المؤسسة تأخذ دوراً طلائعياً في انطلاقة الدراسات والكتابة عن تاريخ الموريسكيين على المستوى الدولي (التميمي، 2010، ص17)

ثانياً: النظرة التكاملية من خلال توجيه الدعوة لكل المتخصصين الدوليين وعلى الخصوص الجيل الجديد الباحثين والباحثات على اختلاف جنسياتهم وقناعاتهم الدينية، هذا ما وفر إطاراً واعد لهذه الدراسات، وينبه التميمي أن المؤرخين والباحثين المهتمين بالتاريخ الموريسكي أصبحوا يعملون في إطار التعاون العلمي اللامحدود، وقد وجدوا في المؤسسة كل العون والدعم لتجذير أفاق البحث العلمي والسعي إلى نشر مصادر جديدة عن التاريخ الموريسكي (التميمي، 1991، ص6)

ثالثاً: تنويع الاختصاص بإطلاق لأول مرة مصطلح الموريسكولوجيا، وهو الاختصاص الذي استقطب مئات الباحثين عربياً كانوا أو غربيين والذين تواصلوا مع مؤسسة التميمي، وهنا تجدر الإشارة إلى التجربة التي قام بها التميمي بإقامة الببليوغرافيا العامة للدراسات الموريسكية الأندلسية وقام بتكشيف 3570 مصدر، لتكون بذلك سنداً أساسياً وفاعلاً لمعرفة مسارات التاريخ الموريسكي ومدى تطوره وتوجهاته ثم القضايا المغيبة فيه وهو ما سيساعد الجيل الجديد من الباحثين على استيعاب هذا الاختصاص والمساهمة فيه مستقبلاً بدراسة إشكاليات بحثية جديدة (التميمي، 2007، ص 72-73)

رابعاً: باسم المؤسسة تم الاعتراف والإشادة بجهود كبار المؤرخين والباحثين الأورو-أمريكيين في كتابة التاريخ الموريسكي من خلال تكريم ثلة منهم أمثال: الفرنسي لوي كاردياك أو البورتوريكية لوث لوبات بارالت... كذلك التمكن من توظيف رصيد وثائقي جديد خاصة منها الوثائق والمخطوطات المحررة بالعربية وهما المصدران المغيبان في كلالدراسات الأورو-أمريكية، كما أن المؤسسة قامت بتعريب مئات الدراسات وبعض الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ومن هذا المنطلق أيضاً تم أخذ مبادرة في شهر ماي 2009م بإنشاء المركز الدولي لترجمة الدراسات الموريسكية (التميمي، 2011، ص ص 44-45).

ينوه التميمي بالتطور السريع لعلم الموريسكولوجيا ومساهمة المؤسسة في ذلك بفضل انتظام المؤتمرات التي عقدت بتونس وإدراك الجميع مدى الحرص على مواكبة الدراسات الجديدة على الصعيد العالمي، وقد أشاد لوي كاردياك وهو أحد رواد التاريخ الموريسكي بجهود عبد الجليل التميمي قائلاً: "وعليه فإن الأستاذ التميمي بتنظيمه هذه المؤتمرات فتح عيوننا وعلمنا أن التاريخ الموريسكي هو تاريخ مجموعة اضطهدت بسبب عقيدتها الدينية... وقد ساعدنا الأستاذ التميمي على نزع الرؤية الأحادية الغربية للتاريخ الموريسكي والذي هو واقعاً وحقيقة أحد فصول التاريخ للشعوب العربية... وبالإضافة إلى ذلك فإن الأستاذ التميمي قد جعلنا نتعرف على باحثي العالم العربي فاتحاً آفاقاً جديدة...". (التميمي، ع، ص176).

3: الموريسكيون ملف الأمم وقضية اليوم عند عبد الجليل التميمي:

إن دراسة الماضي بإيجابياته وسلبياته يشكل قضية جوهرية لأمتنا اليوم وغدا، فلا يمكن أن تخفي الحقيقة التاريخية مهما كانت صعبة أو حرجة، وما حصل للموريسكيين هو مظلمة حضارية اقترفها التعصب الديني الأعلى وعدم التسامح الحضاري والإصرار على رفض الطرف الآخر دينيا وحضاريا (لتميمي،، ص 26 27)

عبد الجليل التميمي حرص على تفعيل اهتماماته بكتابة التاريخ الموريسكي وإنصاف هذه الحقبة منذ سنة 1966م انطلاقا احتكاكه بالأرشيف العثماني والأوروبي، أثناء إعداد له رسالة الدكتوراه عن تاريخ الجزائر وكان له عدة تأليف فردية وجماعية عن تاريخ الموريسكيين، لكن على خلاف باقي المؤرخين استطاع الخروج بهذه الحقبة من إطارها التاريخي وجعلها قضية أمة قابلة لإعادة النظر فيها، من خلال مطالبة إسبانيا اليوم بتقديم اعتذار حضاري لهؤلاء الذين ظلموا أحياء وأمواتا، في البداية يذهب إلى المقارنة. ما بين القضية الموريسكية والقضية الفلسطينية ويؤكد أن التهجير القسري الذي تعرض له الموريسكيين الأندلسيين على يد السلطة الإسبانية (التميمي، 2011، ص 16)

في حين وافقه في هذا أبو القاسم سعد الله وهو يقول "...فموضوع الموريسكيين الذي يرجع إلى القرن السادس عشر والسابع عشر ميلادي موضوع حي لا يموت، لأنه مأساة إنسانية...." (يحياوي،، ص 5)

أما عن مساعي التميمي حول هذه القضية فيقول بأنه وفق في إبلاغ رسالته إلى الجميع من خلال التذكير بمأساة الموريسكيين من أندلسهم وإحياء ذكراهم في الضمير العربي الإسلامي، ومناشدة السلطات الإسبانية العليا بالتوقف جليا حول هذه المأساة ومعالجة هذا الملف من خلال تبني اعتذار حضاري يدين ما قامت به محاكم تفتيش يومئذ اتجاههم (التميمي ع، 2011، ص 12)

كانت بداية هذه المبادرة عندما نظم التميمي مؤتمر عالمي حول الدراسات الموريسكية في أواخر سنة 1991م بمناسبة الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة 1492م – 1992م، (التميمي، 2000، ص 5)

ومن هنا تأتي الخطوة الأولى لعبد الجليل التميمي بتوجيه خطاب إلى الملك الإسباني برز مدى تبني هذا الأخير لهذه القضية يذكر فيها الملك أن العرب والمسلمين ينتظرون مثل هكذا إعتذار وجب أن يقدم من الأصل وليس الفرع كون أن إسبانيا ترفض حتى مجرد النظر في ملف العرب والمسلمين (التميمي، 2011، ص 16)

رغم هذا لم يتوقف هذا الأخير فقد جعل من قضية الموريسكيين قضية اليوم فتبناها و دافع عنها وذلك بتعليقه على خطابات الملك الإسباني و عدم رضائه على ما قاله كما كانت له العديد من المبادرات في الدفاع عن هذه القضية في العديد من المناسبات و ذلك بتوجيه رسائل جديدة إلى الملك الإسباني

حسب عبد الجليل التميمي فإن عدم الاهتمام الفاعل بهذه القضية يترجم على أن العرب والمسلمين قيادات ونخب ومجتمع مدني لم يستوعبوا حيثيات هذا الملف الدقيق للقيام ببعض ما يستوجب عليهم فعله، وتلك رسالة حضارية يعمل عليها عبد الجليل التميمي منذ أكثر من أربعين سنة لإبلاغها وهو يؤكد على مواصلته في هذا رغم الصمت المضروب

على مساعيه للحفاظ على الذاكرة الموريسكية، في الضمير العربي الإسلامي خاصة والضمير العالمي عامة، ورسالته لإسبانيا والعالم العربي الإسلامي تتضح جليا في قوله هذا: "... طالبنا إسبانيا بأن تقول أن هذه مظلمة ظلمتم هؤلاء الذين منحوكم أجمل حضارة معمارية وحضارية وفكرية وأنا أقول للعالم العربي عيب عليكم لأنكم لم تهتموا بهذا الملف الخطير جدا وهذه وصمة عار في جبيننا... وهو واجب مقدس للدفاع عن الكينونة الموريسكية والتاريخ الأندلسي وطال الزمان أوقصر سيأتي يوم تعترف فيه إسبانيا بهذه المظلمة..." (التمييز، 2011، ص30)

يمكن القول أن عبد الجليل التميمي قد أخذ على عاتقه إحياء الذاكرة الموريسكية في ضمير العرب و المسلمين كما سعى إلى تقريب رؤى الباحثين من خلال الأعمال الجماعية انطلاقا من مؤسسته والمؤتمرات العالمية بهدف إنصاف الحقبة الموريسكية من جهة، والعمل على رسم معالم ومرجعيات صحيحة للبحث عن تاريخ الموريسكيين من جهة أخرى وتبني التمييز للقضية الموريسكية لم يكن وليد العدم، وكان بعد عشرات السنين من الاهتمام والبحث ومطالبته إسبانيا تقديم اعتذار حضاري لما حصل للموريسكيين وهو الشيء الذي عجز عنه حتى الحكام العرب والمسلمين اليوم.

الخاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع القضية الموريسكية الأندلسية في إهتمامات الباحث والمفكر عبد الجليل التميمي توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

-إم نشأة وتكوين عبد الجليل التميمي وانتقاله بين المشرق والمغرب كانت كافية لغرس الروح العربية الإسلامية فيه ،فكان بذلك المؤرخ والمفكر الحامل لقضايا الأمة

-حرص التميمي على تفعيل البحث العلمي الجماعي وتذويب الفجوات بين مختلف الرؤى التاريخية العربية من خلال تنظيم مؤتمرات عالمية مست بالخصوص تاريخ الموريسكيين كقضية عربية وجب اظهارها للرأي العام العالمي ،فإستطاع بهذا كسب ثقة كبار المؤرخين على الصعيد الدولي

-منح التميمي الفترة الموريسكية الإهتمام الخاص فكان له تأليف عدة عن تاريخ الموريسكيين و مساهمهم بلأندلس وكانت أغلب كتاباته في هذا الحقل باللغة العربية والفرنسية

-طرحت المأساة الموريسكية الأندلسية في الكتابات التاريخية بأسماء عدة كالمفكر الموريسكي إلا أن عبد الجليل التميمي أطلق عليها القضية فإستطاع بهذا أن يعطي هاته المأساة أبعاد القضية والنظر فيها من جديد

-خروج التميمي بالمأساة الموريسكية من أحداث تاريخية وجعلها قضية ذات أبعاد تاريخية جافة ليس وليد الصدفة وإنما كان بعد جهود فإستطاع الوصول إلى هذا ،إنطلاقا من شغفه وحب لهذه الفترة والتي كللت بتأليف فردية وجماعية عن تاريخ الموريسكيين وكذا إرتباطه بالفترة الموريسكية و تصعيد سقف طموحاته والكتابة عن هؤلاء و تذكير ومحاولة إحياء الذاكرة الموريسكية في الضمير العربي الإسلامي.

قائمة المصادر والمراجع:

1-المراجع:

- 1-بارلت لوثي لوبات، أثر الإسلام في الأدب الإسباني من العصور الوسطى إلى الوقت الحاضر، تع: محمد نجيب بنجميع، مراجعة وتق: عبد الجليل التميمي، ط1، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 1990م.
- 2-التميمي عبد الجليل، تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منهم . ت . ب . ع . م، تونس، 2011م.
- 3-التميمي عبد الجليل، دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي الأندلسي، ط1، م. ت. ب. ع. م، تونس 2000م.
- 4-التميمي عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، ط1، مطبعة بايرس، زغوان، 1989م.
- 5-السعداوي إبراهيم محمد، " تكريم عبد الجليل التميمي، -تحية وفاء وتقدير -، دراسات حول الدولة والثقافة والمجتمع في المجال العربي الإسلامي(كتاب جماعي:أعمال مهداة للأستاذ عبد الجليل التميمي)إشراف:إبراهيم محمد السعداوي، ج1،الجمعية التونسية المتوسطة للدراسات التاريخية والاجتماعية والإقتصادية،تونس، 2013.
- 6-الميزوري العروسي، " اسهامات عبد الجليل التميمي في إثراء المعرفة التاريخية وحفظ الذاكرة ".دراسلت حول الدولة والثقافة والمجتمع في المجال العربي الإسلامي(كتاب جماعي:أعمال مهداة للأستاذ عبد الجليل التميمي)
- 7-رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16م و17م، ط3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1989.
- 8-سامح عزيز أتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر:علي محمود عامر، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989م.
- 9-المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا(1492-1792)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر
- 10-هلايلي حنفي، دراسات في في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار هدى، الجزائر، 2010.
- 11-يحياوي جمال، سقوط الأندلس ومأساة الأندلسيين (1492-1610)، دار هومة، الجزائر، 2004.

2-الدوريات:

1-2:مجلة إنسانيات:

- 1-غانم محمد، عرض لكتاب العائلة الموريسكية:النساء والأطفال"، جمع وتحقيق:عبد الجليل التميمي، المجلد2، العدد5، مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، وهران، 1998م.
- 2-2:المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية
- 2-التميمي عبد الجليل، " إشكاليات البحث التاريخي عن الإيالات العربية أثناء العهد العثماني " ، ع 35، م. ت. ب. ع . متونس، 2007..
- 3- التميمي عبد الجليل، " الكشاف التحليلي لـ 24 عددا من المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، المسار والإنجازات"، ع 26، م، ت ، ب، ع. م، تونس، 2002م.
- 3-2:المجلة التاريخية المغاربية:

- 4- التميمي عبد الجليل، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليمان القانوني 1511م"، ع5، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1976م.
- 5- التميمي عبد الجليل، "الحصيلة والتوجهات المستقبلية للدراسات الموريسكية"، ع139، م. ت. ب. ع. م. تونس 2010م
- 6- التميمي عبد الجليل "الخلقية الدينية للصراع الإسباني - العثماني على الأبالات المغربية في القرن السادس عشر" ع10-11، الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1978م.
- 7- التميمي عبد الجليل "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"، ع23-24، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1981م،
- 8- التميمي عبد الجليل "رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين"، ع7-8 مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس 1977م.
- 9- التميمي عبد الجليل، "السياسة العثمانية لاستيطان الموريسكيين الأندلسيين بالأناضول"، ع63-64، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، زغوان، 1991م.
10. التميمي عبد الجليل "سيمنار حول المجلة التاريخية المغربية بمناسبة الذكرى الثلاثين لتأسيسها"، ع137م. ت. ب. ع. م. تونس، 2004م.
- 11- التميمي عبد الجليل، "عمثمنة إيالات المغرب، الجزائر، تونس وطرابلس على ضوء المهمة دفترية خلال النصف الثانيمن القرن السادس عشر، ع121، م. ت. م. اب، ع، م، تونس، 2006م.
- 12- التميمي عبد الجليل، "عشر سنوات من أجل التغيير والتجديد بالجامعة، ع33-34، مركز الدراسات والبحوثالعثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 1984م
- 13- التميمي عبد الجليل، "لغة أواخر الموريسكيين وإقامتهم بالمغرب على ضوء المهمة دفترية من خلال نصوصوفرمانات عثمانية جديدة، ع125، م. ت. ب. ع. م. تونس، 2007م.
- 14- التميمي عبد الجليل، "المائدة المستديرة العالمية حول الموريسكيين وزمانهم"، ع23-24، مطبعة الاتحاد العامالتونسي للشغل، تونس، 1981م.
- 15- التميمي عبد الجليل، "من أجل كتابة علمية لتاريخ المغرب العربي"، ع13-14، مطبعة الاتحاد العام التونسيللشغل، زغوان، 1979م.
- 16- التميمي عبد الجليل، "مساهمة المؤسسة في كتابة تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر"، ع140، م. ت. ب. ع. م. تونس، 2010م.
- 17- التميمي عبد الجليل، "واقع ومستقبل الدراسات التاريخية عن مأساة الموريسكيين بالأندلس"، ع49-50، الشركة التونسية لفنون الرسم، زغوان، 1988.
- 4-2:مجلة المعارف والدراسات التاريخية:
- 18-بقادي مسعود: دور الأرشيف العثماني في كتابة تاريخ الجزائر العثمانية من خلال كتابات الدكتور عبد الجليل التميمي، ع9، مطبوعات جامعة الوادي، الجزائر، 2017م.

3-المؤتمرات:

- 1- التميمي عبد الجليل، أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات الموريسكية حول تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية (1492-1609)، إشراف: عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية التوثيق والمعلومات زغوان 1991م.
- 2- شهرزاد مراد، "تربية الموريسكيين الدينية من خلال الكتابات الألفميدية"، أعمال المؤتمر العالمي الرابع للدراسات الموريسكية الأندلسية حول: مهن الموريسكيين الأندلسيين وحياتهم الدينية، جمع وتق: عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 19

التأثير الحضاري للموريسكيين في الجزائر خلال العهد العثماني (1519/1830)
(العلوم والفنون أنموذجا)

The cultural influence of the Moriscos in Algeria during the
Ottoman era
(1519-1830).

(The sciences and arts as an example)

ط. د. بن مسعود يحيى / جامعة الأغواط/ الجزائر

Phd student. Ben Messaoud Yahia/ University of Laghouat/Algeria

أ. د. بن حاج ميلود / جامعة الجلفة/ الجزائر

Dr. Ben Hadj Miloud/ University of Djelfa/Algeria

ملخص الدراسة:

تعرض الموريسكيون بعد سقوط غرناطة، آخر معقل للمسلمين في الأندلس سنة 1492 لكل أشكال القتل والتعذيب والإضطهاد، الذي دام قرونا من الزمن، على يد النصارى الإسيبان، واستولوا على ديارهم و أملاكهم، وهددوهم في دينهم، فأجبروهم على اعتناق المسيحية، و كان سيف محاكم التفتيش مسلطا على رقابهم، و نادى الرهبان بقطع جميع رؤوس العرب، حتى أصبح بقاؤهم ضربا من ضروب الإنتحار، و هو ما جعل الآلاف منهم يهاجرون مشرقا ومغربا، حفظا للنفوس والعقيدة، وفضل العديد منهم الإستقرار بالجزائر لما وجدوه من ترحيب، وحسن معاملة و احترام من عامة الناس وخاصتهم، وحتى من العثمانيين الذين قدموا لهم كل الدعم المادي والمعنوي، وانصهروا مع مرور الزمن في المجتمع الجزائري، فارتقت بهم البلاد، وتركوا في سكانها بالغ الأثر في مختلف الجوانب الحضارية، ولعل من أبرزها الجانب العلمي والفني، إذ حملوا إليها الكثير من العلوم والفنون بمختلف أصنافها وأشكالها، و من هنا جاءت هذه المقالة، لتبرز دور الموريسكيين في الحياة العلمية والفنية في الجزائر خلال العهد العثماني، والإضافة التي أضافوها للجزائر في هذا الجانب.

الكلمات المفتاحية: الموريسكيون، محاكم التفتيش، الجزائر، النصارى، العلوم، الفنون.

Abstract:

After the fall of Granada, the last stronghold of the Muslims in Andalusia in 1492, the Moriscos were subjected to all forms of killing, torture and persecution that lasted for centuries at the hands of the Spanish Christians. All the heads of the Arabs until their survival became a form of suicide, which is what made thousands of them migrate east and west, In order to preserve the soul and faith, many of them preferred to settle in Algeria because of the welcome, good treatment and respect they found from the general public and their special ones, and even from the Ottomans, who provided them with all material and moral support, and they melted with the passage of time into Algerian society, so the country elevated them and left a great impact on its population in various aspects of civilization. Perhaps the most prominent of them is the

scientific aspect, as they brought to it a lot of sciences of various kinds and methods of teaching them, hence this article came to highlight the role of the Moriscos in scientific life in Algeria during the Ottoman era and the addition they added to Algeria in this aspect.

KeyWords : Moriscos, Inquisition courts, Algeria, Christians, sciences.

مقدمة:

أدى الزواج السياسي بين الملك فيردناند ملك اراغون والملكة ازابيلا ملكة قشتالة الى اتحاد المملكتين (اسبانيا الموحدة) ، وظهور قوة عسكرية أخذت على عاتقها مهمة طرد المسلمين من آخر معقل لهم في الأندلس ، فكان سقوط غرناطة سنة 1492 في أيدي الصليبيين يمثل نهاية دولة الإسلام ، والتي دامت قرونا من الزمن و بداية ظهور المشكل الموريسكي ، الذي تجسد في معاناة المسلمين فيما لاقوه من صنوف القتل والإضطهاد والتعذيب و الإكراه على اعتناق المسيحية ، و بث الرعب في نفوسهم ، وبذلك أصبحت الهجرة ضرورة لا خيارا ، لحفظ النفس و الدين ، فانتشروا في بلاد الإسلام مشرقا ومغربا ، ومثلت شمال افريقيا عموما والجزائر خصوصا الوجهة التي فضلها الكثير من الموريسكيين ، فوجدوا أرضها نعم الأرض و أهلها نعم الأهل ، و وفرت لهم كل شروط الإستقرار والبقاء التي تتطلبها حياتهم ، فامتزجوا بسكانها، و ساهموا بما حملوه إليها من صنوف المعرفة مساهمة فعالة في إثراء مختلف الجوانب الحضارية و من أبرزها الجانب العلمي و الفني ، فكان لهم دور لا تخطؤه العين في تنشيط الحركة العلمية و الفنية في الجزائر .

مشكلة الدراسة:

و السؤال الذي نحاول الإجابة عليه في هذا السياق هو:

- ✓ ما هو الدور الذي لعبه الموريسكيون في الحياة العلمية و الفنية في الجزائر ؟
- ويندرج تحت هذا السؤال مجموعة من الأسئلة الفرعية أهمها:
- ✓ ماهي الأسباب التي دفعت الموريسكيون للهجرة ؟
- ✓ ما مدى إسهامهم في الحياة العلمية و الفنية في الجزائر؟
- ✓ وماذا أضافوا لها في هذا الجانب ؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور الحضري للموريسكيين في الجزائر في شقه العلمي والفني و الأثر الذي تركوه في المجتمع الجزائري ، على اعتبار أن الكثير ممن حل منهم بالجزائر من أصحاب العلم والفن و الموسيقى فبي فرصة لتلاقح الأفكار في إطارها الحضاري .

أهمية الدراسة:

تستمد هذه الدراسة أهميتها في كونها تحاول أن تسلط الضوء على الهجرة الموريسكية إلى الجزائر وتأثيرها على المجتمع الجزائري خصوصا في الجانب العلمي والفني ، فالدراسات السابقة قليلة فيما يخص الوجود الموريسكي في الجزائر ، على عكس تونس و المغرب الأقصى ..

1. الهجرة الموريسكية للجزائر:

مثل سقوط غرناطة ، بداية محنة و معاناة المسلمين الأندلسيين ، عندما تنكر النصارى لمعاهدة التسليم ، التي تم صياغتها بعد مفاوضات بين الطرفين في نوفمبر 1491 (جمال ، 2004، ص 38) ، و التي تعهدوا فيها بإحترام ديانة المسلمين و مساجدهم و ممتلكاتهم و أموالهم (أحمد بن محمد ، 1968، ص 524) ، غير أنهم بدأوا فصلا من الإرهاب الديني من خلال إجبار المسلمين على تخليهم عن دينهم و اعتناق المسيحية كرها، و استمرت حملات التعميد سنين من الزمن ، ترغيبا و ترهيبا ، حتى تقرر في سنة 1526 تنصير جميع مسلمي غرناطة ، فصارت الأندلس كلها دار كفر لا يجرؤ فيها أحد على نطق كلمة التوحيد ، و حولت المساجد إلى كنائس (محمد علي ، 1980، ص ص 51-52) ومنع الحديث بالعربية .

وأصبحت محاكم التفتيش تتفنن في طرق وأشكال التعذيب التي تعددت من حرق و تمزيق للأعضاء و بترها و سحق للعظام ، و صولا للدفن على قيد الحياة ، وكل أبشع صور التنكيل والإضطهاد (علي الحجي ، 1983، ص 36) ، و برز من خلال هذه الممارسات غير الإنسانية ، حجم الحقد الصليبي على المسلمين .

وأمام هذا التضيق الممنهج و المتعمد و الضغط المستمر ، قام الموريسكيون بالهجرة نحو بلاد المشرق والمغرب ، كما قاموا أيضا بثورات عديدة ، أربكت الإسبان وألحقت بهم خسائر فادحة ، و دب فيهم الرعب والخوف ، و على الفور إتخذت الحكومة الإسبانية ، سياسة قمعية لإجتثاث هذه الثورة من جذورها ، فذبح الرجال و النساء والأطفال بأمر من القائد العام ، الذي أطلق العنان لقواته بإرتكاب المجازر حتى انتصر ، وخضع المسلمون للأمر الواقع ، وبذلك زاد نشاط محاكم التفتيش ، فقتلوا الآلاف ، و أيقن الإسبان أن الحل الوحيد لوحدتهم يكمن في طرد كل المسلمين من الأندلس (محمد كرد ، 1923، ص 142).

وفي عهد الملك فليب الثالث الذي تسلم الحكم سنة 1598 ، اعتبر الموريسكيين بأنهم يشكلون أكبر تهديد لإسبانيا ، فقرر التخلص منهم بشكل نهائي من خلال إصدار مرسوم 1609 ، الذي يقضي بنفيهم ، وحددت الموانئ التي يتجمعون فيها وانطلقت عملية الترحيل و التسفير ، التي رافقتها مآسي أخرى زادت من معاناتهم ، حيث مات عدد كبير من الأطفال والنساء بسبب الجوع و البرد ، وارتسمت مناظر تعبر عن قسوة و بشاعة الإسبان (عبد الواحد وآخرون ، 2004، ص ص 417-420)

ومثلت بلاد المغرب الإسلامي وجهتهم الأساسية ، ووجدوا فيها تحفيزا دينيا لخلوها من النصارى ، رغم بعض الصعوبات ، كتسلط بعض الأعراب عليهم ونهب أموالهم ، و نادى شيوخ القبائل ووجهائها بنصرة الموريسكيين و معاقبة هؤلاء الأعراب ، و الواقع أن أهل المغرب عموما و الجزائريين خصوصا ، استقبلوا الوافدين المرحلين بحفاوة ، إلا ما شذَّ من تصرفات الأعراب (عبد الواحد وآخرون ، 2004، ص ص 420-421) .

بدأت هجرة الأندلسيين إلى الجزائر خلال القرن التاسع هجري و ازدادت خلال القرن العاشر للهجرة (أبو القاسم ، 1985، ص 142) وساهم الأسطول العثماني في إنقاذ و نقل الآلاف منهم إلى الجزائر ، استقروا في المدن الساحلية بأعداد كثيرة ومنها :

أ- مدينة الجزائر:

استقر بها آلاف الأندلسيين المهاجرين ، و اندمجوا في المجتمع الجزائري ، و انخرط العديد منهم في الكفاح ضد الإسبان في البحر ، و قد بلغ عددهم مطلع القرن 16م حوالي خمسة و عشرين ألف مهاجر ، أي مايعادل ربع سكان المدينة (ناصر الدين ، 2013، ص41) .

ب- مدينة البليدة:

تقع مدينة البليدة بالقرب من مدينة الجزائر ، عند سفح الأطلس المتيجي ، و يذكر بعض المؤرخين أن خير الدين بربروس منح منها بعض الأراضي للأندلسيين ، حيث قاموا بتعميرها وبنى أحد الصالحين منهم مسجدا و حمام و فرن و أصبحت من الأماكن المفضلة للأسر الموريسكية و توالى هجراتهم إليها حتى صاروا يمثلون نصف سكانها (ناصر الدين ، 2013، ص41) .

ت- مدينة وهران :

مثلت وهران أول وجهة للموريسكيين بعد صدور قرار طردهم ، باعتبارها قريبة من السواحل الإسبانية، و أصبحت السفن ترسو محملة بالآلاف من المهاجرين ، و تذكر المصادر التاريخية ، أنه نزل بها في يوم واحد حوالي 22 ألف موريسكي ، حتى ضاقت بهم المدينة لكثرتهم ، وانتقل العديد منهم إلى المناطق المجاورة مثل أرزيو و مستغانم و معسكر(ناصر الدين ، 1986، ص138) .

ث- مدينة تلمسان :

عرفت تلمسان بأنها مدينة العلم و العلماء ، وحاضرة على غرار الحواضر المشهورة في العالم الاسلامي في الفترة الوسيطة ، ولم ينقطع اتصالها بالأندلس ، وعند اشتداد المحنة على أهل الأندلسيين ، شدوا إليها الرحال ، واستقروا بها ، لما وجدوا من حسن الإستقبال و المعاملة من بني زيان ، و سهلوا لهم كل سبل الراحة و العيش الكريم ، فصارت المدينة عامرة بالعلماء و المثقفين الأندلسيين (محمد ، 1983، ص232) .

ج- مدينة بجاية :

استقطبت مدينة بجاية الكثير من المهاجرين الأندلسيين الموريسكيين بحكم موقعها الجغرافي ، وكونها تربط عدوة المغرب بعدوة الأندلس ، فكانت بابا مفتوحا لكل وافد أندلسي ، كما اشتهرت بالعلم و طيبة أهلها ، و ميلهم للمرح و الموسيقى خاصة الأمراء منها ، مثلما وصفهم الحسن الوزان عندما زارها في الربع الأول من القرن 16 (محمد الحسن ، 1983، ص51) .

ح- مدينة مستغانم :

هاجر أغلب سكان مدينة مستغانم ، بسبب اضطراب الأمن حولها و تدهور سلطة ملوك تلمسان ، وعندما دخلها الموريسكيون وجدوها خالية ، فعمروها ، و حولوا مينائها الصغير ، الذي كانت ترسو فيه السفن التجارية الإيطالية ، إلى

ميناء حربي ترابط فيه اثنا عشرة سفينة حربية ، تنطلق منه للجهاد ضد الإسبان (عبد الرحمان ، 2019، ص ص ، 147-148).

خ- مدن أخرى :

انتشر الأندلسيون في مختلف المدن الساحلية ، ففي الغرب وجدوا في مازونة و ارزيو و قلعة بني راشد و ندرومة و معسكر ، وفي الوسط تركزوا في شرشال و القليعة والمدية ، وفي ذلك قال بيري راييس أن الأندلسيين قد اتخذوا من شرشال قاعدة لهم (أبو القاسم ، 1985، ص 178) أما في الشرق فقد استقروا في قسنطينة و عنابة و جيجل و القالة ، وقد ساهموا في كل المناطق التي تواجدوا فيها مساهمة فعالة .

2. أثر الموريسكيين في الحياة العلمية في الجزائر :

ساهم الأندلسيون الموريسكيون بشكل فعال في تنشيط الحركة العلمية في الجزائر ، فعندما هاجروا حملوا معهم علومهم التي كانوا يجيدونها و نفائس مكتباتهم حتى امتلأت بعض المدن الجزائرية بالكتب ، حتى قيل عن مدينة الجزائر ، أنها كثيرة الكتب لا تضاهيها مدينة أخرى في افريقية (أبو القاسم ، 1985، ص 287) .

وقد وجد العديد منهم فرصة في الإشتغال في طلب العلم ، و تدريس أبناء الجزائريين على اختلاف أعمارهم ، وكانت حلقات العلم في المدارس والمساجد التي يقيمونها ، تعج بالطلاب من مختلف المناطق ، ويرجع ذلك للأسلوب الأندلسي المتميز في عملية التلقين والإلقاء ومعاملة المتعلمين برفق ، وعمل الكثير من أهل الصلاح والعلم على إنشاء الزوايا و معاهد العلم وهو مازاد في حب و تقدير السكان لهم وفي رفعتهم ، من أمثال سيدي أحمد يوسف دفين مليانة (1524) الفقيه الصالح و سيدي فرج سيدي يعقوب القرطبي و سيدي أحمد الكبير الأندلسي الذي أنشأ مدينة البليدة في قطعة ارض منحها له خير الدين بربروس ، و حضي بقدر كبير من الإحترام من أهلها حتى وافته المنية سنة 1540 (ناصر الدين ، 2013، ص ص 54-55) .

ومن أبرز الزوايا التي أسسها الموريسكيون وذاع صيتها ، زاوية أهل الأندلس بمدينة الجزائر ، والتي تم إنشاؤها سنة 1639 ، وكانت مهمتها تعليمية ، يضاف لها زاوية سيدي أحمد الكبير الأندلسي بالبليدة ، وزاوية علي بن مبارك بالقلعة ، في أوائل القرن 17 م ، والتي تخرج منها عدد كثير من طلاب العلم ، وكانت تعتنى بشؤون الطلبة وتؤويهم (ناصر الدين ، 2013، ص ص 56-57) ، و اشتهرت برجالها الذين كانوا يشرفون على مختلف الخدمات الإجتماعية و الثقافية و منهم ، محمد بن محمد الأبلي ، و محمد السميع بن محمد العنجدون ، و ابن علي الأندلسي و محمد بن بكير ، و علي بن علي الأندلسي و الحاج أحمد بن قاسم و يوسف بن سليمان وابن الحاج أحمد بن جعفر ، وعرف هؤلاء بفقهمهم و غزارة علمهم (ناصر الدين ، 2013، ص 56) .

وظهر في العلوم النقلية ، عدد من العلماء من أمثال المحدث أبو بكر محمد بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي في جامع بجاية ، فقد كان محدثا عالما بالإسناد عارفا بالصحابة ، استفاد الطلبة من علمه كثيرا ، إضافة إلى الفقيه و الأديب محمد بن عبد الرحيم الخزرجي ، أصله من اشبيلية ، و هو من أبرز علماء تلمسان ، له عدة مؤلفات منها : " تفسير للقرآن الكريم " ، و شرح لأسماء الله في مجلدين ، وكتب في علم أصول الدين ، و أصول الفقه ، إضافة الى قصائد شعرية ، توفي بتلمسان سنة 1505م (محمد ، 2016، ص ص 167-168) .

كما وجد من الموريسيين من برع في اللغة و الأدب ، وعمل مدرسا في المعاهد والزوايا ، و لم يقتصر عملهم و وجودهم فقط في الزوايا التي كانوا يشرفون عليها بل ساهموا أيضا في نشاط الزوايا الأخرى مثل زاوية محمد الشيخ التواتي ببلاد القبائل و زاوية سيدي عبد الرحمان بن سعيد اليلولي (ناصر الدين ، 2013، ص57) .
وفي العلوم العقلية كان للموريسكين أيضا مساهمة واضحة في الفلك و الميقاتة ففي مدينة الجزائر برع محمد بن أحمد الصخري الموريسكي الأصل المولود بالجزائر ، و له كتاب " القلادة الجوهرية في العمل بالصحيفة الأعجمية " ، وكان محبا للهندسة و حركة الكواكب و النجوم ، و العلاقة بين الإنسان و التغيرات الطبيعية (عبد الرحمان ، 2019، ص153) .
وقد أنشأ الموريسكيون مدارس خاصة ، منها مدرسة الأندلسيين ، و مدرسة شيخ البلاد ، وهما مدرستان ذات تعليم راق ، لأن الأندلسيين عرفوا بالتمكن من فن التدريس و معرفة طرقه ، التي تعتمد على المحاور و الذاكرة و طرح الأسئلة (جمال و آخرون ، 2021 ، ص548) و حسن التربية ، و مراعاة التطور العقلي للتلاميذ (أبو القاسم ، 1985 ، ص 283) وهذا الفن لم يعهده الجزائريون ، و تخرجت منها أعداد كثيرة من الطلبة ، إضافة إلى مدرسة مازونة المشهورة التي بناها أحد الموريسكيين و تخرج أيضا منها عدد من الفقهاء خلال العهد العثماني (أبو القاسم ، 1985 ، ص178) .
و يبدو أن الهجرة الموريسكية الأندلسية المتأخرة في القرن السادس عشر و التاسع عشر ، لم يكن أفرادها يمتلكون معارف ثقافية تضاهي مستوى الهجرات السابقة ، في حواضر الأندلس الكبرى ، كقرطبة و اشبيلية و غيرها (ناصر الدين ، 2013، ص54) .

3. أثر الموريسكيين في الحياة الفنية في الجزائر:

إشتهرت الأندلس بالفن الموسيقي و الغناء و ازدهر فيها بشكل كبير و أصبحت تحوي مدرسة متخصصة في هذا المجال لها تقاليدها و أنماطها ، عرفت بها كل من مدينة قرطبة و اشبيلية و طليطلة و غرناطة و بلنسية ، و امتد تأثيرها إلى بلاد المغرب (طه عبد المقصود ، 2004، ص901) ، منذ العهد الموحد ، إذ استقدم الموحدون ، واحدا من أكبر العارفين بالغناء و الموسيقى الأندلسية أبو بكر بن باجة ، و الذي ساهم بشكل كبير في نقل الفن الأندلسي إلى المغرب (محمد ، 1998، ص38) .

وامتازت الموسيقى الأندلسية التي حملها الموريسكيون معهم إلى الجزائر ، بتعدد الآلات ، التي يستخدمونها ، مثل الريان ذو الوترين و الطي يلامس بقوس ، ثم العدد الذي يحتوي على أوتار أكثر من عدد أوتار الأرباب و أنواع أخرى من القيتار (عبد الرحمان ، 2019، ص ص 155-156) ، و أضافوا لها بعض الآلات الأخرى ، مثل العود و الكمان و القصبة و الزرنة و القايطة و الطبل و الدف و الطار و الدربوكة و البندير (ناصر الدين ، 2013، ص ص 58-59) فتعدد الإيقاع و تعددت معه الأنغام .

وكان الأندلسيون يحرصون على ترديد الأناشيد ، و القصائد و المدائح الدينية ، و الغناء ، عند الولادة و الختان و الزفاف و الخطبة ، و كانت الأوجاق الأندلسية تعزف الموشحات و الأغاني يتخللها ضرب النوبة ، و دق الطبول و الزرنة على نغمة " داني " " داني " (ناصر الدين ، 2013، ص52) ، وفي أشعارهم يتغنون بجمال الأندلس و طيب مناخها و عليل هوائها و لذة مائها ، و منهم من يأسف على حالها ، و كثير منهم من أبدع في الغرام و الغزل (عبد الرحمان ، 2019، ص ص 157-158) .

ومما اشتهر به الأندلسيون ، نظم الموشحات ، وقال عن ذلك ابن خلدون : " و أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم و تهذبت مناحيه و فنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطا أسماطا و أغصانا أغصانا ، يكثرون منها ، ومن أعاريضها المختلفة . ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا و يلتزمون عند قوافي تلك الأغصان و أوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة ، و أكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات (عبد الرحمان ، 2005، ص 593) .

و في هذا الفن ذاع في تلمسان صيت أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب الأندلسي ينسب إليه نظم 3034 قطعة شعرية "مالوف" في مدح النبي صلى الله عليه وسلم و في مدينة الجزائر عرف محمد الشاهد الأندلسي (ت 1793م) ، العالم الأديب في ترديد موشحات سهيل وأبي زهرة ولسان الدين بن الخطيب (ناصر الدين ، 2013، ص25) كما أتقن هذا الفن أيضا أبو العباس أحمد بن عمار الجزائري الأندلسي مفتي المالكية ، وصاحب "لواء النصر في قلائد العصر" و "نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب" ، يضاف له العالم قاضي الحنفية ، محمد بن سيدي علي الأندلسي (ت 1749م) الذي اشتهر بقصائد المدح (ناصر الدين ، 2013، ص58).

ولقد كان لهذه الأغاني و الموشحات ، بالغ الأثر على سكان الجزائر ، ففي بجاية ساد الطرب بين أهله ، و تذوقوا الفن الأندلسي و أعجبوا به و احتضنوه ، و أصبحت تشبه مدينة إشبيلية ، في حبها للموسيقى (حنيفي، 2010، ص86) ، و في تلمسان أصبحت الموسيقى الأندلسية جزء من حياتهم ، فكانوا يتغنون بالطبيعة و ما يختلج في نفوسهم و قلوبهم من مشاعر و أحاسيس ، و يتذوقون و يستمتعون بفنهم الجديد ، وقد توارثوه جيلا بعد جيل (عبد الرحمان ، 2019، ص153) . ولم يقتصر تأثير الموريسكون على الجزائريين في مجال الفن ، على الموسيقى والغناء ، بل تعداها إلى الخط و الزخرفة ، فالأندلسيون كانت لهم طريقتهم البسيطة في رسم الحرف ، ولعل هذا أهم ما ميز الخط الأندلسي عن بقية الخطوط و هو ما جعل الطلاب و النساخ يتهافتون عليه ، فتغلب بذلك على كل الخطوط العربية الأخرى (عبد الرحمان ، 2019، ص153) ، ونسخت أغلب المصاحف به ، و من أشهر الخطاطين الأديب و الشاعر الأندلسي الغرناطي الوادي آش ، الذي ترك غرناطة بعد سقوطها ، و استقر في تلمسان ، وكان من أكبر النساخين بها ، و أكثرهم شهرة حيث اتخذ من الخط مهنة ، كما ورد في كتاب "أزهار الرياض" وله في تلمسان نحو مائة كتاب بخطه (محمد ، 2016، ص 171) .

وفي الزخرفة أبدع الأندلسيون في العديد من مساجد الجزائر ، كجامع الكبير بتلمسان وجامع سيدي بلحسن (ناصر الدين ، 2013، ص25) ، فالجامع الكبير زخرفته تشبه الزخرفة الفسيفسائية ، المنحوتة بمسجد قرطبة ، و زخرفة جامع سيدي بومدين تشبه أشكالها تشبه ماهو موجود في قصر إشبيلية (محمد ، 2016، ص 170) ، و هذا يدل على أن المهنة الفنية الأندلسية كانت حاضرة في الجزائر .

خاتمة:

شكلت بلاد الأندلس رافدا حضاريا مهما للمسلمين على مر تاريخها ، فكانت منارة للعلم والعلماء ، ارتبطت كثيرا بحواضر المغرب الإسلامي عموما و الجزائر خصوصا ، بحكم القرب الجغرافي ، فكان يسير إليها المهاجرون الأندلسيون في إطار التواصل بين العدوتين ، غير أن سقوط غرناطة في أيدي النصارى ، و توالي النكبات و المحن على مسلمي الأندلس ، و

ظهور المشكل الموريسكي ، جراء الإنتقام الصليبي الممنهج ، أدى إلى ارتفاع أعداد الموريسكيين المهاجرين إلى الجزائر ، وكان من بينهم فئة كثيرة من المثقفين والعلماء ، وأصحاب الفن وقد برع هؤلاء في العلوم العقلية و النقلية ، كالفقه والحديث و اللغة والشعر و النثر والفلك والرياضيات وغيرها ، وامتن الكثير منهم التدريس فتخرج على أيديهم عدد من العلماء ، كما تركوا بصمة فنية خالصة في الموسيقى و الخط والزخرفة ، و أسهما بذلك إسهما كبيرا في نهضة و رقي و تطور المجتمع الجزائري و اندمجوا مع مرور الزمن و انصهروا فيه .

النتائج والتوصيات:

- سقوط غرناطة في أيدي الصليبيين كان بداية نهاية الوجود الإسلامي في الأندلس .
- هجرة الموريسكيين إلى الجزائر و خاصة العلماء منهم و الفنانون ترك بصمة واضحة على المجتمع الجزائري ، أدت إلى إثراء تراثه الثقافي .
- استطاع العلماء الموريسكيون أن يحضوا بالمكانة الإجتماعية اللانقطة داخل المجتمع الجزائري .
- حالة الإستقرار السياسي التي كانت تشهدها الجزائر خلال الفترة العثمانية ، مكن العلماء من أداء دورهم العلمي على أكمل وجه .
- إضافة الى أعمال التدريس ، ساهم الموريسكيون في بناء المساجد و الزوايا و المدارس من مالمهم الخاص و جعلوها أوقافا إسلامية .
- الإنجاز العلمي للموريسكيين لم يرقى الى من سبقهم من علماء القرون الماضية .
- الإهتمام الكبير الذي حظي به العلماء الموريسكيون من طرف الجزائريين والعثمانيين على حد السواء ، شجعهم على الإستقرار بها .
- تميز الموريسكيين بطرق التدريس ، وإتقانهم لفنه ، مكن الطلبة الجزائريين من التحصيل العلمي بشكل أفضل مما كانوا عليه .
- إدخال الموسيقى الأندلسية وفن الموشحات التي لم تكن معروفة عند الجزائريين .
- تركز العلماء الموريسكيين في الحواضر و المدن ، و ابتعادهم عن الأرياف .
- يبقى هذا الموضوع يحتاج الكثير من البحث ومن هنا يمكن وضع بعض التوصيات :
- ضرورة تشجيع الباحثين و طلبة العلم على تحقيق المخطوطات حبيست المكتبات .
- تشجيع الدراسات والبحوث التي تهتم بالدور العلمي للموريسكيين في الجزائر ، وضرورة التأكيد على هذا الجزء لأنه لم يأخذ حقه من الدراسة .

قائمة المصادر:

- (1) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، 1968 ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تح: إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج4.
- (2) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون ، 2005 ، مقدمة ابن خلدون ، تح: درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .
- (3) محمد الحسن بن محمد الفاسي الوزان ، 1983 ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان.

قائمة المراجع:

- (1) أبو القاسم سعد الله ، 1985 ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ط2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر .
- (2) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، 1968 ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تح: إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج4.
- (3) جمال بوطي ، عبد الكامل عطية ، 2021 ، الهجرة الأندلسية الأخيرة و انعكاساتها على المهاجرين الأندلسيين في اسبانيا ، المجلة التاريخية الجزائرية ، المجلد5، العدد 2 .
- (4) جمال يحيوي ، 2004 ، سقوط غرناطة و مأساة الأندلسيين ، 1492-1610 ، د ط ، دار هومه ، الجزائر .
- (5) طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبيدة ، 2004 ، الحضارة الإسلامية ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- (6) عبد الرحمان أولاد سيدي الشيخ ، 19 ديسمبر 2019 ، دور الموريسكيين في إثراء الجوانب الحضارية بالجزائر في العهد العثماني 1519-1830 (الملامح والأبعاد) ، دراسات في العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية ، المجلد 33، العدد 01.
- (7) عبد الواحد ذنون طه ، 2004 ، تاريخ المغرب العربي ، ط1 ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، لبنان .
- (8) علي الحجى عبد الرحمان ، 1983 ، محاكم التفتيش الغاشمة واساليبها ، ط1 ، المنار الاسلامية ، الكويت .
- (9) محمد الحسن بن محمد الفاسي الوزان ، 1983 ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان.
- (10) محمد الطمار ، 1983 ، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر .
- (11) محمد سعداني ، 20016 ، الأندلسيون و تأثيراتهم الحضارية في بلاد المغرب الأوسط 7-9هـ/13-15م ، أطروحة دكتوراه في التاريخ و الحضارة الإسلامية ، إشراف: محمد بن معمر ، قسم الحضارة الإسلامية ، جامعة وهران .
- (12) محمد علي قطب ، 1980 ، مذابح و جرائم محاكم التفتيش في الأندلس ، مكتبة القران للنشر و التوزيع ، القاهرة .
- (13) ناصر الدين سعيدوني ، 1986 ، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني) ، ج1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر.
- (14) ناصر الدين سعيدوني ، 2013 ، دراسات أندلسية : مظاهر التأثير الإيبيري و الوجود الأندلسي بالجزائر ، ط2 ، البصائر للنشر و التوزيع ، الجزائر.

الهجرات الأندلسية وتأثيرها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط نهاية القرن 15 م وبداية القرن 16 م.

Andalusian migration and their impact on cultural life in the middle Maghreb at the end of the 15th century and the peginning of the 16th century.

د. امحمد يزير / جامعة عمارثليجي- الأغواط/ الجزائر

Dr.mhamed yazir/Ammar thliji University-Laghouat/Algeria

ملخص الدراسة:

تهدف الدراسة إلى التعرف على الظروف السيئة التي عاشها الأندلسيون بعد سقوط غرناطة سنة 1492 م آخر معاقل المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد صراعات مريرة مع الممالك النصرانية، وبعد ذلك فصلا من فصول الحروب الصليبية إذ لعبت فيه الكنيسة الكاثوليكية دورا بارزا فكان توحيد مملكتي قشتالة وأراغون، في حين أصاب التفكك الداخلي أهم الممالك وسقوط الحواضر والمدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، واضطرتهم إلى التنصير أو التهجير القسري الذي كان مجاله سواحل شمال إفريقيا عامة والمغرب الأوسط (الجزائر) خاصة وما لذلك من أثر على مختلف ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية، ومما زاد في عظيم هذا الأثر الاستقبال الذي حظوا به من طرف سكان الجزائر خاصة بعد أن استتب فيها أمر العثمانيين بداية من الأخوين عزوج وخير الدين برباروسا فاختاروا بذلك الأمكنة التي توافقتهم للقيام بالأنشطة المختلفة ونقلوا بذلك خبراتهم إلى الجزائر فاستفادت منها أيما استفادة كما كان لهم دور كبير إلى جانب إخوانهم في ردّ الهجمات الإسبانية التي كانت تسعى إلى مطاردة الأندلسيين كي لا يفكروا في العودة مجددا من جهة، وكانوا يبحثون عن موطن قدم لهم في سواحل شمال إفريقيا والجزائر بالخصوص من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، الموريسكيين، المغرب الأوسط، غرناطة، قشتالة، أراغون، محاكم التفتيش، الإسبان.

Abstract:

The study aims to recognize poor conditions within which the Andalusians lived in after the fall of Granada in the year 1492, the last Muslim stronghold in the Iberian Peninsula, after bitter conflicts with the Christian kingdoms, that was a part of crusades as the Catholic Church played a key role, resulting in the unification of Castile and Aragon kingdoms, in when the internal disintegration befell the most important kingdoms and the fall of Andalusian metropolises and cities one after the other, and forced them to Christianization or forced displacement, whose scope was the coasts of North Africa in general and the Middle Maghreb (Algeria) in particular, and what this has an impact on the various fields of political, economic, social, cultural and artistic life, which increased in great this is the effect of the reception they received from the people of Algeria, especially after the Ottomans were established in it, beginning with the brothers Arouj and Khair al-Din Barbarossa, so they chose the places that agree with to carry out the various activities and thus transferred their experiences to Algeria, so they benefited greatly from it, as they had a great role alongside their brothers in the response of the Spanish attacks that were seeking to chase the Andalusians so that they would not think of returning again on the one hand, and they were looking for they have a foothold on the coasts of North Africa, and Algeria in particular on the other hand.

Keywords: Andalusia, Moriscos, central Maghreb, Granada, Castile, Aragon, inquisition, Spaniards.

مقدمة: تعرّض الأندلسيون الموريسكيون إلى محنة الطرد والتّهجير نتيجة للتفكك الداخلي في أنظمة الحكم وتصارع الإمارات فيما بينها وتحين الفرصة من طرف الممالك النصرانية في الأندلس والعمل على إسقاطها و كان آخرها غرناطة المملكة الصّامدة سنة 1492م، وعلى الرّغم من ألم فراق الأوطان وما تعرضوا له في هذه المحنة العظيمة من التنصير ومحاكم التفتيش مما حدا بالكثير منهم إلى الهجرة إلى بلاد المغرب عموماً وإلى المغرب الأوسط (الجزائر) خصوصاً إلا أنّهم ساهموا في مختلف الميادين السّياسية والاقتصادية والاجتماعية والثّقافية والفنّية.

مشكلة الدّراسة:

يمكن تناول هذا الموضوع بناءً على كيفية التّعرف على ظروف وحيثيات سقوط الأندلس والهجرات المتلاحقة للأندلسيين إلى المغرب الأوسط وكيفية تأثيرهم من النّاحية الثّقافية وذلك وفقاً للأسئلة التّالية:

- كيف كان سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس 1492م؟.
- ماهو أثر الزّواج السّياسي لـ إيزابيلا و فرديناند؟.
- ماهي أهمّ مراحل الهجرات الأندلسية إلى المغرب الأوسط(الجزائر)؟.
- ماهو الدّور العثماني في المحنة الأندلسية؟.
- ماهو موقف العلماء من من الهجرات الأندلسية؟.
- ماهي أهم المناطق التي استقروا بها؟.
- وماهو الأثر الثّقافي والفنّي للأندلسيين في المغرب الأوسط؟.

أهداف الدّراسة:

- التّعرف على ظروف محنة الموريسكيون بعد سقوط الأندلس وفضح الممارسات اللاإنسانية التي تعرضوا لها.
- التّعرف على المناطق التي استقر بها الأندلسيون الموريسكيون في الجزائر وخاصّة المناطق السّاحلية.
- تقديم ورقة بحثية إثراءً لموضوع له أهمية كبيرة عند كل جزائري حفاضاً على وحدة الأوطان ونبذ التّفرقة وتبيين مدى التّكامل المجتمعي بين مختلف مكوناته وأفراده.

أهمّية الدّراسة:

- تكمن أهمّية البحث في مطابقة ما يحدث في العالم العربي والإسلامي بما جرى في السّابق واستنتاج العضات والعبر.
- إبراز التّفاعل الثّقافي بين الموريسكيين والجزائريين في مناطق مختلفة من الجزائر

1_ سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس سنة 1492م: يعدّ تاريخ الثّاني من يناير 1492م إيذاناً بسقوط غرناطة المدينة الصّامدة في وجه الغزو الإسبانيّ طيلة ثلاثة قرون الأخيرة للتّواجد العربيّ الإسلاميّ وبذلك أصبح سقوطها

سقوطاً للأندلسيين رغم توالي سقوط المدن و الحواضر الأندلسية منذ القرن الحادي عشر ميلادي بسقوط طليطلة سنة 1085م، ورغم الانتصار الذي حققه "يوسف بن تاشفين" في موقعة "الزلاقة" في الثاني من نوفمبر 1086م الموافق لـ 22 رجب 479 م التي هب فيها من المغرب لنصرة إخوانه الأندلسيين وكان له النصر فيها ضد "ألفونسو السادس" قائداً للنصارى الإسبان إلا أنهم لم يتمكنوا من استرجاعها. (يحياوي، 2004، صفحة 25).

ومن العوامل التي ساعدت هذه المدينة في صمودها ضد الإسبان وتحمل الوافدين ممن لجأ إليها من مسلحي الإمارات الأخرى في الأندلس نذكر ما يلي:

_ تماسك الجبهة الداخلية في مملكة غرناطة وتصميم رجالها على الدفاع عن حوزة بلادهم بتأييد من الفقهاء والعلماء.

_ تنازع الممالك المسيحية في الشمال حال ذلك دون اتخاذ تدابير حاسمة ضد المملكة الإسبانية.

_ المساعدة من كل المناطق القريبة حيث كانت هذه المساعدة تضيء حيوية على العمليات العسكرية التي تقوم بها مملكة غرناطة. (رزوق، 1998، صفحة 53)

وقد أورد مرمول كريخال في كتابه إفريقيا عن غزو مملكة غرناطة على يد فرديناند و إيزابيلا ما نصه "كان أبو الحسن ملك غرناطة هو الأمير 19 من بيت بني الأحمر وقد صار أقوى من تولوا هذه الإمارة منذ انقراض خلفاء عبد الرحمن وقد تأتي له ذلك بسبب ما وقع بين الأمراء النصارى من النزاعات فقد كانت إمارته غنية وكثيرة السكان بعد أن لجأ إليها المسلمون من جهات إسبانيا ليكونوا رعايا لأمر من أمتهم وكان يتوفر على مدافع وذخيرة بالإضافة إلى جيشه من الفرسان والرجال المجهزين بالبنادق وقد سارعت إليه العساكر من كل بلاد البربر ولاسيما من المناطق القريبة مثل جبال غمارة وكان عطاء هؤلاء المحاربين يزيد على عطاء غيرهم لأنهم كانوا ألداء للنصارى فلما كان فرديناند وإيزابيلا مشغولين في الحرب ضد ملك البرتغال قام صاحب غرناطة بأعمال تدمير كبيرة في الأندلس وفي مملكة مرسية وحتى إيزابيلا إلى عقد هدنة معه. (كريخال، 1984، صفحة 432)

2_ الزواج السياسي للملكة قشتالة إيزابيلا وملك أراغون فرديناند الثاني وأثره في سقوط الأندلس: يُعدّ زواج فرديناند ملك أراغون والملكة إيزابيلا وريثة عرش قشتالة في سنة 1469م إيذاناً ببداية الوحدة بين المملكتين حيث تعاهدا على حرب غرناطة والقضاء على المسلمين بالأندلس خاصة من جانب إيزابيلا التي وقعت تحت تأثير الاحبار المتعصبين ورغم تعهدهما (مجهول، 2009، صفحة 103) احترام تعاليم الدين الإسلامي والسماح للمسلمين بالبقاء على عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية إلا أن سياسة الغدر والميكافيلية لدى فرديناند مع النزعة الدينية المتعصبة لإيزابيلا حالت دون ذلك ضد غرناطة الصامدة التي تنازع أهلها فشلوا وذهبت ريحهم. (يحياوي، 2004، صفحة 34)

3_ الهجرات الأندلسية إلى المغرب الأوسط (الجزائر):

أ/ الهجرة قبل سقوط غرناطة 1492م: شهد المغرب الأوسط عدّة هجرات أندلسية منها ما كان قبل سقوط غرناطة ومنها ما كان بعده، وقبل الطرد النهائي لبقايا المدجنين ممن كان بحي البيازين وثورات جبال البشارت 1610م، فكانت أول هجرة أندلسية نحو الجزائر (جزائر الثعالبية) سنة 512 هـ / 1120 . 1121 م واستقرارهم في أعالي الجزائر و موطن استقرارهم في حومة الثغرين ولا تزال الهضبة التي استوطنوها تحمل هذا الاسم إلى اليوم. (بلغيث، 2017).

أما الثانية في هذه المرحلة فكانت في منتصف القرن 6هـ 14م على أيدي الصليبيين الفرنسيين في "بروفانس" وإمارة "لانغدوك" جنوب وسط فرنسا وكانت محطة استقرارهم الأولى بجاية الناصرية ثم تحولوا إلى فحص الجزائر وكان استقرارهم ببساتين تمنفوست لقرب سهول المنطقة من المرافق البحرية مصدي حملات الاسبانية. (بلغيث، 2017)

ب/ الهجرة الأندلسية (1492-1609)م: وهي المرحلة الثانية من الهجرة نحو الجزائر والتي تبدأ من سقوط غرناطة حيث قصد المهاجرون الأندلسي المهاجرون الأندلسيون مختلف المناطق الداخلية للمغرب الأوسط واتخذوا من مدينة الجزائر ملجأ لهم ومن الحكم العثماني نفوذ المناسبات آمالهم وطموحاتهم حيث ربط الموريسكيون الأندلسيون مصيرهم بالأترك العثمانيين الذين كان لهم دور كبير في التكفل بعمليات إنقاذ مسلمي الأندلس من محتهم. (هلايلي، 2010، صفحة 20)

خاصة وأن إسبانيا قد وضعت لنفسها موضع قدم في إفريقيا تعد نقاط ارتكاز للدفاع عنها بشكل متقدم فشيدت العديد من القلاع على طول ساحل شمال إفريقيا من المراكز الساحلية الجزائرية مثل المرسى الكبير سنة 1505 وهران 1509 مستغانم 1511 تلمسان 1512 تونس 1509 بجاية 1510 الجزائر 1511 عنابة 1512م. (هلايلي، 2010، صفحة 19)

على الرغم من ارتباط القرصنة باسم الأتراك فإنهم ليسو هم من أوجدوها في حوض البحر الأبيض المتوسط فهي سابقة لوجودهم وتم تنظيمها وأصبحت من مهام الدولة خاصة بعد تطور العثمانيين في السلاح الناري الذين جاءوا به وخبره الأوائل منهم في ذلك. (عباد، 2012، صفحة 20)

ومما يؤكد هذا التعصب الديني الدور الأساسي الذي لعبه البابوات من أجل حمل البلاد المسيحية على وضع كل الإمكانيات المادية والبشرية والمالية تحت تصرف ملوك إسبانيا من أجل إبعاد المسلمين من الأندلس فقد تم إخضاع بلاد الشمال الإفريقي للحكم المسيحي والدين المسيحي كما كانت دعوتهم إلى الاستمرار في دفع ضريبة الصليبية لملوك إسبانيا من أجل الحرب الإفريقية حتى أنهم باعوا ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينة لتزويد الجيوش المسيحية بما تحتاجه من مال وعتاد. (المدني، 1968، صفحة 80)

نظرا للتعصب الديني لدى إيزابيلا التي كان لها دور كبير إسقاط الأندلس فقد تركت وصية عند موتها تحث من خلالها الذي يتولى الملك بعدها تحقيق أمنيتها والتي تمت لو أنها قد حققها بنفسها لو طال الأجل ألا وهي فتح إفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار. (المدني، 1968، صفحة 80)

4_ الدولة العثمانية ودورها في إنقاذ مسلمي الأندلس:

في محاولة من خير الدين وأخوه عروج لمساعدة الأندلسيين الفارين من بطش الإسبان بعد أن نكثوا معهم العهود وتنكروا للمواثيق وأصبحوا يرغمونهم على اعتناق المسيحية وقد أنقذ خير الدين وأخوه ما أمكن إنقاذه من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان. (المدني، 1968، صفحة 80)

ونشير إلى أن مسلمي غرناطة قد بعثوا برسالة إلى السلطان العثماني "سليمان القانوني" سنة 1541م يطلبون منه النجدة وقد ذكروا الدور الذي لعبه خير الدين بربروس في مساعداتهم بقولهم: "وقد كان بجوارنا الوزير المكرم والمجاهد في

سبيل الله خير الدّين وناصر الدّين وسيف الله على الكافرين علم بأحوالنا وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان في الجزائر واجتمع أهل الإسلام على في طاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضّمائر وانتظم العدل والشّرع والأمن في البوادي والحواضر به فأغائنا وكان سببا في خلاص كثير من أهلنا من أيدي المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام وتحت إياه طاعة مولانا السّلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان. (يحياوي، 2004، صفحة 258)

وبذلك تكون الدّولة العثمانية قدّمت خدمات جلييلة للإسلام والعروبة من أخطار الغزو الصّليبي والاستعمار الأوروبي الذي حمل لواءها البرتغال وإسبانيا والمنظمة الصّليبية المعروفة باسم "فرسان القديس يوحنا" التي اتّخذت من جزيرة مالطا مستقرًا لها وكان الهدف من هذا الغزو إنشاء ممالك مسيحية على الشّمال الإفريقي ليصبح بذلك البحر الأبيض المتوسط بحيرة مسيحية أوروبية يليه تغلبا إلى داخل القارة إلا أنّ الدّولة العثمانية قد تصدّت لهذه المشاريع الصّليبية الإستعمارية فأصبحت هباء منبثًا. (ياغي، 1995، صفحة 237)

5_ مواقف العلماء من الهجرة الأندلسية: وذلك من خلال ذكر فتوى العالمين الجليلين أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي 834-914 هـ/ 1430-1509 م، وأبو العباس أحمد بن أبي جمعة المغراوي (ت 920 هـ/ 1514 م).

أ/ فتوى أبو العباس أحمد الونشريسي 834. 914 هـ/ 1430-1509 م:

_ الفتوى الأولى: وهي المسماة بـ "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه التّصاري ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزّواجر"

حيث كتب إليه الشّيخ الفقيه أبو عبد الله بن قطيبة يسأله عن الهجرة من عدمها فكان ردّه بوجوب الهجرة ويقول في هذا الصّدّد: فأجبت بما هذا نصه "الحمد لله تعالى وحده والصّلاه والسّلام على سيدنا ومولانا محمد بعده. الجواب عمّا سألتكم عنه والله سبحانه ولي التّوفيق بفضل الله أنّ الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل من ظلم أو فتنة ويمكن الإطلاع على هذه الفتوى كاملة في كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب. (الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب على فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، 1990، الصفحات 119-135) وللمزيد حول هذه الفتوى أنظر أيضا: (الونشريسي، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه التّصاري ولم يهاجر وما يترتب عليهم من العقوبات والزّواجر، 1996)

_ الفتوى الثّانية: وقد كتب هذه الفتوى سنة 901 هـ/ 1495 م في شأن أحد مسلمي الأندلس يريد البقاء في إسبانيا لمساعدة مواطنيه على حل مشاكلهم لدى السّلطات الإسبانية فكان جوابه أيضا بتأكيد الهجرة وعدم البقاء ومساندة الكفار.

ب/ فتوى أحمد بن أبي جمعة المغراوي (ت 920 هـ/ 1514 م): وهو حفيد الولي الصّالح محمد بن عمر (سيدي الهواري) حيث ورد ذكره في كتاب دليل الحيران لمحمد بن يوسف الزّياني بقوله أحمد بن أبي جمعة ابن الولي محمد بن عمر بن عثمان بن عائشة ابن سيد الناس بن أحمد بن محمد بن علي بن الأمير أمغار بن أبي عيسى محمد بن سليمان الموسى بن

محمد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه بن فاطمه الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. (حسوني، 2010).

وقد كان تاريخ في ربيع الثاني 1910 الموافق ل 28 نوفمبر 1504م وقد تضمنت هذه الفتوى تسهيلات مهمة تسمح للموريسكيين المحافظة على دينه اعتماد التغطية من خلال نقاط التالية:

_ يمكن أن يقولوا حمد اذا طلب منهم شتم النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويقصدون بذلك مهامدا اليهودي وهو لقب الكثير من اليهود

_ إذا أجبروا على شرب الخمر فيشربوا مع اعتبار ذلك أمرا فاحشا

_ يمكن استخدامهم إشارات بدل جهر في الصلاة

_ يمكن تعاطي الربا شرط أن تنفق الفائده على الفقراء

_ اذا طلب منها ان ينكروا اتباعهم الاسلام فيقول ذلك ظاهرا وينكروه في قلوبهم. (يحياوي، 2004، صفحة 52)

6_ أهم مناطق استقرار الأندلسيين والموريسكيين في الجزائر:

بعد صدور قرار الطرد الجماعي سنة 1609م توجهت مجموعات كبيرة من الموريسكيين إلى الجزائر قادمين من غرناطة وأراغون وبلنسية وكطالونيا ونتيجة للزواج المستمر قد قُدِّر عددهم 100,000 نازح وهذا حسب تقديرات الأب "دان Dan" عند زيارته إلى الجزائر سنة 1634م. (هلايلي، 2010، صفحة 49)

وقد تقاطر على سواحل الجزائر مثل عنابة ومستغانم القليعة جيغل تلمسان وخلال الهجرة الأخيرة فإن المناطق الساحلية للغرب الجزائري كانت أكثر حظا باستيعاب المهجرين خاصة مناطق وهران و أريزو وسهول متيجة. (هلايلي، 2010، صفحة 50)

وقد قسم الدكتور ناصر الدين سعدوني مراحل الزواج الموريسكي إلى ثلاثة مراحل:

_ المرحلة الأولى: من الفترة الاسلامية المتقدمة من القرن 2هـ/8م الى 5هـ/11م حيث ارتبط فيها استقرار العناصر الأندلسية بالنشاط التجاري بشكل خاص.

_ المرحلة الثانية: من منتصف القرن 5هـ/11م من حكم المرابطين المغرب والأندلس استغرقت فترة الموحدين والدول الإقليمية التي ورثتهم واستمر حتى انتهاء الحكم الإسلامي للأندلس وسقوط غرناطة 797هـ/1492م.

_ المرحلة الثالثة: من نهاية القرن 9هـ/15م واستمر الى بداية القرن 11هـ/ أواخر القرن 17م حيث اتخذت طابع الزواج الجماعي بعد قرارات التنصير القسري والطرْد الإجباري. (سعيدوني، 2013، صفحة 38)

ففي الغرب الجزائري لجأت سلطات الاسبانية الى نقل الموريسكيين الى السواحل الغربية من إيالة الجزائر وخاصة وهران و المرسى الكبير أريزو ومستغانم لتسريب آلاف منهم إلى هذه المناطق وكان من نتائج هذا التركيز المتواصل على كل من وهران والمرسى الكبير أن ضاقت وما جوارهما بالموريسكيين. (هلايلي، 2010، صفحة 36)

فمدينة وهران: من الناحية التاريخية أسسها الأندلسيون سنة 290هـ/ 903 م لتكون من يخدم صادراتهم لشمال إفريقيا وقد شهدت عصور ازدهار عديدة إلى أن طمع بها البرتغاليون سنة 1483م للاستغلال التجاري ثم احتلها الإسبان سنة 1509 وبقوا فيها الى سنة 1791 م عندما سيطر عليها الاتراك العثمانيون على اثرى الذعر الذي تاب حاله الاسبانية بعد حدوث الزلزال الشديد الذي دمر المدينة سنة 1790م العثمانيون بها إلى غاية احتلالها من طرف فرنسيين سنة 1837م. (العفيفي، 2000، صفحة 516) وللمزيد حول تاسيس مدينة وهران أنظر: (الزياني، 2013، صفحة 49)

-أما مدينة تلمسان: من الناحية التاريخية قد فتحها أبو المهاجر دينار سنة 672 م بعد معارك ضارية مع الروم البيزنطيين فاتخذها العرب حاضرة لهم وأسموها "قفل العرب" وحصانها الطبيعية وموقعها الممتاز ساعد هذه المدينة على قيام دولة إدريس بن عبد الله في القرن 8هـ ثم شهدت عهد الدولتين الفاطمية والرستمية وأصبحت عاصمة لدولة بني زيان ثم احتلها الإسبان سنة 1543م واسترجعها "حسن باشا" سنة 1556م. (العفيفي، 2000، صفحة 167) وأصبحت مقصدا المهاجرين الأندلسيين عند انقسام دولة الموحدين وانكماش دولة بني الأحمر بغرناطة حيث اتبع ملوك بني زيان سياسة حسن الجوار مع حكام الأندلس يتصدوا للأطماع الحفصية من جهة ومن الغارات المرينية من جهة أخرى. (هلايلي، 2010، صفحة 16) كما كان لها دور كبير في استقرار الأندلسيين في مع مختلف فترات الهجرات الأندلسية بعد ذلك.

-أما مدينة البليدة: فقد أسسها خير الدين بربروس سنة 942 هـ / 1535 م وهي تصغير لكلمة بلدة للدلالة على حسن موقعها وخصب أرضها بقرب بلدة اندثرت تسمى قزرونة (خزرونة) حيث أعانه الأهالي الأندلسيون الذين نزلوا بها فشيّدوا مسجدا لا يزال إلى اليوم يسمى "جامع التّرك" وحمّام موجود قرب المسجد كما أنشأ الأندلسيون حولها البساتين ذات أشجار البرتقال الممتاز كما بنى الأندلسيون دورهم حوله واشتغلوا بالزراعة والغرس ممّا جعلها من أجمل المدن الجزائرية وأطيها للإقامة والسكنى. (القادر، 2006، صفحة 68)

-أما مدينتي شرشال وبرشك: فقد كان لهما نصيب كبير من الهجرات الأندلسية لقرهما من مدينة الجزائر و متيجة، فعن مدينة برشك (بفتح الباء وكسر الزاء وسكون الشين) وتحديد موقعها يقول المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بعد ذكر أقوال الإدريسي وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين في تحديد موقعها: "...من هذا عرفنا أن برشك هي من بلاد السّاحل الجزائري الغربي وأنّ موقعها جاء ما بين مدينة شرشال و تنس وأنّها تبعد عن شرشال غربا بعشرين ميلا. (الجيلالي، 1395هـ/1975م، صفحة 76)

هذا إضافة إلى العديد من المناطق والمدن الساحلية كجاية والقل وجيجل وغيرهم من المدن التي استقطبت العديد من المهاجرين الأندلسيين، ومع وجودهم في هذه المناطق ساهموا مساهمة فعالة في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

7_ الحياة الثقافية للأندلسيين في الجزائر: لقد أدى توافد الأندلسيين إلى الجزائر وخاصة دار السلطان على تهميش الإحساس بالانتماء العربي الإسلامي إلى السكان مما أدى إلى توطيد وتدعيم مكانة الفقهاء في المدن وزيادة نفوذ المرابطين في الأرياف منذ فترة متقدمة تعود إلى مبادرات علماء وصلحاء أهل الأندلس في المغرب الأوسط. (هلايلي، 2010، صفحة 81) وعلى الرغم من أن الهجرة الأندلسية المتأخرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين فإن غالبيتها لم تكن من ذوي الثقافات الواسعة التي تمثل الهجرات السابقة من حواضر الأندلس إلا أنها ضمت بعض العلماء والصلحاء والمرابطين من أهل الجزائر مثل سيدي أحمد بن يوسف الملياني سنة 951 هـ/ 1524 م. (سعيدوني، 2013، صفحة 54)

كما دعى بعضهم إلى الجهاد ضدّ النصارى ولم يتوقف نشاطهم عند الدّعوة إلى الجهاد بل إلى الأعمال والخدمات التعليمية مثل الولي الأندلسي "سيدي فرج" و"سيدي يعقوب الشّريف الزّوج القرطبي" وقد كان لهما مكانة لدى سكان الأطلس البليدي إضافة إلى "سيدي أحمد الكبير" الذي أيد خير الدّين في حكمه للجزائر و"سيدي علي بن مبارك الأندلسي" الذي إلّف حوله المدجنون بالقلية. (هلايلي، 2010، صفحة 83)

وإضافة إلى ارتقاء العديد من الأندلسيين الوظائف الإدارية والدّينية كالقضاء والإمامة والنّظارة، واشتهر منهم "النيغرو" و"ابن الكبابي" فقد كان احتكارها لميدان التّعليم واحترفوا مهنته بالجزائر في العهد العثماني ونقلوا طريقتهم الخاصّة بهم كما ساهم التّراث الأندلسي في الميدان العلمي في تلقين السّكان طرق وأساليب علمية أندلسية من تصانيف مختلف العلوم العقلية والتقليدية ونظرا لمساهمة ذوي الإصلاح والعلم من الجماعة الأندلسية الموريسكية فيما أسّسوه من زوايا وما أنشؤه من معاهد للعلم ذات مستوى عالي نذكر منها:

_ زاوية أهل الأندلس بعي مسيد العدالة بمدينة الجزائر سنة 1639 م

_ زاوية سيدي أحمد الكبير الأندلسي بالبليدة

_ علي بن مبارك بالقلية. (سعيدوني، 2013، صفحة 56)

هذا إضافة إلى الزّوايا الأخرى التي عمل بها الأندلسيون في بني جعاد وبني خليل وسماته وقرمونة كما كانت لهم مساهمات في نشاط الزّوايا في بلاد القبائل كزاوية الشّيخ محمد التّواتي بجاية و زاوية سيدي عبد الرّحمن بن سعيد اليلولي 1105 هـ/ 1694 م (سعيدوني، 2013، صفحة 57)

أمّا في الميدان الفنّي فقد نشط الأندلسيون الحياة الفنّية بإيالة الجزائر من خلال الموسيقى التي طوّروها والموشحات والأزجال المألوف وقد تناول الغناء الأندلسي وصف الطبيعة والمولدات والإخوانيات التي تعكس النّمودج الأندلسي المغربي التي حافظت عليه الأجواق المحليّة بالجزائر والبليدة وشرشال وجاية وتلمسان. (هلايلي، 2010، صفحة 84)

وممن اشتهر بقصائد المدح (المولديات) أبو العباس أحمد بن يحيى الجزائري الأندلسي مفتي المالكية 1766م وصاحب لواء التصرف في قلائد العصر ونحله اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب و يماثله في ذلك أيضا عمر بن محمد بن سيدي علي قاضي الحنفية 1163هـ/ 1749م وكذلك محمد ابن الشاهد المتوفى سنة 1207هـ/1793م. (سعيدوني، 2013، صفحة 58)

كما أنّ سكان تلمسان الحافظ على جانب كبير من التراث الموسيقي الغرناطي ومن اشتهر بذلك "عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب الأندلسي" المتوفى سنة 1776م بنظم الموشّحات وتلحينها وقد نسب إليه 3034 قطعة شعرية مألوف معظمها عبارة مدائح. (هلايلي، 2010، صفحة 85)

خاتمة:

رغم تعرّض الأندلسيين إلى أعظم محنة في تاريخهم فإن أكثرها إيلا ما هو أنّ الاسبان الذين طردوهم وامعنوا في الإساءة إليهم وتفننوا في أساليب التعذيب ومحاكم التفتيش فإن أسلافهم في غالبيتهم العظمى من رعايا عرب الأندلس الذين عاشوا في ظل الدولة العربية احرارا مكرمين وإذا كان أفول الدولة العربية الاسلامية في الأندلس فقد سطع نجم العثمانيين وما قاموا به اتجاههم من إنقاذ وحماية للمناطق التي استقروا بها من التهديدات المسيحية الإسبانية ورغم هذه المأساة فقد كان لهؤلاء الأندلسيين دور كبير في مختلف الميادين و المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية حيث برز العديد من العلماء والصّحاء والعديد من الزّوايا والمساجد والمدارس أثرت هذه المجالات.

قائمة المراجع:

- _أبو بكر حسوني. (30 جوان، 2010). مخطوطة رسالة الإمام أبي العباس أحمد بن أبي جمعة المغربي مفتي الدّيار الوهرانية. *المجلة الجزائرية للمخطوطات*، ج7، ص6، صفحة 156.
- _أحمد بن يحيى الونشريسي. (1990). *المعيار المعرب والجامع المغرب على فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب*. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ج2.
- _أحمد بن يحيى الونشريسي. (1996). *أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر وما يترتب عليهم من العقوبات والزّواجر*، تح: حسين مؤنس. الظاهر، القاهرة: مكتبة الثقافة الدّينية.
- _إسماعيل ياغي. (1995). *الدولة العثمانية في التاريخ الحديث*. الرياض، المملكة العربية السعودية: مكتبة العبيكان.
- _توفيق المدني. (1968). *حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792*. الجزائر: دار البعث.
- _جمال يحيواوي. (2004). *سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1615م*. الجزائر: دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع.
- _حنيفي هلايلي. (2010). *أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي*. عين مليلة، الجزائر: دار الهدى.
- _صالح عباد. (2012). *الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م*. الجزائر: دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع.

- _ عبد الحكيم العفيفي. (2000). موسوعة 1000 مدينة/إسلامية. بيروت، لبنان: أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع.
- _ عبدالرحمن الجيلالي. (محرم/جانفي، 1395هـ/1975م). تحقيق موقع مدينة برشك. مجلة الأصالة.
- _ مرمول كبرخال. (1984). إفريقيا. تر: محمد حجي، الرباط، المغرب: المعارف الجديدة.
- _ مجهول. (2009). سيرة المجاهد خير الدين بربروس. تح وتق وتع: عبدالله حمادي دار القصبة للنشر. (خلال المعاهدة المبرمة بين الملكين الكاثوليكين إيزابيلا وفرديناند وأبي عبدالله الصّغير والتي تضمّنت 47 بنداً ورد ذكرها في كتاب دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران لصاحبه العلامة محمد بن يوسف الزيّاني وفي رسالة الاستغاثة التي أرسلها الأندلسيون على شكل قصيدة شعرية إلى السلطان بايزيد الثاني سنة 1501م، قد ذكر أنّ عدد بنودها 55 بنداً أو شرطاً وذلك من خلال إحدى أبيات هذه القصيدة بقوله:
- غير ذلك من شروط كثيرة تزيد عن الخمسين شرطاً بخمسة.
- _ محمد الأمين بلغيث. (31, 12, 2017). الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومنتجة، دراسة مهداة إلى الأستاذ موسى لقبال، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر. تاريخ الاسترداد 02, 29, 2023، من الجزائر أونلاين: <https://www.google.com>
- _ محمد بن يوسف الزيّاني. (2013). دليل الحيران وأنيس السهران بأخبار مدينة وهران، جمع وتقديم: المهدي بوعبدلي. الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1.
- _ محمد رزوق. (1998). الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. الدار البيضاء، المغرب: إفريقيا الشرق.
- _ ناصر الدّين سعيدوني. (2013). دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر. الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع.
- _ نور الدّين عبد القادر. (2006). صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم العصور إلى إنتهاء العهد التركي. بئر توتة، الجزائر: دار الحضارة.

الإرث التاريخي والثقافي والحضاري للموريسكيين في الوطن العربي: المغرب الأقصى نموذجاً.

The historical, cultural and civilizational legacy of the Moriscos in the Arab world: Al-

Aqsa Morocco as a model.

الاسم والنسب: حكيم بلبشير

الدرجة العلمية: طالب باحث بسلك الدكتوراه.

التخصص: ثقافة وتواصل.

مؤسسة الانتماء: جامعة محمد الأول بوجدة، المملكة المغربية.

Hakim belbachir. University Mohammed 1 oujda. Kingdom of Morocco.

ملخص الدراسة:

عرفت بلاد الأندلس حضارة إسلامية عظيمة امتدت لأكثر من ثمانية قرون، لكن تسرب الضعف بين حكامها، وانشغالهم بملذات الحياة الدنيا ومتاعها، مكن المسيحيين من دخول الأندلس وطرد من كان فيها من المسلمين. فكانت بلاد المغرب الأقصى وجهة للعديد من هؤلاء الأندلسيين، الذين حملوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وعلومهم، فأصبحت بذلك قيمة مضافة أغنت الحضارة المغربية. فالحضارة الأندلسية بعلمها وفنونها المختلفة في كل المجالات من أدب، وشعر، وفقه، وطب، وفلك، وصناعة، وفلاحة، وعمران وغيرها، كان لها الأثر العظيم على الحياة الثقافية والعلمية والاجتماعية في بلاد المغرب الأقصى. لقد أدخل الأندلسيون إصلاحات كبيرة على قطاع التعليم التقليدي المغربي، فتطورت مختلف العلوم اللغوية والعلوم الحقة، وتحسنت بذلك الأوضاع المعيشية والصحية للمغاربة بتطور التعليم. كما تأثر المغاربة بالأندلسيين في نمط عيشهم، فتغيرت طريقة لباسهم وطعامهم، وأصبح المغاربة يعتنون أكثر بمظهرهم، وتعددت فنون الأطعمة والأشربة، وتطورت وسائل الطهي لديهم. واستفاد المغاربة من خبرة الأندلسيين في المجال الفلاحي، فأصبح أكثر عصرة في استعمال وسائل الري واختيار البذور المناسبة للأرض، وزيادة المنتج، إضافة إلى إدخال مزروعات جديدة إلى أرض المغرب. أدخل الأندلسيون فنون جديدة على العمارة المغربية، خاصة في بناء المساجد، والقصور، والبيوت، التي أصبحت تعتمد على مواد جديدة في تزيينها، كالرخام والجبس والزخارف المختلفة، إضافة إلى اعتماد هيكلية جديدة في بناء المدن والقرى الجديدة، تراعي حاجات الناس من مدارس، ومستشفيات، ومساجد، وأسواق، وفنادق وغيرها. لقد تطورت الموسيقى المغربية وآلاتها، بدخول أدوات وأشكال غنائية جديدة مع الأندلسيين، خاصة فن الطرب الغرناطي، والطرب الأندلسي، اللذان لقيتا إقبالا واسعا عند كل المغاربة، فحافظوا عليهما وطوروهما، حتى استمر وجودهما إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية: بلاد الأندلس – المغرب الأقصى – الثقافة – الهجرة – الفتح الإسلامي.

Abstract :

Migration and nomadic life are considered among the old and new constants in the Moroccan-Spanish relations, as the bridges of communication remained stretched out between the two banks of North Africa and the country of Andalusia, so the civilizational, scientific, cultural and trade exchange interaction was standing and same thing holds for the military skirmishes since the Islamic conquest led by Tariq ibn Ziyad And his Moroccan soldiers in the year 92 AH / 711 AD. This situation between Morocco and Andalusia went until the fall of Grabada in the year 897 AH / 1492 AD, leading to the folding of a bright in the history of our Islamic Nation in Andalusia a civilization that was marked by its culture as well as its multiple intellectual and scientific productions in terms of literature, law, poetry, medicine, engineering, etc... This event had

the greatest impact on all Muslims, leading to the start of a journey back to the Far Maghreb as it had first started from it to Andalusia. But that exodus, However, was not voluntary and optional, it rather carried within it the pain of forced deportation, abuse and torture, which the Arabs Muslims, Berbers, and the Jews were subject to; the Jews who lived side by side in an intellectual and cultural cross-fertilization under the flag of Islam in Andalusia.

Key words: Andalusia - Far Morocco - Culture - Migration - The Islamic conquest.

مقدمة:

دفع الضغط المستمر والمتزايد على الموريسكيين ببلاد الأندلس إلى المخاطرة بأنفسهم وأولادهم، في سبيل الهجرة إلى بلدان شمال إفريقيا نجا بدينهم وأعراضهم، ورغم ما في هذه المخاطرة من عواقب وخيمة، تواصلت هجراتهم معتبرين تهجيرهم إلى بلاد الأجداد نعمة ومنة إلهية، تقمهم من العذاب والمذلة التي يلاقونها من الإسبان، خاصة مع تفعيل دور محاكم التفتيش في تعنيف كل من تبين عدم تنصره، وتمسكه بممارسة مختلف الشعائر الإسلامية، ولو بشكل سري وبعيد عن الأنظار. رغم كل الوسائل التي اعتمدها الإسبان في صد المسلمين عن دينهم، من حملات للتبشير وإرغامهم على التعميد، لم يفلحوا في ذلك، لأن قيم العقيدة الإسلامية ومبادئها كانت متجذرة في قلوب المسلمين الأندلسيين. لم يكن من السهل على الأندلسيين الرحيل عن أرضهم التي عمرها أجدادهم، وترك كل ما بنوه بعرقهم وجهدهم وعلمهم، من ضياعات تفننوا في زراعتها وربها، ومن معامل طوروا آلتها وزادوا في إنتاجها، ومن مساجد للعبادة برعوا في بنائها وزخرفتها. لقد قاوم المسلمون الإسبان ما يقارب خمسة قرون، لكن وبسبب ضعف العالم الإسلامي برمته، نتيجة للتطاحنات الداخلية والسباق المحموم على السلطة، لم يحصل الأندلسيون على ما كانوا يتطلعون إليه من دعم، فباءت كل جهودهم بالفشل، فتعرضوا للتقتيل والتعذيب ثم الطرد من أرضهم وبيوتهم. غير أن عزيمة الموريسكيين كانت أكبر من حسرتهم، فكان لإصرارهم على نقل حضارتهم الأندلسية إلى وطنهم الجديد بالمغرب الأقصى، الأثر العظيم على العديد من الميادين الاقتصادية، والفلاحية، والمعمارية، والاجتماعية. فكان لذلك بالغ الأثر في التأسيس لحضارة جديدة ساهمت في بناء المغرب الجديد.

مشكل الدراسة:

حضور الرافد الأندلسي وتأثيره في الثقافة المغربية، من خلال معرفة مدى تأثير اللهجة الأندلسية على اللغة العربية، والتأثير الأندلسي على مناهج التعليم بالمغرب. والحضور المعماري والفني، وحضور اللباس الأندلسي، من خلال تأثيره على لباس الرجل والمرأة في المغرب الأقصى، وحجم تأثير الطبخ الأندلسي على نوع الطعام المغربي. من خلال هذه الدراسة أحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة من قبيل:

- كيف أثر الرافد الأندلسي على خصوصية الثقافة المغربية؟
- ما مدى تأثير اللغة الأندلسية على اللغة العربية المغربية؟
- كيف ساهم التعليم الأندلسي في النهوض والارتقاء بالتعليم التقليدي المغربي؟
- كيف أثر الفن والموسيقى الأندلسية على الحياة الفنية المغربية؟

- كيف تأثر اللباس المغربي بطريقة ونوع اللباس الأندلسي؟

- ما هو حجم التأثير العمرامي الأندلسي على العمارة والزخرفة المغربية؟

أهداف الدراسة:

الوقوف على مدى تأثير الرافد الأندلسي في جوانب الحياة الثقافية المغربية، وسبل حفظ هذه الثقافة من الزوال وضمان استمراريتها للأجيال القادمة.

أهمية الدراسة:

معالجة مسألة حضور الرافد الأندلسي وتأثيره في الثقافة المغربية، من خلال معرفة مدى تأثير اللهجة الأندلسية على اللغة العربية، والتأثير الأندلسي على مناهج التعليم بالمغرب. ثم معالجة مسألة الحضور المعماري والفني، وحضور اللباس الأندلسي، من خلال تأثيره على لباس الرجل والمرأة في المغرب الأقصى.

مصطلحات الدراسة:

بلاد الأندلس: تعرف باسم إسبانيا الإسلامية أو أيبيريا الإسلامية، بعد أن فتحها طارق بن زياد سنة 92 للهجرة. وهي عبارة عن دولة إسلامية كانت قائمة في القارة الأوروبية، تحديداً في منطقة شبه الجزيرة الأيبيرية، التي تضم إسبانيا والبرتغال اليوم، وبقيت في ظل الحكم الإسلامي حتى سقوط غرناطة عام 1492م.

المغرب الأقصى: يقصد به المملكة المغربية بحدودها الحالية، فالمغرب الأقصى هو الجزء الواقع في أقصى الشمال الغربي من إفريقيا، يحده شرقاً الجزائر، وغرباً المحيط الأطلسي، وشمالاً البحر الأبيض المتوسط وجبل طارق، وجنوباً الصحراء الكبرى.

الثقافة: تعتبر الثقافة نتاج التفاعل المجتمعي، وهي مرآت المجتمع، وتعبير عن سلوك أفراد، وعن حضور مختلف الأنشطة والإبداعات، في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والفنية، وهي دليل التواصل بين أفراد المجتمع، على اختلاف عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم. ويعرف المفكر المغربي محمد عابد الجابري الثقافة بقوله: "هي ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات التي تحفظ لجماعة بشرية، تشكل أمة أو ما في معناها، هويتها الحضارية في إطار ما عرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء" (محمد عابد الجابري، 1994، ص 213).

الهجرة: معناها الرحيل عن البلد، أو ترك الشيء والتخلي عنه، وهي انتقال الأفراد من مكان إلى مكان آخر بغرض الاستقرار ويكون ذلك بشكل فردي أو جماعي، والهجرة ناتجة عن مجموعة من الأسباب، كسوء الأوضاع الاقتصادية في البلد الأم، و انتشار الحروب الأهلية، وقد تكون من أجل طلب العلم والدراسة وغيرها.

الفتح الإسلامي: مصطلح إسلامي ظهر مع بداية نشر الدين الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية، والدعوة إلى توحيد الله عز وجل، والقضاء على الشرك، ونشر قيم الدين الإسلامي الحنيق بين الناس على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم.

أولاً: الحضور اللغوي والعلمي الأندلسي ببلاد المغرب الأقصى.

1- التأثير الأندلسي على اللغة العربية بالمغرب الأقصى.

كانت تأثيرات الأندلسيين على المغرب الأقصى أعظم من أي عنصر خارجي آخر، وذلك نتيجة لمجموعة من العوامل، أهمها: "عامل الدين الإسلامي أولاً، والجوار ثانياً، ولأن المغرب والأندلس تبادلتا التأثيرات السياسية والحضارية منذ الفتح العربي الإسلامي. وعندما أخذت أوضاع الأندلس تضطرب، قصدت المغرب وفود المهاجرين الأندلسيين وتزايدت هجراتهم بعد النكبة الكبرى وسقوط غرناطة (1492م). إذ انتشروا في جميع المدن والقرى واستقروا خاصة في بعض المدن مثل تطوان وفاس ومراكش والرباط وغيرها، وقد أوهم المغاربة وتفاعلوا معهم إلى حد بعيد". (عبد الكريم كريم، 2006، ص 279). شهدت أرض المغرب الأقصى عدة تداخلات لغوية، كاللغة الفينيقية واللغة الأمازيغية واللغة العربية، وغيرها من اللغات التي وجدت في المغرب أرضية خصبة لنشأتها وترعرعها، خاصة لغة الأندلسيين بحكم الجوار والهجرات المتكررة من وإلى المغرب، فكان أول من تأثر باللغة الأندلسية سكان الشمال المغربي، وخاصة البحارة منهم، لاحتكاكهم المستمر بالبحارة والتجار الأندلسيين القادمين من الديار الإسبانية، حتى غدت لغة معظم سكان المناطق الشمالية من المغرب هي اللغة الأندلسية، والتي كانت عبارة عن خليط من اللغة العربية والأمازيغية المشبعة باللغة الإسبانية الوافدة إليهم من وراء البحر. وبذلك استطاعت اللغة العربية اقتباس عدة ألفاظ ومصطلحات أندلسية ومغربتها بالتدرج، فأصبحت تستعمل بشكل طبيعي في الخطاب اليومي للمغاربة.

لم يكن للأندلسيين تأثير كبير على لغة المغاربة قبل القرن السابع عشر ميلادي، حيث كانت هجرتهم محدودة إلى حد ما، وكانت تقتصر على بعض التجار فقط، حيث ظل تأثيرهم على اللغة العربية يقتصر على إضافة حرف أو أكثر على بعض الكلمات العربية، أو إدماج حرف مكان حرف آخر حتى يسهل نطقها، "لا وجود لهزمة المضارع في العامية الأندلسية، فهم يستعملون النون للمتكلم المفرد، كما يستعمل للمتكلم ومعه غيره مع التفريق بينهما بزيادة الواو في الحالة الأخيرة، نمشي = امشي، نخرج = اخرج، نجلس = اجلس. أما حرف الجر، فيرد في الغالب متصلاً بالمجرور بعد حذف الجر: (في)، يرد في الغالب متصلاً بالمجرور بعد حذف حرف الياء منه وفتحه نحو، فالجبل = في الجبل. كما تمتاز العامية الأندلسية بزيادة كاف في أول الفعل المضارع، فيقال في (يكتب): كيكتب" (محمد رزوق، 2014، ص 343). زاد تأثير الأندلسيين على لغة المغاربة بعد التهجير القسري الذي تعرض له الأندلسيون إبان القرن السابع عشر، وصدور قرار الطرد في حقهم واستقرارهم بعدة مناطق مغربية، واحتكاكهم بالمغاربة. أصبح المغاربة يستعملون كلمات إسبانية الأصل ضمن قاموسهم اللغوي اليومي، مما ساهم في انتشار اللغة الإسبانية بشكل واسع خاصة في المناطق الشمالية، كمدينة تطوان وشفشاون وآسفي، ومناطق من غرب المملكة كعدوتي الرباط وسلا.

ومن بين الكلمات الإسبانية التي أصبحت متداولة بشكل واسع بين كل المغاربة، حتى أصبحنا نعتقد أنها من أصول عربية: (الجدول) " (محمد رزوق، 2014، ص 344).

اللفظ باللهجة المغربية	مدلوله	اللفظ الإسباني
بابور	باخرة	Babor
براكة	كوخ	Barraca
بلاصة	ساحة	Plaza

Blusa	لباس	بلوزة
Pandera	دف	بندير
Duro	نقد اسباني	دورو
Rueda	العجلة	الرويدة
Ruina	تخريب	الرويدنة
Tabaco	تبغ	طابة
Capote	معطف	كبوط
Carro	عربة	كارو
Carta	ورقة اللعب	كارطة
Comer El pan	خبز	كومير
Culata	بندقية	كلاطة
Gamela	قدر	كاميلا
Guerra	حرب	كيرة
Lampara	مصباح	لامبة
Luisa	نبات طيب يستعمل في الشاي	لويزة
Armario	خزانة ملابس	الماريو
Falta	خطأ	فالطة

بلغت اللغة العربية شأنًا عظيمًا في المغرب الأقصى، بفضل العديد من العلماء والأدباء الذين وفدوا على المنطقة بعد ترحيلهم من الأندلس، فارتقت اللغة العربية في مختلف المجالات الاجتماعية، من سياسة وثقافة واقتصاد وعلوم وغيرها. كان لهؤلاء العلماء تأثير كبير على البلاد وأهلها، فكانت المدارس والمساجد والزوايا تعج بالعلماء الأندلسيين، في العديد من المدن المغربية كفاس والرباط وآسفي والدار البيضاء ومراكش وغيرها؛ علماء برعوا في فنون وعلوم مختلفة، كالعلوم الشرعية، وعلوم اللغة، والعلوم الإنسانية، وغيرها من العلوم الطبيعية، والعلوم الحقة كذلك.

2- التأثير الأندلسي على مناهج التعليم بالمغرب الأقصى.

إلى جانب الاهتمام باللغة، يحظى التعليم بعناية بالغة في المجتمعات الإسلامية عامة، وبلاد المغرب الأقصى على وجه الخصوص، وذلك لمساهمة الفعالة في بناء الحضارة الإنسانية، نظرا لما يتسم به من القدرة على الحفاظ على مقومات الأمة، واكتساب خبرات وتجارب أمم أخرى بتبادل المعارف والمكتسبات الثقافية بين الشعوب. لا شك أن التعليم في

المغرب طرأت عليه تغييرات كبيرة، نتيجة لمختلف التأثيرات التي خضع لها بعد سقوط غرناطة. لقد كان التعليم في المغرب تعليماً تقليدياً، يقتصر على تحفيظ القرآن الكريم في مختلف المداشر والقرى، حيث أن أهل المغرب الأقصى كان "مذهبيهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم، بالجملة، وهذا أهل الأمصار بالمغرب، ومن تبعهم من قرى البرير" (ابن خلدون، ب ت، ص 292). فمنهج التعليم بالمغرب كان "يعتمد القرآن وحدة مستقلة في التعليم، وحفظه وتجويده غاية في نفسها، والحفظ وسيلة لا غاية" (الحسن السائح، 1986، ص 214). إذا كان هذا حال التعليم بالمغرب، فإنه قد بلغ في الأندلس مرتبة عالية من التقدم والتنوع، حيث لا يقتصر على بعض العلوم الشرعية فقط، بل تعداها ليصل إلى مختلف العلوم المرتبطة باللغة من شعر وأدب وزجل، إذ بلغ "الشعر عندهم موضع التقدير السامي من أي عصر، جاهلي أو إسلامي، وفي أي غرض قيل، حماسة أو مديحاً، هجاء أو رثاء، خمريات أو غزلاً، وفي أي شكل كانت القصيدة، تقليدية موحدة البحر والقافية، أو متنوعة، في الفصحى أو جاءت عامية خالصة، كما هو الحال في الزجل، وهو ابتداء إسباني سرعان ما بلغ مرتبة عالمية من الإقبال والتقدير. وكان السجع يستخدم في الرسائل الرفيعة، وأحياناً في العادي منها، وفي الخطب الجامعة، والدينية، أو في حفلات البلاط، وفي الكتب الأدبية والتاريخية، وهو صعب الكتابة، ويحتاج إلى مراس، ويتطلب معرفة واسعة عميقة باللغة، ويشهد لكاتبه بالذكاء والثقافة، ويدرسه الطلاب في المدارس" (خوليا ريبيرا، 1994، ص 63). ازدهرت بالأندلس مجموعة من العلوم الأخرى، كالفلسفة والطب والحساب وغيرها، إلى جانب اهتمامهم بالقرآن الكريم وعلومه. "وأما أهل الأندلس فمذهبيهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل، وأخذهم بقوانين العربية، وحفظها، وتجويد الخط والكتابة، ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشيبه، وقد شد لبعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتابة، وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيهما سند لتعليم العلوم" (ابن خلدون، ص 431).

نتيجة لتنقل العديد من المعلمين الأندلسيين إلى المغرب واستقرارهم بأرضه، ساد المنهج التعليمي الأندلسي بالمغرب، وتأثرت العديد من المدن المغربية بهذا المنهج التعليمي، "ويكفي أن نذكر علماء مدرسة إشبيلية، عندما خرجوا منها إثر وقوعها في يد النصارى، وحملوا معهم إلى المغرب تقاليدهم المتوهجة، أو أن نشير إلى أبي حيان، وكان يلقب بشيخ النحلة لعلمه الغزير في هذا الباب، وكان إلى جانب ذلك واسع المعرفة بفروع أخرى من العلوم الإسلامية، كالتفسير، والحديث، والشروط والفروع، وتراجم الناس وطبقاتهم" (خوليا ريبيرا، 1994، ص 61). زاد الاهتمام بالتعليم عموماً في جميع مراحلها وخاصة في مراحلها الأولى من التعليم الابتدائي، "وتتجلى خصائص التعليم المغربي في التكوين الأولي، وما يسمى بالتعليم الابتدائي والاهتمام بإصلاح مناهج التعليم وأساليبه، وقد اشتغل بذلك مفكرو المغرب والأندلس، وقلما تخلو كتب رجال الفكر المغربي والأندلسي من ملاحظات في ميدان التعليم والتربية. ولعل من أهم ما ظهر من آراء تعليمية في هذا العصر نظرية ابن العربي المولود سنة 468 والمتوفى سنة 541" (الحسن السائح، 1986، ص 210). فالقاضي أبو بكر بن العربي يرى في

نظريته "أن يقتصر المتعلم في التعليم الأول على البلاغة والنحو وعلومه العربية كلها، ويقدم إليه من نصوص الأدب البليغ ما يقوم به إدراك الطالب ويربي ملكته، فإذا أخذت ثقافته الأدبية تقوى وتتأصل ينقل إلى الحساب والرياضيات، فإذا تمت الملكة الرياضية فيه وتمكنت الدراسة من فكره فيكون قادرا على إدراك معاني القرآن والتخلق بهديه" (الحسن السائح، 1986، ص 211). كان لدخول الأندلسيين إلى المغرب آثار إيجابية في مجال التعليم، حيث نقل الأندلسيون طريقتهم الخاصة في ميدان التعليم، "التي تجاوزت الطريقة المغربية التقليدية، التي كانت تعتمد على حفظ القرآن، واستظهار الحديث النبوي، إلى طريقة البحث والتفكير، والاعتماد على أسلوب المحاور والمناقشة، كما عمل الأندلسيون على نشر خطهم حتى ساد على الخط المغربي" (حنفي هلايلي، 2010، ص 83).

انتشرت المدارس الأندلسية في معظم المدن التي استقر بها الأندلسيون، وأصبحت مناهج التعليم بالمغرب أكثر حداثة نتيجة للتأثير الأندلسي عليها، "فمناهج التعليم المغربي كانت مقتبسة أو متأثرة بالأسلوب الأندلسي" (الحسن السائح، 1986، ص 216). إلى جانب التأثير على المناهج التربوية المعتمدة في التعليم المغربي، أثر الأندلسيون في البرامج التعليمية التي كانت تلقن للمتعلمين في مختلف المستويات، ففي الجانب الفقهي، انتشر المذهب المالكي بشكل واسع، حتى أصبح أهل المغرب كلهم كالأندلس مالكيي المذهب حيث "أن مرحلة تشخيص المذهب المالكي بدأت في مصر والأندلس بصفة مبكرة أي منذ أواخر القرن 2هـ/8م، بينما انطلقت تلك المرحلة في إفريقية مع أسد بن الفرات (ت828/213) وسحنون بن سعيد" (نجم الدين الهنتاتي، 2004، ص 27). فالبرامج الدراسية الفقهية من متون وشروح وتعليقات، اكتسبت هي الأخرى طابعا أندلسيا في أساليب وطريقة تدريسها، فأصبح تدريسها يعتمد على ما جاء في أمهات الكتب التقليدية، مثل كتاب 'الموطأ'، ومصنفات الفقه مثل 'مدونة الإمام سحنون'، ورسالة أبي زيد القيرواني، "وإذا كان المذهب المالكي في إسبانيا يدين بالفضل للأسرة الأموية المالكة، لأنها خصت الفقهاء الذين ينتمون إليه بالمناصب العامة، فإلى هؤلاء أيضا يعود الفضل في أنهم فتحوا الطريق أمام الأمويين لكي يجعلوا يوما من إسبانيا الإسلامية وشمال غرب إفريقيا، حيث انتشر مذهبهم وبلغ تأثيرهم غايته، دولة واحدة. وقد استطاع الفقهاء أن يحملوا إلى جانب العقيدة الدينية والأخلاقية الإسلامية، المبادئ القرآنية، وهدى الرسول عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى التعلم والدرس، إلى كافة الأقطار التي بلغها الإسلام وكان ذلك موضع الإجلال منها، إجلال يبلغ درجة التقديس أحيانا. وإلى جانب هذا الواقع، فإن الشعوب التي ظلت تحتفظ بتقاليدها العلمية، أقبلت على تجديدها" (خوليا ريبيرا، 1994، ص 24).

إضافة إلى المجال الفقهي، زاد الاعتماد على المؤلفات الأندلسية في مجال الأدب، والطب، والحساب في تلقين الطلبة المغاربة مختلف المبادئ الأساسية في معظم المجالات العلمية. أصبحت التأليف الأندلسية سواء ما نقل من الأندلس أم أُلّف بالمغرب محل اهتمام كبير، فاعتمدها الأساتذة، وأقبل عليها الطلبة، وأصبح لها مكانة خاصة في مضمون البرامج الدراسية في مختلف المدارس والمؤسسات العلمية. كما أخذ المغاربة عن الأندلسيين فن وعلم الترجمة، حيث "برز الأندلسيون في هذا الميدان أيضا، إذ كان يرجع إليهم في ترجمة المعاهدات والمراسلات الرسمية، ووجد من بينهم علماء نقلوا إلى اللغة العربية كتب إسبانية في الطب والصيدلة والفلك، والفنون الحربية ونشير إلى أن الترجمة بالنسبة لهم لم تكن مجرد عمل لتحقيق هدف معرفي، بل تتجاوز ذلك بكثير فهي مرتبطة أساسا بشيئين:

_ إنها جزء من جهادهم ضد الإسبان، فالطب والصيدلة لعلاج المسلمين وتقويتهم ضد الأعداء، والفلك لمعرفة أوقات الصلاة والشهور، والمدفعية لتقوية أسلحة المجاهدين.

_ وهي مرتبطة من جهة ثانية بقدسية اللغة العربية بالنسبة لهم، لأن هذه الأخيرة تؤدي مباشرة إلى ذكر الله في حين أن العجمية تؤدي مباشرة إلى ذكر الشيطان، ولذلك فإنهم كانوا كثيراً ما يحجمون عن ترجمة الكتب العربية للمورسكيين الذين لا يعرفون اللغة العربية" (محمد رزوق، 2014، ص 333). ترجمت العديد من الكتب الأدبية والأبحاث العلمية إلى اللغة العربية، خاصة في عهد الخليفة السعودي أحمد المنصور العالم والأديب، إذ "شجع المنصور تعريب هذه العلوم وحث أصحاب الاختصاص على التأليف فيها. وقد نشط الأندلسيون بصفة خاصة في هذا المجال وقاموا بترجمة كثير من المؤلفات العلمية الأوربية وتعريبها: فقد عرب أبو القاسم الغساني الشهير بالوزير الأندلسي الفاسي للمنصور جملة تأليف رفعها إلى المقام الأحمدي المنصوري العلوي منها: مغني اللبيب عن كتب أعداء الحبيب. وعرب العالم الأندلسي الشهاب أحمد الحجري في هذا العهد كتاباً تحت عنوان: كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع، تعرض فيه إلى اختراع البارود والآلات الحربية، وعدد أنواع المدافع النارية والحجرية وطريقة صنع قنابل المدافع" (عبد الكريم كريم، 2006، ص 320).

وخلاصة القول، لقد انتقل التعليم بالمغرب منذ قرون بفضل التواجد الأندلسي، من تعليم تقليدي يعتمد على شحن ذاكرة التلميذ بالمعلومات، إلى تعليم عصري، يعتمد على الإدماج والبحث والتجديد، فانتهت بذلك حقبة كان الطالب يعتبر فيها مجرد وعاء يقوم الشيخ بملئته بمختلف المعلومات في شتى العلوم، فهذه المنهجية رغم أهميتها وفضلها في تكوين طلبة ملمين بمختلف العلوم الدينية، إلا أنها لم تكن تفتح المجال أمامهم من أجل البحث والتجديد والابتكار، في مختلف العلوم والمجالات المرتبطة بحياتهم اليومية، كالطب والهندسة والزراعة وغيرها.

ثانياً: الحضور الفلني الأندلسي.

عادة ما يُعبّر الفن الهادف عن المستوى الحضاري، ومدى تقدم الدول، ومقدار الرخاء الاجتماعي الذي يعيش فيه مواطنوها، كما أن تعدد الأشكال الفنية يعتبر دليلاً على انفتاح، أو تعاقب حضارات مختلفة على أرض وطن ما. ولعل هذا ما يعكسه تعدد الأشكال الفنية بأرض المغرب، خاصة في مجال الموسيقى، حيث يختلط الفن الشرقي والغربي بأنماط موسيقية أخرى، بعضها قادم من بلاد الأندلس وجدت في مدن مغربية مختلفة اقبالا كبيراً عليها، سواء في شمال أو غرب أو شرق المملكة. "وإذا كانت الموسيقى من أطف الفنون وأجملها، تحن إليها الطباع في التعبير عن الهواجس النفسية وتصبوا إليها العواطف والحواس في شوق وإيناس فإن من أرقاها الموسيقى الأندلسية عند المغاربة وغيرهم من ذوي الأذواق السليمة لما ينتج عنها من الصفاء القلبي وتحليق الوجدان في سماء الفن الروحي اللطيف" (عبد الله السويدي، 1979، ص 184).

اهتم الأندلسيون بالموسيقى والرقص والغناء، باعتبار ذلك وسيلة للترفيه عن النفس والتعبير عن الذات، خاصة بعد دخول زرياب -هو "علي بن نافع أبو الحسن" (محمد حسن قجه، 1985، ص 77) - للأندلس قادماً إليها من العراق. كما حظيت الحركة العلمية والفنية بالأندلس باهتمام خاص من أمراء قرطبة وخلفائها، فتألقت الفنون وازدهرت العلوم والآداب وارتفعت الأذواق لدى الخاصة والعامة. ولقد اعتبر فن الغناء والموسيقى والرقص في الأندلس منذ طليعة القرن الثالث الهجري أكثر وسائل اللهو شيوعاً وتفشياً في المجتمع الأندلسي" (محمد أحمد أبو الفضل، 1996، ص 244). منذ أن

دخل زرياب بلاد الأندلس "عام 206هـ/822م" (ليفى بروفنسيال، 1994، ص 68)، زاد الاهتمام بالفن والغناء في معظم الحواضر الأندلسية كقرطبة وإشبيلية، "إن المعروف أن الأندلس صارت منذ وفد إليها زرياب من بغداد معهداً فنياً للغناء، تعطى دروسه في قصور المترفين من الملوك والرؤساء، وتحشد طلابه وطالباته من أولى الحناجر الذهبية، والمواهب الفنية من شبان وشابات ومن حرائر وإماء" (محمد رجب البيومي، 1980، ص 94)، كما عرف عهد زرياب تأسيس أول مدرسة بالأندلس وشمال إفريقيا تعنى بفن الرقص والغناء، "فهجرة زرياب إلى الأندلس عام 206 هـ أحدثت في مجتمعها تغييراً كبيراً بما أدخله من عادات جديدة، وبما أشاعه من تقاليد راقية، وبما بعثه في المجتمع الأندلسي من روح التأنيق والتجميل، بالإضافة إلى إشاعة الموسيقى والغناء وتأسيس أول مدرسة أندلسية لهذين الفنين" (خليل إبراهيم السامرائي، 2000، ص 425).

انعكس هذا الفن الأندلسي على المغاربة قاطبة، خاصة بعد الهجرات المتتالية للموريسكيين بعد سقوط غرناطة، حتى غدا أنواعاً منتشرة في كل أرجاء المغرب. ومن أهم الفنون الموسيقية المغربية المستوحاة من التراث الأندلسي، فن الموشحات والأزجال الأندلسية، فن الملحون والطرب الغرناطي، فن الإنشاد الصوفي، والموسيقى الأندلسية، "فسرعان ما أخذت الموسيقى الأندلسية سمات الأصالة كاملة، وسرى تقليدها، ولا يزال، في كافة أنحاء المغرب الإسلامي قويا وحادرا" (ليفى بروفنسيال، 1994، ص 69).

انتشرت الموسيقى الأندلسية بشكل واسع بمعظم تراب المغرب الأقصى، وعرفت بعدوية ألفاظها وحسن أشعارها وألحانها. كما ارتبطت عادة بمختلف المناسبات الدينية، كعيد المولد النبوي، وعيد الأضحى، وعيد الفطر، "وما زالت الموسيقى الأندلسية والطرب الغرناطي يحتلان فضاء متميزاً بل يعتبران من أسس الذات المغربية. يكفيننا أن نشير إلى المناسبات والأوقات التي تداع فيها هذه الموسيقى في الأعياد والأفراح وثبتها الإذاعة المغربية منذ سنوات مباشرة بعد وجبة الغداء" (عبد المجيد القدوري 2001، ص 84). ويحضر الفن الأندلسي كذلك في بعض المناسبات الخاصة كالأعراس وغيرها، "ومن المؤثرات الأندلسية في رباط الفتح وسلا انتشار فن الطرب الأندلسي في حفلات الزفاف" (محمد عبده حتامله، 2000، ص 903).

يعتمد هذا الفن القادم من وراء البحار عادة في تقديم لوحاته المختلفة، وأشعاره ومواويله على اللغة العربية الفصحى، لذلك فهو يرتبط في الغالب بطبقة النخبة في المجتمع المغربي، باستثناء بعض المقاطع التي عادة ما تقدم في بعض المناسبات والاحتفالات العائلية كالأعراس وغيرها، ومنها مقطع 'شمس العشيّة'. "ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور، لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقتة بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فنا سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على منحهم لهذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة" (ابن خلدون، ص 825). وعموماً "يمكن تقسيم انتشار الموسيقى الأندلسية بالمغرب إلى مرحلتين:

- المرحلة الإشبيلية: وهي تبتدئ انطلاقاً من العصر المرابطي إلى غاية العصر المريني.
- المرحلة الغرناطية: وتمتد من الفترة الوطاسية إلى غاية بسط الحماية على المغرب" (محمد رزوق، 2014، ص 354).

غير أن الملاحظ هو أن الموسيقى الإشبيلية لم تصمد كثيرا أمام الموسيقى الغرناطية، فهي لم تعمر طويلا أمام زحف الطرب الغرناطي بمختلف المدن المغربية، ولم تلق اقبالا كما هو الحال بالنسبة للموسيقى الغرناطية، "إن أسلوب إشبيلية مثلا قد استمر في تونس، وأسلوب غرناطة عاود الظهور في فاس وتطوان وأسلوب قرطبة في تلمسان" (سلي الخضراء الجيوسي، 1999، ص 822). شهد العصر المريني والوطاسي ازدهارا ثقافيا وفنيا ملموسا، نتيجة للهجرات المتعاقبة للموريسكيين إلى أرض المغرب، لقد "عرف عصر المرينيين حدثا فنيا خطيرا كان له أكبر الأثر في إغناء التراث الموسيقي ونشر المعارف الموسيقية بالمغرب وفي سائر أوساطه: فقد هاجرت إلى العدو المغربية جموع غفيرة من مسلمي بلنسية، وكانت مدن المغرب وبخاصة فاس الوجهة الأولى لهؤلاء المهاجرين، فنشأ عن ذلك أن تلقى المغرب أسلوب الأليف البلنسي. وقد ظل الأسلوب البلنسي سيد الموقف بقية القرن السابع وطيلة القرن الثامن والتاسع للهجرة، فلما كانت سنة 893هـ استقبل المغرب – وبخاصة مدينتي تطوان وشفشاون- جموعا غفيرة من الموريسكوس الذين رحلوا عن الأندلس بعد سقوط غرناطة أيام حكم الوطاسيين" (عبد العزيز عبد الجليل، 1983، ص 53).

ومن مظاهر التأثير الأندلسي على الثقافة المغربية، خاصة في المجال الفني ومجال الغناء، دخول أنماط موسيقية جديدة إلى الحقل الفني المغربي وعلى رأسها؛ "الألة، أو ما اشتهر بالموسيقى الأندلسية وهي – كما يدل عليها اسمها- تعتمد الأداء الآلي القائم على الوتيرات والصدمات وبصفة خاصة على الرباب والطرب (ضابط الإيقاع)، وإن كان هذا الأداء يرتكز على نصوص شعرية لضبط إيقاعاته، وخاصة من الموشحات والأزجال؛ وهي بناء متكامل محكم ومنظم يقوم على نوبات وصلت منها إحدى عشرة نوبة، هي الأصبهان، الحجاز الكبير، الحجاز المشرقي، العشاق، الماية، رمل الماية، الرصد، غريبة الحسين، رصد الذيل، عراق العجم، الاستهلال الذي يبدو أنه من إضافة المغاربة. والنوبة عبارة عن مجموع المكونات النصية واللحنية التي يتشكل منها العمل الموسيقي، في نظام تركيب معقد ومنضبط. وهي تقابل ما كان معروفا في المشرق بالدور أو المرة" (عباس الجراري، 2001، ص 206).

كان للمغاربة الفضل في تحسين أداء وجودة الموسيقى الأندلسية، حيث أدخلوا عليها تعديلات هامة ومختلفة، شملت ألحانها وأشعارها كذلك، دون أن تفقد جوهرها وروحها الأصلية، مما زادها جمالا ورونقا وساهم في انتشارها بالعديد من المدن المغربية. "ففي ميدان الألحان: أدخل المغاربة ميزانا جديدا أضافوه للميزانين الأربعة القديمة سموه (الدرج)، وكذلك أضافوا إلى (النوبات) الموسيقية القديمة نوبة جديدة هي الاستهلال، على يد موسيقي من فاس يدعى الحاج علال الطلبة في خلافة عبد الله الغالب السعدي. أما في ميدان الأشعار فقد أدرج المغاربة في هذه الموسيقى أشعارا مغربية عامية تسمى براول (جمع بريولة). كما انتخب المغاربة أشعارا في المديح النبوي على ألحان هذه الموسيقى، دون استعمال أية آلة في الغالب، وبعضهم لحن أشعارا صوفية على نغمات أندلسية لتُنشد في محافل الذكر" (محمد زروق، 2014، ص 355).

يعتبر الطرب الغرناطي من أهم الفنون الأندلسية التي دخلت أرض المغرب، وهو رصيد أدبي وفني رائع، وجد عشاقا له في أغلب المدن المغربية الكبرى، ليكون بذلك مظهرا من مظاهر الترف المغربي، حيث أصبح من الفنون التي تحضر في أغلب المناسبات، والحفلات المغربية المختلفة خاصة لدى الأغنياء. "فالطرب الغرناطي، ونميل إلى أنه النمط الذي حمله الموريسكيون، فعلى الرغم من كونه من 'الألة' إذ كان يطلق عليه 'نوبة غرناطة'، إلا أنه يختص ببعض الملامح التي تتجلى نصا وأداء في طغيان النفس الحزين والإيقاع البطيء مما لا شك يعكس المعاناة القاسية التي كابدها هؤلاء على مدى نحو

قرن قبل أن يستقروا في المغرب. ثم إنه بحكم هذه الظروف الصعبة غدا متقلصا بالنسبة لأصله الذي هو 'الألة' إذ يقتصر على مدخل يعزف بألة وتريّة قد تكون العود أو ما إليها مثل 'المدولين'. وبعده يقوم المنشد بأداء موال يرافق عزف الآلات نفسها، ثم تنشد القصيدة في إطار موسيقي يستعان فيه بعدد من الآلات ويظهر صوت المنشد تعقب أداءه في كل مرة ترديدات المجموعة الصوتية المصاحبة له" (عباس الجزائري، 2001، ص 208).

انتشر فن الطرب الغرناطي في غرب المملكة، خاصة بمدينة الرباط، وذلك نتيجة لاستقرار العديد من الموريسكين المهجرين من بلاد الأندلس بها، إذ "كان المغرب قبلة الأندلسيين المطرودين من إسبانيا في مطلع القرن السابع عشر للميلاد، ولقد استوطن أغلب هؤلاء المدجنين مدينة الرباط، فأحدثوا بها الدور والقصور، وبثوا فيها عاداتهم وتقاليدهم، ونشروا في ربوعها الموسيقى الغرناطية المتأخرة، وقد ظل المذهب الغرناطي منتشرا بالرباط ومتغلغلا في أوساط فنانيها حتى العقد الرابع من القرن العشرين، وكانت الأجواق القائمة بها غرناطية النزعة، برز فيها فنانون كثيرون من بينهم المعلم 'مبيركو' وابن غريبط، وأحمد بناني، وآخرون كان منهم من انخرط في الجوق الوطني للموسيقى الأندلسية" (عبد العزيز عبد الجليل، 1988، ص 187).

كما انتشر الطرب الغرناطي بالعاصمة العلمية للمغرب، مدينة فاس، حيث "كانت فاس على العهد العلوي وما تزال قاعدة أساسية للموسيقى الأندلسية، وينتمي لمذهبيها كل من مراکش ومكناس. ونستطيع أن ننتع مدرسة فاس بأنها أكثر تمسكا بالتقاليد الموسيقية الأندلسية الأصيلة" (عبد العزيز عبد الجليل، 1988، ص 169). إضافة إلى مدينتي الرباط وفاس، أخذت بعض المدن بشرق المملكة، خاصة مدينة وجدة، نصيبها من هذا الطرب، فاشتهرت باحتضانها لهذا التراث الموسيقي الأصيل، الذي يعرف بالموسيقى الغرناطية أو بالطرب الغرناطي، والذي يربط هذه المدينة ببعدها التاريخي والإقليمي، الممتد إلى باقي المدن الغربية الجزائرية، خاصة تلك التي احتفظت بما تبقى من هذا التراث الموسيقي الأندلسي، وطبعته بخصائص وسمات الموسيقى المحلية كمدينة تلمسان. لم تشهد مدينة وجدة استقرارا للموريسكيين عبر التاريخ، حيث كانت محطة عبور فقط، لذلك فمن الراجح أن هذا الفن دخل مدينة وجدة عبر الجزائر، حمله من هاجر إليها من الموريسكيين، ثم أخذ ينتشر في المدن الحدودية مع الجارة الجزائر خاصة مدينة وجدة. "وقفت الموسيقى الأندلسية الجزائرية المعروفة بالطرب الغرناطي إلى جانب موسيقى 'الألة' تفرض نفسها في أوساط الهواة والمحترفين، وعرفت نوعا من النفوذ والانتشار بلغ في بعض المدن المغربية درجة لا يستهان بها، وخاصة مدينة وجدة على الحدود الجزائرية، ومدينة الرباط المطللة على المحيط الأطلسي" (عبد العزيز عبد الجليل، 1988، ص 185). لم تكن مدينة وجدة تحظى بأهمية الأندلسيين المهجرين من بلادهم، كما هو شأن باقي المدن المغربية التي كانت وجهة لأغلب الموريسكيين، كمدن فاس والرباط وشفشاون وطنجة، وغيرها من مدن الشمال المغربي، "يبدو أن المذهب الغرناطي القائم بمدينة وجدة تسرب إليها من تلمسان، وذلك لأنه لم يثبت تاريخيا تواجد عناصر أندلسية هاجرت مباشرة إلى وجدة اللهم أن تكون مجازا عبرته وهي في طريقها إلى تلمسان. ودليل آخر على التسرب المذكور يكمن في توافق أسلوب الطرب الغرناطي في كل من وجدة وتلمسان ونضرومة، وهي كلها تقع بالقرب من الحدود الفاصلة بين البلدين" (عبد العزيز عبد الجليل، 1988، ص 187). رغم ذلك، فالمغرب ورث الرصيد الأكبر من التراث الموسيقي الأندلسي، نظرا لتاريخه المشترك مع الأندلس وقربه منها، واستقباله لأكثر الهجرات الأندلسية المتتالية عبر مختلف العصور. وعموما لقد اشتهر الطرب الغرناطي بالمغرب في

مدرستين أساسيتين، مدرسة الرباط ومدرسة وجدة، حيث سعت كل واحدة منهما إلى حفظ هذا الموروث الثقافي من الزوال رغم ضعف الإمكانيات، وقلة المساعدات، مما دفع بعض الجمعيات التي تعنى بالشأن الفني، إلى تقديم الدعم اللازم لهذا الفن خاصة بمدينة وجدة، كجمعية السلام لقدماء الطرب الغرناطي، ومجموعة زرياب للطرب الغرناطي، وجمعية أوتار غرناطة، وغيرها من الجمعيات التي تسعى جاهدة إلى خدمة هذا الفن. "وقد ظهر في المغرب اتجاهان لهذا الطرب أحدهما في الرباط متأثر مباشرة بالأصل الغرناطي والثاني بوجدة، وفيه بصمات مما كان رائجا من هذا الطرب في القطر الجزائري، ولا سيما في تلمسان" (عباس الجراي، 2001، ص 208).

ارتبطت القصائد المؤدات في مختلف أغاني الطرب الغرناطي أو فن الملحون بمقدمة تعرف عادة بالموشحات أو الأزجال، واسمها مشتق من الوشاح الذي عادة ما تزين به المرأة، أو غيرها من الضباط والشخصيات السامية التي يتم توشيحها في مختلف المناسبات، "اشتقت كلمة الموشحات، على أرجح الظن، من المعنى العام للتزين، سواء كان ذلك وشاحاً أم قلادة مرصعة، أم غير ذلك" (محمد زكريا عناني، 1980، ص 17). وهذا الدرب من الفنون يعود في تاريخه إلى بلاد الأندلس، كما ورد ذلك عن ابن خلدون في قوله: "وأما أهل الأندلس فلما كثرت الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصانا أغصانا يكثر من أعاريضها المختلفة" (ابن خلدون، ص 817). لكن يبقى الخلاف قائماً في أصل الموشحات والزجل، حيث هناك من يرى بأن أصولهما عربية مشرقية، وأنهما ترعرعا في أحضان الفن الأندلسي، لينتقلا بعد ذلك إلى أرض المغرب الأقصى، "نؤكد أن كلا من فن الزجل والموشحات عربيان أصيلان نشأ في المشرق ثم انتقلا إلى الأندلس، ذلك أن الشعر الملحون - والزجل فرع منه - عرف في مستهل الدولة العباسية في القرن الثاني الهجري في بغداد" (مصطفى الشكعة، 1987، ص 85). كما انتقلا فيما بعد إلى الشعر الإسباني والأوروبي عامة، "فقد كان للأدب الأندلسي، وبخاصة الشعر، أثر كبير في نشأة الشعر الأوروبي الحديث في إسبانيا وجنوبي فرنسا، ويأتي تأثير الزجل والموشح بالدرجة الأولى، كما يرى المستشرق الإسباني (خليان ريبيرا) الذي درس موسيقى الأغاني الإسبانية ودواوين شعراء التروبادور، وهم الشعراء الجواله في العصور الوسطى بأوروبا، والمنيسنجر، وهم شعراء الغرام. كما أثبت انتقال بحور الشعر الأندلسي فضلاً عن الموسيقى العربية إلى أوروبا" (خليل إبراهيم السامرائي، 2000، ص 486). وهناك من يرى بأن فن الزجل والموشحات هو صناعة أندلسية خالصة، حيث تم "اختراع الموشحات والأزجال في الأندلس، واستجابة الكثير من الأندلسيين لها، لأنهم رأوها أقرب إلى التعبير عما في أنفسهم، وأسهل في التلحين والغناء، وأنسب للمغنيين المتجولين الذين يتكسبون بغنائهم" (حسن يوسف دويدار، 1994، ص 267).

رغم ما حققته الموسيقى الأندلسية من قفزة نوعية ببلدان المغرب، خاصة المغرب الأقصى، إلا أنها تبقى واحدة من الامتدادات والروافد التي تفرعت عن الموسيقى العربية بمفهومها العام، إذ يعتبر الطرب الأندلسي نوعاً من أنواع الموسيقى العربية التي دخلت أرض الأندلس عن طريق التلاقح الثقافي العربي الإسباني، وذلك منذ الفتوحات الإسلامية الأولى لبلاد الأندلس. لقد وجدت الموسيقى في الأندلس أرضاً خصبة يسودها الانفتاح والتنوع ساعدت على نشأتها وترعرعها، فمنذ العهد الأول للفتوحات الإسلامية لبلاد الأندلس "ظهرت البوادر الأولى للأدب العربي المتمثل في الشعر والنثر والخطابة، فهناك أبيات من الشعر نسبت إلى فاتح الأندلس الأول طارق بن زياد منها:

ركبنا سفينا بالمجاز مقيراً عسى أن يكون الله منا قد اشترى" (خليل إبراهيم السامرائي، ص 314). لذلك فمن الطبيعي أن ترتبط هذه الموسيقى الأندلسية بأصولها من الموسيقى العربية، رغم كونها قد تميزت بخصائص ومميزات أسهمت عوامل شتى في خلقها. فالحضارة الأندلسية لم تنشأ من العدم، بل خضعت لمؤثرات ثقافية وحضارية متنوعة، وعلى رأسها المؤثرات المشرقية والمغربية. لقد "كان الحجاز في القرن الثاني للهجرة مركزا حضاريا هاما للفنون والموسيقى والعلوم الدينية، ففي مجال الفنون، ظهرت الممارسات الموسيقية الأولى في الحجاز وهي عبارة عن الموسيقى العربية الأصلية الممزوجة بالمؤثرات الفارسية والبيزنطية نتيجة حركة الفتوحات العربية، وكان تنافس بين مكة والمدينة في هذا المجال. وسرعان ما انتقل هذا الفن إلى الأندلس عن طريق الجوارى والمغنيين الذين رحلوا إلى الأندلس ونقلوا معهم هذه المظاهر الحضارية" (خليل إبراهيم السامرائي، 2000، ص 317). كما خضعت الحضارة الأندلسية لمؤثرات حضارية إسبانية محلية، وذلك بحكم البيئة التي نشأت فيها، "نكاد نعلن أن الموسيقى الأندلسية وإن كانت من بقايا حضارة العرب وتراثهم المحفوظ في الشق الغربي من الوطن العربي، فإنها حملت معها عبر العصور خصائص ومميزات ظلت تطبع تركيب ألحانها ونظام تأليفها بطابع خاص هو وليد عملية امتزاج الموسيقى الشرقية والمغربية بالموسيقى الإسبانية القديمة" (عبد العزيز بن عبد الجليل، 1988، ص 8). ويعتبر 'زرياب' المغني المشهور هو "من وضع الأصول الأولى لما نسميه الآن بالموسيقى الأندلسية وكان تلميذا للإسحق الموصلي الذي خشي من منافسته له في بلاط هرون الرشيد، فشجعه على مغادرة العراق مقابل مكافأة سخية، وهكذا طوى زرياب المراحل حتى حط رحاله بالأندلس، وقد نقل إليها الموسيقى العربية التي كانت لقحت في الشرق بمؤثرات اغريقية وفارسية، شأن العلوم والآداب التي استمدتها العرب أو لحقتها نفس المؤثرات" (إبراهيم حركات، 2000، ص 159).

إلى جانب المسلمين الموريسكيين، ساهم اليهود ممن هاجروا من إقليم الأندلس في حفظ الذاكرة الأندلسية، حيث نقلوا معهم مختلف الفنون الموسيقية وقاموا بحفظها ورعايتها من الزوال. لقد كان من نتائج انتشار الموسيقى الأندلسية بالمغرب أن كثر المشتغلون والمولوعون بها، لدرجة أن العديد من المدن المغربية أصبحت تحتضن العديد من التظاهرات التي تعنى بالموسيقى الأندلسية، والتي تبدو بعضها مجرد استعراض فولكلوري بينما يسعى بعضها الآخر إلى الجمع بين العروض الموسيقية واللقاءات الفكرية، ومنها 'مهرجان الطرب الغرناطي' الذي ينظم بانتظام ربيع كل سنة بمدينة وجدة.

ثالثاً: حضور اللباس الأندلسي.

إذا كان اللباس وسيلة للتعبير عن جوانب من السلوك النفسي، الظاهر والباطن للإنسان، فهو كذلك نعمة من نعم الله عز وجل على عباده، انفرد به الإنسان عن سائر المخلوقات. واللباس مظهر من مظاهر الحضارة المادية، وشكل من الأشكال الثقافية التي تعكس أحوال المجتمع وأوضاعه ومستوى عيشه، كما يظهر صورة الواقع المعيش، من حيث الانعزال أو الانفتاح ومن حيث المحافظة أو التقليد والتجديد.

عرف المغرب بتنوع أزيائه التقليدية التي ارتبطت عبر التاريخ بحضارات متنوعة تعاقبت على أرضه، فاللباس التقليدي المغربي هو مجموعة الألبسة التراثية والشعبية التي حافظ ومازال يحافظ عليها المغاربة، حيث يظهر جليا تشبثهم بمختلف الألبسة التقليدية، خاصة في الأعراس والمناسبات الدينية، شيوخا كانوا أم شبابا، ذكورا أم إناثا. ومما لا شك

فيه أن الزي التقليدي جزء لا يتجزأ من التراث، فهو أداة تعريف الأمم وشعار لتمييزها، وهو خير شاهد على درجة وعيها وعلى تنوع الحضارات المتعاقبة عليها. ومن الألبسة التي تأثر بها المغاربة منذ قرون وحافظوا عليها وأصبحت رمزا من رموز ثقافتهم العريقة؛ الزي الأندلسي، الذي امتاز بالتنوع من حيث مادته الخام وألوانه وأشكاله.

1- التأثير الأندلسي على لباس الرجل المغربي.

كان تأثير الأندلسيين واضحا على كل مجالات الحياة المغربية، سواء في البادية أم بالمدينة، فالحضارة الأندلسية الإسلامية عمرت ما يقارب ثمانية قرون من الزمن، وتميزت بقوتها وتنوعها وحدائتها، مما جعلها تأثر في المغاربة بشكل كبير. "كان الأندلسيون يتميزون بحياة اجتماعية متطورة في عاداتهم وتقاليدهم ولباسهم وزينتهم وكلها نقلوها معهم إلى رباط الفتح وأصبحت مقومات المجتمع المغربي الحديث" (محمد عبده حتامله، 2000، ص 913). فتأثير الأندلسيين على الحضارة المغربية مس عدة جوانب من الحياة اليومية للمغرب، وعلى رأسها الزي المغربي الذي عرف قفزة نوعية، شملت كل أنواع اللباس، غطاء الرأس ولباس البدن ونعل القدمين. لقد "أثر الأندلسيون أيضا في ميدان اللباس، مع ملاحظة أن بعض الألبسة ظلت محتفظة بشكلها العام وأسميتها، في حين نجد أن أخرى اختفى اسمها الأندلسي وعض باسم مغربي، لكن مع احتفاظها بطابعها الأندلسي. كما لا يخفى أيضا أن هناك عددا من الألبسة الأندلسية التي طورها المغاربة بإدخال تعديلات عليها على مر الزمن، إلى أن وصلت إلينا كما نعرفها اليوم" (محمد رزوق، 2014، ص 350). والأندلسيون أنفسهم تأثروا بطريقة زياب في اللباس، فكان "يحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول، وعلمهم أن يلبسوا ملابس بيضاء من أول يونيه حتى نهاية سبتمبر، كما علمهم أن الربيع هو فصل الملابس الحريرية الخفيفة والقمصان ذات الألوان الزاهية، وأن الشتاء فصل الفراء والملابس الثقيلة" (حسن إبراهيم حسن، ج الثاني، ص 350).

من أهم الألبسة الأندلسية التي تأثر بها المغاربة، حتى أصبحت تعبر عن ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم، 'السلهام' كما يعرف في المغرب، أو 'البرنس' كما يسمونه في بعض القبائل الأمازيغية. "فالتأثيرات الأندلسية على المغرب لازالت واضحة في كل المجالات، حيث أصبحت بعض العادات المستوردة من جوهر الشخصية المغربية، ويبدو أن السلهام ذو أصل قشتالي حسب بعض الاجتهادات التي رأت أن الكلمة تنحدر من كلمة ZULAME" (عبد المجيد قدوري، 2001، ص 84). والسلهام أو البرنس من الألبسة التي لا يخلو منها بيت في البادية أو المدينة، وهي ألبسة "ضيقة من الأعلى وواسعة من الأسفل، ولها قبعات تشبه قبعات الرهبان" (رينهارت دوزي، 2012، ص 72). والسلهام عادة ما يصنع من صوف أو ثوب، ويكون في ألوان مختلفة ومن أهمها الأبيض، ويلبس في كل المناسبات الدينية كالأعياد، والمناسبات الأسرية كالزفاف، ويلبس في أيام القر وأيام الحر كذلك، حيث يمكن صناعته من صوف غليظ وداكن، يقي البدن لساعات البرد شتاء، كما يصنع من ثوب خفيف أبيض. ويرافق السلهام عادة، والذي يغطي معظم جسد الرجل، نعل يسمى 'بلغة'، ويبدو أن اسم بلغة مشتق من أصول لاتينية، "فالأصل اللاتيني الأول Quercus وصيغت منها في الإسبانية لفظة Corcus، وفي لغة المستعربين Qurq Mozarabes ومن هذه الأخيرة أخذت القشتالية Al corque، ومنها أتت الألفاظ الآتية AmBalgaa-Al Borga-Al pargata. ثم انتقلت هذه اللفظة مع المهاجرين الأندلسيين إلى شمال إفريقيا وبها تركزت، وهي لا توجد إلا بهذه المنطقة" (محمد رزوق، ص 351). والبلغة تطلق على نعال تقليدية، تصنع من الجلد ويكون غالبا من لون أبيض أو أصفر أو أسود، وتصميمها بسيط في العادة، وتطرز أحيانا في إحدى جانبيها فقط.

تعتبر الصدرية أو 'البدعية' من الألبسة الأندلسية التي عرفت طريقها إلى أرض المغرب، وهي مما نقله المهاجرون الأندلسيون إلى شمال إفريقيا، لكن المشكلة هي أن اللفظة نفسها لم تكن مستعملة في الأندلس، واستعملت بدلها لفظة (الصدرية). وقد يكون هذا اللفظ مشتق من فعل (أبدع)، فتكون تعني أنذاك لباسا جديدا لم يكن معروف من قبل" (محمد رزوق، ص 351).

ومن الألبسة التي يستعملها المغاربة في تغطية الرأس؛ العمامة والشاشية أو 'الطاقية'، وهذه الأخيرة هي "من الألبسة التي أخذها معهم المهاجرون الأندلسيون إلى شمال إفريقيا. وهي عبارة عن قلنسوة حمراء كان يضعها رجال المخزن والعلماء والتجار والطلبة، واستمر وجودها إلى يومنا هذا. وهناك شاشية أخرى خاصة باليهود وهي سوداء" (محمد رزوق، ص 353). أما العمامة فهي تاج العرب كما توصف، وتسمى أيضا العصابة، وهي ما يلف على الرأس عادة، وتصنع من صوف أو ثوب غالبا، وهي من الألبسة التي اشتهر بها فضلاء الأندلسيين من قضاة وفقهاء. "وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمامة، لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى قاضيا ولا فقيها مشارا إليه إلا وهو بعمامة" أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، 1968، ص 222). فالعمامة عادة ما ترمز إلى الهيبة والوقار والمكانة الاجتماعية المرموقة لصاحبها.

2 - التأثير الأندلسي على لباس المرأة المغربية.

لم يقتصر التأثير الأندلسي على لباس الرجل فقط، بل ظهر هذا التأثير على لباس المرأة المغربية كذلك، خاصة بتلك المناطق التي شهدت استقرارا واسعا للوافدين الأندلسيين، فنساء هذه المناطق عرفن بأنفاتهن، وحسن لباسهن، المقتبس من لباس الأندلسيات الوافدات من أرض الأندلس. كانت أزياء الأندلسيات "لها طابعها المميز حيث غلب عليها الأناقة والنفاسة والإسراف والغلو في الخامات فقد عمدت النساء إلى التفتن في لبس المصبغات والمذهبات والديباجات في الملابس وظهر الغلو في أشكال الحلي" (مصطفى الشكعة، 1975، ص 58). ومن الألبسة التي تميزت بها المرأة المغربية، ما يعرف بالقفطان، الذي يعتبر من أقدم الألبسة التقليدية، وهذا اللباس يحتاج إلى حزام أو ما يعرف بالمضمة، أو الكرزية؛ فالمضمة هي "حزام لشد اللباس على الجسم، وهي مما نقله المهاجرون الأندلسيون كذلك إلى المغرب، وتعرضنا هنا مشكلة الاسم، فهذا اللفظ لم يكن مستعملا بالأندلس، إذ أنها لفظة مغربية محضة" (محمد رزوق، ص 352). وأما الكرزية "فهي نوع من الأحزمة تضعه المرأة بقبائل جباله، وقد استعمل هذا الحزام بالأندلس على الأقل أواخر العصر الوسيط، إذ يوجد في القواميس الإسبانية بهذا الشكل Karziyyat-Karazi" (محمد رزوق، ص 352). ويعود الفضل إلى 'زرياب' في إدخال أنواع وطرق جديدة من الألبسة إلى بلاد الأندلس، والتي أثرت بدورها على لباس المغاربة نساء ورجالا، حيث "إلى جانب افتتاحه المعهد الموسيقي، فقد افتتح زرياب ما يمكن أن نسميه 'معهد التجميل' في قرطبة، وقد كان يعلم فيه أصول الملابس ومناسبة الأزياء للفصول، فملابس الربيع ملونة من الخبز والدراربع وملابس الخريف مثلها إلا أنها مبطننة أما الصيف فملابسه بيضاء خفيفة، والشتاء ملابسه ثقيلة داكنة. وفي حال اشتداد البرد يلبس الفراء. كما حدد زرياب مواعيد معينة لتبديل أزياء الملابس" (محمد حسن قجه، 1985، ص 84). كما اعتادت النساء في المغرب على جمع شعرهن بثوب، أو منديل مطرز قادم من الأندلس ويعرف بالبنيقة، إذ "مازال هذا اللفظ مستعملا بشمال المغرب والجزائر، ويتعلق الأمر بمنديل تضعه النساء على رؤوسهن لجمع شعرهن" (محمد رزوق، ص 352).

تعتبر مدينة تطوان من أهم المدن المغربية التي اشتهرت بخصائصها الأندلسية، فإلى يومنا هذا نرى سكان هذه المدينة- خاصة النساء- متشبهين بتقاليدهم الأندلسية وبزمن الأندلسي المتميز كذلك. لقد "مكنت العزلة النسبية لمدينة مغرب ما قبل الحماية من الحفاظ على العناصر الثقافية الحضرية والجهوية الخاصة وتمييزها. وهكذا فإن اللهجة التقليدية وطريقة النطق والزي والتقاليد الاجتماعية التطوانية لا تزال متميزة. وتلبس نساء قبائل جباله وناحية تطوان لباسا يشبه لباس المدجنات ونساء غرناطة، بقبعاتهن الشاسعة الحواشي وردائهن القصير ولقائف سيقانهن. ويمكن أن نعاين الزخارف النصرية والمدججة الأصل في الحلي والمطرزات التطوانية التقليدية. ومن بين القلائد المألوفة في تطوان، هناك قلادة لازالت تستعمل في زينة العروس، وهي تتكون من عدة سموط من اللؤلؤ تتخللها كريات من الذهب؛ وتشبه هذه القلادة إلى حد كبير بعض الحلي النصرية التي لازالت محفوظة، ولقد اشتق اسمها التطواني (الماصو) مباشرة من الاسم القشتالي (ماثو mazo)" (جون لوي مبيج، 2002، ص 19). كما اشتهرت المدينة بأنواع مختلفة من التحف الفنية المطرزة على الثوب، والتي أنقنتها المرأة التطوانية منذ عقود، وهي مقتبسة من الطرز والحياكة الأندلسية القديمة، التي حافظت على رونقها وجمالها، وأشكالها الهندسية المميزة. "وتعتبر تطوان أيضا المدينة الوحيدة في شمال إفريقيا حيث لازالت المطرزات تنمنم بتواشي نصرية ومدججة. ويجمع النمط المسمى بنمط 'الشاون' بين السرديات المنبسطة والطرز وإطباقات من الجلد والمخمل منمنمة بخيوط من الذهب والفضة، وتتعاقد فيه أشربة ملونة واسعة وزهور رسمت بطريقة تزيينية داخل مسدسات ومعينات متكررة، وتتوسط زوايا المطرز نجمة ثمانية. وهذه الأشكال لا يمكن أن تقارن إلا بالطرز الإسباني الإسلامي في إقليم غرناطة، وبالْبُسُط المدججة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر والتي انمحي أثرها بعد ذلك. وإذا كانت أغلب الشواهد على هذا الطرز الأندلسي التطواني لا ترجع إلا إلى القرن التاسع عشر، فإن بعض بقايا الطرز المذكور تعد أقدم، فهي ترجع إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهي فترة أول ترحيل للثقافة الأندلسية. وتشهد بقايا هذا الطرز على ثقافة حافظت عليها المدينة بأمانة خلال ما ينيف عن أربعة قرون" (جون لوي مبيج، 2002، ص 19). هذه الأشكال الهندسية غالبا ما كانت تتخذ من النباتات مصدر إلهامها، فكانت تطرز بخيوط من حرير، في ألوان زاهية يغلب عليها اللون الأخضر، لون الفطرة والأمل والحياة. فصناعة التطريز وتوشيح الثياب الحريرية بخيوط الذهب والفضة "اختص بها الأندلسيون دون غيرهم، ولم ينافسهم فيها سوى اليهود الأندلسيون الذين قدموا معهم" (الصر الديم سعيدوني، 2013، ص 48). اهتم التطوانيون بصناعة الحلي والمجوهرات وأبدعوا في صياغة أشكالها، كما كان شأن الأندلسيين بالديار الإسبانية، فالتأثير الإسباني "جلي في فنون المدينة بشكل لا نراه في الأصقاع الأخرى من بلاد المغرب باستثناء الرباط_سلا. ويتجلى هذا التأثير في الزي والمطرزات والحلي. ولقد فرض طراز آخر نفسه بعد طراز نصر. ويستمد هذا الطراز أصله من مطرزات إيكسپريمادوا (Extremadura) وقشتالة (لاغانطيرا) (Lagantera) التي ترجع إلى عصر النهضة. وكان الطرز في تطوان خلال القرن السابع عشر أحادي اللون دائما، وهو عامة إما أرجواني أو أخضر أو برتقالي فوق نسيج قطن أو كتان أبيض اللون. وتكرر الرسوم التجريدية في هذا الطرز صيغا نباتية على شكل دوائر مغلقة في الغالب، ولقد وصف تشكيلها بـ 'كثيف ومتين، وقد تراودنا الرغبة في نعته بالهندسي'. وتبرز سمات النهضة الإسبانية كذلك في تقنيات المجوهرات وأشكالها. وتنمق حلي شمال إفريقيا عادة بأشكال زهرية ورسوم هندسية الشكل، ولا يستثنى استثناء شبه تام إلا تمثيل الحيوان أو الإنسان، وهو تمثيل محظور في الإسلام" (جون لوي مبيج، 2002، ص 27).

كما يعتقد أن لبس الثوب الأبيض في الحزن، والذي يعتبر من الثوابت المتعارف عليها لدى المرأة الأرملة بعد فقدانها لزوجها، يعود إلى أهل الأندلس الذين جاؤوا به إلى المغرب، "ولبس البياض هي عادة أهل الأندلس في الحزن على موتاهم" (عمر بن حسن بن دحية أبو الخطاب، 1955، ص 81). وفي هذا قال أبو الحسن الحصري:

"إذا كان البياض لباس حزن بأندلس فذاك من الصواب

ألم ترني لبست بياض شيبني لأني قد حزنت على الشباب" (أبو الحسن الحصري القيرواني، 1968، ص 13)

لقد تأثر المغاربة نساء ورجالا باللباس الأندلسي، لما تميز به من حسن وأناقة وجمال، فأصبحوا يولون مظهرهم الخارجي اهتماما بالغا، ورفضوا عنهم آثار النزعة البدوية المحافظة، حيث أصبح اللباس هو المقياس الذي يميز بين أفراد المجتمع، ويعبر عن رفعة الحس والذوق، وعن الترف والغنى كذلك.

رابعا: حضور الطبخ الأندلسي.

عرفت حياة المغاربة من عرب وأمازيغ تطورا ملموسا في كل جوانبها، في الملبس والمأكل والمسكن وغيرها، وذلك نتيجة لتأثرهم بمختلف الأمم، فتغيرت بذلك طريقة الأكل لديهم وتنوعت وسائله، وتعددت وجبات الأكل بمختلف أنواع الأطعمة والأشربة. ففي البداية "كان أفراد العائلة يجلسون على الأرض، ويحلقون حول مائدة منخفضة ويأكل الجميع باليد، وإذا تعلق الأمر بكسكسو، تناول الجميع في صحن واحد بدون ملاعق. ويكون المرق واللحم معا في قدر من فخار يتناول كل واحد منهم قطعة اللحم التي تعجبه، ويضعها أمامه دون تقطيع، ولا يستعمل السكين، وإنما تمسك قطعة اللحم باليد وينهش منها بالأسنان قدر المستطاع" (إبراهيم القادري بوتشيش، 1993، ص 75). تغير نمط الحياة عند المغاربة، فدخلت أشكال من التحضر على المائدة المغربية في عهد المرابطين خاصة بعد فتح بلاد الأندلس، حيث "بمجرد ما ضمت الدولة المرابطية الأندلس، ووصلت إلى مرحلة الترف، كثرت الإقبال والتفنن، بل التنافس على شتى أنواع الأطعمة" (إبراهيم القادري بوتشيش، 1993، ص 70). ومع مرور الأيام ونتيجة لاختلاط المسلمين بالإسبان، أخذت أنواع من الأطعمة الإسبانية تعرف طريقها إلى موائد المسلمين، وبدأت ألوان من الترف والبذخ تظهر على أطعمة العامة والخاصة من المغاربة. "لما فتح المسلمون من عرب وبربر الأندلس، كانوا يعتمدون غالبا على الأطعمة التي عرفوها في بلادهم، حتى عرفوا الكثير من ألوان الأطعمة التي كانت موجودة في هذه البلاد شيئا فشيئا، باستقرارهم واختلاطهم بالسكان، فأخذت أطعمتهم تتغير وتتعدد ألوانها" (حسين يوسف دويدار، 1994، ص 288). أبدع سكان المغرب الأقصى في صنع كثير من ألوان الطعام، وصارت موائدهم حافلة بالأنواع المختلفة من الأطعمة والحلوى والأشربة بعد فتحهم لبلاد الأندلس. "وهكذا حفلت المائدة المغربية بأصناف الطعام والتي اختلفت بحسب المكان والزمان والطوائف والأشخاص، وتنوع الأطعمة يشير إلى الرخاء الاقتصادي مع الرفاهية التي كان يحياها الشعب في هذه الفترة، مع الاستقرار الذي أتاح لهم التفنن في اختراع واقتباس كل هذه الطرق في صنع الطعام. وكان أكثر من صنف ولون يقدم على موائد كبار رجال الدولة، في نظام وترتيب، وهذا يدل على مدى التمدن الذي وصل إليه أبناء المغرب" (حسن علي حسن، 1980، ص 435).

أخذ المغاربة عن الأندلسيين استعمال العديد من أنواع التوابل التي كانت تعطي للطعام نكهة ولذة خاصة، حيث "بالغ الأندلسيون في استعمال التوابل، فكان أهل بسطة يكثر من استعمال الزعفران. لكن يبدو أن سكان الأندلس عامة استعملوا كل التوابل الأخرى من كزبر وفلفل وكمون وملح ومرق وبقل الروم وخل" (إبراهيم القادري بوتشيش، 1993، ص 73).

لقد غير المغاربة من طريقة جلوسهم على المائدة، وأضافوا وسائل جديدة استخدموها في الأكل، وتخلوا عن طابع البداوة في حياتهم الخاصة، "ينبغي ألا يغيب عنا أن العرب لما خالطوا الأمم الأخرى وتغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها، استحدثوا فيها طرقا غير طرقهم الأولى. ففي عهد الأمويين استعمل العرب الفوط والملاعق، وكانت الملاعق تصنع من خشب، كما كانت تجلب ملاعق من الفخار من بلاد الصين. وكانوا يجلسون على الكراسي أمام مائدة الطعام التي يكسوها مفرش من القماش" (حسن إبراهيم حسن، 1982، ص 442).

في الواقع، إن كل ما عرفته المائدة المغربية من تطور نتيجة لتأثر المغاربة بنمط العيش لدى الأندلسيين، يعود الفضل فيه للمطرب والفنان 'زرياب'، الذي أثر في الأندلسيين بفنه، وطريقة لباسه، وأكله كذلك. فبالإضافة إلى شهرته في الطرب والغناء، فقد عرف بخبرته في مختلف الأطعمة، فعندما قدم إلى الأندلس "جاء معه الكثير من ألوان الطعام البغدادي، وأخذ عنه الأندلسيون طرق طهييه، وابتدع ألوانا أخرى من الأطعمة المطيبة بالتوابل والأفاويه، كما أدخل لونا أطلقوا عليه اسم (النقايا) يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب، وابتكر نوعا من (التقلية) نسبت إليه فأصبحت تعرف بتقلية زرياب، ويطبخ فيها الدجاج والأرانب في ماء كثير الأفاوية والطيب. ولعل الحلوى التي تعرف (بالزلابيا) حتى عصرنا، تنسب إليه أيضا بعد التحريف عن زريابيا" (حسين يوسف دويدار، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، ص 290). تأثر سكان الأندلس بما جاء به زرياب من أشكال وطرق جديدة في الطهي، فتعلموا منه أساليبه الجديدة ولقيت ترحيبا واسعا في كل بلاد الأندلس والمغرب الأقصى، "بدأ زرياب يعلم القرطبيين طرائق الطعام الأكثر تعقيدا في المطبخ البغدادي، ودرهم على طريقة إعداد مائدة راقية وأنيقة، لا تقدم فيها الأطباق فوضى، بلا نظام كيف ما اتفق، وإنما يجب البدء أولا بأطباق الشورية والسواخن، تليها أطباق اللحم وألوان الطيور المتبلّة بالبهارات الجيدة، وفي دقة كاملة، وأخيرا تأتي أطباق الحلوى من الفطائر المصنوعة من الجوز واللوز والعسل، والعجائن المعقودة بالفواكه المعطرة، والمحشوة بالفستق والبندق. واختار غطاء المائدة من سُفر الأديم الرقيق، وعليه يقدم الطعام، بدلا من الغطاء القطني الخشن، لأن الأول سهل التنظيف، ويزول عنه الوضر بأقل مسح. وأشاع بين الناس استخدام أواني الزجاج الرفيع، بدل الأواني المصنوعة من الذهب والفضة" (ليفي بروفنسال، 1994، ص 70).

زادت عناية المغاربة بمظهر وشكل المائدة، واستعملوا وسائل صحية في تحضيرهم للطعام، فاستبدلوا الأواني المصنوعة من حديد أو نحاس بأواني زجاجية أو مصنوعة من الفخار، وهي طريقة اعتمدها الأندلسيون كذلك، "فمما أدخله زرياب في تقاليد المجتمع الأندلسي نظام الأطعمة الجديدة وطريقة استعمال التوابل وترتيب الموائد، وقد نصح باستعمال أنية الزجاج بدلا من الذهب والفضة ولقيت نصيحته أذنا صاغية" (محمد حسن قجه، 1985، ص 85). وأمام تنوع الأطعمة وتعددتها، بدأت تظهر أهمية إعداد المائدة وترتيب عرض الأطعمة، حسب سهولة هضمها واستفادة الجسم منها، فبدأ الطعام -خاصة في المناسبات العائلية والأعياد- بتقديم الحساء ثم اللحوم والطيور، ثم الفاكهة والحلوى المتنوعة، وكل هذه العادات مقتبسة من بلاد الأندلس ومما جاء به زرياب من بلاد الرافدين. "ابتدع زرياب في بلاد الأندلس أرقى أنواع الطهي البغدادي، فأدخل بقلّة الهليون المسماة عندهم الأفراج Aspirage، كما زاد في الأطعمة لونا أطلقوا عليه 'النقايا' يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب، ولونا من التقلية أطلقوا عليها تقلية زرياب، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب في مرق كثير الأفاوية والتوابل، وقد أذاع زرياب أنماطا جديدة في تنظيم المائدة، فكانوا يبدأون بالحساء، ثم

يقدمون للحوم والطيور، وينتهون بالحلوى. كما أخذوا عنه تفضيل الأكوام الزجاجية الرفيعة المصنوعة من الزجاج الثمين لأنها أكثر انسجاماً مع نظر المائدة من الأكوام الذهبية والفضية. وابتكر أسمطة الطعام من الجلد الرقيق بدل الكتان، واتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤها وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه" (حسن إبراهيم حسن، ج الثاني، ص 348).

لم تكن من عادة المغاربة أكل الطعام خارج بيوتهم، لكنهم بتأثرهم بالأندلسيين أخذوا عنهم العديد من الأطعمة التي تطهى خارج البيوت، وتعتبر طريقة جديدة للكسب وطلب الرزق، "وإلى جانب الأطعمة التي كانت تصنع في البيت، كانت هناك أطعمة تصنع في الأسواق كالإسفنج، وكذا بعض الحلويات. ولا سبيل إلى الشك في براعة الأندلسيين والمغاربة في صناعة شتى الحلويات كالkek والمسمنات والشهدة، والخشكنان والمشماس والسندسوك والقطائف العباسية والمعسل والزلابية والجوزنيقات والقاهريات" (إبراهيم القادري بوتشيش، ص 74). دخل مع هذا النوع من الأطعمة نظام الحسبة إلى الأسواق ومراكز البيع المختلفة، فكان أكثر صرامة مع مختلف الأطعمة التي تصنع خارج البيت، وكانت توضع شروط تحترم فيها معايير السلامة والنظافة كذلك، فمثلاً "ينبغي أن يكون مقلى الزلابية من النحاس الأحمر الجيد، فأول ما يحرق فيه النخالة، ثم يدلكه بورق الصلث إذا برد، ثم يعاد إلى النار، ويجعل فيه قليل من عسل، ويوقد عليه حتى يحترق العسل، ثم يحلى بعد ذلك بمدقوق الخزف، ثم يغسل ويستعمل، فإنه ينقى من وسخه وزنجاره" (عبد الرحمان بن عبد الله بن نصر الشيزري، 2002، ص 225).

إلى جانب تأثر المغاربة بمختلف الأطعمة والأشربة الأندلسية، تأثروا بهم في طرق إنتاجها المختلفة كذلك، حيث اهتموا بالزراعة، وإصلاح الأراضي، واختيار المزروعات المناسبة، حسب نوعية التربة والمناخ السائد وغيرها. لقد "عني أهل الأندلس بالزراعة واهتموا بمتابعة النباتات والأعشاب والحشائش الطبية وبكل ما يتعلق بعملية وطرق الزراعة وإصلاح الأرض والسقي وكميته والتسميد وكلفة الآفات الزراعية وتدبير النبات من بداية زراعته حتى اكتماله ونضوجه، وصنف الأندلسيون المؤلفات الزراعية ومنهم ابن العوام الإشبيلي وابن البصال الطليطلي وابن وحشية ومؤلفاتهم في علم الفلاحة وفيهما من التقانة الحضارية" (محمد بشير حسن راضي العامري، 2014، ص 140).

زاد اهتمام المغاربة بالمجال الصحي، خاصة بعد تنوع الأطعمة والإقبال عليها بشراهة وظهور بعض الأمراض المرتبطة بها. فزادت بذلك عناية المغاربة بالنباتات والأعشاب الطبية، وعلى رأسها شجرة الزيتون المباركة والزعفران. ومن أشهر علماء الأندلس في طب الأعشاب، والذين أخذ عنه المغاربة ما توصل إليه من أبحاث، "ابن البيطار المالقي (ت 646هـ) وكتابه المرسوم (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) والذي يعد بحق موسوعة في علم النبات والحشائش والأعشاب وهو مفخرة في الحضارة، وقد اعترف الكثيرون من العلماء العشابين بفضل ابن البيطار في طب الأعشاب وخبرته العلمية وإبداعاته الطبية، ومنهم ابن الكيبي البغدادي (ت 754هـ)" (محمد بشير حسن راضي العامري، 2014، ص 139).

امتازت الأندلس وبلاد المغرب الأقصى بوفرة أجود أصناف الزيتون لملاءمة المناخ والأرض لزراعته، فضلاً عن خبرة أهل الأندلس في الاستفادة من ثماره وأوراقه وعروقه وأخشابه. هذه الخبرة نقلها عنهم المغاربة إلى بلدهم، فتمكنوا من تطوير منتوجهم، واستغلاله بشكل جيد في طعامهم وعلاج مرضاهم. "لم يكن أطباء الأندلس مكتوفي الأيدي متكلمين على ما وقفوا عليه من نصوص وتعليمات طبية، بل أبدعوا وعملوا التجارب وجاؤوا بتوصيات طبية نافعة ومهمة في استخدام

زيت الزيتون في الطب وعلاج الأمراض. ومن هؤلاء الأطباء موسى بن ميمون القرطبي الذي صنف العديد من الكتب في الطب وأشار إلى أهمية الزيتون وثماره وزيتته وعروقه في مجال الطب وعلاج الأمراض وتغذية الإنسان وإصلاح جسده" (محمد بشير حسن راضي العامري، 2014، ص 125).

ومن النباتات التي كان للمغاربة الفضل في إدخالها إلى الأندلس، نبتة الزعفران، حيث عمل الأندلسيون على دراستها ومعرفة أسرارها الطبية، فتعلم المغاربة منهم أهميتها، وقيمتها الغذائية والطبية، فزاد الإقبال على غرسها والعناية بها خاصة في مناطق شاسعة بالأطلس الكبير والأطلس الصغير. "أدخل العرب المسلمون من المشرق والمغرب نبات الزعفران إلى إسبانيا بعد عمليات الفتح مع ما أدخلوه من النباتات والحبوب والخضروات والأشجار وغيرها من المزروعات، كما أدخلوا تحسينات علمية على ما كان مزروعا في أرض إسبانيا، وسعوا إلى تطوير المزروعات من تطعيم أو تركيب نظرا لملاءمة المناخ وجودة الأرض ووفرة الأسمدة والمياه مما خلق في الأندلس في ظل الحكم العربي الإسلامي خلال ثمانية قرون من تطوير وإبداع وازدهار الزراعة بشكل واسع وتنوع المحاصيل والمنتوج الزراعي الذي امتاز بالجودة والرخاء والفائدة للبشرية" (محمد بشير حسن راضي العامري، 2014، ص 140). ويعد الزعفران الحر من أغلى التوابل في العالم، إذ "يتم إنتاج باوند واحد من الزعفران من أصل 100000 أو 250000 من النباتات المقطوعة باليد. وتم استخدام الزعفران الذي وجد في الشرق القريب والشرق الأوسط من قبل الفرس كمنكه وصبغة. وتبدأ الزهرة البنفسجية التي تشبه الزئبق بالظهور في الخريف. وتوجد ثلاث قرنات حمراء كالدّم في منتصف هذه الزهرة، وهي عبارة عن نسيج الزعفران الذي يشكل التابل" (فريد كزارا، 2010، ص 210). عرفت هذه النبتة ذات الأصول العربية بفوائدها الصحية، حيث "أشارت المصادر الطبية عن الأعشاب بأهمية الزعفران ومنافعه الطبية لمعالجة الكثير من الأمراض وشفاء الآلام وتقوية البدن" (محمد بشير حسن راضي العامري، ص 143). وللزعفران العديد من المنافع كذلك، حيث "يصنع من الزعفران مواد عديدة إذ يركب معه مواد طبيعية أخرى ومنه ينتج مسيح الزعفران، بهضم الطعام ويجلو غشاوة البصر ويقوي الأعضاء الباطنية الضعيفة لما فيه من القوة القابضة إذا شرب أو وضع من ظاهر عليها ويفتح السدد التي تكون في الكبد والعروق" (محمد بشير حسن راضي العامري، ص 149). فالزعفران نعمة من نعم الخالق تعالى على عباده، يساعد على شفاء الأمراض ومعالجة حالات عديدة من الإصابات، توصل إلى معرفتها الأطباء العرب المسلمون في بلاد الأندلس، والذين ساهموا في إنقاذ البشرية، والعناية بالصحة العامة وإنقاذها من الهلاك، فضلا عن خدمات العرب في ميادين مختلفة عبر تاريخهم المجيد والمشرق.

يعتبر الطعام والطبخ بصفة عامة أفضل سفير لمختلف بلدان العالم، ينقل حضارة الأمم ويعرف بها في مختلف المحافل الدولية، فأصبحت كل الدول تتنافس في عرض أفضل ما أبدعته أيدي أشهر طبّاخها، وزاد الإقبال على مختلف الأطعمة وألذها، لذلك "أول ما أوصيك في هذا الباب، أن تأخذ نفسك بالاعتدال في جميع الأحوال، في مطعمك، ومشربك، وملبسك، ومنكحك، ونومك، ويقظتك، وتعبك، وراحتك. واعلم أن بطنك لا يسع جميع الأطعمة، فاختر له أفضلها، وفضل الطعام من عدة أوجه: أولها: قرب وجوده، والثاني: تمام نفعه، والثالث: قلة ضرره، والرابع: لذاعة طعمه، والخامس: ذكاء ريحه، والسادس: إحكام صنعته. فإن لم تجتمع هذه الأمور في طعامك، فاعمد إلى أقرب الأطعمة من نفعك، وأشبهها بحالك" (أبو بكر محمد الحسن المرادي الحضرمي، 2002، ص 25).

خامسا: الحضور المعماري الأندلسي.

يعتبر العمران مظهراً من مظاهر التقدم والتفوق الحضاري، فطريقة بناء البيوت وهندستها، وعظمة دور العبادة وفخامتها، وأبراج المراقبة وأسوارها، كل ذلك يعكس براعة المهندس، وإتقان العامل، وهيبة السلطة الحاكمة وقوتها. فالعمران يعكس درجة التطور، والنضج السياسي، والإداري، والحضاري لأي مجتمع من المجتمعات.

راكم المغرب تجربة عمرانية عريقة، امتزجت وتلاقحت فيها العديد من الحضارات التي تعاقبت على أرضه، بدأ من الحضارة الأمازيغية، مروراً بالحضارة الإسلامية، والحضارة الأندلسية، ثم الحضارة الغربية. فكل من هذه الحضارات تركت لمستها وبصمتها في فنون العمران المغربي، ومن أهم هذه الحضارات التي أثرت بشكل واضح في العمران المغربي، حضارة بلاد الأندلس. لقد "كانت العلاقات بين المغرب وبلاد الأندلس وثيقة في معظم فترات التاريخ، وبصفة خاصة في الفترة الأخيرة من حكم الدولة الأموية بالأندلس، وقد أدى ذلك إلى انتقال العديد من التأثيرات الأندلسية إلى عمارة بلاد المغرب، وأصبح هذا الأمر أكثر ظهوراً في فترة حكم ملوك الطوائف. ولم يقتصر انتقال التأثيرات على وجود علاقات بين بلاد المغرب والأندلس، بل امتد ذلك إلى ما بعد فترة سقوط المدن الأندلسية المختلفة في أيدي الإسبان، ومن ذلك على سبيل المثال أنه عندما سقطت غرناطة سنة 898هـ/1492م انتقلت مجموعة كبيرة من سكان غرناطة إلى بلاد المغرب، وانتقلت معهم بالتالي التأثيرات المعمارية والفنية" (صلاح أحمد الهنسي، ب ت، ص 122). تعززت العلاقات المغربية الأندلسية مع تعاقب مختلف السلاطين الذين حكموا المغرب، وكان لذلك انعكاساً ملحوظاً على مختلف المنشآت العمرانية، خاصة دور العبادة، التي كانت تحظى بعناية خاصة من قبل كل السلاطين المغاربة. لقد "توثقت العلاقات بين بلاد المغرب والأندلس بشكل خاص في عصر الموحدين، ويظهر ذلك في جامع حسان بالرباط، وجامع الكتبية في مراكش، وجامع قصبية الرباط، ومن أشهر المهندسين أو العرفاء الذين استعان بهم ملوك الموحدين، وبصفة خاصة عبد المؤمن وابنه أبي يعقوب يوسف، المهندس أحمد بن باسة الذي ينتسب إلى أسرة الباصية المستعربة بطليطلة، وكذلك العريف يعيش المالقي الذي ينتسب إلى مدينة مالقة. وقد اشترك هذان المهندسان في بناء جامع الفتح، كما بنى الحاج 'يعيش' المقصورة الشهيرة الملحقة بالمسجد الجامع في مراكش، والذي استخدم فيها حيلة ميكانيكية بديعة، وهي مقصورة مكونة من ستة أضلاع، كما أن المنبر تم صنعه في مدينة قرطبة بالأندلس، وذلك حسبما تنص الكتابة المسجلة عليه، والتي تتضمن اسم يوسف بن تاشفين، مما يدل على أن هذا المنبر صنع في الأساس للجامع المرابطي، ثم نقل إلى جامع الكتبية. وفي فترة حكم علي بن يوسف أضيف لجامع القرويين منبر من خشب الصندل والأبنوس والحدود، ومطعم بالعاج من عمل صناع من الأندلس" (صلاح أحمد الهنسي، ص 123). ترك الأندلسيون أثراً كبيراً على المدن المغربية التي عمرها، "فقد أسس الأندلسيون مدينة تطوان، وجددوا مراكش وأعادوا تعمير مدينة رباط الفتح، وبنوا الدور والقصور والمرافق، وتميزوا بطريقة خاصة في عمارة الدور من حيث التصميم والزخرفة، وشكل البوابات، وهو الشكل الذي استمر مفضلاً في القصور القديمة في رباط الفتح وسلا وتطوان" (محمد عبده حتامله، 2000، ص 910).

عادت الحياة إلى مدينة تطوان بعد هجرة الأندلسيين إليها أواخر القرن التاسع الهجري، إذ كانت تعاني من الدمار والخراب الذي خلفه البرتغاليون على أرضها، وشهدت المدينة على أيديهم تشييد أحياء جديدة وأسوار ومرافق متعددة، وأصبحت البيوت بتطوان وشفشاون وبعض مدن الشمال بالمغرب شبيهة بالبيوت الموريسكية، "كان المهاجرون الأندلسيون يستقبلون في المدن الكبرى التي استقبلت أكبر عدد من هؤلاء المهاجرين الذين أعادوا بناءها وأنموها أيضاً

كما تشهد على ذلك أحيائها الأندلسية. وبفضل موقعها الجغرافي استقبلت تطوان كذلك مهاجرين أندلسيين كانوا قاصدين مدنا ونواحي أخرى من المغرب" (جون لوي مبيج، ص 12). فهذه المدينة العريقة والغنية بمآثرها التاريخية، كانت قبلة للعديد من السكان الأندلسيين، مما ساهم في توسعها العمراني وظهور أحياء جديدة خاصة بهؤلاء القاطنين الجدد، الشيء الذي جعلها تحظى بتعدد ثقافي وعمراني على حد سواء. "لقد استقر في تطوان حوالي عشرة آلاف موريسكي، وربما بلغ عدد من استقر منهم في هذه الناحية أربعون ألفا. وبلغ عدد السكان الإجمالي في منتصف القرن ما بين اثنين وعشرين وستة وعشرين ألف نسمة، وهو عدد هام بالنسبة لهذه الفترة. وأدت هذه الزيادة في عدد السكان إلى اتساع المدينة التي تضاعفت مساحتها أربع مرات لتصل إلى حجم المدينة الحالية. وأجبرت طوبوغرافيا الموضع السكان على بناء حيين جديدين غرب وشرق المدينة الأصلية (البلد الحالي). وكان أحد هذين الحيين في الغرب، وهو حي العيون، يعرف في ذلك العهد باسم رياض الأندلس أو الحي الأندلسي. أما الحي الآخر، الطرنكات، فهو يحمل اسما غير مألوف، ربما من أصل إسباني قشتالي. ويبدو تصميم الحي، وهو مثنم الأضلاع بعض الشيء، على أن موريسكي عصر النهضة الإسبانية قد أدخلوا معهم مفهوم التصميم المدني الأمثل الذي يتعارض تماما مع النمو المرسل لحي البلد ومدن العصر الإسبانية الأخرى. وتمثل الرباط بدورها نموذجا للتصميم المثنم الأضلاع الموريسكي، وهو نموذج أقرب للأصل" (جون لوي مبيج، 2002، ص 24).

تميزت المدن الموريسكية بالمغرب بتخطيطها المنظم للطرقات والأزقة، وإقامة ساحة عامة في وسط المدينة، تكون بمثابة مدار تتمركز حوله أغلب الطرقات الرئيسية للمدينة، إضافة إلى إقامة الأسواق والحمامات. كما لم يغفل الموريسكيون الجانب الديني في حياتهم، حيث كان حاضرا بقوة في كل التصاميم العمرانية التي جاؤوا بها لبناء المدن والأحياء التي آوتهم، ويتجلى ذلك في بنائهم لدور العبادة، والتي ظلت صامدة أمام قساوة الظروف السياسية والاجتماعية للبلاد بصفة عامة. على الرغم مما عرفته مدينة تطوان من تغير في بعض ملامح الأندلسية، إلا أن مساجدها حافظت على رونقها وطابعها الأندلسي، "وإذا كانت بعض مميزات هذا الطراز المعماري قد اضمحلت في تطوان، كسقف القرميد خاصة، فإن آثار الطراز الموريسكي لازالت موجودة في عدة مباني أثرية. وتشكل المساجد أهم هذه المباني، وأكثرها، وكان اللاجئون قد بنوها بوفرة؛ خمسة منها شيدت خلال السنوات الأولى في حي العيون أو رياض الأندلس، وأخرى في الحي الجنوبي. والكثير من هذه المساجد أعيد بناؤها وتنميقها من جديد خلال القرون اللاحقة، غير أن بعضها لازال يمثل مساجد الطراز الموريسكي كما نجدها في الشاون وتسطور، كما هو الشأن بالنسبة لجامع المصميدي الذي بني في 1611، وجدد بناؤه في 1958، والجامع الجديد الذي شيد سنة 1640، وجامع العيون الذي يرجع تاريخه إلى سنة 1620. وتتميز هذه المساجد بمآذنها التي لم تزخرف إلا قليلا إذ اقتصر تنميقها على أفاريز من الحجر، وزينت أحيانا ببعض الحنايا الخادعة. ويمكن مقارنة هذه المآذن بقباب أجراس الكنائس ذات الطراز المدجن الإسباني" (جون لوي مبيج، ص 25). امتازت هذه المساجد بهندستها المتميزة، وبفنائها الواسع، وأقواسها المتسلسلة وقيابها المرتفعة، والتي تشكل لوحة هندسية رائعة تعكس عناية الأندلسيين بالمساجد، باعتبارها تحفة فنية ودينية خالدة. "ويشتمل داخل المساجد وأفنيئتها غالبا على أروقة نصف دائرية وليس على شكل حدوة كما هو الشأن عادة في فن العمارة بشمال إفريقيا منذ عهد المرابطين. وتعتبر الحنية

الدائرية أو 'الحدوة الدائرية' ميزة أساسية في الهندسة المعمارية المدججة، أو هندسة بناء عصر النهضة الإسباني في الأقاليم الأندلسية، وهي سمة تميز فن العمارة الموريسكي في المغرب وتونس" (جون لوي مبيج، ص 25).

كان من حظ المدن الشمالية المغربية أن تتأثر بشكل واضح بمعالَم الحضارة العمرانية الأندلسية، فإلى جانب مدينة تطوان، أخذت مدينة الشاون نصيبها من التراث العمراني الأندلسي. "وفي ميدان هندسة البناء لازال تراث الموريسكيين غنيا. وأبرز مجموعة أبنية الطراز الموريسكي التي حوفظ عليها في المغرب توجد بلا شك في الشاون، بدورها المسقفة بالقرميد ونوافذها الخارجية، بخلاف دور المدن الأخرى بفتحها الداخلية وسقفها المستوية التي تعلوها السطوح. وتعلو أبواب الدور والمساجد حنايا نصف دائرية مع ناتئة، وتدعمها أعمدة صغرى على الجانبين، ويوجد هذا التنميق في مدينة الرباط الموريسكية وسلا كما في تطوان وكذا في المدن الصغرى في المجردة، في تونس الموريسكية. ويمكن القول، أن تطوان في تلك الفترة كانت تشبه مدينة الشاون الموريسكية كما تظهر لنا اليوم" (جون لوي مبيج، ص 25).

هذا العمران الأندلسي، الذي ترك بصمته على بيوت وأحياء المدن الشمالية وغيرها من المدن المغربية. يعتمد في تزيين واجهات البيوت والأسوار على الفسيفساء الخزفية، وأسقف وزوايا البيوت والمساجد بالنقوش والزخارف الجبصية والخشبية. كما بنيت مجموعة من المآذن والمحارِب بالمساجد المغربية بالشكل الأندلسي، كمسجد الكتبية بمراكش ومسجد حسان بالرباط، فهذا الأخير يعتبر "من المآثر الخالدة لدولة الموحدين، وهو رمز حي لعظمتها وفخامتها بناه يعقوب المنصور الذي أبدع في حقل العمران إبداعا لا يجارى، ويقع جامع حسان شمالي شرق مدينة الرباط على علو 30 مترا فوق البحر وهو المسجد الثاني الذي بناه الموحدون بالرباط بعد مسجد القصبة العتيق، وأضيف المسجد إلى حسان تذكارا لاسم بانيه، على أن هذا النسب يحيط به كثير من الغموض، ولكن أرجح الروايات تذكر أن حسان مهندس أندلسي، وضع تصميم المسجد والمنار، وأشرف على ما شيد منه" (عبد الله السويسي، 1979، ص 125). فلا تخلو مدينة مغربية دخلها الأندلسيون من آثار، وشواهد حضارية تؤرخ لتلك الحقبة التاريخية، التي أسهمت في صياغة جزء مهم من تاريخ المغرب الأقصى. فالقصور والأزقة والحدائق التي أقامها أبناء الأندلس قائمة تشهد على مهارة وحب أهلها لمختلف الفنون والإبداع، "وإذا ما وقفنا عند المعمار المغربي فإننا نلاحظ أن القصور والرياضات والمساجد والمدارس قد أخذت الكثير وأن هذه المعالم تذكرنا بما كان يوجد في غرناطة وقرطبة" (عبد المجيد القدوري، 2001، ص 84).

حاول الأندلسيون أن يقيموا أحياء تحاكي تلك التي خلفوها في بلاد الأندلس، في مدن مثل الرباط وفاس وتطوان وشفشاون، حيث استقرت العائلات الأندلسية. فشيّدوا بنايات على الطراز الأندلسي الخالص، ظلت حتى اليوم، شواهد حية على عبقرية هذه الحضارة وتميزها. فالبيوت أخذت تبنى بالطريقة الأندلسية؛ تزين الأزهار شرفاتها، والأشجار جنباتها، وأصبحت الحديقة من أهم مرافقها، تتوسط فناء المنزل، إلى جانب نافورة ينبع منها الماء الذي يضيء على الفضاء لمسة جمالية خاصة. وبذلك تغيرت معالم العمران بهذه المدن، فأصبح سكانها يستحضرون بعض الكماليات التي كانت غائبة عنهم من قبل، لقد "سجل مؤرخو مدينة الرباط أن عمران المدينة وازدهار الحضارة بها ورواج المعارف لم يتبلور ويتسع نطاقه إلا بعد استيطان جالية الأندلس بها حينما أبعدها عن أوطانهم في أوائل القرن الحادي عشر" (عبد الله السويسي، ص 165). فمدينة الرباط تعتبر كذلك من بين أهم المدن المغربية التي استقبلت أفواجا كبيرة من المهجرين الأندلسيين، والذين تركوا بصمتهم الفنية والاقتصادية والعلمية بها، "واستقر هؤلاء المهاجرون بمختلف البلاد

الإسلامية، وكان من الطبيعي أن يكون حظ المغرب من هؤلاء الحظ الأوفر، للصلات القوية التي ظلت تربط تاريخ الأندلس بتاريخ المغرب أحقابا متتالية. وفي الرباط بالذات كان للأندلسيين تأثير كبير في مجرى الأحداث، وكان الإسبان يطلقون على هذا الصنف من الأندلسيين لقب الموريسكيين وكان هؤلاء متفوقين في كثير من الميادين الحضارية، يحنون إلى وطنهم، ويحافظون على شعائر دينهم وعوائدهم وكانوا موصوفين بالعزلة عن باقي المجتمعات التي يخالطونها بسبب اختلاف الأوضاع عما ألفوه من قبل، ويستنكفون عن الخوض لسلطة الغير وبفضلهم عرفت مدينة الرباط تحولا جذريا في النشاط الاقتصادي والصناعي والعمراني وفي العلوم والآداب" (عبد الله السويسي، 2001، ص 105).

عرفت هندسة البيوت الداخلية تطورا ملموسا، حيث أصبحت هذه البيوت تتكون "من جزأين أساسيين؛ الجزء الأول ويمثل الواجهة الخارجية، ويغلب عليه طابع البساطة، حيث كان يخلو من الزخرفة، ويأتي ذلك مخالفا لما كان عليه الوضع داخل المنزل، حيث كان يهتم بزخرفته إلى درجة كبيرة، وذلك لأن القسم الداخلي كان يمثل محور النشاط في المنزل؛ كما أنه يكاد يكون مقر الإقامة الدائمة للنساء. أما القسم الثاني فيتمثل في داخل البيت، ويؤدي إليه مدخل يفضي على الفناء، بينما كان المدخل في البيوت البسيطة يشكل على هيئة ممر منكسر. وقد حدث تطور في شكل الواجهات، وبصفة خاصة في عصر بني نصر في القرن 7هـ/13م، ويتمثل في الاهتمام بالجانب الزخرفي، الذي كان يتركز بشكل أساسي على كتلة المدخل، حيث كان المدخل يحاط بأطر وأعتاي مليئة بالزخارف، كما كان يوضع على جانبيه عمودين صغيرين من الرخام، ويعلو العتب فتحات نافذة مزدوجة معقودة ترتكز على عمود أوسط. كما كان يوجد زخرف يستند على كابولي؛ نصفه السفلي من الجص، ونصفه العلوي من الخشب، وكلاهما مزخرف بزخارف دقيقة" (صلاح أحمد الهنسي، ص 183). هذه العناية بالفضاء الداخلي للبيت، لم تنعكس بشكل ملموس على أغلب واجهات البيوت، حيث لم يهتم الموريسكيون بزخرفة واجهات البيوت وتزينها إلا نادرا؛ "ما يسترعي الانتباه في العمارة الإسلامية الغرناطية اعتماد البساطة من الخارج مع كثرة الزخارف من الداخل. والمواد المستعملة في عملية البناء والزخرفة هي الحجارة والأجر والجص والخزف والخشب والنحاس والحديد والرخام، وكان الخزف البراق ليرصف الأرض وبعض الواجهات، والخشب المصقول والجص والنحاس والذهب والحديد للجدران والسقوف والأبواب والنقوش المتنوعة المشبكة والمفرغة، أما الرخام فاستعمل للأعمدة ورصف الغرف والممرات والأهياء، كما نجده حول البرك والنوافير" (يوسف شكري فرحات، 1992، ص 153).

إن ما تعرض له الأندلسيون من اضطهاد وتعذيب على يد المسيحيين الإسبان، جعل الهاجس الأمني حاضرا بقوة عند بناء المدن والقصبات الموريسكية، خاصة تلك التي يحتمل تعرضها للغزو الأجنبي. لذلك كانت هذه المدن غالبا ما تحاط بأسوار تمتاز بارتفاعها وسمكها الكبير، تعزلها عن محيطها، وتوفر لها الحماية من أي غزو خارجي محتمل، وهو الأمر الذي تأثر به المرابطون كذلك. حيث "كان المرابطون في أول أمرهم لا يحصنون المدن بالأسوار ويرون في ذلك ضعفا عن الدفاع ثم لم يلبثوا أن أخذوا ببنائها بعد اتصالهم بالأندلس وإدراكهم لفائدة ذلك في الدفاع عن المدن" (الحسن السائح، ص 191). كما كانت تبنى على تلك الأسوار عدة أبراج تمكن الحراس من المراقبة الدائمة لمحيط المدينة، "وقد كان للبرج كتحصين دفاعي متقدم وظائف عديدة، فقد كانت الأبراج بمثابة تقوية أو دعائم للأسوار التي تتسم بمحدودية الرؤية الخارجية، وأحيانا ما تشبه الدعائم الكائنة في المسجد الجامع في قرطبة، وعلينا ألا ننسى أن العرب -في المشرق

والمغرب- كانوا ورثة العصر القديم وخاصة في العمارة الحربية وذات النفع، وقد استطاعوا أن يستخرجوا منها الشكل المسور والمصحوب بالأبراج للمدن وطبقوا هذا النموذج على كافة أنواع المباني" (باسيليو بابون مالدونادو، 2005، ص 463). ولأهمية هذه البناية فقد كانت تبنى بمواد خاصة تضمن متانتها وصلابتها، ومقاومتها لمختلف المؤثرات المناخية كذلك. "وتظهر التأثيرات الأندلسية في الأبراج المستديرة والصور الأمامي في قلعة 'أمرجو' بالمغرب الأقصى، والتي ترجع إلى عصر المرابطين. واستخدام مادة الطابية التي تتكون من التراب والجير وفتات الحجر في البناء، وهي طريقة استخدمت في بلاد الأندلس وانتقلت إلى بلاد المغرب. ونجد أمثلة لها في العديد من المباني، ومنها أسوار مدينة مراكش، وأسوار مدينة رباط الفتح، وأسوار مدينة فاس" (صلاح أحمد الهنسي، ص 123).

كانت تلك المدن المحاطة بسور تعرف باسم القصبة؛ "وهي الحصن بمعنى الكلمة في المدن الأندلسية المهمة، فقد كانت رمزا للسلطة، وكانت تجسد المركزية السياسية -إضافة إلى الأغراض العسكرية- ومن هنا فإن مصطلح قصبة قد أطلق في بعض الأخبار العربية، على المدينة، بمعنى أنها العاصمة أو المركز أو المقر السياسي والإداري للأندلس" (باسيليو بابون مالدونادو، 2005، ص 183). وخير نموذج على ذلك قصبة الوادية بالرباط، التي تقع على مشارف مصب واد أبي رقراق المطل على المحيط الأطلسي، والتي سكنها الأندلسيون بعد ترميم أسوارها وجعلوا منها دولة مصغرة لهم. فمن "قشتالة واسترامادور ومنهم موجة من حرناشو هاجروا إلى الرباط سنة 1018-1609، وقد استقر الحرناشيون بقصبة الأودية وانضموا إلى الجاليات الأندلسية التي هاجرت إليها" (عبد الله السويبي، ص 104). هذه القصبة تعد معلمة معمارية وحضارية مهمة تشهد على ثقل الوجود الأندلسي في المنطقة. وهو التواجد الذي أغنى المغاربة ثقافيا، وسياسيا، واجتماعيا، وعلميا، وساهم في تنشيط الحياة الحضارية المغربية إلى اليوم.

قدمت كل من بلاد المغرب والأندلس تراثا رائعا من العمائر الدينية والمدنية، التي تتميز بفخامة البناء وتنوع الزخارف، مما جعلها من مفاخر الحضارة الإسلامية. هذه الحضارة التي امتدت جذورها إلى كل دول المعمور من شرقها إلى غربها فكانت بذلك أفضل سفير للعروبة والإسلام، جمعت بين قوتها وبساطتها، وتعبيرها عن قيم التسامح والتعايش وتقبل الآخر، حيث "أثرت عمارة بلاد المغرب والأندلس بشكل كبير على عمارة بلاد شرق العالم الإسلامي، كما أثرت العمارة الأندلسية في العمارة الأوروبية" (صلاح أحمد الهنسي، ص 191).

خاتمة:

إن تواجد العديد من الروافد الثقافية على أرض المغرب الأقصى، جعله يزخر بأنماط ثقافية متعددة في كل مجالات الحياة اليومية، كتعدد اللغات، واختلاف طرق وأنواع اللباس، وتعدد الأطعمة والأشربة وأنواعها وأشكالها، وإبداع الصانع في العديد من المهن والحرف اليدوية، وروعة المآثر التاريخية المختلفة، التي ظلت شامخة مقاومة لكل محاولات طمس للهوية المغربية عبر العصور. فالتنوع الثقافي المغربي هو رمز التسامح بين أفراد المجتمع، وهو وسيلة تحقيق النهضة والتطور الاجتماعي. لقد امتد التفاعل الحضاري والتلاقح الثقافي بين المغرب والأندلس لقرون عديدة، حيث امتزجت العديد من المقومات الحضارية المغربية الأندلسية، وخلفت لنا نماذج معمارية وحضارية لازالت شاهدة على هذا التواصل والتفاعل، فالمؤثرات الأندلسية وجدت في المغرب أرضية خصبة وطاقات بشرية قابلة للتطور والتجديد، فلم

يقتصر الأمر على التقليد فقط وإنما امتد للفاعل، والتأثير والتأثر، حتى أصبحت الثقافة الأندلسية رافداً من روافد الثقافة والهوية الوطنية، فانصهرت مع باقي الروافد الثقافية الأخرى لتشكل الشخصية المغربية.

الفهرس:

1. إبراهيم القادري بوتشيش، 1993، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ط الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
2. إبراهيم حركات، 2000، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ج الأول.
3. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية.
4. أبو الحسن الحصري القيرواني، 1968، ديوان ليل الصب، ط أولى، مطبعة الإيمان، بغداد.
5. أبو بكر محمد الحسن المرادي الحضرمي، 2002، الإشارة في تدبير الإمارة، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
6. أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، 1968، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
7. باسيليو بابون مالدونادو، 2005، العمارة في الأندلس، عمارة المدن والحصون، ترجمة علي إبراهيم منوفي، تقديم ومراجعة محمد حمزة الحداد، ط أولى، (المجلد الأول)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
8. جون لوي مبيج، امحمد بن عبود، نادية الرزيني، 2002، تطوان الحاضرة الأندلسية، ترجمة مصطفى غطيس.
9. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، العصر العباسي الأول في الشرق ومصر والمغرب والأندلس، (132-232هـ/749-828م)، ج الثاني.
10. الحسن السائح، 1986، الحضارة الإسلامية في المغرب، ط الثانية، دار الثقافة للتوزيع والنشر، الدار البيضاء.
11. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس 'عصر المرابطين والموحدين'، 1980.
12. حسن يوسف دويدار، 1994، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (137-422هـ/755-1030م)، ط الأولى، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة.
13. حنفي هلايلي، 2010، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
14. خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد دنون طه، ناطق صالح مطلوب، 2000، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط أولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان.
15. خوليا ريبيرا، 1994، التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط الثانية، دار المعارف، القاهرة.
16. رينهارت دوزي، 2012، المستشرق الهلندي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، ط الأولى، الدار العربية للموسوعات.

17. سلمى الخضراء الجيوسي، 1999، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط الثانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ج الثاني.
18. صلاح أحمد المهني، عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، مراجعة أحمد عبد الرزاق أحمد، كلية الآداب، عين شمس.
19. عباس الجراري، 2001، الموريسكيون في المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة 'الندوات'، الندوة الثانية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
20. عبد الرحمان بن عبد الله بن نصر الشيزري، 2002، النهج المسلوك في سياسة الملوك ونهاية الرتبة في طلب الحسبة، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
21. عبد العزيز بن عبد الجليل، 1988، الموسيقى الأندلسية المغربية، عالم المعرفة، عدد 129، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، شتبر.
22. عبد العزيز عبد الجليل، ماي 1983، مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية، عالم المعرفة، الكويت.
23. عبد الكريم كريم، 2006، المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط الثالثة، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط.
24. عبد الله السويسي، 1979، تاريخ رباط الفتح، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط.
25. عبد المجيد القدوري (وآخرون)، 2001، الموريسكيون في المغرب، (الموريسكيون في المجتمع المغربي اندماج أم انعزال؟) مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة (الندوات)، الندوة الثانية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
26. عمر بن حسن بن دحية أبو الخطاب، 1955، تحقيق إبراهيم الإبياري، حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، المطرب من أشعار أهل المغرب، دار العلم للجميع، بيروت.
27. فريد كزارا، 2010، التوابل ..التاريخ الكوني، ترجمة إيزميرالدا حميدان، ط الأولى، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي.
28. ليفى بروفنسيال، 1994، الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط الثالثة، دار المعارف، القاهرة.
29. محمد أحمد أبو الفضل، 1996، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
30. محمد بشير حسن راضي العامري، 2014، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت.
31. محمد حسن قجه، 1985، محطات أندلسية، دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي، ط الأولى، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة.

32. محمد رجب البيومي، 1980، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.
33. محمد رزوق، 2014، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط الرابعة، أفريقيا الشرق.
34. محمد زكريا عنانبي، يوليو 1980، الموشحات الأندلسية، سلسلة عالم المعرفة، عدد 31، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
35. محمد عابد الجابري، 1994، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
36. محمد عبده حتامه، 2000، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية، الأردن.
37. مصطفى الشكعة، 1975، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ط الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت.
38. مصطفى الشكعة، 1987، المغرب والأندلس آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية، ط أولى، دار الكتاب المصري، القاهرة.
39. ناصر الدين سعيدوني، 2013، دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط الثانية، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر.
40. نجم الدين الهنتاتي، 2004، المذهب المالكي في الغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5/11م، تبر الزمان، تونس.
41. يوسف شكري فرحات، 1992، غرناطة في ظل بني الأحمر، ط أولى، دار الجيل، بيروت.

أدب الموريسكيين: خليط الاضطهاد والرغبة في الحفاظ على الهوية.

Morisco literature: a mixture of persecution and the desire to preserve identity.

د. سميرة مراح/ مركز البحث في العلوم الإسلامية الأغواط/ الجزائر

أ. سعاد مسعودة ساغي/ جامعة الجزائر 02/ الجزائر

Dr. Samira Merah/ Center of research in Islamic sciences Lagouat / Algeria

Mr. Souad Messaouda Saighi/University of Algiers02/Algeria

ملخص الدراسة:

لعل المطلع على آداب الشعوب وإرثها الحضاري يستشف من هذه الأخيرة حالة شعوبها الاجتماعية، ويستطيع أن يفهم على الأقل طريقة عيشهم، وكيفية تفكيرهم، ويدرك سبب كتاباتهم وتأليفهم، فمنهم من يكتب مبدعا، ومنهم من يكتب لظروف أدت إلى الكتابة، وهذا ما يمكن أن نلمحه في إرث ذلك الشعب المضطهد، الذي عومل معاملة قاسية على أرضه التي عاش عليها قرونا عددا، والذي هُجر منها عنوة، ولم يجد وهو عليها وعلى غيرها من الأوطان التي لجأ إليها غير الكتابة، التي بقيت خير شاهد على مأساة هذا الشعب الأبي، إنَّه الشعب الموريسكي، الذي حرص على الحفاظ على هويته وثقافته العربية الإسلامية خفية، وترك إرثا أدبيا يشهد على تمسكه بتعاليم دينه الذي اضطرت كثير من أفرادها للتظاهر بالتخلي عنه، واعتناق المسيحية هروبا من القهر والتنكيل والتعذيب، فكان ذلك الإرث خزانا من الكنوز النفيسة، ففيه من فنون الأدب ألوانا وأشكالا، رغم أنه كُتب بلغة غريبة، حتى لا يفهمها الإسبان المضطهدين لهم، وقد تمكّن من فك أسرارها كل من اهتم هؤلاء الأدباء والشعراء الفنّانين، ولعل ذلك يدعونا إلى طرح إشكالية تتمثل في: محاولة التعرف على هذه الإنتاجات النفيسة، والقصد كل القصد التعرف على النوايا التي من أجلها أُلّفت، منتهجين في ذلك المنهج الوصفي الاستقرائي، الذي وصل بنا إلى مجموعة من النتائج التي تتمثل في أنّ هذا الأدب كان المرآة العاكسة لمختلف أشكال العنف التي تعرّض إليها الشعب الموريسكي، وأنّه بمختلف فنونه كان مستودعا للحفاظ على اللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: أدب الموريسكيين، الاضطهاد، الهوية، التراث، العربية، الإسلام.

Abstract:

Perhaps those who are familiar with the literature of peoples and their cultural heritage discover from the latter the social condition of their peoples, and can at least understand their way of living, how they think, and understand the reason for their writings and compositions. The legacy of that persecuted people, who were treated harshly on their land on which they lived for many centuries, and from which they were forcibly displaced, and while they were on it and in other countries to which they sought refuge, they did not find anything other than writing, which remained the best witness to the tragedy of this proud people, that it is the Morisco people, Who was keen to preserve his identity and his Arab-Islamic culture in secret, and left a literary legacy that testifies to his adherence to the teachings of his religion, which many of its members had to pretend to abandon. And embracing Christianity as an escape from oppression, abuse and torture, so that legacy was a storehouse of precious treasures, in which there are arts of literature in colors and forms, although it was written in a strange language, so that the Spaniards persecuting them would not understand it, and it was possible to decipher its secrets everyone who cared about these writers and poets artists, and perhaps This calls us to raise a problem represented in: an

attempt to identify these precious productions, and the whole intention is to identify the intentions for which they were composed, adopting that descriptive and inductive approach, which brought us to a set of results that are represented in that this literature was the mirror reflecting the various The forms of violence that the Morisco people were subjected to, and that in its various arts it was a repository for preserving the Arabic language and the teachings of the Islamic religion.

Keywords: Morisco literature, persecution, identity, heritage, Arabic, Islam.

مقدمة:

لقد كان من أهم أسباب سقوط الأندلس ضعف سلطة الموخدين في القرنين السادس والسابع الهجري، فقد انتصر الإسبان على العرب، وتعرض المسلمون في المنطقة لصعوبات ومشاكل مع الحكام الجدد، الذين سعوا إلى طمس هوية هؤلاء، والقضاء على تعاليم دينهم، ولغتهم العربية، فاجتاز المسلمون في تلك الحقبة التاريخية أصعب الأيام والسنوات، حيث استولى الإسبان على ممتلكاتهم، وأراضيهم وحتى مساكنهم، وألزموهم بدفع الضرائب، ووصل بهم الأمر إلى منعهم من استعمال اللغة العربية في أحاديثهم، والتخلي عن دينهم الإسلامي، واعتناق المسيحية، وهناك من ذكر أنّ الإسبان أحرقوا منهم من تمسكوا بالإسلام ورفضوا التنصّر، فأصاب الكثير منهم الإحباط، واعتنقوا المسيحية ظاهرياً خوفاً على أنفسهم من الهلاك. ووصل بالإسبان الأمر على إصدار قرارات بطردهم من موطنهم، فتفرق شملهم وغادروا بلادهم إلى بلدان أخرى مجاورة.

ورغم كلّ أشكال الذل والهوان التي أصابت المسلمين الموريسكيين إلا أنهم لم يتخلّوا عن لغتهم وعن تعاليم دينهم الإسلامي، وحاولوا بكلّ ما استطاعوه من قوّة وجهد وذكاء وفتنة التمسك بلغة الإسلام، ومن أجل ذلك اخترعوا لغة خاصة بهم، سميت: الألمخيادو: وهي مزيج من أحرف عربية ولغة رومانية قشتالية، حيرت أعداءهم ولم يستطيعوا فكّ رموزها، فتركوا لنا بها إرثاً حضارياً يشهد على ما عاشوه من مأسٍ ومن مشكلات، ويبين لنا من جهة أخرى مدى حبهم لموطنهم، وعشقهم للغتهم العربية، ووفائهم وإخلاصهم لدينهم الإسلامي الحنيف. ومن أجل ذلك أثرنا الكتابة في المحور الأول من مؤتمركم الموسوم بـ التراث الأندلسي الموريسكي في الوطن العربي، في محوره الأول المعنون بـ الإرث التاريخي والثقافي والحضاري للموريسكيين في الوطن العربي، بمداخلة بعنوان: أدب الموريسكيين: خليط الاضطهاد والرغبة في الحفاظ على الهوية.

مشكلة الدراسة:

رغم أنّ هناك كثير من الباحثين الذين يجزمون بنسيان قضية الموريسكيين وموتها عبر صفحات الزمن، إلا أنّ هناك من أحيا تاريخهم، وتاريخ آدابهم، بل وعدّد الأنواع الأدبية التي كتبوا فيها، وافتنوا في تأليفها، ولعلّ العودة إلى تاريخ هؤلاء سيكشف خباياهم وكنوزهم المعرفية، التي تمثلت في تلك الرسائل والقصص والكتابات والأشعار التي سقاها هؤلاء بدماء تضحياتهم، وبقطرات من صبرهم. وفي هذا الصدد يمكننا تحديد مشكلة الدراسة الحالية في محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية:

✓ من هم الموريسكيون؟، وما سبب تسميتهم بهذا الاسم؟ وما ظروف حياتهم؟.

✓ ما التراث الأدبي الذي تركه الموريسكيون؟، وكيف أثرت ظروفهم في نتاجهم الأدبي؟، وما النيّة الحقيقيّة من وراء هذا الإرث اللغوي؟.

أهمية الدراسة:

تستمد الدراسة الحالية أهميّتها من ارتكازها على محورين أساسيين، المحور الأول: ويتمثل في بيان ماهية الموريسكيين، وأهمّ ظروف حياتهم، وانتقالهم من الاستقرار إلى الاضطراب، ومن الانتصار إلى الانكسار. أمّا المحور الثاني فيتعلّق ببيان تراثهم الثقافي، وأهمّ أنواع الفنون الأدبيّة التي ألفوا فيها، ومدى تأثرهم بظروف معيشتهم وتأثير هذه الأخيرة على تأليفهم.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة الحالية للكشف عن ماهية الموريسكيين، والاطلاع على ظروف حياتهم بعد سقوط غرناطة، وأهمّ ما خلّفوه من نتاج أدبيّ، وكيف أثرت ظروفهم المعيشية على إبداعاتهم الأدبيّة.

أولاً: تعريف الموريسكيين:

الموريسكيون هم مسلمو الأندلس الذين خُيروا بين البقاء فيها عند سقوطها باعتناق المسيحيّة، أو مغادرتها إن أبوا ذلك، ففرّ هؤلاء إلى بلدان كثيرة مجاورة، مثل: شمال إفريقيا وبعض من الدّول العربيّة. وتعود تسمية الموريسكيين إلى ما بعد سقوط غرناطة، وفرض الإسبان التنصّر على المسلمين القاطنين هناك، والمورسكي هو المسلم الذي اضطر إلى ترك إسلامه واعتناق المسيحية من أجل البقاء في البلاد، فهو من أصل لاتيني إغريقي، فالموري (mauri) حسب رأي المؤرخ الروماني سالوستيو (Salustio) الذي اهتم بالتأريخ لوقائع حرب يوغرطة ضدّ رومة يرى أنّ هذه التسمية تطلق على مجموعة بشرية ذات البشرة السمراء، أمّا الأصل الإغريقي للتسمية فهو من (أموروس) (Amaurus) يعني داكن البشرة، ومن هنا يشتق للصفة: مورو (Moro) يعني شديد السمرة، وقد تمدّد هذا المفهوم ليتحوّل في العصور الوسطى إلى معنى الإنسان غير المسيحي، وهذا حسب رأي الشاعر الإسباني القديم: قونثالو دي برثيو (gonzalo de berceo)، ومن هذه الاشتقاقات انحدرت تسمية مورسكي، التي تعني غير التصراني، والموجّهة خصيصاً لتعيين أقلية المسلمين (عبد الله حمّادي، 1989م، ص 50-51).

وربّما كانت التسمية تعني تحقير حال هؤلاء، لأنّ أحوالهم انقلبت من العزّ بالإسلام، إلى الدّل والهوان، والاضطرار إلى تغيير الديانة بعد الاضطهاد. حيث اتُّخذت في حقّهم قرارات تعسّفيّة، ولقد نجحت تلك القرارات في تضيق الخناق على الموريسكيين تضيقاً كاملاً، وللاحقتهم في قراهم ومدنهم وحياتهم ومنازلهم، بل وبنتّ العيون في العائلة الواحدة نفسها لضرب لُحمتها ووحدتها العائلية، وقضت تدريجياً على مميزات هويتهم ولغتهم، بل وأضعفت إسلامهم نتيجة الإرهاصات والملاحقات اليومية التي مورست ضدّهم، ولم يعد هناك ملجأً للخلاص من هذا الكابوس المفروض حولهم: فأسماءهم كلها لاتينية، حيث حرم عليهم التقلّد بالأسماء العربية. ونجد بذلك مثلاً الفقيه: جون شبكو (عبد الجليل التّميمي، 2000م، ص 76)، الذي يبدو اسمه غير عربيّ مسلم، رغم أنّه فقيه متخصصّ في علوم الدين الإسلاميّ.

ويبدو أنّ التسمية لحقت هؤلاء بعد وقت من الحكم الإسباني، لأنّ الإسبان عقد اتّفاقيّة مع المسلمين على أن يتركوا لهم الحرّية في لغتهم وعقائدهم. وقد عاش المسلمون في الفترة الأولى من سقوط مملكتهم حياة عادية، إلّا أنّ الإسبان

نقضوا المعاهدة، وشيئا فشيئا أجبروا المسلمين على التخلي على لغتهم ودينهم الإسلامي، وتتفق معظم الدراسات التاريخية على أن مصطلح الموريسك (Moriscos) استعمل بعد سقوط غرناطة للدلالة على المسلم الذي دخل إلى المسيحية حديثا (المسيحيون الجدد)، لكن الباحث سيمون الحايك يرى أن الظاهرة برزت سنة 1463م. وتذهب الباحثة الفرنسية إيفات هرموسيللا (Y. Hermosilla) إلى أن التاريخ الموريسكي يبدأ مع سقوط غرناطة، وبداية حركة الاسترداد، حيث لوحظ استبدال لفظ مدجن (Mudejares) بكلمة موريسكي في وثائق محاكم التفتيش، التي نعتت الموريسكيين بالمسيحيين الجدد (Cristiano nuevo de moro)، وهذا خلال القرن السادس عشر، وقد حدد المؤرخ الإسباني ذي إيبالزا (M.de Epalza)، وجود ثلاثة مراحل للإطار الديني والاجتماعي للأندلسيين من وجهة نظر القانون الإسباني، وتشمل المراحل التالية: مرحلة المدجنين، والمرحلة الموريسكية، ومرحلة الطرد النهائي (حنيفي هلايلي، 2011م، ص05)، ويشير المؤرخ الفرنسي لوي كاردياك (L. Cardillac) أن مصطلح الموريسك ظهر بهذا المفهوم حوالي سنة 1560م، ليشمل كل المسلمين الذين مكثوا في الجزيرة بعد سقوط غرناطة، الذين أرغموا على اعتناق الدين المسيحي الكاثوليكي، وسعت إسبانيا إلى فرض العقيدة النصرانية على المسلمين (حنيفي هلايلي، 2011م-2012م، ص05).

ثانيا: ظروف الموريسكيين خلال الحكم الإسباني:

انتهى الحكم الإسلامي في إسبانيا عام 897هـ-1492م، حيث استسلم آخر ملوك غرناطة، واضطر إلى تسليم المملك للكاثوليكين. وقد تمّ الاتفاق على ترك الحرية للمسلمين في هذه البلاد، وتمّ التعهد على عدم المساس بحقوقهم، ولكن الاتفاق انتقض من طرف المسيحيين، فقد بدؤوا أول الأمر بتحويل مساجدهم إلى كنائس، ثم أرسلوا إليهم من يقنعهم باعتناق المسيحية، فلم يجدوا منهم الاستجابة كما ظنّوا بادئ الأمر، وشهد المسلمون في تلك البلاد أنواعا من التعذيب، وقد خيروا بين اعتناق المسيحية والبقاء في هناء، أو المغادرة والابتعاد. كما عوملوا معاملة سيئة بسبب ضعف شوكتهم، وقوة شوكة المسيحيين في حكم البلاد، فحكم القويّ الضعيف، وقد مورس عليهم ضغط شديد من أجل التخلي عن الإسلام، وحتى على اللغة العربية، واستبدلها بالمسيحية واللغة القشتالية، وذلك من أجل القضاء عليهم، ومحو هويتهم الإسلامية العربية، فكانت الضغوط عليهم لا تحتمل، لجأت فيها السلطات الإسبانية إلى كل الوسائل، ما يخطر على البال وما لا يخطر، بهدف حمل هؤلاء على التخلي عن دينهم، ونسيان شعائرهم وعاداتهم، ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً بالنسبة للأغلبية الساحقة لهذا الشعب المضطهد، فقد استمروا يزاولون الشعائر والعادات الإسلامية في تكتّم (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص473).

كما تعرّضت لغة الموريسكيين العربية لحرب شعواء من طرف الإسبان، ولم تكن السلطات الإسبانية تبغي فقط اجتثاث قيم الإسلام من نفوسهم، بل كانت تريد القضاء على خصائصهم المميزة، ونسف كل ما يربطهم بتراثهم الفكري والأدبي، والقضاء على لغتهم، وتمنعهم من الحديث أو التخاطب بها، فضلا عن الكتابة (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص474).

وقد مرّت مأساة هؤلاء المغلوبين لتجرّع مصيرهم المحتوم بعدة مراحل تعاقب على تنفيذها وتطوير أساليبها بعد الملكين الكاثوليكين كل من الإمبراطور شارلكان (Carlos V) (كارلوس الخامس) الذي كان دوره ابتزاز كل ما تملك هذه

الطائفة من أموال ومتاع، مقابل التغافل على مصيرهم، لكنه ما انفك أن خلف هذا الإمبراطور ابنه الملك فيليب الثاني الذي ورث المشكلة بكل خطورتها، ورأى في عدم التعجيل بإنهاء إخلال وأيّ إخلال بأمن البلاد، ووحدة الأرض والدين، لأنّ في مفهومه للقضية أن هذه الطائفة وإن اعتنق بعضها المسيحية ظاهرياً فإنها ما تزال مستمرة على دين آبائها وأجدادها، فإذا صادف مثلاً أن فُرِضت عليهم مراسيم طقوس الزواج المسيحية كرها وتحت مراقبة ورعاية الكنيسة، فإنهم ما ينفكون يعودون إلى خلواتهم لنسخ تلك المراسيم الإلزامية بمراسيم إسلامية، وإذا ما أُجبروا على تعميم أبنائهم لتنصيرهم فهم لا يتوانون في نسخ كل ذلك بإقامة احتفالات سرّية لختانهم، وكذلك الحال مع الأسماء وبقيّة الشعائر الدينية الأخرى، كالصلاة والصيام على وجه الخصوص. من هنا تعيّن على الملك فيليب الثاني بأن يسارع باتّخاذ إجراءات حاسمة لوضع حدّ فاصل لمثل هذا التمادي في العصيان من قبل الأقليات الممّعة في تجاوزاتها وتمردّها، فكانت مجمل قراراته هي محاولة إيجاد السبل الناجعة للقضاء المبرم على أيّ أثر من آثار الإسلام والعربية بين ظهراني هؤلاء المنتزعين والعاثين بقيم الصليب. لكن جميع الإجراءات والقرارات نجدها في آخر الأمر تبوء بالفشل الذريع، وتبسّبب في انتفاضات ومقاومات لم تشهد إسبانيا مثيلها، وكان عليه أن ورّث المشكلة بثقل خطورتها إلى ولده ووارث عرشه الملك فيليب الثالث، الذي لم يتردّد هو الآخر في تفضيل الاختيار الصعب والنّاجع لمقاومة هذه الأقلية المتمردّة التي أصبحت تشكّل خطراً داخلياً يهدد باستمرار الوحدة الدّينية والدنيوية لسكان إسبانيا. ففكّر هذه المرّة وبمعيّة الكنيسة في خطة تريح البلاد والعباد إلى أبد الأبد، فكان قراره هو الطرد والشامل لكل مسلم عربي حتى يقطع دابرهم، وهو القرار الذي عرف حيّز التنفيذ ابتداءً من شهر أفريل من عام 1609م (عبد الله حمّادي، 1989م، ص 51-52).

والواقع أن الموريسكيين حاولوا المقاومة، واتصلوا بمن يساعدهم في أزمتهم التي كانوا يمزّون بها، وأنّ السّلط العثمانية العليا كانت على علم بالمأساة الموريسكية، بواسطة استلامهم لعديد اللوائح التي وجّهها الموريسكيون أنفسهم إلى أعلى السّلط (عبد الجليل التميمي، 2011م، ص 72). ولكن هناك من أدان الدولة العثمانية بشدّة "... لإهمالها تماماً الموريسكيين لمصيرهم المحزن، بعدم تقديم دعمها في الوقت المناسب، من توفير الأسلحة أو العمل على إنقاذهم من كابوس عدوّهم اللدود، الذي حكم عليهم بموت حضاريّ بطيّ، ومنعهم من الاحتماء بمرجعيتهم، والاعتزاز بلغتهم ودينتهم وتراثهم الحضاريّ (عبد الجليل التميمي، 2011م، ص 72).

ثالثاً: أدب الموريسكيين:

لم يجد الموريسكيون ملاذاً لترجمة المآسي التي أصابهم غير الأدب الذي خلّد تاريخهم المير، والذي كان يُعرف بـ: أدب الألكميا، أي الأدب الأعجمي، وجدير بالذكر أنّه يوجد في جامعة بورتوريكو واحد من أكبر المختبرات المعنية بالأدب الموريسكي (مركز المخطوطات، 2015م، ص 09)، وسُجّل التراث الموريسكي باللغة الرومنثية، إلا أنها اعتمدت الحرف العربي كإطار خارجي عوض الحرف اللاتيني مما يجعل الدارس يقع في ارتباك وهو يقلب صفحات أحد المخطوطات مثلاً، فيظن أنه بصدد مخطوط عربي إلا أنه لو حاول قراءته لما فهم محتواه لكونه رومنثي المعاني، ومثل هذه الطريقة التعبيرية نجدها قد عرفت في إسبانيا الإسلامية أيام أوج ازدهارها (عبد الله حمّادي، 1989م، ص 103). وقد استمرت لغة الألكميا سرّاً غامضاً حتى عثر العلماء من الإسبان أوائل القرن الثامن عشر على مجموعة من المخطوطات المكتوبة

بها، وبدأت حولها الدراسات، وظن أول الأمر أنها كتابات بلغة شرقية قد تكون الفارسية أو التركية أو البربرية، لكن بدأ التعرف على حقيقتها (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص476) بعد ذلك.

والراجح أنّ الأدب الموريسكي ينقسم إلى عدد من الأقسام، لأن الموريسكيين كانوا فنّانين، فقد كتبوا النثر ونظموا الشعر، وافتنوا في تفسير القرآن، فكان منهم الأدباء والشعراء والفقهاء. وأول ما نبدأ الحديث عنه هو المخطوطات التي تركوها، فقد كانت معجماً تمتلئ فيه فنونهم الأدبية، ودراساتهم الدينية، ففيها: علوم القرآن والسنة، والنثر والشعر.

أ- مخطوطات الموريسكيين:

ترك الموريسكيون مخطوطات تحمل شتى المواضيع، فمنها: الديني الذي يُعنى بالقرآن الكريم وعلومه، والسنة النبوية الشريفة، ومنها الأدبي الذي يشمل الشعر والقصة والرواية، ومنها العلمي الذي يشمل علوماً مختلفة مثل: الطب والفلسفة، كما كتبوا أدبهم بلغة غير اللغة العربية، تدعى: الرومانثية أو الإسبانية الوسيطة، في الحقبة التي تلت سقوط غرناطة عام 1492، وقد كتبوه بهذه اللغة وبحروف عربية للتعبير عن مواجدهم ومشاعرهم في هذه الفترة الصعبة من تاريخهم، فهو إذن أدب عربي إنساني النزعة، يتشبّه كتباً بهم بهويتهم الإسلامية، ويحرصون عليها، ولا يقبلون بديلاً عنها، وإن تظاهروا أو تظاهر بعضهم باعتناق ديانة أخرى على سبيل التقيّة فحسب (مركز المخطوطات، 2015م، ص10). وقد احتفظوا بهذه المخطوطات سرّاً في جدران منازلهم وشقوق الأسقف، وعندما اضطرّ الموريسكيون إلى ترك شبه الجزيرة الإيبيرية بقيت تلك المخطوطات في مخابئها حتى تمّ اكتشافها في بدايات القرن السابع عشر عند تهدم تلك المنازل، وتلك الأماكن التي خُبئ فيها هذا التراث المخطوط (مركز المخطوطات، 2015م، ص07-08)، وهذه المخطوطات المكتوبة بلغة إسبانية وسيطة، وحرف عربي، مما أدى لتسميتها بالمخطوطات الأعجمية (مركز المخطوطات، 2015م، ص08).

وتمثّل هذه المخطوطات أكثر من 250 مخطوطاً لم ينشر معظمها، وهذه المخطوطات موجودة في بعض المكتبات العامة والوطنية والأجنبية، في كل من إسبانيا وبعض الدول الأوروبية، ونشر حتى الآن جزء منها فقط (جمال عبد الكريم، ص40)، ويقول أحد الباحثين المتخصصين في الثقافة الموريسكية من المعاصرين ألا وهو الراهب البرو قالميس دي فونتيس (Alvaaro Galmes de fuentes) إنه يوجد أكثر من مائتي 200 مخطوط موريسكي موزعة عبر العديد من المكتبات الوطنية الإسبانية وكذلك الأجنبية، ومعظمها لم يعرف طريقه إلى النشر حتى الآن ("عبد الله حمادي، 1989م، ص107).

وفيما يتعلق بالمحتوى، ضمت المخطوطات أساطير وأدعية ومدائح نبوية، ومجادلات مع اليهود والنصارى، وتعاليم لقراءة القرآن، وموضوعات نحوية- خاصة الصوتية منها- وقواعد توزيع الميراث، والطب الشعبي ووصفات سحرية، بالإضافة على أمور أخرى يعني بها المسلم في شتى المواقف اليومية التي يمكن تخيلها (مركز المخطوطات، 2015م، ص44). ويظهر أن من بين هذا العدد الهائل من المخطوطات الموريسكية، أن الذي لفت انتباه الباحثين والمحققين هي تلك المخطوطات ذات الموضوعات الأدبية على وجه الخصوص والتي تعود العناية بها من طرف المتخصصين لكونها ذات علاقة وثيقة الصلة بالأدب المسيحي المعاصر لها، ولأنها نتاج مرحلة معينة مرتبطة ارتباطاً حميماً زمانياً ومكانياً بتلك الصراعات

الحادة بين ديانتين ونظامين حضاريين يختلفان سياسيا واجتماعيا وثقافيا، فاعتبرت مثل هذه الوثائق الثقافية بالنسبة لتلك الأحداث خير شاهد على ما ميّز تلك الحقبة التاريخية من مستجدات، كما جلبت هذه الآداب الأعجمية-الموريسكية- انتباه الباحثين اللغويين نظرا للاهمية التي تنطوي عليها أساليبها البيانية واللسانية ذات الخصوصيات المتميزة كاللهجات التي عبرت بها، وكتفاعل الحرف العربي مع المعنى الأعجمي الرومنثي، وهو ما أفضى للمتخصصين بمجموعة هامة من الأنماط الصوتية التي ساهمت في كشف العديد من القضايا الألسنية المعقدة، كما كان لها الفضل في كشف التباين بين الأصوات بين اللغات (عبد الله حمادي، 1989م، ص 107-108). وبعد حديثنا عن المخطوطات سنتجه في الخطوة الثانية من هذه الدراسة للحديث عن نوع من أهمّ العلوم التي اهتمّ بها الموريسكيون المسلمون، إنها: علوم الدين الإسلامي.

ب- علوم الدين الإسلامي عند الموريسكيين:

والحرمان من إظهار اِرْتِنَاء إلى الدين الإسلامي الذي اضطهد به المسلمون الموريسكيون هو ما جعلهم يحاولون الحفاظ عليه في كتاباتهم، حتى لا تضيع تعاليم هذا الدين الحنيف، وحتى يكون إرثا يخلفونه لأبنائهم وأحفادهم، وأهم نص مقدس عرفه الموريسكيون هو القرآن الكريم باعتباره أقيم كتاب مقدس عندهم، فقرؤوه ونسخوه وحفظوه، وترجموه إلى لغتهم الأعجمية، وقاموا بتفسير كثير من آياته والتعليق عليها، كذلك اهتم الموريسكيون أيضا بالأحاديث النبوية الشريفة، وكتبوا وألفوا مواضيع تتعلق بفصول السنة، وقد اعتمدوا في أفكارهم ودراساتهم على النصوص والآيات القرآنية، وكتبوا قصيدة في مدح البردة، وهذه القصيدة شائعة بكتاب السمرقندي، واعتبروه خير دليل للمسلم، فيه نصائح وإرشادات موجهة للمسلمين يوم لقاءهم مع ربهم يوم الحساب، وفيه أيضا شرح كيفية أحوال الناس في الجنة والنار، ونصائح أخرى لعمل الخير، وتجنب الشر، وطاعة الوالدين، وحقوق الابن، وعن غريمة الخمر ولحم الخنزير) جمال عبد الكريم، ص 56).

وتعتبر المدائح النبوية والأدعية من أشهر ما كتبه الموريسكيون، وإن كان الاهتمام بكتابة المدائح النبوية باللغة القشتالية يرجع إلى فترة أسبق، فقد كتب المدجنون مدائح بهذه اللغة في القرن الثالث عشر، ثم انتشرت بين طوائف هؤلاء في مختلف مدن قشتالة وأراجون، بعد ذلك تناول الموريسكيون نفس الموضوع وكتبوا حوله بلغة الألمخيادو (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص 477).

ج- شعر الموريسكيين:

ولم يكن حظ لغة الألمخيادو غير القرآن وشروحه وتفسيره، بل دون الموريسكيون بهذه اللغة أدايم فكان من بينهم شعراء وكتاب، عبروا عن أفكارهم الأدبية نثرا ونظما بنفس لغة الألمخيادو، ومن أشهر شعرائهم محمد ريدان أو الراعي، وكان يعيش في أواخر القرن السابع عشر، وأصله من روضة خالوت من أرجوان، وإنتاجه الأدبي يتراوح بين قصائد دينية وأخرى قصصية، ومن إنتاجه في القصص الديني كتاب هول يوم الحساب وقصة النبي منذ بدء الخليقة، وأغنيات دينية وأسماء الله الحسنى، وكلها شعر يتسم بالجزالة وسهولة الألفاظ. ومن شعراء الموريسكيين أيضا: إبراهيم دي بلفاد،

وخوان ألونسو ومحمد الخرطوشي ومنهم أديب مجهول عاش في تونس أوائل القرن السابع عشر بعد مأساة الطرد من الأراضي الإسبانية، وقد اشتهر بتعليقاته النقدية على مسرحيات الشاعر الإسباني الكبير لويث دي قيجا (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص 477)، ومن هنا نلاحظ أنهم كانوا أدباء ذواقين ونقادا متفوقين، لم تمنعهم ظروفهم من النظر إلى أدب غيرهم وإعطاء آرائهم فيه.

واستخدم الموريسكيون العربية في القصائد الثورية السرية (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص 475) التي نظموها ودعوا فيها إلى الثورة ضدّ الإسبان، الذين عاثوا في أرضهم فسادا، فكتبوا مثلا قصيدة لا تخلو من روح شعرية إلى السلطان بايزيد الثاني يلتمسون منه النجدة والغوث، كما أخذوا يوجهون رسائلهم بالعربية إلى المسلمين في بلاد الشمال الإفريقي (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص 475)، ويوجد كم كبير من الشعر لأبأس به، كقصيدة يوسف وقصيدة محمد، وقصيدة مدح البردة، وبعض القصائد الأخرى تتحدث عن سوء معاملة المسيحيين الكاثوليك للمسلمين في هذه الفترة الحرجة من تاريخ إسبانيا (جمال عبد الكريم، ص 43).

د- النثر عند الموريسكيين:

وكان من الموريسكيين كُتّاب القصة، الذين تركوا أعمالا أدبية برمتها، وكانت أعمالا كبيرة ذات عناوين بارزة، تستحق الدراسة والعناية، ومن هذه الأعمال: القصر الذهبي وكتاب الحروب، وحديث علي والأربعين جارية، أما كتاب قصة الاسكندر ذي القرنين فهو من أعظم إنتاجهم الحماسي القصصي، وهو إشادة بالاسكندر، لأن قصته قد ذكرت في القرآن الكريم، ولأنه قد بعث ليحارب ملوك الأرض، ويحطم الأصنام ويقضي على عبادها (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص 477). كما تضمّ خزائهم موضوعات تتعلق بالروايات التي تعتبر من أهم النماذج الأدبية للموريسكيين، وفي إطار هذه الروايات الأعجمية نذكر الكتاب الذي نشره نيكل عن حكاية أو حديث الملك الاسكندر، والرواية الأخرى الهامة: ندم أو توبة يائس، وهي قصة واقعية تعكس الحياة الإسبانية في القرن السادس عشر (جمال عبد الكريم، ص 44).

ويقال أنّ الموريسكيين كانوا يعيشون حالة مزرية جراء الاضطهاد الذي مورس عليهم، خاصة في مقوماتهم الشخصية، فقد كانت عربيتهم أكثر من هزيلة وممسوخة، وهذا بسبب حرق مئات الآلاف من كتبهم في الساحات العمومية ابتداء من سنة 1500م، وغلق مدارسهم ومكاتبهم، ومعاهدهم وحلقاتهم الدراسية، ومنعوا من تعلّم واقتناء الكتب العربية، بل إن المجالس الحكومية فرضت على الموريسكيين تعلّم اللغة القشتالية خلال ثلاث سنوات، وعدم التخاطب واستعمال اللغة العربية، وقد انطفت نتيجة ذلك جذوة ذكائهم، وعلمهم وثقافتهم، وهمشوا تهميشا كاملا وعلى جميع المستويات (عبد الجليل التميمي، 2000م، ص 76)، ومن يرجع إلى إنتاجهم يرى أن كتاباتهم وتفكيرهم كان يغلب عليها الطابع الغربي وإن عبروا ذلك بالقشتالية العربية، كما يرى أن الغالب عليه هو التأثير بلهجات المقاطعات المختلفة أكثر من التأثير بقواعد اللغة، ويرى النقاد أن نثر كتّاب الألمخيادو أفضل من نظمهم، وأنه نثر لا تكلف فيه، وأن الألفاظ العربية الصحيحة تتسرب إليه من آن إلى آخر، وأنه يعنى في الدرجة الأولى بتقديم التاريخ والتقاليد العربية في إطار ديني، أكثر من عنايته برونق الأسلوب وجمال الألفاظ، ويغلب عليه الضعف والركاكة، وهذا لا يمنع وجود إنتاج يتميز بالطلاوة ويصل على

مرتبة البلاغة كما هو حال الشعر عند محمد ريدان (الراعي)، وليس المهم في هذا الأدب المورسكي قيمته الأدبية، وإنما قيمته الاجتماعية، لأنه يوضح كثيرا من عادات وتقاليد هذا الشعب المنكوب الذي ترك آثاره على كثير من المظاهر الثقافية في اللغة الإسبانية وفي الشعر الإسباني، وفي الأفكار الدينية وغير ذلك (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص 477-478).

رابعاً: الموريسكيون والرغبة في الحفاظ على هويتهم من خلال أدبهم:

لقد جعلت المأساة التي مرّ بها الموريسكيون يبتكرون لغة غير لغتهم – اللغة العربية- التي فُرض عليهم عدم الحديث بها واستعمالها، وذلك تجنّباً للقهر والاضطهاد، فقد قال أحد فقهاءهم: اعلم أن أول ما تكلمتُ به ببلاد الأندلس كان العربية، وكانت النصرارى – دمّهم الله- تحكّم فيمن يجده يقرأ العربية، فتعلّمت الأعجمية للأخذ والأعطى، ثم ألهمني الله أن أخرج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين لما تحققت أن الكفار كانوا في الثغور، يبحثون عن كل من يرد عليهم لعلمهم يجدون أندلسيا مخفيا ليحكموا فيه، لأنهم كانوا منعوهم من الثغور لئلا يهربوا إلى بلاد المسلمين، فجلست سنين أتعلّم الكلام، والأخذ في كتبهم ليحسبوا أي منهم، إذ أمشي إلى بلادهم للخروج منها إلى بلاد الإسلام، ولما أن جئت إلى البلاد التي هي حاشية البحر حيث هو الحرس الشديد، وجلست بينهم، فلم يشكو فيّ بما رأوا مني من الكلام والحال والكتابة، وجئت من بينهم إلى بلاد المسلمين، وبهذه النية تعلّمت وبلغت في كتبهم، ولكل امرئ ما نوى، ثم رأيت أن سبب التعليم كان بنية القرب من الله ببلاد المسلمين، فتح الله لي بذلك العلم المنهى عنه ببيان الملوك المسدودة عن كثير من الناس (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص 481).

والواقع أنّ لغة الألمخيادو هي خليط بين اللغتين القشتالية والعربية، فقد لجأ المسلمون للغة القشتالية، واتخذوها متنفساً للتعبير عن فكرهم وأدبهم، وكتبوا القشتالية سرّاً بأحرف عربية (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص 475)، ورغم انصياعهم قسراً للتعبير بالقشتالية إلا أنهم كتبوها باللغة العربية، ولعلّ في تدوينها باللغة العربية رغبة لهؤلاء المستضعفين في الحفاظ على هويتهم المسلمة التي تمثّلها لغة القرآن الكريم، علماً أنهم تنصّروا ظاهرياً فقط، لأنّ تعاليم الدين الإسلاميّ كانت تسري في عروقهم، كما كانت النصوص الأعجمية ردّاً على سياسة الأمر الواقع، حيث كانت بمثابة تعبير عن المقاومة الداخلية وعن العودة لدين الآباء، وربما عن المثابرة في سبيل هذا الدين (مركز المخطوطات، 2015م، ص 44)، لذلك عُرف أدبهم بأدب الأقلية المضطّدة، أو هو أدب المقاومة، على حدّ تعبير المستشرق الإسباني بجامعة موريسية ألفونسو قرمونه جونزالث (A. C. Gonzales) أنه أدب المسلمين الإسبان، كتبوه في ذلك المناخ المعادي الإرهابي من جانب السلطات الإسبانية بعد سقوط غرناطة، وظل حتى القرن السابع عشر الميلادي، واستمر تأثيره بعد ذلك واضحاً في الأدب الإسباني والأوروبي (جمال عبد الكريم، ص 40)، وقد احتوت كتاباتهم على كثير من الكلمات ذات الأصول العربية، وهذا أيضاً أثر طبيعي للتقاليد العربية الإسلامية، الذي كان له الأثر الكبير في معظم الكتابات الأدبية الموريسكية، ويوجد كثير من الشواهد والأدلة والبراهين التي تؤيّد قوّة تأثير الكلمات والثقافة العربية، التي كانت تؤثر تأثيراً كبيراً على المجتمع الموريسكي في هذه الأونة بالذات (جمال عبد الكريم، ص 41)، والواضح أنّ كل هذه الروايات والقصص لها مغزى روي وديني وتاريخي واجتماعي ونفسي عميق (جمال عبد الكريم، ص 46).

ولعلّ سبب عدم تعرّف الإسبان على لغة الموريسكيين المبتكرة كان من وراءه رغبتهم في التموهيه كي لا يُكتشف أمرهم، وأمرٌ احتفاظهم بتعاليم الدين الإسلامي الذي بقي حيًّا في قلوبهم، فهم لكي يحتفظوا بجذوة حية من العقيدة المحمدية كتب العلماء والفقهاء كتباً عما يجب أن يعتقده أو يحفظه كل مسلم حسن الإيمان، كتبوا عن صفات الله، وعن بعض المسائل الفقهية، وفقاً لمذهب مالك، وكتبوا عن التاريخ المقدّس، والقصاص الديني، وتعبير الرؤيا وغير ذلك (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص476)، لأنّهم استمروا يزاولون الشعائر والعادات الإسلامية في تكتم، ويدوّنون أحكام الإسلام والأدعية والمدائح النبوية في لغة عرفت عنهم واختصت بهم، هي تلك التي اصطلح على تسميتها بلغة الأخمياادو (Aljamiaado) وهو تحريف إسباني للكلمة العربية: (الأعجمية)، وتعني كلمات أو جمل قشتالية مكتوبة بأحرف عربية، بحيث يصعب فهمها على المفتشين والمسؤولين عن مطاردة هؤلاء المسلمين (عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، ص473)، أي أنه عند الكتابة كانوا يكتبون باللغة الإسبانية أو الرومانية أو أي لهجة من اللهجات الإسبانية ولكن بحروف عربية، فقد تعودوا عليها لربطها باللغة العربية وبالإسلام للحفاظ على التراث العربي المجيد، وقد احتفظ الموريسكيون بكثير من بقايا وأثار الإسلام، وتعلموا العربية على أيدي آباءهم، وعرفوها بحفظهم للقرآن الكريم، ولاشك أن معظم الإنتاج الأدبي الموريسكي إنتاج ديني، وقد ترجم ونقل الموريسكيون كثيراً من الموضوعات التي تتعلق ببيئتهم إلى اللغة الأعجمية، وغالبية هذه الأعمال نصوص دينية، تهدف إلى تربية الشباب تربية سليمة، من أجل الحفاظ على التراث العربي الإسلامي (جمال عبد الكريم، ص43). ومن هنا نلاحظ أنّ الموريسكيون أرادوا من خلال هذه الكتابات الاحتفاظ بالعقيدة الإسلامية ونقلها إلى أبنائهم، لذا تحتوي المخطوطات الأعجمية على شتى المعارف الإسلامية، وهي نصوص ذات روح إسلامية في قالب لغوي روماني (مركز المخطوطات، 2015م، ص44).

خاتمة:

وفي نهاية هذا العمل يمكن لنا أن نستنتج بعض الاستنتاجات التي تتمثل في:

- الموريسكي هي تسمية أو تحقير لمسلمي الأندلس، الذين اضطروا لاعتناق المسيحية خوفاً من الهلاك.
- الموريسكيون هم شعب من بلاد الأندلس، عاشوا الحياة الهائنة فيها، وانقلبت حياتهم رأساً على عقب بعد سقوط غرناطة.
- الإسبان المسيحيون الحاكمون الجدد هم العدو اللدود للموريسكيين، فقد نقضوا معاهدة السلام بينهم، وظلموهم وانتهكوا حقوقهم.
- من أهم ما قام به الإسبان في بدايات الرغبة في أذية المسلمين الموريسكيين: هدم بعض من مساجدهم، والقيام بحملات تنصيرية مستهدفة لهم.
- أفسى ما عاناه الموريسكيون من الإسبان هو حرمانهم من تطبيق تعاليم دينهم الإسلامي الحنيف، ومحاربة لغتهم العربية.
- معاناة الموريسكيين ازدادت بعد صدور الحكم بطردهم من بلادهم، وتفرقهم في البلدان المجاورة لها.
- رغم معاناة الموريسكيين إلا أنهم ابتكروا لغة خاصة بهم، كانت مزيجاً من القشتالية نطقاً، والعربية تدويناً وكتابة.
- من الموريسكيين كتاب وأدياء ونقاد وشعراء، فقد خلفوا رصيماً أدبياً يشهد على هويتهم العربية الإسلامية.

- الموروث الأدبي الذي تركه الموريسكيون يتمثل في المخطوطات، التي ضمت دراساتهم للقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وبعضها من تعاليم الدين الإسلامي، إضافة إلى قصائد شعرية، ومنتورا يتمثل في القصص والروايات التي كانت لغتها أحسن من لغة منظومهم.
- الموروث الذي تركه الموريسكيون كان الغرض منه الحفاظ على هويتهم التي تركزت على الدين الإسلامي واللغة العربية.
- أهم ما يميز كتابات الموريسكيين هو التأريخ للفترة الزمنية التي عاشوها تحت وطأة قهر الإسبان، والتي عبّروا فيها عن حالتهم المزرية، ومعاناتهم النفسية التي كانت ناتجة عن حرمانهم من مقوماتهم الشخصية: الدين واللغة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- جمال عبد الكريم، الموريسكيون تاريخهم وأدبهم، دط، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر.
- 2- حنفي هلايلي، 2011- 2012م، مقدّمة، مجلة الحوار المتوسطي، مجلة محكمة تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية والفكرية، يصدرها مركز البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، العدد 03-04
- 3- عبد الجليل التميمي، 2011م، تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها، دط، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات.
- 4- عبد الله حمادي، 1989م، الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492- 1616، دط، الدر التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر
- 5- عبد الله محمد جمال الدين، 1991م، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون صفحة مهمة من تاريخ المسلمين في الأندلس، ط01، دار الصحوة، مصر
- 6- مركز المخطوطات، 2015م، التراث الموريسكي المخطوط (بحوث مترجمة عن الإسبانية)، ترجمة وتعليق: محمد محمد عبد السميع، تصدير: اسماعيل سراج الدين، دط، مكتبة الاسكندرية، مصر

التراث المادي واللامادي للمجتمع الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني

The tangible and intangible heritage of the Andalusian community in Algeria during the Ottoman era since coming to Algeria

د. شارف مارية / جامعة عمارثليجي الأغواط/ الجزائر.

Dr. Maria charef/ Ammar Thaliji University of Laghouat / Algeria

د. مهدي لبني / جامعة محمد البشير الابراهيمي برج بوعريبرج / الجزائر.

Dr.lobna mahdi / Mohamed El Bashir Brahimi University, Bordj Bou Arreridj / Algeria

ملخص الدراسة:

ساهم الأندلسيون منذ مجيئهم إلى الجزائر في بناء قوة الجزائر سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وحتى ثقافيا، فقد كان لهاته الإسهامات التي مست مختلف المجالات والأنشطة في جعلهم فئة اجتماعية متميزة في الجزائر خلال العهد العثماني، فقد نشروا حضارتهم وعاداتهم بين أوساط المجتمع الجزائري. والهدف من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على التراث المادي واللامادي للمجتمع الأندلسي، هذا الإرث الذي يعكس لنا واقع الحياة الاجتماعية والثقافية ومظاهرها المرتبطة بالعادات والتقاليد بالإضافة إلى دورهم البارز في الجانب العمراني.

الكلمات المفتاحية: المجتمع الأندلسي، الجزائر، العهد العثماني، التراث المادي واللامادي، العادات والتقاليد، الثقافة، العمران.

Abstract:

Since coming to Algeria, the Andalusians have contributed to building Algeria's political, economic, social and cultural strength. These contributions, which touched on various fields and activities, that made them a distinct social group in Algeria during the Ottoman era, they spread their civilization and customs among the Algerian society. The aim of this study is to shed light on the material and intangible heritage of Andalusian society, this legacy which reflects for us the reality of social and cultural life and its appearance linked to customs and traditions, in addition to their prominent role in the urban side.

Keywords: Andalusian society, Algeria, Ottoman era, material and intangible heritage, customs and traditions, culture, urbanisme

مقدمة:

أصبحت الجزائر قاعدة إسلامية مهمة لآلاف المهاجرين الأندلسيين خاصة بعد سقوط غرناطة 1492م، وتزايد عددهم أكثر بعد صدور قرار 1609م الذي ينص على طرد المسلمين نهائيا من الأندلس وبذلك جعلوا من الجزائر ومدنها وفحوصها موطن استقرار لهم، وأصبح تأثيرهم واضح على المجتمع الجزائري، فقد مس تأثيرهم عدة مجالات منها المجال الاجتماعي والعمراني والثقافي، كما ساهم الأندلسيون في ميدان الفن فقد أدخلوا إلى إيالة الجزائر الموشحات الأندلسية التي انتشرت انتشارا واسعا في المدن الجزائرية خلال الفترة العثمانية.

ونظرا لأهمية العنصر الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني سنسلط الضوء على مدى تأثيرهم على الحياة الاجتماعية والعمرائية خلال العهد العثماني وهل كان لهاته التأثيرات آثار إيجابية على المجتمع الجزائري؟ وماهي مظاهر تأثيرهم على الجانب العمراني؟.

1) التواجد الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني:

استقبلت الجزائر عددا كبيرا من الأندلسيين المهاجرين خاصة بعد سقوط غرناطة 828هـ / 1492م (فوزية لزغم، 2022، صفحة 762)، وقد تزايد عددهم بعد قرار الطرد الإجباري الذي أصدره الملك الإسباني فيليب الثالث سنة 1609م حيث يتضمن هذا المرسوم القضاء نهائيا على العنصر الإسلامي وطرده وتم طرد حوالي 1500 ألف شخص (H. D degrammont, 1887, p. 1) وبخصوص هجرتهم تذكر بعض الكتب أن خير الدين نقل ما يزيد عن 700 مهاجر أندلسي في سبع رحلات متتالية (عبد القادر حليبي، 1972، صفحة 162) وجعلوا من مدينة الجزائر (دار السلطان) الموطن الرئيسي للاستقرار، حيث استقروا بمدنها وفحوصها وبالأرياف القريبة منها ووصل عددهم جميعا سنة 1609م حوالي خمسة وعشرين ألف نسمة (فوزية لزغم، 2022).

كما ارتكز تواجدهم في المدن الساحلية كشرشال وتنس ومستغانم وعنابة وبجاية فقد وجدوا في الجزائر أرضا كأرضهم وأهلا كأهلهم (أبو القاسم سعد الله، 1998، صفحة 148)، واستقبلت مدينة القل هي الأخرى جماعات من الأندلسيين فقد ذكر مارمول كريخال في كتابه إفريقيا قائلا: "وفي المدينة أكثر من ثلاثمائة من سكانها من المسلمين الذين هاجروا من قشتالة والأندلس ومن أهل الثغور ومن مملكة بلنسية وتزداد هذه المستوطنة يوما بعد يوم لأن البلد خصب كثير القمح والماشية وبه جميع أنواع الفواكه كما في أوروبا، ويضاف إلى ذلك أن السكان يكسبون ثروات عظيمة من تربية دودة القز" (مارمول كريخال تر محمد حجي وآخرون، 1989، صفحة 362)، وساهموا في الحياة الاجتماعية وذلك بإدخال عنصرين مهمين الأول يتمثل في مضاعفة الكفاح ضد الاسبان في البحر والثاني في نشر أنماط حضارتهم بين الجزائريين، كما أن الجزائر ارتقت بوجودهم في العمارة والصناعة والطب و الصنائع والحرف والتجارة والتعلم (أبو القاسم سعد الله، 1998، صفحة 149)، وهذا ما أكده المقري قائلا: " تبحر أهل الأندلس في العلم" (أحمد بن محمد المقري، 1968، صفحة 141).

وقد طبعوا المدن الجزائرية خاصة الساحلية بطابعهم العمراني الذي ما يزال باقيا إلى اليوم (أبو القاسم سعد الله، 1998، صفحة 149)، كما صرح حمدان خوجة في كتابه المرأة: "أن وجود الأندلسيون ساعد الجزائر مساعدة كبيرة على تنظيم الحكومة وعلى تقدم الحضارة" (حمدان بن عثمان خوجة، صفحة 71).

2) الموروث المادي واللامادي للمجتمع الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني:

قبل أن نفصل في التراث المادي واللامادي للعنصر الأندلسي في الجزائر خلال الفترة العثمانية أردنا أن نقف عند مدلول الإرث المادي واللامادي وما الفرق بينهم:

■ التراث المادي: هو ذلك التراث الملموس وما اكتشفته الحفريات وما تضمنته المتاحف، ويشمل الآثار المنقولة كالمخطوطات والمسكوكات والآثار البنائية وبقايا المدن التاريخية والعمارة والمنشآت العسكرية والدينية وغيرها. (منصور درقاوي ، 2015، صفحة 45).

■ التراث اللامادي: هو التراث الثقافي اللامادي وهو الذي يتجلى في كافة المظاهر غير المادية وغير الملموسة لمختلف تكتلات وتنوعات التراث الإنساني والمنتقل عبر الأجيال. (سعاد حميدة، 2019، صفحة 101).

(أ) التراث المادي للمجتمع الأندلسي:

ساهم العنصر الأندلسي بولاية الجزائر في تنشيط النشاط الاقتصادي والثقافي والعماري وحتى العمراني، كما كان لهم تأثير اجتماعي طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين حيث كان هذا التأثير إضافة أصلية في إغناء التراث التاريخي للشعب الجزائري (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، صفحة 68).

فقد تمثل الارث المادي في عدة جوانب نذكر منها:

(1) الموروث العمراني:

كان للهجرة الأندلسية إلى الجزائر أثر ايجابي على الجانب العمراني فيفضل استقرارهم عرفت مدينة الجزائر تطورا ملحوظا لم تعرفه من قبل منذ العهد الحمادي، وبدأت ترتسم ملامح النهضة العمرانية في الجزائر ابتداء من مطلع القرن الخامس عشر (15م) تمثلت هذه النهضة في انشاء مراكز حضرية جديدة وإعادة بناء المدن والقرى التي أصابها الاضمحلال منذ مدة طويلة، ومثال على ذلك مدينة شرشال التي ازدهرت بعد أن استقر بها مهاجرو غرناطة وامتلكوا أغلب منازلها بحيث أصبح عدد المنازل التي تعود لهم يقدر باثنتي عشر ألفا، وعلى غرار مدينة شرشال شهدت مدن تنس ودلس وجيجل نهضة عمرانية (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، صفحة 27)، كما أنهم أسسوا مدن جديدة كالبليدة والقليلة (فوزية لزغم، 2022، صفحة 762)، وكان لهم دورا بارزا في انشاء المرافق العامة وإقامة العيون وانشاء السواقى وجلب المياه إلى المدن وتنظيم الري ومثال على ذلك عين الحامة التي جلبت مياهها من طرف الأندلسي أسطا موسى الذي تمكن بفضل مهارته من إيصال مياهها إلى مدينة الجزائر (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، الصفحات 27-28)، وقد انتشرت في الجزائر القصور المشيدة على الطراز الأندلسي (رفيق شلابي، 2022، صفحة 12).

وما تجدر الإشارة إليه أن حرفة البناء تحولت من حرفة أندلسية إلى حرفة محلية إبان القرن السابع عشر 17م، فقد هيمن العنصر الأندلسي على حرفة البناء حيث وجد معظم المعلمين المهرة استندت إليهم إدارة جماعة البنائين وتسييرها، ومن أبرز العائلات الأندلسية التي تصدرت جماعة البنائية عائلة الثغري من سنة 1653 إلى 1691م (عائشة غطاس، 2001، صفحة 200).

كما ساهم الأندلسيون في بناء المنازل فقد تميزت المنازل الأندلسية بطابعها العمراني الخاص والهندسة المميزة مما أكسبها منظرا لطيفا، فقد كانت تتألف من طابق أرضي يعتمد على أعمدة خشبية ومقام بالأجر والطين المعالج

وتستعمل فيها الحجارة وفي بعض الأحيان يتكون من طابق علوي يخصص غالبا للراحة، وبالنسبة للمنظر الخارجي للمنازل الأندلسية يتميز بطلائه الأبيض الناصع لمادة الجير (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، صفحة 65)، واستعملوا القرميد في سقوف المنازل وهذا ما ميز المدن التي استقروا فيها مثل مليانة وتنس، وتفننوا في الزخارف والمجصصات (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، صفحة 36). وبخصوص المنشآت الدينية فقد أسس الأندلسيون مسجد ومدرسة عليا بمدينة الجزائر لتعليم القرآن الكريم وكانت خاصة بهم وعرفت بمدرسة الأندلسيين، فقد أوردت الباحثة لزغم فوزية أنها وجدت وقفية تدل على إنشاء هذه المدرسة والمسجد بأوائل شهر محرم 1033هـ/ نوفمبر 1633م (فوزية لزغم، 2022، صفحة 765).

وفي سنة 1033هـ/1623م اجتمع عدة أندلسيين من أهل صناعات مختلفة واشتروا دار من مالهم الخاص وتم هدمها وبناء زاوية في موضعها للدروس العلمية للكبار وتعليم القرآن الكريم والمبادئ للصغار (نور الدين عبد القادر ، 2006، صفحة 170). وأيضا تم تشييد زاوية بالبليدة زاوية سيدي أحمد الكبير الأندلسي التي تخرجت منها أفواج عديدة من طلبة العلم وهناك زاوية سيدي علي بن مبارك بالقليلة تأسست في أوائل القرن الحادي عشر هجري/ السابع عشر ميلادي (11هـ/17م) (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، صفحة 62).

من خلال هذا يتضح لنا أن إيالة الجزائر عرفت نمو اقتصاديا ونهضة عمرانية مع قدوم الأندلسيين فكان وجودهم مكسبا ثمينا للجزائر خلال الفترة العثمانية وذلك لخبرتهم الفائقة في العمارة والزخرفة.

2) الفنون التقليدية:

تمكن الأندلسيون منذ استقرارهم بالجزائر في انشاء ورشات لأجل مزاولة مختلف الحرف والمهن والصناعات اليدوية كالخياطة والخزف والحزير فقد اشتهرت مصانع الحرير الأندلسية بمدن الجزائر والقليلة وبرشك بجودة انتاجها، فقد كان يصدر جزء منه إلى الأقطار المجاورة كتونس (haedo, 1870, p. 495)، كما برعوا في صناعة الشاشية وأعمال الشبكة والتطريز والتوشيح في كل من تلمسان والجزائر وتونس فقد كانت بمدينة الجزائر (300) نساج (1200) خياط و (600) أغلبهم من الأندلسيين (ناصر الدين سعيدوني، 2010، صفحة 33).

ومن بين العائلات الأندلسية التي اشتهرت بصناعة الشاشية عائلة بونايطيروا التي كانت لها مشاغل بجي باب الوادي (ناصر الدين سعيدوني ، 1984، صفحة 70). كما اشتهروا بصناعة المعلقات الجميلة التي تزين بها الجدران والبنائات الرفيعة التي تستعمل في تغطية الرأس وغيرها من أنواع المطرقات وأيضا صناعة الخزف والأدوات الفخارية خاصة بشرشال التي تميزت بصلاية فخارها وتنوع نقوشها وكثرة رسومها (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، صفحة 55). بالإضافة الى هذه الحرف اختص الأندلسيون بصناعة الخزف المعروف بالزليج الذي كان يستعمل لتغطية أرضية المنازل وتزيين المساجد والأبواب (ناصر الدين سعيدوني، 2010، صفحة 33).

(ب) التراث اللامادي: وتمثل في:

(1) العادات والتقاليد:

تميز المجتمع الأندلسي بعاداته وتقاليده الخاصة سواء في المعاملات أو الأفراح أو طرق الطهي أو نوعية اللباس والأكل، كما حافظوا على المظاهر المميزة للاحتفال بالأعياد والمراسم الدينية كالمولد النبوي الشريف وليلة القدر وعاشوراء وعيد الأضحى وعيد الفطر، فكان من عاداتهم في هاته المناسبات الدينية أنهم كانوا يحرصون على تردد الأناشيد والقصائد والمدائح الدينية (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، صفحة 58)، وكمثال على طريقة الاحتفال نذكر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فقد كانوا يترقبون هلال الربيع الأول كل سنة للاحتفال في الثاني عشر منه بمولد خير الأنام عليه الصلاة والسلام، ويتم إيقاد الشموع والتزين بأحسن الثياب مع تحري الصدقات في السر في الأيام السابقة له وكانت هذه الليلة تحيي بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وإحياء سنته وتلاوة الذكر الحكيم (بعكاك نور الدين بودالية تواتية، 2022، صفحة 62)، كما كانوا مولعين بالغناء وعزف الموسيقى في الأفراح عند الولادة والختان والخطبة والزفاف، ففي هذه المناسبات تقام الموسيقى الأندلسية المتمثلة في الموشحات والأغاني التي كان يتخللها دق الطبول وعزف الزرنة على نغمة داني داني (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، صفحة 58)، وفي هاته المناسبات يتم تقديم مختلف أنواع الأطعمة والحلويات الأندلسية (رفيق شلابي، 2022، صفحة 10)، ولعل أشهر الأطعمة التي اشتهر بها المجتمع الأندلسي نذكر السخينة وهي نوع من أنواع الحساء وتعرف باسم أسماس وقد كان هذا الطبق الأكثر شهرة في معظم منازل أهل تلمسان وهو يقدم في مناسبات عديدة منها مناسبة العقيقة. (عباس رضوان، 2018، صفحة 44).

(2) اللباس الأندلسي:

وبالنسبة للباس فقد ارتبط عموما بتقاليدهم وأعرافهم، التي لازمتهم في حياتهم، فقد اتسمت الطبقة الراقية بالفخامة من حيث الجودة في حين غلب مظهر البساطة على ثياب العامة، وكان الأندلسيون يلبسون الثياب القطنية والسراويل ويطلقون كلمة الغفارة على البرنس ويرتدون بما يسمى المحشاة وهي لباس غليظ وسميك كان يلبس في فصل الشتاء (رفيق شلابي، 2022، صفحة 10)، وما ميز لبسهم أنها كانت بيضاء، ولذلك تمكن الأندلسيون في فرض أذواقهم على غالبية سكان مدن الجزائر والبلدية والقلعة وشرشال. (عباس رضوان، 2018، صفحة 38).

(3) الموسيقى الأندلسية:

كان الأندلسيون مولعين بنظم الموشحات وترديد المدائح، ففي تلمسان اشتهر أبو عبد الله محمد بن أحمد مسايب الأندلسي (ت1768م) بنظم الموشحات وتلحينها، فقد نظم حوالي 3034 قطعة شعرية من صنف مألوف، أغلبها في موضوع المدائح النبوية، كما عرفت مدينة الجزائر أيضا محمد الشاهد الأندلسي (ت 1207هـ/1793م) العالم والأديب بتريدي موشحات بن سهيل وأبي زهرة ولسان الدين بن الخطيب (ناصر الدين سعيدوني ، 2003، صفحة 35).

وغلب على هذه الموشحات قصائد المدح (المولوديات) اختصت بذكر صفات ومآثر الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أشهرهم أبو العباس أحمد بن عمار الجزائري الأندلسي الأصل، مفتي المالكية (1766م) ونفس هذه المدائح اشتهر

التراث المادي واللامادي للمجتمع الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني

بها أيضا عالم الفقه الأندلسي محمد بن الشاهد (1207هـ/1793م)، عرف بتريده لموشحات ابن سهل وابن زهر، هذه الموشحات كانت تنشد على الآلات الموسيقية في المواسم الدينية وفي الحفلات والسهرات المنزلية. (ناصر الدين سعيدوني، 2003، صفحة 64).

خاتمة:

من خلال ما سبق عرضه يتبين لنا الأثر الإيجابي للعنصر الأندلسي في الجانب الاجتماعي والعمراني وذلك من خلال نقل عاداتهم وتقاليدهم إلى الجزائر، ولمستهم المعمارية في المدن الجزائرية التي تميزت بطابعها العمراني الأندلسي الراقى، فقد شيّدوا العديد من المرافق العامة والمنشآت الدينية أيضا، وساهموا في إحياء بعض المدن مثل تنس جيغل شرشال والبليدة وغيرها، فقد تميز الأندلسيون بالذوق والتفنن في التخطيط والعمارة والزخرفة وهذا جعل منهم فئة متميزة ولهم مكانة مرموقة في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني.

قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية:

- 1) بعاك نور الدين بودالية تواتية، (2022)، المجتمع الأندلسي من خلال الوثائق والعقود الفقهية، دراسة اجتماعية أنثروبولوجية، مجلة أنثروبولوجية الأديان، مجلد 18، عدد 2. جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.
- 2) رفيق شلابي، (2022)، التأثير الأندلسي المعماري خلال العهد العثماني قسنطينة أنموذجا، مجلة الراصد العلمي، مجلد 9 عدد 1. جامعة وهران 01.
- 3) سعاد حميدة، (2019)، عناصر التراث الثقافي اللامادي الجزائري ومنهجية صونه، مجلة الأدب، مج 19، ع 1. جامعة منتوري قسنطينة.
- 4) عائشة غطاس، (2001)، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830) مقارنة اجتماعية اقتصادية، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر.
- 5) عباس رضوان، (2018)، الإرث الثقافي اللامادي المورسكي لمنطقة تلمسان، مجلة الاناسة وعلوم المجتمع، عدد 3، جامعة محمد بوضياف مسيلة.
- 6) عبد القادر حليمي، (1972)، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م، الجزائر.
- 7) فوزية لزغم (2022)، أثر الأندلسيين في الحياة العلمية والدينية والأدبية بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مجلد 17، عدد خاص، جامعة مصطفى اسطيمبولي معسكر.
- 8) مارمول كريخال، تر محمد حجي وآخرون، (1989)، افريقيا، ج 2، الرباط، دار النشر المعرفة للنشر والتوزيع.

- 9) منصور درقاوي، (2015)، الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين (10هـ / 13هـ / 16م 19م) بين التأثير والتأثر، رسالة ماجستير، جامعة أحمد بن بلة وهران، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية.
- 10) ناصر الدين سعيدوني، (2010)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر- تونس-طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ميلادي، مجلة حوليات الأدب والعلوم الاجتماعية، عدد 31.
- 11) أبو القاسم سعد الله، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- 12) أحمد بن محمد المقرئ، (1968)، نفخ الطيب من غصن الاندلس الرطيب، مج4، بيروت، دار صادر.
- 13) حمدان بن عثمان خوجة، (بلا تاريخ)، المرأة، تح، محمد العربي الزبيري، الجزائر، ANEP منشورات.
- 14) ناصر الدين سعيدوني، (1984)، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 15) ناصر الدين سعيدوني، (2003)، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر. بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- 16) نور الدين عبد القادر، (2006)، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، الجزائر، دار الحضارة.

قائمة المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

- 17) H. D Degrammont. (1887). Histoire d'Alger sous la domination Turque (1518- 1830). Paris.
- 18) Haedo. (1870). Topographie et histoire général de l'Algérie. in Revue Africaine (N 14).

الإرث الموريسكي في الجزائر – العادات والتقاليد أنموذجا –

The Morisco heritage in Algeria - customs and traditions as a model –

د. سعدية بن حامد / جامعة المسيلة / الجزائر

Dr.Saadia BEN HAMED/University of Ouargla/Algeria

ط.د علي دش / جامعة قلمة / الجزائر

Phd s.ali DECHE/ University of guelma/ Algeria

ملخص الدراسة:

بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، أصدرت اسبانيا المسيحية العديد من القرارات والقوانين المجحفة في حق الموريسكيين الأندلسيين، ولعل أبرزها قانون الطرد النهائي الذي أصدره فيليب الثالث 1609م، والذي يمثل تاريخ الطرد النهائي للموريسكيين فتنوعت وجهات الموريسكيين بين دويلات العالم الإسلامي عامة كالمشرق والمغرب، والجزائر كغيرها من الدول الإسلامية نهاية القرن الخامس عشر الى القرن السابع عشر ميلادي تحولت الى مركز لاستقبال الموريسكيين الأندلسيين، الذين هاجروا من اسبانيا ليستقروا في مختلف مناطق الجزائر، وبخاصة الساحلية منها، ليترب عن هذه الهجرة عدة تأثيرات مست مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتي برز فيها تأثير العنصر الموريسكي فاستطاعوا نقل العديد من العادات و التقاليد التي تخص المأكل، المشرب، الملابس، الأعياد وحتى لهجتهم التي أصبحت تتداول في مختلف مناطق الجزائر، وبالتالي تمكن الأندلسيون من ترك بصمتهم في موطنهم الجديد.

الكلمات المفتاحية: الموريسكيين – التراث – العادات- التقاليد –الجزائر – اللهجة – اللباس .

Abstract:14

After the fall of Granada in the year 1492 AD, Christian Spain issued many unfair decisions and laws against the Andalusian Moriscos, perhaps the most prominent of which is the final expulsion law issued by Philip III in 1609 AD, which represents the date of the final expulsion of the Moriscos.

The Islamic countries at the end of the fifteenth century to the seventeenth century AD turned into a center for receiving the Andalusian Moriscos, who migrated from Spain to settle in the various regions of Algeria, especially the coastal ones, so that this migration resulted in several effects that affected the various economic, social and cultural fields. And in which the influence of the Morisco element emerged, and they were able to transfer many customs and traditions related to food, drink, clothing, feasts, and even their dialect, which became circulated in various regions of Algeria, and thus the Andalusians were able to leave their mark in their new home.

Keywords: Moriscos - Heritage - Customs - Traditions - Algeria - Dialect - Dress.

مقدمة:

بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، أصدرت اسبانيا المسيحية العديد من القرارات والقوانين المجحفة في حق الموريسكيين الأندلسيين، ولعل أبرزها قانون الطرد النهائي الذي أصدره فليبي الثالث سنة 1609م، والذي يمثل تاريخ الطرد النهائي للموريسكيين فتنوعت وجهات الموريسكيين بين دويلات العالم الإسلامي عامة كالمشرق والمغرب، وكانت الجزائر كغيرها من الدول الإسلامية نهاية القرن الخامس عشر الى القرن السابع عشر ميلادي مركزا لاستقبال الموريسكيين الأندلسيين، الذين هاجروا من اسبانيا ليستقروا في مختلف مناطق الجزائر، لاسيما المدن الساحلية منها، لتتبع عن هذه الهجرة عدة تأثيرات مست مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتي برز فيها تأثير العنصر الموريسكي حيث استطاعوا نقل العديد من العادات والتقاليد التي تخص المأكّل، المشرب، الملبس، والأعياد، وحتى لهجتهم التي أصبحت تتداول في مختلف مناطق الجزائر، وبالتالي تمكن الأندلسيون من ترك بصمتهم في موطنهم الجديد،

وتعالج هذه الورقة البحثية إشكالية تتعلق أساسا بموضوع الأندلسيين الموريسكيين والبحث في إرثهم الحضاري والثقافي، ومنه يمكن أن نتساءل: كيف استطاع هؤلاء الموريسكيين أن يكونوا عنصرا فاعلا في المجتمع الجزائري بما نقلوه من أسلوب الحياة على عادات وتقاليد البيئة الجزائرية في الفترة الحديثة؟

أولا - استقرار الموريسكيين بالمدن الجزائرية :

حلت الجالية الأندلسية بالمغرب الأوسط، أو ما يعرف بإيالة الجزائر منذ بداية الحكم العثماني للجزائر ، فقد لقيت اهتماما كبيرا من قبل الأتراك، وحظيت برضي الأهالي وتعاطفهم، هذا ما أعطى لهاته الجالية فرصة للاستقرار. (عبد المجيد، 2003، ص172)

الظاهر أن استقرار الأندلسيين في إيالة الجزائر لم يقتصر على مناطق معينة، بل تمثل في عدة جهات، خاصة المنطقة الساحلية حيث يمكن حصرها في ثلاث أقاليم رئيسة هي:

الغرب الجزائري: شمل وهران ونواحيها، مستغانم و ارزيو، تلمسان، قلعة بني راشد ومازونة.

الوسط الجزائري: شمل الجزائر (دار السلطان)، البليدة، القليعة، مليانة، شرشال ومتيجة.

الشرق الجزائري: شمل بجاية، جيجل، عنابة، وقسنطينة. (هلايلي، 2014م، ص 19)

وبما إن المدن الساحلية الجزائرية كان لها النصيب الأكبر من استقرار جموع المهاجرين الأندلسيين، حيث تأتي في طليعة المدن الجزائرية تأثرا بالأندلسيين مدينتا بجاية وتلمسان، اللتان أصبحتا محطة ترحال للأندلسيين. (سعيدوني، 2003، ص 19)

ولم يتوقف استقرار الموريسكيين على المدن الساحلية الكبيرة فقط، بل تعداه ذلك إلى إنشاء وإعمار بعض المدن، فنجد إن المراكز العمرانية التي أنشئت من طرف الأندلسيين مدينتا القليعة والبليدة التي أسست على يد سيدي احمد الكبير عام 1535م (سيدي احمد الكبير، 1540م)، بعد أن اقتطعها خير الدين بربروس كأرضية للأندلسيين.

والجدير بالذكر أن أهم مدينة استقطبت الأندلسيين هي مدينة الجزائر، حيث استقبلت أعداد كبيرة، والتي أصبح عدد الأندلسيين بها مطلع القرن السادس عشر يناهز 25 ألفا، لكونها أهم مدينة وكانت بمثابة العاصمة، إضافة إلى كونها مركز الحكم العثماني في الجزائر، فإنها أمنة وفرص الاستقرار فيها كبيرة. (سعيدوني، 2003، ص 27-28).

وما إن استقر الأندلسيون في مدينة الجزائر، نجدهم قد حاولوا البقاء وفق جماعات، لذلك نجدهم قد عرفوا بأحياء خاصة بهم في مدينة الجزائر ومن أشهر هذه الأحياء حي الطقارة الذين أنشأه وبناه الأندلسيين الوافدين من فالنسيا واراغونة وكतालونيا. (عبد المجيد، 2003، ص 174)

وتعتبر أيضا أحياء كل من بئر خادم والابيار الوجبة المفضلة للأندلسيين، ومن بين بعض الأماكن التي أقام بها الموريسكيون داخل مدينة الجزائر أيضا نذكر حومة مسيد الدالية، والتي تشير بعض المصادر إلى وجودها وسط مدينة الجزائر بجوار سوق الكتان وتتصل بشارع الديوانة. (حلي، 1972، ص 162)

وتشير الدراسات التاريخية الى بعض أماكن انتشار الأندلسيين في الجزائر حيث تذكر أهم احيائهم وهم كالآتي:
حومة سيدي ابن السلطان - حومة سيدي شعيب-حومة الخندق-حومة الجميلة - حومة الجامع الأعظم - حومة مسيد الدالية - حومة سوق الجمعة - حومة سيدي مصباح - حومة البلاط - حومة السوقية - حومة سيدي محمد الشريف - حومة سوقية باب الواد - حومة سوقية عمور - حومة سوق الصباغين - حومة سوق القبائل - حومة جامع علي بتشين - حومة سوق الباديستان، إضافة إلى مدينة البليدة وشرشال ووهران وتلمسان وتعد هذه الأخيرة مركز استقطاب للموريسكيين، والجدير أن التواجد الأندلسي في تلمسان قديم مقارنة بمناطق الجزائر الأخرى، حيث أصبحت تلمسان أصبحت مقصدا للمهاجرين الأندلسيين إثر انقسام دولة الموحدين وانكماش دولة بني الأحمر. (سعيدوني، 2003، ص 19)

وظلت الهجرة قائمة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وبعد إن استولى الأسبان على غرناطة، نزح عدد كبير منهم إلى الجزائر، وانتشروا في مختلف حواضر الجزائر وأهمها تلمسان، وتواصلت الهجرة الأندلسية الى تلمسان أيام الطرد الأكبر سنة 1609م حيث وبعد عدم اتساع وهران لجموع المهاجرين فضل حوالي ستة آلاف مهاجر التوجه إلى تلمسان.

ثانياً: اندماج الموريسكيين في المجتمع الجزائري

يعود سبب اندماج المهاجرين الأندلسيين مع بقية أفراد المجتمع إلى عدة أسباب و معطيات الظروف آنذاك، تتمثل في :

— استمرار الخطر المسيحي الخارجي على السواحل الجزائرية، والمتمثلة في التحرشات الاسبانية، حيث شنت اسبانيا غزوا صليبييا على سواحل المغرب الإسلامي، تتبعا للأندلسيين الفارين بالآلاف من الاضطهاد الممارس ضدهم، ومن بين هذه الحملات نذكر الحملة التي أرسلها "شارلكان" (العسلي، 1980، ص 49)، هذه الحملة التي كانت مجهزة بأربعين سفينة كبيرة، تحمل على متنها خمسة آلاف رجل من المقاتلين الأوروبيين والاسبانيين وقاد الحملة "هيقو دو مونكاد" نائب ملك صقلية، ووصلت الى مدينة الجزائر يوم 17 اوت سنة 1519 (احمد توفيق، ص 205-206)، إلا أنها منيت بالفشل حيث استطاع خير الدين ورجاله أن يلحقوا بالأسطول الاسباني خسائر فادحة على الرغم من قلة عددهم. (ابلاي، 2017، ص 54)

كما عزم شارلكان على الانتقام بعد استرجاع حصن البينيون من طرف خير الدين باشا في 27 ماي 1529، حيث جهز حملة بقيادة "اندريا دوريا" والتي اغارت على ميناء شرشال وقد هزم الاسبان أيضا وسقط واسر العديد منهم (بربروس، 2010، ص 149-150)، وقد وجهت اسبانيا أكبر حملة على الجزائر سنة 1541م والمشهور بحملة "شارلكان" حيث كان الأسطول الاسباني ضخمة والعدد ونزل في 23 أكتوبر 1541م (احمد توفيق، ص 282)، إلا أن حسن أغا استطاع هزموه بمساعدة قوى الطبيعة، وفي هذا يقول ابن رقية التلمساني في كتابه الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين اغارت عليها جنود لكفرة: <<... وفي اثناء ذلك هاج البحر هيجانا عظيما؛ فأنقطع بسببه جماعة من الملاعين، ولم يقدروا على الصعود في اجفانهم...>> (محمد، 2017، ص 101)، ونتيجة لبقاء الحملات والتحرشات الاسبانية قائمة، وتيقنهم أن العودة الى بلادهم أصبحت صعبة جدا، فضلت الأغلبية الساحقة الاندماج مع بقية السكان، ومساندة حكام الجزائر ومساعدتهم على التصدي لهاته الحملات. (سعيدوني، ص 38)

— أما الأسباب التي عجلت باندماج الجالية الأندلسية في المجتمع الجزائري يقول سعيدوني: <<إن استبداد بعض حكام الجزائر وإهمالهم لأساليب تنمية الثروات ورعاية السكان، واعتمادهم في تعاملهم أسلوبا يتصف بالضغط والاستبداد، أبطأ وأعاق هذا التعامل تطور النشاط الممارس من طرف الأندلسيين وأدى هذا إلى خمودهم، ومحاولة بعضهم التقرب الى الحكام وكسب ودّهم، الا انهم ظل ينظر إليهم كباقي المجموعات السكان الأخرى>>. (سعيدوني، ص 38)

— إضافة إلى مصاهرات أهل الأندلس مع الجيش، وذلك أن أهل الأندلس أقاموا علاقات مصاهرة بينهم وبين افراد الجيش الإنكشاري حيث سجل زواج بين قاسم الإنكشاري بن بايزيد وزهرة بنت احمد بن مسعود الأندلسي، وبذلك سعى الأندلسيون في إقامة علاقات مصاهرة مع العناصر التركية المقيمة في الجزائر، محاولة منهم في تقوية وجودهم بها (مهدي طيبي، 2012، ص 181)، وكذلك دخول عامل المصاهرات و التزاوج بين الأندلسيين والسكان المحليين، حيث يذكر نور الدين عبد القادر في كتابه صفحات من تاريخ الجزائر، إن سيدي احمد الكبير شيخ الأندلسيين (ت 1540م) والذي نزل واستقر بواد الرمان، و الذي ينسب له تأسيس مدينة البليدة، انه تزوج من امرأة من قبيلة أولاد السلطان المحلية و يقال أنها تسمى "حنة"، هذا الأمر الذي سهل عملية الاندماج. (نور الدين عبد القادر، ص 274)

— ومن الأسباب المهمة والتي ساعدت الأندلسيين على اندماجهم حسن الاستقبال الذي حضي به المهاجرون الموريسكيون من طرف حكام الجزائر والجزائريين بصفة عامة، أيضا نجد مساعي الأخوين بربروس في نصرة الأندلسيين واستضافتهم في البلاد، أي ان الاستقبال الحسن الذي حضي به المهاجرون كان دافع قوي لاندماجهم مع المجموعات المحلية وهذا ما حدث حيث أنهم لم يحسوا بالتغرب أو أنهم بعيدون عن موطنهم بل أحسوا أنفسهم في بلادهم (مهديّة طيبي، ص 89)، إضافة الى أنهم وجدوا أنفسهم في ارض تشبه أرضهم، وأهلا كأهلهم فاستوطنوا وساهموا في الحياة الاجتماعية الاقتصادية والثقافية. (هلايلي، ص 17)

ثالثا: العادات والتقاليد

1- الطبخ:

يعد الطبخ أحد مقومات الحياة الاجتماعية، فهو من أهم المتطلبات لاستمرار الحياة على اختلاف أنواعه وطرق اعداده، كما انه يعبر عن عادات وتقاليد المجتمعات، ومما يجدر أن نشير اليه ان المطبخ الجزائري عرفا تأثرا بفعل الجالية الاندلسية التي وفدت الى الجزائر، حيث وبفضلهم تنوعت المأكولات المحلية من جوانب شتى، كتنوعها من حيث الوصفات وطرق الاعداد وحتى التقديم، كما نرى اليوم ان العائلات الجزائرية لازلت محافظة على الوصفات الاندلسية التي تزين بها الموائد في مختلف المناسبات والافراح. (سعيدوني، ص 138)

منذ قدوم اهل الاندلس الى الجزائر عرفوا بأنهم اهل احتياط وتدبير في المعاش ويحتفظون بما في ايدهم خوفا وخشية من النذل والسؤال، وعرف عليهم انه كان لديهم الخبرة في ادخار أنواع الطعام عبر تقنيات، وذلك بسبب كرامتهم التي تمنعهم من المسألة. (المقري، ص 223)

وقد تركز طعامهم على القمح والذي كانوا يزرعونه بأيدهم، إضافة الى الدّرة والتي يصنع منها النشاء، هذا الأخير الذي يعتبر العمود الفقري لطعام الاندلسيين لاستعمالهم الكبير له، إضافة لهذا فانهم اهتموا بادخار العنب عبر تجفيفه وهاته الطريقة مازالت مستعملة الى اليوم حيث يصبح يسمى بعد تجفيفه ب "الزبيب"، ولم يقتصر الادخار على الزبيب فحسب بل تعداه الى التين، التفاح، الرمان، القسطل، البلوط، الجوز واللوز الى غير ذلك، يجدر التذكير الى ان طرق حفظ الطعام المتبعة من طرفهم تحفظ الطعام الى أكثر من سنة. (ابن الخطيب، 1973م، ص 137).

اما فيما يخص أدوات المطبخ فقد شملت القدر وهو على احجام مختلفة، وكان القدر المصنوع من الفخار من أكثر الأنواع شيوعا، كما نجد المقلاة والبرمة المصنوعة من النحاس وهي الى يومنا هذا تستعمل وتسمى بنفس الاسم. (اللوه، 1989، ص 230).

بعد التعرف على المطبخ الاندلسي وادواته لابد لنا من التعرّيج على الأطعمة والحلويات التي جلبها الوافدون الاندلسيون الى الجزائر للتعرف عليها، فمن حيث المأكولات نجد: البركوكس: الذي يعد من الاكلات التقليدية الجزائرية، حيث يصنع بوضع الدقيق في معجنة ويرش بماء قد حُل فيه الملح، ويحرك باليد حتى يلتئم ويتحبب، ثم يحرك بالكف

حتى يصير كالحصى الصغير ثم يغربل بغربال خفيف حتى يزول منه ما بقي فيه من الدقيق ويجفف في طبق . (التجيبى، 1981، ص93)

- الكوسكوس(الكسكس): يعد من الأطعمة التي كانت شائعة في الاندلس، وهو اليوم من الأطعمة التقليدية الجزائرية، لا بل هو سيد المناسبات وله عدة تسميات منها النعمة، الطعام، اما عن طريقة تحضيره وصنعه فنجد ان سلمى الخضراء الجيوسي تذكر في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الاندلس، انه يُصنع بوضع السميد في اناء عميق، ثم يرش بالماء المملح، ثم تحرك الحبوب بين الانامل لتلتصق ببعضها البعض، وتفرك الحبوب بين راحتين حتى تصبح بحجم رؤوس النمل، ويأخذ "الكسكاس" ذو الثقوب ويملاً، و بعد الانتهاء يوضع فوق قدر الطبخ المعروف "بالبرمة" وعادة ما يسد الفراغ بينهما بالعجين، و يغطى الكسكاس، ويترك لينضج، ان رؤية الابخرة تصعد بقوة أعلى الاناء هو دليل نضج الكسكسى، ثم يزال و يجفف على قطعة قماش بيضاء، و هو الشيء نفسه الذي مازال يستخدم إلى يومنا هذا.

- الثريد: ويعرف في الجزائر بالتريدة وهي تحريف للمعنى العربي الثريد، ويعد من الطعمة الموروثة عن الأندلسيين (الجيوسي، 1998، ص 1021)، اما عن طريقة صنعه فيقول ابن رزين: "يعجن الدقيق بماء وملح وقليل من خمير عجنا قويا، ثم يمد على مائدة في غاية الرقة ويقطع قطعاً مربعة في سعة اصبعين وتجفف هاته القطع للشمس". (ابن رزين، ص 932)

- الدشيش: من الاكلات التي لازلت حاضرة بالجزائر، نقلها الاندلسيون الى الجزائر، وتنطق بنفس الصيغة التي كانت سائدة في الفردوس المفقود (الاندلس)، اما عن طريقة استخراجها يخبرنا فوزي سعد الله انه بعد القيام بعملية الحصاد سوء كان قمح او شعير، فانه يجمع في مكان مخصص لعملية الدرس، والدرس يتم اما باستعمال الحيوانات أو بعض الآلات التقليدية، ثم يتم جمع ما دُرس وتتم تصفيته مرة ثانية وثالثة، وتتم التصفية باستعمال عدة وسائل كالغربال والمهراس، ليبقى الحب سواء كان قمحا او شعير صافي لاستعماله للطحن (سعد الله، 2016، ص 400)، كما أشاع الأندلسيون الدويذة والمرقاص الذي يعرف اليوم باللغة الفرنسية بالمرقاز Merguez. (سعد الله، 2016، ص 402)

أما إذا اتينا للحديث عن التأثيرات الأندلسية في مجال الحلويات فأنها عديدة، نذكر منها:

- البسطيلة: تعد إحدى الأكلات الأندلسية التي توارثها الجزائريون عن الموريسكيين خلال هجرتهم الى الجزائر، وهي شائعة في الغرب الجزائري لاسيما مدينة وهران، وهي عبارة عن ورقة من العجين تحشى اما باللحم أو الفواكه حسب الأقاليم والاذواق، وهي اشبه البوراك (سعد الله، 2016، ص 399)، كذلك نجد المسمن الذي يصنع من السميد والملح والماء، يطهى في المقلّة او الطاجين ويسقى بالعسل ويعرف أيضا باسم "المبرم" (التجيبى، ص72)، بالإضافة الى المسمن نجد الحلويات الدائرية المحشوة باللوز والمغلّفة بالسكر، تعرف

بالكعبيكات او العكعك او السفنج المسكر وهي من ذخائر اهل الاندلس التي جلبوها معهم الى الجزائر . (سعد الله، ص403)

- الزلابية والمقروض (المقروط): تعد من بين الحلويات التي ورثها الجزائريون عن المهاجرين الاندلسيين، والتي لازلت تزين بهما الموائد الجزائرية، خاصة في شهر رمضان، كذلك نجد الاسفنج الذي يصنع من السميد والماء الساخن ويملح وتوضع فيه الخميرة، فاذا ظهرت عليه علامات الاختمار يقلى في الزيت. (التجيبى، ص79-80)
- 2- اللباس:

يشكل اللباس أحد المظاهر التي تعبر عن ثقافة الفرد والمجتمع، ولقد تعرض اللباس في الجزائر الى عدة تأثيرات، بسبب الثقافات المتنوعة التي حملتها مختلف الهجرات القادمة نحو الجزائر، والتي كان من بينها الهجرة الاندلسية، التي اثرت وأدخلت الى الجزائر مجموعة من الألبسة التي لازلت حاضرة الى يومنا هذا.

ومما يجدر الإشارة اليه في هذا الصدد ان اهل الاندلس عند قدومهم الى الجزائر عرفوا بنظافة اللباس حيث يوضح ذلك احمد المقرى في قوله: "واهل الاندلس اشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه، فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه". (المقرى، ص223)

ولقد نجح الاندلسيون في فرض اذواقهم في الملبس على غالبية سكان مدن الجزائر كالبليدة والقليعة وشرشال، فمثلا كان جهاز المرأة يتألف من عدة ملابس من بينها القمجة، الطوق، الفستان، المحرمة، الشنير، الفريملة، الجابادولي، الصدرية، القفطان، الصارمة، البليغة، الريحية وغيرها (هلايلي، ص67)، ومن بين اهم الملابس الاندلسية التي أصبحت لها شهرة في انحاء البلاد الجزائرية نجد:

- القندورة: هي التي كانت تلبس فوق الغليلة، وهي ذات اكمام واسعة مطرزة بالشبيكة الفضية والذهبية على شكل صفيين متوازيين، حيث تلتصق بها الاقفال الذهبية. وهي عادة ما تمتد على الجسم بأحزمة حريرية مطرزة ومرصعة بقطع الذهب الخالص. (سعيدوني، ص59)

- القفطان: يعد القفطان أكثر الأزياء رواجاً وشيوعاً (غطاس، ص448)، فهو غالبا ما يصنع من الحرير او القטיפ، حيث يعتبر من ملابس الابهة والفخامة في المجتمع، كما يعد من المكونات الأساسية لجهاز العروس، وقد انتشر ارتداؤه في الجزائر ومازال مستمر الى يومنا هذا. (طيان ساجد، 2012-2013، ص213)

- الغليلة: هي عبارة عن ثوب او سترة طويلة، يلبسها الرجل والمرأة على حد سواء، ويعود أصلها الى المهاجرين الأندلسيين الذين قاموا بإدخالها الى الجزائر، وتصنع الغليلة من قماش خفيف أرجواني اللون كان يجلب من بلنسية، وكانت تصنع من عدة أنواع من القماش كالساتان، القטיפ والديباج، توصف على ان لها عنق مجوف وواسع، وتوجد بها ازرار كبيرة تكون اما بالذهب أو الفضة، اما عن طولها فعادة ما يصل منتصف الساقين واکمامها لا تتجاوز المرفقين . (طيان ساجد، 1990-1991، ص155)

- الشاشية: من الألبسة التي أخذها معهم المهاجرون الأندلسيون إلى شمال إفريقيا، وهي عبارة عن قلنسوة حمراء، كان يضعها رجال المخزن، العلماء، التجار والطلبة، واستمر وجودها إلى يومنا هذا لكن بصفة قليلة.
- البنيقة: حسب محمد رزوق فان هذا اللفظ مازال مستعمل في شمال المغرب والجزائر، ويتعلق الأمر بمنديل تضعه النساء على رؤوسهن لجمع شعرهن.
- البدعية: وهي مما نقله المهاجرون الأندلسيون إلى إفريقيا، وقد استبدلت هذه الكلمة بلفظة "صدرية"
- الحايك: يعد من أهم الألبسة التي جاء بها الأندلسيون، وقد انتشر في الجزائر وأصبح من الأزياء المحلية، حيث ترتديه النسوة عند الخروج من البيت، وحسب فوزي سعد الله فان لبس الحايك كان على الموضة الغرناطية عجار، حيث يسمى هنا "البوعونية" وهو شائع في بقية المدن والبلدان التي سكنها الأندلسيون كمستغانم ودلس (سعد الله، ص 32-33)، والحايك عبارة عن قطعة قماش بيضاء اللون، ويكون القماش المصنوع به رقيق، يوضع الحايك على الرأس و ينزل إلى غاية القدمين بعد ان يتقاطع في ناحية الصدر، و كان يغطي ويستر جسم المرأة بحيث لا يمكن تمييزها حتى من طرف زوجها. (طيان ساجد، ص 156)
- الصارمة: وهي عبارة عن تاج من الذهب او الفضة ومحرّمة كليا وتضع فوقها برقعاً شفافاً ومطرزاً. (طيان ساجد، ص 213)

3- اللهجة:

أشاع الموريسكيون لهجاتهم وأساليب نطقهم للكلمات، وحتى المفردات التي كانت مستخدمة بالأندلس (سعد الله، ص 37)، بمجرد مجيئهم إلى الجزائر حيث تغيرت ألسنة الناس، ومما وجب الإشارة إليه أن الطائفة الأندلسية تميزت منذ قدومها للجزائر باستعمالها للهجتها العربية التي كانت سائدة في غرناطة وحواضر الأندلس، مما أدى إلى تأثر جماعة الحضرة بها (هلايلي، ص 67)، خاصة في المدن الكبرى كتلمسان، الجزائر، بجاية، وغيرها من المدن، وذلك نظراً لرقعة مخارج حروفها وسهولة التلفظ بها، ويرجع سعيدوني انتشار اللغة العربية واستعمالها في المناطق التي ظلت حتى قدومهم تستعمل للهجة البربرية إلى انتشار الأندلسيين بها مثل: تنس، دلس وبجاية، ويضيف أيضاً في كتابه دراسات أندلسية، ان المهاجرين الأندلسيين عملوا على نشر لغة الفرنكا (Langua Franca) (هلايلي، ص 67)، التي تغلب عليها المفردات الإسبانية، وقد ظلت كذلك لفترة طويلة، مما جعل التعابير الإسبانية شائعة لدى العديد من الأسر الموريسكية. (سعيدوني، ص 59)

كما نجد انه هناك بعض الكلمات التي ادخلها الموريسكيون مازالت في بعض المدن الجزائرية تنطق كما كانت عليه، كتلمسان مثلاً التي ينطق اهلاها القاف الفا مثل كلمة "قلتلك" تنطق "ألتلك"، ونجد أيضاً في مدينة جيجل الكفكفة وهي بتحويل القاف إلى كاف، وهذا في العديد من المفردات مثل كلمة "قتل" تنطق "كتل". (سعد الله، ص 216)

ولتوضيح الأمور أكثر حول تأثير سكان الجزائر بلهجة أهل الأندلس، نجد أن محمد رزوق استطاع في كتابه الاندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 16-17 الميلاديين توضيح هذا التأثير، وأدرجه في الجدول التالي:

الرقم	قول اهل المغرب	اللفظ الاسباني	مدلوله
01	بابور	Babor	باخرة
02	براقة	Barraca	كوخ
03	بلاصة	Plaza	ساحة
04	بلوزة	Blusa	لباس
05	بندير	Pandera	دف
06	كيبوط	Copote	معطف
07	كارطة	Carta	ورقة لعب
08	كنابي	Canapé	شبه سرير من خشب
09	لامبة	Lampara	مصباح
10	ماكينة	Maquina	الآلة
11	الماركة	Marca	النوع
12	صندالة	Sandila	نعل
13	دورو	Duro	نقد ذهبي اسباني
14	فامبلا	Familia	عائلة
15	قرجومة	Gargonra	حنجرة
16	سمانة	Semana	أسبوع
17	سباط	Zaparo	حذاء
18	فاكتورة	Factura	فاتورة
19	كارو	Caro	سيجارة
20	الكالة	Cala	حجارة توضع امام العجلة
21	لاطة	Lata	قطعة من الحديد

جدول يوضح المفردات الاسبانية التي ادخلها الاندلسيون والتي لا تزال مستعملة الى يومنا هذا. (رزوق، ص 188-189)

خاتمة:

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية إلى أن خيار الموريسكيين في الهجرة إلى مواطن جديدة تشاركهم نفس الوجهة الحضارية وتتقاسم معهم أسس ومقومات الثقافة الإسلامية كان ضرورة حتمية نحو البلاد العربية، وعلى رأسها الإيالة الجزائرية، حيث ساهموا في ترك بصمتهم بشكل واضح على شتى المجالات.

والحقيقة أن الموريسكيين استطاعوا أن يكونوا عنصرا فاعلا في المجتمع الجزائري من خلال ما نقلوه من أسلوب الحياة، وذوق رفيع في الطبخ واللباس وغيرها من الأساليب الجديدة على البيئة العربية والجزائرية بالخصوص في العهد العثماني، والتراث المادي واللامادي شاهد على ذلك.

قائمة المراجع:

- 1) ابن رزين التجيبي، (1981م)، فضالة الخوان في طببات الطعام والألوان، تح: محمد بن شقرون، اشراف احسان عباس، مطبعة الرسالة، الرباط.
- 2) احمد توفيق المدني، (د.ت)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1792م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 3) اسماء ابلالي، (2017م)، التحرشات الاسبانية على السواحل الجزائرية خلال القرن 16م قراءة في الدوافع والنتائج، مجلة روافد للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، العدد الثاني.
- 4) آمنة اللوه، (1989م)، صور من تطوان المغربية، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، عدد15، مطبعة المعارف، المغرب.
- 5) بسام العسلي، (1980م)، خير الدين بربروس و الجهاد البحري (1470-1547م)، ط1، دار النفائس، بيروت.
- 6) حنفي هلايلي، (2014م)، القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء الفرمانات العثمانية 1492-1614، الحوار المتوسطي، العدد 6، جامعة سيدي بلعباس.
- 7) خير الدين بربروس، (2010م)، مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 8) سلى خضراء الجيوسي، (1998م)، الحضارة العربية الإسلامية في الاندلس، ج2، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- 9) سيدي احمد الكبير: هو شيخ أندلسي، من المهاجرين الذين جاؤوا الى الجزائر بعد سقوط غرناطة، استوطن مدينة البليدة بأمر من خير الدين، يرجع له الفضل في تأسيس مدينة البليدة سنة 1535م، توفي عام 1540م.
- 10) شريفة طيان ساجد، (2012-2013م)، ملابس المرأة وازياؤها بمدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، عدد 15-16، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، الجزائر.
- 11) شريفة طيان، (1990-1991م)، ملابس المرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني، رسالة ماجستير، تخصص الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر.
- 12) عبد المجيد قدور، (2003م)، الهجرة الأندلسية إلى المغرب الإسلامي ونتائجها الاجتماعية والحضارية الجزائر كنموذج، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 20، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، ديسمبر.
- 13) علي عبد القادر حلبي، (1972م)، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل 1830، ط1، الجزائر.

- 14) فوزي سعد الله، (2016م)، الشتات الأندلسي الشتات الاندلسي في الجزائر والعالم، ج2، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 15) لسان الدين ابن الخطيب، (1973م)، الاحاطة في اخبار غرناطة، مجلد1، ط2، تح: محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة.
- 16) محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني، (2017م)، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين اغارت عليها جنود الكفرة، تح: خير الدين سعدي، ط1، أوراق ثقافية للنشر والتوزيع، جيجل.
- 17) مهدي طيبي، (2012م)، نموذج من العائلة الاندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية القرنين(17-18م) من خلال سجلات المحاكم الشرعية ووثائق الارشيف الوطني، مجلة الدراسات التاريخية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، العدد14، الجزائر.
- 18) ناصر الدين سعديوني، (2003م)، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت .

ملامح التأثير الأندلسي (الموريسكي) لمدن ساحل الجزائر في الفترة الحديثة والمعاصرة " شرشال والبليدة " نموذجا.

Features of the Andalusian (Moorish) influence of the cities of the Algerian coast in the modern and contemporary period "Cherchell and Blida" as an example.

طالب دكتوراه . بركة محمد / جامعة الجزائر 2 (ابو القاسم سعد الله) / الجزائر

Phd Student . Barka mohamed / University of alger 2/ alger

الدكتور. الطاهر أبرير / جامعة بسكرة / الجزائر

Dt. Taher ibrir / University of biskra / alger

ملخص الدراسة :

سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية التطرق لبدايات تأسيس لهاتين المدينتين وإبراز الطابع الحضاري والحضور الأندلسي بهذه المنطقة ؛ من منشآت عمرانية وأعمال علمية وغيرها، بالإضافة إلى ذلك سنحاول ذكر أهم الفئات الاجتماعية التي قطنت بهذه المنطقة وعلاقتها بالأندلسيين المستقرين بها، مركزين في ذلك على الفترة العثمانية باعتبارها فترة ازدهار هذه المدينة وفترة بروز هذه الفئة التي طردت من بلدها الأصلي الأندلس، وفي نقطة أخيرة سنحاول ربط العلاقة بين ماضي وحاضر مدينة شرشال و البليدة وإبراز معالم الثقافة الأندلسية الباقية في هذه البلدة، ولقد ظل هذا التأثير قبلة للمجتمع الجزائري سواء في أنواع الأنشطة الحرفية أو الطابع التقليدي سواء في اللباس أو أكلات التقليدية بل تعدى ذلك فرغم تعرض المجتمع الجزائري لطفرة سيكولوجية مع الأثر الوجود الإيماري الفرنسي إلا أنه حافظ على الكثير من كلمات يعود سردها لظوبونيماسانية ، بالإضافة للبقاء الألقاب التي في الغالب ما كانت امتزاج متراكب بين العثمانية اللغة الميئة ولقة الأندلسية الموريسكية ، ويكمن إبراز الهدف من هذا البحث التاريخي في إبراز الحضور الأندلسي في الجزائر .

الكلمات المفتاحية : المدن الأندلسية ؛ شرشال ، آثار ؛ الجزائر ؛ البليدة .

Study summary :

We will try, through this paper, to address the beginnings of the establishment of these two cities, and to highlight the civilizational character and the Andalusian presence in this region. From urban facilities, scientific works, and others, in addition to that, we will try to mention the most important social groups that inhabited this region and their relationship with the Andalusians who settled there. Focusing on the Ottoman period as the period of prosperity of this city and the period of the emergence of this group that was expelled from its original country Andalusia, and in a final point we will try to link the relationship

between the past and present of the city of Cherchell and Blida and highlight the features of the Andalusian culture remaining in this town .This influence remained a destination for the Algerian society, whether in the types of craft activities or the traditional character, whether in dress or traditional food. Rather, it exceeded that, although the Algerian society was subjected to a sociological boom with the influence of the French colonial presence, but it preserved many words that were narrated back to the linguistic toponima, in addition to surviving titles. Which was mostly not a superimposed mixture between the Ottoman dead language and Andalusian Moorish language, and highlighting the goal of this historical research lies in highlighting the Andalusian presence in Algeria.

Keywords : Andalusian cities; Cherchell, Antiquities; Algeria ; blunt

مقدمة :

لقد كان الرقي الحضاري الذي أضحت عليه البلاد الأندلسية خلال العصر الوسيط، من أبرز المعالم التي تباينت إرهاباتها الفنية والمعمارية في المغرب الإسلامي بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة، وهذا على الصعيدين الفني والنمط المعماري.

بيد أن التأثير الكبير قد تجلت بوادره بعد سقوط آخر القلاع لبلاد الاندلس في يد النصارى والمسيحيين، هذا ما بعث على تفرق المسلمين العائدين من الاندلس او المورسكيين ببلاد المغرب الإسلامي وفي زمرتهم طلبة علم وعلماء وفنانين، ما اعطى لمسة فنية معمارية للمدن الجزائرية التي اصبحت تزخر بمعالم وتحف معمارية ظلت شامخة لعقود من الزمن، وهي الان اثار باقي ة ولعل تجاذب الصراع الحضاري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط أسهب في إثراء تكوين هذه المدن الباقية ، فلقد عمرت في القدم وأخذت تسميات وظلت كذلك في العهد العثماني - ما ينوف عن ثلاث قرون أو أكثر - بالفترة الحديثة.

لعل أبرز النماذج الباقية هي مدينة البليدة وشرشال بالطوبونيميا للأصل اللغوي الأنتروبولوجي لهذه المناطق، إذ تتجلى هذه الآثار في المباني المشيدة في تلك الحقبة الزمنية والتي لا تزال اليوم تقاوم أمام متغيرات الزمن على غرار حي الدويرات أو ما يعرف بحي " أولاد السلطان" وكذا قصر " عزيزة " وكذا العديد من المساجد والأزقة التي تحمل تسميات شخصيات تركية؛ ويعتبر القرن السادس عشر نقطة تحول في هاتين المدينتين بسبب اشتداد هجرات المورسكيين اليها ومن خلال هذه الورقة البحثية نطرح الإشكالية الآتية:

— فيما يتمثل الموروث الحضاري والمعماري الأندلسي لمنطقة شرشال والبليدة؟ وماهي أهم مظاهره؟

1- الملامح التاريخية الجغرافية لمدينتي البليدة وشرشال:

لقد ذكرت بعض التسميات القديمة أن أصل كلمة شرشال يعود إلى احقاب من الزمن وقد تعني ذهب الشر وتبدد، كما انها قد تعني الشلالات الصغيرة التي كانت متواجدة بكثرة هناك، وكغيرها من المدن الساحلية الجزائرية التي تعرضت للتخريب على يد الوندال والرومان وغيرهم ممن عمروا هذه الارض، بالإضافة إلى الزلازل المتتالية التي عرفتها المنطقة، هذا ما ادخلها في دوامة من النسيان لقرابة سبعة قرون ونيف من الزمن.

أما تاريخ تأسيس مدينة البليدة فقد يعود إلى القرن الخامس عشر ميلادي إذ يذكر أحد المهتمين بتاريخ المدينة أوراغي أن بنايات الدويرات لها طابعها الخاص وهي مغطاة بالقرميد الأحمر في حين بنايات القصبة بالعاصمة مثلها مثل البليدة، وما جعل المدينة تستعيد سمعتها هو امتزاج العمارة بين الاصاله المغاربية والفن الأندلسي حيث انتقل اليها ما يربو عن 1200 عائلة أندلسية (الزهار، 1974، ، صفحة 34).

كما أن لتلك العائلات دور بارز تكمن أهميته الحقيقية في البقايا الأثرية التي لا تقدر بثمن (بوعزيز، 2009). هذا بالإضافة إلى أن المنطقة تزخر بمجموعة من التماثيل والفسيفساء والتي تعد من أروع المجموعات الأثرية التي تم العثور عليها. وفي خضم السياق التاريخي والسرد الأثري لمعالم مدينة شرشال والبليدة، نستجمع معالم التحول لهاتين المدينتين لتتجلى قابلية التأثير والتأثر بين وفود المورسكيين وسكان المنطقة من الجزائريين، إذ أصبح هذا التمازج عاملا أساسيا للمساهمة في الإنتاج الحضاري ((الأندلسي، 1983).

أ – البليدة :

تأسست مدينة البليدة على يد سي أحمد الكبير الأندلسي سنة 1535 م والذي تزوج بامرأة من أولاد سلطان إحدى قبائل الاطلس البليدي، كما وجد الرعاية الضرورية لدى الاتراك العثمانيين، فشىد له خير الدين مسجدا وحماما وفرنا وأصبح سيدي أحمد الكبير بفضل أعماله وتأثيره الروحي وعلاقاته، حلقة وصل بين السلطة العثمانية وقبائل الاطلس البليدي (القادر، 1965) ، كما تميزت هذه البلدة بوفرة الماء وبأراضي خصبة لذا كانت ملاذ و قبلة للسلطات الحاكمة طيلة الوجود العثماني أو السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر (لقبال، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1518). 1830) ، وما ميز حاضرة البليدة هو التوافد البشري عليها طيلة فترات زمنية متواصلة، لما لها من خصوصيات طبيعية كما انها كانت تتمتع بنشاط اقتصادي متنوع، وقد تراوح تعداد سكانها قبل الزلزال الذي ألم بالساحل الغربي سنة 1825 م حوالي ثمانية آلاف نسمة (لقبال، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1830. 1518) ، 2016).

يروى بعض المؤرخون المهتمون بالشأن العمراني أن اسم البليدة مأخوذة من كلمة " بلدة " والتي تم تأسيسها من طرف العثمانيين بعد تقسيم الجزائر إلى ثلاثة أجزاء، حيث كانت البليدة ضمن مقاطعة الوسط أو ما يسمى في تلك الفترة بـ " بايلك التيطري 1548 م (الجيلالي، 1982)، تقع المدينة على بعد 47 كلم جنوب غرب متيجة وتبعد عن الجزائر العاصمة تقريبا بحوالي 51 كلم، وتعتبر من الهضاب والسفوح القريبة للأطلس الشمالي.

كما جمعت تضاريسها بين ثلاث مظاهر (السهل، الجبل، والسفوح المغطاة) (البلدي، 2003)، ولعل اتصالها بكامل الاتجاهات جعلها قبلة لملتقى الطرق وواسطة بين القسم الشمالي الشرقي والغربي ويربطها بسفوح جبال الشريعة وجبال الشفة، مما جعلها قبلة سياحية في أزهى مراحلها الزمنية سواء الفترة القديمة أو الحديثة وحتى المعاصرة تحت سجل الاستعمار الفرنسي (شوفاليه، 2007).

ومما جعلها كذلك من المدن الزاخر بالتراث الأندلسي هو وقوعها في الساحل الغربي للعاصمة بمناخه المتوسطي، كما ان لها طقس يعرف ببرودة في الشتاء وحرارة في الصيف و اعتدال فصلي (الخريف والربيع)، (لقبال، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1518. 1830) ، 2016، صفحة 21) ولا شك أنها متصلة اتصالا تام بالمنابع المائية التي جعلتها قبلة لروافد مائة نذكر منها وادي " تامدا "، " إفري "، و وادي " تاحسبت "، " تابرکشنت " (لقبال، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1518. 1830) ، 2016، صفحة 20)، كما أن لها مناخ يمتاز بنسبة تساقط عالية للأمطار والذي جعل أراضيها خصبة وهي الأحسن في إفريقيا والدول الإقليمية، وعرفت المدينة عبر العصور التاريخية بعدة أسماء وألقاب منها، مدينة الواحة، مدينة البساتين الإفريقية - وصف الاستعمار - زهرة الساحل، مدينة الأبواب السبع، في الحقيقة تلك التسمية لم تكن وليدة الصدفة والخيال ، بل هذه الأوصاف ظهرت جليا في فترة الوجود العثماني من خلال وجود أربع أبواب باب الجزائر ،باب الرحبة ،باب السبت ،باب الزاوية، كما أضاف الاستعمار الفرنسي ثلاث أبواب أخرى وهي باب القبور ،باب الخويجة ،باب القصبة.

لقد ورد في الفترة المعاصرة تسمية البليدة بما لها جمالية الطبيعة والأزهار بـ"مدينة الورود" ومن المعالم الأثرية الباقية حي الدويرات أو قصبة البليدة التي تتميز بالسطوح وكذا أبواب بيوتها المقوسة ، وشكل غرفها المستطيلة التي يتراوح طولها بين الستة والعشرة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار، بالإضافة إلى فنائها الواسع والمعروف محليا "وسط الدار" المزينة بالنافورة وأشجار الليمون و أزهار الياسمين ، حسبما ذكره الباحث لولاية البليدة يوسف أوراغي (الجيلالي، 1982)، ولعل التنوع المناخي قد يكون بسبب الإطلالة البحرية (البحر الأبيض المتوسط)، كما تمتاز أيضا بوجود مرتفعات كثيفة الجبال (1500 متر) من سلسلة الأطلس المتيجي والذي يعتبر تحصين طبيعي للمنطقة ، والمعروف بـ" الأطلس البليدي " (الجيلالي، 1982).

أما بالنسبة للجانب التاريخية للمنطقة فقد عرفت البليدة أحداث بارزة وكانت محل قبلة لتوافد الحضارات ومن الذين تطرقوا بإسهاب نجد أبو عبيد البكري فيقول : «... من الأشير إلى المدية ومنها إلى قزرونة وهي مدن قديمة، فسيحة الأنهار تتناولها البساتين من كل النواحي ... كانت محل عيون الوافد ... » (البكري، 1984، صفحة 81) وتعدد ذكر وربط تسمية " قزرونة " الكلمة الرومانية بالبليدة بل اعتبروها امتداد حضاري للسهل المتيجي، ومن ابرز الإمارات التي استقرت وجعلت قبيلتها تلك البساتين نجد "الثعالبة" منذ سنة 548 هـ/ 1153 م ، وأستقر فيها ما يزيد عن ثلاثين خيمة لتجمعات القبائل السكانية.

تجدد الإشارة أن متيجة أو السهل المتيجي قد تم ذكره عند ياقوت الحموي (البغدادي شهاب الدين، [دس]) وابن بطوطة في رحلته فور مروره للمشرق، وأظهر هدوءها وجمالها الطبيعي الذي اعتبره لا نظير له وجنة تكسو الشمال

الغربي لإفريقيا (بطوطة، 1988، صفحة 10)، وهذا ما جعل الحكام العثمانيين ينظرون لها نظرة تحصن تجاه المحاولات المسيحية الصليبية (التحالف الإسباني البرتغالي)، حيث شكلت البليدة جزءاً لا يتجزأ من مقر الحكم، فكانت إحدى تلك المدن من ضمن خمس مدن المكونة لمركز مقر الحكم العثماني للجزائر (هلايلي، 2010).

لقد اعتبرت بعض الدراسات التاريخية الأثرية أن سقوط دولة الموحدين قد اثرت في الاندلسيين الذين كابدوا مرارة حركة الاسترداد المسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال حالياً) لأنها كانت بمثابة صمام الأمان لهم حيث شهدت منطقة البليدة تشتت حصن تجمع الثعالبية وتعرضوا لمتابعة وترصد من طرف بن عبد الواد (قبيلة كبيرة في تلمسا (الميلي، ب س، صفحة 301)، كما تعرضوا لحصار من طرف أبو حمو الثاني من تلمسان سنة 771 هـ / 1369 م، من أجل الضغط عليهم للمطالبة بتسديد مغارم الحماية للحدود وممارسة النشاط التجاري، كما زار ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين سهل متيجة سنة 1115 م / 513 هـ (بوعزيزي، 2009، صفحة 134) من خلال مروره بتلك الحواضر العلمية مثل مصر، طرابلس، تونس، قسنطينة، بجاية، تلمسان... الخ، وساعده في بسط النفوذ منذ ذلك الحين وإلى غاية وفود العثمانيين سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط (بوعزيزي، 2009).

ب - شرشال:

تقع مدينة شرشال في الشمال الغربي للجزائر وتبعد عن العاصمة بحوالي 100 كلم، 30 كلم عن مقر الولاية تيبازة تاريخياً هي إيول، القبصرية، مدينة "يوبا الثاني" وعاصمة موريتانيا القبصرية (شامة، 2014. 2015، صفحة 19)، مدينة ذات تاريخ عريق وإرث عظيم ولها موقع استراتيجي بين منحدرات الجبال وأمواج البحر، فالرحلة لهذه المدينة رحلة تأمل في التاريخ والطبيعة واكتشاف للثقافة والفن الروماني؛ تعد شرشال من المدن التي شهدت توافد الحضارات والأمم لذا نعتبرها من الركائز الأساسية لدراسة الآثار لما أبققت عليه الحضارات المتعاقبة فيها.

تأسست فوق سطح يصل تقريبا ارتفاعه أكثر من 1 كلم ويلاصها في الجهة الشمالية البحر الأبيض المتوسط ومن الجهة الجنوبية نجد بلدية سيدي أعمر، بينما في الجهة الشرقية فنجد جبال "شنوة" وبلدية "تيبازة"، أما من الجهة الغربية فلقد جاورتها منطقة سيدي غيلاس (شامة، 2014. 2015)، كما اختلفت المصادر حول اسم مدينة "شرشال" فهناك من أرجعها لمصدر أمازيغي قديم بينما الرأي الآخر يقول أنها عربية وتعني المدينة، وأنها تميزت بفساد أخلاق سكانها وهذا على نقيض ما تحمله المنطقة من العلماء والمفكرين، وكذلك أنها لم تكن تنبت أرضها وعرفت بالجفاف، لكن هذا يتعارض مع تاريخ المدينة في جانبها الزراعي حيث تمتلك أراضي خصبة وتشهد وفرة للمياه (شوفاليه، 2007، صفحة 133).

أما الطرف الآخر الذي أرجحها أنها أمازيغية وهي تعني "شرشال" وهي كلمة تتكون من جزأين تعني آثار التربة فكلمة "أشير" تعني "الآثار" و"شال" تعني "التراب"، مما يكون "أشير شال" وهي شرشال (الميلي، ب س، صفحة 245)، أما المعنى الثاني هناك من يقول أيضا هي كلمة أمازيغية وتعني صوت الماء القوي "أشرشار" وهذا يعود إلى كون المنطقة غنية بالمياه العذبة؛ ويعد ميناء شرشال مورد غني وقاطبة تجارية ومصدر للثروة الحيوانية (السمكية)، ولا بد أن نشير لكمية الإنتاج الزراعي وتنوعه وهذا راجع لطبيعة الأرض والمناخ (أسمهان، 2012. 2013، صفحة 43).

تزر مدينة شرشال بجانب تاريخي ثري من خلال تعاقب أحقاب زمنية من العهد الروماني إلى العثماني بالإضافة للاستعمار الفرنسي، ويذكر ذلك عبد الله البكري عن أهميتها بالنسبة للجزائر فيقول: «... مرسى شرشال مدينة عظيمة غير مسكونة ... يقابله من بر الأندلس مرسى مدبرة ... وكانت ذات رباط يجتمع فيها كل الخلق ...» (الوزان،، 1985، صفحة 491)، ويذكرها كذلك حسن الوزان ناقلا عن رحلات التابعيين من حملة العلم، ويثني الأهمية الجغرافية خاصة ما تعلق بالزراعة والصناعة الحرفية التي تميزت بالتطور والتجانس من خلال ما قدمه الوافدين المورسكيين، أما أحمد التوفيق المدني فيذكرها أنها صارت أرقى وأزهى الحاضرات لما لها عراققة في الآثار جعلتها قبلة التنقيب والإثراء (المدني، 1984، صفحة 220).

2- مساهمة الاندلسيين في الحياة العامة بالبلدتين بالبلدية وشرشال :

مهما كانت ظروف هجرة الاندلسيين فان وجودهم في الجزائر كان له انعكاسات إيجابية على الحياة العامة وعلى القدرات الدفاعية للبلاد، فقد انضم عدد من الاندلسيين إلى صفوف الجيش العثماني لمواجهة الخطر الاسباني الذي كان يهدد المدن الجزائرية الساحلية وكانت قوات قارة احسن قائد شرشال تتشكل من الاندلسيين القادمين من قرناطة وبلنسية وآراغون، وقد استعان عروج بهؤلاء الاندلسيين اثناء فتحه لمدينة التنس عام 923هـ/1517م، واصبحوا عبر المراحل التاريخية يشكلون دعما قويا للعثمانيين بالجزائر، كما أظهر الاندلسيون مهارات عالية في بناء التحصينات وكانت احدى البطاريات في الجزائر تعرف باسمهم .

كما كان لهم دور بارز في بناء السفن لان جل الوافدين على هذه الحرفة من المتتمرسين عليها حيث تعززت البحرية الجزائرية في مطلع القرن السابع عشر، كما اظهر الاندلسيون شجاعة منقطعة النظير في مواجهة الاسبان لانهم يعتبرونهم سبب مأساتهم فلهذا انضموا الى البحرية الجزائرية وساهموا بأموالهم في صناعة السفن وتجهيزها (شويتام، 2009، صفحة 144).

مما ساعد على تضاعف نشاط ورشات بناء السفن في شرشال (BELHAMISSI, 1996, p. 61)، وهناك من لاحظ أن الازدهار الذي عرفته الجزائر يعود أساسا الى الاندلسيين الذين توافدوا عليها بأعداد كبيرة وساهموا في تعزيز القدرات الدفاعية لسواحل المغرب الإسلامي من المد الايبيري الذي كان على اشده، وعلاوة على هذا النشاط مارس الاندلسيون مختلف المهن والحرف واظهروا اتقاننا كبيرا في بناء المنازل والتجارة وصناعة الأسلحة والبارود، كانت صناعاتهم ذات جودة عالية خاصة في صناعة الذهب والفضة والنقش على الخشب واساليب السقي الفنية (التميمي، 1989، صفحة 60).

كما ساهم بخبرتهم في حل مشكلة المياه التي كانت تعاني منها المنطقة فأصبحت الأماكن العمومية تتوفر بها عدة عيون، كما مارس المورسكيين التجارة إذ كانت لهم عدة محلات في مختلف الاحياء بالبلدية وشرشال وقد تخصصوا في بيع مستلزمات الخياطة والطرز، اما علاقتهم بالسلطة الحاكمة والفئات الاجتماعية الأخرى فإن التطورات التي عرفتها الجزائر في أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م جعلتهم يربطون مصيرهم بمصير العثمانيين وكان هدفهم البحث عن قوة

تحميهم من الاخطار الداخلية والخارجية، ومهما قيل عن الاندلسيين فإن وجودهم في الجزائر كان مثمرا وإيجابيا فكان لهم تأثير واضح في كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية وهذا ما جعل حمدان بن عثمان خوجة يقول: « لقد ساعدوا في تنظيم الحكومة وعلى تقدم الحضارة» (التميمي، الدولة العثمانية وقضية المورسكيين الاندلسيين، 1989، صفحة 60).

3- الجانب الديمغرافي المتنوع وآثاره على العدوتين:

لقد كان للهجرة الأندلسية في حوض البحر الأبيض المتوسط دور كبير في إنتاج بناء ديمغرافي متنوع أثر على السلوكيات المجتمعية في التكوين والبناء، وجعلت من النشاط الزراعي والصناعي قبلة للتطور، ويقول حسن الوزان في هذا الصدد: «... من داخل قلعة عظيمة قائمة على الصخرة يراقب منها البحر على مسافة بعيدة ويحيط في هذه المدينة أراضي زراعية جميلة ... ثم هجرت أثناء الحروب القائمة بين ملوك تلمسان وملوك تونس وبقيت خالية ... فقصدها الغرناطيون وأعادوا بناء عدد مهم من دورهم ...» (شويتام، 2009، صفحة 150)، ويبرز هنا أن مدينة شرشال وكذا البليدة لم تشهد تهديما للمباني وإعادة تشييدها بل اتخذ الوافدون نمط التعايش والترميم وإضافة معالم لمباني تحاكي النمط الغرناطي (الأندلسي).

ويثني على ذلك كل من يحيى بوعزيز وأبو القاسم سعد الله على الوافدين الأندلسيين والدور البارز لنمو الديمغرافي لشرشال والبليدة ويؤرخون على مساهمتهم في تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية (الوزان، 1985، الصفحة 487)، وهو ما يذهب إليه أيضا الرحالة العثماني بيري راييس فيقول: «... أن الأندلسيين قد اتخذوا من شرشال قاعدة لهم ...»، هذا ما يدل على زيادة النمو الديمغرافي في المراحل العثمانية من تاريخ العدوتين.

يذكر بعض المؤرخين أن الحضور العثماني كان في مدينة شرشال قبل العاصمة وما جاورها، وهو ما نخلص من خلاله أن البناء والتشييد والتعمير العثماني الديمغرافي لسواحل الجزائرية والذي يؤكد أحقية منطقة شرشال على الجزائر وما جاورها، ويذكر ذلك كورين شوفالييه يقول: «... وكان يحكم شرشال آنذاك أحد القراصنة الذي رأى في عروج خطرا على مدينة الجزائر بحيث يجب التخلص منه أولا...» (أبو القاسم، سعد الله، 1989، صفحة 178).

أما بالنسبة لأحمد توفيق المدني فيؤكد أنه قد حدث صراع على مدينة شرشال وكانت الغلبة والبقاء للعثمانيين وتم التشييد فساهم ذلك في زيادة النمو الديمغرافي في مدينة شرشال (المدني، 1984، صفحة 221)، وارتكز التقسيم الوجودي للتنوع الديمغرافي على وجود فئات مورسكيين وحضر سكان أصليين واقتصر ذلك في بناء نسيج متماسك، ويمكن تقسيم هذه الفئات إلى:

أ - فئة الحضرة:

إن الموقع الجغرافي الممتاز لمنطقة البليدة وشرشال وتوفر المياه جعلها محل قبلة ومركز للتجمع السكاني بسبب مزاوله الأنشطة الزراعية، هذا بالإضافة للاستقرار السياسي خاصة في الفترة العثمانية ونظامها المركزي كانت كلها عوامل جعلت التدفق البشري على هاتين القاطنتين (كحالة، 1968، صفحة 142)، ومن بين الفئات التي عمرت هاتين المنطقتين نجد الأندلسيين والعرب، والبعض من القبائل المجاورة التي تعمل على المقايضة والتبادل التجاري، وهذا ما عبر عنه حمدان بن عثمان خوجة قائلاً: «... إن سكان شرشال والبليدة يشبهون سكان متيجة، لكن هم أكثر حضارة منهم ...» (سعيدوني، السنة 1992.1993، صفحة 107).

يمكن تحديد أنواع وأصناف التكوين الاجتماعي الديمغرافي بالاندلسيين، الأتراك، الكراغلة، العرب والميزابيين، واليهود وبعض أفراد من القبائل المجاورة للمدينة وتم تصنيفهم إلى خمس مجموعات، وهو ما يذكرنا بنفس التركيب السكاني الديمغرافي لمدينة الجزائر، ويعرف الأندلسيين الذين عمروا المدينتين بـ "المدجنين" نسبة لموطنهم الأصلي الذين هاجروا منه هذا وقد استطاع الأندلسيين نشر اللسان العربي الدارج في المناطق الجبلية القريبة من البليدة وشرشال، حيث أصبح غالبية السكان يستعمل بجانب اللهجة المحلية العربية الدارجة كما هو الحال بمنطقة "بني صالح" (سعيدوني، السنة 1992.1993، صفحة 112)، ويشغل اغلب السكان حرف بسيطة في الصناعة بالإضافة للأعمال التجارية، ويتولون وظائف في السلك القضائي والتعليم، كما اهتموا بتحصيل الثروة واستقلال أملاكهم سواء محلات أو أراضي زراعية (سعيدوني، السنة 1992.1993، الصفحة 122).

تجدر الإشارة إلى أن المنطقة كان بها نشاط كبير في مجال المبادلات والمقايض التجارية، وهذا النشاط في كلتا المدينتين كون طبقة برجوازية متحكمة في الحياة الاجتماعية بالفترة العثمانية، ويمكن اعتبار المعمرين الفرنسيين الذين استقروا في (البليدة وشرشال) هم من البرجوازيين ملاك الأراضي في الفترة الاستعمارية (سعيدوني، 1988، صفحة 97).

ب - فئة الأتراك:

تضم موظفي الإدارة العثمانية في الجزائر بالجهاز المركزي والشريعي، وكذا منصب الحاكم العام والمفتي الحنفي، ومن متقاعدي الجيش الإنكشاري الذين استقروا في القاطبتين ولا ننسى ما تبقى من طائفة رياس البحر، وهذا التركيبة كانت تشكل الأقلية في المزيج السكاني لمدينة شرشال؛ كما كانت البليدة من الأماكن الملائمة لنفي المغضوب عليهم من طرف سلطة وحكام الجزائر، فنجد منهم موظفون سامون في الإدارة التركية وعلى رأسهم باي وهران "عثمان محمد" وأغا العرب "يحيى" والحاج "احمد باي قبل توليه بايلىك الشرق 1826 (سعيدوني، 1988، صفحة 100).

لكن في المراحل الأخيرة للوجود العثماني وتغير قوانين الجيش الإنكشاري الذي صار جيش نظامي بعد ما كان جيش غير نظامي يمنع الزواج في صفوف وحتى حرمانهم من الحياة الخاصة لتفرغهم للجهاد وحماية ثغور المسلمين، (سعيدوني، السنة 1992.1993، صفحة 126) هذا ما زاد تعداد الوجود التركي العثماني في المنطقتين مع بداية

دخولهم الحياة الاجتماعية العادية؛ أي الزواج من جزائريات بالإضافة لمساهمتهم في الجانب الديني من خلال تقديم صدقات وشراء قطع أراضي لبناء مساجد، وكانوا يتبعون المذهب الحنفي رغم قلتهم في المدينة (الجيلالي، 1982، صفحة 445).

ج - الكراغلة:

تكونت هذه الفئة من زواج تركي بجزائرية واغلب المتزوجين من الحامية العثمانية الإنكشارية، واستقر الكراغلة إما في المدينة أو في الريف من خلال ممارسة النشاط الفلاحة، وفي بعض الأحيان من خلال استعمال النفوذ يرتقون للمناصب الادارية أو في القضاء، ومن المناصب التي يستطيع الكراغلي أن يعمل فيها نجد " القايد، الخوجة " وغيرهم من المناصب المتاحة لهم.

كما استطاع الكراغلة أن يحتلوا المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي لقدرتهم على ممارسة كل الأنشطة سواء تجارة أو فلاحة أو صنع حرفية أندلسية غابرة منذ الأزمنة القديمة، فتولدت أوائل الأخوة والصداقة بينهم وبين الأهالي وسكان الريف أي غالبية السكان، وقد كان عددهم ضئيلا بسبب الهجرات المتكررة، وبلغ تعدادهم سنة 1830 حوالي 967 عنصرا في كل من مدينتي شرشال والبليدة والقليلة (سعيدوني 107، السنة 1992-1993)..

د - الميزابيين:

إن دورهم في الحياة الاقتصادية بكامل الجزائر كان له دور بارز لفترات مختلفة، والنمط التجاري هو السائد بينهم، وأصلهم من مدينة غرداية وبفعل الاحتكاك والحج، اكتسبت الحركة التجارية الميزابية خبرة في مجال البيع والشراء ووفودهم لمدينتي شرشال والبليدة وحققوا مركزا هام في التجارة وقاموا بشراء محلات والعمل في الحمامات، كما احتكروا الأعمال المشرفين على دور الماء والحدائق فأخذوا حرفة البستنة واعتناء بالأشجار والأزهار.

هـ - الطائفة اليهودية :

تعود أصول وجودهم للسابقين منذ وصول الإسلام والفتاحين، فلقد استقروا وشكلوا اللبنة الاساسية للنسيج المجتمعي لمدينتي شرشال والبليدة، ولا ننسى الذين اعتنقوا الديانة اليهودية بعدما كانوا ملحدين في المنطقة، ويعتبر اليهود " السافريديم " الذين قدموا مع مسلمي الأندلس هروبا من صكوك الغفران ومن التعذيب والقتل الذي تعرضوا إليه واستقرارهم كان في البليدة قبل شرشال، ولما استقروا تمازجوا مع مكونات المجتمع الجزائري الأصيل.

لعل الاندماج السريع هو ما كان الدليل على المعاملة الطيبة من طرف العثمانيين حيث استقبلوهم بحفاوة وكان استقرار اليهود في البليدة تميزه الأعمال التجارية؛ حيث اشتروا مجموعة من الحوانيت لكي يمارسون فيها نشاطهم وكذا أماكن لضبط التعامل التجاري (خوجة، 1982، ،، صفحة 132)، وقد ضببطت الحكومة العثمانية غرامة مالية خفيفة

جراء حماية السلع والأفراد اقتداء بكل ما شرع الله في التعامل مع أهل الذمة، فكانوا يدفعون الجزية مقابل الرأس وهم في الحقيقة يختلفون كثيرا عن الكراغية وسكان الحضرة في طريقة العمل والنشاط التجاري (خوجة، 1982، ، صفحة 133).

وخير ما نستذكره أن هناك اختلاف حتى في نوعية اللباس وحتى في كيفية طلاء أبواب المنازل، وهذا منذ عهد الرسول عليه أزيى الصلاة والتسليم، فكان لباسهم اسود بداعي التمييز عن العاديين من سكان الحضرة وكان لديهم حي خاص في المدينة يسمى "بالزنقة" أو "زقاق اليهود"، وكل هذه الخصائص جعلتهم من أبرز مكونات السلم الاجتماعي في مدينتي البليدة وشرشال (الله ا، 1988، ، صفحة 183).

5- التكافل الاجتماعي بين سكان العدوتين:

تذكر أغلب المصادر أن تعداد السكان في مدينة البليدة في ظل الوجود العثماني ومنذ تأسيسها حوالي 500 فرد ازداد بالتواتر مع زيادة الوجود العثماني في الجزائر (جواجه، 1968، ، صفحة 45)، وأختلف الباحثون حول التعداد الأصلي في أزهى مراحلها فهناك من يقول أنها وصلت إلى تعداد سبعة آلاف وهناك من يقول انه وصل تعدادها من السكان حوالي خمسة آلاف، وبالرجوع للإحصاء الفرنسي لتعداد سكان المنطقة رغم ما يشوبه من صدق النوايا، فقد قدر تعدادهم بستة آلاف ساكن وما ميز المجتمع من خلال تحقيق مبدأ الإندماج بين طبقاته ولعل من أبرز نماذج نذكر: .

أ - مواجهة المخاطر الطبيعية لسكان العدوتين :

وتعرضت مدينة البليدة والمناطق المجاورة لها إلى عدة كوارث طبيعية أثرت على تعداد السكان وهذا ما يزكي على عدم القدرة على تحديد التعداد الصحيح وفق فترات زمنية مختلفة؛ ولعل من أبرز الكوارث نجد طاعون 1556م والذي استمر مدة أربع سنوات (جواجه، 1968، ، صفحة 47)، كما ظهر أيضا مرض آخر سنة 1572م الذي دام ثلاث سنوات وقتل الكثير بل وصل إلى غاية السلطة الحاكمة حيث شهد مقتل ثلاث باشاوات، ولا ننسى طاعون سنة 1620 والذي سمي بـ "الطاعون الكبير" والذي استمر لسنوات وشهد قتل ما يتجاوز 24 ألف بين مدينة الجزائر والبليدة ، وتوالت تلك الأمراض لسنوات عديدة (1700، 1747 ، 1749 إلى غاية 1815) (الزهار، 1974 ، ، صفحة 138)، وظهر جاليا الطابع التكافلي بين مكونات المجتمع الجزائري في البليدة من خلال جموع الفئات للسلم الاجتماعي (الزهار، 1974 ، ، الصفحات 139-141)، تجلى ذلك من خلال تقديم المال وتقديم أدوات لتطعيم المرضى؛ ويبرز ذلك حمدان بن عثمان خوجة الذي عاصر المرحلة قائلًا: «...كان مجموع مدة تلك المحنة 20 سنة فتشوهت خلقة الجزائر ...» (خوجة، 1982، ، صفحة 108)، وتعرضت كذلك مدينة البليدة لكوارث طبيعية تمثلت في الزلازل والهزات الأرضية التي تهشم كل أثر جميل لمنظرها الزاهر خلال عامين 1601، 1716 ويروي أنه أنف زلزال هو زلزال سنة 1825 الذي يعبر عليه أنه قضى على نصف سكان مدينة البليدة (لقبال، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1518 . 1830) ، 2016، ، صفحة 27).

في ظل هذه المحن والكوارث فلقد امتازت العلاقات المجتمعية لمدينة البليدة وشرشال بروح التسامح والعطف والتكافل والتآزر في إطار ما حدده الشرع الإسلامي الحنيف، ففي سنوات القحط والجفاف برز دور الوقف في مساهمة إنعاش المنطقة فلم تتوقف السواقي ولا تطمر المحاصيل عن عيون الناس بل صارت جماعية يتم تقاسم المحصول الزراعي للمالك مع العامل والمملوك؛ ولعل هذا من أبرز عوامل تخطي هذه السنوات العصيبة، فصار صاع من القمح يباع بأثمان رخيصة مثلما حدث سنة 1794 حيث تم بيعه بـ "سبعة دنانير" (لقبال، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1830. 1518) ، 2016، الصفحات 28-30) ، ولا يمكن إغفال الدور الذي قدمه بيت مال في المنطقة حيث صارت ملجأ لكل محتاج مما زاد في توثيق أوصل الترابط وانعكس ذلك على أخلاق الناس فلم يعد أي جرم أو سرقة أو تعاطي لشرب الخمر يلازمها .

ب - تقليد اللباس وإبراز العادات المشتركة :

إن نمط العادات والتقاليد وكيفية اللباس في مدينة البليدة وشرشال كان يشبه نمط لباس الجزائر العاصمة، بحيث لا يختلف عنه لا في التكوين ولا في المادة والغالب أنها من الكتان والحبر، فكانت السراويل العريضة هي لباس الرجال مع ربطه بحزام يلتف عن كامل الخصر، أما بالنسبة للحذاء والنعل فقط كان مستنسخا من الحذاء الأندلسي الذي امتزج بتعديل عثماني تركي، فلقد كان مادته من جلود الأغنام والماعز ويكون عريضا في الجهة الأمامية بينما نعله من مادة المطاط الذي كانت تدخل الجزائر من طرف التجار الأجانب (لقبال، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1830. 1518) ، 2016، صفحة 28).

أما بالنسبة للنساء اللواتي يعشن في مدينة البليدة وشرشال لم يختلفن عن ما هم عليه في الجزائر؛ فقد كن يلبسن لباس شرعي وفيه خمار طويل ينزل من الرأس لكي يغطي عورات الجسد، وغالبا ما يكون لونه فاتما وليس شفاف ويظهر أن نساء المدينة يدعن حدود الوجه فقط ولا يبدين أي شيء من الزينة ، لكن ما يعرف أنهم كن يصبغن شعر بالحناء ويضعن الكحل في العين لغرضين لتزين وكذا الاستشفاء لأن الكحل مادة مفيدة للعين، فنشاط المرأة في هذه المناطق يقتصر على الطرز والخياطة والحياكة وكذا حلب الأبقار والماعز ، ولها الحق في اختيار بعلها ولها في الصداق والمهر مثلما دققه الشرع وأكداه السلطان، ولعل حضور الحفلات الدينية والتقاء العائلات يوم الأربعاء من كل أسبوع بمختلف تركيبها السكانية هو دليل قاطع على التنشئة الاجتماعية المتماسكة في مدينة البليدة وشرشال وكل مدن الجزائر الحضارية (خوجة، 1982،، صفحة 166).

6 - معالم أثرية وجوانب حضارية باقية في شرشال :

تعتبر مدينة شرشال الساحلية من بين المدن الجزائرية العتيقة في نمطها المعماري، وكذا توفرها على ارث حضاري قديم يتجلى من خلال توافد الحضارات والأمم ولعل التمدن الأندلسي أبقى على وجوده، إذ تعتبر الآثار الباقية وبناء المساجد والحمامات ودور المياه وشق الطرق وأنظمة السقي القديمة وكذا المباني في الأحياء والأسواق جعل من مدينة

شرشال مهد لنتاج زخم حضاري كبير، ويمكن اعتبار نماذج من هذا الإرث نجد المسجد الكبير، وعمارة أو مساكن " سويلاماس " ودار " آسيا جبار " وغيرها ، وبالنسبة للحمامات فنجد حمام " سيدي يونس " من النماذج العثمانية الباقية في الفترة الحديثة والمعاصرة لتاريخ الأثري للمدينة، بالإضافة لكل الثكنات العسكرية باقية الأثر من الوجود العثماني وسنحاول أن نبرز نماذج من هذه المعالم الأثرية الباقية ونذكر منها :

أ - المسجد الكبير في شرشال:

تعتبر المساجد الإسلامية من المعالم الأثرية البارزة والتي من خلالها نستطيع معرفة وجه الأمة وعراقتها، وهو اللبنة الأولى لاستقامة المجتمع، رغم انه هيكلا ومؤسسة تقام فيها الصلوات والشعائر الدينية إلا أنها تعتبر عينة أثرية قيمة توارثت مع تلك الأزمان والمجتمعات (اليقظان، 2021، صفحة 07) ، وفي الغالب لا يمكن فصلها عن الجانب الروحي للبشر.

إن المسجد الكبير يعرف أيضا بمسجد " مئة عرصة " يقع في شارع يوسف خوجة من الناحية الجنوبية الغربية لحي " عين القصبه " ، وتم وضع لوحة تعريفية له في المدخل يرجع من خلالها سنة انشائه في 1573-1574 واندرثت معالمه في الحقبة الاستعمارية إذ تم تحويله لمستشفى عسكري وذلك بسبب نمط البناء. ويتميز المسجد الكبير بواجهاته الأربعة جعله قبلة للهواء من كل النواحي ومن خصائصه أيضا انه يعلو على سطح الأرض ب 0.8 م وهو ما جعله أقل عرضة لتلك الهزات الارتدادية (شامة9، 2014. 2015، صفحة 56)، ويحتوي على مكان لصلاة ومقصورة واسعة جدا.

ومن بين مميزات المسجد أن مدخله يكون وفق رواقين أي كأنه مفصول لجزأين وله أربع نوافذ كبيرة تتخللها الفسيفساء الأندلسية رغم تعرضها لتغيير إلا أنها بقيت مجموعة لا بأس بها في حافة المسجد (شامة9، 2014. 2015، صفحة 66) ، أما فيما يخص المئذنة فتوجد في الركن الشمالي للمسجد وهي تقوم على أسس مربعة، تجدد جزء منها في العهد الاستعماري وتميز أيضا بوجود أربع أبواب كلها مفتوحة على سفوح التربة، أما الشكل الداخلي للمسجد فشكله مربع ويتسع لـ 1500 مصلي وفيه الأرضية من الغرانيت الممسوح، وفي مكان الإمامة نجدها محفورة قصد جسده وفيها أعمدة لتزيين وجمالية، إذن يمكن القول إن مسجد الكبير يعتبر زخم حضاري باق في مدينة شرشال.

ب - حمام سيدي يونس:

يعتبر من جملة المباني الخالدة للوجود العثماني في الجزائر، وتوضح صورة التشييد الحضاري في هذه الفترة إذ يقع الحمام في الطرف الشرقي " لحي القصبية " بشرشال ، إذ يتميز بواجهة رئيسية تطل على الجهة الغربية وبمدخل رئيسي في إطار حديث يلامسه عمودين وعقد متجاورة، كما يتوفر على نوافذ مرتفعة وهذا لخلوه من المناطق المفتوحة، وفي الجهة الشرقية توجد غرفة خاصة بالحمام متصلة بتدفق المياه الساخنة، أما الجهة الجنوبية فهي تكملة لحمام لكن منفصلة بجدار متين واعمد واسعة من حيث العرض وما يلاحظ وجود تيجان تزين السطح ويقال أنها موجودة طيلة خمسة عقود زمنية (شامة9، 2014. 2015، الصفحات 78-79)، ويتوفر على سقيفة تغطيه، ويتوفر كذلك على مقاعد

من الإسمنت في هو ، كما توجد غرفة مخصصة لحمام لراحة والاستجمام بعد الحمام ، وفيه أيضا غرف منفصلة وغرفة كبيرة تقل درجة حرارتها حسب ما تقتضيه مصلحة المستفيد من الحمام، وتوجد صخرة كبيرة من غرانيت في وسط تلك الغرفة الكبيرة يستعملونها في الاستحمام والاسترخاء .

* خاتمة :

ما يمكن قوله أن التأثير الأندلسي بالجزائر كان له بالغ الوجود في مدينة البليدة وشرشال، لأنهما كانا مركزا للواجهة البحرية ولا ننسى العوامل الجغرافية في النشأة والتكوين، إن الفترة العثمانية تمثل أزهى مراحلها من خلال انسجام الأتراك والكراغلة والعرب والبربر وكل الأجناس القابرة في هاتين المنطقتين، ولعل أثر الوجود تمظهر في تلك المعالم وذلك الزخم التاريخي والبقايا الأثرية المجيدة خاصة في شرشال، أما البليدة فقد أخذت الجوانب المنفولوجية لطبيعة الأجناس فسميت بمدينة الورود، ان الدارس اليوم يستشف ذلك الأثر من عقب الوجود الأندلسي بلمسته الفنية والمعمارية في مدينة البليدة وشرشال.

قائمة المراجع بالعربية :

1. الحاج أحمد، شريف الزهار (1974)، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب الأشراف في الجزائر 1754-1830 ، تق : التوفيق المدني ، الجزائر .
2. البليدة خمسة قرون من الحضور، آفاق واعدة (2003)، المجلس الشعبي البلدي، القرطبية للإعلام والإشهار.
3. أبي عبد ، الله البكري (دس) ، المسالك والممالك " المغرب في ذكر البلاد افريقية والمغرب " ، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة ..
4. العربي ، أسهمان (2012-2013 .) ، الحياة الاقتصادية في بايلك الشرق خلال العهد العثماني 1713- 1792، رسالة لنيل شهادة دكتوراه تاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي اليابس، الجزائر.
5. أحمد ، توفيق المدني (1984)، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،
6. ابن بطوطة (دس)، مهذب رحلة ابن بطوطة، المسلمات رحلة النظار في غرائب الأمصال وعجائب الأسفار، دار القصبة للنشر، الجزائر.
7. ابراهيم ، أبي اليقظان (2021)، الإسلام ونظام المساجد والعشائر في وادي ميزاب، تع: الحاج أحمد بن حمو كروم، جمعية التراث، غرداية، الجزائر .
8. ارزقي ، شويتام(2009)، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، دار الكتاب العربي، الجزائر.
9. ابو القاسم ، سعد الله (1988)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان .
10. يحيى، بوعزيز (2009) ، الموجز في تاريخ الجزائر 2.1، ج 1 ، ب ط ، دار البصائر لنشر والتوزيع .
11. عبد الله ، بن عبد العزيز (الأندلسي) (1983)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضيع ، تع: مصطفى السقا ، ط 2، دار عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .
12. نور الدين عبد القادر (1965)، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب، الجزائر،
13. مراد ، لقبال (2016)، مدينة البليدة خلال العهد العثماني (1518. 1830) ، مجلة الرواق ، العدد 3، جوان.

14. عبد الرحمان الجيلالي (1982)، تاريخ الجزائر العام، الجزء 4، ط 2، الجزائر.
15. شهاب الدين، أبي عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي (دس)، معجم البلدان، ج 5، دار بيروت للطباعة والنشر.
16. حنيفي هلايلي، دراسات وأبحاث في تاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2010، ص 25.
17. يحيى، بوعزيز (2009)، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500.1830)، ط خاصة، دار البصائر لنشر والتوزيع، الجزائر.
18. مبارك بن محمد الميلي (1987)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب.
19. سعاد بن شامة (2014. 2015)، المعالم الأثرية في المدن الوسط الجزائري في العهد العثماني (شرشال، البليدة، القليعة) ومظاهر التمدن الأندلسي فيها " دراسة وصفية تحليلية نموذجية"، الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد الآثار، الجزائر.
20. حسن، الوزان (1985)، المجلة التاريخية المغربية، ج 2، العدد 39، تونس.
21. عبد الجليل التميمي (1989)، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، زغوان.
22. عمر، خالد كحالة (1968)، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج 1، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
23. كورين، شوفاليه (2007)، الثلاثون سنة لقيام دولة مدينة الجزائر (1510.1540)، تر: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
24. ناصر الدين، سعيدوني (1992. 1993)، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر " دار السلطان " أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة الحوليات، جامعة الجزائر، العدد 7.
25. ناصر الدين، سعيدوني (دس)، الجانب الاقتصادي والاجتماعي من تاريخ الجزائر أثناء العهد العثماني، مجلة الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، عدد 4.
26. حمدان، بن عثمان خوجة (1982)، المرأة، تق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر.
27. حمدان، جواجه (1968)، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس، تقرير وتحرير محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر.

المراجع الأجنبية :

M. BELHAMISSI, Marine et Marins d'Ager(1518-1830)3t.ed Bib nationale d'Algérie 1996,t.1,p49-61.-

مأساة المورسكيين بعد سقوط غرناطة

Morskian tragedy post the fall of Granada

د. جميل عائشة / المركز الجامعي النعامة/ الجزائر

Dr. Djamil aicha/ University of naama/ Algeria

د. زينب رزيوي/ جامعة سعيدة/ الجزائر

Dr.Rezzioui zineb/University of saida/ Algeria

ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة مأساة مسلمي الأندلس –الموريسكيين-، بعد سقوط غرناطة آخر معقل للإسلام والمسلمين في بلاد الأندلس عام (897هـ/1492م)، حيث شكل سقوطها آخر حلقات الصراع مع النصارى ، وطويت صفحاتها من التاريخ الإسلامي بعد أن عمرت حوالي ثمانية قرون، شهد أهلها أشد المعاناة من تنصير وتهجير وتنكيل...، فكيف تم ذلك؟ ومنهم الموريسكيون؟ وفيما تمثلت صور المعاناة؟، وهو ما ستسعى هذه الدراسة توضيحية ومحاولة اماطة اللثام على بعض الحقائق التاريخية، بالاعتماد على المنهج التاريخي .

الكلمات المفتاحية: المورسكيين- غرناطة – الاسبان- الأندلس- الكنيسة...

Abstract:

The current study tackles the tragedy of the Andalusian Muslims-Morskians- after the fall of Granada the latest Islamic refuge in Andalusia between the years 1492AD/897Hijri. This later fall was the last among many conflicts with the Christians after eight centuries of Islamic history. During this conflict, its inhabitants witnessed the severe agony of crusades, torture and displacement. So, how did this happen? Who are the Morskians? And what are the examples of their suffering? Following a historical method, we aim from the study to answer the above mentioned questions. We will also lift the ambiguity on some historical facts.

Key words: Morskians, Granada, Spanish people, Andalusia, the church.

مقدمة:

استطاع العرب فتح بلاد الأندلس فأضافوا بذلك صفحة جديدة من الأمجاد والعظمة والازدهار، فاستطاعوا بناء حضارة لا تزال شواهدنا حتى الآن، دام وجودها ثمانية قرون ونصف، وعلى الرغم من الفترة الطويلة التي قضاها المسلمون في بلاد الأندلس، إلا أن الأسبان استطاعوا إخراجهم منها نهائياً، بعد سقوط آخر معقل لهم هي مدينة غرناطة 1492م.

ويقدم إلينا تاريخ الأندلس في مراحلها الأولى صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي والسياسي، فاستطاع تكوين حضارة مازالت تثير الإعجاب حتى اليوم، إلا أنه في مراحلها الأخيرة عرف صفحات مؤثرة من تقلب الحدود وتعاقب المحن والانحدار البطيء المؤلم الذي سيؤدي في النهاية إلى السقوط، أي سقوط غرناطة لتنتفض معه شعلة الإسلام في إسبانيا.

إن الأسباب الحقيقية للسقوط لا تكمن في المرحلة الأخيرة لسقوط غرناطة بل منذ دخول العرب في شبه الجزيرة الأيبيرية إلى السقوط، أي منذ البداية إلى النهاية أدت كلها لنهاية أمة سيعرف شعبها المعاناة عبر التاريخ، وعليه نطرح الإشكال التالي: فيما تجلت مأساة مسلمي الأندلس بعد سقوط دولتهم بغرناطة؟ وتندرج تحت هذه الإشكالية العديد من الأسئلة الفرعية: ماهي الأسباب الحقيقية لسقوط الأندلس عامة وغرناطة بالخصوص؟ من هم الموريسكيون؟ ما هي الأساليب التي اتخذها النصارى ضد مسلمي الأندلس؟ وماهي أهم قرارات الطرد؟ وماهي أهم صور المعاناة والمأساة؟ وما هي ردود فعل الموريسكيين؟....

وللاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها تم تقسيم البحث إلى قسمين: القسم الأول يشمل انهيار الوجود الإسلامي في الأندلس بحثنا فيه عن أسباب السقوط، عامة وغرناطة بالخصوص وكيف تم السقوط وعملية التسليم، أما القسم الثاني خصصناه لمحنة الموريسكيين بداية بمحاكم التفتيش وما انجر عنها كالتنصير الإجباري والطرده النهائي والحديث عن بعض صور المعاناة والضعف والظلم وما لاقاه مسلمي الأندلس بعد سقوط دولتهم وهجرتهم إلى دول الشمال الأفريقي، واعتمدنا على المنهج التاريخي المبني على الجمع المادة والاستقراء والتحليل، ورصد الحقائق التاريخية من خلال محاولة إضاءة اللثام عن أشنع صور المعاناة والذل الذي لاقاه مسلمي الأندلس بعد سقوط دولتهم وهو ما تسحاول هذه الدراسة معالجته.

أولاً: انهيار الوجود الإسلامي في الأندلس:

1- أسباب السقوط الأندلس:

لا شك أن الكثير من الدارسين حللوا ظاهرة سقوط الأندلس، وربطوها بجملة من الأسباب، التي تكاد تتشابه لديهم، والواقع أن المدقق في الوجود العربي منذ موسى بن نصير و طارق بن زياد وحتى سقوط دولة بني الأحمر، يرى أن

أسباب كثيرة كانت وراء السقوط، فالأسباب مجتمعة هي دفعا للسقوط لا محالة، و بذلك أسباب السقوط كانت تكمن في البداية كما تكمن في النهايات. (القاسمي، دت، صفحة 175)، لعل أهم أسباب السقوط تكمن فيما يلي:

أ) انعدام الوحدة في النضال لدى العرب:

بلغت الفوضى في المجتمع الإسلامي بالأندلس أقصاها فانتشر التفسخ و الميوعة الأخلاقية مداها، فكان التفكك يسري في كل أجهزة الخلافة الأموية بالأندلس و عهد العامرين قد زاد الطين بلة، بسببهم بدأت الخلافة في الانهيار و لم يبق لها في نفوس الجماهير تلك المهابة و المكانة التي تتميز بها ما قبل خمسين أو ستين سنة خلت، فتعددت الرياسات في أنحاءها لا تربطها رابطة و لا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة. (الشطشاط، 2001، الصفحات 11-12).

و كان هناك في الجانب النظري تكتل و عزم على العمل للقضاء على الوجود الإسلامي بالأندلس فكان من نتائج هذا التكتل أن فتحوا في صفوف المسلمين ثغرات من التفرقة الخطيرة أخذت تتسع لتتلور في ما سمي بملوك الطوائف و مما نتج عنه من تمزيق وحدتها. (الشطشاط، 2001، الصفحات 12-13).

فكان المسلمون في تلك الفترة متخاذلين ينظر كل أمير إلى مصلحته الشخصية، لا إلى المصلحة العامة: فمثلا كان ابن هود أميراً على مرسية و دعا إلى تحرير الأندلس من الموحدين و النصارى على سواء، و كان المأمون أميراً على مرسية فتحالف مع ملك قشتالة النصراني ضد ابن هود مقابل بعض الامتيازات مثل التنازل عن عدد من الحصون و القواعد، و لما تولى بلنسية أبو عبد الله محمد أخو المأمون لجأ إلى ملك أرجوان، فالكثير من المدن عقدت الصلح مع ملك قشتالة فأصبحوا يؤدوا له الجزية و يعترفوا بطاعته. (الشطشاط، 2001، صفحة 72).

ففي عهد انقسام الأندلسيين إلى ممالك و طوائف أصبحت كل مدينة مملكة تناوى المدينة الأخرى و تضاهيها العداء فاستغل الاسبان ذلك ففرضوا على الملوك دفع الجزية أو يسلمون مدتهم إلى القشتاليين. (القاسمي، دت، صفحة 179)، و مما لاشك فيه أن هذا التفكك و الانحلال و اللامسؤولية كان من أكبر العوامل التي ساعدت الاسبان على مواصلة مقاومتهم للقضاء على الوجود العربي بالأندلس.

ب) الثورات الداخلية:

قامت في الأندلس منذ أن وطئت أقدام العرب أرضها ثورات داخلية بين مختلف القبائل والعناصر التي كان يتكون منها الجيش الفاتح، ولعل أبرزها كان في عهد عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية الذي حكم ما بين (138-172هـ/755-788م) عدة ثورات استنفذت جهود الدولة، أهمها ثورة يوسف بن عبد الرحمن الفهري (ت140هـ/757م)، وفي عهد هشام بن عبد الرحمن (172هـ-180هـ/788م-796م) قامت عدة ثورات أولها ثورة أخويه سليمان وعبد المعروف بالبلنسي، و استطاع الأمير القضاء على هذه الثورة سنة (174هـ/790م)، وفي عهد الحكم الأول بن هشام (الريضي) قامت في عهده عدة ثورات أهمها ثورة طليطلة 191هـ/806م، أما عبد الرحمن الثاني الأوسط فقد شهد عدة ثورات أيضاً أهمها طوريل البربري بتاكرتاً سنة 211هـ/826م، كما حدثت في عهده فتنة المضربة و اليمنية. (الشطشاط، 2001، الصفحات 74-73).

ولا شك أن انهيار الدولة بل الخلافة الأموية في قرطبة كان مقدمة لانحيار الأندلس كلها لاسيما بعد أن طمع عبد الرحمن بن المنصور في الخلافة وهذا ما أدى إلى انبعاث العصبية العربية القديمة، ولكن عودة الخلافة مرة أخرى إلى بني أمية بعد القضاء على المنصور، نجد الأندلس خاصة قرطبة قد امتلأت بالفتن و الاضطرابات التي تصارعت فيها فئات الدولة كالبربر و الصقالبة و أهل قرطبة. (القاسمي، دت، صفحة 179)، وغيرها من الثورات، التي زعزت استقرار الأندلس وانهارت مدنها الواحدة تلو الأخرى في يد النصارى.

ج) تدخل الصقالبة:

يرجع أصلهم إلى الجنس الأري أو العرق الهند أوروبي (السلاف Slaves)، ويطلق اسم الصقالبة في الأندلس على الرقيق الذين جلبوا من البلاد السلافية، يعرفون بالفتيان والخلفاء والخرس والخصيان والمجاييب... وهي نعوت تتردد كثيرا في المصادر الأندلسية. (الشطشاط، 2001، صفحة 75)

كان الصقالبة غير منسجمين مع بقية عناصر المجتمع الأندلسي الأخرى، كما كرههم المجتمع القرطبي لاسيما في أوائل الدولة الأموية واستكثر الحلفاء الأمويون منهم حتى كان عددهم كبيرا جدا في أواخر الدولة الأموية، فكان الصقالبة يمثلون قوة مغربة يحيكون المؤامرات لإيقاع بمختلف ملوك ورؤساء العرب، و قد اكتسب الصقالبة بمرور الزمن وجودا خاصا في إطار الدولة الإسلامية التي تعاقبت على الأندلس، فقد اعتمد عليهم بنو أمية و قلدوهم أهم المناصب ففي عهد عبد الرحمن الناصر لقبوا بالفتيان الأبناء. (الشطشاط، 2001، الصفحات 76-77) .

دور البربر: انتشر الإسلام في الأندلس انتشارا واسعا فامتزجت دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء أهل البلاد فنشأ جيل جديد من آباء مسلمين عرفوا بالمولدين، فأظهروا في كثير من الأحيان ميولهم الانفصالية عن سلطان قرطبة، فتحالفوا مع النصارى في الأندلس، و استغلوا فرصة ضعف الدولة الأموية في عهد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن فناروا في عدة نواحي مختلفة من الأندلس ضد السلطة المركزية، فكان لهم يد ولو من طريق غير مباشر في تدبير المؤامرات التي أثارت الثورات الداخلية الخارجية على دولة الإسلام بالأندلس حتى وقعت فريسة الأعداء الذين أجهزوا عليها. (الشطشاط، 2001، الصفحات 77-78)

لعب البربر دور مهما في فتح الأندلس فظلت بلاد المغرب مصدرا للهجرات فيها حتى قيام دولة بني أمية، بل أننا نجد بعض خلفاء بني مروان يستكثرون من بربر العدو و يعتمدون عليهم في جيوشهم، و قد قاموا بعدة انتفاضات فكانت أولها قام بها البربر ضد السلطة المركزية بالأندلس بزعامة "عثمان بن أبي نسعة الختعي" أو غيرها من الانتفاضات، وقد كانت نظرة الأندلسيين لا تعرف الاستقرار، خاصة بعد دخول المرابطين، فقد كانت نظرهم للبربر نظرة احترام و إجلال إلى أنها تلاشت بعد زوال الخطر الإسباني عنهم، فبدأت تطفو من جديد تلك الحساسية تجاه البربر، ففي هذا الخصوص يذكر المقري "و لما كان البربر بالقرب منهم (أي أهل الأندلس) و ليس بينهم سوى تعديية البحر، و يرد عليهم من طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفورا، و أكثر تحذرهم من نسب، أو مجاورة، حتى ثبت ذلك في طبائعهم، و صار بغضهم مركبا في غرائزهم، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس و بغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم، فلم نجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا والعكس". (الشطشاط، 2001، الصفحات 79-81) .

و من هنا نستنتج أن عناصر المجتمع الأندلسي غاب عنها الترابط والانسجام، وميزتها العداوة والبغضاء و هذا ما أدى إلى عدم الاستقرار، فكان سببا في نهاية الوجود الاسلامي بالأندلس.

(د) التدخل النسوي في شؤون الدولة:

وما نتج عنه من اغتيالات سياسية و خيانة وكما يقال "أن وراء كل عظيم امرأة وأن وراء كل عمل فظيع امرأة"، فإن هذه الحقيقة صادقة أيضا فيما يخص انهيار الوجود الاسلامي بالأندلس، فكانت أم هشام "صبح" المؤيد في وصول الحاجب المنصور بن أبي عامر، و كان لها اليد الأولى في التعجيل بسقوط الدول الإسلامية في الأندلس، فكان للمرأة دورا حاسم في المسار السياسي للدول التي حكمت الأندلس، وقد ظهر التدخل النسوي بصورة واضحة في بداية تضعف الدولة العامرية التي أدت لقتل عبد الرحمن (شنخول) سنة 399هـ/1009م و توليت محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر. (الشطشاط، 2001، صفحة 82).

(هـ) كما كان للحروب المستمرة بين المسلمين والأسبان دور مهم في إضعاف مسلمي الأندلس وانهاكهم، مما أدى إلى سقوط المدن الأندلسية عدة مرات بأيدي القشتاليين. (الشطشاط، 2001، صفحة 87)، حيث ساعدهم ضعف روح الجهاد وانغماسهم الكامل في اللهو و الخمر و النساء، فانتشرت المغنيات و الراقصات ودور الطرب و اللهو و مجالس الخمر و العريضة، خاصة أواخر دولة بني الأحمر وعاصمتها غرناطة، فكان كل ذلك له أبلغ الأثر في ضعف الجانب الإسلامي أمام الإسبان. (القاسمي، دت، الصفحات 177-179).

فتلك هي بعض الأسباب التي كانت وراء الانهيار الذي أصاب الوجود الاسلامي في الأندلس، فكل هذه الأسباب عملت مجتمعة على تعجيل في السقوط فسقطت أحواز الأندلس الواحدة تلو الأخرى التي كانت غرناطة آخرها، و من هنا نستنتج أن الأسباب الحقيقية للسقوط لا تكمن في المرحلة الأخيرة لسقوط غرناطة بل منذ دخول العرب في شبه الجزيرة الأيبيرية إلى السقوط أي منذ البداية إلى النهاية أدت كلها لنهاية أمة سيعرف شعبها المعاناة عبر التاريخ.

ثانيا: سقوط الأندلس:

(1) سقوط أحواز الأندلس:

يعتبر تاريخ (897هـ/1492م) تاريخ سقوط غرناطة بالأندلس نهائيا في يد النصارى الأسبان، وبذلك ضاعت الجوهرة الثمينة للأبد بعد ثمانية قرون من العطاء الحضاري و المعرفي، وهي تعد آخر معقل من معاقل الاسلام بالأندلس، في حين يرجع سقوط المدن والحواضر الأندلسية منذ القرن (5هـ/11م)، في عهد ملوك الطوائف الذين بلغ عددهم 23 ملكا، فاغتنمت الدول النصرانية تلك التجزئة وأخذت تحتل مدن الإسلام الواحدة تلو الأخرى و أهمها: فركونة و براغة و قلمرية و مجريط و طليطلة عام 478هـ/1085م ثم تبعها سرقسطة 516م وإقليمها الكبير 1112م ثم طرطوشة ولاردة 543هـ/1148م و جزيرة ميروقة 1229م وأبدة 1233 وقرطبة حاضرة الأندلس 633هـ/1236م و تبعها بلنسية 626هـ/1238م و شاطبة و دانية 1240م و موسيه. (أرسلان، 1936، الصفحات 260-265).

فتجسدت أبشع حلقات الضعف والتداعي عندما قبل "ابن الأحمر" أداء الجزية لملك قشتالة وسلم له جيان ومنطقها ثم تجلت الذلة بإعانتته على غزو مدينة اشبيلية ومنطقة غربي الأندلس، فسقطت جل ولايات الأندلس

الوسطى والشرقية منذ منتصف القرن (7هـ/13م)، فتحوّلت الأندلس كلها إلى الجنوب الذي أصبح ملاذ المسلمين المغلوبين، وحملت غرناطة لواء الدفاع عن الإسلام والمسلمين أكثر من قرنين من الزمن. (يحياوي، 2000، الصفحات 27-28)، وهكذا سقطت الأندلس بعد أن كانت قد وصلت إلى أعلى درجات الرقي والازدهار ثم انحدرت بسقوطها إلى أدنى درجات بعد أن احتلها قوى الصليبية فاندثرت حضارتها وشملها الخراب والجهل والدمار.

2) سقوط غرناطة:

يعتبر سقوط غرناطة حداً فاصلاً بين حضارتين في إسبانيا: حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات وحضارة غربية مسيحية تكتسح ما تعتبره دخيلاً وتقذف به خارج شبه الجزيرة الأيبيرية (رزوق، 1998، الصفحات 16-17) فظلت مملكة غرناطة لسنوات تصارع الموت صامدة ضد هجمات المسيحيين، ومن خلال نص أورده "مارمول كريخال" وهو بصدد الحديث عن غزو غرناطة قائلاً: "كان الأمير أبو الحسن ملك غرناطة هو الأمير التاسع عشر من بيت بني الأحمر وقد صار أقوى... وقد تأتى له ذلك بسبب ما وقع بين الأمراء النصارى من النزعات، فقد كانت إمارته غنية و كثيرة السكان بعد أن لجأ إليها المسلمون من جهات إسبانيا ليكونوا رعية الأمير من أمتهم، وكانت لديهم مدافع كثيرة و ذخيرة بالإضافة إلى جيشه من الفرسان و الراجلة المجهزين بالبنادق و قد سارعت إليه العساكر من كل بلاد البربر..." و من هنا تتبين عوامل الصمود التي يمكن تحديدها بثلاثة عوامل هي:

1- تماسك الجبهة الداخلية في مملكة غرناطة و تصميم رجالها على الدفاع عن بلادهم بتأييد من الفقهاء و العلماء، (رزوق، 1998، صفحة 83)، لأنها أصبحت ملجأ الهاربون المسلمون بعد سقوط المدن الأندلسية فعدت جامعة لكل المواهب و الكفاءات في كل ميادين العمل و الإبداع لتصبح حضارة ماتزل قائمة آثارها حتى اليوم. (الفلاحي، التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، 2003، صفحة 129).

2- تنازع الممالك المسيحية في الشمال.

3- تدخل المرينيين ومساعدتهم التي أضفت الحيوية على العمليات العسكرية التي تقوم بها مملكة غرناطة (رزوق، 1998، صفحة 53)، وهذا راجع لموقع غرناطة التي تقع في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية فكان عاملاً في قوتها. (الشطشاط، 2001، صفحة 60).

إلا أن هذه العوامل تلاشت لتبدأ مؤشرات السقوط تظهر ومنها:

- النزاع العائلي الذي حدث بين أفراد بني الأحمر: بدأت بوادر الخلاف منذ تولي السلطان أبو الحسن النصري بعد وفاة أبيه 1463م إذ نازعه في الملك أخواه يوسف الحجاج و أبو عبد الله المعروف بالزغل فاستقل هذا بمالقة و ما جاورهما (جاسم، بن محمد القاسمي، المرجع السابق، ص 182-183). بعد حرب أهلية دامت ثلاثة سنوات، فأصبح أبو الحسن سلطاناً على غرناطة و المرية و ضواحيها. (الفلاحي، التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، 2003، صفحة 101).

- كانت الوحدة السياسية الجديدة عاملاً في سقوط غرناطة: ففي خضم الفتنة التي عصفت بالبيت الناصري نجد أن العدو أكثر قوة باتحاد قشتالة و أراغون سنة 1479 بعد أن تم الزواج بين إيزابيلا ملكة قشتالة مع فرناندو

الخامس، فاجتمعت القوة النصرانية حين تفرقت قوة المسلمين الغرناطيين، فكان من بين ما تعاهد عليه الملك الكاثوليكيان هو الحرب على غرناطة خاصة من جانب إيزابيلا التي وقعت تحت الأعباء المتعصبين نظراً لحميتها الدينية. (يحياوي، 2000، صفحة 34).

- وفي هذه الظروف لم يستطيع هذه المرة إيجاد المسلمين الأندلسيين فهذا ما عجل بسقوط غرناطة، فكانت السواحل الإفريقية قد تعرضت لهجوم الإفرنج فضعف حكامها حتى بات من الصعب إنقاذ مسلمي الأندلس، وذلك بسقوط الدولة المرينية و حلول الدولة الوطاسية الضعيفة، مما جعل الأندلسيين يبحثون عن النجدة فتوجهوا لسلطان مصر المملوكية، إلا أن هذا الأخير لم يستطيع مساعدتهم بالسبب سياستهم المتوجهة نحو الخارج في دفاع عن الخطر المغول ثم تصدي لمشاريع الدولة العثمانية التي كانت ترمي للاستيلاء على الدولة المملوكية. (القاسمي، دت، الصفحات 184-185)

أما الدولة العثمانية فقد استنجدت بها المورسكيين خاصة بعد سقوط غرناطة إذ أرسلوا نداءً للاستغاثة أولهما بايزيد الثاني 1501م، و الثاني السلطان سليمان القانوني 1541 (جمال، يحياوي، المرجع السابق، ص 35-36 و محمد، رزق، المرجع السابق، ص 7-9)، إلا أن الدولة العثمانية كانت مشغولة بالتصدي للغربيين في أوروبا الشرقية (قبرص) و مشغولة بتأسيس دولتها إضافة إلى بعد المسافة بينها و بين الأندلس، فكان سقوطها أمراً طبيعياً لو رأينا تلك الأسباب التي تجمعت لتبرئ غرناطة للسقوط، فما من أمة تركن إلى اللهو و الترف و تنقسم على نفسها و تشتغل بمتاع الدنيا، فهي كما قال ابن خلدون تمر بمراحل ازدهار حتى تضعف وتسقط، وبذلك بدأت المرحلة الأخيرة لسقوط غرناطة. (القاسمي، دت، صفحة 185).

- إضافة إلى هذا النزاع كان للسلطان أبي الحسن زوجتان الأولى ابنة عمه "عائشة" و الأخرى حسناء اسبانية "تريا" فأنجبت كل منهما اثنين من الأمراء، و بذلك ثارت مسألة الولاية بين الجانبين تحت تأثير هاتين الزوجتين، فانتهم بالثورة على السلطان و جلوس ابنه "عبد الله محمد الصغير" على عرش غرناطة 887هـ/1482م، و في سنة 1483م خاض "أبو عبد الله" معركة مع النصارى فأسر فأل حكم غرناطة إلى والده "أبي الحسن" إلا أنه تنازل بسبب المرض لأخيه الزغل. (القاسمي، دت، صفحة 183).

ولم يطلق سراحه إلا بعد مفاوضات قاسية انتهت بعقد معاهدة مهدت الطريق لاستيلاء الملكين الكاثولكيين على غرناطة و سوف تعزز هذه المعاهدة بأخرى سنة 1486م أكثر استسلاماً من سابقتها (رزوق، 1998، صفحة 54) فتم الإفراج عنه سنة 890هـ/1485م فاشتعلت الفتنة الأهلية بين الصغير و عمه الزغل، فنتيجة هذا الصراع سقطت عدة مدن منها مدينة رندة سنة 890هـ فانهارت آخر وسائل الدفاع في غرب مملكة غرناطة ثم سقطت مدينة لوشة بعد حصار و قتال مرير سنة 891هـ، كما سقطت كثير من القلاع و الحصون المشرفة على العاصمة (غرناطة)، قرب مالقة خرج الزغل لمقاتلة النصارى إلا أنها سقطت 896هـ/1475م فانسحب الزغل بجيشه إلى غرناطة فجاءته الأنباء بدخول أبي عبد الله و مبايعته ملكاً على غرناطة. (الفلاحي، التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، 2003، صفحة 106)

فعقد الزغل مع ملكي قشتالة معاهدة سرية تنص على طائفة من المنح و الامتيازات، فلم يمض وقت طويل حتى شعر الزغل أنه يستحيل عليه الاستمرار فنزل لفرديناند عن حقوقه و من ثم انتقل إلى المغرب. (الشطشاط، 2001، صفحة 65).

احتل النصارى القسم الغربي من مملكة غرناطة فقد استولوا على ميناء ومدينة مالقة وعلى جبال رندة والجبال التي تمتد على الحدود بين المملكة ومملكة قشتالة وبينما كانت جميع أطراف غرناطة قد أخضعت بالسيف بقي قلب هذه المملكة وهي مدينة غرناطة و ما حولها تحت حكم أبي عبد الله الذي يأخذ سلطته من قشتالة بصفته أحد ولاته التابعين له. (ايرفينج، 1988، صفحة 331).

وفي فاتحة سنة 1490م أوائل صفر 895هـ أرسل الملك الكاثوليكيان إلى السلطان "أبي عبد الله الصغير" يطلبان تسليم غرناطة، فرد عليهما بأن الشعب الغرناطي يأبى تسليم مدينته و هو مصمم على المقاومة، فاستمرت الحروب حول حصون غرناطة (الشطشاط، 2001، صفحة 66)، فبدأ الفصل الأخير في حياة غرناطة حين زحف فرناندو بجيشه 12 جمادى الثاني 896هـ/23 أبريل 1494 فضرب الحصار حول المدين فحرقوا الحقول وهدموا قراها وأمعنوا في أهلها قتلا و أسرا، فأصبحت البسائط الخضراء خرابا فقطعت عن غرناطة الإمدادات، فبنى فرناندو مدينة و أطلقت عليها "ايسبيللا" (سانتا فيه) أي الإيمان المقدس وهي مازالت حتى اليوم في جنوب غرب غرناطة فنشبت عدة معارك بين الطرفين قادها أبو عبد الله إلا أنه انسحب إلى المدينة لقوة النصارى، فمرت سبعة أشهر و هم يعانون الحصار. (الفلاحي، التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، 2003، الصفحات 110-114).

فصمم فرديناند على متابعة الحصار حتى تفتح المدينة أو تستسلم و لما رأى أبو عبد الله الصغير أن مدينة غرناطة لا تستطيع الصمود ونزولا على رغبة الشعب أرسل يطلب الهدنة من الملكين الكاثوليكيين لكي يستطيع خلالهما أن يتفاهم على شروط الصلح التي يمكن التسليم بمقتضاها و هي سرية. (الشطشاط، 2001، صفحة 66).

في يوم 21 محرم سنة 897هـ/25 تشرين الثاني 1494 وقع أبو عبد الله الصغير معاهدة تسليم غرناطة و هناك اختلاف حول عدد الشروط فالمقري في نفح الطيب يذكر أنه 67 شرطا، أما محمد عنان (نهاية الأندلس) فيجعلها 56، (علي، حسين الشطشاط، المرجع السابق، ص 67). وهي مجموعة من الحقوق و الامتيازات متعلقة بالأمر أبي عبد الله و بالمسلمين عامة، تضمن حرية التجارة و التنقل إلى المغرب بمساعدة الأسبان، و حرية ممارسة الشعائر الدينية لكن سوف يتبين فيما بعد أن هدف المعاهدة هو تهدئة الأوضاع أمام عنف المقاومة العربية، و فعلا لم يمر وقت قصير حتى بدأ الأسبان ينفذون مخططهم القاضي بتنصير المسلمين و بطردهم. (رزوق، 1998، الصفحات 55-56).

فبدأ بالفعل تسليم غرناطة إلى النصارى في 2 ربيع الأول 897هـ/2 يناير 1492، أما السلطان أبو عبد الله الصغير فقد توجه للقاء عدوه على ضفة نهر شنيل فسلمه مفاتيح الحمراء ثم عرج في طريقه على الملكة ايسبيللا التي سلمت ولده الرهينة، ثم خرج إلى هضبة (تل البذول) فالتفت وراءه فبدت له الحمراء و رياض غرناطة فراح يبكي في مرارة فصاحت أمه (عائشة)، (أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تدافع عنه كالرجال) فسمي ذلك الموقع في الرواية الاسبانية باسم (زفرة العربي الأخيرة)، فبقي الملك الصغير في أندلشة ففرضت عليه رقابة صارمة فوقع المعاهدة الأخيرة مع الملكين الكاثوليكيين تضمنت أن يغادر إلى المغرب في موعد أقصاه نهاية شهر تشرين الأول 1493 و أن يبيع كامل أملاكه للملكين نظير ثمن

قدره واحد و عشرون ألف جنيه قشتالي من الذهب (الفلاحي، التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، 2003، الصفحات 124-127)، فغادر أبو عبد الله إلى المغرب في حشرات و ألم و ندم فنزل في مدينة مليبية المغربية فتوفي سنة 940هـ فعاشت ذريته في فاس و كانوا يعدون من جملة الشحاذين. (المقري، دت، صفحة 529).

و بذلك انتهت دولة الإسلام في الأندلس بعد ثمانية قرون من التواجد الإسلامي بإسبانيا، الذي استطاع بناء حضارة لا تزال تشهد له بذلك، فكان سقوط غرناطة 1492م بداية لمأساة جديدة هي مأساة المورسكيون التي ستنتهي بطردهم عام 1609م.

ثالثاً: بداية المحنة:

لم يكن سقوط غرناطة في يد إسبانيا مجرد نهاية حكم و قيام آخر و لا مجرد تغيير في النظام السياسي بل مثل سحفا لدولة الإسلام في الأندلس (يحياوي، 2000، صفحة 41)، فكان السقوط بداية مصيبة جديدة هي مأساة الأمة هناك، مأساة تمثل فيها الثبات و التصارع ضد الفناء الذي كان يريده لهم السلطان الإسباني لإفناء الأفراد بل قبله فناء و إفناء العقيدة و إلغاء كل ما يتصل بذلك، فبقي المسلمون يدفعون ما يزيد القرن عن وجودهم المتمثل في عقيدتهم وإنتاجهم الفكري و الحضاري بمظاهره المختلفة لذلك كانت محاكم التفتيش تحارب كل هذا فكان من جراء هذا ظهور عدد من المسلمين النصرانيين فأخفوا إسلامهم فسموا بالموريسكيين *les moriscos* (الشطشاط، 2001، صفحة 97)، وفي معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية نجد تعريف للموريسكي "كلمة تطلق على المغاربة الذين بقوا و تعمدوا بعد استعادة إسبانيا"، فهي مصطلح خاص بمسلمي الأندلس بعد 1492 حيث لم تكن تستعمل قبل هذا التاريخ، وبالتالي هذه التسمية أطلقت على المسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد السقوط أو الذين هاجروا أو هجروا من إسبانيا بين 1492-1610، فاستعملت رسمياً في ملفات محاكم التفتيش عام 1520 و يحدد قاموس التاريخ الإسباني *Diccionario de Espana Aistoria* معنى كلمة موريسكيين بمسيحي إسبانيا المنصرين بالقوة بداية من القرن 16م، غير أن حقيقة المشكلة ليست في التسمية في حد ذاتها و إنما في المحنة التي عاشها هؤلاء الغرباء طيلة أكثر من قرن إذ أن اتفاقية غرناطة لم تحترم بسبب التعصب الكنيسي فبدأت سياسة الانتقام تجتث من طريقها كل ما هو إسلامي فتوالى خرق بنود المعاهدة الواحدة تلو الأخر و أنشئت محاكم التفتيش بدعوى حماية الدين المسيحي. (يحياوي، 2000، الصفحات 42-49).

1) محاكم التفتيش:

يصعب إعطاء تاريخ محدد لنشوء محاكم التفتيش، إلا أن الفكرة ظهرت في الكنيسة الرومانية فبدئ بتطبيقها منذ أوائل القرن (7هـ/13م) في إيطاليا، و ألمانيا، و فرنسا. و ذلك لمطاردة المارقين و الكفرة و السحرة، و يرجع تأسيس محاكم التفتيش بإسبانيا إلى عهد الملكين الكاثولكيين ضد اليهود المنتصرين، فبعد صدور قرار التعميد الإجباري ضد الأندلسيين 1502م أصبحت محاكم التفتيش تتابع المورسكيين بصرامة، ففي الوصية التي تركها فرناندوا الكاثوليكي لشارل الخامس نجده يأمره بضرورة اختيار محققين أكفاء لتضيق الخناق على طائفة محمد، لذلك فالمورسكيون يحملون الملكين الكاثولكيين مسؤولية إنشاء محاكم التفتيش (رزوق، 1998، الصفحات 61-62)، وأول من نظم عقوبة

دواوين التحقيق ضد الموريسكيين كان المفتش العام الخامس "دون الفونسومانريك" أسقف اشبيلية و أصبح فيما بعد كردينال الكنيسة الرومانية، فقد وضع قائمة بالاتهامات ضد الموريسكيين و قد نص فيها "أنه وجب على كل مسيحي الإعلام عن الموريسكيين الذين لازالوا يمارسون شعائر الإسلام سرا" (كاردياك، 1983).

وبالتالي فإن غاية المحاكم هي القضاء النهائي على المسلمين بالأندلس و تطهير اسبانيا من كل من يحمل دين محمد و تحقيق أهداف الملوك الأسبان و تنفيذ توصيات البابوات الحاقدين، و من ثم فهي أداة ووسيلة اتخذتها السلطة السياسية (الملوك) و الدينية (الكنيسة)، فلعبت محاكم التفتيش دور كبير في التضييق على موريسكي الأندلس فمنذ صدور قرارات التنصير العميدي، و منع استعمال اللغة العربية و الملابس العربية زاد تعنت محاكم التفتيش في ممارستها، ومن هنا اتفق جل المؤرخين على وحشية الإجراء المتبعة من طرف محاكم التفتيش، فمهما وصفوا تلك المظاهر المشينة و السياسة التسلطية فإنهم لم يعطوا الصورة الحقيقية لمعاناة هذه الأقلية. (يحياوي، 2000، الصفحات 67-72).

وقد وضعت محاكم التفتيش مجموع من المحظورات منها: تحريم الذهاب إلى الحمامات، واجبار النساء الموريسكيات على كشف وجوههن وترك الأبواب مفتوحة أيام الأعياد....، وغيرها من المحظورات التي جعلت من ممارسة الدين الإسلامي أمرا صعبا، وقد جندت لهذه العملية المسيحيين للتجسس على الموريسكيين، و عند سجن الموريسكي كان يتعرض لأبشع أنواع التعذيب كالتعذيب بالماء مثلا، بالإضافة إلى مصادرة أملاكه فتستغرق المحاكمة من عام إلى ثلاثة أعوام، و بالتالي فقد كان الموريسكي يحاسب على كل حركاته مثل: الجلوس على الأرض بدل الكرسي أو ذكر كلمة ثورة كل هذا يؤدي بصاحبها للوقوع بين أيدي جلادي محاكم التفتيش. (يحياوي، 2000، صفحة 77).

حيث كانوا يساقون إلى الساحات العمومية وهم يلبسون لباس العار، وحتى الأموات لم يسلموا من محاكم التفتيش إذ يعاقبون مثل الأحياء فيخرجون من قبورهم ليحرقوا، و لو حاولنا إلقاء نظرة على بعض الإحصائيات المسجلة لرأينا ما لحق بموريسكي الأندلس من تسلط و تعنت منها:

المدينة	أسلوب محاكم التفتيش في التعذيب	الأشخاص	المدة (خلال)
طليطلة	الإعدام	1200	جلسة واحدة
أبلة	حرق	113	خلال 3 سنوات (1499-1502م)
أشبيلية	حرق	16	أولى الجلسات
/	/	700	8 سنوات
/	السجن المؤبد و الأشغال الشاقة	500	8 سنوات
بلنسية	مثل أمام محاكم التفتيش	259	عام واحد 1558
مرسية	حرق	350	بين 1557-1563 أي 6 سنوات

أما بالنسبة لموريسكي غرناطة فقد احتل الصادرة في المعاناة و المطاردة فسنة 1570 حوكم 300 موريسكي منهم 80% غرناطي.

و لم يسلم من هذا حتى الكتب فقد أحرق "ابتليت بسينيروس" الذي كان حاقدا على كل ما هو إسلامي فجمع الكتب العربية و أحرقها، و حولت الكثير من المساجد إلى كنائس مثل مسجد البيازين لكنيسة سان سلفادو التي مازالت موجودة حتى اليوم (يحيوي، 2000، الصفحات 81-84)

و من جراء أساليب محاكم التفتيش لجأ الموريسكيين إلى أسلوب التقية أي الكتمان والحذر و السرية أي ممارسة دين الإسلام سرا متظاهرا باعتناق الدين المسيحي و هذا ما عبر عنه اللورانت (Liorente) في كتابه (Historia Gritica de la Inquision en Espana) عندما كتب "أن محاكم دواوين التفتيش قد حافظت بل قوى مكرها عندما عقب فقط الأشخاص الذين لا يعرفون المكر، و لكن لم توفق في تبديل دين أحد منهم، و هذا كما لمسناه عند اليهود و العرب الذين تم تعميدهم بدون اقتناع حقيقي، و كان الهدف من ذلك هو البقاء في اسبانيا".

و يقول أحد الموريسكيين "لقد كنا مضطرين أن نظهر لهم ما كانوا يرغبون فيه منا وعكس ذلك فإنهم يسوقوننا إلى محاكم دواوين التفتيش بسبب إتباعنا الحقيقة لقد حرمانا من الحياة و الأملاك و الأبناء و زوجا بنا في سجون مظلمة لأتفه الأسباب... فإنهم يقنوننا سنين عديدة... أما أطفالنا فإنهم عندما يكونون يافعين يربونهم على منوالهم و يصبحون مرتدين... و بالإضافة إلى ذلك فإن حكام دواوين التفتيش يفتشون عن كل الوسائل للقضاء نهائيا على هذه الأمة"، فقد اتبعوا أسلوب التقية بعدما أرسلوا أحد مفاتي وهران و هو أحمد بن جمعة يسألونه عن ممارسة دينهم، و مؤرخة بأوائل شهر ديسمبر 1504م (رجب 910هـ)، فيها أجوبة شافية للموريسكيين فحملت هذه الفتوى تسهيلات مهمة وواسعة تسمح لهم بالمحافظة على دينهم بإتباع أسلوب التقية و بهذا مارسوا الإسلام سرا. (كاردياك، 1983، الصفحات 90-105).

ومن هنا فقد عملت محاكم التفتيش أن تجعل من الموريسكيين مسيحيين صادقين إلا أنها فشلت في ذلك للمحافظة الموريسكيين على إسلامهم و ممارسته سرا.

(2) التنصير الإجباري.

من بين الدوافع التي أدت بالموريسكيين إلى التقية هو عزم الكنيسة على تنصير المسلمين بالقوة وتطبيق سياسة التنصير القسري، و تنظيم إجراءات التعميد و هذا موازاة مع الأوامر الملكية التي تدعم ذلك منها قرار 1501م من طرف الملكين الكاثوليكين في غرناطة يحرم على الموريسكيين ممارسة كل ماله صلة بعقيدتهم و لغتهم، بالإضافة إلى دور القس "خمينس سيسينيروس" الذي عرف بإصراره على تنصير الموريسكيين بكل الوسائل، فساهم بتعصبه في تنفيذ مشاريع الكنيسة الكاثوليكية في ما يتعلق بتنصير المسلمين، و بهذا نخلص إلى دور العامل الديني في الحقد على المسلمين (كاردياك، 1983، الصفحات 87-91).

وقد أصدر فيلب الثاني (1556-1598م) قرارا يحرم فيه على الموريسكيين اقتناء العبيد السود حتى لا يدينوا بالإسلام سنة 1560، و أصدر في سنة 1563 قرار يرفض شكوى الموريسكيين و في 14 ماي 1563 أصدر أمرا يحدد فيه الأمرين الصادرين عامي 1526-1552 المتعلقين بتحريم اقتناء الأسلحة بدون رخصة. (رزوق، 1998، صفحة 90).

ويوضح المقري في نفح الطيب ما تعرض له الموريسكيين من قتل وتنكيل من طرف الكنيسة لتنصيرهم "ثم إن النصارى نكثوا العهد و نقضوا الشروط عروة عروة إلى أن الحال لحملهم المسلمين على التنصير... إن القسيسين كتبوا

على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر...و هو أن يقولوا للرجل المسلم إن جدك كان نصرانيا فأسلم، فترجع نصرانيا، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهكذا كان السبب للتنصر...وامتنع قوم من التنصر، و امتنعت قرى و أماكن كذلك منها بلفيف و أندرس و غيرها فجمع لهم العدو الجموع و استأصلهم عن آخرهم قتلا و سبيا...". (المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ووزيرها لسان الدين بن الخطيب، دت، صفحة 527).

وعند فشل الكنيسة الكاثوليكية في التنصير جنحت عندئذ إلى انتهاج سياسة العنف والمطاردة، فأقنعت الملوك بأن الوسائل السلمية لا تجدي نفعا و بذلك وجب استخدام كل الأساليب الوحشية، فكان أول الإجراءات تحويل المساجد إلى كنائس، فمنذ أول يوم دخل فيه فرناندوا غرناطة قام بتحويل مسجدها الكبير إلى كنيسة و غيرها من المساجد، بحيث هناك العديد من الصور التي ذكرها المؤرخون عن همجية الكنيسة الكاثوليكية ففي ناحية دانية (Dania) كان حوالي 600 موريسكي بعد دفاعهم المستميت قبلوا التعميد شرط المحافظة على أرواحهم ولكن عند خروجهم من القلعة قتلوا جميعا، و ذكر الباحث "ويليام بريسكوت" أن الكونت بيرين نسف مسجدا مليئا بالنساء والأطفال. (رزوق، 1998، الصفحات 95-104).

وهكذا وجد الموريسكيين أنفسهم بين نار التنصر و جحيم محاكم التفتيش، فكان ردهم على ذلك بالقيام بالعديد من الثورات إلا أن المسيحيين استطاعوا إخمادها، و بعد هذا التعسف و التعنت الذي مارسته الكنيسة على الموريسكيين وجدوا أنفسهم أمام قرار الطرد عام 1609.

(3) الطرد النهائي سنة 1609م:

إن عملية الطرد النهائية توضح قطعاً أن محاكم الدواوين قد فقدت كل أمل للانتصار على الموريسكيين (كاردياك، 1983، صفحة 100)، فبعدما تعرض الموريسكيين إلى التنصير و ما فرضته عليه محاكم التفتيش لم يرضى بذلك فقد قام بعدة ثورات حيث عرفت غرناطة تمردات عديدة من سنة 1568 إلى 1570، و ذلك في عهد فليب الثاني، فمنذ ذلك الوقت بدأ التفكير بمشروع إجلاء الموريسكيين الغرناطيين عن البلاد ليوضع فيما بعد موضع التنفيذ. (برنارد، 1988، الصفحات 42-44).

وقد صدر قرار في 28 أكتوبر 1570 بنفي الموريسكيين من مملكة غرناطة ومصادرة أملاكهم العقارية مع السماح بحمل الأموال المنقولة فحسب (رزوق، 1998، الصفحات 92-93)، فشمّل قرار النفي الذين لم يحملوا السلاح و الآخرين الذين حملوا السلاح فنفوا خارج مملكة غرناطة فأصبح الحل الوحيد لإخماد الثورة (برنارد، 1988، صفحة 61)، يقدر عدد من شملهم قرار النفي بـ 80.000 موريسكي رحلوا إلى قشتالة و غيرها في ظروف جد سيئة بسبب المرض و الموت الكثير أثناء الطريق، وبالتالي ظهرت فكرة الطرد خارج اسبانيا كما توردها الوثائق الاسبانية المعاصرة منذ سنة 1582، فكانت السلطة الملكية تنتظر الظروف المناسبة فلم تنفذ سياسة الطرد في عهد فليب الثاني، فرسمت خطوات للقرار النهائي في عهد فليب الثالث سنة 1609، وتراجع فليب عن سياسة أبيه المعتدلة وذلك نتيجة فزعه من غزو إسلامي جديد للمنطقة، فأصدر مجموعة من القرارات التي شأنها التضييق على الموريسكيين و جعلهم تحت قبضته لمراقبتهم فكان رد

فعلهم بإعلان الثورة الكبرى (1568-1570)، فاستمرت المواجهة ضد السلطات الإسبانية رغم الإجراءات مما أقنع "فليب الثاني" بفشله و جعله يفكر في آخر أيامه بإخراجهم وهذا ما سيقوم به ابنه فليب الثالث. (رزوق، 1998، الصفحات 107-95).

و بالتالي جاء قرار الطرد النهائي نتيجة أسباب تظهر جليا من خلال قول "الشهاب الحجري" أثناء سفارته بهولندا عن السبب الذي أدى بفليب الثالث إلى طرد الموريسكيين فأجاب: "إعلم أن الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصرى و لكن تارة يظهر عليهم الإسلام و يحكمون فيهم، و لما تحقق منهم ذلك لم يؤمن فيهم و لا كان يحمل منهم أحدا إلى الحروب...و كان أيضا يمنعهم من ركوب لثلا يهربوا إلى أهل ملتهم و البحر يفني كثيرا من الرجال و أيضا في النصرى كثيرون قسيسون، و رهبان و مترهبات و بتركهم الزواج ينقطع فيهم السيل و في الأندلس لم يكن فيهم قسيسون و لا رهبان و لا مترهبات إلا جميعهم يتزوجون و يزداد عددهم بالأولاد...و هذا الذي ظهر على إخراجهم لأنهم بطول الزمن يكثرون..." و بالتالي يمكن تلخيص أسباب الطرد في مايلي:

السبب الأول: فشل سياسة الإدماج رغم جميع المحاولات التي قامت بها السلطات الإسبانية من تنصير إجباري فلم يستطيعوا تنصير الموريسكيين و القضاء على الإسلام في صدورهم. (برنارد، 1988، صفحة 202).

السبب الثاني: قيام الموريسكيين بعدة ثورات و انتفاضات.

السبب الثالث: يرجع إلى زيادة الموريسكيين بنسبة أكبر من نسبة ازدياد الاسبان فمن خلال إحصاء 1572/1565 إلى غاية الطرد 1609 ازداد الاسبان بنسبة 44.7 أما الموريسكيين فبنسبة 69.7%، و بالتالي هذه الزيادة شكلت قلقا دائما بالنسبة للاسبان إلى أن وجدت الحل أخيرا. (رزوق، 1998، الصفحات 120-121).

إضافة إلى الخوف من التضامن الإسلامي (المغرب، الأتراك)، فيقول شكيب أرسلان في ذلك: "و كان المسيحيون يعاملونهم أقصى معاملة فأخذ المسلمون يرسلون مسلمي المغرب و يأترون معهم على مملكة قشتالة فصدر أمر فليب الثالث بإجلاء هؤلاء القوم عن البلاد و استئصال شأفتهم منها، و في الخطب التي نشرت من قلم السنيور فرنسيسكو كسكالييس مؤرخ مرسية فمن ذلك المنشور الذي صدر من الملك إلى الأمة الإسبانية مينا فيه دسائس العرب على الدولة و علاقاتهم بكفار البلدان الأخرى و فيه الأمر بإخراج العرب بأجمعهم..." (أرسلان، 1939، صفحة 446).

- فبعد طرد الغرناطيين من خارج غرناطة أصبح من الصعب تحديد إقامة الموريسكيين أكثر من أي وقت مضى، فكانت (1006هـ-1030هـ/1598-1621م) حركة تنقل مستمرة محاولة منهم لإعادة تجميع أسرهم و العودة إلى أرضهم الأصلية.

- بالإضافة إلى أسباب أخرى ترجع للنفوذ الذي مارسته الكنيسة على فليب الثالث، و قد قال العلامة برادول: "إن اسبانيا طردت الموريسكيين قبل كل شيء لأنهم ظلوا غير قابلين للتمائل و ليس بسبب العداوة لسلالة بل لعداوتها لحضارة و دين، و انفجار هذه العداوة بصورة الطرد و اعترافهم بعجزها و الدليل على ذلك أن الموريسكي بعد قرن و اثنين و ثلاثة كان سيظل المسلم المعروف بثيابه و دينه و لغته و مسكنه و حمامه...لقد احتفظ بكل شيء و أدار للغرب ظهره". وبالرغم من ذكر هذه الأسباب إلا أن قرار الطرد لم يكن مفروضا كضرورة تاريخية بالرغم من كل التفسيرات والتبريرات التي يربطونها بها، حيث تقع مسؤوليته على فليب الثالث والشخصيات المحيطة به (برنارد، 1988، الصفحات

(202-203)، وقد تمكن العديد من الموريسكيين الأغنياء من الهجرة قبل صدور قرار الطرد، وذلك بالذهاب إلى فرنسا ثم التوجه إلى الشمال الإفريقي، وقد تقرر طردهم في 04 أبريل 1609م، فتقرر أن يبدأ الطرد بالبلنسيين ثم أعلن قرار الطرد النهائي في 22 سبتمبر، ويقول شكيب أرسلان أنه جاء في القرار الملكي ما يلي: "في مدة ثلاثة أيام من نشر هذا الأمر يكون على جميع موريسك المملكة رجالا و نساء أن يغادروا البلاد و يتوجهوا إلى قرطاجنة ليكون منها خروجهم و لهم أن يحملوا من متاعهم ما يستطيع كل فرد حمله بنفسه و سينقلون إلى بلاد البربر في سفن تخصص لهذا الغرض... كل مسلم يخفي ثروته لعدم استطاعته أن يحملها معه أو يحرقها أو يحرق مزرعته أو بيته يعاقب بالقتل". (أرسلان ا، 1939، صفحة 446)

واستثنى من الطرد أولئك الذين يعيشون مع النصارى والذين أظهروا النصرانية بشهادة القسيس، وفي أكتوبر ساد كل الموانئ من اليكانتي إلى بيناروت نشاط كبير ورحلت سفن ملكية بالألوف من الموريسكيين، فكتب أحد مؤرخي اليكانتي يقول: "لقد كان الناس في الطرق مثل النمل... أما يوم الركوب فقد امتلأت فيه الشوارع و الميادين بطريقة يتعذر معها السير و استمر ذلك لوقت طويل لأن السفن و المراكب قامت بما لا يحصى من الرحلات". (برنارد، 1988، الصفحات 224-227).

وقد جرت عمليات التهجير في ظروف غير إنسانية وبترق شنيعة فيكسد الرجال والنساء والأطفال في السفن لا يسمح لهم بحمل أمتعتهم إلا ما خف منها، ومنهم من مات في البحر جوعا ومرضاً قبل أن يصل إلى مراده. (يحياوي، 2000، صفحة 150).

وبذلك تم طرد جميع الموريسكيين من جميع أنحاء اسبانيا، منها مملكة قشتالة وأندلوثيا ومرسية وفي مملكة غرناطة القديمة سجل "لايبري" 1121 رحلة من ميناء ملقة في عام 1616م و 825 رحلة من ميناء ملقة و المونيكار في عام 1611، إضافة إلى آخرون سافروا عن طريق الشمال، أما في مملكة جيان فقد تم طرد الكثيرين منذ 1569، ويبلغ عددهم 800 في أندوخار، 1000 في أوبيدا، 2600 في بايثا و 2255 في العاصمة إلى جانب أعداد أقل من هذه في القرى و الأغلبية ذهبت للرحيل عن طريق ميناء ملقة. (برنارد، 1988، الصفحات 232-234).

وقد خرج من مرفأ قرطاجنة من 18 يناير 1610 إلى 22 مارس (6552) نفسا من الموريسكيين، ومن تاريخ 26 أبريل 1610 إلى أغسطس 1611 خرج من نفس المرفأ 15189 نفسا، ثم 16 نوفمبر 1611 صدر أمر جديد أشد من سابقه بإخراج، وفي سنة 1618 صدر أمر بإخراجهم جميعا من موريسكيين مرسية. (أرسلان ا، 1939، صفحة 447).

و قد صاحب خروجهم حزن كبير و ألم لفقدان الوطن و المال، فالجزء الرئيسي من عملية الطرد انتهت خلال 1610 في كل اسبانيا إلا أنها تتابعت لمدة ثلاثة من أجل إتمام الطرد النهائي، أما عن العدد الإجمالي للذين طردوا فهو يختلف من مصدر لآخر، فحسب الوثائق الاسبانية تبعا لإحصاء حقيقي من سكرتير الدولة أن عدد الموريسكيين الذين طردوا هو 270 ألفا، بالإضافة إلى 300 ألف شخص فقدوا الإحصاء الاسباني إلى جانب 10-12 ألفا قتلوا في ثورات بلنسية وفي الطريق إلى موانئ الترحيل. (برنارد، 1988، الصفحات 245-249).

و من هنا نستنتج صمود الموريسكيين أمام تسلط اسبانيا، و لم يستسلموا بل ظلوا إلى آخر لحظة من وجودهم بالأندلس متمسكين بتراثهم الحضاري يقاومون في سبيل المحافظة عليه.

الخاتمة:

أسفرت دراستنا لموضوع مأساة الموريسكيين بعد سقوط غرناطة على جملة من النتائج:

- كان سقوط الأندلس بعد أن وصلت إلى أعلى درجات الرقي والازدهار ثم انحدرت بسقوطها إلى أدنى درجات بعد أن احتلها قوى الصليبية فاندثرت حضارتها وشملها الخراب والجهل والدمار.
- تعددت أسباب سقوط الأندلس التي هي في الحقيقة بداية لسقوط غرناطة، وبذلك ضاعت الجوهرة الثمينة للأبد بعد ثمانية قرون من العطاء الحضاري و المعرفي.
- كانت الوحدة الاسبانية الانطلاقة الفعلية لسقوط غرناطة وذلك بالزواج الملكي الكاثوليكين ايزابيلا ملكة قشتالة مع فرناندو الخامس، فاجتمعت القوة النصرانية حين تفرقت قوة المسلمين الغرناطيين.
- معاهدة التسليم كانت خاتمة الصراع الذي حدث بين اسبانيا ومملكة غرناطة يوم 21 محرم سنة 897هـ/25 تشرين الثاني 1494 ووقعها أبو عبد الله الصغير .
- يعتبر سقوط غرناطة حدا فاصلا بين حضارتين في اسبانيا، حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات وحضارة غربية مسيحية تكتسح ما تعتبره دخيلا وتقذف به خارج شبه الجزيرة الايبيرية.
- تعرض الموريسكيين لأبشع أنواع العنف فارتكبت في حقهم ابرشع أنواع الجرائم والانتهاكات من تعرضهم لتنصير ودفع الضرائب بالسبب تمسكهم بدينهم وعاداتهم فاستخدمت الكنيسة كل المساعي من تنصير اجباري ومحاكم التفتيش التي كانت الاداة الفعالة في تصفيتهم.
- صمود الموريسكيين أمام تسلط اسبانيا، و لم يستسلموا بل ظلوا إلى آخر لحظة من وجودهم بالأندلس متمسكين بتراثهم الحضاري يقاومون في سبيل المحافظة عليه، فكان قرار طردهم نهائيا سنة 1609م نتيجة فشل سياسة اسبانيا في تنصيرهم ومحو هويتهم .
- كان قرار طرد الموريسكيين نتيجة خوف الكنيسة من الحضارة الإسلامية، وبذلك ينتهي الفصل الأخير من مأساة الموريسكيين وتطوى إلى أبد صفحة من أنبل وأمجد وأزهر الحضارات.
- إن قضية الموريسكيين تمثل حلقة من حلقات صراع الحضارات وصورة تعكس نوع التعامل في ظل المناداة إلى حوار الأديان

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد بن محمد المقرئ. (دت). *نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ووزيرها لسان الدين بن الخطيب* (المجلد 4). (احسان عباس، المحرر) بيروت: دار صادر.
- بننت أنطونيو، دومينغير، هورتز، و برنارد. (1988). *تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيين "حياة...و مأساة أقلية"*. (عبد العال صالح طه، المترجمون) قطر: دار الاشراف.
- جاسم بن محمد القاسمي. (دت). *تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس*. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- جمال يحيوي. (2000). *سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610*. الجزائر: دار هومة.
- حامد حسين الفلاح. (2003). *التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة* (المجلد 2). الاردن: دار الكتاب الثقافي.
- شكيب أرسلان. (1936). *الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية* (المجلد 2). (1، المحرر) دون مكان: المطبعة الرحمانية.

- شكيب أرسلان. (1939). *الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية* (المجلد 1). مصر: مطبعة عيسى البابى الجلابى وشركاه.
- علي حسن الشطشاط. (2001). *نهاية الوجود العربي في الأندلس*. القاهرة: دار قباء.
- لوي كاردياك. (1983). *الموريسكيون الأندلسيون و المسيحيون المجابهة الجدلية (1492-1640)* مع ملحق بدراسة عن *الموريسكيين بأمريكا*. (عبد الجليل التميمي، المترجمون) الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- محمد رزق. (1998). *الأندلسيون و هجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17*. (3، المحرر) الدار البيضاء: افريقيا الشرق.
- واشنطن ايرفينج. (1988). *سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس*. (إسماعيل العربي، المترجمون) الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

الدعم العثماني لثورة الموريسكيين 1568م

Ottoman support for the Morisco revolt in 1568 AD

د. نورالدين مسعودي/ جامعة المدية / الجزائر

Dr. Noureddine Messaoudi/University of Médéa/Algeria

حسين شنيينة مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط / الجزائر

Dr. Houssin chnina/Research Center in Islamic Sciences and Civilization, Laghouat, Algeria

ملخص الدراسة:

تحاول هذه الورقة البحثية إبراز موقف الدولة العثمانية من قضية مسلمي الأندلس، وحقيقة الدعم الذي قدمه العثمانيون للحيلولة دون سقوط غرناطة، كما سنتطرق للدور الذي لعبه سلاطين الدولة العثمانية في سبيل دعم الموريسكيين في الأندلس في ثورة البشيرات سنة 1568م، كما سنتطرق لأسباب تلك الثورة وأحداثها، وأسباب فشلها، وكيف تعامل العثمانيون مع تلك الثورة، وما هي الأسباب التي حالت دون دعمهم المباشر والقوي لتلك الثورة.

ومن خلال النصوص التي توفرت لدينا سنتطرق للدور الذي لعبه العثمانيون بعد فشل الثورة وتهجير السلطات الإسبانية للموريسكيين، وكيف عمل العثمانيون على توفير الحماية للموريسكيين أثناء هجرتهم إلى الولايات التي كانت تحت الحكم العثماني، وذلك بإصدار الأوامر إلى الولايات العثمانية المختلفة لتوفير أماكن إقامة ومنح أراضٍ للأندلسيين. وكذلك بالتدخل لدى حليفاتها بأوروبا للعمل على مساعدة الموريسكيين بتسهيل عبورهم، وعدم التعرض لهم ولأرزاقهم وأموالهم.

الكلمات المفتاحية: الموريسكيون، العثمانيون، غرناطة، الأندلس.

Abstract:

This paper attempts to highlight the position of the Ottoman Empire on the issue of the Muslims of Andalusia, and the reality of the support provided by the Ottomans to prevent the fall of Granada, We will also discuss the role played by the sultans of the Ottoman Empire in order to support the Moriscos in Andalusia in the Basharat Revolution in 1568 AD, as well as the causes and events of that revolution, the reasons for its failure, how the Ottomans dealt with that revolution, and what are the reasons that prevented their direct and strong support for that revolution.

Through the texts available to us, we will discuss the role played by the Ottomans after the failure of the revolution and the displacement of the Moriscos by the Spanish authorities, and how the Ottomans worked to provide protection for the Moriscos during their migration to the states that were under Ottoman rule, By issuing orders to the various Ottoman states to provide accommodations and land grants for Andalusians. As well as by interfering with its allies in Europe to work to help the Moriscos by facilitating their crossing, and not to disturb them, their livelihoods, and their money.

KeyWords: Moriscos, Ottomans, Granada , Andalus.

مقدمة:

تعتبر الصفحة الموريسكية صفحة إنسانية بالغة المأساوية في التاريخ العربي، وفي التاريخ الإنساني على السواء، شعب فُرض عليه الاقتلاع من أرض أقام عليها تسعة قرون، وفُرض على من بقي منه اعتناق دين آخر، وهذا مخالف للاتفاق الذي وقَّعه فرديناند الثاني وإيزابيلا الأولى مع أبي عبدالله الصغير، آخر ملوك غرناطة المسلمين عقب سقوطها.

ويمكن اعتبار ما تعرّض له الموريسكيون على يد السلطة الإسبانية من تهجير، أوّل تطهير عرقي في التاريخ الحديث لا يضاهيه فظاعة إلا ما تعرض له الفلسطينيون على يد اليهود من تهجير عن أراضيهم.

وعلى الرغم من أن أبا عبد الله الصغير وافق على تسليم غرناطة بشرط احترام دين ولغة وتراث المسلمين، فرأت الحكومة الإسبانية أن تسيّر الأمور في بادئ الأمر وفق شروط التسليم؛ حفاظاً على الهدوء والسكينة في المدينة ريثما تستقر الأمور. إلا أن الأمر لم يستمر سوى سبعة أعوام، ثم بدأ البطش والتنكيل، ونكث اليهود، وخلف الوعود، ونقض العهود. فمُنِع الأذان من المساجد، وأُخرج المسلمون من غرناطة إلى ما حولها من القرى والنواحي. حاول أهل غرناطة التأقلم مع الوضع الجديد، بعد أن سيطر الإسبان على أراضيهم وممتلكاتهم، وفرضت عليهم الضرائب والرسوم، ومُنِعوا من أداء شعائر دينهم، مع محاولات مستمرة لإقناعهم بالتخلي عن عقيدتهم وعروبهم. فلما تبين للإسبان إصرار المسلمين على التمسك بدينهم ولغتهم جنحوا إلى سياسة العنف والمطاردة، الأمر الذي ألجأ المسلمين إلى الثورات طوال القرن السادس عشر، وكان من أهمها ثورة البشرات سنة 1568م.

في هذه الورقة البحثية سنتطرق إلى مقاومة الموريسكيين للإسبان من خلال ثورة البشرات. فما هي أسباب تلك الثورة، وكيف كانت أحداثها؟ وفيما تمثل الدعم العثماني للموريسكيين في هذه الثورة؟.

أولاً: أسباب ثورة البشرات 1568م:

ثورة البشرات، والبشرات بالإسبانية البوخاراس؛ هي جبال بنواحي غرناطة يطلق عليها اسم جبال البشرات، وهي جبال شاهقة وممتدة سلسلتها إلى البحر الأبيض المتوسط وبها أدغال وأودية، لذلك اختارها الموريسكيون معقلاً لثورتهم. (قشتيليو، 1999، صفحة 40). وكلمة الموريسكيين "Moriscos" كلمة إسبانية وهي تصغير لكلمة (المور) التي تعني المسلم أي صغار المسلمين. وهي وصف قذح للمسلم المشكوك في نصرانيته. كما تشير إلى (النصارى الجدد) تمييزاً لهم عن (النصارى القدماء). وتحيل عموماً على الأقلية المسلمة التي بقيت في الأندلس بعد سقوط غرناطة. فتوار غرناطة إذن هم أحفاد المسلمين الذين بقوا على أرض غرناطة بعد سقوطها، والذين كان الملك فرديناند وإيزابيلا، قد تعهدا عند استسلام المدينة لهما بأن يحافظا على أرواحهم ومعتقداتهم وأملأهم فيها (الصباغ، 1975، صفحة 117). إلا أنّ سياسة فرديناند كانت مثال الغدر في جميع ما اتخذه نحو معاملة المسلمين عقب تسليم غرناطة، وما تلاه من حوادث تنصيرهم قسراً، ثم اضطهادهم ومطاردتهم بأقصى الوسائل، وأشدها إيلاماً لمشاعرهم وأرواحهم، ولم تدم سياسة الاعتدال التي مارسها خلفاء فرديناند من بعده سوى بضعة أعوام، حيث صدر مرسوم سنة 1524م يفرض تنصير كل مسلم بقي على دينه، وإخراج كل من أبي النصرانية من إسبانيا، وأن يعاقب كل مسلم أبي التنصير، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس. وعلى الرغم من المبالغ التي كان يدفعها الموريسكيون للسلطات المسيحية لكي تسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، إلا أن ذلك لم يشفع لهم خصوصاً مع فشل السلطات المسيحية في تنصير الموريسكيين مما أثار أثاراً أحقادهم، ودفعهم إلى اتخاذ إجراءات أكثر قمعية. وانتهت فترة التسامح النسبي بوصول فيليبي الثاني إلى العرش عام 1555م، وبتصاعد السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط. ففي سنة 1567 أصدر فيليبي الثاني مرسوماً تضمن اتخاذ إجراءات قمعية استمرت وقتاً طويلاً، يحظر على الموريسكيين في غرناطة استخدام اللغة العربية -حديثاً أو كتابة- ويحظر عليهم ارتداء ملابسهم التقليدية، كما يحظر على النساء تغطية جزء من الوجه، ولا يستخدمن الحناء في نقش الأيدي أو الأقدام أو في صبغ الشعر، ويحظر عزف الموسيقى الموريسكية في حفلات عقد القران والزفاف. أيضاً حرّم عليهم استعمال أسماء وألقاب عربية، وصدرت الأوامر بأن يترك الموريسكيون أبواب دورهم مفتوحة، إضافة إلى منعهم من تملك العبيد السود بدعوى أن ذلك يسهم في تزايد أعداد الموريسكيين ثم خطر تعليم أولئك العبيد العقيدة المحمدية

سريا. كل هذه الأشياء كانت الداعية إلى إثارة هذه الحرب. وتعتبر حرب البشّرات أهم ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة. كانت هذه الحرب في سنة 1568م وتزعّمها أحد الموريسكيين المنتصرين ظاهريا، يدعى فرناندو دي فالوا وسي فيما بعد محمد بن أمية. (قشتيليو، 1999، صفحة 41) (عنان، 1997، صفحة 351، 360).

ثانياً: أحداث الثورة:

كانت فكرة مشروع الثورة من وضع صباغ يدعى فرج بن فرج من عائلة ابن السراج النبيلة –أشراف وفرسان غرناطة أيام مجد الدولة الإسلامية- وتذكر المصادر النصرانية أنه كان جريئاً فيفيض حماسة وبغضا للنصارى، وتملؤه الرغبة في الانتقام منهم، وكان وثيق الصلة بمواطني البشّرات كثير التردد عليهم، وقد قام بعقد عدة مفاوضات مع شخصيات موريسكية في غرناطة وقد ولّاه الزعماء قيادتهم. وقبل أن ينفذوا مخططهم بعثوا بثلاثة من الموريسكيين للطواف بالبلاد بحجة القيام بجمع تبرعات لتشيد مستشفى لفائدة المرضى المسيحيين الفقراء، وهكذا جال المفوضون في القرى والمدن واتفقوا مع زعماء المنفيين لتشكيل الجيش، واطلعوا بشكل دقيق على استعداد السكان وعلى السلاح الذي يملكونه وخبروا الأماكن الشاطئية حيث يسهل إنزال المساعدات التي ينتظرون استلامها من مسلمي إفريقيا ومن العثمانيين. وعاد المفوضون بعدما أنهوا مهمتهم بالدقة والسرية التامة (إي غفيرا، 2010، صفحة 103) (جمال الدين، 1991، صفحة 82). ولا بد أن الثوار كانوا على علم بانشغال إسبانيا بإخماد ثورة الأراضى المنخفضة، وأنها قد جندت العديد من سكانها لهذا الغرض. وكانت السواحل شبه مقفرة بسبب الحرب من جهة وبسبب الخوف من الغارات الإسلامية البحرية. أما الدولة العثمانية فكانت هي الأخرى منصرفاً إلى حملتها ضد الروس، ناهيك عن ثورة اليمن وتهديد البرتغاليين لسواحل العالم الإسلامي، أما فرنسا الدولة الحليفة للعثمانيين فكانت تخوض حربها الأهلية الدينية الثالثة. فثورة مسلمي غرناطة انفجرت إذن في عالم من العلاقات المتوترة (الصباغ، 1975، صفحة 147).

قبل ليلة عيد الميلاد المسيحي بيوم من سنة 1568م، وبعد الاجتماع في قرية بيثنار أو بيت النار بوادي لكرين، بايع الثوار إيرناندو دي كوردوبا إي بالور Hernando de Cordoba y Válor الذي عاد إلى اسمه المسلم – محمد بن أمية- ملكا عليهم. وبعد أن وضع نواة دولته باتخاذها آكام بوكيرا الوعرة مقراً له، وتعيينه لعمه قائداً عاماً لجيشه، وابن فرج كبيراً لوزرائه، بعث ابن أمية رسله إلى جميع الأندلس يدعو المسلمين المنتصرين إلى خلع طاعة النصارى، والعودة إلى دين الإسلام، وفي اليوم نفسه ثارت بلدات عديدة من طاباس دي أورخيبا Tabas de Orgiva وبوكيرا Poqueira وخوبيليس Juviles، وفي الأيام الموالية انضم إليها بقية موريسكي جبال البشّرات (أورتيت و فانسون، 2013، صفحة 47) (الصباغ، 1975، صفحة 150)

بدأت الحرب في 24 ديسمبر 1568م، في جبل البشّرات بغرناطة جنوب ستيرانيفادا، ونشبت الثورة في معظم أنحاء ألمرية، وهكذا عمّت الثورة الموريسكية معظم أنحاء الأندلس. وكان يحكم غرناطة "الماركيز دي موندنجر"، وقد بدأ استعداداته لقمع الثورة الموريسكية معظم أنحاء الأندلس. لكنه لم يستطع أن يقدر حجمها الحقيقي. خرج حاكم غرناطة بقواته وسار إلى أعماق البشّرات وما كادت القوات الإسبانية تقترب من الثوار حتى انقضوا عليها، ونشبت معركة قاسية اضطر الموريسكيون بعدها إلى التراجع إلى سهول بطرنة" (جمال الدين، 1991، صفحة 95). واستمرت المعارك بين الطرفين، وبعدما رأى ملك إسبانيا فيليب الثاني أن الثورة الموريسكية قد استفحل خطرهما، وأن القادة المحليين قد عجزوا عن قمعها، بعث أخاه خوان دي أوستريا لمحاربة الموريسكيين، يصحبه جيش قوي، وما كاد الإسبان يقربون منهم حتى انقضوا عليهم، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة، انهزم فيها جيش الموريسكيين الذي كان قوامه خمسة آلاف رجل تحت قيادة

رجل تركي يدعى حسين وهو ما يبين مكانة الأتراك في قيادة الجيش، ارتد الموريسكيون على إثرها إلى سهول بطرنة، واستمرت الحرب عامين، وخصص التاج الإسباني لها أموالاً طائلة وأفضل قواده العسكريين، ورغم صمود الموريسكيين وتكبيدهم لخسائر كبيرة للإسبان إلا أن الثورة انهارت وخبث، وكانت النتيجة الرئيسية لتلك الثورة هي ترحيل الموريسكيين من غرناطة وتوطينهم في أراضي مملكة قشتالة. (دي إيبالنا، 2005، صفحة 97) (عنان، 1997، صفحة 367) (قشتيليو، 1999، صفحة 51)

ثانياً: الدعم العثماني لثورة البُشُرَات Alpujarras:

1- موقف العثمانيين من المشكلة الموريسكية قبل ثورة البشورات:

كان من المتوقع انتهاء حكم مسلمي الأندلس قبل سنة 1492م بمئات الأعوام لولا المساعدات الخارجية التي كانت تأتيهم من الدول الإسلامية في شمالي إفريقيا، فقد قامت دولة "المرابطين" بنجدتهم ضد "ألفونسو" السادس ملك قشتالة، ثم جاءت مساعدات دولة "الموحدين" بعد ذلك، وبقيت أسرة الموحيدين في الأندلس حتى انتصار ألفونسو الثامن عليها في معركة حصن العقاب "لاس نافاس دي طولوسا" سنة 1212م/609هـ، ولكن الوضع تغير في أواخر عمر دولة بني الأحمر في غرناطة، فلم تكن هناك دول إسلامية قوية في شمالي إفريقيا، بل دول ضعيفة، وفي أحيان كثيرة دول متعاونة مع الإسبان والفرنسيين، مثل دولة بني حفص في تونس، والمرينيين في المغرب. كما قام الإسبان بسد مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة من مسلمي شمالي إفريقيا إلى الأندلس، فلم يبق أمام مسلمي الأندلس سوى الاستنجاد بأقوى دولتين إسلاميتين آنذاك، وهما الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، ودولة المماليك في مصر، فأرسلوا وفدًا لكل منهما طلبًا لنجدتهم.

كان سلاطين الدولة العثمانية يتلقون من الموريسكيين صرخ الغوث من أن لآخر، وكانت المنافسة بين العثمانيين وإسبانيا يومئذ على أشدها في مياه البحر المتوسط (عنان، 1997، صفحة 382). وكان أول اتصال بين الأندلس والدولة العثمانية عام 1477م، بعد أن فتح محمد الثاني القسطنطينية عام 1453م، وانتشار أخبار قوة الدولة الإسلامية الفتية، فأرسل سكان غرناطة وفداً إلى اسطنبول لمقابلة محمد الفاتح ليبينوا له ما آلت إليه الأوضاع في بلادهم ويناشدونه العمل على إنقاذهم مما أصابهم من اضطهاد، لكن السلطان محمد الفاتح لم يقدم شيئاً لهم، نتيجة انشغاله في الحروب داخل أوروبا، هذه الأخيرة أعلنت حلفاً صليبياً يضم البابا، جمهورية البندقية، وحكام نابولي، المجر، وترانسلفانيا، وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وزعماء الألمان، ولم تضع الحرب أوزارها بين الدولة العثمانية وهذا التحالف إلا عام 1479م (حتاملة، 2000، صفحة 974). وبعدها وصلت عدة رسائل استغاثة من الأندلس لسلاطين الدولة العثمانية. حيث يذكر المؤرخون أن سكان غرناطة بعثوا إلى بايزيد الثاني سنة 1486م، رسالة يستنجدون فيها بالسلطان العثماني لوقف حصار مدينة مالقة التي كانت محاصرة في تلك الأثناء من قبل ملكي قشتالة وأرغون فرديناند وإيرابيللا، وكانت الرسالة سبباً في وقف الفتنة الحاصلة بين السلطان العثماني وصاحب مصر، فتهادنا ووضعنا خطة تعاون لمساعدة الأندلس (بريان، 1924، صفحة 267). ومن جهة أخرى أرسل السلطان العثماني سفارة إلى البابا يطلب منه التدخل لدى ملكي قشتالة وأرغون لإيقاف الحصار المفروض على مدينة مالقة، وإلا فإن السلطان سيتبع سياسة مماثلة تجاه رعاياه النصراني المقيمين في بلاده. وقد اهتم البابا بهذا الأمر وبذل جهوداً لدى ملكي قشتالة وأرغون ونصحهما بضرورة تلبية مطالب السلطان العثماني برفع الحصار عن المدينة، إلا أن وساطة البابا لم تنجح (حتاملة، 2000، صفحة 975). وإزاء هذه الأحداث أرسل السلطان بايزيد سنة 1490م، قطعاً من الأسطول العثماني لتقوم بمهاجمة الشواطئ الإسبانية، وذلك لإجبار القشتاليين على رفع الحصار المفروض من قبلهم على أراضي المسلمين

في مملكة غرناطة، والتوقف عن سياسة القمع التي يمارسونها ضد المسلمين، وقد أعطى رئاسة قيادته إلى كمال رابيس الذي أصبح بعدئذ يجسم الرعب الذي كانت تشعر به الأساطيل المسيحية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. (التميمي، 1989، صفحة 11) (حاتمة، 2000، صفحة 976).

ويعود التقارب العثماني الموريسكي إلى بداية القرن السادس عشر حيث أصبحت استنبول وجهة للموريسكيين، وأخذت الأقلية الموريسكية في الازدياد وأصبح بإمكانهم أن يلعبوا دورا رئيسيا لإحاطة رجال الدولة العثمانيين بالوضع المؤلم والحقائق المذهلة لكل ما يتعلق بالموريسكيين، ذلك أن هؤلاء كانوا متيقنين من إعانة السماء والأترك لهم. كما ذكر قنصل البندقية أن عددا كبيرا من اللاجئين الموريسكيين يمتنون الترجمة أو الاستخبارات لفائدة الإمبراطورية العثمانية. (التميمي، 1989، صفحة 12).

ومختلف المعلومات التي كانت تصل إلى مركز الخلافة العثمانية عن الموريسكيين ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس عشر، تؤكد بصورة لا مجال للشك فيها أن رجال الدولة العثمانيين كانوا يراقبون ويتابعون عن كثب معطيات المشكل الموريسكي، وقد ذكر أحد التجار الألمان المقيمين باستنبول حوالي سنة 1560م أن الشائعات كانت تروج بمركز الخلافة العثمانية حول وجود 80 ألف موريسكي قد التجأوا إلى فاس وأنهم اعتنقوا البروتستانتية لغرض الانتقام من محاكم داووين التفتيش الإسبانية، وقد أعلن بعضهم أنهم سوف يلحقون الضرر بالمسيحيين مثل ما فعل هؤلاء بالموريسكيين بإسبانيا.

اقتربت مشكلة الموريسكيين طوال القرن السادس عشر بالمشكلة التي أثرت بسبب قرصنة الشمال الإفريقي، كما اقتربت أيضا بمشكلة تحرش مسلمي غرب البحر المتوسط ببلدان جنوب شرق شبه الجزيرة، وما أثار ذلك من مخاوف، واقتربت أيضا بمشكلة المواجهة مع الإسلام الخارجي، الذي نادرا ما كان يراه الإسبان المعاصرون في معزل عن الداخلي، والذي كانت له علاقة بالصدام أو مواجهة مع الإمبراطورية العثمانية. (غارثيا أرنال، 2006، صفحة 116)،

وانطلاقا من سنة 1519م عندما ربطت صارت الجزائر إيالة عثمانية، يمكننا تحسس على خلفية الأحداث، خلفية الموقف العثماني من القضية الموريسكية، فحسب المؤرخ هايدو فإن عددا من الموريسكيين ساهموا إلى جانب عروج في المعارك ضد الإسبان سنة 1516م، وقد تضاعف عددهم بشكل بارز أثناء إدارة خير الدين لإيالة الجزائر، ويتضح أن خير الدين كان يدرك جيدا الملف الموريسكي، ويرجع الفضل في ذلك إلى هؤلاء اللاجئين الموريسكيين الذين أحاطوا بخير الدين وأخلصوا له تماما (التميمي، 1989، صفحة 15). النجاح الذي حققه خير الدين أكسبه سمعة وهيبة لدى الجزائريين والموريسكيين، خصوصا عندما استرجع قلعة البنيون من الإسبان سنة 1529م استجاب لاستغاثات الموريسكيين، مرسلا إليهم في نفس السنة 36 باخرة استطاعت أن تنقذ منهم سبعة ألفا (خليفة، 2017، صفحة 101). فسارع السلطان سليمان القانوني بإرسال فرمان إلى خير الدين يستدعيه فيه إلى استنبول للتشاور، وعلى ضوء تلك المقابلة التي تمت، أدرك السلطان جيدا وضعية الموريسكيين ووجوب تقوية الوجود العثماني في غرب البحر المتوسط، وهذا وفقا للاستراتيجية العسكرية التي يسعى خير الدين إلى تحقيقها وتنفيذها (التميمي، 1989، صفحة 16).

2- مساعدة العثمانيين لمسلمي الأندلس خلال ثورة البشرات:

بعث محمد بن أمية أخاه عبد الله إلى القسطنطينية بطلب العون من سلطانها، وأرسل في نفس الوقت إلى أمير الجزائر وإلى سلطان مراکش الشريف يطلب الإنقاذ والغوث، وكان أول من لبى النداء المجاهدين من إفريقية، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة، أن تجوز إلى الشواطئ الإسبانية، ومنهم فرقة من الترك المتطوعين، وأن تهرع إلى نصره المنكوبين (عنان، 1997، صفحة 368)، وكانت الجزائر هي الدولة الإسلامية الوحيدة التي مدّت يدها بالإعانة الفعلية

للتأثرين في الأندلس من رجال وأسلحة وعتاد، لأنها كانت جزءاً من الدولة العثمانية، وتنفيذاً لهذا البرنامج عقد قلع علي اتفاقاً سرياً في مطلع سنة 1569م مع المسلمين المعتصمين بجبال البشترات، تم الاتفاق بمقتضاه أن يقوموا بثورة عارمة، في الوقت الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الإسباني. (رضوان، 1988، صفحة 398)

جمع قلع علي باشا بمدينة الجزائر، جيشاً عظيماً قوامه 14000 رجلاً من رماة البنادق، مع ستين ألفاً من المجاهدين الجزائريين من مختلف جهات البلاد، وأرسل بهم إلى مدينتي مستغانم ومازغران، استعداداً للغارة على وهران، ثم النزول في بلاد الأندلس، وأرسل مع الرجال المذكورين عدداً كبيراً من المدافع، و 1400 بعير محملة بالبارود. وفي يوم الأربعاء المصادف ليوم عيد القديسين كانت أربعون سفينة من الأسطول الجزائري، تقف أمام مرسى ألمرية الإسباني لشد أزر الثورة ساعة اندلاعها. (المدني، دت، الصفحات 392-393) ويذكر التميمي أن شائعات راجت بأن شخصية هامة من الباب العالي قد وصلت إلى الجزائر من أجل جمع المؤونة والذخيرة وتمويل الأسطول العثماني الذي سيقدم المساعدة لموريسكي غرناطة، وعلى ضوء تدخل السلطان العثماني سارع قلع علي إلى إحضار ست سفن كانت قد رست قرب ألمرية محملة بالذخيرة والأسلحة والمدد على أن 32 سفينة أخرى كانت تقل جنوداً قد تشتتت بسبب عاصفة هوجاء، في نفس اللحظة التي كانت ستقدم للثوار مساعدة هامة، لكن الثورة كانت قد فشلت بسبب سوء تصرف أحد رجالها، إذ انكشف أمره لدى الإسبان فألقوا القبض عليه وأخذوا ما كان يخفيه من السلاح. ومع ذلك حاول قلع علي إنزال الجند العثماني والأسلحة في المكان المتفق عليه، إلا أن القوات الإسبانية صدته ومنعته من ذلك. استمر قلع علي في إمداد مسلمي الأندلس الذين استمروا بثورتهم حتى عام 1570م على الرغم من الفشل الذي لحق بها، وتمكن قلع علي من إنزال آلاف المجاهدين من رماة البنادق مع كمية من العتاد وبعض قادة العثمانيين للعمل في مركز قيادة جهاد مسلمي الأندلس، وفي شهر أكتوبر نجحت الجزائر في تقديم 400 بندقية وعدداً من الذخائر، فضلاً عن مئات من الإنكشاريين القدماء ليكونوا أعواناً وقواداً للموريسكيين. وفي أوائل سنة 1570 تمت إرساله أخرى بالمدد والجنود. (التميمي، 1989، الصفحات 19-20).

وذكرت السلطات الإسبانية أنه بعد مرور عامين تقريباً عن بداية الثورة - في شهر مارس من سنة 1570- الجبال مازالت تحتوي على 25000 من الثوار، منهم 4000 تركي أو مغربي، ولديهم مؤن غذائية كافية، والقمح يرسل إليهم من الجزائر، ووعد بيلرباي الجزائر بإرسال المزيد من السفن الشراعية التموينية، وكانت أنباء التدخل التركي المحتمل والقريب تدعم الثوار وتقوي معنوياتهم، وتضاعف من شدة مراسهم وعنادهم. وهو ما يبين الإصرار الكبير للعثمانيين على دعم تلك الثورة. (الصباغ، 1975، صفحة 158). وقد ناقشت القسطنطينية إمكانية إنزال عثماني في البحر الأبيض المتوسط، ووصل هذا الخبر إلى مدريد، ويرى "براوديل" أن ثورة الموريسكيين سببت عدم توازن لصالح الشرق في صراع السيطرة على البحر الأبيض المتوسط بين الإسبان والأتراك، وقد ظهرت الأصداء العاجلة لذلك عام 1570م، وتمثلت في استيلاء حاكم الجزائر على تونس، وفي الهجوم على جزيرة قبرص (جمال الدين، 1991، صفحة 126).

ثم صدرت الأوامر مرة أخرى إلى قلع علي في 13 شوال 977 هـ/31 مارس 1570م بإرسال المساعدات إلى الأندلس، "... عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وإن تعاونوا أهل الإسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وإن الغفلة عن الكفار تصيب الدمار وهي غير جائزة...". عزم قلع علي على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك، لكن

صدرت الأوامر إليه بالاستعداد للمشاركة في معركة حاسمة ضد التحالف الأوربي الذي بدأ استعداداته لمحاربة الدولة العثمانية، وقد خسر الأسطول العثماني أمام التحالف الأوربي في ليبانتو سنة 979 هـ/ 1571م، إلا أن قلع علي تمكن من إنقاذ حوالي 40 سفينة من الأسطول العثماني، وحصل إثر ذلك على لقب قيودان باشا قائداً للأسطول العثماني. أما ثورة مسلمي الأندلس فقد تمكنت إسبانيا من القضاء عليها نهائياً وبشكل مؤلم بعد أن أوكل أمرها إلى دون جوان النمساوي الإبن غير الشرعي للإمبراطور شارل الخامس الذي ارتكب أبشع الفظائع ضد مسلمي الأندلس ولم يسلم منه النساء والأطفال والشيوخ وأنتهى الأمر بإذعان كافة مسلمي الأندلس ومقتل قادة الثورة. (رضوان، 1988، صفحة 400)

3- مساعدة العثمانيين لمسلمي الأندلس بعد ثورة البشترات:

بعد فشل الثورة لم يبق العثمانيون مكتوفي الأيدي، فكان لا بد من حماية الأهالي من بطش الإسبان، حيث تذكر المصادر أنه في سنة 1570م، حملت سفن عثمانية جميع الموريسكيين في بالميرا، وفي سنة 1584م، سار أسطول من الجزائر إلى بلنسية وحمل 2300 موريسكي، وفي العام التالي حملت السفن كل سكان كالوسا، (جمال الدين، 1991، صفحة 169). بعد ثورة البشترات تم توطين موريسكيي غرناطة في إقليم كاستيا لا مانشا في مملكة فالنسيا سنة 1571م، وعندما قررت السلطات الإسبانية طرد الموريسكيين تم ترحيل أول دفعة منهم سنة 1609م، إلى وهران وكانت يومئذ بيد الإسبان، ومن وهران نقلوا إلى تلمسان وكان عددهم 116 ألف حسب بعض الروايات. وقد عاد بعض من رحل إلى إسبانيا ليروي لإخوانه كيف تمت الرحلة في أمان، وقد كان هناك من المهجرين من هو مسرور بترحيله، فقد سئل أحد الفقهاء عن غبطتهم فقال: إنهم كثيراً ما سعوا إلى شراتء قارب أو الاستيلاء عليه للفرار إلى المغرب، فكيف تعرض لنا فرصة السفر الأمين مجاناً، ولا ننتهزها للعودة إلى أرض الأجداد حيث نستظل بحماية سلطاننا سلطان الترك، وهناك نعيش أحراراً مسلمين لا عبيداً كما كنا. (دي إيبالنا، 2005، الصفحات 258-259) (جمال الدين، 1991، صفحة 218، 219).

أمام هذا الوضع قام العثمانيون بجهد كبير وتضامن لم تقم به دولة إسلامية أخرى أثناء الأزمة الموريسكية، من حيث المال والجهد. وقد أنقذ العثمانيون مئات الآلاف من الأندلسيين الفارين بأنفسهم من نير القتل والعنصرية والإبادة والطرده، وسمحوا لهم ليس بالسكن والتوطين في بلاد المغرب فحسب، بل وفي مصر والأناضول وإسطنبول، ونشر المؤرخ عبد الجليل التميمي رسالة بعث بها السلطان العثماني أحمد الأول (1603 – 1617) إلى دوق البندقية والتي عثر عليها بأرشيف الدولة بالبندقية اعتبرها كدليل قاطع على التدخل السياسي للدولة العثمانية لدى حليفاتها بأوروبا للعمل على مساعدة الموريسكيين الذين كانوا يفضلون الطريق البري عن طريق البندقية للتحويل إلى الولايات العثمانية القريبة، وقد اختار الموريسكيون طريق الشمال، لأن الهرب إلى البلاد الإسلامية كان يمثل جريمة تعاقبهم عليها السلطات الإسبانية، وكان بإمكانهم الإبحار من فرنسا إلى الشمال الإفريقي. كذلك ناشد السلطان دوق البندقية تقديم كل إعانة لهؤلاء الموريسكيين كما طلب إليه أن لا "يتدخل في أمورهم أو يتعرض لهم ولأرزاقهم وأموالهم ودواهم خلافا للعهد والأمان بيننا، وهذا أثناء مرورهم بالمنازل والمراحل والمعابر ليصلوها آمنين سالمين". وقد ربط السلطان أحمد الأول حسن استعداد دوق البندقية لتقديم المساعدة لهؤلاء الموريسكيين كسبب لتحكيم بنيان المصالحة وتمديد المعاهدة بينهما، وهذه نقطة جوهرية تعكس مدى الاهتمام البالغ الذي أظهرته الدولة العثمانية لقضية الموريسكيين مع حكومة البندقية. كما صدرت أوامر إلى الولايات العثمانية المختلفة لتوفير أماكن إقامة ومنح أراضٍ للأندلسيين. كما توضح الوثائق التي أشار إليها التميمي وجود مشروع سياسي بعيد النظر لتوطين الموريسكيين في عدة أماكن تابعة الدولة العثمانية، كتونس وآدنة

وفي طرابلس بشمال لبنان.(التميمي، 1989، صفحة 39، 44) (دي إيبالنا، 2005، صفحة 337) (جمال الدين، 1991، صفحة 211).

كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن خروج الأندلسيين من بلادهم، لم يكن يعني توقفهم عن الجهاد؛ بل استمروا في جهادهم من مواقعهم الجديدة في بلاد المغرب، مثل وهران والجزائر وبجاية ومن هناك وجّهوا غاراتهم البحرية على السفن والسواحل الإسبانية، وقد ذكر المقري أنه في عام 1017هـ/ 1608م، خرجت ألوف بفاس، وألوف بتلمسان وجمهورهم خرج بتونس، وعمروا القرى الخالية، وكذلك تطوان وسلا ومتيجة الجزائر، واستخدم سلطان المغرب منهم عسكرياً جراراً، وأصبحت سلا بمرفئها الذي تحميه الخلجان مركزاً لأولئك المجاهدين. وكانت تخرج منها أقوى الحملات وتغير على الشواطئ الإسبانية، وكانوا يعودون من غاراتهم هذه حاملين معهم الأسرى الإسبان، كما كانوا يستولون على بعض السفن. (المقري، 1968، صفحة 528) ولم تجد السلطات الإسبانية حيلة للتخلص من تلك الغارات البحرية التي مثل الموريسكيون العنصر البارز في توجيهها وتنظيمها على امتداد القرن السادس عشر. وبلغت الغارات البحرية على الشواطئ الإسبانية بين سنتي 1528م، 1584م ثلاثاً وثلاثين غارة، عدا الغارات التي قامت بها سفن صغيرة حملت المهاجرين، وهناك زعماء من بين المنفيين الموريسكيين، كانوا من أشد أعداء إسبانيا في البحر، من بينهم بلانيكو والريس أحمد أبو علي، ومراد الكبير جواد يانو. وقد وصف رجل يدعى "ترفانتس" تلك الغارات البحرية وكان من بين ضحاياها حيث أسر سنة 1575م وحمل إلى الجزائر وظل بها حتى تم فداؤه سنة 1580م. وفي سنة 1602م وقعت غارة على مدينة لورقة، قرب قرطاجنة حيث قام مغامر اسمه مراد الريس، بحملة بحرية وحمل عدداً من الأسرى، وكثرت الغارات في الأعوام التالية على الشاطئ الجنوبي، وكانت ثغور تونس أيضاً أيام حاكمها عثمان داي 1598-1610م ملاذاً لطائفة من البحارة المغامرين، وكانت غاراتهم تتوالى على الشواطئ الإسبانية بلا انقطاع (جمال الدين، 1991، الصفحات 169-170)

الخاتمة

من خلال هذا البحث الذي يتناول موقف الدولة العثمانية من قضية الأندلس ومحنة المسلمين هناك يتبين أن الدولة العثمانية بذلت جهوداً كبيرة من أجل القيام بواجبها إزاء المسلمين هناك، وعلى الرغم من أنها لم تتحرك منذ حلول الكارثة بالمسلمين، إلا أن هناك ظروفاً كثيرة أحاطت بالدولة العثمانية وحالت دون نجدة مسلمي الأندلس رغم المناشدات العديدة التي بعثوها إلى الدولة العثمانية، ومنذ عهد السلطان محمد الفاتح، الذي كان منشغلاً بفتح القسطنطينية وبلاد البلقان، فضلاً عن أن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك قوة بحرية كافية لكي تصل إلى غرب البحر المتوسط، وأولى المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية كانت في عهد السلطان بايزيد الثاني الذي حاول إرسال بعض المساعدات المتمثلة بالسفن والسلاح إلى قادة البحر الذين كانوا يقاومون الإسبان هناك أمثال كمال ريس وعروج وخير الدين بربروسا أما العمليات الفعلية والجدادة التي قامت بها الدولة العثمانية لمهاجمة الإسبان في الأندلس ذاتها فبدأت بعد عام 1544م وانتهت عام 1587م بوفاة قلع علي.

يمكن القول أنه على الرغم من جدية محاولات الدولة العثمانية وجهودها المبذولة فإنها فشلت لعدم قدرة الدولة العثمانية على توحيد الجبهة الإسلامية والوصول إلى النقطة الأقرب للأندلس وهي المغرب ويعود ذلك إلى عدم قدرة العثمانيين والسعديين الحاكمين في المغرب على مد جسور الثقة المتبادلة بينهما، لذا فإنه كلما كانت الدولة العثمانية تتوصل إلى اتفاق للعمل المشترك كانت الدولة السعدية تشكل وتلقي بنفسها إلى الإسبان فتوقف المشروع العثماني. ثم

إن الوجود الإسباني على سواحل المغرب العربي وفي بعض مدنه كان عائقاً أمام هذه المشاريع إذ لم تكن ظهور العثمانيين مؤمنة عندما كانوا ينوون التقدم باتجاه الأندلس ومن الطبيعي أن تفشل محاولاتهم، فضلاً عن أن حروب الدولة العثمانية كانت على جهات متعددة وقد قلل ذلك من إمكانية تحقيق هدفها وهو عودة الحكم الإسلامي إلى الأندلس.

قائمة المراجع:

- 1) أحمد بن محمد المقري. (1968). نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب (المجلد 4). (إحسان عباس، المحرر) بيروت، لبنان: دار صادر.
- 2) أحمد توفيق المدني. (د.ت). حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 - 1792. قسنطينة، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 3) أنطونيو دومينغيث أورتيث، و بيرنارد فانسون. (2013). تاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية. (محمد بنياية، المترجمون) أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.
- 4) حاجي خليفة. (2017). تحفة الكبار في أسفار البحار. (محمد حرب، و تسنيم حرب، المترجمون) دار البشير للثقافة والعلوم.
- 5) خوسي مونيوث إي غفيريا. (2010). تاريخ ثورة الموريسكيين وطردهم من إسبانيا وعواقبه على سائر أقاليم المملكة. (عبد العزيز السعود، المترجمون) طنجة، المملكة المغربية: مطبعة ليتوغراف.
- 6) عبد الجليل التميمي. (1989). الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين. زغوان: مطبعة بابريس.
- 7) عبد الله محمد جمال الدين. (1991). المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون. القاهرة، مصر: دار الصحوة للنشر والتوزيع.
- 8) الفيكونت دو شاتو بريان. (1924). آخر بني سراج. (شكيب أرسلان، المترجمون) مصر، مصر: مطبعة المنار.
- 9) ليلى الصباغ. (1975). ثورة مسلمي غرناطة والدولة العثمانية. مجلة الأصدالة الجزائرية (27).
- 10) محمد عبد الله عنان. (1997). دولة الإسلام في الأندلس (المجلد 4). القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
- 11) محمد عبده حتملة. (2000). الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة. عمان، الأردن: مطابع الدستور التجارية.
- 12) محمد قشتيليو. (1999). محنة الموريسكوس في إسبانيا. تطوان، المملكة المغربية: مطابع الشويخ.
- 13) مرثيدس غارثيا أرينال. (2006). شتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلسيون). (محمود فكري عبد السميع، المترجمون) القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- 14) ميكيل دي إيبالشا. (2005). الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى. (جمال عبد الحمن، المترجمون) القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- 15) نبيل عبد العي رضوان. (1988). جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث. مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية: مكتبة الطالب الجامعي.

التأثير الأندلسي على اللباس الحضري بالجزائر خلال العهد العثماني

Andalusian influence on urban cloth in Algeria during the Ottoman period

د.رمزي فرشيحي، مخبر البناء الحضري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر 2. ramziturk@gmail.com

د. أمينة عبيد، جامعة الجزائر 2. abidamina09@gmail.com

ملخص الدراسة:

تهدف هذه المداخلة إلى إبراز الدور الذي لعبه الأندلسيون والموريسكيون في إثراء اللباس الحضري للمدن الجزائرية خلال العهد العثماني. وقد إنطلق هذا الهدف من الإشكالية الأساسية التي تتمحور حول كيفية مساهمة الأندلسيون والموريسكيون في نقل التأثير الثقافي من بلاد الأندلس إلى شمال إفريقيا (بلاد المغرب)، خاصة التأثيرات الحضرية التي تتعلق باللباس الحضري الرجالي والنسوي.

تعتمد هذه الدراسة على نماذج من اللباس الحضري تكون مختارة من قطع أثرية تابعة لمجموعة متحفية ومن لوحات فنية، بالإضافة إلى الاعتماد على المصادر المكتوبة. حيث نتطرق إلى عرض وصفي للقطع المدروسة وأنواعها، ثم نخرج إلى الدراسة التحليلية للزخارف الفنية المطرزة عليها لتبيان مختلف التأثيرات الفنية التي عرفتها. لنختتم البحث بمجموعة من النتائج أهمها تواصل الأثر الأندلسي في فن التطريز الفني على اللباس الرجالي والنسوي خاصة في المناسبات والأعراس، وهو ما جعل هذا اللباس يأخذ أبعاد تراثية.

الكلمات المفتاحية: التأثيرات الأندلسية، الملابس، لباس البدن، لباس الرأس، الجزائر، العهد العثماني

Abstract:

This intervention aims to highlight the role played by the Andalusians and Moriscos in enriching the urban cloth of Algerian cities during the Ottoman period. This goal stemmed from the main problem centered on how the Andalusians and Moriscos contributed to the transfer of cultural influence from Al Andalus to North Africa (the Maghreb), especially the urban influences related to men's and women's urban clothing.

This study relies on models of urban cloth that are selected from artifacts belonging to a museum collection and paintings, in addition to relying on written sources. Where we look at a descriptive presentation of the studied pieces and their types, then we go to the analytical study of the artistic motifs embroidered on them to show the various artistic influences that has known. Then we conclude the research with a set of results, the most important of which is the continuation of the Andalusian influence in the art of artistic embroidery on men's and women's cloth, especially on occasions and weddings, which made this cloth to take a traditional dimensions.

Keywords: Andalusian influences ; Clothing ; Body clothing ; head clothing ; Algeria ; Ottoman period

مقدمة:

بدأت التأثيرات الأندلسية تعرف طريقها إلى الضفة المغربية منذ قيام دولة بني أمية في الأندلس، ثم تواصلت قوة هذه التأثيرات بعد التقارب المغربي الأندلسي في عصر المرابطين ثم الموحدين، لتصل إلى أوجها مع قيام الدول المستقلة والوارثة للموحدين واستقبالها جاليات أندلسية في حواضرها، ومن بين هذه الدول نذكر دولة بني زيان. وقد تمثلت بعض التأثيرات التي عرفها بلاد المغرب ومنها الجزائر، في عادات وصناعات خاصة باللباس والفنون والعمارة. وقد ترك أفراد المجتمع الأندلسي في الجزائر طابعهم الخاص قبل الوجود العثماني، سرعان ما اندمج تدريجياً في المجتمع الجزائري خلال القرنين السادس عشر والثامن عشر. هذا ما يجعلنا نتساءل هل تمكن الأندلسيون القادمون إلى الجزائر من الحفاظ على نفس التأثير الثقافي الخاص بالملبس والذي كان قائماً قبل الوجود العثماني؟ كيف ساهم الأندلسيون الموريسكيين بإدخال فنونهم وصناعاتهم على اللباس الحضري الجزائري خلال العهد العثماني؟ وهل طغت التأثيرات المشرقية العثمانية على التأثيرات الأندلسية في اللباس؟

إن هذا الموضوع قد اكتسب أهمية بالغة حيث يعطينا فكرة حول مدى التأثير الأندلسي على اللباس الحضري بالجزائر، ومدى مقاومته للتأثيرات العثمانية التي فُرضت من قِبَل السلطة المركزية التركية بسبب الأحداث والوقائع التاريخية التي شهدتها الجزائر. ويهدف هذا البحث إلى إبراز المساهمة الأندلسية في التأثير على اللباس الجزائري ومدى إستمرارية هذا التيار الثقافي خلال العهد العثماني.

أولاً: الحضور الأندلسي بالجزائر وأثره في صناعة الملابس

عرفت الجزائر على غرار بلدان المغرب هجرات فردية للأندلسيين النازحين والقادمين إليها خلال القرنين 9-14م، خاصة في ظل حكم السلالات المغربية. لكن سرعان ما تحوّلت لتصبح هجرات جماعية هروبا من بطش الإسبان عقب سقوط المدن الأندلسية، خاصة بعد زوال الحكم الإسلامي في مملكة غرناطة عام 1492م، وبعد قرار الطرد النهائي عام 1609م. ساهمت هذه الهجرات في تحوّل ديمغرافي كبير في التركيبة السكانية للجزائر، حيث قام هؤلاء الأندلسيين بإنعاش بعض المدن الساحلية مثل شرشال والجزائر وبجاية ومستغانم ووهران، كما ساهموا في إنشاء مدن جديدة كالبليدة والقلبية، واستوطنوا مدينة تلمسان عاصمة ملوك بني زيان التي كانت تضاهي غرناطة آنذاك، كما نقلوا أشياء جديدة من العادات والصناعات والثقافات التي أعطت الصبغة الأندلسية على المدن الجزائرية. (عبّاد، 2011، ص 19)

كانت التركيبة السكانية للمدن الجزائرية تتكون من طبقات إجتماعية مختلفة، منها طبقة الحضر التي كانت تتكون من أهالي البلاد الجزائرية قبل الوجود العثماني، ومن أهالي الأندلس الذي إستوطنوا المدن الساحلية والداخلية. وقد ساهمت هذه الطبقة في تطوير الفنون والصناعات بعد إندماج الأندلسيين بعاداتهم وتقاليدهم في المجتمع الجزائري، والذين كانوا بارعين في مختلف الصناعات والحرف. كما تميّز الأندلسيون برقّة الدّوق في الملبس، والتفنّن في التخطيط والبناء، حيث إشتهروا بصناعة القرميد والزليج والزخرفة على الجص. (طيان، 2008، ص 20، 21)

كانت مدينة الجزائر تحتوي على حرف متنوّعة إتّسمت بالتنظيم والإتقان، حيث وصل عدد الحرف والصناعات إلى تسعة وتسعين حرفاً، منها حرفة النّجارة، والجدادة، والخياطة، وتربية دودة الحرير، والنّساجة (الحياكة). وكثرت دكاكين الحرّارين الذين يصنعون عدّة أنواع من المنسوجات، كما إنتشرت الدكاكين في الشوارع كلّ حسب الحرفة الخاصة به،

كزنقة الرصاصية، وزنقة البشماقجية، وزنقة الذوادة الخاصة بصناعة الخيوط الذهبية، وزنقة الصاغة، وزنقة الصباغين والدباغين. (طيان، 2008، ص32، 33)

تطورت صناعة النسيج في الجزائر على أيدي الأندلسيين الذين توارثوا الأساليب الفنية لصنع الزرابي والأقمشة والشاشية والمخمل (القطيفة)، فمن مراكز صناعة الأقمشة القطنية والكتانية نذكر مدن ندرومة ومازونة ومستغانم والبليدة والجزائر، فقد اشتهرت أقمشة ندرومة بجمال ألوانها ودقة نسيجها، كما اشتهرت البليدة بصناعة المناديل التي كانت تصدر إلى مدينة الجزائر. أما صناعة المخمل والحريز فقد عرفت ازدهارا كبيرا في مدن الجزائر وشرشال وبرشك، حيث استعملت في بداية العهد العثماني خيوط الحريز المصنوعة محليا والمستخرجة من شرانق دودة القز التي كانت تربي في حقول ساحل شرشال وتنس. أما الأنسجة الصوفية التي كانت تعتمد على الإنتاج المحلي من الصوف فكان يصنع منها الأغشية والجلاليب والأحزمة في كل من قسنطينة وتلمسان ومعسكر التي كانت مشهورة بهذا النوع من المنسوجات، بينما كانت البرانس تصنع في أغلب جهات البلاد، (سعيدوني والمهدي، 1984، ص68، 69) خاصة البرنوس الزغداني المتميز باللون الأسود والمصنوع في تلمسان. (الزهار، 1974، ص36) كما ترتبط صناعة النسيج بحرفة أخرى متمثلة في صباغة الملابس التي اشتهرت بها كل من البليدة ودلس وبوسعادة، حيث كان يتم صباغة الملابس والبرانس الصوفية في أربعة مصانع متخصصة لذلك. (سعيدوني والمهدي، 1984، ص68، 69)

ثانياً: أنواع الألبسة الحضرية بالجزائر

لقد انصب إهتمام الأوروبيين الذين زاروا الجزائر، ومنهم الأسرى والقناصل والرحالة، على تدوين الأحداث والوقائع التاريخية للجزائر خلال الفترة العثمانية، كما لم يخف عليهم وصف طبائع وصفات أهل البلد من عادات وتقاليدهم في الأفراح والمناسبات، (شالر، 1982، ص71) وصنوف المأكول والملبس. (De Haëdo, 1871, p94, 127)

ولباس الجزائريين جميل جدا. (عمورة، 2009، ص240) حيث يتحدث وليام شالر القنصل الأمريكي الذي عاش بمدينة الجزائر عن لباس الجزائريين: "يتكون من عدة قطع، يرتدون قمصان بأكمام أو بدون أكمام، مفتوحة على مستوى الصدر، تكون مزينة بأزهار وزخارف، ثم سراويل فضفاضة حتى ربله الساق، ويلفون حزاما عدة مرات حول الخصر، بإمكانه أن يخفي في طياته حافظة النقود أو يعلق عليه مسدسا أو خنجرا، ثم تعالي الرأس عمامة". (شالر، 1982، ص83) ويلبس ذوو الإعتبار من الرجال بدعيتين أو ثلاث بدعيات مفتوحة عند الرقبة تزركشها الأزرار وخيط الطرف، وسروالا مطرزا عريضا وفضفاضا في طول العجل يُتخذُ إما من الموسلين أو النسيج القطني الأبيض، يضاف إلى هذا إما شاش أو شاشية حمراء. وتلتئم خياطة السراويل بواسطة تطريز حريزي واسع يلصق به الرجل مسدسه وسيفه وخنجره، وعند نهايته يخبئ حاملة نقوده من الحريز والساعة من صنع البندقية والعائدات الشخصية الأخرى. وقد كان هذا اللباس المتميز كافيا لكي يحظى بمكانة لدى الرحالة حيث أضحى يعرف بالطراز الجزائري. (سبنسر، 2006، ص103)

1- الألبسة الرجالية:

أ- البُرُنُس أو البُرُنُوس:

ويعرف أيضا بالجلابة، وهو اسم عربي مشتق من "جلباب"، (دوزي، 2012، ص110) يقول وليام سبنسر "إن اللباس التقليدي لرجل الشمال الإفريقي هو ثوب فضفاض عريض متصلبة جوانبه بأكمام وقلنسوة، أحيانا يدعى جلابة في

المغرب الأقصى ويدعى جبة في تونس وبرنوس في الجزائر". (سبنسر، 2006، ص103) ويلبس الرجال هذا النوع من اللباس فوق جميع ثيابهم، وهو البرنس الأبيض، أما أفراد الطبقة الأكثر ثراءً فيرتدون البرانس الصوفية السوداء أو الزرقاء، وكانت تجلب من تلمسان إلى مدينة الجزائر، وهي في كثير من الأحيان بديعة النسيج ومحكمة الصنع. (دوزي، 2012، ص71)

ظهرت الجلابة لأول مرة في كتب الرحالة سنة 1727هـ، وعندما ذكرها "Shaw" في كتابه فقال "كانت لباسا يلبس خاصة في الشتاء، وربما كانت من أصل مغربي أتى بها مهاجرو الأندلس". (Shaw, S.D, p114) وأما عن أصل الجلابة فإن الدكتور "Shaw" يشبهها بالقميص الذي يرتديه الرومان، وهو عبارة عن لباس مخيط، (Shaw, S.D, p115) وهذا لا يمكن أن يكون لأن اسم "الجلابة" أصلها عربي أتى من كلمة جلباب من جهة، وهو يتناقض في كلامه حيث كان قد أرجع أصل الجلابة إلى المغرب العربي ونحن أكد هذا لأن هذا اللباس لم يعرف في منطقة المشرق. كان شكل الجلابة ومظهرها العام، عبارة عن جبة واسعة تنتهي بغطاء الرأس، ذات أكمام مشقوقة تحت الإبط بطريقة مستعرضة ويصل طولها ما بين المقبض والمرفق، وتسمح هذه الفتحة لمرتدي الجلابة بأن يخرج يديه من خلالهما، تاركا الأكمام مرخاة على كتفيه، مما يسهل عليه أداء أعماله بكل راحة، دون الاضطرار إلى نزعها. وتصنع الجلابة في معظم الأحيان من قماش غليظ مخطط، تتراوح ألوانه ما بين الأسود و الرّدي. (Pichault, 1975, p4) (الصورة رقم 1)

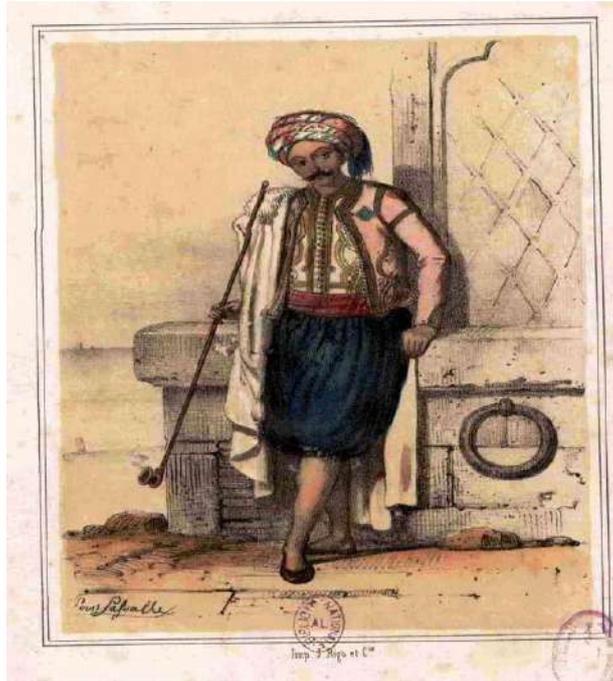
الصورة رقم 1 : رجل يرتدي جلابة (Marçais, S.D, p14)



ب- الصدرية :

وهي قمصلة لا أكمام لها، بدون تقوية أمامية ولا فتحة خلفية، وإنما تملك ثلاث فتحات، الفتحة الأولى لإمرار الرأس والفتحتان المتبقيتان لإدخال الذراعين. (دوزي، 2012، ص222) (الصورة رقم 2)

الصورة رقم 2: لباس الرجل الجزائري في العهد العثماني (المكتبة الوطنية الجزائرية)



ت- الغليلة :

هو تصغير لكلمة غلالة، وهي حسب دوزي، تعود أصولها إلى مصر ثم عرفت في بلاد الأندلس في بلاط الملوك، ومنها انتقلت إلى الجزائر عبر المهاجرين الأندلسيين. (دوزي، 2012، ص 285) وهي عبارة عن ثوب وسترة طويلة، يلبسها كلا من الرجل والمرأة على حد سواء، ولم تكن تقتصر على طائفة معينة من سكان الجزائر، وإنما عرفها الأتراك والأندلسيين وحتى المسيحيين واليهود. (طيان، 1991، ص 104) ويقول هايدو "يلبسن فوق القميص الثاني عند اشتداد البرد، ثوبا من الجوخ أو من القطن شبيه بثوب أزواجهن، وهن يسمين هذا الثوب غليلة (Goleyla)". (De Haëdo, 1871, p127) وقد كانت الغليلة الرجالية التي تعود للقرن السابع عشر أطول من مثيلتها الخاصة بالنساء. (Marçais, S.D, p70) أدخلت الغلالة إلى الجزائر عن طريق الأندلسيين، وكانت تصنع من القماش الرقيق المستورد من مدينة بلنسية، كما تصنع من مشتقات الحرير كالساتان و القطيفة و الدمشقي، وتتخذ ألوانا متنوعة وزاهية، يصل طول الغليلة إلى ربة الساق و تكون مفتوحة من الأمام، تتميز بعنق مجوف وواسع وتغلق بواسطة أزرار كبيرة ذهبية وفضية جميلة وجيدة الصنع، وتثبت في الوسط بحزام حريري أو ذهبي، شاع ارتداؤها في القرنين 11هـ-12هـ/17م-18م، ولم تقتصر على فئة معينة، حيث لبستها المرأة الجزائرية الحضرية والأندلسية والتركية واليهودية والمسيحية. (بن مصباح، 2018، ص 275، (276) (الصورة رقم 3)

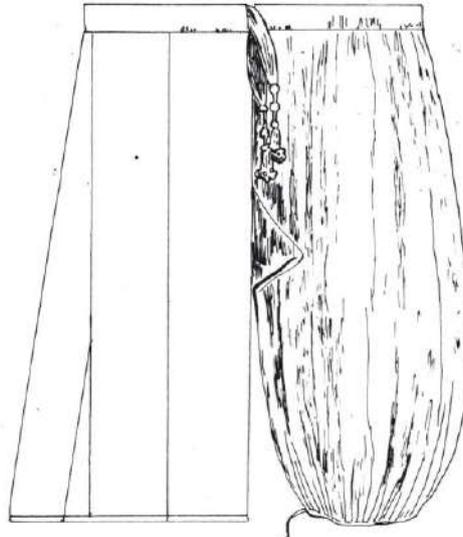
الصورة رقم 3: غليظة من الدبياج مطرزة بخيوط ذهبية، مدينة الجزائر، القرن 13هـ-19م (بن مصباح، 2018، ص276)



ث- السروال:

هي كلمة معربة من أصل فارسي، كان السروال شائع الإستعمال في الأندلس، (دوزي، 2012، ص186) وقد لبسه الرجل والمرأة معا حيث كان يصل إلى الركبتين. وقد شاع لبس السروال في العديد من المدن الجزائرية التي شهدت هجرات أندلسية كالجزائر وشرشال وتلمسان، حيث عرف أهالي الجزائر استعمال السروال في البيت وفي الخارج، فقد لبست المرأة سروالا قصيرا داخل البيت و عرف بسروال الدار، وإذا خرجت زادت فوقه سروالا ثانيا يكون أوسع وأطول من الأول مصنوع من الكتان شديد البياض والانتساع وهو يدلى حتى يصل إلى مواضع القدمين، وهو من لباس نساء الأندلسيات إذا خرجن ويعرف بسروال الزنقة. (بن مصباح، 2018، ص278، 280) (الصورة رقم 4)

الصورة رقم 4: سروال عريض من الحرير (طيان، 1991، ص252)



2- الألبسة النسوية :

كانت ملابس المرأة الأندلسية عبارة عن مزيج حضاري أندلسي مع تقاليد شامية وبغدادية وكن يتميزن بالأناقة و الجمال و في هذا الصدد يخبرنا ابن الخطيب عند تحدّثه عن نساء غرناطة : وقد بلغن من التفنن من الزينة لهذا العهد و المظاهرة بالمصبغات و التنفيس بالذهبيات و الديداجيات و التماجن في أشكال الحلي .

أ- البنيقة :

اشتقت كلمة البنيقة من فعل بنق بمعنى إيصال قطعة الثوب او في القميص لتوسيعه ومازال هذا اللفظ مستعملا في مدينة الجزائر و في شمال المغرب الأقصى كمدينة تطوان ، وتحمل البنيقة من نفس الوظيفة في هذه البلدان ، إذ يتعلق الأمر بالقلنسوة مربعة أو دائرية بذيلين تضعها المرأة على رأسها لجمع شعرها و تغطيته (بن مصباح، 2018، ص267) عرفت المرأة الجزائرية البنيقة مع قدوم الأندلسيين و هي من الملابس الرأس و انتشرت في كل البلدان المغربية ، تصنع البنيقة عادة من الكتان او القطن و تتشكل أساسا من شريط طويل يتراوح طوله ما بين 1.80 م و 2.50 م وعرضه ما بين 0.15 م و 0.23 م . مازال المراءة تستعمله الى يومنا الحالي في اغلب المدن الجزائرية .كقسنطينة و تلمسان و عنابة ، لكن بتسميات مختلفة ، ففي تلمسان تعرف بالقردون و في قسنطينة بالملوي (بن مصباح، 2018، ص269) (الصورة رقم 5)

الصورة رقم 5: بنيقة من الكتان مطرزة بخيوط حريرية ، مدينة الجزائر (بن مصباح. 2018، ص269)



ب- الدرّة :

تسمى كذلك دراعة أو المدرعة كانت شائعة ببغداد في الفترة العباسية لدى الطبقة الفقيرة ثم انتقلت إلى الأندلس لتصل إلى الجزائر ، كانت الدرّة في الأندلس عبارة عن قميص طويل يصل الى الركبتين يصنع من القطن أو من الحرير ، تلبسها المرأة و الرجل ، و اختص رجال القضاء بغرناطة بلبس الدرّة ذات الألوان الزاهية كالأحمر والأزرق. وقد لبس الرجل والمرأة الدرّة في الجزائر وقد كانت درة الرجل على شكل قميص شديد البياض كبير وعريض يصنع من قماش رقيق، بينما درة المرأة فتغطى كليا بالتطريز وتزين بالأحجار الكريمة، وهي على عدة ألوان جانب منها يكون أصفر والجانب الآخر يكون أزرق أو احمر وهي الموضحة المتبعة في ذلك الوقت. (بن مصباح، 2018، ص272)

كانت المرأة الأندلسية في مدينة الجزائر تهوى لباس الدرّة الملونة واتبعتها في ذلك المرأة الحضرية والمرأة اليهودية، إلا أن أكمام درة المرأة اليهودية طويلة وأكمام المرأة المسلمة قصيرة، وقد استمر لبس الدرّة إلى غاية القرن 13هـ/19م غير أنها لم تعد تعرف بهذا الاسم وإنما باسم جبة استمر لبسها بعد احتلال الفرنسي للجزائر في المدن الجزائرية وكثير استعمالها في قسنطينة وأصبحت تعرف باسم قندورة بينما تطورت هذه الجبة في تلمسان إلى بلوزة. بالرغم أنها تلقت تأثيرات أندلسية غير أنها خضعت لتقاليد محلية من حيث تفصيلها وتزيينها. (طيان، 1991، ص103) (الصورة رقم 6)

الصورة رقم 6 : امرأة من مدينة قسنطينة ترتدي جبة (بن مصباح، 2018، ص274)



ثالثاً: التأثيرات الأندلسية على اللباس الحضري

نجح الأندلسيون في فرض أذواقهم على غالبية سكان المدن الجزائرية كالبليدة والقليلة وشرشال حيث كان جهاز المرأة يتألف من عدة ملابس نذكر منها: القمجة والطوق والمحرمة والبنيقة وغيرها، ومن بين الملابس التي أصبح لها شهرة في جميع أنحاء الجزائر القندورة والغليلة، التي كانت تطرز بالشبيكة الفضية والذهبية، وهي عادة ما تشد بأحزمة حريرية مطرزة ومرصعة بقطع ذهبية حيث يزيد جمال المرأة. (أولاد سيدي الشيخ، 2019، ص 161)

يعود الفضل للأندلسيين في إدخال أنواع جديدة من الملابس في المجتمع الجزائري، ويجدر القول أن الكثير من هذه الملابس كانت متداولة في المشرق الإسلامي كمدينة دمشق وبغداد ثم إنتقلت إلى الأندلس ثم أدخلت إلى الجزائر عن طريق المهاجرين الأندلسيين. وقد تنوعت هذه الملابس من ملابس الرأس كالبنيقة المنتشرة في المدن الجزائرية، إلى جانب ملابس البدن كالغليلة والدرّة والفوطة والسروال، وملابس الخروج خاصة طريقة لبس الحايك وتغطية الوجه بالعجار، ثم إنتقلت أنواع من هذه الملابس من المدن الكبرى إلى الريف كالبنيقة والفوطة. (بن مصباح، 2018، ص 462)

الخاتمة :

كان تأثير الأندلسيين قويا على الجزائر في مختلف المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، حيث ساهموا في نقل علومهم وطرق تدريسها إضافة إلى نقل فنونهم الزخرفية والحرفية التي أضافت جمالا ورونقا للمباني والصناعات، كما أثرت هذه الفئة في الحياة الاجتماعية لسكان الجزائر حيث كانوا يملكون نمط عيش راقى وأناقة في اللباس والأكل. فقد أدخلوا صناعات وحرف أندلسية لم تكن معروفة بالجزائر، منها تربية دودة الحرير، وساهموا في تطوير الصناعة النسيجية الكتانية والحريرية حيث ظهرت صناعة المخمل التي اشتهرت في المدن التي تمركزت فيها جالية أندلسية مكثفة، كما تميّزوا بذوق فني رفيع في الملابس حيث أدخلوا معهم لباس الغليلة والدرّة اللتان كانا يلبسهما كل من الرجال والنساء، بالإضافة إلى لبس السروال الذي كان يتفنن في الأندلسيون في لبسه سواء داخل البيت أو خارجه. كما ورثوا التطريز بالخيوط الذهبية والفضية عن أجدادهم وطوّروها في العهد العثماني حتى تواصل استعمالها إلى ما بعد الإستقلال، وهي تقنية تستعمل في تطريز الألبسة النسائية التقليدية بالرغم من إدخال التحديث في الصناعة.

يبقى موضوع التأثيرات الأندلسية على الجزائر في مختلف ميادين موضوع واسع ومتشعب لا تزال زواياه مظلمة رغم جهود الباحثين، فقد ساهم الإستعمار الفرنسي في طمس العديد من الملامح الفنية التي عرفها العهد العثماني منها التأثيرات الأندلسية بمختلف ميادين الحياة، ليبقى على الباحثين التوسع والتعمق أكثر في الأرشيف التاريخي والأبحاث الأثرية والمتحفية للتعرف أكثر على هذا الموروث الثقافي.

قائمة المراجع :

1- المراجع باللغة العربية

- 1) أولاد سيدي الشيخ، عبد الرحمان. (2019). "دور المورسكيين في إثراء الجوانب الحضارية بالجزائر في العهد العثماني 1519-1830 (الملاحم والأبعاد)". دراسات في العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. المجلد 33. العدد

.01

- (2) بن مصباح، مليكة. (2018). التأثيرات الأندلسية على العمارة والفنون التطبيقية في الجزائر خلال الفترة العثمانية. أطروحة دكتوراه علوم في الآثار الإسلامية. معهد الآثار بجامعة الجزائر 2. الجزائر.
- (3) دوزي، رينهارت. (2012). المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب. ترجمة أكرم فاضل. الدار العربية للموسوعات. لبنان
- (4) الزهار، أحمد الشريف. (1974). مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار. تحقيق أحمد توفيق المدني. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.
- (5) سبنسر، وليام. (2006). الجزائر في عهد رياس البحر. ترجمة عبد القادر زبادية. دار القصة. الجزائر.
- (6) سعيدوني، ناصر الدين؛ المهدي، بوعبدلي. (1984). الجزائر في التاريخ. الجزء 4: العهد العثماني. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.
- (7) شالر، وليام. (1982). مذكرات وليام شالر. ترجمة إسماعيل العربي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.
- (8) طيان، شريفة. (2008). الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر.
- (9) طيان، شريفة. (1991). ملابس المرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني. رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية. معهد الآثار بجامعة الجزائر 2. الجزائر.
- (10) عبّاد، صالح. (2011). الجزائر خلال الحكم التركي. الطبعة 3. دار هومة. الجزائر.
- (11) عمورة، عمار. (2009). الجزائر بوابة التاريخ. الجزء 2. دار المعرفة. الجزائر.
- 2- المراجع باللغة الأجنبية :
- 12) De Haëdo, Fray Diego. (1871). Topographie et histoire générale d'Alger. Traduction par Monnereau et Berbrugger. Alger.
- 13) Marçais, George. (S.D). Le costume musulman d'Alger. Librairie plon. Paris.
- 14) Pichault, P. (1975). Le Costume traditionnel maghrébin. édité par Philibert M. Alger.
- 15) Shaw. (S.D). Voyage dans la régence d'Alger. Traduction J Mac Carthy. 2^{ème} édition.

المؤرخ عبد الجليل التميمي واهتماماته البحثية بالقضية الموريسكية

The Moriscos studies in the historical literature of Abdeljalil Temimi

ط.د. سعدون بخاخ/ جامعة تلمسان / الجزائر

Phd. Saadoun Bekhakh/University of Tlemcen/Algeria

ملخص الدراسة:

تسعى هذه الورقة البحثية الى الوقوف على نماذج من المؤلفات التاريخية المتعلقة بالموريسكيين الأندلسيين لأحد أبرز المؤرخين في الوطن العربي والإسلامي، وهو المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي الذي ترك بصمته في هذا المجال دون أي منازع، سواء على المستوى الشخصي أو على مستوى مؤسسته المعروفة بمؤسسة التميمي التي جعل منها منبرا للتواصل العلمي على المستوى الدولي، ومركزا لتوثيق كل ما يتعلق بالتراث الموريسكي، وهذا نظير مؤهلاته العلمية التي اكتسبها منذ بدايات تكوينه في عواصم علمية بارزة كبغداد وباريس واسطنبول وإتقانه للعديد من اللغات الأجنبية وخبرته في الاطلاع على الوثائق الأرشيفية، كل هذا جعل من مؤلفات أعمالا مرجعية لا غنى عنها للباحثين المهتمين بهذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية: الموريسكيون، الأندلس، التأريخ، الأرشيف، التميمي.

Abstract:14

This study highlight around some examples of historical literature related with Andalusians Moriscos, and the auther of these literature is the Tunisian historian Abd EL Jalil EL Temimi a famous historian in the Arab and Islamic world, from the important of his personal scientific output, or his research activities in his scientific institution, by holding international conferences. This historian has many scientific qualifications such as mastering a number of foreign languages that helped him study related to the Ottoman era and Moriscos studies, and at the same time this studies is comprehensive of everything related to the social and religious life to the Moriscos.

Keywords: Moriscos, Andulas, history, archive, Temimi.

مقدمة:

تعد القضية الموريسكية بأبعادها المختلفة أحد أبرز نتائج تحولات القرن الخامس عشر في ظل الصدام الحضاري بين الشرق الغرب، ولعل من أبرز مظاهر هذا الصدام خلال هذا القرن هو أفول شمس القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين عام 1453، والذي قابله أفول شمس المسلمين في الأندلس بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين عام 1492 إن عجلة هذا الصراع لم تتوقف بسقوط العاصمتين بل زادت وتيرتها بمرور السنين لاسيما في ظل توسع الطرفين شرقا وغربا، دون أن نغفل عن حضور الخلفية الدينية في هذا الصراع كأهم عوامل استمراره وامتداده، ولكي لا نتبعد عن موضوع القضية الموريسكية أكثر نأتي لذكر أن الموريسكيين كما هو معروف هم أولئك المسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد سقوطها إلى غاية طردهم النهائي عام 1609، وإنه لبقاء الضرر والاضطرار، وبقاء المآسي والمعاناة كأقلية مسلمة تحت حكم المسيحيين وأي حكم؟ حكم التعميد العمدي ومحاربة الإسلام، حكم التعذيب والحرق ومصادرة الأملاك، إنه حكم محاكم ودواوين التفتيش، وإن كانت هذه حال الباقين فليست حال المهاجرين بأفضل منها، وهذا حفاظا على النفس وحفظا للدين.

إن واقع الدراسات الأكاديمية حول الموريسكيين عرف آلاف الدراسات وبرزت فيه أسماء مئات المتخصصين على مستوى العالمين الغربي والإسلامي، أين عرضت الكثير من قضايا الموريسكيين في مخابر البحث وجلسات المؤتمرات، كمظاهر حياتهم اليومية وممارستهم لشعائهم الدينية وجرائم محاكم التفتيش في حقهم، وكذا هجراتهم

واسهاماتهم الحضارية في مراكز هجرتهم، زيادة على مواقف الدولة العثمانية تجاههم التي لا طالما علقوا عليها آمالهم لنصرتهم ونجدهم، وبما أننا تحدثنا عن واقع الدراسات الأكاديمية فإننا نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى الوقوف على بعض دراسات وأعمال أحد أبرز المتخصصين في هذا الحقل المعرفي، وهو المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي التي ترك بصمته فيه من خلال دراسات رصينة تستند على وثائق أرشيفية كثيرا ما كان له السبق في نشرها لأول مرة، بل إن جهوده وخبرته الطويلة ارتقت به إلى تأسيس مركز يهتم بالتاريخ الموريسكي جعل منه فضاء للتواصل العلمي مع مختلف الباحثين الأجانب، ولا يزال إلى اليوم بعد مرور 37 عاما من تأسيسه في الريادة نتيجة ما حققه من إنجازات عجزت عنها الكثير من الجامعات ومخابر البحث، وعليه فإننا نتساءل بدورنا: ما مدى مساهمة عبد الجليل التميمي في كتابة تاريخ الموريسكيين؟ وما هي قيمة أعماله في الساحة الأكاديمية العربية والدولية؟ هذا ما سنجيب عليه في العناصر التالية.

أولاً: عبد الجليل التميمي - مسيرة مؤرخ متميز -

هو عبد الجليل التميمي أصيل مدينة القيروان التونسية من مواليد 21 جويلية 1938، يعد من أبرز المتخصصين في التاريخ العثماني والموريسكي على المستوى العربي والدولي، درس بمسقط رأسه ثم التحق بالتعليم الثانوي الزيتوني بتونس العاصمة ليتحصّل على شهادة العالمية، ثم واصل دراسته الجامعية بالعراق ليحرز على الإجازة في التاريخ (البوكاري، 2022) وبشهادة التميمي نجده يقول عن نفسه أنه عرف قيمة العلم والعلماء وقيمة الكتاب في العراق هذه العاصمة الحضارية أين كان يتجول في شارع المثنى أو شارع الكتب ولا يزال يستحضر هذه الذكريات الجميلة، كما أنه تلقى تعليما آنذاك على يد أبرز العلماء في شاكلة عبد العزيز الدوري، أحمد صالح علي (العرضاوي، 2017).

ومن عاصمة الخلافة العباسية يشد التميمي الرحال إلى فرنسا التي حصل منها على شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث عام 1972 عندما اشتغل على موضوع مقاومة أحمد باي في الشرق الجزائري لمدة 10 سنوات كاملة، والحقيقة أن دراسته من أفضل ما كتب عن هذا الموضوع ولم تترجم بعد إلى اللغة العربية، وفي فرنسا كانت له فرصة الاحتكاك مع كبار المؤرخين الفرنسيين عاشوا في الجزائر وتونس قبل استقلالهما نذكر منهم بياربوي **Pierre Boyer**، تشافي ياكونو **Xavier Yacono**، شارل رويبر أجيرون **Charles Robert Ageron**، روبر مونترون **Robert Mantran** وغيرهم، وزيادة على هذه التجربة الفرنسية كانت له تجربة أخرى في تركيا حينما انتقل إلى استانبول، وهناك أيضا احتك بفضائل التاريخ العثماني مثل خليل إينالچك **Halil İnalçık**، خليل ساحلي أوغلو **Halil Sahili Oğlu**، وتمكن من إتقان اللغة التركية القديمة التي فتحت له آفاق البحث في التاريخ العثماني للأقطار العربية من خلال التنقيب والبحث في ثنايا أرشيف وزارة الخارجية التركية، وكذلك أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول، هذه التجربة المزدوجة بين فرنسا وتركيا مكنته من ممارسة مهنة التدريس بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بجامعة 9 أفريل في تونس حيث لم يجد صعوبات في التواصل مع الطلبة وإيصال المعلومات التاريخية إليهم، كما أنه عمل على ترغيبهم في تعلّم اللغات منها: التركية والانجليزية لإثراء تكوينهم المعرفي والمنهجي (الشارني، 2015).

إلى جانب التعليم في الجامعة تقلد التميمي عدة مسؤوليات في هيئات ومراكز مختلفة تندرج ضمن اختصاصه أو قريبة منه كاشتغاله في إدارة الأرشيف الوطني التونسي، وإدارة للمعهد الأعلى للتوثيق، كما أنه كان رئيسا للفرع الإقليمي العربي التابع للمجلس الدولي للأرشيف، ورئيسا للجنة العربية للدراسات العثمانية، زيادة على ترأسه للجمعية التونسية

للتاريخ والآثار، وترأسه للجنة العالمية للدراسات الموريسكية، كما أنه انتخب عضوا في الجمعية التاريخية الأكاديمية التركية واللجنة العالمية لمؤتمر الفن التركي، وغيرها من المؤسسات الثقافية، الأمر الذي يؤكد لنا مدى تفاعله مع مختلف الأوساط العلمية المحلية والدولية خدمة للعلم والمعرفة وتبادلا للخبرات (البوكاري، 2022)

حظي المؤرخ عبد الجليل التميمي بعدة تكريمات وأوسمة نذكر منها منحه الدكتوراه الفخرية من جامعة إستانبول عام 1997، وتحصله على جائزة من قبل الأمير كلوس الهولندي خلال نفس العام، كما أنه أول تونسي ينال ميدالية فرنسية Chevalier de l'ordre des arts et des lettres عام 1984 (الشارني، 2015).

هذا وقد ارتبط اسم الدكتور عبد الجليل التميمي بمركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات بمدينة زغوان، ومن أهداف هذا المركز أن يكون مركزا للمعلومات التاريخية وتوثيق الموضوعات الخاصة بالحقبة العثمانية والموريسكية-الأندلسية، وكل هذا من أجل ربط التعاون العلمي بين الباحثين العرب والأتراك والفرنسيين والاسبان والأمريكيين وكلّ المختصين الدوليين في هذا الحقل المعرفي (البوكاري، 2022)، لأنه من بين الحقائق التي وقف عليها عبد الجليل التميمي أن العالم الغربي لا يعرف كثيرا عن العالم العربي، ومعرفته تقتصر على القلة القليلة من الباحثين العرب المشاركين على المستوى الدولي، ولا سبيل الى تجاوز هذا الجهل الا من خلال النشر الأكاديمي على المستوى العالي والمشاركة في المؤتمرات الدولية، وبهذا يمكن نقل المعرفة العربية في مجال العلوم الإنسانية الى الآخرين، وهو الأمر الذي عمل عليه التميمي من خلال مؤسسته ومن خلال أشهر مجلتين كانتا تصدران عن نفس المركز وهما: المجلة التاريخية المغربية، والمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، حيث استقطبتا أقلام أجنبية لنشر مقالاتهم فيها وكذا نشر أعمال المؤتمرات التي تعقد على مستوى المؤسسة (قسم مجلة آفاق الثقافة والتراث، 1993، صفحة 16)، ولا بأس أن نشير هنا إلى أن مكتبة مؤسسته تعد من أغنى المكتبات على المستوى العربي والدولي، إذ يبلغ عدد كتبها الآن أكثر من 21 ألف كتاب (البوكاري، 2022)، ولنا أن نلاحظ كم هو جد حريص على اقتناء وتدعيم رصيد هذه المكتبة على مدى مساره، ففي عام 1993 عندما زار مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في الإمارة وأجرى حوار مع بعض المسؤولين هناك ذكر أن عدد الكتب التي في مكتبته هو 13 ألف كتاب (قسم مجلة آفاق الثقافة والتراث، 1993، صفحة 13).

هذا ولعبد الجليل التميمي اسهامات قيمة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر تحتاج منا الى ورقية بحثية أخرى لعرضها وتقييمها، كما له اهتمامات بتاريخ تونس المعاصر وتاريخ تونس المستقلة، حيث يعمل على جمع الروايات الشفوية للمعاصرين والصانعين للحدث، كما أن له مواقف وآراء مختلفة تتعلق بنظام الحكم في تونس وحكامها ومواقف أخرى من النخب التونسية، وأيضا له ومواقف رؤى حول التعليم العالي في تونس، كل هذا قد يطول بنا المقام في استعراضه، وبقي لنا في هذه الترجمة المختصرة أن نورد له بعض مؤلفاته بحكم أنها كثيرة جدا بين كتب ومقالات وترجمات الى اللغة العربية.

- بحوث ووثائق في التاريخ المغربي "الجزائر- تونس - ليبيا من 1816-1871" الطبعة الأولى 1972

- Le Beylik de Constantine de Hadj Ahmed Bey (1830-1837) Tunisie. 1978.

- وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، تونس 1980.

- موجز الدفاتر التركية والعربية بالجزائر، تونس 1983.
- الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، تونس 1989.
- دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي، تونس 1993.
- دراسات في التاريخ العربي العثماني 1453-1918، تونس 1994.
- دراسات في التاريخ العربي الإفريقي، تونس 1994.
- دراسات في العلاقات المسيحية الإسلامية، تونس، 1996.
- أما عن الدراسات التي قام بترجمتها وهي رسائل دكتوراه نذكر منها:
- أرجمنت كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827-1847، تونس 1974.
- عبد الرحمان تشايحي: المسألة التونسية والسياسة العثمانية 1881-1911، تونس 1974.
- لوي كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجاهدة الجدلوية 1492-1609 (وقد أرفق هذه الترجمة بترجمة مقال آخر لنفس المؤلف تحت عنوان: قضية الموريسكيين بأمريكا، تونس 1989).

ثانياً: عبد الجليل التميمي ودوافع الاهتمام بالتاريخ الموريسكي

إن المطلع والمتتبع لكتابات المؤرخ عبد الجليل التميمي حول الموريسكيين يدرك إيمانه الراسخ بتاريخهم وملفهم أو قضيتهم كما عبر عنها، هذه القضية التي تتجاوز في نظره ذلك الحيز الجغرافي المتمثل في شبه الجزيرة الأيبيرية وإنما هي قضية في بعدها العربي والإسلامي، كما يتضح لنا أن التميمي كلما بحث أو نشر دراسة في هذا الصدد يزداد إيمانه وتعلقه بتاريخ الموريسكيين، ولعل أبرز موقف لهذا المؤرخ يعكس صدق إيمانه هو مراسلته للملك الإسباني خوان كارلوس أواخر عام 1991 وكذا في ربيع عام 1992 مخاطباً إياه بأهمية وضرورة الاعتذار للموريسكيين عن ما لحقهم من مظالم وجرائم تحت أوامر محاكم التفتيش على امتداد القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، كما اعتذرت الكثير من الدول لدول أخرى كانت تحت احتلالها، غير أن خطابه هذا قابله صمت من أعلى الهيئات الرسمية الإسبانية، وعلى الطرف الآخر فقد اعترفت إسبانيا واعتذرت لليهود وقدمت لهم تعويضات مالية، إن هذا الرفض جعل التميمي يتحسر على هذا الصمت الرهيب من العالم العربي والإسلامي والتغافل عن مطالبة إسبانيا بوجوب الاعتذار الرسمي (التميمي، 2000، الصفحات 5-7).

هذا وقد ذكر التميمي في إحدى حواراته أنه بعد قراءته لكتاب لوي كاردياك الذي قام بترجمته وسنأتي على عرضه في العنصر الموالي أنه تأثر كثيراً لدرجة البكاء وتأثر كثيراً لمعاناة الموريسكيين، وهذا من الأسباب الرئيسية التي دفعته إلى ترجمته، بل إن اختيار مدينة زغوان لتكون مقراً لمؤسسته في دلالة تاريخية كون هذه الأخيرة كانت موطناً للأندلسيين بعد فرارهم وطردهم (العرضاوي، 2017) كما أنه يعتبر هذه القضية أمانة في أعناق العرب والمسلمين ينبغي تحملها وتأديتها بتظافر جهود المخلصين كل من موقعه ومنصبه (التميمي، 1989، صفحة 51).

على صعيد آخر يأتي اهتمامه بالتاريخ الموريسكي في ظل هيمنة الباحثين الأوروبيين على الدراسات الموريسكية وقد ذكر انطلاقاً من دراسة إحصائية قام بها أن 95% من الدراسات أنجزت في المخابر والمعاهد الأوروبية، في حين أن المنجز التاريخي العربي في هذا الحقل ضئيل جداً، والفارق الأكبر بين هاته الدراسات هو طبيعة الطرح وتوظيف الأرشيف

فكثيرا ما تفتقر الدراسات العربية الى وثائق أرشيفية، الأمر الذي أدى بها الى عدم الاتيان بالجديد (التميمي، 1989، صفحة 51)، كما انتقد التميمي مجال الترجمة في العالم العربي والاسلامي من حيث الكم كونها ضئيلة جدا ومن حيث طبيعتها، فالكثير من الترجمات تفتقر الى الدقة في ضبط العناوين والحفاظ على أصل وجوهر النص، بل وصل الحد أحيانا بأصحاب بعض الترجمات الى حذف كشافات الكتاب الأصلي (التميمي، 2000، صفحة 16)، ويذكر التميمي أنه أجرى اتصالات مع مسؤولين كبار من مختلف البلدان العربية قصد انشاء مركز للدراسات الموريسكية في اسبانيا غير أن مطلبه جوبه بالرفض بحجة أن الموضوع تاريخي لا فائدة منه وأنه يثير حساسية في ظل حسن العلاقات الراهنة مع اسبانيا، وقد اعتبر أن الثقافة هي الرجل المريض في الوطن العربي (العرضاوي، 2017) والأمر نفسه عندما أهدته الأستاذة لوث لوباث بارلت كتابها الجديد حوالي 800 صفحة باللغة الإسبانية، أين راسل عددا من المعاهد والمؤسسات والجامعات طالبا منهم ترجمة هذا الكتاب إلى العربية ولم يردّ عليه أحد، بما في ذلك جامعة الدول العربية، إلا أن باحثا سعودي طلب منه القدوم إلى الرياض لشرح الملف، فذهب وألقى محاضرة هناك بين فيها أهمية الكتاب فحظي طلبه بالموافقة وتم تحمل تكلفة الترجمة والطباعة، حيث نشر الكتاب في 1640 صفحة ويعد من أهم الكتب التي تحدثت عن القضية الموريسكية ومعاناة الموريسكيين (البوكاري، 2022)، وفي هذا المقام فإننا نشيد بالدور الريادي للمؤرخ عبد الجليل التميمي في سد هذه الثغرات سواء على المستوى الشخصي من خلال تأليفه القيمة والرصينة وترجماته الراقية وكذا على مستوى مؤسسته التي جعلها فضاء للتواصل مع المؤرخين المهتمين بالدراسات الموريسكية من خلال عقد المؤتمرات الدولية وطبع أعمالها باللغات الفرنسية والانجليزية والاسبانية، وبهذا فله الفضل في مواكبة الركب ورسم الطريق لهذا الحقل التاريخي.

ثالثا: عبد الجليل التميمي والدراسات الموريسكية - عرض نماذج -

1- الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون "المجاهمة الجدلوية 1492-1640"

أصل هذا الكتاب هو أطروحة دكتوراه لصاحبها الباحث الفرنسي من جامعة مونبيليه لوي كاردياك المهتم بالتاريخ الموريسكي حيث طبعت أول مرة في باريس عام 1977م عن منشورات " كلينسك "، كما طبعت بعدها بعامين باللغة الاسبانية عن دار النشر المكسيكية " فوندو دو كلتورا اكونوميكا " من قبل الباحثة " قارسيا أرنال " ليأتي دور المؤرخ عبد الجليل التميمي عام 1982 وينقلها الى اللغة العربية، أين لاقت هذه الترجمة استحسانا كبيرا من المؤلف نفسه الذي كانت له ثقة كبيرة في الباحث عبد الجليل التميمي، وقد أشار المترجم الى صعوبات الترجمة التي تتطلب من صاحبها جهدا مضاعفا لتجنب المساس بأفكار المؤلف وإيصالها للقارئ، والى جانب ترجمة هذا الكتاب ألحق عبد الجليل التميمي أيضا دراسة تتمثل في مقال لنفس المؤلف حول الموريسكيين في أمريكا خلال القرن السادس عشر.

جاء هذا الكتاب في حدود 198 صفحة بما ذلك قوائم الفهارس المختلفة وقائمة المراجع، وكذا المقدمة باللغة الفرنسية للترجمة العربية، وقد اشتمل الكتاب على ثلاثة فصول، كان الفصل الأول تحت عنوان المجادلة من خلال الحياة اليومية (70 صفحة)، أما الفصل الثاني فكان تحت عنوان الموريسكيون ودواوين محاكم التفتيش (31 صفحة)، في حين كان الفصل الثالث تحت عنوان الموريسكيون والبروتستان (22 صفحة)، بالإضافة الى الدراسة التي أضافها المترجم وهي للمؤلف نفسه حول الموريسكيين في أمريكا (22 صفحة).

يعد الفصل الأول من أطول الفصول في هذه الدراسة حيث ورد فيه مصاعب الحياة اليومية للموريسكيين في ظل الاحتكاك بالمسيحيين، فعلى الرغم من إخفاء الموريسكيين لعقيدتهم وكل ما يتعلق بها من شرائع، إلا أن مجرد شك الطرف الآخر في تصرفاتهم كان كفيلا باقتيادهم الى محاكم التفتيش واستجوابهم ومحاكمتهم، فلقد وجد الموريسكيون صعوبات في تأدية صلاتهم بطريقة سليمة، كما كانوا محل شك عند عدم تأديتهم لصلاة المسيحيين، ومثلما هو شأن الصلاة كان شأن الصيام حيث اضطر الموريسكيون الى اخفائه، وتزداد درجة الخطر عندما يستدعي أحد المسيحيين جاره الموريسكي لوجبة فطور ولا يستجيب لدعوته.

هذا ولم تقتصر هذه الصعوبات على المستوى الشخصي بل تعدته الى أبناء الموريسكيين حيث كان الخوف عليهم من اظهار عقيدتهم الإسلامية، لذا اضطر آباءهم الى تأخير تلقيهم تعاليم الدين الإسلامي الى غاية بلوغهم، دون أن يغفل عن ذلك الحقد الذي كان يكنه المتعصبون تجاه النبي محمد عليه الصلاة والسلام كلعنه أو شتمه، ومجرد ردة فعل أحد الموريسكيين تجاه هذه الأقوال لو بطريقة غير مباشرة كقبلة باقتياده الى التحقيق، كل هذا عزز من فقدان الثقة بين الطرفين لدرجة اتهام الموريسكيين بختف الأطفال المسيحيين ونقلهم خارج الجزيرة، وفي عام 1569 وقعت مجزرة في حق الموريسكيين راح ضحيتها 111 بحجة أن هؤلاء يعزمون على القيام بانتفاضة، وعلى الرغم من كل هذا فقد دافعوا عن عاداتهم وتقاليدهم ورفضوا التقاليد والعادات المسيحية وهو ما اطلق عليه في عنوان الدراسة بالمجاهبة (كاردياك، 1983، الصفحات 20-87).

جاء الفصل الثاني ليرصد لنا واقع الموريسكيين وجوانب من حياتهم اليومية التي غلبت عليها المآسي والمعاناة نظرا لما مارسه محاكم التفتيش من تضيق على الممارسات والشعائر الإسلامية، الأمر الذي اضطر المسلمين الى ممارسة التقية في أبسط العبادات، ورغم ممارستهم لشعائرهم في سرية إلا أن لم يسلموا من وشايات المخبرين الذين وضحهم المحاكم الاسبانية، وفي مقابل حرمانهم من حرية عقيدتهم فرض عليهم التعميد القسري واضطروا الى التظاهر باعتناق المسيحية من باب الاكراه ومن باب حفظ النفس، ومثلما تمت مصادرة عقيدتهم تمت مصادرة أراضيهم وممتلكاتهم وفرضت عليهم الضرائب، لتبلغ المعاناة أشدها عندما يساق الموريسكيون الى ساحات المدن الإسبانية ويتم تعذيبهم وإحراقهم في مشاهد تعكس روح التعصب (كاردياك، 1983، الصفحات 90-120).

وبخصوص الفصل الثالث فقد تمحور حول مدى التقارب بين الجماعتين الموريسكية والبروتستانتية في ظل وجود نظرة كاثوليكية تجاههما تضعهما في خانة المغضوب عليهم، وكلاهما انتقل الى الأراضي الفرنسية كأقليتين، وكلاهما أحرقت كتهما الدينية، بل إن الموريسكيين لجأوا سياسيا في بعض الأحيان الى البروتستانتين هروبا من بطش محاكم التفتيش (كاردياك، 1983، الصفحات 122-143).

أما بالنسبة للدراسة التي أضافها التميمي في آخر الترجمة فتتعلق بالموريسكيين في القارة الأمريكية خلال القرن السادس عشر، وتمحور بشكل رئيسي حول نقطتين أساسيين، أولاهما قضية منع الموريسكيين من الهجرة الى أمريكا وهو ما أكدته أوامر الملوك الاسبان وتوصيات رجال الدين، والغرض من هذا هو محاولة تمسيح سكان القارة بشكل كلي والمحافظة على نقاء الدم ونقاء العقيدة كما أطلقوا عليه، وعدم السماح للموريسكيين بنقل تعاليم الدين الإسلامي هناك، وهو المسعى الذي أراد المبشرون تحقيقه، بل إن الأمر لم يقتصر على الموريسكيين بل تعداه الى متابعة اليهود وكذا

أتباع مارتين لوثر ومصادرة كتبهم، أما القضية الثانية فتتمثل في مطاردة ومحاكمة الموريسكيين، وهنا طرحت قضية كيفية هجرتهم مقابل قرارات وأوامر منع الهجرة، كما طرحت قضية أعدادهم خلال هذه الفترة، ولتتبع الموريسكيين تم توظيف مخبرين لقبوا بالرجال المخلصين، وكثيرا ما امتثل من تم القبض عليه أو وجهت إليه أصابع الاتهام أمام محاكم التفتيش، كتلك التي كانت في المكسيك أو البيرو وقد تم تقديم نماذج عنها، هذا وتعد مخطوطات المحاكمات المحفوظة في أرشيف مدريد أهم مصدر لمعرفة وقائع هذه الفترة وما لقيه الموريسكيون من معاناة في حياتهم اليومية (كاردياك، 1983، الصفحات 145-166).

2- الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين

أصل هذا الكتاب هو عبارة عن جمع لخمس دراسات متفرقة سبق وأن نشرها المؤرخ عبد الجليل التميمي ما بين سنوات (1975-1989) في المجلة التاريخية المغربية، ونظرا لتكاملها مع بعضها البعض ارتأى أن يجمعها في سفر واحد، حيث أن أربع دراسات منها تتعلق بقضية الموريسكيين وموقف الدولة العثمانية تجاههم والدراسة الخامسة تتعلق بواقع ومستقبل الدراسات الموريسكية.

حملت الدراسة الأولى نفس عنوان الكتاب وفيها استعرض الكاتب الدور البارز للدولة العثمانية في مساعدة الموريسكيين قبل عملية الطرد الجماعي لهم، وهذا باعتبارها ممثلا شرعيا للخلافة الإسلامية، من خلال الاستجابة لنداءاتهم ومراسلاتهم أين ذكر مجهودات كل من السلطان بايزيد الثاني عام 1487 ومجهودات خير الدين بربروس خلال فترة حكم السلطان سليمان القانوني، وعطفا على الدراسة الأولى جاءت الدراسة الثانية متمثلة في نشر رسالة مخطوطة بعثها مسلمو غرناطة الى السلطان سليمان القانوني عام 1541 تحمل في ثناياها معاناتهم وما يمارس ضدهم من انتهاكات كما ورد في الرسالة ثناء مسلمي غرناطة على مساعي خير الدين بربروس ودوره في انقاذ المسلمين والاشادة به وبغيرته على الإسلام، وقد كانت الدراسة الثالثة هي الأخرى عبارة عن رسالة نشرها من اللغة العثمانية الى اللغة العربية والتعليق على مضمونها، وهي الرسالة التي أرسلها السلطان أحمد الأول (1601-1617) الى دوق البندقية تتضمن ضرورة مساعدة الموريسكيين للعبور الى أراضي الدولة العثمانية وهذا حفاظا على العلاقات بين الدولة العلية والبندقية وتمتين أواصرها حيث اقتضت الظروف التاريخية أن تتدخل الدولة العثمانية دبلوماسيا بحكم أن التدخل العسكري في هذه الفترة التي أعقبت الطرد الجماعي للموريسكيين كان شبه مستحيل ومرد هذا الى التراجع النسبي الذي مرت به الدولة العثمانية بحكم تعدد مواجهتها في البحر المتوسط والبحر الأحمر ونشوب بعض التمردات، لذا قام السلطان العثماني أحمد بإرسال سفارات الى الايالات المغاربية (تحديدا المغرب الأقصى وطرابلس الغرب) وكذا الى فرنسا وبريطانيا والبندقية من أجل تسهيل عملية هجرة الموريسكيين، وان كانت بريطانيا قد رفضت بحكم علاقاتها مع اسبانيا فإن فرنسا والبندقية قد تجاوبتا مع مطلب الدولة العثمانية (التميمي، 1989، الصفحات 7-48).

جاءت الدراسة الرابعة من هذا الكتاب تحت عنوان واقع ومستقبل البحث عن تاريخ الموريسكيين الأندلسيين حاول من خلالها التميمي تقييم ما أنجز من دراسات على المستوى العربي الإسلامي أو على المستوى الأوروبي والعالمي، فعلى المستوى الأول يقر التميمي بنقص الكتابات الجادة والرصينة وعدم حرص مخابر البحث على الاهتمام بهذا المجال لاسيما مرحلة ما بعد سقوط غرناطة وهي المرحلة الأكثر حساسية والتي تقتضي الضرورة الاهتمام بها، في حين أن ما

كتب على المستوى الثاني يستحق الإشادة بحكم استناده على كم وثائقي أرشيفي كبير ولا سيما ما كتب بأقلام موضوعية غرضها الحقيقة التاريخية بعيدا عن شحن العواطف والايديولوجيات وهو الأمر الذي يسعى اليه التميحي، حيث أن الكثير من معارفه في مجال البحث من الإسبان والفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين، وقد ذكر أن 95% من الدراسات الموريسكية تعود الى هؤلاء، ويظهر جهد التميحي من خلال سعيه في إطار مؤسسته على فهرسة ما أنجز سنويا و على ترجمة ما أمكن ترجمته، كما أنه من خلال هذه الدراسة اعتمد على عدد من الدراسات الأوروبية بين فيها معاناة الموريسكيين في شتى جوانب الحياة (دينيا - ثقافيا - اجتماعيا - اقتصاديا) وبأرقام ونسب مئوية مهولة تعكس بشكل جلي مآسي الموريسكيين، ليختتم التميحي كلامه بضرورة الايمان بهذه القضية والاهتمام علميا (التميحي، 1989، الصفحات 49-66).

أما عن الدراسة الخامسة فقد كانت حول الخلفية الدينية للصراع العثماني الاسباني خلال القرن السادس عشر أين سعى المؤرخ عبد الجليل التميحي الى إيضاح هذه الخلفية في ضوء بعض التمثلات على مستوى الطرفين المتصارعين حيث تظهر الخلفية الدينية عند الاسبانيين في حملاتهم العسكرية على مدن سواحل شمال افريقيا لنصرة المسيحية وبمباركة الكنسية، كما أن التضييق الذي مورس على الموريسكيين كان على حساب الدين الإسلامي لصالح تغليب المسيحية، أما عن الدولة العثمانية فإن المحرك لها هي الأخرى خلال هذه الفترة نحو نصرة المسلمين وتحرير ما استولى عليه الاسبان من سواحل كان باسم الإسلام وتحت صيحات الاستنجد والاستغاثة كونها هي الممثل الشرعي للمسلمين آنذاك، وقد أرفق دراسته هذه بثمانية عشر ملحقا هي في الأصل عبارة عن وثائق أرشيفية عثر عليها في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول المعروفة بوثائق مهمة دفترتي والتي تتضمن مراسلات من الباب العالي الى ولاية الايالات المغاربية حول مواضيع مختلفة كحماية السواحل من التحرشات الاسبانية والحفاظ على مصالح الرعية وضرورة تجنب النزاعات الداخلية والحفاظ على الأمن الداخلي للإيالات، وغيرها من الأوامر والمواضيع (التميحي، 1989، الصفحات 67-113).

3- دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي

مثل الدراسة السابقة جاء هذا الكتاب مرة أخرى ليجمع سبع دراسات سبق وأن نشرها المؤرخ عبد الجليل التميحي وللإشارة فإن نشر هذا الكتاب كتب باللغتين العربية والفرنسية، حيث خصص قسم لكل من اللغتين، إلا أن القسم الفرنسي ضم خمس دراسات فقط، وسنكتفي هنا بعرض القسم العربي.

كانت الدراسة الأولى دراسة تقييمية نقدية للدراسات العربية حول الموريسكيين سواء أنجزت على مستوى الجامعات والمعاهد والمخابر العربية، أو أنجزت على مستوى مؤسسته وأبحاثه الشخصية، وسواء كانت هذه الدراسات عبارة عن كتب ومقالات، أو كانت أيضا أعمالا مترجمة عن لغات أجنبية وهذا فيما بين سنتي (1967-1998) فعلى المستوى الأول انتقد التميحي جل هاته الدراسات ما عدا دراسات تعد على الأصابع أشاد بقيمتها ويرجع هذا الانتقاد الى عدة اعتبارات نذكر منها، اعتماد أصحابها ها على مصادر اسبانية معروفة منذ مدة طويلة، وبهذا فإنه لا جديد يذكر فيها، زيادة على اهمال ذكر كشافات وببليوغرافية جل هاته الأعمال وكثرة الأخطاء في ذكر عناوين الكتب باللغات الأجنبية، إلى جانب هذا انتقد الترجمات من حيث عددها ومن حيث طبيعتها، فمن خلال كشاف وضعه هو حول الدراسات الموريسكية باللغات الأجنبية أحصى 3500 دراسة تقابلها ستة ترجمات عربية فقط طيلة مدة خمسة وعشرين

سنة، وعن الترجمات في حد ذاتها فقد افتقدت هي الأخرى للدقة في ضبط العناوين وتجنب التدخل في النص الأصلي وكذا حذف كشافاته ومصادره، وهو ما لا يتماشى منهجيا مع أساسيات الترجمة، هذا ويستعرض التميمي في هذه الدراسة عددا من الأعمال التي قام بتأليفها وترجمتها، وكذا أعمال مؤرخين أجانب نشرها في مؤسسته، وهو ما يعكس سعيه لخلق حلقة تواصل دولية خدمة للتراث الموريسكي، لذا نجده دائما يجدد دعواته بضرورة الايمان والاهتمام بالقضية الموريسكية (التميمي، 2000، الصفحات 9-19).

يمكن اعتبار الدراسة الثانية الواردة في هذا الكتاب تكملة للدراسة المشابهة لها في الكتاب السابق، والمتعلقة بمساعي الدولة العثمانية في تسهيل مرور الموريسكيين عبر أراضي فرنسا والبندقية الى إستانبول، وقد تم تدعيم هذه الدراسة وتعزيزها بوثائق أرشيفية جديدة تم الاستفادة منها بتحليل مضامينها وتوظيفها كملاحق مع نشرها باللغة العربية (التميمي، 2000، الصفحات 21-50).

تضمنت الدراسة الثالثة قسمين أحدهما يتعلق بمحاولة الموريسكيين القيام بثورة عام 1582 وهذا بناء على وثيقتين أرشيفيتين ضاعت أصولهما العربية وبقيت ترجمتهما الإسبانية، وقد كان تحريرهما على شكل مراسلات انطلاقا من الجزائر من طرف اثنين موريسكيين الى إخوانهم في الأندلس، ومن خلال استعراضهما وتحليلهما تم تبيان مضمونهما وكذا الظرفية التاريخية التي حررتا فيها، أما عن القسم الثاني ودائما مع الوثائق الأرشيفية فإن ثلاثة وثائق أخرى أكدت هي الأخرى على مساعدة الحكومة الهولندية وتسهيلها لتنقل الموريسكيين عبر بواخرها الى أراضي الدولة العثمانية، وهذا بعد الطرد الجماعي لهم من الأندلس عام 1609 (التميمي، 2000، الصفحات 51-72).

أما عن الدراسة الرابعة فنجد فيها المؤرخ عبد الجليل التميمي يفتح مجال المقارنة في الدراسات الموريسكية بين العالم الغربي والعالم العربي والإسلامي، ليؤكد وبحسرة كبيرة تلك الهوة المعرفية بين العالمين ويقر بتأخر المؤرخين العرب في الالتحاق بركب الدراسات المعقمة والابتعاد كل البعد عن دور الأرشيف العالمية الغنية بما له صلة بالموريسكيين وبهذا فإن الكثير من المواضيع والجزئيات والإشكاليات ظلت دون جواب في ظل هذا التأخر (التميمي، 2000، الصفحات 73-81).

هذا وقد خصت مدينة زغوان التونسية في هذا الكتاب بدراستين، وانطلاقا من وثيقتين أرشيفيتين تحصل عليها الأستاذ من مالكتها التي تنتمي الى أسرة "فاضل" ذات الأصول الأندلسية، حيث كانت الدراسة الأولى منها مرتبطة ببعض الأندلسيين الفقراء والمحتاجين لاسيما شريحة النساء والأطفال والأيتام ما بين (1860-1862)، وقد ثمن الأستاذ مبادرة أصحاب الملكيات الخاصة من الوثائق والمخطوطات على وضع الثقة في أهل الاختصاص ووضع بعض منها تحت مسؤوليتهم العلمية للاستثمار فيها والاشتغال عليها، أما الدراسة الثانية فكانت حول توزيع المياه في مدينة زغوان وهذا في ضوء وثيقة أرشيفية أخرى لأحد أفراد أسرة "فاضل" أيضا، حيث يعود تاريخ نسخ هذه الوثيقة الى عام 1859 ومن خلالها تم التعرف على ألقاب العائلات وكمية استفادات كل فرد من حصته اليومية، زيادة على هذا مكنت الوثيقة من معرفة التخطيط العمراني للمدينة وأهم مرافقها (التميمي، 2000، الصفحات 83-102).

أما عن آخر دراسة في هذا الكتاب فهي ترجمة لمقال كتبه المؤرخ الإسباني "رافاييل دوليرا قارسيا" باللغة الفرنسية ونشر في مجلة التميمي، ويرتبط هذا المقال ببقاء بعض الموريسكيين بعد الطرد النهائي لهم عام 1609م، وكان

تحت عنوان "بقاء الإسلام في مدينة غرناطة في أوائل القرن الثامن عشر" ونظرا لأهميته من حيث الطرح ومن حيث مصادره الأرشيفية راودت التميمي فكرة ترجمته منذ مدة طويلة الى أن تيسرت له فرصة ذلك، الحقيقة أن المقال أدهش الكثير من أهل الاختصاص في هذه الفترة لا سيما وان الأمر الذي تم تداوله هو عدم وجود الموريسكيين في الأندلس بعد عمليات الطرد النهائي، غير أن الوثائق الأرشيفية الجديدة حول هذا الموضوع أكدت بقاءهم في مدينة غرناطة، انطلاقا من عينات بلغ عددها 250 حالة وقف عليها صاحب المقال في دواوين محاكم التفتيش استطاع تتبع ومعرفة أنشطتهم وأماكن استقرارهم وحالتهم الاجتماعية وممارستهم لشرائع دينهم وكذا طرق محاكمتهم (التميمي، 2000، الصفحات 103-130).

خاتمة

في ختام هذه الدراسة والتي ركزت على ثلاث نماذج من كتابات المؤرخ عبد الجليل التميمي في حقل الدراسات الموريسكية، وهي قليلة مقارنة بجميع كتاباته المتنوعة بين التأليف والترجمة، نؤكد هنا على علو كعبه ومساهمته القيمة والرائدة في إثراء "علم الموريسكولوجيا" كما عبر عنه في بعض كتاباته، لاسيما وأن جل دراساته ارتكزت على الوثائق الأرشيفية بمختلف اللغات الأجنبية ذات الصلة بهذا الموضوع، وبهذا كانت أعماله أصيلة ساهم من خلالها في تثبيت الكثير من الحقائق لا تزال نتائجها الى اليوم هذا من جهة، ومن جهة أخرى لعب دورا بارزا في دحض الكثير من المغالطات التاريخية، وعليه فإن المنجز التاريخي لهذا المؤرخ يحتاج منا اليوم الى الإشادة والاحتراف، كما يحتاج منا التقييم والرصد وهذا قصد مواصلة تتبع الطريق التي وضع ملامحها وأسسها على امتداد تجربته ومساره الأكاديمي.

قائمة المراجع

- 1) جمال العرضاوي. (2017. 9.28). عبد الجليل التميمي الورشة الموريسكية. قناة الجزيرة.
- 2) جمال العرضاوي. (2017. 9.21). عبد الجليل التميمي الورشة العثمانية. قناة الجزيرة.
- 3) عبد الجليل التميمي. (1989). الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين. مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات: زغوان.
- 4) عبد الجليل التميمي. (2000). دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي. مؤسسة التميمي للبحث والمعلومات: زغوان.
- 5) فتحي البوكاري. (2022. 11. 9). حوار مع المؤرخ عبد الجليل التميمي. الحوار المتمدن العدد 7427.
- 6) قسم مجلة آفاق الثقافة والتراث. (جوان، 1993). لقاء مع الدكتور عبد الجليل التميمي. مجلة آفاق الثقافة والتراث. العدد الأول.

- (7) لوي كاردياك. (1983). الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجاهدة الجدلية 1492-1609. (عبد الجليل التميمي، المترجمون) ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر.
- (8) مصطفى الشارني. (2015). حوار مع المؤرخ عبد الجليل التميمي. جريدة الشروق التونسية.

إسهامات الموريسكين الحضارية والاقتصادية بالجزائر خلال العصر الحديث
1492-1830م.

"الصناعات والحرف أنموذجا"

Contributions of the Moriscos to Algeria during the modern era

.AD 1830-1492

"Industries and crafts as a model"

د.محمد محمدي /جامعة برج بوعريريج/ الجزائر

Dr.Mohamed Mhamdi/University of Bordj Bou Arerirdj/Algeria

ملخص الدراسة:

تحاول هذه الدراسة التاريخية تسليط الضوء البحثي إزاء مسألة هامة في تاريخ الجزائر الثقافي والحضاري، ويتعلق الأمر بالوقوف عند التراث الأندلسي الموريسكي في البلاد خلال المرحلة الحديثة والمعاصرة 1492-1830، وذلك من خلال تسليط الضوء على ميدان الحرف والصنائع، سيما بعد أن ساهمت الفئات الموريسكية الوافدة على المجتمع الجزائري بدور واضح في تطور وازدهار هذه الأخيرة أي الصنائع والحرف، مع ادخال صناعات وحرف جديدة الى البلاد بعد وصولهم اليها مطلع ق16. وعليه فالموضوع اجتهاد لرصد أهم الصنائع والحرف المستجدة في البلاد بعد حلول الموريسكين فيها، وكذا إبراز دورها في الازدهار الحضاري والاقتصادي للبلاد خلال المرحلة المدروسة.

الكلمات المفتاحية:

الموريسكين/ الأندلس/الصناعات/الحرف/الجزائر/ الحضارة.

Abstract:14

This historical study attempts to shed research light on an important issue in the cultural and civilized history of Algeria, and it is related to standing at the Andalusian-Moorish heritage in the country during the modern and contemporary phase 1492-1830, by highlighting the field of crafts and crafts, especially after the incoming Moorish groups contributed to Algerian society played a clear role in the development and prosperity of the latter, that is, crafts and crafts, with the introduction of new industries and crafts to the country after their arrival there in the beginning of the 16th century.

Accordingly, the topic is an effort to monitor the most important new crafts and crafts in the country after the arrival of the Moriscos there, as well as to highlight their role in the cultural and economic prosperity of the country during the studied period.

Keywords:

Moriscos / Andalusia / Industries / Crafts / Algeria / Civilization.

مقدمة:

لاشك أن الجزائر في المرحلة الحديثة قد تميزت بعدد المستجدات والمتغيرات التي طبعت ملامحها السياسية والعسكرية على حد سواء، وبخاصة ما تعلق منها بالتحريشات الاسبانية المسيحية على سواحل المغرب الاسلامي بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة، هذه التحريشات التي كانت لها افرازات هامة على المنطقة خاصة ما تعلق بالحماية العثمانية للجزائر، بعد استنجد علمائها وأعيانها بالسلطان العثماني الذي لبي نداء الواجب الديني بإرسال الأخوين بربروس للدفاع عن حياض الإسلام والمسلمين غرب البحر الأبيض المتوسط.

ومن الافرازات الهامة لهذه التحريشات الاسبانية المسيحية كذلك، هي دخول فئات سكانية جديدة للبلاد قادمة من الأندلس بعد سقوط عاصمتها غرناطة على يد المسيحيين عام 1492م، هذه الفئة التي كانت لها إسهامات حضارية وثقافية واقتصادية بارزة في إيالة الجزائر منذ وصولها إلى البلاد وطيلة مراحل استقرارها في الإيالة، ومن بين المجالات التي كان للمورسكيين الأندلسيين أثر بارز في تطورها وانتشارها نجد المجال الصناعي والحرفي.

حيث سنحاول من خلال الدراسة إبراز مدى مساهمة الفئات الموريسكية الوافدة على المجتمع الجزائري في تطور وازدهار الصنائع والحرف، ودور هذه الفئة ادخال صناعات وحرف جديدة الى البلاد بعد وصولهم اليها مطلع ق16.

وعليه فالموضوع اجتهاد لرصد أهم الصنائع والحرف المستجدة في البلاد بعد حلول المورسكيين فيها، وكذا لإبراز دورها في الازدهار الحضاري والاقتصادي للبلاد خلال المرحلة المدروسة. من خلال محاولة الأجابة على التساؤلات الفرعية الآتي ذكرها:

1-من هم المورسكيون؟

2-ما معنى حركة الاسترداد؟

3-كيف هُجِرَ المورسكيون الأندلسيون من شبه الجزيرة الايبيرية؟

4-في ما تتجلى اسهامات المورسكيين الحضارية والاقتصادية في المجالين الصناعي والحرفي على وجه الخصوص في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني؟

1- مفهوم الموريسكيون:

تشير الكتابات التاريخية إلى أن أصل كلمة "الموريسكي" ذو جذور لاتينية إغريقية، فمفهوم "الموري" mauri في اللاتينية حسب المؤرخ سالستيو الأسباني salustio، هو الشخص ذو البشرة السوداء أما في اللغة الإغريقية فيعني الشخص داكن البشرة وعليه فكلمة "مورو" moro تعني الشخص شديد السمرة.

وقد عرف المصطلح تحولا وتغيرا في مفهومه خلال العصور الوسطى، فأصبح يطلق للدلالة على الفرد أو الانسان غير المسيحي، ومنه كانت تسمية "الموريسكي" وتعني الشخص غير النصراني، وهي تطلق للدلالة على الأقلية المسلمة في شبه الجزيرة الأيبيرية (دلباز، 2012، ص52).

وهو ذات الرأي الذي ذهب إليه كثير من الباحثين والدارسين، الذين وضحو أن لفظ الموريسكي هو مصطلح للدلالة على فئة المسلمين الذين كانوا يعيشون فوق الاقليم الجغرافيا المحدد في شبه الجزيرة الأيبيرية (اسبانيا والبرتغال حاليا)، كما دلت اللفظة في إحدى مراحلها التاريخية على السكان القادمين من مناطق شمال إفريقيا عموماً، لكنها أصبحت تطلق على المسلمين الذين بقوا في اسبانيا تحت الحكم المسيحي بعد سقوط الممالك الإسلامية، أين تم إجبارهم على اعتناق المسيحية في ما بعد (مرجاني، 2019، ص49).

2- مفهوم حركة الاسترداد Reconquista :

لا يختلف اثنان في أن "حركة الاسترداد" المعروفة باسم "الريكونيكيستا" أو Reconquista باللغة الأجنبية، والتي ظهرت أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر في شبه الجزيرة الأيبيرية، إنما هي الحروب التي شنتها الممالك المسيحية الأسبانية ضد الوجود الإسلامي بالأندلس، وتهدف أساساً إلى القضاء على المسلمين والسيطرة على الأرض التي فتح المسلمون عصر الفتوحات الأولى لانتشار الإسلام (710-714م/92-95هـ) (بوشريط، 2012، ص03)، وهي حروب قائمة على أساس الأحقية في الأرض وضرورة استردادها.

ومن هذا المنطلق فهي حرب لاسترداد شبه الجزيرة الأيبيرية إلى المسيحية والقضاء على الوجود الإسلامي فيها، وبذلك فإنها حرب قوامها العدوان والانتقام والنقض الصارخ لكل العهود والمواثيق الانسانية والدولية. (مبارك، 2022، ص494)

في حين أطلق فريق من المؤرخين الإسبان وسم "مرحلة الوطنية والقومية" على الفترة المذكورة، وهي المرحلة التي خاض فيها الإسبان حرباً ضد الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، واعتبرها البعض الآخر مشروعاً مشتركاً بين مكونات المجتمع المسيحي النصراني ضمن إطار جامع هو الحرب المقدسة للدفاع عن وحدة وسلامة الأراضي الإسبانية وتخليصها من الوجود الإسلامي حسب وجهة نظرهم (الحسيني، 2020، ص72)

وقد ارتبطت هذه الحركة أشد الارتباط بالعامل الحضاري، أي بكونها صراع بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين، ففي صراع قديم بين الشرق والغرب وقد ظهرت ملامحه جلية منذ البدايات الأولى لوصول الدين الإسلامي إلى القارة الأوروبية. (رمضان، د.ت، ص309)

3-تهجير المورسكيين:

مع نهاية القرن الخامس عشر شهد الحوض الشمالي للبحر الأبيض المتوسط تغيرات هامة في موازين القوى الدولية، وتمثلت في تنامي وتزايد قوة المسيحيين على حساب الأراضي التابعة للمسلمين بالأندلس، حيث كان زواج ملك مقاطعة أراغون "فرديناند" مع ملكة قشتالة "إيزابيلا" عام 1469م أثر واضح في التحالف بين المملكتين المسيحتين، مما أسهم في القضاء على آخر معقل للمسلمين بالأندلس عام 1492م. (كريخال، 1984، ص 425)

ومما لاشك فيه أن تدهور الأوضاع السياسية بالأندلس كان له تأثير مباشر على هذا التراجع لمكانة المسلمين ودورهم في بناء الحضارة، حيث يجمع المؤرخون أن ضعف دولة الموحدين وانهزامها في معركة حصن العقاب عام 1212م، وتوالي الفتن والصراعات الداخلية بين ساستها، مع تنامي وتزايد حركة الاسترداد كان سببا في سقوط عديد المدن الاسلامية الواحدة تلو الأخرى في يد المسيحيين، ومنها نذكر: ماردة 1228، قرطبة 1236، بلنسية 1238.... الخ. الأمر الذي دفع بكثير من المسلمين الأندلسيين إلى الهروب من الاضطهاد والتنكيل. سيما بعد سقوط آخر معاقلهم فيها عام 1492 كما سبقت الإشارة إليه. (بن عزوز، 2018، ص 77-78)

وبعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس، شهد المسلمون تراجعاً حضارياً كبيراً أسهم في التنكيل بهم من لدن المسيحيين الاسبان وإبادة أعداد غفيرة منهم، الأمر الذي أجبرهم على الفرار نحو الجهة الغربية من حوض المتوسط في اتجاه بلاد المغرب الاسلامي خوفاً من التعذيب والتصفية الذي طال إخوانهم على الأراضي الأندلسية، فكانت ملاحقتهم من المسيحيين سببا مباشرا في حدوث مأساة إنسانية ضد المسلمين بالأندلس، كما كانت في الوقت ذاته محطة فاصلة في تغير موازين القوى في حوض المتوسط وانتقالها من المسلمين الى المسيحيين، الذين تفننوا في التنكيل بالمسلمين وخبروهم بين التنصر عنوة أو الإبادة والموت. (مرجاني، 2022، ص 48)

4-الاسهامات الحضارية والاقتصادية للمورسكيين في الجزائر خلال العصر الحديث:

بالرغم من أن الجزائر خلال العهد العثماني حسب كثير من الدارسين، لم تشهد تطورا صناعيا كبيرا في حال مقارنتها بالدول الأوربية خلال المرحلة المدروسة، إلا أننا نستطيع التمييز بين صنفين رئيسيين من الصناعة وهما صناعة نظامية حكومية وأخرى فردية حرفية (بن جدو، 2022، ص 505)، وفي هذا الصدد أشار المؤرخ ناصر الدين سعيدوني إلى هذين الصنفين بقوله: "... أن النشاط الصناعي بالإيالة الجزائرية ظل متواضعا لايتعدى صناعات يدوية محلية وبعض الصناعات التحويلية المعدنية الصغيرة والبسيطة...". (سعيدوني، 2002، ص 33)

والذي يهمننا في هذه الجزئية إنما هو مساهمة العناصر الموريسكية الوافدة الى مدن الجزائر خلال الفترة الحديثة، في المجالين الصناعي والحرفي إما بصورة أساسية أو جزئية، وعليه سنحاول رصد هذه الاسهامات وإثراءات الفئة المذكورة في المجال الصناعي والحرفي على حد سواء.

أ-إسهامات المورسكيين في المجال الصناعي:

1-في مجال صناعة السفن:

تعد صناعة السفن من بين الصناعات النظامية في الجزائر خلال العهد العثماني، كما كانت الأكثر اهتماما من لدن الحكام العثمانيين في إيالة الجزائر، لما لهذه الأخيرة من دور بارز في تحصيل الموارد المالية لتغطية نفقات الجيش والإيالة بصفة عامة، ولذلك فقد خصتها الدولة العثمانية باهتمام واضح وكبير، حيث دأبت على مواكبة التطورات التقنية في هذا المجال (سرحان، 2008، ص33)، من أجل مقارعة السفن البحرية الأوربية ومجابتها في حوض البحر الأبيض المتوسط لما أصبحت تشكله من خطر وتهديدات إزاء المسلمين الموريسكيين الفارين من الأندلس وسكان السواحل بالمغرب الإسلامي على حد سواء.

وقد برز دور الموريسكيين الأندلسيين لافتا في هذا المجال، حيث ورد أن بعض من فئات هؤلاء اللاجئين الأندلسيين قد كان لهم دور كبير في هذا المجال من الصناعات، ومنها على الخصوص طائفة المودجاز الذين كان لهم اهتمام واضح بصناعة السفن الحربية والتجارية على حد سواء، غير أن اشتغالهم قد بدا واضحا في مجال السفن الصغيرة، حيث كانت تجهز بالمدفعية وكميات من البارود لمقارعة السفن الإسبانية في حوض المتوسط. (بن جدو، 2022، ص 506)، وفي هذا الصدد المتعلق بدور الموريسكيين في الصناعات العسكرية عموما وصناعة السفن على الخصوص ذكر أن: "...الأندلسيين قد لعبوا دورا كبيرا في الجيش الجزائري...وقد ساهموا في احياء الصناعة العسكرية كبناء السفن وتصليحها وصناعة الأسلحة والبارود، وانجاز العمائر العسكرية كالثكنات والبروج والقلاع...". (ميمن، 2020، ص 66)

2- في مجال صناعة الأسلحة والبارود:

تعد صناعة الأسلحة والبارود وما ارتبط بهما من صناعات حربية (سرحان، 2008، ص199)، من بين الصناعات الهامة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، وذلك لما تميزت به الدولة من هيبة عسكرية وبحرية في مختلف البحار وبخاصة حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد تركزت هذه الصناعة في المدن الكبرى للبلاد مثل قسنطينة والجزائر، في حين توزعت بعض الورشات الصغيرة لصناعة البنادق في مدن أخرى عديدة بوسط البلاد وشرقها وغربها.

ومن دون شك فإن للموريسكيين الأندلسيين دور هام وكبير في هذه الصناعة المحورية للإيالة الجزائرية بصفة خاصة والدولة العثمانية بصفة عامة، فقد كان هناك من العائلات الأندلسية من بقيت محافظة على حرفها الأصلية التي نقلتها إلى الجزائر ومنها صناعة البنادق، ومن أشهر العائلات الأندلسية في هذه الصناعة عائلة كانت تقطن بقلعة بني راشد (لمقدم، 2017، ص69)، وفي ذات المجال المتعلق بصناعة البارود والأسلحة فقد ذكر المؤرخ ناصر الدين سعيدوني نقلا عن أحد الرحالة الذين زاروا إيالة الجزائر قوله: "... هناك مصنعا للبارود تشرف عليه الحكومة بمدينة قسنطينة قرب القصبة يعمل به عشرون عاملا...". (سعيدوني، 2012، ص 34)

3- في مجال صناعة الخشب:

أما بالنسبة لصناعة الخشب فقد اقتضت الضرورة العسكرية للدولة العثمانية، حيزا كبيرا من الاهتمام بهذا المجال من الصناعات، حيث كان للتوجه البحري للدولة خلال المرحلة المذكورة أثر واضح في الاشتغال على هذا النوع من الصناعات، وهذا ما جاء في كتابات كثير من الدارسين الذين أكدوا أن هذا المجال من الصناعات كان يستنزف الثروة الغابية بشكل كبير في البلاد (سعيدوني، 2012، ص31)، وقد ذكر المؤرخ ناصر الدين سعيدوني أنه في خلال سنة 1871م

تطلب بناء 50 سفينة قطع أغلب الأشجار الغابية المحيطة بجبال مدينة الجزائر، كما ورد الذكر أيضا أن انجلترا قد تحصلت من الجزائر على امتياز لقطع الأشجار سنة 1817م مقابل إتاحة سنوية قدرها 200 ألف فرنك سنويا. (لمقدم، 2017، ص 67)

ويظهر اهتمام المورسكيين الأندلسيين بهذا المجال من الصناعة، في صور الهجرات المتتالية لهذه الفئة في اتجاه عديد المدن الساحلية للإيالة الجزائرية، مثل: بجاية، تلمسان، وهران، الجزائر، شرشال... الخ، هذه الأخيرة التي كانت قبلة للمورسكيين الذين أعادوا بنائها بعد الزلزال الذي ضربها (ميمن، 2020، ص 67)، كما استقر عدد كبير منهم بها وجعلوا من صناعة السفن نشاطا لهم فيها (سرحان، 2008، ص 97)

كما تجدر الإشارة أن المورسكيين قد كرسوا خبرتهم في مجال صناعة السفن، خدمة لهذه الصناعة في عديد مدن السواحل الجزائرية، واشتهروا كذلك بصناعة كل ما تعلق بملحقات صناعة السفن ومتطلباتها حيث صنعوا الألياف لصنع السلاسل والأكياس والجبال الخاصة بالسفن (ميمن، 2020، ص 67)، كما برز الوافدون من غرناطة وبلنسية وأراغون في صناعة مراكب الفرقاطة والبريغانتين في عديد مدن الساحل الجزائري وبخاصة مدينة شرشال (ميمن، 2020، ص 68)

ب- إسهامات المورسكيين في المجال الحرفي:

1- في مجال الصناعة الجلدية:

وأضافة الى الصناعات الكبرى التي انتشرت في كثير من أنحاء البلاد، فقد كان للحرف والصنائع اليدوية حيز كبير من اهتمام الجزائريين والمورسكيين الوافدين على حد سواء، إذ نجد أن إيالة الجزائر قد اشتهرت بصناعات وحرف متعددة نذكر منها على سبيل المثال صناعة الجلود (لمقدم، 2017، ص 76)، التي انتشرت في كثير من مدن البلاد وقد شكلت ما يزيد عن 15 بالمئة من اليد العاملة في مدينة قسنطينة، كما اهتمت الصناعة الجلدية بمجالات مختلفة نذكر منها: صناعة الأحذية، صناعة السروج، ولوازم أخرى تتعلق بالفروسية واللجام والمحافظ وغيرها (سعيدوني، 2012، ص 34)، كما تشير الأبحاث أن حرفاً أخرى متصلة بهذه الصناعة قد انتشرت في ربوع البلاد، وهذه حرفة الدباغة أكبر دليل على ذلك، حيث أفادت الاحصائيات أن عدد المدايع في المدينة المذكورة قد بلغ حوالي 33 مدبغة، في حين وصل عدد محلات صناعة الأحذية ما يزيد عن 167 محلاً. (لمقدم، 2017، ص 70)

كما تجدر الإشارة الى المساهمة الفعالة لفئة المورسكيين الأندلسيين في مجال صناعة الجلود ومشتقاتها، وهم الذين أضافوا لها مستهم البارزة في هذا المجال، وقد اشتهروا بكثير من المهن المتصل بصناعة الجلود، ومن ذلك معالجة الجلود المخصصة لصناعة الأحذية في مدن مختلفة من البلاد كمدينة البليدة وتلمسان... الخ. وفي هذا السياق جاء القول أن: "...أما المهاجرون الأندلسيون فكانوا يتقنون الزراعة والصناعة ... كما عملوا في الدباغة وصناعة السروج وصنع الأسلحة...". (سامح الأتر، 1989، ص 146).

2- في مجال الصناعة النحاسية:

تعد صناعة النحاس بالايالة الجزائرية خلال العهد العثماني، من الصناعات الاكثر انتشارا في مناطق ومدن البلاد، سيما ما تعلق بالمدن الشمالية منها.

ويعد الأندلسيون من الفئات الأكثر اهتماما بهذا الصنف من الحرف ، فكانت لهم أساليب فنية راقية في التعامل مع هذه الصناعة، سيما ما تعلق بصناعة النحاس بشتى أنواعه وصناعة القصدير والفضة، فأبدعو في صناعة التحف وزخرفتها بطريقة فنية رائعة ، مما جعلها تحقق رواجاً كبيراً ومبيعات هامة (ابن عزوز، 2018، ص 145)

كما أصبحت لهذه الفئة من الحرفيين شوارع خاصة بها، سيما في المدن الكبرى للبلاد كمدينة قسنطينة، وهران، تلمسان، الجزائر... الخ، هذه الأخيرة التي خصص فيها شارع يتوسط المدينة لهؤلاء الحرفيين من الأندلسيين والجزائريين، وقد عرف الشارع بشارع الصياغة وكانت تمارس به صناعة الحلي من الذهب والفضة، مما أضفى حركية كبيرة عليه خلال الفترة المذكورة من قبل الباعة والمشتريين على حد سواء. (يوسف، 2011، ص 126)

3- في مجال الصناعة الفخارية:

واضافة الى الصناعات والحرف سالفه الذكر، فقد أشارت الروايات التاريخية إلى أن حرفة الفخار وصناعة الأواني الطينية والفخارية كانت ذات انتشار واسع في البلاد، وهذا ما أثبتته كثير من النصوص التاريخية. (ابن عزوز، 2018، ص 144)

وحول الانتشار اللافت لهذا النوع من الحرف بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني، فقد ورد الذكر أن مدينة تلمسان كانت احدى المدن المشهورة بهذا الفن، ولذلك فقد نقل عن الأستاذ بال خلال زيارته للمدينة المذكورة وقوفه على عديد النماذج من الأواني الفخارية التي تحتوي على نقوش ورسوم فنية، شبيهة إلى حد كبير مع تلك التي وجدت بمدينة الزهراء بالأندلس (ابن عزوز، 2018، ص 145)، وهذا ما يؤكد اسهام العناصر الأندلسية في هذا المجال من الصناعات اليدوية في الجزائر خلال الفترة الحديثة.

4- في مجال الطرز والخياطة:

تعد الصناعة النسيجية بما فيها من الطرز والخياطة من بين الصناعات الرائجة الحضور في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، حيث انتشرت هذه الأخيرة في عديد المدن الجزائرية مثل: ندرومة، مازونة، مستغانم، البليدة، الجزائر... الخ، وذلك لتوفرها على المواد الأولية كالصوف والحبر وتوظيفهما في انتاج وتصنيع كثير من المنتوجات المحلية كالبرانس والأغطية والجلابيب والأحزمة والزرابي... وغيرهما. (لمقدم، 2017، ص 70)

ومن دون شك فإن لفئة المورسكيين الأندلسيين دور كبير في تطوير هذا الصنف من الحرف والمساعدة على انتشارها في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، وهذا ما أشارت إليه كثير من الدراسات والأبحاث التي أكدت أن ساكنة مدينة تلمسان ومدن أخرى من البلاد، كانوا أكثر اهتماما بصناعة النسيج والملابس وكذا الزرابي والقטיפه ذات

الطابع الأندلسي، ويعود سبب اهتمام المورسكيين بهذه الصنائع والحرف في البلاد الى توفر المواد الأولية التي جعلت من هذه الحرف أكثر طلبا وانتشارا من لدن فئة المورسكيين. (ابن عزوز، 2018، ص 147)

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة نستنتج أن:

-المورسكيين الأندلسيين قد ساهموا بعد تهجيرهم القسري من الأندلس بعد سقوط عاصمتها غرناطة سنة 1492 آخر معقل للمسلمين فيها وطردهم من قبل المسيحيين الإسبان، في إحياء مدن جزائرية وتعميرها بعدما كانت أثرا بعد عين.
-الدور الايجابي للمورسكيين في النهوض باقتصاد الجزائر خلال العهد العثماني، سيما من خلال رؤوس الأموال والصناعات والحرف التي جلبها هؤلاء المورسكيون من الأندلس نحو بلدان المغرب الاسلامي بعد ملاحقتهم من قبل المسيحيين الإسبان.

-تعدد وتنوع اسهامات المورسكيين في مختلف الصناعات والحرف، سواء تعلق الأمر بالصناعات النظامية الكبرى للدولة، مثل الصناعة السفن والبارود والاسلحة...، أو الصناعات والحرف الصغيرة كالخياطة والصبغة وصناعة الجلود، فدور هذه الفئة الوافدة على المجتمع الجزائري كان ثابتا وواضحا لكل من أدرك أهمية ما قدمته هذه الفئة من خبرات وحرف للجزائريين خلال العهد العثماني.

قائمة المصادر والمراجع:

أ-الكتب:

- ألتر عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية لبنان، 1989.
- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الاسلام الى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، مصر، د.ت.
- مارمول كريخال: إفريقيا، تر: محمد حجي، دار المعارف، المغرب، 1984.
- ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي بالجزائر أواخر العهد العثماني 1492-1830، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

ب-المقالات:

- بن جدو عبد الفتاح: نظرة على الصناعة والحرف بالجزائر خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية الجزائرية، ع01، م06، الجزائر، 2022.
- محمد دلباز: المورسكيون الاطار التاريخي والديني للتسمية، مجلة الحوار المتوسطي، ع3-4، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، مارس 2011-2012.

- عبد القادر مرجاني: هجرات المورسكيين الى الجزائر ومساهماتهم في مواجهة المد الإيبيري في حوض البحر الابيض المتوسط خلال القرن 16، مجلة القرطاس، ع11، الجزائر، جانفي 2019.
- بشير مبارك: الحروب الصليبية على العالم الاسلامي: حركة الاسترداد في الأندلس وأثرها على المغرب الأوسط، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال افريقيا، ع03، م05، الجزائر، جوان 2022.
- قاسم عبد سعدون الحسيني: حركة الاسترداد الاسبانية –الريكونيكيستا- Reconquista: قراءة في المصطلح والمضمون، دورية كان التاريخية، ع47، السنة 13، مارس 2020.
- داود ميمن: الهجرة الأندلسية ودورها في بناء القوة العسكرية للجزائر ما بين 1492-1610، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، جانفي 2020، الجزائر.
- لمقدم عمر: نظرة حول الأنشطة الاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني، ع01، م01، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، الجزائر، جوان 2017.
- الرسائل الجامعية:
- امحمد بوشريط: ظاهرة البيوتات الأندلسية ودورها الثقافي 300-460هـ / 912-1067م، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ والآثار، جامعة وهران، الجزائر، 2011-2012.
- نبيلة ابن عزوز: أندلسيو الجزائر آثارهم وتاريخهم – حاضرة تلمسان أنموذجا-، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 2017-2018.
- سرحان حلیم: تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين 1514-1830، رسالة ماجستير آثار إسلامية، جامعة الجزائر، الجزائر، 2007-2008.
- يوسف مفيدة: الجالية الأندلسية وتأثيراتها الحضارية على المجتمع الجزائري (ق 16-17م)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، 2010-2011.

إسهامات فئة الموريسكيين في الواقع الجزائري بعد سقوط غرناطة 1492م Contributions of the Moriscos to the Algerian reality after the fall of Granada in 1492 AD

ط.د. سعيد فرج/ جامعة يحي فارس / الجزائر
said feredj/ Yahya Fares University / Algeria

ملخص الدراسة:

بعد سقوط غرناطة 1492م توجهت فئة كبيرة من الموريسكيين الأندلسيين إلى الجزائر، حيث استقروا في العديد من المدن الساحلية الجزائرية مثل مدينة الجزائر، وهران، تلمسان وغيرها من المدن، وبعد أن استقروا في موطنهم الجديد عملوا على التكيف والتأثير فيه في مختلف مجالات الحياة، حيث نجد أثرهم بارزاً في الميدان الثقافي والفني من خلال بناء المراكز العلمية، ونشر علومهم ومعارفهم، والتأثير بذوقهم الفني والمعماري على الواقع الجزائري، وفي المجال الاجتماعي تفاعلوا كذلك مع المجتمع الجزائري بحيث أصبحوا عنصراً فاعلاً ومؤثراً فيه من خلال عاداتهم وتقاليدهم وغير ذلك من الخصائص الاجتماعية الخاصة بهم .

وعلى المستوى الاقتصادي كانت لهم لمسة وتأثير واضح ويظهر ذلك في ميدان الزراعة، والصناعة، والتجارة، وعلى المستوى العسكري كان لهم تأثير كذلك في الأوضاع العسكرية التي عرفت الجزائر من خلال جهودهم المبذولة في العمليات البحرية الحربية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط أو في الدفاع عن الجزائر من الحملات الأوروبية التي استهدفتها، ومن خلال مساعدة الحكام العثمانيين في تثبيت الحكم والقضاء على الانتفاضات والثورات الداخلية، انطلاقاً مما سبق سنتطرق في بحثنا هذا إلى أثر وإسهامات فئة الموريسكيين على الواقع الجزائري بعد سقوط غرناطة 1492م .

الكلمات المفتاحية: الجزائر، أثرهم الثقافي، أثرهم الاجتماعي، أثرهم الاقتصادي. أثرهم العسكري.

Abstract:

After the fall of Granada in 1492 AD, a large group of Andalusian Moriscos went to Algeria, where they settled in many Algerian coastal cities such as Algiers, Oran, Tlemcen and other cities, and after they settled in their new home, they worked to adapt and influence it in various areas of life, where we find their impact prominent in the cultural and artistic field through the construction of scientific centers, the dissemination of their sciences and knowledge, and the influence of their artistic and architectural taste on the Algerian reality, and in the social field they also interacted with Algerian society so that They became an active and influential element in it through their customs, traditions and other social characteristics.

At the economic level, they had a clear touch and influence, and this is evident in the field of agriculture, industry, and trade, and at the military level, they also had an impact on the military situation that Algeria experienced through their efforts in naval military operations in the western basin of the Mediterranean or in defending Algeria from the European campaigns that targeted it, and by helping the Ottoman rulers to consolidate power and eliminate internal uprisings and revolutions Based on the above, we will address in this research the impact and contributions of the Morisco category on the Algerian reality after the fall of Granada in 1492.

Keywords: Moriscos, Algeria, cultural impact, social impact, economic impact, Military impact.

مقدمة:

المعروف تاريخياً أن المسلمين الذين استوطنوا الأندلس بعد فتحها ونشر الإسلام فيها كانت لهم العديد من الإسهامات الحضارية في المنطقة، حيث شيّدوا حضارة راقية يشهد لها حتى بعض الأوروبيين الذين يعرفون بالوسطية والاعتدال في إصدار الأحكام، إلا أن هذا الوجود وإن كان ذو تأثير إيجابي على المنطقة كان محل حقد وكرهية من قبل الأوروبيين في شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث عملوا بكل الوسائل المتاحة لطرد المسلمين من المنطقة، وقد نجحوا في ذلك مع مرور الوقت بعد أن دب الضعف عند المسلمين في الأندلس، حيث مثلت سنة 1492م سقوط آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس.

بعد سقوط غرناطة وجد هؤلاء الموريسكيين في المنطقة المغربية بما فيها المغرب الأوسط أو الجزائر الملاذ الآمن لهم، لذلك توجهت فئة منهم نحو البلاد الجزائرية أين استقروا في مختلف مدنها الساحلية، وبطبيعة الحال أن هؤلاء الموريسكيين كانوا يدركون أن رجوعهم إلى الأندلس شبه مستحيل لذلك نقلوا كتبهم وأسرهم وكل ما استطاعوا إليه سبيلاً، وأخذوا في التفاعل مع بيئتهم وموطنهم الجديد في مختلف المجالات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية.

حيث نجد صبغة وتأثير هذه الفئة واضحاً جلياً في المجال الثقافي من خلال نشر علومهم ومؤلفاتهم في الوسط الثقافي الجزائري، كما نرصد إسهامات علمائهم في تعليم طلبة العلم الجزائريين، وإنشاء وتأسيس المدارس والمعاهد العلمية، كما نشروا ذوقهم الفني في الوسط الفني الجزائري، حيث كانت الموسيقى الأندلسية أهم مظهر من مظاهر هذا التأثير، وفي فن العمارة والزخرفة نجد صبغتهم واضحة جلية كذلك، أما في المجال الاجتماعي فنجد كذلك تأثيراتهم واضحة جلية من خلال طريقة اللباس وطبيعته ومختلف العادات والتقاليد، بالإضافة إلى أنهم أصبحوا يمثلون عنصراً أساسياً من التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري إضافة إلى بقية الفئات الأخرى.

وفي المجال الاقتصادي كانت لهم تأثيرات كذلك في بعض المحاصيل الزراعية التي ظهرت لأول مرة في الجزائر وكان الفضل فيها لهذه الفئة، وكذلك الحال في بعض الحرف والصناعات، وبعض الممارسات التجارية التي سيطروا فيه بجزء كبير على المبادلات التجارية، وفي المجال العسكري وإن كانت تأثيراتهم ضعيفة نوعاً ما إلى أنهم التفوا حول المجاهدين الذين كانوا يعملون على تحرير المدن الساحلية الواقعة تحت الاحتلال الإسباني ومواجهة مختلف حملات الاعتداء الأوروبي على المدن الجزائرية، انطلاقاً مما سبق سنعمل في دراستنا هذه على الإجابة على الإشكالية التالية: ما مدى تأثيرات فئة الموريسكيين على الواقع الجزائري عقب سقوط غرناطة 1492م؟ وللاجابة على هذه الإشكالية سنقسم بحثنا هذا إلى العناصر التالية:

- 1- الأثر الثقافي والفني لفئة الموريسكيين في البلاد الجزائرية بعد سقوط غرناطة 1492م
- 2- الأثر الاجتماعي لفئة الموريسكيين في البلاد الجزائرية بعد سقوط غرناطة 1492م
- 2- الأثر الاقتصادي لفئة الموريسكيين في البلاد الجزائرية بعد سقوط غرناطة 1492م

3- الأثر العسكري لفئة الموريسكيين في البلاد الجزائرية بعد سقوط غرناطة 1492 م .

تمهيد

تاريخياً لا يرجع سبب تواجد الأندلسيين في منطقة الجزائر أو المغرب الأوسط إلى الفترة التي عرفت سقوط غرناطة آخر معقل من معاقل المسلمين بالأندلس سنة 1492م فقط وإنما وجدت صلوات قبل ذلك عبر فترات زمنية طويلة باعتبار أن منطقة الجزائر تتوسط المنطقة المغاربية (سعيدوني، 2013، صفحة 7) وبالتالي شكلت منطقة استقطاب لمسلمي الأندلس إلا أنه بعد هذا الحدث الكبير ازدادت الصلات بين مسلمي الأندلس وسكان منطقة المغرب الأوسط، ومَرَدُّ ذلك أنه نتيجة الاضطهاد الكبير الذي مارسه الأوروبيين اتجاه عقيدة ولغة وأملاك مسلمي الأندلس قرر هؤلاء الانتقال إلى المنطقة المغاربية بما فيها المغرب الأوسط حفاظاً على هويتهم وأملاكهم وحياتهم (القاسم، 1998، صفحة 148) .

من الأسباب التي جعلت المغرب الأوسط أو الجزائر منطقة استقطاب كبرى لهؤلاء الموريسكيين نجد القرب الجغرافي بين الموطن الأصلي لهؤلاء الموريسكيين وبين المدن الساحلية الجزائرية حيث كان مسلمي الأندلس يتطلعون إليها منذ أن استوطنوا الأندلس بعد الفتح الإسلامي لها، وذلك بعدما أصبح البحر الأبيض المتوسط يشكل همزة وصل بين العدوتين أو الضفتين الشمالية والجنوبية، وعن المسافة الفاصلة بين الضفتين يذكر اليعقوبي أنها تقدر بمائتا كيلومتر بين السواحل الجزائرية ومناطق شبه الجزيرة الإيبيرية في قطلونيا وجزر البليار وسواحل فالنسيا وأليكانتي ومرسيه والمريه (إيبالنا، 2005، صفحة 249 250) .

من بين الأسباب كذلك نجد الإمكانيات الكبيرة الموجودة في المدن الساحلية الجزائرية، وتوفر الأمن بها (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، 1993، صفحة 108) إضافة إلى هذه الأسباب نجد أثر الجهود الكبيرة التي قام بها الحكام العثمانيين بإيالة الجزائر مثل عروج وخير الدين بربروسة في إنقاذ هؤلاء الموريسكيين من الاضطهاد الذي كانوا يتعرضون له عن طريق تسخير سفنهم البحرية لنقلهم، ونظرا لتركز الحكام العثمانيين في بداية القرن 16م بالجزائر كان من الطبيعي أن ينقلوهم إلى هذه المنطقة واستمرت عمليات الإنقاذ والنقل على يد البحارة الجزائريين عبر فترات الزمن المختلفة التي استمرت فيها هجرة الموريسكيين إلى الجزائر أمثال حسن فينتزيانو الذي تمكن سنة 1584م من نقل ألفي أندلسي، كما تمكن مراد راييس من نقل عدد كبير منهم إلى الجزائر بعد الغارة التي شنها على لورقة غرب قرطاج (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، الصفحات 11-16) .

ازداد عدد الوافدين الموريسكيين لأرض الجزائر عقب فرار التنصير القصري والطردي الإجباري الذي أصدره الملك الإسباني فيليب الثاني 1609-1614م الذي كان يهدف من خلاله إلى تصفية العنصر الإسلامي من إسبانيا، لذلك اضطر من بقي من المسلمين عقب عمليات المغادرة التي سبقت هذه الفترة المسارعة للتوجه نحو المنطقة المغاربية بما فيها الجزائر، حيث غادرت أعداد ضخمة من المزارعين والصناع والتجار الأندلس وتوزعوا في مختلف سواحل المغاربية بما فيه

المدن الساحلية الجزائرية (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، صفحة 107 108) من هذه المدن التي عرفت أكبر تواجد مورسكي بها مدينة الجزائر حيث بلغ عددهم فيها 25000 مورسكي حضوا فيها باستقبال حسن نظراً لوجود جالية أندلسية في مدينة الجزائر استوطنت بها قبل قرار الطرد (زروق م.، 1998، صفحة 131).

يشير حنيفي هلايلي إلى أنه من خلال استقراء الوثائق العثمانية الموجودة بالأرشيف الجزائري يمكن تحديد ومعرفة الأماكن التي استوطن فيها هؤلاء المورسكيين في مدينة الجزائر حيث نجدهم يتمركزون قرب الأسواق والدكاكين، والشوارع، الحومات، والزنقات، أو بالقرب من الأماكن المقدسة كالمساجد، والزوايا، والهيكل العمرانية الرئيسية مثل الحمامات، والعيون، والفنادق، والأفران (هلايلي، 2008، صفحة 207) ومن المدن الأخرى التي استقر بها المورسكيون كذلك مدينة وهران التي استقبلت 22000 موريسكي ونظراً لكثرة عددهم وعجز المدينة على احتوائهم كلهم توجه بعضهم إلى المدن المجاورة لمدينة وهران مثل تلمسان ومستغانم (زروق م.، 1998، صفحة 131) وأرزيو، المرسى الكبير وهذا ما ذكره المقري في كتابه نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 17) كما استقروا في بعض المدن الأخرى الوسطى والشرقية مثل شرشال، تنس، دلس، بجاية، عنابة، حيث وجدوا في هذه المدن أرضاً كأرضهم وأهلاً كأهلهم فستوطنوها وأسهموا في كل مجالات الحياة بها (القاسم، 1998، صفحة 148) ثقافياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وعسكرياً.

وبعد أن عرفنا واقع توافد المورسكيين على المدن الساحلية الجزائر كان من الطبيعي أن ينتج عن هذا التوطن في هذه المدن العديد من الآثار والاسهامات في مختلف المجالات وخاصة وأن المورسكيين تأكدوا من استحالة رجوعهم لموطنهم الأصلي.

1- الأثر الثقافي والفني لفئة المورسكيين في البلاد الجزائرية بعد سقوط غرناطة 1492م

لقد أثر المورسكيون الذي وفدوا على المدن الجزائرية تأثيراً إيجابياً على المستوى الثقافي والفني حيث ساهموا في تعميق الانتماء الحضاري العربي الإسلامي لدى الجزائريين، وكان لهم فضل كبير في دعم وتوطيد مكانة العلماء والفقهاء في وسط المجتمع الجزائري، كما كانت لهم إسهامات كبيرة في ميدان التعليم حيث أنشؤوا عديد المراكز العلمية مثل الزوايا والمعاهد العلمية التي أضحت مقصداً لطلبة العلم في مختلف العلوم والمعارف سواء تلك اللغوية أو الدينية التي كانت هي السمة الغالبة، وحتى بعض العلوم العصرية مثل الحساب، الفلك، المنطق، الطبيعة، التاريخ، من أمثلة هذه المراكز التي أسسوها نجد: زاوية أهل الأندلس بمدينة الجزائر، زاوية سيدي أحمد الكبير الأندلسي بالبليدة، زاوية سيدي علي بن مبارك بلقليعة (سعيدوني، الأندلسيون (المورسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، الصفحات 118-120) إضافة إلى كتبهم ومؤلفاتهم التي نشرها بعدما جاؤوا بها من بلادهم باعتبار أن فئة من هؤلاء المورسكيين كانوا علماء في موطنهم الأصلي بالأندلس.

من أمثلة ذلك أيضاً أن أحد المورسكيين وهو محمد بن الشارف البولداوي قام ببناء مدرسة مازونة المشهورة التي تخرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء، والتي ظلت محافظة على سمعتها العلمية رغم التحولات السياسية التي شهدتها الجزائر في تلك الفترة (القاسم، 1998، صفحة 183) وبطبيعة الحال لما كانت شخصية بعض من هؤلاء الوافدين المورسكيين من العلماء والمثقفين كان من الطبيعي أن يوظفوا علومهم ومعارفهم في الوسط الثقافي الجزائري الذي أصبحوا جزءاً منه وعاملاً مؤثراً فيه.

كما كان للمورسكيين إسهامات في مجال الخط، الوراقة، صناعة الكتاب، الطب (القاسم، 1998، صفحة 148) وأثروا كذلك بلهجتهم العربية التي كانت سائدة في غرناطة على سكان المدن الجزائرية الكبرى التي استوطنوها مثل مدينة تلمسان، ومدينة الجزائر، ويرجع سبب تأثر سكان المدن الجزائرية بها نظراً لرقعة مخارج حروفها، وسهولة التلفظ بها، ولغناها بالمفردات والعبارات الرقيقة التي كانت تعكس طبيعة الحياة المادية لهذه الفئة لما كانوا يتواجدون بأرض الأندلس (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 26) والتي ينطق فيها القاف ألفاً (سعيدوني، الأندلسيون (المورسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، صفحة 118).

كما كان للمورسكيين تأثير في المجال الفني حيث كانوا مولعين بنظم الموشحات والمدائح النبوية، فمثلاً في مدينة تلمسان اشتهر محمد بن مسايب الأندلسي بنظم الموشحات وتلحينها، حيث نُسب إليه نظم حوالي 3034 قطعة شعرية "مألوف" أغلبها في المدائح النبوية، وفي مدينة الجزائر عرف محمد الشاهد الأندلسي بتريده موشحات بن سهيل وأبي الزهرة ولسان الدين ابن الخطيب (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 25).

من تأثيرات المورسكيين في الجانب الفني كذلك وجود نوع من الموسيقى الخاص بهم وهو موسيقى الحضر أو الأندلسية والتي تتميز بخصائص تختلف عن غيرها من أنواع الموسيقى الموجودة في الجزائر من حيث الآلات الموسيقية، حيث كانت تعتمد على الرباب ذو الوترين الذي يلامس القوس، ثم العود الذي يحتوي على أوتار أكثر من أوتار الرباب وهناك أحجام مختلفة من القيتار، كما تتميز الموسيقى الأندلسية بأنغام تختلف عن بقية أنواع الموسيقى بالجزائر، ونظراً لحسن وجمالية هذه الموسيقى كانت الحفلات والمناسبات تُقام اعتماداً عليها لدرجة أنه كان في بعض الأحيان تعزف هذه الفرق الموسيقية طوال الليل دون ضجر المستمعين ودون إحداث أي هرج منهم (القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، 1998، صفحة 442 443).

بطبيعة الحال هذا الاستحسان الذي كان تلقاه الموسيقى الأندلسية ساهمت في انتشارها وازدياد تأثيرها ونفوذها على الأذواق الجزائرية لأن الإنسان يختار ويميل للأحسن بغض النظر عن الفئة التي تقف وراء ذلك المنتج، وهو دليل كذلك على أن إفراط المسلمين في التعاطي مع الموسيقى واللها وإهمال سنن القوة والتمكين كان من أسباب زوال حكم المسلمين في الأندلس، وهو نفس المبدأ الذي ذكره عبد الرحمان ابن خلدون في كتابه المقدمة حيث ذكر بأن الغلو في الترف والتنعيم يتسبب في فناء الأمم وزوال الملك عنهم (خلدون، 1984، صفحة 187) ولعل تلك الحفلات الموسيقية التي

كانت تقام في الإمارات الإسلامية بالأندلس كانت من بين أكبر مظاهر ذلك الترف الذي أشار إليه عبد الرحمان ابن خلدون .

وفي مجال العمران كان للموريسكيين تأثير كذلك على الذوق العمراني في البيئة الجزائرية، حيث جلبوا معهم مهارة صناعة البناء وأثروا تأثيراً كبيراً في العمران الجزائري ولا سيما في القلاع والقصور (القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، 1998، صفحة 446) بحيث كانوا يستعملون القرميد بدل السطوح التي كانت شائعة من قبل، كما استخدموا الزخارف والمجصصات، وتفننوا في تشكيلها وتخريمها، ويظهر ذلك في المساجد التي بنوها وفي المدن التي أضفوا صبغتهم العمرانية عليها مثل مليانة وتنس وغيرها من المدن (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 25) الأمر الذي جعل هذه الصبغة العمرانية الأندلسية أكثر تأثيراً في المجتمع الجزائري هي جمالياتها ودقتها وحسنها فكان من الطبيعي أن تكون موطن استحسان لدى المجتمع الجزائري، وبالتالي ظهر أثر هذا الذوق العمراني بارزاً ومؤثراً على بقية الأذواق الأخرى .

2- الأثر الاجتماعي لفئة الموريسكيين في البلاد الجزائرية بعد سقوط غرناطة 1492م

عقب توافد العديد من الموريسكيين على المدن الساحلية الجزائرية ارتفع عدد سكان المجتمع الجزائري بعدما عرف انهياراً ديمغرافياً وانكماشاً بشرياً نتيجة الأوبئة والمجاعات التي تعرض لها المجتمع الجزائري وخاصة مع ضعف الرعاية الصحية وضعف المنظومة الصحية عامة (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 20) حيث قُدر عدد المنازل الأندلسية في مدينة الجزائر على سبيل المثال أواخر القرن 10هـ/ 16م حوالي ألف منزل ثم تضاعف مع مطلع القرن 17م بعد قرار الطرد القصري، أين ارتفع عدد الأسر الموريسكية قُدرت بحوالي ألفي عائلة سنة 1029هـ/ 1619م معظمهم من الثغريين والغرناطيين، لكن مع القرن 12 و13هـ/ 18 و19م أصبح من الصعب إحصائهم نتيجة انصهارهم مع بقية الفئات الأخرى، إلا أنه وُجدت بعض التجمعات السكانية الخاصة بهم في عديد المدن الجزائرية مثل البليدة، القليعة، شرشال، تنس، بجاية، عنابة، جيجل، تلمسان، مستغانم، في هذه الفترة (شويتام، 2006م، صفحة 57 58) .

يرجع السبب في القدرة على إحصائهم خلال فترة القرن 16 و17م وخاصة 16م إلى أنهم في هذه الفترة كانوا يرون أنفسهم فئة متميزة ومتفوقة لذلك تمركزوا في مناطق محددة وبقية عقدة التفوق تجعلهم متميزين عن غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى، وهذا ما سهل من عملية إحصائهم، إلا أنه مع مرور الزمن زالت عقدة التفوق وأصبح من الصعب إحصائهم حيث انصهروا مع بقية الفئات الأخرى مع نهاية القرن 18م، وهذا ما أشار إليه الرحالة الأوروبيين حيث ذكروا بأن عددهم عشية الاحتلال الفرنسي لم يتجاوز 70 رجلاً (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 27) وهذا الانصهار دلالة على تأثيرهم وتأثرهم مع بقية الفئات الاجتماعية الأخرى في المدن الجزائرية التي استوطنوا بها .

من بين مظاهر الأثر الاجتماعي التي ساهمت فيه فئة الموريسكيين ظهور بعض علاقات المصاهرة بين العائلات الموريسكية وبقية الفئات الأخرى ولو أنها كانت قليلة جداً من أمثلة ذلك أن أحد الموريسكيين المدعو سيدي أحمد الكبير

أقام علاقات مصاهرة مع قبيلة أولاد سلطان المقيمة في مدينة البليدة، وبذلك ساهمت علاقة المصاهرة هذه في استقطاب عديد الأسر الموريسكية للمنطقة ورتفع على إثرها عدد سكانها حيث أصبحوا يشكلون نصف سكانها إلى غاية سنة 1825م حينما ضرب زلزال بمدينة البليدة أدى إلى تحول هذه المنطقة إلى مدينة صغيرة بعد وفاة عدد كبير من سكانها (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، 1993، صفحة 110) .

يظهر أثر فئة الموريسكيين على المستوى الاجتماعي كذلك في إضفاءهم صبغة خاصة بهم في مظاهر الاحتفال بالمناسبات الدينية مثل المولد النبوي الشريف، وعاشوراء، وعيد الأضحى، وعيد الفطر وغيرها من المناسبات الأخرى مثل الزواج، وحفلات الختان، حيث كانت تقدم مختلف أنواع الحلويات والأطعمة الأندلسية في هذه المناسبات وهذا ما جعل الذوق الأندلسي ذا تأثير كبير في المجتمع الجزائري (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، 1993، صفحة 117) بحيث كان له تأثير وانعكاس ايجابي في نفوس بقية الفئات الأخرى في المجتمع الجزائري، إذ أصبحوا يرونهم نموذج راقٍ لطريقة العيش والتعامل ومثال يُحتذى به في نمط العيش .

من مظاهر تأثير فئة الموريسكيين في المجال الاجتماعي أنهم أصبحوا يشكلون طبقة برجوازية في المدن بعد أن سيطروا على التجارة والزراعة والصناعة وبالتالي أصبحت رؤوس الأموال بأيديهم، ويتجلى تأثيرهم الكبير في هذا الموضوع أن هذه الطبقة لم تكن موجودة قبل مجيء فئة الموريسكيين وبالتالي ظهرت كطبقة في المجتمع الجزائري نتيجة تأثير فئة الموريسكيين (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 25) كذلك من مظاهر تأثير فئة الموريسكيين في المدن الجزائرية على المستوى الاجتماعي ظهور ألقاب جديدة تُعبر وتُدل على الأصول الأندلسية من أمثلة هذه الألقاب: الأبلي، الغبري، الكبابطي، ابن النيقرو (هلايلي، 2008، صفحة 206) .

من اسهامات وتأثيرات الموريسكيين كذلك على المجتمع الجزائري أنهم خصصوا بعض من أوقافهم التي كانت تسمى أوقاف الأندلسيين لتحقيق التضامن الاجتماعي (هلايلي، 2008، صفحة 206) من خلال مساعدة فقراء، والقيام بمختلف الأعمال الخيرية .

تجدر الإشارة إلى أن فئة الموريسكيين تركز استيطانها في المدن حيث اندمجوا مع سكان المدن، أي أنه غلب عليهم الطابع الحضري وهذا ما أكدته الرحالة الفرنسي "لاغير دي تاسي" خلال القرن 18م بقوله: "معظم هؤلاء يعيش في المدن حيث كانت لهم ممتلكات جمعوها نتيجة عملهم... لا نرى في المدن تقريبا إلا المسلمين الذين طردوا من إسبانيا" (إيبالثا، 2005، صفحة 278) وتفسير ذلك راجع للبيئة التي كان يعيش فيها هؤلاء الموريسكيين في موطنهم الأصلي بالأندلس فكما هو معروف أن المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية أسسوا حضارة راقية كان من أهم ملامح هذه الحضارة تشييد المدن الكبيرة التي تضم مختلف وسائل الراحة والرفاهية التي تحتاجها الشعوب والأمم في مسيرتها الحياتية، وهذا ما يفسر سبب استقرارهم وتركزهم بالمدن في البلاد الجزائرية .

3- الأثر الاقتصادي لفئة الموريسكيين في البلاد الجزائرية بعد سقوط غرناطة 1492م

بعد أن استوطنت فئة كبيرة من الموريسكيين عديد المدن الجزائرية الساحلية أدركت صعوبة الرجوع لموطنها الأصلي في الأندلس لذلك كان لزاماً عليها التكيف مع موطنها الجديد وخاصة وأنها توفرت عديد العوامل التي سهلت من عملية تكيفها مع بيئتها الجديدة وعلى رأسها الترحيب والدعم الذي لقيته من المجتمع الجزائري سواء على مستوى السلطة أو على المستوى الشعبي على الرغم من وجود بعض التصرفات العدائية من بعض الأفراد إلا أنها قليلة جداً، ومع توفر المؤهلات والموارد الاقتصادية الجيدة في البلاد الجزائرية عملت هذه الفئة على توظيف مهارتها ورأس مالها لاستغلال هذه المؤهلات والمقدرات خدمة لنفسها وللمجتمع الجزائري عامة، حيث تنوعت نشاطاتها في الميدان الاقتصادي وتلمس هذا الأثر أو الإسهامات التي قامت بها على مستوى الزراعة، والصناعة، والتجارة .

أ – تأثيرهم في مجال الزراعة

لقد بذلت فئة الموريسكيين مجهودات كبيرة في الميدان الزراعي حيث عملوا على استصلاح الأراضي الشاسعة التي استوطنوها في كل من نواحي سهول متيجة، شرشال، البليدة، عنابة، البليدة، وهران، تلمسان (هلايلي، 2008، صفحة 168) واستحدثوا في سبيل استغلال هذه الأراضي طرق جديدة للري من خلال إنشاء العيون والسواقي، وجلب المياه إلى المدن وتنظيم الري (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 19) كما قاموا ببناء الأحواض والصباريح، ومد السواقي والقنوات، وبنوا الحنايا والقناطر، وأسسوا النوريات (الناعورات) (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، 1993، صفحة 112) .

أثرت جهود الموريسكيين في ميدان استصلاح الأراضي واستحداث طرق الري بشكل إيجابي على الميدان الزراعي حيث ظهرت العديد من الأشجار المثمرة التي يعود للموريسكيين الفضل في ظهورها مثل التوت، الليمون، اللارنج، كما كان لهم فضل في تطوير إنتاج بعض الأشجار المثمرة الموجودة في البلاد الجزائرية من خلال تحسين نوعها عن طريق التلقيح والتطعيم مثل البرتقال، المشمش، التفاح، الرمان، الأجاص، الكرز(حب الملوك)، اللوز، الكروم، الجوز، الزيتون، وبعض أنواع البطيخ، كما كان لهم فضل في إدخال بعض الخضرة التي لم تكن موجودة في البلاد الجزائرية قبل مجيئهم مثل الفلفل، الطماطم، البطاطس، الباذنجان، السبانخ، الزعفران، القرنون، الملفوف، الكرنب، القرمز، الجلبان... الخ (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، 1993، صفحة 112) .

من أمثلة الأثر الموريسكي في الميدان الزراعي نجد أن أحد الشيوخ الموريسكيين وهو "مصطفى قردناش" قام بغرس حوالي ثلاثين ألف عود زيتون في عنابة، كما اشتهرت منطقة برشك في مدينة البليدة بالجودة في إنتاج التين وبوفرة المحاصيل نتيجة اعتناء الموريسكيين بها منذ أواخر القرن 15م (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 21) وفي مدينة شرشال كان لهم إسهام كبير في هذا الميدان، حيث ذكر

مارمول كبرخال أن مسلمي الأندلس بفضل مهارتهم ساهموا في إقامة العمران بهذه المدينة وتمكنوا بفضل مهارتهم من امتلاك أراضي مزروعة على مساحات شاسعة غرسوا فيها مختلف أنواع الأشجار المثمرة مثل الكروم والزيتون، ونظراً لحاجتهم لإنتاج الحرير باعتبار هذا النشاط كان من الأنشطة التي اختصوا بها قاموا بغرس شجرة التوت كي تقتات منها دودة القز التي توفر هذه المادة المهمة لإنتاج الحرير (كبرخال، 1989، صفحة 356).

ب- الصناعة

ساهمت فئة الموريسكيين في الحفاظ على عديد الصناعات المحلية الجزائرية (هلايلي، 2008، صفحة 157) ذلك أنه بعد استقرارهم بالمدن الجزائرية عملوا على إقامة المشاغل، وإنشاء الورشات لمختلف المهن والحرف والصناعات مثل الحدادة، النجارة، الخياطة، الخزف، الجلد، الحرير التي اشتهرت بها مصانع الحرير الأندلسية في مدينة الجزائر والقليلة وبرشك، والتي كانت تغطي احتياجات المدن الرئيسية ويصدر جزء منها لبقية الأقطار المجاورة مثل تونس (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 22) من مظاهر الأثر الكبير لفئة الموريسكيين كذلك في ميدان الصناعات النسيجية أن مدينة الجزائر وحدها في مطلع القرن 11 هـ/ 17م كانت تضم 600 حرار و 200 نساج كلهم من فئة الموريسكيين (شويتام، 2006م، صفحة 224) وهذا دليل على الأثر الكبير الذي خلفته فئة الموريسكيين في هذا النوع من الصناعة.

إضافة إلى دور فئة الموريسكيين في الحفاظ على بعض الصناعات وتطويرها مثل صناعة الشاشية (الطربوش) التي خُصص لها سوق بفضل ازدهارها، وصناعة نسيج الزرابي، كان لهم فضل كذلك في ظهور صناعات جديد في المدن الجزائرية بعد أن استوطنوها من هذه الصناعات صناعة الشبكة التي توارثتها المهاجرات الأندلسيات عن أمهاتهم، وصناعة نسيج القطيفة "المخمل" التي اقتص بها الموريسكيون الذين قدموا من غرناطة (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 22) ومن الصناعات التي تميز بها الموريسكيين أيضاً صناعة التطريز، وصناعة الصابون، وصناعة المجوهرات والحلي (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، صفحة 114).

ج - التجارة

كان للموريسكيون أثر بارز في ميدان التجارة حيث استطاعوا احتكار ميدان المبادلات التجارية بفضل امتلاكهم رؤوس الأموال، وبفضل مهارتهم في توظيفها في مجال المبادلات التجارية، حيث وظفوا رؤوس أموالهم التي جلبوها معهم من موطنهم الأصلي أو تلك التي جمعوها نتيجة ممارستهم لمختلف الأنشطة الاقتصادية في البلاد الجزائرية لأجل تنمية ثروتهم وتنشيط حركتهم التجارية (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 23) ومن الأدلة التي تثبت قوة رأس مال و ثروات الموريسكيين حسب شهادة الراهب الإسباني فرانثيسكو خيمينيث أن أحد الموريسكيين وهو مصطفى بن عمار كان من أكبر أثرياء الجزائر يمتلك أكبر عدد من العبيد ولديه أكثر من مائة أسير (إيبالثا، 2005، صفحة 281) وحينما نعلم بأنه يملك مائة أسير هذا معناه أن الأموال التي سيجمعها نتيجة افتداء هؤلاء الأسرى سيكون كبير جداً.

من العوامل التي ساعدت المورسكيين كذلك في السيطرة على المبادلات التجارية هي تعاونهم فيما بينهم البين سواء بين مراكزهم التجارية في البحر المتوسط أو مع المناطق المغاربية مثل تونس والمغرب الأقصى أو مع البلدان المشرقية مثل اسطمبول والإسكندرية وغيرها من المدن المشرقية، كما كان التجار المورسكيون متعاونين كذلك على المستوى الداخلي بين المدن التي يقطنون بها والأرياف المجاورة لمدنهم (إيبالنا، 2005، صفحة 282).

4- الأثر العسكري لفئة المورسكيين في البلاد الجزائرية بعد سقوط غرناطة 1492م

بعد أن استقر عدد كبير من المورسكيين الفارين من بطش واضطهاد الإسبان في مختلف المدن الساحلية الجزائرية سعوا جاهدين للانتقام ورد الاعتبار لهم، والسعي لإنقاذ أهاليهم العالقين في غرناطة، حيث كان علماءهم وصلحاءهم يعملون على إثارة الحماس ودعوة الناس لرص الصفوف وتوحيدها ضد الإسبان (سعيدوني، الأندلسيون (المورسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، صفحة 119) ومن ذلك أن بعض كبار المورسكيين اشتغلوا في ميدان الجهاد البحري أمثال الرئيس بلانكيو، والرئيس أحمد أبو علي من أشونية، ومراد الكبير جواديانو من مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية)، حيث أبلى هؤلاء بلاء حسن في ميدان العمليات البحرية الحربية ضد الإسبان (عنان، 1966، صفحة 388 389) وهذا ما أكده جون ب وولف حيث ذكر بأن خير الدين بربروسة قبل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية كان يعتمد على المورسكيين الأندلسيين في ميدان الأعمال البحرية الحربية بل وكانوا يشكلون إلى جانب العنصر المحلي العمود الفقري لأسطولهم البحري (ب. وولف، 2009).

لقد ساهمت فئة الموريسكيين في مضاعفة الكفاح ضد الإسبان وفي الثغور لنجدة أهاليهم ودفاعاً عن النفس (القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، 1998، صفحة 148) ذلك أن حدث سقوط غرناطة 1492م شجع الإسبان على محاربة المسلمين في كل مكان حتى في بلادهم وموطنهم الأصلي في الساحل المغربي الذي استوطنه الموريسكيين بعد سقوط غرناطة (التميمي، 1989، صفحة 68) لذلك سخر هؤلاء المورسكيين جهودهم وكل إمكانياتهم لتحصين المدن، وإنشاء القلاع والحصون العسكرية التي استقروا بها مثل مدينة شرشال، ومدينة الجزائر التي شيد بها جماعة من الثغرين حصناً خارج باب الوادي، كما شيدوا بأعالي المدينة بطارية تعرف بطبونة الأندلسيين التي كانت مجهزة بأربعة عشر مدفعاً وغير ذلك من الأمور التي تساعد على تقوية الجانب الدفاعي للمدينة (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 20 21).

نظراً للقابلية العسكرية التي كانت عليها فئة من هؤلاء الموريسكيين استغل حكام الجزائر أمثال خير الدين وعروج هذه الفئة ضمن أسطولهم البحري وبذلك شكلوا قوة بحرية اعتمد عليها الحكام العثمانيين في مواجهة الإسبان وفي إنقاذ الأهالي الأندلسيين، كما اعتمدوا عليهم في الوقوف ضد الانتفاضات والثورات الداخلية التي كانت تحدث في الجزائر بين الفينة والأخرى ومن أمثلة ذلك أن عروج بربروسة استعان بمجموعة من الفرسان الأندلسيين قُدر عددهم بحوالي 500 فارس من أهل غرناطة وأراغون تمكن خلالها من تشتيت قوة حاكم تنس وأعوانه في معركة بسهولة شلف كما استعانوا بهم لفرض نفوذهم في المناطق التي أخضعوها لأول مرة ومن أمثلة ذلك أنه بعد أن دخل العثمانيون مدينة

المدية وضعوا عليها حامية أندلسية إلى جانب الحامية تركية (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 20).

من بين تأثيرات وإسهامات فئة الموريسكيين في البلاد الجزائرية على المستوى العسكري الاهتمام بصناعة الأسلحة وتحضير البارود حيث أدخلوا تقنيات جديدة في تحضير البارود، واستطاعوا بفضل اهتمامهم الكبير بصناعة الأسلحة من صنع نوع محلي من البنادق، ونتيجة اشتداد الحملات الإسبانية على المدن الجزائرية والحاجة الملحة للأسلحة عملوا على تحويل إحدى الأفران التي كانت ملك للموريسكيين - والتي كانت تُستغل في صهر النحاس - إلى مشغل لصنع نوع من المدافع لتعزيز القدرات الدفاعية لمدينة الجزائر خلال القرن 17م (سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، 1993، صفحة 109 119).

إلى جانب دورهم الجهادي والدفاعي عن المدن الجزائرية ساهموا كذلك في توطيد الحكم العثماني في الجزائر حيث تشير العديد من الدراسات التاريخية إلى أن الموريسكيين ساهموا بدور كبير في استقرار وتوطيد الحكم العثماني الثاني في الجزائر خلال الفترة 1614-1830م من خلال تواجدهم في الجيش والإدارة، وما يدل أكثر على دورهم التأثير هو أنهم كانوا فئة نشيطة في الجيش العثماني بإيالة الجزائر (سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، 2013، صفحة 20).

خاتمة

بعد سقوط غرناطة سنة 1492م توجهت فئة كبيرة من الموريسكيين إلى المدن الساحلية الجزائرية ويرجع السبب في ذلك لعديد العوامل منها القرب الجغرافي لمنطقة الجزائر من شبه الجزيرة الإيبيرية، إضافة إلى توفر الأمن في المنطقة، كما ساهمت جهود الأخوين بربروس في نقل العديد من هؤلاء الموريسكيين إلى البلاد التي كانت تحت حكمهم، وبعد أن استقر هؤلاء الموريسكيين في مختلف المدن الساحلية الجزائرية عملوا على التفاعل مع واقعهم وبيئتهم الجديدة في مختلف المجالات منها الثقافية والفنية، كما كانت لهم تأثير في المجال الاجتماعي والاقتصادي والعسكري، وبذلك شكلوا عنصراً فاعلاً في رسم الحياة العامة للبلاد الجزائرية في تلك الفترة.

انطلاقاً مما تم عرضه في بحثنا توصلنا إلى النتائج التالية:

- أن استقرار فئة كبيرة من الموريسكيين في مختلف المدن الساحلية الجزائرية خاصة والمغاربية عامة عقب سقوط غرناطة لم يكن بدافع اختياري وإنما حتمت الظروف القاهرة التي تعرضت لها هذه الفئة وعلى رأسها محاكم التفتيش في استقرارهم بهذه المناطق .

- شكلت منطقة المغرب الأوسط أو الجزائر محل استقطاب لفئة من هؤلاء الموريسكيين نظراً للإمكانيات والظروف الملائمة التي وجدت بها بالجزائر وعلى رأسها توفر الأمن، وغنى المدن الساحلية بمختلف الموارد الملائمة للعيش الكريم وهذا ما يفسر استقرار هذه الفئة وتركزها في المدن الساحلية .

- أن طبيعة هؤلاء الموريسكيين الذين قدموا إلى البلاد الجزائرية لم يكونوا من الفئات غير مرغوبة فيها أو من الفئات الغير فاعلة في المجتمع الأندلسي عقب سقوط غرناطة وإنما كان منهم العلماء والأثرياء والفنانين والتجار والبحارة وهو ما يفسر فيما بعد أثرهم وفاعليتهم في الواقع الجزائري على مختلف المستويات .

- لم تجد فئة الموريسكيين صعوبة في الاندماج مع موطنهم الجديد بالجزائر وذلك راجع إلى البيئة المشتركة التي تجمع الأندلسيين مع المجتمع والبيئة الجزائرية والمتمثلة في الدين الإسلامي واللغة العربية والتاريخ المشترك وغيرها من الخصائص المشتركة .

- بعدما أدرك الموريسكيون استحالة رجوعهم لموطنهم الأصلي وظفوا وكثفوا جهودهم للتأثير في واقعهم الجديد في مختلف مجالات الحياة .

- من العوامل المهمة التي ساعدت في ظهور الأثر الموريسكي في البلاد الجزائرية هي القابلية التي وجدها هؤلاء الموريسكيين لدى البيئة والمجتمع الجزائري في التعاطي معهم حيث الذي كان المجتمع الجزائري ينظر إليهم من باب الأخوة الدينية .

- قائمة المصادر والمراجع

- 1- أرزقي شويتام. (2006م). المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م. رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، الجزائر .
- 2- جون ب. وولف. (2009). الجزائر وأوروبا، 1500-1830. الجزائر: عالم المعرفة..
- 3 - حنيقي هلايلي. (2008). أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني. الجزائر: دار الهدى.
- 4- سعد الله أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 5- سعد الله أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 6- عبد الجليل التميمي. (1989). الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين. تونس: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات .
- 7- عبد الرحمان ابن خلدون. (1984). المقدمة. تونس: الدار التونسية للنشر.
- 8- مارمول كريخال. (1989). إفريقيا. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
- 9- محمد زروق. (1998). الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17. الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.
- 10- محمد عبد الله عنان. (1966). نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين. القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

- 11- ميكيل دى إيبالثا. (2005). *الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة .
- 12- ناصر الدين سعيدوني. (1993). الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر. *حوليات جامعة الجزائر* ، مج 7، ع 1، 107-129.
- 13- ناصر الدين سعيدوني. (2013). *دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر*. الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع.

التعريف بالفن الموريسكي الجديد من خلال بعض أعمال الصيانة والترميم -بلدية الأبيار بالجزائر كعينة للدراسة-

Introducing the new Moresque art through some maintenance and restoration works

- Al-Biar municipality in Algeria as a sample for the study-

ط.ة.د. د. شرافة أمينة / معهد الآثار- جامعة الجزائر 2 / الجزائر

د. رزيق عبد الرحمان / معهد الآثار- جامعة الجزائر 2 / الجزائر

Phd. Cherafa Amina/ Institute of Archeology - University of Algiers 2 / Algeria

Dr. Rezzik Abderahmane/ Institute of Archeology - University of Algiers 2 / Algeria

ملخص الدراسة:

ساهمت هجرة الأندلسيين الموريسكيين بعد سقوط غرناطة واستقرارهم في شمال إفريقيا في نقل مختلف العلوم والفنون الأندلسية.

في بداية القرن العشرين أدخلت تغييرات على هذا الفن في مجال العمارة والعناصر الزخرفية من طرف المستعمر الفرنسي، من خلال إظفاء اللمسة الأوروبية مما نتج عن ذلك ميلاد طراز جديد عرف بالفن الموريسكي الجديد، وانتشر في معظم مدن المغرب العربي، ومن أمثلة ذلك، في مدينة الجزائر العاصمة كالبريد المركزي، دار لادبيش، ومبنى بلدية الأبيار... ونظرا لأهمية هذا التراث حظي هذا الأخير بمشروع صيانة وترميم في سنة 2018، حيث ركزت الدراسة على بعض العناصر المعمارية كأعمدة رخامية، ومدافق وعناصر نحاسية، والتي كانت في حالة سيئة وفاقدة لحالتها الأصلية والتي تم معالجتها وتوفير لها حماية لأطول مدة ممكنة للحفاظ على هذا النوع من التراث، وكانت هذه التدخلات المعتمدة على العديد من المواد والتقنيات بهدف المحافظة عليها من خلال جملة من عمليات التشخيص، التنظيف الميكانيكي، والتدعيم والحماية. وفي هذه الورقة البحثية قمنا بتوضيح هذه التدخلات والمواد والتقنيات المعتمدة في كل تدخل، وفي الأخير زدنا العمل بمجموعة النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الفن الموريسكي، الفن الموريسكي الجديد، بلدية الأبيار، الصيانة، الترميم.

Abstract:

The migration of the Andalusian Moriscos after the fall of Granada and their settlement in North Africa contributed to the transmission of various Andalusian arts and sciences.

At the beginning of the twentieth century, changes were made to this art in the field of architecture and decorative elements by the French colonialists, by applying the European touch, which resulted in the birth of a new style known as the new Moresque art, and it spread in most cities of the Maghreb, and for example, in the city of Algiers, such as the central post office, Dar "La Dépêche", and the municipality building of Al-Biar... Given the importance of this heritage, the latter received a maintenance and restoration project in 2018, where The study focused on some architectural elements such as marble columns, fireplaces and copper elements, which were in poor condition and lost their original condition, which were treated and protected for the longest possible period to preserve this type of heritage. These interventions were based on many materials and techniques with the aim of preserving them through a number of diagnostic processes, mechanical cleaning, consolidation and protection, and in this paper we explained these interventions, materials and techniques adopted in each intervention, and in the end we provided the work with a set of results and recommendations.

Keywords: Moresque art, New Moresque art, Al-Abiar municipality, Maintenance, Restoration.

مقدمة:

يعتبر الفن الموريسكي من الفنون التي برع فيها الفنان المسلم في الأندلس والذي انتشر وتوسع بعد سقوط غرناطة ونقله الموريسكيين إلى شمال إفريقيا أين تم تجسيده كذلك على مختلف العماثر، المدنية، والدينية والعسكرية... وغيرها، فتميز كل عناصرها بالدقة في التخطيط العمراني والزخارف الفنية والألوان والأشكال، مما جعلها لها ميزة خاصة بها، أما الفن الموريسكي الجديد الذي جسد من طرف المستعمر الفرنسي كإمتداد للفن الموريسكي في الأندلس مع بعض التحويرات والتطويرات وذلك استحضانا للسكان المحليين.

استنادا لما سبق، حضيت مدينة الجزائر العاصمة، على غرار المدن الكبرى في بلد الجزائر بعمارة متنوعة بنيت، وجسد فيها الفن الموريسكي الجديد كالبريد المركزي وبلدية الأبيار التي أخذت هذه الأخيرة كعينة دراسة من خلال مخططها وعناصرها المعمارية الفنية التي تعود لهذا الفن، من خلال بعض التدخلات التي شهدتها كل من الأعمدة والمدافئ وملاحقها، على غرار بعض التدخلات التي لم يشرف عليها أخصائيو مجال الصيانة والترميم عكس المذكورة سابقا، وعليه يطرح الإشكالية الرئيسية الآتي: ما هو الفن الموريسكي الجديد من خلال بلدية الأبيار بالجزائر العاصمة؟، ويتفرع بدورها إلى تساؤلات ثانوية: ما هو الفن الموريسكي؟، وما هي العناصر المعمارية الفنية التي تتميز بها البلدية؟، وما هي أهم التدخلات التي شهدتها عناصرها قصد حفظها؟.

وفي هذا السياق والإجابة على الإشكالات والأسئلة الفرعية اعتمدنا على دراسة البلدية كعمارة تندرج ضمن العمارة الموريسكية الجديدة والتي بنيت بطرازها، كعينة دراسة للتدخلات شهدتها في سنة 2018، بدراسة نقدية لأهم التقنيات والمواد المعتمدة بذكر تفاصيلها، وتبيان أوجد التغيير والأهداف منها، وفي الأخير توخنا ورقنتنا البحثية بمجموعة من النتائج والتوصيات، والتي تصب بدورها في خانة المحافظة على الموروث الموريسكي عامة والفن الموريسكي الحديث خاصة.

1- التعريف بالفن الموريسكي:

هو الفن الذي أنتجه المسلمون بالأندلس منذ بداية فتحها سنة 93هـ وحتى تاريخ وقعة الزلاقة ينتمي هذا الطراز إلى الفن العربي الإسلامي، جمع بين المؤثرات القوطية المحلية والتقاليد البربرية منذ الفتح ثم التقاليد الشرقية الأموية بعد نجاح الإمارة ثم الخلافة الأموية، وعموما يتميز بالطابع العام للفن الإسلامي المشترك (رزقي، 2015، صفحة 53).

لقد ادخل الموريسكيون نمط و أسلوب العمارة الخاص بهم إلى مقاطعة الجزائر حيث اكتسبت أماكن تجمعهم منظرا لطيفا و هندسة مميزة، فالمنازل في أغلبها تتكون من طابق أرضي يعتمد على أعمدة خشبية ومقام بالاجر والطين المعالج بالإضافة الى الحجارة، وتفتح بيوتها المستطيلة التي تنعدم فيها التهوية الخارجية على فناء صغير تحف به الاقواس لا يخلو وسطه من عين ماء أو بئر خاص وبعض الأشجار، وفي بعض الأحيان يضاف الى الطابق الأرضي طابق آخر علوي كما في مدينة الجزائر، وقد توجد في بعض المنازل نوافذ تطل على الأزقة، وهي غالبا ماتكون صغيرة محمية بالشبابيك التي تحفي الزخارف والمجصصات والتخاريم والنقوش التي تغطي الجدران والسقوف وقد تغطي كذلك أرضية الغرف بالزليج ذوالأشكال الهندسية في بعض المنازل، أما المنظر الخارجي للمنزل فقد تميز بطلائه الأبيض الناصع بمادة الجير الذي

اشتهرت بها مدينة الجزائر التي عرفت ببلد الجير، كما استعملت سطوح منازل المورسكيون في الجزائر ملائمتها للوضع الجغرافي المنحدر المطل على البحر (سعيدوني، 1993، صفحة 122).

تظهر التأثيرات الأندلسية بالجزائر في المسجد الجامع بتلمسان، ومسجد بلحسن الذي جاء مشابها إلى حد كبير لمسجد الحمراء بالاندلس، بالإضافة إلى مجموعة من الدور منها دار الملك و دار السلطان... (الهنسي، صفحة 124)، حيث لها نفس الطراز الاندلسي بالإضافة إلى تأثرها بالطابع المحلي، لأن كل فن مهاجر لابد أن يخضع للتأثيرات المحلية (سعد الله، 1998، صفحة 393).

2- التعريف بالفن الموريسكي الجديد:

الفن الموريسكي الجديد Le néo-mauresque كلمة مكونة من néo وهي كلمة إغريقية تعني حديث أو الجديد، و mauresque وهم شعب المور الذين بقوا في شبه الجزيرة الإيبيرية المتمثلة في البرتغال واسبانيا بعد سقوط غرناطة في 897هـ (1492م) (مكي، 1999، صفحة 140)، الطراز الموريسكي الجديد هو بصمة من بصمات سياسة التحول الاستعمارية في الجزائر (amokrane, 2016, p. 43). كما يعد نهضة معمارية في عالم العمارة في فترة محددة من الزمن، تبنتها الحكومة الفرنسية بداية القرن العشرين، منح التدعيم الحكومي ليزدهر قرابة 50 سنة في ارجاع بلدان المغرب العربي (مظهر، 2008، صفحة 10)، عرف بعدة تسميات منها طراز جونار le style de Jonnart نسبة للحاكم العام الفرنسي جونار شارل الذي دعم وحمس المهندسين لإظهار هذا الطراز (مظهر، 2008، صفحة 13)، وبناء على فكرته المتمثلة في استرجاع شخصية الجزائر التقليدية ساهم في بناء نماذج جديدة مستوحاة من الطراز القديم، وظهر ذلك في المباني الإدارية التي بنيت في عهده أو التي تمت بعده مثل البريد المركزي و مقر و لاية الجزائر، البلدية و بريد الأبيار و غيرها، وشارك بعض المهرة من الجزائريين في الخط و الزخرفة و في تطوير هذا الفن (سعد الله، 1998، صفحة 403)، ففي بداية القرن العشرين، تم منح المدن الجزائرية صورة جديدة، حيث أصبح الطراز الموريسكي الجديد الشكل الجديد للتعبير عن العمارة الرسمية في جميع مدن الجزائرية تقريبا، و كانت مدينة الجزائر هي الأغنى بإعتبارها العاصمة (Boulbene-Mouadji, 2016, pp. 33-34).

3- دور الصيانة والترميم في المحافظة على التراث المعماري:

الحفظ هو مجموعة من الوسائل والتقنيات التي تحدث على القطع الأثرية أو على بيئتها بهدف إطالة وجودها لأبعد وقت ممكن، وأول هدف وغاية له هو العمل على الوصول بالمقتنيات الأثرية والثقافية للخلود، باستخدام المواد المناسبة والتي لا تؤثر على المواد الأصلية للمادة الأثرية، مع قابلية الإسترجاع وتحقيق الإنسجام، فعملية الحفظ تقوم على معرفة المادة المكونة للأثر والمحافظة على الشكل الأصلي عند التدخل، مع إزالة لمظاهر التلف والحماية من العوامل المختلفة (برديكو، 2002، الصفحات 4-5).

4- الدراسة الميدانية:

اشتملت الدراسة الميدانية على جانبين، الأول يدرس مكان الدراسة وهي بلدية الأبيار التي تعتبر عمارة موريسكية جديدة، حيث بنيت على طراز موريسكي حديث، حيث يجمع في مخططه وعناصره فن موريسكي حديث النشأة، وجانب ثان اقتصر على أهم التدخلات التي أحدثت على عناصره، فيتم التفصيل فيما كالآتي:

1-4- التعريف بمكان الدراسة (مبنى بلدية الأبيار):

- النبذة التاريخية:

تعود تسمية الأبيار الى كلمة عربية تعني جمع بئر وقد أطلقت عليها هذه التسمية لوجود عدة ينابيع كانت تمد كل مدينة الجزائر بالماء من أشهر العيون عين بئر طرارية (المجلس الشعبي للدائرة الحضارية الأبيار، 1999، صفحة 2). تعد بلدية الأبيار (الصورة رقم 1) إحدى أقدم وأجمل بلديات الجزائر العاصمة ويرجع تاريخ تأسيسها الى سنة 1835، حيث استطاعت بفضل موقعها المتميز المشرف على العاصمة، وحدائقها الرائعة ومناخها اللطيف ومنابعها المتعددة أن تكتسب مكانة هامة ومميزة عبر التاريخ، وهذه المميزات تعود إلى حقبة تاريخية بعيدة (المجلس الشعبي للدائرة الحضارية الأبيار، 1999، صفحة 3)، فقد عرفت بقصورها ذات الطابع الموريسكي حيث كان مكان مخصص حصريا لأثرياء المجتمع في ذلك الوقت، اذ تعتبر من بين المناطق التي استقرت فيها القبائل الاندلسية القادمة من الاندلس، وسرعان ما أصبحت الأبيار مدينة ذات معايير أوروبية في الفترة الاستعمارية (نعيم، 2018)، غير أن الحركة المعمارية التي قادها جونار ساهمت في إعادة الاعتبار للفلسفة المعمارية-الاندلسية-العثمانية في قلب المدينة الجديدة الأوروبية، إذ احتلت البنايات الموريسكية الجديدة الشوارع و الساحات الرئيسية (algeria7، 2015)، ففي ساحة كارنوت carnot المعروفة حاليا بساحة كينيدي تم إنشاء مقر بلدية الأبيار على مفترق طريق clemenceau و gallieni بالإضافة إلى مكتب البريد والمدرسة بالإضافة الكنيسة الأنجليكانية التي أنجزها بوكنال (Bucknal) سنة 1909م، كما أنجزت فيلات على الطراز الموريسكي الجديد في هذه المنطقة لأثرياء المستعمر لقضاء موسم الشتاء (babzman, 2020).

- الموقع الجغرافي:

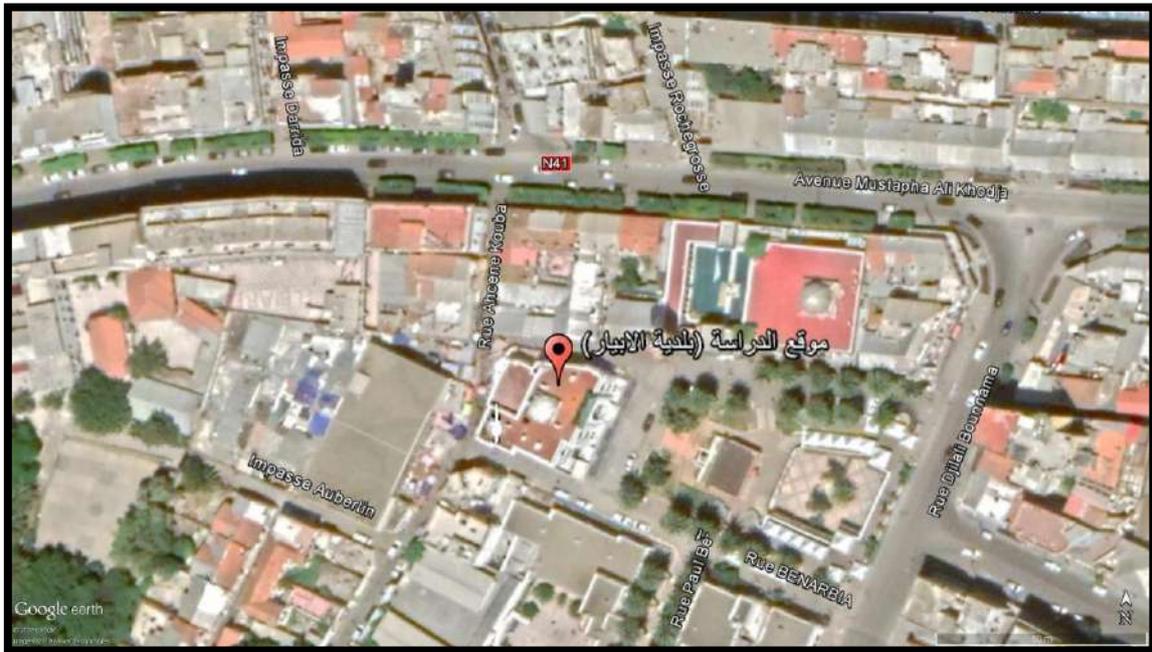
هي بلدية جزائرية، تقع في ولاية الجزائر العاصمة (الصورة رقم 2) وجزء من تكتل الجزائر العاصمة، تقع بين إحداثيات 36°، 46°، 06° شمالا و 03°، 01°، 50° شرقا، وسط مدينة الجزائر في أعالي العاصمة (wikipedia, 2020).

الصورة رقم 1: بلدية الأبيار حاليا.



المصدر: عن الباحثين.

الصورة رقم 2: موقع الأبيار.



المصدر: بتصرف (googleearth, 2023)

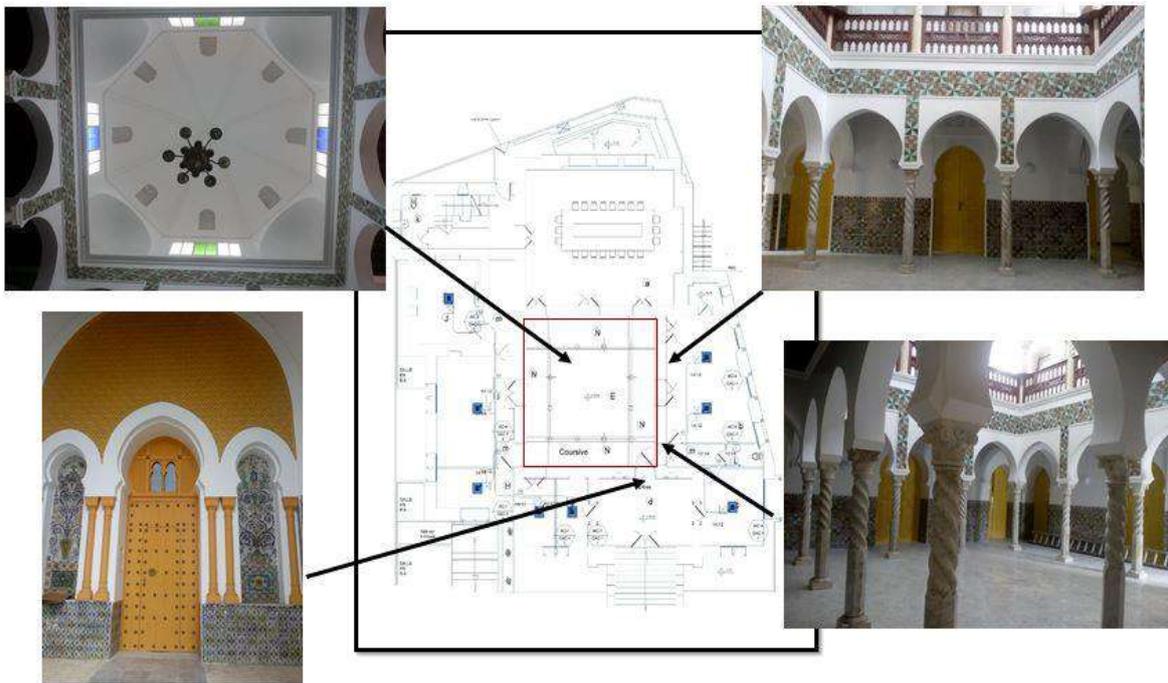
2-4: وصف العمارة:

يتكون المبنى من طابقين، فيحتوي طابقها الأرضي ومحاط بـ 12 عمود من الرخام، لها نفس الطراز (تاج مركب). أما الطابق العلوي به أيضا 12 عمود من التوف تحمل نفس طراز الطابق السابق الذكر، إضافة الى الطابق تحت أرضي.

كل واجهة تختلف عن الأخرى في تصميمها و تنفرد الواجهة الرئيسية ذات مدخل معقود تتقدمها سلالمة من الرخام، ويلى مباشرة المدخل الرئيسي المهو تعلوه قبة مئمنة تتوسط المبنى مزينة بفتحات زجاجية متعددة الألوان وتتدلى من القبة ثرايا، كما تحتوي غرف هذا المبنى على مدافع من الرخام الأبيض تتواجد في الطابق العلوي بالإضافة الى الرخام الأسود وتتواجد في الطابق الأرضي.

الجانان الداخلية فقد كسيت جلهما بالبلاطات الخزفية على ارتفاع متر، أما الأبواب فهي من الخشب الأحمر وقد زخرفت بزخارف هندسية (الصورة رقم 3)

الصورة رقم 3: تموقع عناصر المبنى.



المصدر: عن المهندس المعماري حسين خيرالدين وبتصرف.

3-4: تدخلات الصيانة والترميم على العناصر المعمارية:

تم اختيار مجموعة من الأعمدة الرخامية والمدافع لبلدية الأبيار. تضم هذه المجموعة 12 عمود من الرخام الأبيض له نفس الشكل والوظيفة تتواجد في الطابق الأرضي، بالإضافة إلى مدافع تنوعت بين الرخام الأبيض والأسود تواجدت في بعض غرف الطابق الأرضي و الطابق العلوي.

تتكون الاعمدة من ثلاثة عناصر ، تاج وبدن وقاعدة، تاجه جاء بالطراز المركب بين الأيوني والكورنثي، يحيط صف من أوراق الأكتس بكامل التاج تعلوها أربع لفائف أو قرون أيونية ينطلق كل منها من مركز التاج متجها نحو أحد زواياه الأربعة، وبين كل قرنين هلال صغير متجه نحو الأعلى مرتكزة على صفوف صغير، وبدن مقسم الى جزئين جزء ملولب من الأعلى ومثمن من الأسفل، وقاعدة مكونة من جزئين جزء مربع والآخر مثمن الأوجه .

المدافئ عبارة عن واجهة مربعة مصنوعة من الرخام الأسود أو الابيض، وواجهتها مزينة بمربعات خزفية بها غرفة اشعال النار للتدفئة وهي مصنوعة من البرونز، وبها من الحديد، كانت في القديم تستعمل كمدفأة ثم أزيلت مدخنتها لتصبح ذات وظيفة تزيينية فقط .

- التشخيص الأولي:

اقتصرت عمليات التشخيص على عمليات التفتيش بالعين المجردة حسب الإمكانيات المتاحة للمتدخلين على العناصر المعمارية المراد التدخل عليها، فتمثلت أهم مظاهر التلف في وجود أساخ على شكل غبار على السطح كما يوجد ما نفذ منها داخل المسامات مما تسبب في تشوه مظهرها، ببقع صفراء، ثقوب صغيرة وخدوش لكنه مزال محافظا على ملمسه الناعم، وكذلك تصبغ بعض التيجان نتيجة سقوط الطلاء، هذا ما أدى إلى تشوه اللون الأصلي، انفصال بعض الأجزاء الرخامية من إحدى المدافئ، ويمكن التوضيح أكثر في هذه المظاهر حيث:

- الخدوش و الثقوب (الصورة رقم 4)، وهي الثغور والخروقات بسيطة أو متعددة ميليمترية أو سنتيمترية يمكن أن ينسب للحشرات أو عوامل بيئية أو باستعمال أدوات حادة من طرف الإنسان وقد تكون أكثر عمقا واتساعا (عيساوي، 2009، صفحة 95).

الصورة رقم 4: توضيح الثقوب والخدوش وإصفرار اللون.



المصدر: عن الباحثين.

- التغير اللوني وهو عبارة عن تغير في لون الرخام يكون على السطح أو في العمق، كأن يصبح الرخام الأبيض بني أو يبهة لونه الأصلي (عيساوي، 2009، صفحة 96).

- التبقع: عبارة عن تطلحات تشوه أعمدة الرخام بعدة ألوان (الصورة رقم 5)، قد يكون مصدرها طبيعي أو صناعي (عيساوي، 2009، صفحة 96).

الصورة رقم 5: التصبغات والبقع والأتساخات



المصدر: عن الباحثين.

-الانفصال هو انفصال حسب اتجاه موجود مسبقا، ويؤدي إلى تفكك بعض طبقات الصفائح و يؤثر خاصة على أنواع الصخور المتحولة كالرخام، وينتج بفعل التقلبات الجوية و مدة التعرض للحرارة و البرودة (سليم، 2017، صفحة 92).
(الصورة رقم 6)

الصورة رقم 6: توضع الأجزاء المفقودة والأتساخات



المصدر: عن الباحثين.

- التنظيف:

تعتبر عملية التنظيف للمظاهر السطحية ضرورية في عمليات التدخل، وبالنسبة للعملية المعتمدة من طرف المتخلين تم الاعتماد على التنظيف الميكانيكي حسب الحاجة والإمكانات. حيث يعمل هذا الأخير على إزالة الرواسب دون التأثير على الأثر نفسه حيث لا يضيف أي مواد متلفة، حيث تزال الأتساخات والرواسب السطحية بواسطة أدوات

مختلفة كالأزاميل و تعتبر الفرش الناعمة من أحسن الأدوات استعمالا لإزالة الغبار و التراكومات البيولوجية (Bromblet, 2010, p. 8).

بالنسبة للعمليات المعتمدة في تنظيف العناصر المعمارية في البلدية كانت بالتنظيف اليدوي الجاف بنزع طبقة الاتساخات العالقة على السطح، بواسطة اسفنجة، أما نزع طبقة الاتساخ باستعمال جهاز التفريز(الصورة رقم 7)، حيث تم الاعتماد على فرشتين مختلفتين فالأماكن المسطحة الخالية من الزخارف كجزء من البدن والقاعدة يستعمل فيها فرشاة دائرية، أما التاج المزخرف وباقي العمود الملولب فاستعملت فرشاة أخرى.

الصورة رقم 7: توضيح أهم عمليات التنظيف المعتمدة.





المصدر: عن الباحثين.

- التقوية والتدعيم (طبقة حماية):

تم التدعيم من خلال سد الثغرات و تشبيح سطح الرخام بالشمع، بتحضير طبقة الحماية في إناء به ماء ووضع فوق فرن كهربائي ليغلي، ثم القيام بفرك الشمع الإصطناعي (7شمعات) جيدا الى قطع صغيرة جدا، وتقطيع صفيحة شمع النحل (3 صفائح) الى قطع صغيرة جدا، وبعدها إحظار إناء آخر ويوضع فيه الشمع الإصطناعي المفروك وتركه في إناء الماء المغلي، ليذوب بحرارة الماء، ثن تم انتظار ذوبان الشمع الإصطناعي ثم يضاف اليه شمع النحل، فيترك المكونين ليذوبا حتى يندمجا مع بعضهما البعض، وبعدها القيام بصب كمية معينة من مذيب سبرينت الأبيض white spirit (¼ من حجم السائل)، مع التحريك بنفس الوقت ليندمج مع بعضه البعض ثم يترك لمدة 5 دقائق فوق الفرن ثم يترك ليبرد 12 ساعة تقريبا قبل استعماله (الصورة رقم 8).

الصورة رقم 8: عمليات تحضير المادة المعتمدة للتقوية وللتدعيم وللحماية.





المصدر: عن الباحثين.

تم وضع طبقة الحماية المتمثلة في منتج الشمع على سطح الرخام وتوزيعها على كل السطح بواسطة المجفف، لإيصال الشمع الى كل نقاط السطح حتى ذاب الشمع وتوغل للأسفل، يترك فترة من الزمن حتى تجف مادة الشمع بالكامل (الصورة رقم 9).

الصورة رقم 9: عملية تطبيق منتج الشمع.



المصدر: عن الباحثين.

بعدها تم تغليف كل من الأعمدة و المدافع بفيلم بلاستيكي فترة من الزمن حتى تجف مادة الشمع بالكامل وإنهاء أعمال التدخل ليتم نزعه ليبقى الرخام محافظ على بريقه (الصورة رقم 10).

الصورة رقم 10: تغليف العمود بفيلم بلاستيكي.



المصدر: عن الباحثين.

4-5: نقد التدخلات:

- الإيجابيات:

تتمثل إيجابيات التدخلات في التعريف بالتراث الموريسكي الجديد، بتوضيح أهم عناصره من خلال المحافظة عليها في بلدية الأبيار، واستعادة اللون و اللمعان الطبيعي للعناصر الرخامية (الصورة رقم 11) بعد نزع المظاهر المختلفة التي سببتها عوامل التلف الطبيعية البيئية والبشرية وغيرها...، وفي الأخير تم تزويد العناصر بطبقة حماية تزيد منامكانية المحافظة على العناصر هذه ريثما يتم التوسع أكثر في إيجاد حلول أنجع من السابقة، وبهذا يكون قد تم المحافظة على جزء من أجزاء الفن الموريسكي عامة والفن الموريسكي الجديد خاصة.

الصورة رقم 11: توضيح تغير صورة المدافئ بعد عمليات التدخل والحماية.



المصدر: عن الباحثين.

- السلبيات:

- احتوت التدخلات السابقة التي كانت قبل هذه الأخيرة على جملة من السلبيات التي يمكن تلخيصها في ما يلي: -
- مكتب الدراسات التي خولت له مهمة صيانة وترميم المبنى غير مختص في ترميم التراث، و لم يستعين بمرممين إلا فيما يتعلق في العناصر الرخامية.
- تغيير تبليط الأرض ببلاط عصري لايتماشى مع تاريخ المبنى (أرضية الطابق السفلي و السلالم، بينما لاتزال أرضية الطابق العلوي محافظة على التليط الأصلي).
- تغيير اللون الأصلي للابواب الخشبية حيث تم دهنها باللون الأصفر الملفت للنظر.

6: الاستنتاجات والتوصيات:

- يعتبر الفن الموريسكي الجديد إمتداد للفن الموريسكي في الأندلس والذي تم إضافة عناصر معمارية وفنية من طرف المستعمر الفرنسي في مدن الجزائر من أجل تحسين الصورة التي أتت إليها لبلد الجزائر...
- تعتبر بلدية الأبيار بالعاصمة الجزائرية مرآة عاكسة للفن الموريسكي الجديد الذي تم تجسيد العديد من العناصر المعمارية والفنية الزخرفية الموريسكية الجديدة وكانت موزعة على العديد من العناصر كالأعمدة الرخامية، الزليج، المدافئ...، سواء بإضاءة أجزاء أو تحويلات صغيرة أو تغييرات جذرية.
- ساهمت تدخلات الصيانة والترميم على عناصر معمارية وفنية في بلدية الأبيار والتي تعود للفن الموريسكي الجديد في إعطاء نفسا جديدا لهذا الفن، حيث شملت على كل من التشخيص الأولي والتنظيف وكذا التدعيم والتقوية والحماية، حيث أتضحت صورة هذا الفن المجسد على هذه العناصر من خلال إزالة عوامل التلف ومظاهرها المختلفة، وتم التنظيف وإزالة البقع والخدوش وكذا طبقات الأملاح العالقة على السطح مع توضيح الألوان، وتثبيت طبقة حماية على أسطح العناصر الرخامية، وكل هذا يصب في خانة المحافظة على التراث العريق
- حيث يساهم بطريقة مباشرة في إطالة عمر الفن الموريسكي الجديد خاصة والفن عامة، وعليه نوصي ب:
- إسناد مشاريع الترميم إلى المتخصصين في صيانة و ترميم التراث.
- الصيانة القائية والدورية للأعمدة والمدافئ باستعمال الوسائل والمواد المناسبة كالتنظيف والتدعيم.
- استعمال مواد قابلة للاسترجاع بفعالية دائمة ومستمرة لتفادي تكرار التدخل على الأثر وتعرضه لتلف أكثر.
- استحداث طرق وأساليب جديدة ومناسبة كتقنية الليزر.
- توثيق التدخلات والترميمات السابقة التي أجريت على بلدية الأبيار.
- توعية المواطنين بضرورة المحافظة والإهتمام بالتراث الموريسكي الجديد كجزء لا يتجزأ من التراث.

7- قائمة المراجع:

1-7: المراجع باللغة العربية:

1. (أ) سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954. دار الغرب الإسلامي.
2. (ب) عيساوي. (2009). طرق و صيانة مواد بناء الموقع الأثري جميلة كويكول-حالة الحجارة الكلسية.- رسالة ماجستير. معهد الآثار، الجزائر: جامعة الجزائر 2.

3. (س) مظهر. (2008). الطراز الموريسكي في مدينة الجزائر في بداية القرن العشرين، النموذج: دار جريدة لاديبيش الجزائرية، دراسة وصفية وتحليلية. رسالة الماجستير في الآثار الإسلامية . الجزائر، معهد الآثار- جامعة الجزائر 2، الجزائر: جامعة الجزائر 2.
4. (ص-أ) الهنسي. عمارة المغرب و الاندلس في العصر الإسلامي. جامعة عين شمس.
5. (ع) نعيم. (4 3, 2018). الباحث "لعبش أحمد كريم" يستعرض الجانب التراثي لمدينة صوحي العاصمة. الجزائر، الجزائر.
6. (ق) سليم. (1 1, 2017). دراسة تشخيصية لمظاهر التلف و طرق صيانة الأعمدة الرخامية قصر أحمد باي، قسنطينة، الجزائر. مجلة أفق للعلوم ، الصفحات 89-97.
7. (م) برديكو. (2002). الحفظ في علم الآثار والطرق والأساليب العلمية لحفظ و ترميم المقتنيات الأثرية. القاهرة: المعهد العلمي للآثار.
8. (م) مكي. (1999). تاريخ الأندلس السياسي 92هـ-897هـ/711م-1492م. لبنان.
9. (ن) رزقي. (2015). الزخرفة الجصية في عمائر المغرب الأوسط و الأندلس (القرن 7-8/13-14م)-دراسة تحليلية مقارنة. رسالة لنيل شهادة دكتوراه علوم تخصص علم الآثار و المحيط . الجزائر، معهد الآثار-جامعة الجزائر 2، الجزائر: جامعة الجزائر.
10. (ن) سعيدوني. (1 7, 1993). الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر. حوليات جامعة الجزائر 1 ، الصفحات 107-129.
11. المجلس الشعبي للدائرة الحضارية الأبيار. (1999). أبواب مفتوحة على الأبيار. أبواب مفتوحة على الأبيار . الجزائر العاصمة، الجزائر: المجلس الشعبي للدائرة الحضارية الأبيار.

2-7: المراجع باللغة الأجنبية:

1. algeria7، 2023، 1 20. (2015، 2 25). algeria7.blogspot.com: <https://algeria7.blogspot.com/2015/02/>
2. amokrane, (. (2016). mutations urbaines et architecturales du centre ville(noyau colonial) d'Ain Beidaétat des lieux et prespectives futures. master en architecture . Biskra, université Mohamed Khider, Biskra-algérie: université de Biskra.
3. babzman. (2020، 10 8). Consulté le 1 20، 2023، sur babzman.com: <https://babzman.com/extrait-revue-babzman-el-biar-la-commune-des-puits/amp/>
4. Boulbene-Mouadji, (-F. (2016). Le style néo mauresque en Algérie Fondements-Portée-Réception. mmoire présenté pour l'obtention du diplôme de magister en architecture . université Aboubakr Belkaïd, Tlemcen: université Aboubakr Belkaïd.
5. googleearth، 2023، 1 20. (2023، 1 20). googleearth.com: www.googleearth.com

6. (Ph) Bromblet .(2010 ,3 24) .<http://pierre.fr>, 2010Guide Technique de conservation de la pierre,1 20 .
2023pierre.fr: <http://www.pierre.fr>
7. wikipedia .2023 ,1 20 .(2020) .wikipedia.org: https://fr.m.wikipedia.org/wiki/El_Biar

موقف العلماء المغاربة من المحنة الأندلسية

فتوى العالم أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي أنموذجا

The position of Moroccan scholars of the Andalusian ordeal The fatwa of the scholar

Abu al-Abbas Ahmad bin Yahya al-Wansharisi as a model

ط.د. جيلالي زورقي وردة/جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف / الجزائر

Djilali zourguiwarda/ University Hassiba Benbouali- Chlef/ Algeria

ملخص الدراسة:

بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة 1492، عاش الأندلسيون مأساة حقيقية، وأصبحت بلاد الأندلس مسرحا لحرب صليبية مدمرة بين الأسبان و المسلمين، ولم تتوقف عند إبادة المسلمين و تشريدهم ، واضطهادهم بل سعت إلى التفتن في سن قوانين همجية لا تخطر على بال ، بالإضافة إلى مراقبة تحركاتهم وعدم السماح لهم بالتنقل ، وقد تعرض مسلمو الأندلس إلى كثير من أنواع التعذيب و التضيق، مما أدى إلى نزوح و فرار الكثير من الأندلسيين إلى مدن المغرب الإسلامي ، بينما تردد بعض من الأندلسيين في مسألة الهجرة أو البقاء في الأندلس ، فعرضوا أمرهم على علماء و فقهاء المغرب قصد إيجاد حلول لمحتهم وتخفيف من معاناتهم وكون لهم دعما نفسيا في غياب الدعم السياسي من طرف الدول المغربية، ومن الفقهاء الذين أجابوا هؤلاء ونظروا في حالتهم نذكر العالم أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي .

يعتبر الفقيه النوازلي الونشريسي من أبرز الفقهاء الذين تصدروا الفتوى في النوازل، ومن الفقهاء القلائل الذين حفظت لنا المصادر التاريخية فتاوى لهم تخص قضية الأندلسيين خاصة بحكم معاصرتهم لسقوط الأندلس، و يرجع ذلك لشخصيته القوية و شجاعته حيث كان الفقيه شديد الشكيمة في دين ومن هنا نطرح الإشكالية التالية : كيف كان موقف الفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي من المسألة الأندلسية ؟ .

الكلمات المفتاحية:

الونشريسي ، الأندلسيين ، فتوى ، الهجرة الأندلسية .

Abstract:

After the fall of Granada, the last Muslim stronghold in Andalusia in 1492, the Andalusians experienced a real tragedy, and Andalusia became the scene of a devastating Crusade war between the Spaniards and Muslims, but rather sought to master the laws of barbarism that do not cross the mind, monitoring their movements and not allowing them to move, and the Muslims of Andalusia were subjected to many types of torture and harassment, which led to the displacement and flight of many Andalusians to the cities of the Islamic Maghreb, while some of the Andalusians they hesitation about the issue of emigration or staying in Andalusia, so they presented their matter to the scholars and jurists of Morocco in order to find solutions to their plight, alleviate their suffering, and provide them with psychological support in the absence of political support from Moroccan countries, and among the jurists who answered these and looked their case, we mention the scholar Abu Al-Abbas Ahmed bin Yahya Al-Wansharisi.

Al-Wansharisi is considered one of the most prominent jurists who issued fatwas current controversial issues , and among the few jurists for whom historical sources preserved for us fatwas related to the issue of the Andalusians, especially by virtue of his contemporary with the fall of Andalusia, and this is due to his strong personality and courage, as the

jurist was strict in his religion, and from herewe propose The following problem: What was the position of the jurist Ahmed bin Yahya Al-Wansharisi on the Andalusian issue?

Keywords:

Al-Wansharisi , Andalusians , Fatwa , Andalusian Immigration.

مقدمة:

استقر المسلمون بالأندلس ثمانية قرون منذ أن فتحها طارق بن زياد سنة 92هـ، فأنشأوا فيها حضارة عمرانية لم يشهدها التاريخ، وازدهرت فيها حلقات العلم و المعرفة والثقافة، إلى أن أصبحت الأندلس البوابة الحضارية الأولى لأوروبا في العصر الوسيط، إلا أن المسلمين لم يحافظوا عليها، بسبب ضعفهم الداخلي وصراهم على السلطة، في الوقت الذي تعاظمت فيه قوة النصارى بعد زواج الملك فرديناندو الذي اعتلى عرش أراغون سنة 1479 بالملكة إيزابيلا التي جلست على عرش قشتالة سنة 1474، ثم ما لبثت الوحدة الفعلية بين التاجين حتى قاموا بتوجيه الحملة تلو الأخرى ضد مملكة غرناطة، حتى تمت لهما السيطرة على جميع مدنها. بسقوط آخر معاقل الإسلام بالأندلس غرناطة سنة 1492.

وبمجرد سقوطها بدأت مأساة الأندلسيين الذين ذاقوا الأمرين ومختلف أنواع التعذيب، ولذلك كان العلماء والفقهاء ملاذهم الأمن الذي لجأ إليه الأندلسيون من أجل التخفيف عنهم و مشاورتهم للتمسك بعقيدتهم و دينهم ، ومن أهم العلماء الذين قصدوهم نذكر أحمد ابن يحيى الونشريسي صاحب مصنف " المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب " الذي جمع فيه فتاوى المتقدمين والمعاصرين من علماء المذهب المالكي، وذاع صيته بهذه الموسوعة التي لم تكن المؤلف الوحيد للعلامة الونشريسي ، فقد كان له مجموعة من مؤلفات أخرى في مواضع شتى.

يعتبر الفقيه الونشريسي من أبرز الفقهاء الذين تصدروا الفتوى و من الفقهاء القلائل الذين حفظت لنا المصادر التاريخية فتاوى لهم تهتم بمأساة الأندلسيين. و من هنا نطرح الاشكالية التالية : كيف كان موقف الفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي من المسألة الأندلسية ؟.

وللاجابة على هذه الاشكالية اعتمدنا على المنهج التاريخي التحليلي من خلال التطرق إلى ظروف صدور الفتوى، وإبراز دور الفقيه في محاولة إيجاد الحلول و الوقوف مع المستضعفين من مسلمي الأندلس الذين خذلهم السياسيون ولم يجدوا ملجأ سوى الفقهاء و العلماء لمساعدتهم.

تكمن أهمية الموضوع في أنه يكشف عن أهم الفتاوى التي صدرت بخصوص مأساة الأندلسيين وموقف الأندلسيين من هذه الفتوى، و ما يجدر التنويه إليه هو أن مسألة الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام من أهم القضايا التي شغلت بال فقهاء في تلك الفترة ، مما جعل مسألة هجرة الأندلسيين أعمس على فقهاء في تلك الفترة ، وتعد فتوى الونشريسي زبدة ما وصل إليه الاجتهاد المالكي .

تعريف أحمد الونشريسي :

أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي نسبة إلى جبال الونشريسي بالغرب الجزائري، حيث ولد حوالي 834هـ/1430م، وانتقل في صغره إلى تلمسان وتلقى دراسته بها، فأخذ عن العديد من شيوخها وفي مقدمتهم الشيخ أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني، وولده القاضي أبو سالم إبراهيم، وحفيده القاضي محمد بن أحمد، وعن الشيخ محمد بن أحمد الجلاب، ومحمد بن مرزوق الكفيف، وأحمد بن زكري، ومحمد الميرني ومحمد بن العباس العيادي، ثم انتقل إلى فاس وتابع دراسته بها فاستفاد من العديد من العلماء بها، وفي طليعتهم قاضي مكناس محمد بن أحمد اليفرنى، ومحمد القروي، فعد من العارفين بعلم الحديث والتفسير والتوحيد والمنطق. وتميز خاصة باطلاعه الواسع على مسائل الفقه والقضايا التي تتصل بالنوازل و الفتاوى والاحكام ، التي ألزم نفسه بتدريسها والتأليف فيها(ناصر الدين سعيدوني،1999، ص 277).

عرف أحمد الونشريسي بفصاحة لسانه وبراعة قلمه وتعصبه لما يراه حقا، فلم يجامل الحكام ولم يجارهم فيما يراه ، (ناصر الدين سعيدوني، 1999 ، 277). وفي سنة 874هـ لما بلغ من العمر أربعين سنة، اختلف الونشريسي مع السلطان أبي ثابت محمد المتوكل الزياني صاحب تلمسان حول مواقفه السياسية من السلطة الحاكمة والتزامه بالحق، فغضب عليه السلطان وأمر بنهب داره ومصادرة أمواله، ففر الونشريسي من تلمسان بأهله إلى مدينة فاس، ولما حل الونشريسي بفاس ، لقي حفاوة من فقهاء وعلمائها وإقبال طلبتها عليه، وأقبل الونشريسي في جامع القرويين بفاس على تدريس " المدونة" و " مختصر ابن الحاجب الفرعي" ، ومنذ ذلك اليوم أصبح عالم المذهب المالكي وإمام المالكية ، فبرز في المجال الفقهي المالكي بصفة واضحة حتى وصف بحامل راية الفقه المالكي، وحافظ المذهب في عصره. وقد استحق هذه المكانة بفضل نبوغه العلمي وإمامته بالمسائل الفقهية والأدلة الشرعية.(محمد بوركبة، 2014، ص ص 132-133).

قال عنه الكتاني في سلوة الأنفاس: " كان شديد الشكيمة في دين الله لاتأخذه في الله لومة لائم". شهدت المصادر بمتانة علم الونشريسي وتكوينه، وكان أعجوبة عصره، تقلد رياضة الخطط الثلاث في فاس: القضاء والفتوى والتدريس، وكان من العلماء المجتهدين، وعرف بالرزانة وحسن التدبير.(حنيفة هلايلي،2010، ص 45).

وتخرج علي يد أحمد الونشريسي عدد كبير من الفقهاء والعلماء الذين بلغوا درجات عليا في التدريس والفتيا، في فاس و فكيك وجبال الأطلس و ما وراءها من بلاد السوس الأقصى ، أهمهم :

1- ابنه عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسي، تتلمذ على يد أبيه، وخله على كرسي المدونة بجامع القرويين بفاس، وتولى القضاء، والفتوى، ولقب بشيخ الجماعة، توفي مقتولا سنة 955هـ/1548م(أحمد بابا التمبكتي، 1989، ص 288).

2- أبو عبد الله محمد بن محمد الغرديسي التغلبي القاضي، وابن القاضي، من أسرة اشتهرت بالفتوى والقضاء، وكانت له خزانة ثرية بالتصانيف والكتب التي أفاد منها الونشريسي في كتابه المعيار، وقد لازم أبو عبد الله شيخه الونشريسي إلى أن فرق بينهما الموت حيث توفي أبو عبد الله سنة 897هـ-1491م(ابن مريم الشريف الملبتي المديوني التلمساني، 1907، ص 54).

3- الفقيه أبو زكرياء يحيى بن مخلوف السوسي، كان إماما عالما، واسع المعرفة توفي سنة 927هـ/1520م.

4- ابن عباد فليح اللمطي، لازم الونشريسي طويلا، قرأ عليه عددا من الكتب منها: مختصر ابن الحاجب، توفي سنة 936هـ-1529م.

5- أبو محمد الحسن بن عثمان التاملي الجزولي، درس على الونشريسي حتى عام 908هـ وتوفي عام 932هـ/1525م.

مكانته العلمية ومؤلفاته:

لقد كان الونشريسي عالما مفتيا محيطا بالمذهب المالكي، أصوله وفروعه، لم يقتصر على الإفتاء والتدريس بفاس بل كان يؤلف ويصنف الكتب القيمة، وأغلب هاته الكتب في الفقه، ومن مؤلفاته:

1- الأجوبة، وتعرف بـ " المسائل القلعية"، وهي أزيد من خمسين مسألة سألها الفقيه محمد القلعي، أجاب عنها الونشريسي. (ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، 1907، ص 271).

2- تعليق على مختصر ابن الحاجب الفرعي في ثلاثة أسفار، قال صاحب البستان: وقفت على بعضها. ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، 1907، ص 54).

3- وفيات الونشريسي. (المجذوب الفاسي، 1996، ص 10).

4- المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعني اللائق بأداب الموثق وأحكام الوثائق (ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، 1907، ص 54).

5- الاسئلة والأجوبة، وهي أسئلة بعث بها الونشريسي إلى أستاذه عبد الله القوري بفاس عام 871هـ، وضعها الونشريسي مع أجوبتها في كتاب، وأدرج كثيرا منها في المعيار.

6- أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواج: وضعها في شكل رسالة أجاب فيها الفقيه الغرناطي أبو عبد الله محمد بن قطيبة، وتناولت مسألتين أساسيتين، تتفرع عنهما مسائل ثانوية متعددة، فهي تبحث في حكم بقاء المسلم في بلده الذي غلب عليه الكفار بخاصة، وحكم الإقامة في بلاد الكفار بعامة، وقد أدرج هذه الرسالة في المعيار، ثم أعاد نشرها محققه حسين مؤنس سنة 1996 في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدير (لامية زكري، 2013، ص 67).

7- إضاءة الحلك في الرد على من أفتى بتضمين الراعي المشترك، وهو كتاب صغير طبع بفاس طبعة قديمة في ثمان صفحات، رد فيه الونشريسي على الشيخ عبد الرحمن بن سليمان الحميدي (ت 894هـ)، وطبع للونشريسي كتاب آخر في هذا المعنى تحت عنوان المبدي لخطأ الحميدي،

8- إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، يعرف بالقواعد الفقهية. (فاطمة الزهراء وغلانت، 2019، ص 10-11).

9- ترجمة في التعريف بالفقيه أبي عبد الله المقري، جد صاحب نفخ الطيب أشار إلى هذه الترجمة في نفخ الطيب، أشار إلى هذه الترجمة المقري الحفيد في نفخ الطيب.

- 10- تنبيه الحاذق الندس على خطأ من سَوَّى بين القرويين والأندلس، وهي رسالة كتبها الونشريسي 886هـ وأدرجها في المعيار. " الندس يقصد بيه سريع الفهم .
- 11- تنبيه الطالب الدرّك على توجيه الصلح بين سعد والجباك، وهي رسالة صغيرة كتبها الونشريسي وأدرجها في المعيار.
- 12- الدرر القلائد وغرر والفوائد، وهو تقييدات المقري على ابن الحاجب مع الزيادات مع زيادات الونشريسي. (فاطمة الزهراء وغلانت، 2019، ص 11).
- 13- عدة البروق في تلخيص ما في المذهب من الجموع والفروق وهو من أجمع التأليف في أصول مذهب مالك.
- 14- غنية المعاصر و التالي في شرح فقه وثائق القشتالي.
- 15- فوائد التصوف والحكم والأحكام .
- 16- القصد الواجب في معرفة اصطلاح ابن الحاجب (فاطمة الزهراء وغلانت، 2019، ص 11).
- 17- المعيار المعرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب وهو من أهم الكتب الونشريسي . و ما يجدر الإشارة إليه هو شهرة الونشريسي إرتبطت بكتاب المعيار الذي جمع فيه النوازل الفقهية في شكل أبواب تتصل بتعامل الأفراد وتهم شؤون المجتمع، وقد أثار فيها مسائل ثقافية واجتماعية واقتصادية والتقاليد والسلوك والاجتهاد والمعاملة (حنيفي هلايلي، 2010، ص 46)

ظروف صدور الفتوى

حافظت غرناطة على استقلالها مدة طويلة، دامت قرابة قرنين و نصف إلى أن انتهى حكم النصرين بسبب ضعفهم الداخلي، وصراعهم على السلطة؛ في الوقت الذي تعاظمت فيه قوة النصارى بعد زواج الملك فرديناندو (1452-1516) الذي اعتلى عرش أرغون سنة 1479م بالملكة إيزابيلا التي جلست على عرش قشتالة سنة 1474، وبعد حصار دام سبعة أشهر، سقطت آخر مدينة إسلامية في الأندلس. ووقع ملك غرناطة أبو عبد الله الغرناطي على معاهدة تسليم المدينة بتاريخ 12 محرم 897هـ/الموافق ل 25 نوفمبر 1491م (جمال يحيياوي، 2004، ص 109) مقابل تعهد الملك فرديناندو بحماية ممتلكات المسلمين، وعدم التعرض لأي منهم. احترام دينهم وثقافتهم إلى غير ذلك من بنود المعاهدة (هنري تشارس لي، 1988، ص 41).

ومن ثم فإنه لم تمض سوى سنوات قليلة على سقوط غرناطة، حتى بدأت تظهر أهداف الدولة الاسبانية، والكنيسة الكاثوليكية على حقيقتها. فكان أول الغدر تحويل عدد من المساجد إلى كنائس . ثم نظمت الكنيسة في السنوات الاولى فرقا تبشيرية من رهبان وراهبات لتنصير المسلمين . وكان ظنها أن مهمتها ستكون سهلة؛ خصوصا بعد أن هاجر زعماء المسلمين، وارتد الكثير من كبارهم.

وعندما لم تأتي سياسية الترغيب بما كانت ترجوه الكنيسة من تنصير الأندلسيين، أخذت الدولة تفكر في تغيير سياستها من اللين إلى العنف ، ملغية كل بنود المعاهدة، الواحدة تلو الأخرى (محمد دراج، 2011، ص 42).

وفي هذه الأثناء تابعت الكنيسة سياسة التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ثم صدر قرار بتحويل المساجد إلى كنائس، ومصادرة الكتب الإسلامية والعربية فأحرقت آلاف الكتب العلمية والأدبية والدينية التي تمثل خلاصة جهود ثمانية قرون من الإشعاع العلمي والمدني الذي قدمه المسلمون للبشرية. فكانت هذه الجريمة من أكبر وأسوء جرائم الكنيسة والدولة الإسبانية في حق الحضارة الانسانية. (محمد دراج، 2011، ص ص 44-45).

ثم شرعت محاكم التفتيش في مراقبة ضمائر الناس ومعتقداتهم فكانت تصدر أحكاما بسجن المتهم، ومصادرة أمواله، وتعذيبه بوحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلا. فقد كان التعذيب يتراوح بين الإغراق، والجر، وسحق العظام، وسلخ الجلود، وتمزيق الأطراف...إلى غير ذلك مما لا يخطر على عقل إنسان.

كما كانت أحكام الإعدام حرقا كثيرة. وتتم في مهرجانات عظيمة يتفرج عليها القساوسة ورجال الكنيسة، والأهالي. كما كان يتفرج رعايا روما على النصارى الأوائل الذين كانوا يرمى بهم إلى الأسود الجائعة في حفلات كبيرة. وكثرا ما كان يحضر حفلات الحرق هذه الملك نفسه، وكثير من رجال الدولة. وفي بعض الأحيان كان يحرق المتهمون جماعيا في مواكب الموت. أحيانا تحرق أسر بأكملها من أب وأم وأطفال. وكان الملك فرديناندو من عشاق التفرج على المسلمين وهم يحرقون. (محمد دراج، 2011، ص ص 46-47).

وتحت ضغط الإرهاب النفسي البدني لجأ مسلموا الأندلس إلى التقية يحتمون بها للمحافظة على دينهم، مسترشدين بأراء فقهاء المغرب الذين كانوا ينجدونهم بالفتاوى التي تبين لهم كيفية التعامل مع هذا الوضع الغريب. ومما لا شك فيه أن مسألة الهجرة كانت أعسر على اجتهاد فقهاء ذلك الزمان، وهي مشكلة بقاء جماعات إسلامية منقطعة تماما عن بلاد الإسلام، داخل بلاد نصرانية.

وبين أيدينا نموذج للفتاوى التي كان فقهاء المغرب يزودون بها أهالي الأندلس، هي الفتوى عائدة للشيخ أحمد بن يحيى الونشريسي.

الفتوى الاولي للونشريسي :

فرغ الفقيه أبي العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن علي الونشريسي من رسالته : أسنى المتاجر ، يوم الاحد 14 ذي القعدة سنة 896هـ/1490م، أي وهو في السادسة والخمسين من عمره. وقد أورد الونشريسي هذه الفتوى ضمن مجمع الفتاوى الذي صنفه عام 901هـ/1495م، المسمي بالمعيار المغرب ووردت في باب نوازل الجهاد في الجزء الثاني (أبي العباس أحمد بن يحيى ، 1997، ص ص 4-5).

إن فتوى الونشريسي جاءت إجابة عن سؤال ورد من الفقيه أبو عبد الله ابن قطيبة، هذا الأخير وصفه صاحب المعيار ب " الشيخ، الفقيه المعظم، الخطيب الفاضل، القدوة الصالح..." وبدأ ابن قطيبة سؤاله ب الحمد لله ثم الثناء على الونشريسي وبعدها طرح سؤالاً في نازلة جلت بالمغرب أبطالها قوم من الأندلس هاجروا وتركوا أموالهم وأولادهم وراءهم، وعندما وجدوا الحال غير الحال التي كانوا يريدونها ندموا وذموا دار الإسلام وأهله، وسبوا الذي كان سبب لهم في هذه الهجرة وسبه (أحمد بن يحيى الونشريسي، د س ، ص ص 119-120) ، ومدحوا دار الكفر وأهله والندم على مفارقتها، بل أكثر من ذلك منهم من قال أن الهجرة واجبة إلى أرض الأندلس وليس العكس، وآخر يقول إن جاز صاحب

قشتالة إلى النواحي نسير إليه فنطلب منه أن يردنا إلى هناك يعني دار الكفر ومعاودة الدخول تحت ذمة الكافر (أحمد بن يحيى الونشريسي، ب د س ، ص 120).

ابتدأ الونشريسي فتواه أولاً بالحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين حكم الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام التي هي فريضة إلى قيام الساعة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل والفتنة ، حيث استشهد بالآيات والأحاديث في هذا الموضوع، أقوال الفقهاء، المختلفة من شتى المذاهب الفقهية، ولم يجد الونشريسي أي عذر لكل قادر ومستطيع على الهجرة ماعدا فئة المستضعفين كالمريض و المأسور والمقعد والضعيف جدا، يدخل في حكم المكره المتلفظ بالكفر مع استحضار نيه الإيمان (أحمد الونشريسي، دن، ص ص 121-122). وأنه لو كان قادرا لهاجر مع إخوانه من دار الكفر إلى دار الإسلام، أما القادر فليس له أي عذر وهو ظالم لنفسه، مارق في الدين، منخرط في سلك الملحدين (أحمد الونشريسي، دن، ص 132).

كما كان الونشريسي صارما حينما صرح في حقهم : " ما ذكر عن هؤلاء المهاجرين من قبيح الكلام وسب دار الإسلام وتمني الرجوع إلى دار الشرك والأصنام، وغير تلك الفواحش المنكرة، التي لا تصدر إلا من اللئام، يوجب لهم خزي الدنيا والاخرة وينزلهم أسوأ المنازل... أن يقبض على هؤلاء وأن يرهقهم العقوبة الشديدة والتنكيل المبرح ضربا، سجننا، حتى لا يتعدوا حدود الله، لأن فتنة هؤلاء أشد ضرر من فتنة الجوع والخوف ونهب الأنفس و الأموال " (أحمد الونشريسي، دن، ص 132).

هل كان على الأندلسيين أن يعلنوا تنصرهم ويخفوا إسلامهم؟ فالنص الذي أجاب به عن تساؤلات الأندلسيين، قد جعل الونشريسي يستنتج أن هجرة هؤلاء كانت للدنيا وليست للدين، بينما الهجرة من أرض الكفر إلى دار الاسلام واجب شرعي (حنيفة هلايلي، 2010، ص 107).

لقد انتقد المؤرخ المصري حسين مؤنس هذه الفتوى قائلا: " فهذا الشيخ الذي تصدى لإبداء الرأي في مصير المسلمين المتخلفين في الأندلس ، لم يكلف نفسه، عندما جلس يكتب هذه الفتوى عناء البحث عن أحوال من يفتي فيهم، وتقضي أخبارهم، التعرف على الأسباب التي تضطربهم إلى البقاء في الأندلس وتحول بينهم وبين الهجرة إلى المغرب. ولم يذكر أنهم أولا وقبل كل شيء بشر ضعفاء عسر عليهم مغادرة الأوطان ومعاهد الحياة الطويلة... " (حنيفة هلايلي، 2010، ص 107).

ويضيف حسين مؤنس في موضع آخر : " وقد فاتته (الونشريسي) أن ضعاف الناس أكثر من الأقوياء، وأن العاجزين عن الرحلة والهجرة هم الغالبية العظمى، لقد كان لفتوى الونشريسي وأمثالها أسوأ الأثر على مصير الجماعات الإسلامية الباقية في الأندلس، فقد حكم عليها بالكفر وأنها مقيمة في الجحيم الذي كانت تعانيه " (حنيفة هلايلي، 2010، ص 108).

بالرغم من انتقادات حسين مؤنس للفقهاء واتهامه بقصر النظر في إصدار حكم قاسى على مسلمي الأندلس في مثل هذه الظروف الحرجة، وأنه لم يكن في موقع تقصي الحقائق لإصدار حكم شرعي بخصوص هجرة الأندلسيين، فإن بلاد الأندلس بعد سقوط غرناطة وصدور قرارات التعميد الاجباري أصبحت أرض كفر وحرب، وأصبح من الصعوبة بمكان على المسلمين هناك تأدية شعائر الإسلام بكل حرية (حنيفة هلايلي، 2010، ص 108).

و ما يجدر ملاحظته هو أن حسين مؤنس كان يخلط ما بين ما هو تاريخي وما هو فقهي، فكيف له أن ينتقد عالماً بهذه القسوة والجرأة وهو بعيد عن الأحداث ، وحتى لو سلمنا جدلاً أن الونشريسي أخطأ فليس هو من يستطيع أن يحدد درجة الخطأ بل عالماً مثل الونشريسي أو يفوقه علماً ، كما كان يمكن أن نجد الأعداء لحسين مؤنس لو ناقش الأمر من الجانب التاريخي، لكن أن يناقش أمر فقهي بهذه البساطة وهو لا يعلم الظروف التي أصدرت فيها هذه الفتوى ولا المقصود بها لأنه لا يعلم النيات إلا الله سبحانه وتعالى (تومي طاهر، 2018، ص ص 557-558).

ومن خلال فتوى الونشريسي نستنتج أن الونشريسي فصل في هذه الفتوى أحكام الهجرة ومن تسقط عنهم وأثبت أن الهجرة فرض إلى يوم القيامة ، ومن أسلم بدار الحرب يجب عليه أن يهاجر ويلتحق بدار الإسلام ولا يقيم بين المشركين كي لا تجري عليه أحكامهم (تومي طاهر، 2018، ص 552).

الفتوى الثانية للونشريسي :

صدرت هذه الفتوى بعد سقوط غرناطة سنة 901هـ/1495، وقد جاءت رداً على سؤال آخر طرحه نفس السائل الأول وهو ابن قطيبة في حق رجل أندلسي معروف بالفضل والدين تخلف عن الهجرة مع أهل بلدة ، بقى بالأندلس خدمة لإخوانه المسلمين لدى النصارى (أحمد الونشريسي، دن، ص 137).

وهو يفسر عن حكم بقاءه بالأندلس لأن مصلحة المسلمين هناك تتطلب ذلك، مع العلم أن قدومه قد يلحق بهم ضرراً كبيراً، فهل يرخص له البقاء تحت ملة الكافر؟ (أحمد الونشريسي، دن، ص 137).

كان رفض الونشريسي في هذه المسألة واضحاً من خلال قوله : " لأن مساكنة الكفار من غير أهل الذمة لا تجوز ولا تباح، لما تنتج من الأذناس والأوصار، والمفاسد الدينية و الدنيوية" (حنيفي هلايلي، 2010، ص 108).

كما يشير الونشريسي أن تلك الإقامة إن رخصت لهم، فهي تحول دون كمال الصلاة ، وتعطيل الزكاة ، والصيام، وتحول دون الحج، وتمنع الجهاد، وتعرض صاحبها في الوقوع في مشاهدة المنكرات (أحمد الونشريسي، دن، ص ص 138-139)

ومن خلال هذه النوازل يتضح أن الونشريسي أكد على مبدأ وجوب الهجرة لارتباطها بالعقيدة الإسلامية والحفاظ عليها من الشرك والتضليل والردة بفعل الضغوطات التنكييل المسلط من قبل محاكم التفتيش (حنيفي هلايلي، 2010، ص 109).

عندما ندقق في حكم الهجرة الصادرة عن الونشريسي نصرح بأن دخول بعض المسلمين تحت حكم النصارى أمر لم يعرفه المسلمون إلا في القرن الخامس الهجري بعد استيلاء النرمانين على صقلية ، لذلك لم يتعرض جمهور الفقهاء لمسألة الهجرة من قبيل هذه المشكلة . والواقع أن هذا الإهمال عرفه علماء المشرق والمغرب معاً، ففي أثناء الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية لم يخل الأمر بين حين و حين من أن تقع بعض بلاد الاسلام في أيدي غير المسلمين (حنيفي هلايلي، 2010، ص 109).

إذن ما يمكن ملاحظته أن الفتوى الأولى جاءت تتكلم عن أحوال الأندلسيين بالمغرب الأقصى، أما الفتوى الثانية فقد تكلمت وجوب الهجرة ، حيث يقول الونشريسي أن مبررات البقاء بالأندلس كلها مفقودة ولا يمكن لأحد من

الأندلسيين قادرا عاقلا أن يبقى تحت حكم ملة الكافر، فقد توفرت كل أسباب الهجرة، لأن أركان الإسلام والإيمان كلها معطلة من طرف المسيحين، والمسلمون يتعرضون لكل أنواع الأذى والتعذيب والتنكيل لذلك وجبت الهجرة، ومنه فإن الفتوى الثانية متممة ومكملة للفتوى الأولى، فكلاهما تعطي حلولا للهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أي من إسبانيا إلى بلاد المغرب (طاهر تومي، 2018، ص ص 552-553).

الخاتمة

على ضوء ما تقدم نستنتج

- أن الونشريسي أكد من خلال فتواه على مبدأ وجوب الهجرة لإرتباطها بالعقيدة الاسلامية والحفاظ عليها من الشرك بسبب الضغوطات الممارسة على الأندلسيين من قبل محاكم التفتيش.
- من خلال الفتوى التي اصدها الونشريسي، كانت نابعا ذلك من غيرته على الاسلام و حبه للأندلسيين، لهذا كانت متشددا على وجوب الهجرة للقادر فرار بدينه، حتي يحافظوا على عقيدتهم ودينهم ليفوزوا في الدنيا، وينالوا مرضاة الله يوم القيامة.
- ما يجدر الاشارة إليه هو أن دخول المسلمين تحت حكم النصارى أمر لم يعرفه المسلمين من قبل هذا ما جعل هذه القضية أعسر على اجتهاد فقهاء في تلك الفترة.
- من خلال الفتوى نلاحظ مدى اهتمام الفقهاء بمأساة الأندلسيين، إذ لم يقتصر دورهم على الحياة العلمية والاجتماعية فقط بل حتى في المحن التي كانت تصيب الأمة الاسلامية، فقد لعبوا دورا مهما في تخفيف آلام و معانات الأندلسيين وتحسيسهم أنهم ليسوا وحدهم وعملوا على تشجيعهم.
- يجب الفصل و تفريق بين موقف الفقهاء و بين موقف المؤرخين، وعدم الخلط بينهما، لكل واحد منهما له رأيه و موقفه حسب الأدلة و البراهين المتوفرة و حسب الزمان و المكان، لان نظرة العالم تختلف عن نظرة المؤرخ.

قائمة المصادر والمراجع :

- 1- ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، (1907)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر، مطبعة الثعالبية.
- 2- أحمد بن يحيى الونشريسي، (د.ن)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والاندلس والمغرب، تح: محمد حجي، ج2، بيروت، دار الغرب الاسلامي.
- 3- أحمد بن يحيى الونشريسي، (1997)، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، تح: حسن مؤنس، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
- 4- المجذوب الفاسي، (1996)، موسوعة أعلام المغرب، ج1، ط1، تونس، دار الغرب الإسلامي.

- 5- جمال يحيياوي، (2004)، سقوط غرناطة ومأساة الأندلس 1492-1610، الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع.
- 6- هنري تشارس لي، (1988)، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، تر: حسن سعيد الكرمي، ط1، لبنان، دار لبنان للطباعة والنشر.
- 7- محمد دراج، (2012)، الدخول العثماني الى الجزائر ودور الاخوة بربروس (1512-1543)، ط1، الجزائر، شركة الاصاله للنشر والتوزيع.
- 8- حنيفي هلايلي، (2010)، أبحاث ودراسات في التاريخ الاندلسي الموريسكي، الجزائر، دار الهدى.
- 9- ناصر الدين سعيدوني، (1999)، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الاسلامي " تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"، ط1، بيروت، دار الغرب الاسلامي.
- 10- أحمد بابا التمبكتي، (1989)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الاسلامية.
- 11- حنيفي هلايلي، (2010)، حكم هجرة الاندلس إلى المغرب العربي من خلال فتاوى الونشريسي، الحوار المتوسطي، جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس، (2)، 38-52.
- 12- تومي الطاهر، (2018)، موقف العلماء المغاربة من المحنة الاندلسية - مقارنة بين فتاوى الونشريسي وأبو جمعة المغراوي، مجلة الدراسات الاسلامية، جامعة الاغواط، (11)، 545-563.
- 13- فاطمة الزهراء وغلانت، (2016)، جهود الونشريسي في تدوين النوازل الفقهية، المنهل، جامعة باتنة، (3)، 28-07.
- 14- محمد بوركبة، (2014)، الحياة الاجتماعية من خلال: " المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب" للشيخ أحمد الونشريسي"، مجلة الحضارة الاسلامية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، (5)، 131-144.
- 15- لامية زكري، (2013)، من أعلام تلمسان أبو العباس أحمد الونشريسي 834هـ-914هـ/1430م-1508م: سيرة ومسيرة، عصور الجديدة، وهران 01 أحمد بن بلة، (10)، 61-73.

فهرس المحتويات

الصفحة	عنوان المداخلة	الباحث
10	محاكم التفتيش و إبادة المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة (897هـ/1492م)	أ.د. بلعربي خالد
27	الموريسكية أبعادها التاريخية والإنسانية في كتب الرحلات من خلال رحلة أفوقاي (مختصر الشهاب إلى لقاء الأحاب).	د. ترشاق سعاد
47	التراث الأندلسي الموريسكي ضمن اهتمامات مخبر البحث بالجامعات الجزائرية _ مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الأندلسية أنموذجا _	د. هشام بن سنوسي
60	موقف أحمد الونشريسي من المأساة الأندلسية الموريسكية	د. تومي طاهر د. شودار مبارك
72	إسهامات المؤرخ حنفي هلايلي في دعم الدراسات التاريخية في الجامعة الجزائرية حول تاريخ الموريسكيين ودورهم السياسي و الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الجزائر (2000-2019)	د. أمال معوشي
84	الدور الحضاري للموريسكيين في الجزائر العثمانية	د. محمد عطية أ.د. عبد القادر صحراوي
96	البحرية الجزائرية ودورها في إنقاذ مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام 1492 م	د. بن رحال يمينة
105	موقف الفقيه أبو العباس أحمد الونشريسي من سقوط الأندلس من خلال كتابه " أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصرى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر".	د. هشام بن سالم أ.د. السلي زويبر
116	السلوك الحضاري للموريسكيين في تونس خلال ق 17 م و 18 م الأصول و الانتماء.	د. كمال مايدي د. معمر جعيرن
131	الموروث الحضاري الأندلسي في الجزائر- اللباس والطعام أنموذجا-	د. شدري معمر رشيدة
146	تأثير فتوى الونشريسي في هجرة الموريسكيين	د. خير الدين شرقي د. أسماء صوكو
154	نكبة مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة من خلال كتابي "تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة" و "رحلة أفوقاي الأندلسي": دراسة مقارنة.	ط. درغدة بوجيت د. مريامة لعناني
179	البصمة الأندلسية في حدائق وبساتين مدينة الجزائر من القرن (8-12هـ/14-18م) من خلال المخطوط الأندلسي المغربي " حديث بياض ورياض "	د. وهيبة خليل
210	الأثر الثقافي للجالية الأندلسية بالجزائر خلال العهد العثماني	ط.د. زروقي مصطفى

222	موقف فقهاء الجزائر من المحنة الموريسكية - فتوى أبو جمعة المغراوي أنموذجا -	د. سحابات زهيرة
229	إسهامات الأندلسيين في تطور الإرث الثقافي في الجزائر أواخر القرن 15 وبداية ق16 م (التعليم نموذجا)	د. سميحة دري د. رحيمة قليل
240	موقف الفقهاء من مصير الموريسكيين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م.	د. بلعباس محفوظي د. عواطف دودي
248	الدور السياسي للموريسكيين في المغرب العربي (الجزائر-تونس-المغرب) خلال الفترة الحديثة.	د. جمال عطابي د. رزيق علي
257	إهتمامات المؤرخين العرب بالقضية الموريسكية الأندلسية "عبد الجليل التميمي" أنموذجا	ط.د. بوخالفة محمد شهاب الدين
276	التأثير الحضاري للموريسكيين في الجزائر خلال العهد العثماني (1830/1519) (العلوم و الفنون أنموذجا)	ط. د. بن مسعود يعي أ.د. بن حاج ميلود
285	الهجرات الأندلسية وتأثيرها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م.	د. امحمد يزير
295	الإرث التاريخي والثقافي والحضاري للموريسكيين في الوطن العربي: المغرب الأقصى نموذجا.	ط.د. حكيم بلشير
323	أدب الموريسكيين: خليط الاضطهاد والرغبة في الحفاظ على الهوية.	د. سميرة مراح أ. سعاد مسعودة سايعي
334	التراث المادي واللامادي للمجتمع الأندلسي في الجزائر خلال العهد العثماني	د. شارف مارية د. مهدي لبني
341	الإرث الموريسكي في الجزائر -العادات والتقاليد أنموذجا -	د. سعديّة بن حامد ط.د. علي دش
352	ملامح التأثير الأندلسي (الموريسكي) لمدن ساحل الجزائري في الفترة الحديثة والمعاصرة " شرشال والبليدة " نموذجا.	ط.د. بركة محمد د. الطاهر أبرير
366	مأساة الموريسكيين بعد سقوط غرناطة	د. جميل عائشة د. زينب رزيوي
382	الدعم العثماني لثورة الموريسكيين 1568م	د. نور الدين مسعودي د. حسين شنيينة
391	التأثير الأندلسي على اللباس الحضري بالجزائر خلال العهد العثماني	د. رمزي فرشيحي د. أمينة عبيد
401	المؤرخ عبد الجليل التميمي واهتماماته البحثية بالقضية الموريسكية	ط.د. سعدون بخاخ

التراث الأندلسي الموريسكي في الوطن العربي

د.محمد محمدي	إسهامات الموريسكين الحضارية والاقتصادية بالجزائر خلال العصر الحديث 1492-1830م "الصناعات والحرف أنموذجا"	412
ط.د. سعيد فرج	إسهامات فئة الموريسكين في الواقع الجزائري بعد سقوط غرناطة 1492م	421
ط.د. شرافة أمينة	التعريف بالفن الموريسكي الجديد من خلال بعض أعمال الصيانة والترميم -بلدية الأبيار بالجزائر كعينة للدراسة-	434
د.رزيق عبد الرحمان	موقف العلماء المغاربة من المحنة الأندلسية	449
ط.د. جيلالي زورقي وردة	فتوى العالم أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي أنموذجا	





المركز الديمقراطي العربي
للدراستات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arab Center
for Strategic, Political & Economic Studies

المؤتمر الدولي العلمي:

التراث الأندلسي الموريسكي في الوطن العربي

Andalusian-Marisk heritage in the Arab world

أ.عمار شرعان، رئيس المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا

التنسيق والنشر: د.حنان طرشان

رقم تسجيل الكتاب

VR.3383-6775. B

آذار/مارس 2023